أحمد زكي صفوت

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

ثالث

مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

الجزء الثالث

الشطر الأول من رسائل

العصر العباسي الأول

وهو يحوى رسائل العباسيين من أول خلافة السفاح إلى آخر خلافة المأمون

تأليف

أحمد زكي صفوت

أستاذ اللغة العربية بدار العلوم

الطبعة الاولى

١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م / رقم ٦٩٨

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحمودُ اللهُ جلَّت قدرته ، وعمَّت آلاؤه ، والمصلَّى والمسلَّم عليه سيدنا ومولانا محمد ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه البررة الطاهرين .

وبعد : فقد كنت مُزْمِعا أنْ أُصدِر الجزء الثالث من « جمهرة رسائل العرب » حاويا رسائلَ العصر العباسى الأول جميعها ، بَيْدَ أنى — بعد مباشرة الطبع — رأيتها من الكثرة والوفرة بحيث يضيق عنها جزء واحد ، فلم تكن لى مندوحة من أن أقسمها فى جزأين ، يحوى أولهما الشَّطر الأول منها ، وثانيهما الشطر الثانى ، وعلى الرغم من ذلك اضطُرِرت أن أقتطع من سلسلتها الطويلة أربع حَلَقات :

(١) رسالتى الأدب الكبير والأدب الصغير ، لابن المقفع .

(٢) طائفة من رسائل الجاحظ .

(٣) طائفة من الرسائل الشعرية ، لبعض الأُدباء .

(٤) رسائل قليلة وردت فى كتابِ « اختيار المنظوم والمنثور » غيرَ معزوَّة إلى ذويها .

وإنما حدا بى إلى انتقاص تلك الحلقات مارأيته من أن ضمها إلى كتابى يُفْضِى إلى إصدار جزء ثالث فى رسائل هذا العصر ، لا يقل فى ضخامته عن أخويه ، وفى ذلك ما فيـــه من انفهاق أمر الطبع على « الناشر » وإثقال كاهله بفادح النفقات ، على أن الاطلاع عليها ميسور لمن شاء .

فالحلقتان الأوليان مطبوعتان منشورتان ، طبع المرحوم أحمد زكى باشا « الأدب الصغير » سنة ١٣٢٩ هـ ــ ١٩١١ م ، و « الأدب الكبير » سنة ١٣٣٠ هـ ــ ١٩١٢ م بمصر ، وأوردهما الأستاذ محمد كُرد على بك فى كتابه « رسائل البلغاء » وقد طبع طبعة أولى سنة ١٣٢٦ هـ ــ ١٩٠٨ م ، وثانية سنة ١٣٣١ هـ ــ ١٩١٣ م بمصر ، غير أنه ورد فيه الأدب الكبير معنونا بعنوان « الدرة اليتيمة » وهو خطأ ، لأن الدرة اليتيمة لا تزال مجهولة مفقودة.

وطبع المرحوم الحاج محمد الساسى التونسى « مجموعة رسائل للجاحظ » بمصر سنة ١٣٢٤ هـ ، وعدتها إحدى عشرة رسالة ، وقد طُرِّز هامش كتاب « الكامل » للمبرد طبع مصر سنة ١٣٢٣ هـ بكتاب « الفصول المختارة من كتب الجاحظ » اختيار الإمام عبيد الله بن حسان ، ويحوى ثمانى عشرة رسالة ـ منها تسع من المجموعة الآنفة الذكر ـ وطبع الأستاذ يُوشَع فِنْكَل « ثلاث رسائل للجاحظ » بمصر سنة ١٣٤٤ هـ ـ وقد ورد نحو نصف الرسالة الأولى منها فى كتاب الفصول المختارة .

وقد أوردت من الحلقة الثالثة ما اتسع له المقام ، وتقرأ سائرها فى كتب الأدب ، وبخاصَّةٍ كتابُ «الأغانى» فقد ورد فيه طائفة منها فى خلال تراجم كاتبيها .

وأما الحلقة الرابعة ، فقد أغفلتها لِمَا قدّمتُ ، ولأنه لا يُدْرَى : أأموية هى أم عباسية ؟ لعدم نسبتها إلى أصحابها ، وإن كنت أرجح كل الترجيح أنها عباسية . ودونك كتابَ « اختيار المنظوم والمنثور » فاقرأها فيه .

وقد نوّهت فى مقدمة الجزء الثانى بهذا الكتاب ، وأعود هنا فأقول : إن ذلك الكتاب ـ على نفاسته وانفراده بما لم يحوه سواه من الرسائل ـ لقد عبِثت به يد التحريف ، فشوّهتْه كلّ مشوّه ، حتى بدا كالغادة الحسناء فى خَلَق الرِّداء ، وقد أرهقنى تحقيق ما نقلت منه ، وأمضَّنى ردّه إلى نِصابه ، وعانيتُ فى ذلك السبيل من العناء وكَدّ الذهن واعتصاره ما يَفُل به الجَلْد الصبور ، ونال منى الجهد كلّ منال ، حتى لقد خفت أن يعود على صحتى بالأثر السيئ ، إذ طالما تحبّستُ على تحقيقه ساعاتٍ متتالية ، مُكبّا على حلّ معمّياته ، وفكّ طلاسمه ، حتى أكاد أسقط إعياء وفتورا ، وكنت إذا ماحَزَبنى الأمر واشتدت بى الحَيْرةُ ، وضاق بى المَخْرجُ ، أنهض فأصلّى لله عز وجل ركعتين ، مستلهِماً إياه الصوابَ ، مبتهِلا إليه أن يَهدينى سواء السبيل ، ثم أُجيل الفكر ثانيـةً ، فلا أعتِّم أن ينفتح لى باب المُغْلَق ، وينجاب ظلام المُبْهَم ، وتَضِحَ لى الحقيقة سافرةً ناصعةً ، وتلك نعمة جُلَّى من المولى القدير علىّ ، أعُدّها آيةً على رضاه عنى ، فله ـ تبارك وتعالى ـ أجلُّ الحمـــدِ وأسناه ، وأجزلُ الشكر وأوفاه .

ولست أدّعى أنى فيما حققتُ من الرسائل قـد بلغت ذروة الكمال ـ فالكمال لله وحده ـ ولكنى أستطيع أن أجهرَ بأنى قد وُفّقت فى صنيعى هذا ـ ولله الحمد والمنّة ـ إلى حدّ أغبِط عليه نفسى ، وأن ضميرى جِدُّ مستريح

إلى ما بذلته من جهد فى تعبيد طُرُقها ، وتصفية رَنَقِها ، فإن يحمَد القراء صنيعى فذاك ما أصبو إليه ، وإن تكن الأخرى فقد أعذرتُ أمام نفسى ، وأدّيت واجبى غيرَ وانٍ ولا مَلُول .

أمدّنا الله وإيا كم برُوح منه ، وكَلأنا وكلأكم بعين رعايته وتوفيقه ، إنه العلىُّ المنّان ، ذُو الطَّول والإنعام ؟

أحمد زكى صفوت

وحرر بالقاهرة فى { المحرم سنة ١٣٥٧
مارس سنة ١٩٣٨

فهـــرس

مآخـــذ الرسائل فى العصر العباسى الأول

الأغانى	: لأبى الفرج الأصبهانى	: الجزء التاسع ـ الحادى عشر ـ
		: السابع عشر ـ التاسع عشر ـ العشرون
تاريخ الأمم والملوك	: لابن جرير الطبرى	: الجزء التاسع ـ العاشر ـ الحادى عشر ـ
		: الثانى عشر
تاريخ الكامل	: لعز الدين بن الأثير	: الجزء الخامس ـ السادس
صبح الأعشى	: لأبى العباس القلقشندى	: الجزء الأول ـ الثانى ـ السادس ـ
		: السابع ـ التاسع ـ الرابع عشر
تاريخ بغداد	: للخطيب البغدادى	. الجزء الثانى عشر
عيون الأخبار	: لابن قتيبة	: المجلد الأول ـ الثالث
نهاية الأرب	: لشهاب الدين النويرى	. الجزء السابع
الكامل	: للمبرد	: الجزء الأول ـ الثانى
العقد الفريد	: لابن عبد ربه	: الأول ـ الثانى ـ الثالث
زهر الآداب	: لأبى إسحٰق الحُصْرى	: الجزء الأول ـ الثانى ـ الثالث
البيان والتبيين	: للجاحظ	: الثانى ـ الثالث
شرح نهج البلاغة	: لابن أبى الحديد	: المجلد الثانى ـ الثالث
اختيار المنظوم والمنثور	: لابن طيفور	: الجزء الثانى عشر ـ الثالث عشر
كتاب بغداد	: لابن طيفور	: الجزء السادس

معجم الأدباء : لياقوت الحموى : الجزء الأول ـ الثالث ـ الرابع ـ الخامس ـ السادس

معجم البلدان : لياقوت الحموى : الجزء الثانى ـ الخامس

وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول ـ الثانى

الأمالى : لأبى على القالى : « الأول ـ الثانى

الإمامة والسياسة لابن قتيبة : « الثانى

مروج الذهب : للمسعودى : « «

أمالى السيد المرتضى : « الأول

كتاب الأوراق : لأبى بكر الصولى : « الأول ـ الثانى

أدب الكتاب : « « « :

فتوح البلدان : للبلاذرى :

المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين بن الأثير

كتاب الوزراء والكتاب : لابن عبدوس الجهشيارى

سرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصرى

الفهرست : لابن النديم

غرر الخصائص الواضحة ، وعرر النقائص الفاضحة : للوطواط

الفخرى : لابن طباطبا

خاص الخاص للثعالبى

رسالة للجاحظ فى بنى أمية [رسالة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ١٨٥٥ أدب]

مقدمة ابن خلدون :

مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى البغدادى :

الأدب الكبير : لابن المقفع :

كتاب الصناعتين : لأبى هلال العسكرى :

كتاب البخلاء : للجاحظ :

المواهب الفتحية : للشيخ حمزة فتح الله : الجزء الثانى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح :

رسائل البلغاء : لمحمد كرد على بك:

فهـــــرس الرسائل

الباب الرابع

الرسائل فى العصر العباسى الأول

فهرس أعلام الكتاب

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كلّ كاتب بأرقام الصفحات التى وردت فيها رسائله

فهـــرس

بعض ما ورد فى الهامش من الفوائد التى قد يحتاج القارئ إلى مراجعتها

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٤	١٠	تكرُهه	تكرَهه
٣٢	١٦	يتحاموَن	يتحاموْن
٨٠	١٤	معِتبَته	معْتَبَته
٨٨	٧	تحذف كلمة «على» من أول السطر لأنها مكررة	
١٢٣	١٦	لذى	الذى
١٢٤	١٨	فلم	فلم
١٢٦	٧	برجمته	برحمته
١٣٣	٣	اتهَمْنا	اتَّهَمْنا
١٤٩	٧	استنزعاه	استرعاه
١٦٠	١٥	أمبر	أمير
٢١٦	٩	وحدينا	وحديثاً
٢٢٧	١	ينْسَلَ	ينْسَلُ
٢٣١	٤	أعزلَه	أعزلُه
٢٣١	١٣	أمَضيه	أُمَضيه
٢٣٤	١٧	وهرْنَة	وهرْثَمة
٢٣٤	١٨	المؤمنين	المؤمنين
٢٣٥	١٥	أمور	أُمور
٢٣٦	٣	والرِّقيق	والرَّقيق

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٣٩	٩	اجتعمت	اجتمعت
٢٣٩	١٠	وعبد	ولعبد
٢٤٢	١٢	تحذف كلمة « ذكراه »	
٢٤٣	٩	معرفتَه	معرفتُه
٢٤٣	٩	إلى الغِيَرَ	إلى الغِيَرِ
٢٤٨	١٠	اغتتم	اغتنم
٢٥١	٤	فَرّغ	فَرَغ .
٢٥٨	٨	الوْي	الوحْي
٢٥٨	١١	تكونا	تكونوا
٢٧٧	١٧	والثثين	والثنتين
٢٨٣	٧	نَفَرتَ .	نَفَرتِ
٢٨٤	١٨	تَقَبَله	تَقَبْله
٢٨٦	١٧	أفئدة	أفئدتُهم
٢٨٧	١٢	منكمُ	منكمْ
٢٨٨	١١	وسغَتِ	وسَفَتِ
٢٨٨	١٩	وخصال	وخصالا
٢٩٠	١٥	بذكر .	يذكر
٢٩٣	٦	يبننا	نبيّنا
٢٩٥	٦	تُنْكِر	تنكروا

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٠٠	٣	يَزَّكَى	يَزَّكَّى
٣٠٠	٤	جاءك	جاءكَ
٣١٠	١٠	فارن	فاران
٣٣٣	١٠	والعَيْنَ	والعَيْنِ
٣٤٣	٢	سا ها	ساءها
٣٦٨	١٦	بين	بن
٤٠٣	١٦	وبحوابك	وبجوابك
٤٠٦	٨	فَاحْكُمَ	فَاحْكُمْ
٤١٨	١١	لَتَبلغه	لِتَبلغه
٤١٩	٢	والأُثْرَةَ	والأُثْرَةِ
٤٣٦	٣	القُرَبة	القُرْبة
٤٣٦	١٣	ودْرك	وَدَرْك
٤٢٨	١٣	الا ربى	الغربى
٤٣٨	٦	الآفا ُ	الآفاتُ

الباب الرابع

الرسائل

في

العصر العباسي الأول

١ — كتاب أبي العباس السفاح إلى الحسن بن قحطبة

دخل أبو مُسْلِم الخُراسانى[1] زعيم الدَّعْوة العباسية مدينة مَرْو قاعدة خُراسان سنة ١٣٠ هـ ، ثم وجَّه قَحْطَبة بن شَبِيب الطائىَّ أحد دُعاة بنى العباس فى جيش من الخراسانيين لقتال جيوش الأمويين ، فواتاه النصرُ عليهم[2] ، حتى بلغ العراق ، وكان يزيد بن عُمَر بن هُبَيْرَة والياً عليه من قبل

(١) قدمنا فى الجزء الثانى ص ٥٥٨ كلمة فى أبى مسلم فارجع إليها .

(٢) لما دخل أبو مسلم مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار أمير خراسان ، وقدم فى هذه السنة قحطبة بن شبيب على أبى مسلم خراسان منصرفا من عند إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبدالله ابن عباس ومعه لواؤه الذى عقد له إبراهيم ، فوجهه أبو مسلم حين قدم عليه على مقدمته ، وضم إليه الجيوش ، وجعل له العزل والاستعمال ، وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة له ، وتعبأ قحطبة لقتال تميم ابن نصر بن سيار ، ثم زحف إليه فاقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل تميم فى المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة

مروان بن محمد الأموى ، بَيْدَ أن قحطبة غرِق فى الفُرات ، وهو يخوضه إلى أبن هبيرة ، فولَّى أصحابه عليهم أبنه الحسنَ بن قَحطبة ، وحملوا على أبن هبيرة وهزموا عسكره ، فَلَحِقَ بمدينة وَاسِط[1] وتحصَّن بها .

فلما تمت البيعة لأبى العباس السَّفَّاح سنة ١٣٢ هـ ، وجَّه أخاه أبا جعفر المنصور إلى واسط لقتال أبن هبيرة ، وكتب إلى الحسن بن قحطبة :

« إن العسكر عسكرك ، والقوّاد قوادك ، ولكن أحببتُ أن يكون أخى حاضراً ، فاسمع له وأطِعْ ، وَأَحْسِن مُوَازَرَته ومُكَانَفَته[2] » .

فكان الحسنُ المدبِّرَ لذلك العسكر بأمر المنصور .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٧ ، والامامة والسياسة ٢ : ١٠٤)

٢ — كتاب أبى جعفر المنصور لابن هبيرة بالأمان

وحصر أبو جعفر المنصور أبن هُبيرة شُهوراً ، ثم جرت السُّفَرَاء بينهما بالصلح حتى جعل له أبو جعفر أمانا ، وكتب له به كتابا مكث أبن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوما حتى رَضِيه ، وأنفذه إلى أبى جَعفر ، فأنفذه أبو جعفر إلى أبى العباس ، فأمر بإمضائه[3] ، وهُوَ :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن على أبى جعفر وَلِىِّ أمر المسلمين ، لِيزيد بن هُبَيرة ومن معه من أهل الشام

واستبيح عسكره ، ثم سار قحطبة إلى نباتة بن حنظلة عامل جرجان من قبل ابن هبيرة أمير العراق ، فقتل نباتة ومزق جيشه ، وبعث برأسه ورأس ابنه حية إلى أبى مسلم — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٠٤ ، ١٠٦ .

(١) مدينة بالعراق اختطها الحجاج سنة ٨٣ بين البصرة والكوفة .

(٢) كانفه : وازره وعاونه . (٣) انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٤

والعراق وغيرهم فى مدينة واسِط وأرضِها من المسلمين والمعاهَدين ، ومن معهم من وزرائهم .

إنى أمَّنْتكم بأمانِ ٱللّٰه الذى لا إله إلا هو ، الذى يعلم سرائر العباد ، وَيَعْلَم ماتُخْفِى الصدورُ ، وإليه الأمرُ كلُّه ، أمَانًا صادقا لايَشُوبه غِشٌ ، ولا يخالِطُه باطِلٌ ، على أنفسِكم وذَرَارِيِّكم وأموالكم ، وأعطيتُ يزيدَ ابن عمر بن هبيرة ، ومَن أمَّنتُه فى أعلى كتابى هذا ، الوفاء بما جعلتُ لهم من عهدِ ٱللّٰه وميثاقِه ٱلذى وَاثَقَ به الأمم الماضيةَ مِنْ خَلْقه ، وأخذ عليهم به أمره ، عهدا خالصا ، وذمَّةِ ٱللّٰه وذمة محمد ، ومن مضى من خلفائه الصالحين ، وأسلافه الطيِّبين ، التى لايَسَعُ العبادَ نَقْضُهَا ، ولا تعطيلُ شىء منها ، ولا الاحتقارُ لها ، وبها قامت السمٰواتُ والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ منها ، تعظيما لها ، وبها حُقِنَت الدِّماء ، وذمَّةِ رُوحِ ٱللّٰه وَكَلِمَتِهِ عيسى بن مريم ، وذمة إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسبَاطِ ، وأعطيتك ما جعلت لك من هذه العهود والمواثيق ولمن معك من المسلمين ، وأهل الذمة ، بعد استئمارى فيما جعلتُ لك منه عبدَ ٱللّٰهِ ابنَ محمد(١) أمير المؤمنين ، أعزَّ ٱللّٰه نصرَه ، وَأمَرَ بإنفاذه لكم ، فاطمئِنَّ إلى ما جعلتُ لك من الأمان والعُهودِ والمواثيق ، وثِقْ باللّٰه وبأمير المؤمنين فيما سَلَّم منه وَرَضِىَ به ، وجعلتُه لك ، ولمن معك على نفسى ، ولك علىَّ الوفاء بهذه العهود والمواثيق والذِّمَم أشَدَّ مَا أَخَذَ ٱللّٰهُ وَحَرَّمَهُ وما أنزل ٱللّٰه تبارك وتعالى على نبيه محمد صلى ٱللّٰه عليه وسلم ، فإنه جعله كتابا مُبينا لا يأتيه

---

(١) يعنى أبا العباس السفاح .

الباطِلُ من بين يديه ولا من خَلْفه ، ونُورًا وَحُجَّةً على العباد ، حتى أَلْقَ اُللّهَ وأنا عليه ، وأنا أُشْهِدُ اُللّهَ وملائكته وَرُسُلَه ، وَمَنْ قُرِئَ عليه كتابى هذا من المسلمين والمعاهَدين بقَبول هذه العهود والمواثيق ، وإقرارى بها على نفسى ، وتوكيدى فيها ، وعلى تسليمى لك ما سألتَ ، لا يغادَر منها شيء ، ولا يُنْكَث عليك فيها ، وأدخلتُ فى أمانك هذا جميعَ مَنْ قِبَلى من شِيعة أمير المؤمنين من أهل خُراسان ، ومَنْ لأَمير المؤمنين عليه طاعةٌ من أهل الشام والحرب وأهل الذِّمة ، وجعلتُ لك أَنْ لا تَرَى منى انقباضا ولا مُجَانَبَة ولا ازْوِرَارًا[1] ولا شيئاً تَكْرَهُه فى دخُولك علىَّ إلى مفارقتك إياى ، ولا ينالُ أحداً معك أمرٌ يَكْرَهه ، وَأَذِنْتُ لك ولهم فى المَسِير والمُقام ، وجعلتُ لهم أمانا صحيحا ، وعهدا وثيقا ، وأن عبد اُللّه بن محمد[2] إنْ تَقَضَ ما جعل لكم فى أمانكم هذا ، فنكَثَ أو غَدَر بكم ، أوخالف إلى أمرٍ تكرُهه ، أو تابَعَ على خِلافه أحدا من المخلوقين فى سِرٍّ أو عَلانية ، أوأضمر لك فى نفسه غيرَ ما أظهرَ لك ، أو أدخل عليك شيئاً فى أمانه ، وما ذكر لك من تسليم أمير المؤمنين ، التماسَ الخديعةِ والمكْرِ بك ، وإدخالَ المكروه عليك ، أو نَوَى غير ما جَعَلَ لك من الوفاء لك به ، فلا قَبِلَ الله مِنه صَرْفا ولا عَدْلا[3] ، وهو برىء من محمد بن على، وهو يخلع أمير المؤمنين ، ويتبرَّأ من طاعته ، وعليه ثلاثون حِجَّةً[4] يمشيها من موضعه الذى هو به من مدينة

---

(١) أى انحرافا . (٢) يعنى نفسه.

(٣) الصرف : التوبة ، والعدل : الفدية — انظره بتوسع فى الجزء الأول ص ٢٨ .

(٤) قال صاحب القاموس : والحجة (بالكسر) المرة الواحدة ، شاذ ، لأن القياس الفتح .

واسِطِ إلى بيت الله الحرام الذى بمكة حافياً راجلا ، وكلّ مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حِجّة(١) بشراء أو هِبة أحرارٌ لوجه الله ، وكل امرأةٍ له طالق ثلاثا ، وكل ما يملكه من ذَهَبٍ أو فِضّةٍ أو متاعٍ أو دابة أو غير ذلك فهو صدقة على المساكين ، وهو يكفُر بالله وبكتابه المنزّل على نبيه ، واللهُ عليه فيما وَكدَ وجَعَلَ على نفسه فى هذه الأَيْمان رَاعٍ وكفيلٌ ، وكفى بالله شهيدا».

(الإمامة والسياسة ٢ : ١٠٥)

٣ — كتب بين أبى مسلم وأبى العباس وأبى جعفر

وكان رَأيُ أبى جعفر الوفاءَ لابن هُبَيرة بما أعطاه ، وكان أبو العباس لا يَقْطَع أمرا دون أبى مسلم ، وكان أبو الجَهْم بن عطية عَيْناً لأبى مسلم على أبى العباس ، فكتب إليه بأخباره كلها ، فكتب أبو مسلم إلى أبى العباس :

« إنه قَلّ طريقٌ سَهلٌ يُلْقَى فيه حجارة إلاّ ضَرّ ذلك بأهله ،(٢) لا والله لا يَصْلُح طريقٌ فيه ابن هبيرة » .

فكتب أبو العباس إلى أبى جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة ، وألحّ عليه فى ذلك ، وأبو جعفر يراجعه حتى كتب إليه أبو العباس: «وَالله لتقْتُلَنّه أو لأبعثنّ إليك من يخرجه من عندك ثم يتولى قتله» فقتله أبو جعفر ، وكان ذلك سنة ١٣٢ هـ . (تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٤، والإمامة والسياسة ٢ :١٠٧)

وجاء فى ترجمة ابن هبيرة فى وَفَيات الأعيان : فيقال إنه كان يكاتب

---

(١) الحجة : السنة .

(٢) وفى الطبرى « إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد ... » .

عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، ويدعو إليهم وإلى خلع السفاح ، وجاءه كتاب أبي مسلم الخراسانى يحثه على قتل ابن هبيرة ، فكتب السفاح إلى المنصور يأمره بقتله ، فقال : لا أفعلُ وله فى عُنُقى بَيْعة وأيمان ، فلا أُضَيِّعهما بقول أبي مسلم . فكتب إليه السفاح : « إنى لا أقتله بقول أبى مسلم ، بل بِنَكْثه وغَدْرِه ودسيسته إلى آل أبى طالب ، وقد أبيح لنا دمه » فلم يُجبه المنصور ، وقال : هذا فساد المُلْك ، فكتب إليه السفاح : « لستَ منى ولستُ منك إن لم تقتله » .

(وفيات الأعيان ٢ : ٢٨٠)

٤ — كتاب صالح بن علي إلى أبي العباس السفاح

وكان عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس — عم السفاح — قد سار فى جمع عظيم لِلِقاء مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، فالتقيا بالزّاب[1] من أرض المَوْصِل ، فهَزم مروان وفرّ هاربا حتى أتى الشأم ، وكتب أبو العباس إلى عبد الله بن على يأمره باتّباعه ، فلَحِق مروانُ بمصر ، فأَتْبَعه عبد الله أخاه صالح بن على ومعه عامر بن إسمعيل الحارثىّ ، فأدركوه ببُوصِير[2] وقتلوه وقتلوا كل من كان معه من أهله وبطانته .

وبعث صالح بن على برأسه إلى أمير المؤمنين أبى العباس وكتب إليه :

---

(١) الزاب الأسفل والزاب الأعلى : نهران يصبان فى نهر دجلة من شاطئه الأيسر .

(٢) هى بوصير الأشمونين : قرية بصعيد مصر .

« إنا اتَّبعْنا عدوَّ الله الجَعْدىّ[1] ، حتى ألجأناه إلى أرض عدوِّ الله شبيهِه فِرْعَوْن ، فقتلته بأرضه » . (تاريخ الطبرى ٩ : ١٣٦)

٥ — كتاب أبى العباس السفاح إلى عامر بن إسمعيل

ودخل عامر بن إسمعيل بعد أن قتل مروان ببوصير ، واحتوى على عسكره ، إلى الكنيسة التى كان فيها بناته ونساؤه ، فقعد على فراشه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مَرْوان الكبرى ـ وتُعرَف بأمّ مروان ـ يا عامر ، إن دهراً أنزلَ مروانَ عن فُرُشه حتى أقعدك عليها تأكلُ من طعامه ، ليلةَ قتْله ، محتويا على أمره ، حاكما فى مُلكه وحَرَمه وأهلِه ، لقَادِرٌ أن يغيِّر ذلك ، فأُنهى[2] هذا الكلام إلى أبى العباس السفّاح ، فاستهْجن مافعله عامر ابن إسماعيل ، وكتب إليه :

« أمَا كان لك فى أدَب الله مايزجُرُك أن تقعُدَ فى مثل تلك الساعة على مِهاد مَرْوان وتأكل من طعامه ! أمَا والله لولا أن أميرالمؤمنين أنزلَ ما فعلته على غير اعتقادٍ منك ، ولا نَهَمٍ على طعام ، لَمَسَّك من غضبه ، وأليم أَدَبه ، ما يكون لك زاجرا ، ولِغَيرك واعظا ، فاذا أتاك كتاب أمير المؤمنين ، فتقرّبْ إلى الله بصَدَقةٍ تُطفِئُ بها غَضَبه ، وصلاةٍ تُظهِر فيها الخشوعَ والاستكانة[3] له ، وصُمْ ثلاثة أيام ، وتُبْ إلى الله من جميع ما يُسْخِطه ويُغْضِبه ، ومرْ جميع

---

(١) كان مروان بن محمد يلقب بالجعدى نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم مولى بنى الحكم .

(٢) أنهى الشىء : أبلغه . (٣) الاستكانة : الخضوع .

أصحابك أن يصوموا مثل صيامك »[1] . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢٠٥

٦ — كتاب سليمان بن على إلى أبى العباس

قال صاحب العقد الفريد :

وكَانَ أشد الناس على بنى أُمَيَّة عبد الله بن على ، وأَحَنَّهم عليهم سليمان ابن على ، وهو الذى كان يسميه أبو مسلم « كَنَفَ الأمان » وكَانَ يُجير كل من استجاربه ، وكتب إلى أبى العباس :

« يا أمير المؤمنين ، إنا لم نحاربْ بنى أمية على أرحامهم ، وإنما حارَبْناهم على عُقُوقهم ، وقد دَفَّتْ إلىَّ منهم دَافَّةٌ[2] لم يَشْهَروا سلاحًا ، ولم يُكْثِرُوا جَمْعا ، فأُحِبُّ أن تكتب لهم منشور أمان » .

فكتب لهم منشور أمان وأنفذه إليهم ، فمات سليمان بن على وعنده بِضْعٌ وثمانون حُرْمةً لبنى أمية . (العقد الفريد ٢ : ٣٠٢)

---

(١) وبمناسبة هذا الخبر أقول : روى المبرد فى الكامل — ج ٢ : ص ٢٤٠ — قال : « دخل شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم على عبد الله بن على ، وقد أجلس ثمانين رجلا من بنى أمية على سمط الطعام فمثل بين يديه فقال :

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بنى العباس الأبيات ....

(يغريه ببنى أمية ويذكره بما كان منهم من قتل الحسين وزيد بن على وحمزة بن عبد المطلب وإبراهيم الإمام) فأمر بهم عبد الله فشدخوا بالعمد ، وبسطت عليهم البسط وجلس عليها ودعا بالطعام ، وإنه ليسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً » اهـ وروى ابن طباطبا هذا الحادث فى الفخرى ص ١٣٤ ، غير أنه ذكر أن ذلك كان فى مجلس أبى العباس السفاح ، وأن السفاح هذا الذى فعل بهم ما ذكر ، فتأمل.

(٢) الدافة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت علينا من بنى فلان دافة : أى أتوا .

٧ — كتاب يوسف بن القاسم عن عبد الله ابن على إلى أبى العباس

وكتب يوسف[١] بن القاسم بن صُبَيْح عن عبد الله بن على إلى أبى العباس السفاح يعزيه عن ابن له تُوُفِّىَ .

«أما بعدُ ، فإن أحقَّ الناس بالرضا والتسليم لأمر الله جل وعزّ، مَن كان إماما لِخَلْق الله ، وخليفةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتعزَّ أميرَ المؤمنين بنهمك ، وارجع فى وعد الله جل وعز من الصابرين إلى علمك » .

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٤٧)

٨ — كتاب يوسف بن القاسم إلى عبد الله بن على

وقال يوسف بن القاسم : كنت مع عبد الله بن على ، وكان يَبَرُّنى كثيراً ، ويوجِّه بِرَّه مبتدِئاً فى رأس كل شهر ، فغَفَل عنى شهرين فكتبت إليه :

ما لِبِرِّ الأمير قَصَّرَ عــنى بعد أَنْ لم أكن أرَى تقصيرا ؟
إن يكن ناسِياً فعندىَ إِذْ كا رٌ له دائما عَتِيدا كثيرا[٢]
أو يَكُنْ عن إضاقة فلَه العُــذْ رُ متى شاء أن يُرَى معذورا[٣]

(١) هو والد أحمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون ، وكان يوسف مع خاله بشر بن سليمان على ديوان الكوفة أيام بنى أمية ، ثم كتب لعبد الله بن على فى أول الدولة العباسية بعد أن كان أبوه القاسم يكتب له — انظر خبره فى كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٤٦ .

(٢) العتيد : الحاضر المهيأ . (٣) أضاق : ذهب ماله .

لِأَرَى خادما بإِنفاقِ وَفرِى ... وأَرَى ماله له موفورا
إنَّ بِرَّ الأمير عندى (وإن كا ... ن يراه لديه نَزْرًا يســـيرا)
لَـكثيرٌ عندى، ولم يكُ عَهْدِى ... أَنْ أَرَى الرزقَ عنده محظورا

٩ — رد عبد الله بن على عليه

فوقع فى رقعتى :

« لم يكن تأخير بُرِّنا عنك لبُخل وضَنٍّ ، ولا إهمال وتناسٍ ، لـكنها غفلةٌ مِنْ مُوجِبٍ لحقك عارفٍ ، شغَله عنك ما يقسِّم قلبه ، مُتَّـكِلا على معرفتك به ، وبَسْطِ عذرك له ، على أنى ظننت أنَّما كنت عليه أوّلا قد زال فيما بيننا وبينك ، إذ كنا قد أحللناك على مَحَلِّ الشريك ، وخلَطْنَاك بأنْفُسِنا خَلْطَ النسيب ، لتُنفق من نفقتنا ، وتَقْرِنُ أمرك بأمرنا ، وقد أمرت لك بألَفَىْ درهم ، رزقك لشهرين ، فاقبِضْهما ، ولا تنتظرنَّ لى أمراً بعدها فى مثلهما عند وجوبهما ، وأمرتُ لك بألفى درهم تُصْلِح بها حالك ، وقد أطلقتُ بعد هذا يدك فى المـال ، لتأخذ منه كفايتك ، وفضلاً يكون عُدَّة لك لِمَا لايُؤمَن من عَثَرات الدهور ، وحوادث الأمور ، فإنك لم تَصْحَبنا إلا بقلب واثق ، ووُدٍّ صادق ، وإنا لَنحبّ أن يبِين عليك لنا أثر محمود تغتبط به وتُغْبَط عليه ، فاعْمَلْ على ذلك إن شاء اللّٰه » . (كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٤٧)

١٠ — كتب بين أبى مسلم وأبى العباس وأبى جعفر

ولم يزل أبو مُسْلم مقيما بخُراسان ، حتى كتب إلى أبى العباس يستأذنه فى القدوم عليه للحج (سنة ١٣٦ هـ) — وإنما أراد أن يصلّى بالناس — فأذِن له ، وكتب إليه أنِ : « اقْدَمْ فى خمسِمائةٍ مِنَ الْجُنْدِ » . فكتب إليه أبو مسلم : « إنِّى قد وَتَرْتُ الناسَ ، ولستُ آمَنُ على نفسى » . فكتب إليه أبُو العباس أنْ : « أقْبِلْ فى ألف ؛ فإنما أنت فى سلطان أهلك ودولتك ، وطريقُ مكة لا يحتمل العسكر » .

وكتَبَ أبو العباس إلى أبى جعفر — وهو على الجزيرة وأَرمِينية وأَذْرَبِيجان — : « إن أبا مسلم كتَبَ إلىّ يستأذن فى الحج ، وقد أذِنْتُ له ، وقد ظننتُ أنه إذا قَدِمَ يُريد أن يسألنى أن أُولِّيَه إقامةَ الحج للناس ، فاكتُبْ إلىّ تستأذنى فى الحج ، فإنك إذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدّمك » . فكتب أبُو جعفر إلى أبى العباس يستأذنه فى الحج ، فأذِن له فوافَى الأَنْبَارَ .

وشَخَصَ أبو مسلم فى ثمانية آلاف فرَّقهم فيما بين نَيْسَابُور والرَّى ، وقَدِم بالأموال والخزائن فخلَّفها بالرَّىِّ ، وشَخَص منها فى ألف ، وأقبل إلى أبى العباس فأعْظَمَه وأكرمه ، ثم استأذن أبا العباس فى الحج فأَذِن له ، وقال : لولا أن أبا جعفر حاجٌّ لوليتُكَ الموسِمَ .

وقد قال أبو مسلم : أمَا وجد أبو جعفر عاما يَحُجُّ فيه غير هذا ! واضطغنها عليه . (تاريخ الطبرى ٩ : ١٥٣ ، ١٥٩)

١١ — كتاب لعمارة بن حمزة عن أبي العباس في وفاة داود بن علي

ومن أبي العباس في وفاة داود⁽¹⁾ بن عليّ عمّه ، لعُمارة[2] بن حمزة :

« فإن داود بن عليّ كان في قرابته بأمير المؤمنين بحيثُ قد علمتَ ، مع طاعته وسُنَّته[3] وبِرِّه بأهل بيته ، فقبَضه اللهُ في طاعة أمير المؤمنين ومناصحته ، فلم يَكْرَه أميرُ المؤمنين — مع عِزَّة داود كانت عليه ، ومنزلته في أهل بيته — الذي أظهر له من قضاء الله عزّ وجل فيه ، رضاً بقضاء الله عليه ، ورغبةً في ثوابه ، فرَحِمَهُ اللهُ وغفر له ، فقد كان مكانُه مكانَ أُنْس ، فليكن الذي ظهر لأمير المؤمنين من محبة الله في أقضيته عليه ، أحبَّ إلى أمير المؤمنين أن يُعظِّم له الأجرَ ، ويُحْسِن عليه الخلافةَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٨)

---

(١) ولاه السفاح الكوفة وسوادها ، ثم عزله عنها وولاه المدينة ومكة واليمن واليمامة . ومات بالمدينة في شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ — انظر تاريخ الطبري ٩ : ١٤٧

(٢) هو عمارة بن حمزة مولى السفاح ، ثم مولى أبي جعفر المنصور وكاتبه ، وكان فصيحاً بليغا ، وكان أعور دميما تائها معجبا ، وكان المنصور والمهدي بعده يقدمانه ويحتملان أخلاقه ، لفضله وبلاغته وكفايته ووجوب حقه ، وولى لهما أعمالا كبارا ، (ومن ذلك أن ولاه المنصور سنة ١٥٦ كور دجلة والأهواز وفارس ، وكان سنة ١٥٨ على ديوان خراج البصرة وأرضها) وله رسائل من جملتها رسالة الخميس التي كانت تقرأ لبني العباس (وسيأتي الكلام عنها في شرح رسالة الخميس لأحمد بن يوسف) — انظر أخباره في الفهرست لابن النديم ص ١٧١ ومعجم الأدباء ٦ : ٣ (طبع مطبعة هندية) وكتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٩٣ وتاريخ الطبري ٩ : ٢٨٨ ، ٣٢٦ .

(٣) السنة : الطريقة المحمودة المستقيمة ، وفي الأصل « وسنه » .

١٢ — كتاب أبى مسلم إلى أبى جعفر

وروى أن أبا جعفر حرَّض أبا العباس على قتل أبى مسلم حين قَدِم عليه ، وما زال به حتى وافقه على قتله ، ثم عَدَل عن إنفاذه[1] .

قال ابن قُتَيْبَة فى الإمامة والسياسة :

وذكروا أن أبا مسلم لما رجع من عند أبى العباس ، وقد قيل له بالعراق : إن القوم أرادوك[2] لولا ما توقَّعوا ممن معك من أهل خراسان ، فلما كان فى بعض الطريق كتب إلى أبى جعفر :

«أما بعد ، فإنى كنت اتخذتُ أخاك[3] إماما ودليلا على ما افترض اللّٰه على خَلْقه . وكان فى مَحَلّه من العلم وقَرابته من رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بحيثُ كان ، فقمَعَنِى بالفِتْنة ، واستجهلَنى بالقرآن ، فحرَّفَه عن مواضعه طَمَعا فى قليل قد نَعاه اللّٰه إلى خَلْقه ، فمثَّلَ الضَّلاَلة فى صورة الهدى ، فكان

---

(١) قال أبو جعفر لأبى العباس : يا أمير المؤمنين ، أطعنى واقتل أبا مسلم ، فوالله إن فى رأسه لغدرة ، فقال : يا أخى قد عرفت بلاءه وما كان منه ، فقال أبو جعفر : يا أمير المؤمنين ، إنما كان بدولتنا ، والله لو بعثت سنورا لقام مقامه وبلغ مابلغ فى هذه الدولة ، فقال له أبو العباس : فكيف نقتله ؟ قال : إذا دخل عليك وحادثته وأقبل عليك ، دخلت فتغفلته فضربته من خلفه ضربة أتيت بها على نفسه ، فقال أبو العباس : فكيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم ؟ قال : يئول ذلك كله إلى ماتريد ، ولو علموا أنه قد قتل تفرقوا وذلوا ، قال: عزمت عليك إلا كففت عن هذا ، قال: أخاف والله إن لم تتغده اليوم أن يتعشاك غدا ، قال : فدونكه فأنت أعلم ، فخرج أبو جعفر من عنده عازما على ذلك ، فلما دخل أبو مسلم على أبى العباس بعث أبو العباس خصياله فقال: اذهب فانظر مايصنع أبو جعفر ، فأتاه فوجده محتبيا بسيفه ، فقال للخصى : أجالس أمير المؤمنين ؟ فقال له : قد تهيأ للجلوس ، ورجع الخصى إلى أبى العباس فأخبره بما رأى منه فرده إلى أبى جعفر وقال له: قل له عزمت عليك أن لا تنفذ الأمر الذى عزمت عليه، فكف أبو جعفر — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٥٣ والإمامة والسياسة ٢ : ١٠٩ .

(٢) أى أرادوا قتلك . (٣) يعنى أخاه إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وقد قدمنا لك خبره فى الجزء الثانى ص ٥٥٧ .

كالذى ضَلَّ بغروره ، حتى وَتَرْتُ أهل الدين والدنيا فى دينهم ، واستحللْتُ عما كَانَ من ذلك من اللّه النِّقْمةَ ، وركِبْتُ المعصيةَ فى طاعتكم وتوطئةِ سلطانكم ، حتى عرفكم من كَانَ يجهلكم ، وأوطأتُ غيركم العَشْوَاءَ(١) بالظلم والعُدْوَان ، حتّى بلغتُ فى مشيئةِ اللّه ما أحبَّ .

ثم إن اللّه بمَنِّه وكَرَمه أتاح لى الحسنَةَ ، وتداركَنى بالرحمة ، واستنقذَنى بالتوبة(٢) ، فإن يغفِرْ فقديما عُرِف بذلك ، وإن يعاقِبْ فبما قدَّمتْ يداى ، وما اللّه بظلَّامٍ للعبيد » . (الامامة والسياسة ٢ : ١١٠)

١٣ — رد أبى جعفر على أبى مسلم

فكتب إليه أبو جعفر :

« أرُوم ما رُمْتَ ، وأزول حيث زُلْتَ ، ليس لى دونك مَرْمَى ولا عنك مَقْصَر ، الرأىُ ما رأيتَ ، إن كنت أنكرتَ من سيرته شيئا ، فأنت الموفَّق للصواب ، والعالِمُ بالرَّشاد ، أنا من لا يعرِف غير يديك ، ولم يتقَلَّب إلا فى فضلك ، فأنا غير كافِرٍ بنعمتك ، ولا مُنْكِرٍ لإحسانك ، لا تَحْمِلْ علىَّ إِصْرَ(٣) غيرى ، ولا تُلْحِق ماجناه سِواى بى ، إنْ أَمَرْتنى أن أَشْخَصَ إليك وَأَلْحَقَ بخراسان ، فعلتُ ، الأمرُ أمرك ، والسلطانُ سلطانك ، والسلام » .
(الامامة والسياسة ٢ : ١١٠)

---

(١) العشواء : الظلمة . (٢) تهديد بأنه سيكف عن نصرتهم ويرجع عن معونتهم .
(٣) الإصر : الذنب .

١٤ — كتاب من الخليفة إلى ولى العهد(١) لعبد الله بن على

« فإنّ نعم الله على أمير المؤمنين باطنة وظاهرةً متكافئةٌ منزلتاهما ، وإن تفاضَلَتا فى أحوالهما ، وقد شَرِكْتَ فى كل ذلك أميرَ المؤمنين ، وخُصِصْتَ بما تعتَدُّ به منه ، ووَجَبَ عليك الشكرُ لله به ، كوجوبه على أمير المؤمنين ، لجَزَالة قَسْمك من نعمة الله عنده ، وسرورك به كسروره ، وسُكونِك إليه كسكونه ، وأحَبَّ أميرُ المؤمنين لذلك أن يُتابعَ إليك كتبَه بما يعرِّفه الله من نعمه وآلائه ، وإدامتِه له السلامةَ فى بدنه وولده وأهل بيته وشيعته وأنصاره وسائر المسلمين قِبَلَه ، وفى أطرافه وأقاصيه(٢) ، فكتب إليك أمير المؤمنين وهو فى سلامة بدنه وسُبُوغِ(٣) نعم الله عليه فى نفسه وكُلٍّ من قِبَله ، وولايةِ الله إياه بأحسن مارجَا منه ، وأمَّل من فضله ، وانتهت رعيته إليه وما يتناهى إليه ثغوره وأطرافه ، من سلامة أهلها ، واجتماع كلمتهم ، وحسن طاعتهم ، وصلاحِ ذات البَيْن ، على أفضل ما لم يَزَلِ اللهُ يُولِيه ويُبْليه(٤) ، ويَمُنُّ به عليه فى ذلك كله ، وأميرُ المؤمنين يحمَدُ الله على قديم نعمه عنده وحديثها ، وباطِنِها وظاهِرِها ، ويسأله إعانته على التأدية لشكره بها » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٣)

---

(١) يعنى أبا جعفر المنصور ، وكان أبو العباس السفاح قد ولاه سنة ١٣٢ على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية ، فظل أميرا على الجزيرة حتى مات السفاح سنة ١٣٦ — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ .

(٢) فى الأصل « وأوقافه » وهو تحريف . (٣) أى تمامها .

(٤) الابلاء : الإنعام والإحسان . أبلاه الله : أنعم عليه .

١٥ — كتاب صالح بن على فى السلامة

وكتب صالح[1] فى السلامة :

« أصلحَ اللهُ أمير المؤمنين وحفِظَه وأمتعَ به ، وأحسَن جزاءه ، وتولّى له أمرَ آخرته ودنياه ، فإن الله بحمده ونعمته لم يَزَل يُبْلِى أمير المؤمنين ويعرّفه فى كل ما يقضى إليه ، ويعزِمُ له عليه فى أموره : مِنْ حُسْنِ الصُّنع والوِلاية والحِفظ والكِفاية والحِيطة وإسْبَاغِ النعمة ، أفضلَ أملِه وأملِنا له ، وأعظمَ رجائه ورجائنا فى حسن المدافعة عنه ، إلى أن وَصَلَ ذلك من نعمه عنده بما توحَّد به فى وَجْهه وسَفَره : من السلامة ، وسُبُوغ النعمة ، وعمومِ العافية فى نفسه وخاصَّته وعامته ، وأَقْدَمَهُ منزِلَهُ وَمَحَلَّه مُعَافًى مُسَلَّما محفوظا من الله ، إحسانًا منه إليه ، وإفضالا وإنعاما عليه ، واختصاصاً له ، والله يمتّع أميرَ المؤمنين ، ويتمّم له أحسن بلائه عنده وعندنا فيه بمَنّه ولطفِه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٢)

١٦ — كتاب عبد الله بن صالح فى السلامة

وكتب عبد الله بن صالح فى السلامة :

« فإنى من إعظامِ حقِّ أمير المؤمنين ، وشكرِى بلاءه ، والاعتدادِ

---

(١) يعنى صالح بن على بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وقد ولاه السفاح مصر سنة ١٣٢ ثم فلسطين ، ثم ولاه مصر ثانية سنة ١٣٦ ، حتى قدم الخبر بموت السفاح فى ذى الحجة سنة ١٣٦ فأقره المنصور على عمل مصر ، ثم خرج إلى فلسطين ، ومات وهو عامل حمص بقنسرين — انظر النجوم الزاهرة الجزء الأول .

بما يجدِّد الله له من النعم عليه، وعظيم الأمل فيه، والرجاء له، والاستشرافِ[١] إلى علم حاله فى خواصِّه وعوامِّه، عَلَى أفضل ما عليه أحدٌ من أهل بيته وذوى قرابته، لم يزل الله عزّ وجل يعرِّفنى من صِلته وعائدته، ويُحْدِث عندى من كريم فعاله، الذى أصبحتُ ـ يعلَم اللهُ ـ محتملا له بأخلصِ الشكر وأحسنِ الذكر، فَإِنْ رأى أمير المؤمنين أن يأمر لى بالكتاب إلىّ من سلامته بما يبسُطُ به أملى، وتَعْظُم به النعمةُ من الله لدىَّ، ويجب به الشكرُ علىّ، فَعَلَ والسلام». (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٠)

١٧ — بين أبى مسلم وأبى جعفر

وحج أبو جعفر سنة ١٣٦ ﻫ وحج معه أبو مسلم، فلما انقضى المَوسِمُ أقبلا، وأتى أبا جعفر وهو فى الطريق كتاب من عيسى بن موسى[٢] بموت أبى العباس، وكان أبو جعفر قد تقدم أبا مسلم بمَرْحَلَة[٣]، فكتب إلى أبى مسلم: «إنه قد حَدَث أمر فالعَجَلَ العَجَلَ» وأقبلَ حتى لحِقَ أبا جعفر وأقبلا إلى الكوفة.

وقيل إن أبا مسلم كان هو الذى تقدم أبا جعفر فعرَفَ الخبر قبله، فكتب إلى أبى جعفر:

(١) أى والتطلع.

(٢) هو عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، وهو ابن أخى المنصور والسفاح. وكان السفاح قد جعل له الخلافة من بعد أبى جعفر.

(٣) المرحلة: المسافة التى يقطعها المسافر فى نحو يوم.

« بسم الله الرحمن الرحيم : عافاك الله وأمتعَ بك ، إنه أتاني أمر أفظعني ، وبَلَغ مني مَبْلَغا لم يبلغْه شيء قطُّ ، لَقِيني محمد بن الحُصَين بكتاب من عيسى بن موسى إليك بوفاة أبي العباس أمير المؤمنين رَحِمَه الله ، فنسأل الله أن يُعْظِم أجرك ، ويُحْسِن الخلافة عليك ، ويبارك لك فيما أنت فيه ، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك ، وأصْفَى نصيحةً لك وحِرْصا على ما يسرك مني » .

وأنفذ الكتاب إليه ، ثم مكث أبو مسلم يومَه ومن الغد ، ثم بعث إلى أبي جعفر بالبيعة — وإنما أراد ترهيب أبي جعفر بتأخيرها — .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٥٤ ، ١٥٥)

١٨ — كتاب أبي جعفر إلى عبد الله بن علي

وَوَلِيَ أبو جَعفر الخلافة . وكان عمُّه عبد الله بن عليّ بالشأم ، وكان السَّفَّاحُ قد وجَّهه لقتال مَرْوَان بن محمد الأموى ، فطمِع عبد الله في الخلافة ، وخطب الناس فقال : إن السفاح نَدَب بنى العباس لقتال مروان فلم يَنْتَدِب[١] غيرى ، وقد قال لى : إن ظَهَرْتَ عليه ، وكانت الغَلَبَة لك ، فأنت ولىُّ العهد بعدى ، وشهِدَ له جماعة بذلك فبايَعه الناس[٢] .

فلما بلغ المنصور ذلك من فعل عبد الله كتب إليه :

« سأجعل نفسى منك حيثُ جَعَلْتَهَا ... وللدهـــر أيامٌ لهن عواقِبُ »

(مروج الذهب ٢ : ٢٣٤)

---

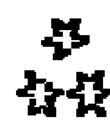
(١) يقال : ندبه للأمر فانتدب له أى دعاه لهفأجاب .
(٢) انظر الخبر فى الفخرى ص ١٥٠ وفى غيره .

١٩ — كتاب الأمان لعبد الله بن على (كتبه ابن المقفع)

ثم بعث المنصور أبا مسلم لقتاله فهزمه ، وهرب عبد الله إلى البصرة ، ونزل على أخويه سليمان وعيسى ابنى على ، فَشَفَعَا فيه إلى المنصور وطلبا له الأمان ، فقبِل شفاعتهما ، واتفقوا أن يكتبوا له أمانا منه ، وكان عبد الله[1] ابن المقفع كاتباً لعيسى بن على ، فكتب ابن المقفع الأمان وشدَّد فيه ، حتى قال فى جملة فصوله : « ومتى غَدَر أمير المؤمنين بعمِّه عبد الله بن على فنساؤه طَوالِقُ ، ودَوابُّه حُبُس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حِلٍّ من بيعته ».

فلما جاء عبد الله إلى المنصور حبسه ومات فى حبسه : فقيل إنه بنى له بيتا ، وجعل فى أساسه ملحا ، ثم أجرى الماء فيه فسقط البيت عليه فمات[2] ، وكان ذلك سنة ١٤٧ هـ .

(وفيات الأعيان ١ : ١٥٠ ، وأمالى السيد المرتضى ١ : ٩٤)



وجاء فى كتاب الوزراء والكتاب :

---

(١) هو أحد فحول الكتاب المعروفين ، فارسىّ الأصل ، نشأ بالبصرة فى أواخر الدولة الأموية ، وكان يكتب لداود بن عمر بن هبيرة ، ولما قامت الدولة العباسية اتصل بعيسى بن على عم السفاح والمنصور أيام ولايته على كرمان ، وكتب له واختص به ، وأسلم على يديه — وكان قبل مجوسيا — وهو أحد النقلة من اللسان الفارسى إلى العربى ، وكان مضطلعا باللغتين فصيحا بهما ، وكان يتهم بالزندقة ، وقتل سنة ١٤٢ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ١٤٩ (فى خلال ترجمة الحسين بن منصور الحلاج) وفى الفهرست لابن النديم ص ١٧٢ وفى تاريخ الحكماء لابن القفطى ص ٢٢٠ طبع أوربة وغرر الخصائص الواضحة ص ٤٠٩ وكتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١١٠ وأمالى السيد المرتضى ١ : ٩٤ والفصول المختارة من كتب الجاحظ (على هامش الكامل للمبرد) ١ : ٣٢ وطبقات الأطباء ١ : ٣٠٨

(٢) انظر تاريخ الطبرى ٢٦٥ والفخرى أيضا .

وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن على ، فأمره عيسى بعمل نسخة للأمان لعبد الله ، فعملها ووكدها واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيها ، وترددت بين أبى جعفر وبينهم فى النسخة كتب ، إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط . ولم يتهيأ لأبى جعفر إيقاع حيلة فيها ، لفرط احتياط ابن المقفع ، وكان الذى شقّ على أبى جعفر أنْ قال فى النسخة : يوقع بخطه فى أسفل الأمان :

« وإن أنا نلتُ عبدَ الله بن علىّ أو أحداً ممن أقْدَمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلْتُ إلى أحد منهم ضررا : سِرًّا أو علانيةً ، على الوجوه والأسباب كلِّها ، تصريحاً أو كنايةً ، أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفِيٌّ من محمد بن على بن عبد الله ، ومولود لغير رِشْدَةٍ[1] ، وقد حلّ لجميع أمة محمد خلْعِي وَحَرْبى والبراءةُ منى ، ولا بَيْعةَ لى فى رقاب المسلمين ولا عَهْد ولا ذمَّة ، وقد وجب عليهم الخروجُ من طاعتى ، وإعانةُ مَنْ ناوَأنى من جميع الخلق ، ولا موالاةَ بينى وبين أحد من المسلمين .

وهو متبرِّئٌ من الحَول والقوة ، ومُدَّعٍ إن كان أنه كافِر بجميع الأديان ، ولقِيَ ربَّه على غير دين ولا شريعة ، محرَّمُ المأكَلِ والمشرَب وَالمَنَاكِحِ ، وَالمَرْكَب ، وَالرِّق ، وَالمِلك ، وَالمَلْبَس ، على الوجوه والأسباب كلها .

وكتبتُ بخطى ، ولا نيَّةَ لى سواه ، ولا يقبَلُ الله منى إلا إياه ، والوفاء به » . (كتاب الوزراء والكتاب ص ١١٠)

---

(١) يقال : هذا ولد رشدة : إذا كان لنكاح صحيح ، كما يقال فى ضده : ولد زنية ، بالكسر فيهما والفتح .

٢٠ — كتاب أبى جعفر إلى أبى مسلم

ولما ظفِر أبو مسلم بعسكر عبد الله بن على ، بعث أبو جعفر مولاه أبا الخَصِيب إلى أبى مسلم ، ليكتب له ما أصاب من الأموال ، فهمَّ أبو مسلم بقتله ، فَكُلِّم فيه ، وقيل له إنما هو رسول فخلِّ سبيله ، فلما رجع إلى أبى جعفر أخبره بما كان ، فخاف أن يَمضِيَ أبو مسلم إلى خراسان ، فكتب إليه كتابا مع يَقْطين بن موسى أن .

« قد ولَّيتك مصر والشأم ، فهى خير لك من خُراسان ، فوجِّهْ إلى مصر من أحببتَ ، وأقِم بالشأم فتكونَ بقُرْب أمير المؤمنين ، فإن أحبَّ لقاءك أتيتَه من قريب » .

فلما أتاه الكتاب غضِبَ وقال : هو يولينى الشأم ومصر ، وخراسانُ لى ! واعتزم أن يمضى إلى خراسان ، فكتب يقطين إلى أبى جعفر بذلك .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦١)

٢١ — كتاب أبى مسلم إلى أبى جعفر

وروى أن المنصور بعث يقطين وأمره أن يُحْصِي ما فى العسكر ، فقال أبو مسلم : يا يقطين ، أمين على الدماء خائن فى الأموال ! وشَتَم أبا جعفر ، فأبلغه يقطينُ ذلك ، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مُجْمِعاً على الخِلْاف ، وخرج من وجهه يريد خراسان ، وخرج أبو جعفر من الأنبار إلى المدائن ، وكتب إلى أبى مسلم فى المصير إليه ، فكتب أبو مسلم وقد نزل الزَّابَ وهو على الرَّواح إلى طريق حُلْوان :

« إنه لم يَبْقَ لأمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عدوٌّ إلا أمكنه اللهُ منه ، وقد كنا نَرْوى عن ملوك آل ساسان : إن أخوفَ ما يكون الوزراء ، إذا سَكَنَتِ الدَّهْماء[1] ، فنحن نافِرُون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيتَ ، حَرِيُّون بالسمع والطاعة ، غيرَ أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك ، فإن أبيتَ إلا أن تُعْطِيَ نفسك إرادتَها نَقَضْتُ ما أبرمتُ من عهدك ضِنًّا بنَفْسِي » . (تاريخ الطبرى ٩ : ١٦١)

٢٢ — رد أبي جعفر على أبي مسلم

فلما وصل الكتاب إلى أبي جعفر كتب إليه :

« قد فهمتُ كتابك ، وليست صفتك صفةَ أولئك الوزراء الغَشَشَةِ ملوكَهم ، الذين يتمنَّوْن اضطرابَ حَبْل الدولة لكثرة جرائمهم ، فإنما راحتُهم في انتشار نِظامِ الجماعة ، فلِمَ سَوَّيتَ نفسَك بهم ؟ فأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعِك[2] بما حَمَلْتَ من أعباء هذا الأمر ، على ما أنت عليه ، وليس مع الشَّريطة التي أوجبتَ منك سماعٌ ولا طاعة ، وحَمَّلَ إليك أميرُ المؤمنين عيسى بنَ موسى رسالةً لِتَسْكُنَ إليها إن أصغيتَ إليها ، وأسأل الله أن يَحُول بين الشيطان ونَزَغاته وبينك ، فإنه لم يجد بابا يُفْسِدُ به نِيَّتَك أوكَدَ عنده وأقربَ من طِبِّه[3] ، من الباب الذى فتَحه عليك » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦١)

---

(١) الدهماء : جماعة الناس .

(٢) اضطلع بالأمر : قوى على حمله . (٣) الطب : السحر .

٢٣ — كتاب أبي مسلم إلى أبي جعفر

وروى الطبري أن أبا مسلم كتب إلى أبي جعفر[١] :

« أما بعد ، فإني اتخذت رَجُلا[٢] إماما ودليلا على ما افترض الله على خَلْقه ، وكان في مَحَلَّةِ العلم نازلا ، وفي قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قريباً ، فاستَجهَلَني بالقرآن فحرَّفه عن مواضعه طَمَعا في قليل قد نَعاه[٣] الله إلى خَلْقِهِ ، فكان كالذي دُلِّيَ[٤] بغُرور ، وأمَرَني أن أجرِّد السيفَ ، وأرْفَعَ الرَّحمة ، ولا أقبل المعذِرة ، ولا أُقِيل العَثْرة ، ففعلتُ ، توطيداً لسلطانكم ، حتى عَرَفكم من كان جَهِلكم ، ثم استنقَذَني الله بالتوبة ، فإن يعفُ عني ، فقِدْما عُرِف به[٥] ونُسِبَ إليه ، وإن يعاقبني فبما قدَّمَت يداى ، وما اللهُ بظَلَّامٍ للعبيد » .

وخرج أبو مسلم يريد خراسانَ مُرَاغِمًا[٦] مُشَاقًّا وأخذ طريقَ حُلوان ، وقال أبو جعفر لعيسى بن علي وعيسى بن موسى ، ومن حَضَرَه من بني هاشم : اكتبوا إلى أبي مسلم ، فكتبوا إليه : « يعظِّمون أمره ويشكرون

---

(١) قدمنا في ص ١٣ أن ابن قتيبة روى أن هذا الكتاب كتبه أبو مسلم إلى أبي جعفر في خلافة أبي العباس ، وقد أورده بصورة تخالف رواية الطبري بعض المخالفة كما يتضح بمراجعة الروايتين ، ثم أورد رد أبي جعفر عليه . (٢) يعني أخاه إبراهيم الإمام كما تقدم .

(٣) في الأصل « تعافاه » وهو تحريف .

(٤) أي أطمع ، انظر تفسيره في الجزء الأول ص ٩٧ .

(٥) الضمير فيه يعود على العفو المفهوم من فعله السابق ، على حد قوله تعالى « اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » وقدما : قديما .

(٦) راغمهم : نابذهم وهجرهم وعاداهم . وشاقهم : خالفهم .

ما كان منه، ويسألونه أن يَتِمَّ(١) على ما كان منه وعليه من الطاعة ، ويحذِّرونه عاقبة الغَدر ، ويأمرونه بالرجوع إلى أمير المؤمنين ، وأن يلتمس رضاه » .

وبعث إليه بالكتاب مع رسول له ، وتقدَّمَ إلى الرسول أن يُلاينه وَيَعِدَه ويُمَنِّيَه ، فإن أَبَى أن يرجع تَهَدَّده وتَوَعَّده(٢) ، فأنفَذَ الرسول ما أُمِرَ به .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦٢)

٢٤ — كتاب أبى جعفر إلى أبى داود

وكان أبو جعفر قد كتب إلى أبى داود ـ وهو خليفة أبى مسلم بخراسان ـ حين اتَّهم أبا مسلم : « إن لك إِمْرَةَ خراسان ما بقيت » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦٣)

٢٥ — كتاب أبى داود إلى أبى مسلم

فكتب أبو داود إلى أبى مسلم :

---

(١) يقال : تمّ على الأمر وتمم عليه بالتحريك : أى استمر عليه .

(٢) بعث إليه أبا حميد المروروذىّ وقال له : « كلم أبا مسلم بألين ماتكلم به أحدا ، ومنّه ، وأعلمه أنى رافعه وصانع به مالم يصنعه به أحد إن هو صلح وراجع ما أحب ، فإن أبى أن يرجع فقل له : يقول لك أمير المؤمنين: لست للعباس ، وأنا برىء من محمد — إن مضيت مشاقا ولم تأتنى — إن وكلت أمرك إلى أحد سواى ، وإن لم أل طلبك وقتالك بنفسى ، ولو خضت البحر لخضته ، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك ، ولا تقولن له هذا الكلام حتى تأيس من رجوعه ولا تطمع منه فى خير » فسار إليه أبو حميد ، حتى قدم عليه بحلوان ، ودفع إليه الكتاب ، وجعل يتلطف معه فى القول ، فكان جوابه : ارجع إلى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه ، قال : قد عزمت على خلافه ؟ قال : نعم ، قال : لاتفعل ، قال : ما أريد أن ألقاه ، فلما آيسه من الرجوع قال له ما أمره به أبو جعفر ، فوجم طويلا ، وكسره ذلك القول ورعبه ، ووافاه كتاب أبى داود (الآتى) على تلك الحال فزاده رعبا وهما ، وتضعضع رأيه ، وكتب إلى أبى جعفر يخبره أنه منصرف إليه .

« إنا لم نخرُج لمعصية خلفاءِ اللّٰه وأهل بيت نبيه صلى اللّٰه عليه وسلم ، فلا تُخَالِفَنَّ إمامك ، ولا ترجعنَّ إلا بإذنه » .

فرجع إلى أبى جعفر ، فأمهله ثم قتله[1] . (وكان ذلك سنة ١٣٧ ﻫ) .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦٣)

٣٦ — رسالة عبد الله بن المقفع فى الصحابة

« كتبها للمنصور »

« أما بعد — أصلح الله أميرَ المؤمنين ، وأتمّ عليه النعمةَ ، وألبسه المُعافاةَ والرحمةَ — فإن أمير المؤمنين — حفظه الله — يَجْمع مع علمه المسألةَ

(١) سار أبو مسلم إلى أبى جعفر فلما دنا من المدائن أمر أمير المؤمنين الناس فتلقوه ، فلما دخل على أبى جعفر أدناه وأكرمه ، ثم قال له : انصرف ياعبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام ثم اغد علىّ ، فلما أصبح أرسل إليه فأتاه ، وكان المنصور قد أحضر أربعة ممن يثق بهم من الحرس ، وقال لهم : كونوا خلف الرواق فإذا صفقت فاخرجوا فاقتلوه ، فلما دخل عليه أبو مسلم قال له : أخبرنى عن سيفين وجدتهما فى عسكر عبد الله بن على . فقال أبو مسلم : هذا أحدهما ، وكان فى يده سيف ، فأخذه أبو جعفر ووضعه تحت فراشه ، ثم أقبل عليه يعاتبه ويقرعه ، ويقول له : فعلت وفعلت ، وهو يعتذر إليه مما اتهمه به ، حتى قال له : فمراغمتك وخروجك إلى خراسان ؟ قال : خفت أن يكون قد دخلك منى شىء ، فقلت آتى خراسان فأكتب إليك بعذرى ، ثم قال له : يا أمير المؤمنين ليس يقال هذا لى بعد بلائى وما كان منى ، فقال : يابن الخبيثة ، والله لو كانت مكانك أمة سوداء لفعلت مافعلت ، إنما عملت ماعملت فى دولتنا وبريحنا ، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا ، ثم ضرب بيديه فخرج أولئك النفر فخبطوه بالسيوف ، فصاح : ياأمير المؤمنين استبقنى لعدوك ، فقال المنصور : لا أبقانى الله إذن ، وأىّ عدو لى أعدى منك ! ثم أمر به فلف فى بساط

ودخل عيسى بن موسى بعد قتله — وكان قد كفل بأمانه حين أمنه المنصور — فقال : يا أمير المؤمنين ، أين أبو مسلم ؟ قال : قد كان هاهنا آنفا ، فقال عيسى : ياأمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى الإمام إبراهيم كان فيه ، فقال : ياأنوك (أى يا أحمق) والله ما أعلم فى الأرض عدوا أعدى لك منه ، هاهو ذاك فى البساط ، فقال عيسى : إنا لله وإنا إليه راجعون ؟ فقال له المنصور : خلع الله قلبك ، وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ! — انظر تاريخ الطبرى (٩ : ١٦٧ والفخرى ص ١٥٣) .

والاستماع ، كما كان وُلاة الشرّ يجمعون مع جهلهم العُجْبَ والأُستغناء ، ويستوثِق لنفسه بالحجّة ، ويتخذها على رعيته فيما يَلْطُف له من الفحص عن أمورهم ، كما كان أولئك يكتفون بالدَّعَة ، ويرضَوْن بدُحُوض[1] الحجة ، وانقطاعِ العُذْر فى الامتناع أن يجترئَ عليهم أحدٌ برأيٍ أو خبرٍ ، مع تسليط الدُّنَّاب[2] ، وقد عَصَمَ الله أمير المؤمنين ـ حين أهلك عدوّه ، وشَفَى غَليلَه ، ومكَّنَ له فى الأرض ، وآتاه مُلكها وخزائنَها ـ من أن يَشْغَلَ نفسه بالتمتّع والتفيُّش[3] ، والتأثُّل والأخلاء[4] ، وأن يَرْضَى ممن آوى[5] بالمَتَاع به ، وقضاءِ حاجةِ النفس منه ، وأكرم اللهُ أمير المؤمنين باستهانةِ ذلك واستصغاره إياه ، وذلك من أَبْيَنِ علاماتِ السعادة ، وأنجحِ الأعوان على الخير ، وقد قصَّ الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب : أنه لمَّا تمّت نعمةُ الله عليه ، وآتاه المُلْكَ ، وعلَّمه من تأويل الأحاديث ، وجَمَع له شَمْله ، وأقرَّ عينَه بأبويه وإخْوته ، أثنَى على الله عزّ وجل بنعمته ، ثم سَلاَ عما كان فيه ، وعَرَف أن الموت وما بعده هو أَوْلَى ، فقال : « تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » .

---

(١) دحضت الحجة كمنع دحوضا : بطلت .

(٢) فى الأصل « الديان » وهو تحريف .

(٣) فى الأصل « التفتيش » وهو تحريف ، والتفيش : ادعاء الشيء والفخر به باطلا ، ويقال : فاش الرجل فيشا : أى افتخر وتكبر ولا شيء عنده ، وفلان فياش : إذا كان نفاخا بالباطل وليس عنده طائل ، وتأثل المال : جمعه .

(٤) فى الأصل والإخلاد وهو صحيح على تقدير : والإخلاد إلى الدعة والرفاهية : أى الميل إليها ، وأرى أنه « الأخلاء » ويقوى ذلك مابعده . (٥) أى ممن آواه .

وفى الذى قد عرَفْنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجّع ذا الرأى على تناوله بالخبر فيما ظنَّ أنه لم يُبْلغه إياه غيرُه ، وبالتذكير بما قد انتهى إليه ، ولا يَزيدُ صاحبُ الرأى على أن يكون مُخْبِرا أو مُذكِّرا ، وكلٌّ عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله ، مع أن مما يَزيد ذوى الألباب نشاطًا إلى إعمال الرأى فيما يُصْلِح الله به الأمةَ فى يومها ، أو غابرِ دهرها ، الذى أصبحوا قد طمِعوا فيه ، ولعل ذلك أن يكون على يَدَىْ أمير المؤمنين ، فإنَّ مع الطمع الجِدَّ ، ومع اليأس القُعُود ، وقلَّما ضَعفَ الرّجاء إلاَّ ذهب الرّخاء ، وطَلَبُ المُؤْيَس عَجْزٌ ، وطلبُ الطامع حَزْمٌ ، ولم نُدْرِكْ الناسَ نحن وآباؤنا إلاَّ وهم يَرَوْن فيها خِلاَلاً تَقْطع الرأىَ ، وتُمسِك بالأفواه : مِنْ حالِ والٍ لم يُهِمَّه الإصلاحُ ، أو أهَمَّه ذلك ولم يثِقْ فيه بفَضْل رأىٍ ، أو كان ذا رأىٍ ليس مع رأيه صَوْلٌ بصَرَامة أو حزم ، أو كان ذلك استئثارًا منه على الناس بنَشَب[(١)] ، أو قلةَ تقدُّمٍ لِما يجمع أو يقسِم ، أو حالِ أعوان تُبْتَلَى بهم الولاةُ ليسوا على الخير بأعوان ، وليس له إلى اقتلاعهم سبيلٌ ، لِمكانهم من الأمر ، ومخافةِ الدُّوَل[(٢)] والفساد إن هو هاجَهم ، أو انتقَصَ ما فى أيديهم ، أو حالِ رعيّةٍ متَّزِرة[(٣)] ، ليس لها من أمرها النَّصَفُ فى نفسها ، فإن أُخذت بالشدة حَمِيَتْ ، وإن أُخذت باللين طَغَتْ ، وكل هذه الخلائق قد طهَّر الله منها أمير المؤمنين ، فآتاه الله ما آتاه فى نيّته ومقدرته وعزمه ، ثم لم يزل يَرَى

---

(١) النشب : المال الأصيل . (٢) جمع دولة : وهى انقلاب الزمان .

(٣) اتزر : ركب الوزر بالكسر أى الذنب والإثم ، والنصف : الإنصاف .

ذلك منه الناسُ ، حتى عَرَفه منه جُهاَّلُهم ، فضلاً عن علمائهم ، وصَنَع الله لأمير المؤمنين ألطفَ الصُّنع فى اقتلاع مَن كان يَشْرَكه فى أمره على غير طريقته ورَأيه ، حتى أراحه اُلله وآمَنَه منهم ، بما جعلوا من الحُجَّة والسبيل على أنفسهم[1] ، وما قوَّى الله عليه أميرَ المؤمنين فى رأيه واتباعِه مَرْضاتَه ، وَأَذَلَّ اُلله لأمير المؤمنين رعيَّتَه ، بما جَمَعَ له من اللين والعفو ، فإن لان لأحد منهم ففى الإثخان[2] له شهيد على أن ذلك ليس بضعف ولا مُصَانعةٍ ، وإن اشتدَّ على أحد منهم ففى العفو شهيدٌ على أن ذلك ليس بعُنْف ولا خُرْق ، مَعَ أمورٍ سوى ذلك نكُفُّ عن ذكرها ، كراهةَ أن نكون كأنّا نُصِبْنا للمدح ، فما أخلقَ هذه الأشياء أن تكون عَتَادًا[3] لكل جسيم من الخير فى الدنيا والآخرة ، واليومِ والغدِ ، والخاصة والعامَّةِ ، وما أرجانا لأَنْ يكون أمير المؤمنين ـ بما أصلح اُلله الأمةَ من بعده ـ أشدَّ اهتماما من بعض الولاة بما لا يُصْلح رعيتَه فى سلطانه ، وما أشدَّ ما قد استبان لنا أن أمير المؤمنين أطولُ بأمر الأمة عنايةً ، ولها نظراً وتقديراً ، مِنَ الرجل منا بخاصَّة أهله ، ففى دون هذا ما يثبِّت الأملَ : وينشِّط للعمل ، ولا قوةَ إلا بالله ، ولله الحمد ، وعلى اُلله التمام .

فمن الأمور التى يُذَكَّرُ بها أمير المؤمنين ـ أمتعَ اُللهُ به ـ أمرُ هذا الجند من أهل خُراسان ، فإنهم جند لم يُدْرَك مثلهم فى الإسلام ، وفيهم مَنَعة

---

(١) يعرض بأبى مسلم الخراسانى .

(٢) أثخنه : غلبه وأوهنه ، وفى الأصل « ففى الإلحان » وأراه محرفا .

(٣) العتاد : العدة .

بها يَتِمُّ فضلُهم إن شاء الله ، أمَّا هم فأهلُ بَصَرٍ بالطاعة ، وفضلٍ عند الناس ، وعَفافِ نفوسٍ وفرُوج ، وكفٍّ عن الفساد ، وذُلٍّ للوُلاة ، فهذه حالٌ لا نَعْلَمها توجَد عند أحدٍ غيرهم . وأمَّا ما يحتاجون فيه إلى المَنفعة منْ ذلك ، فتقويمُ أيديهم ورأيهم وكلامهم ، فإن فى ذلك اليوم أخْلاطاً[1] : منْ رأسٍ مُفْرِطٍ غالٍ ، وتابعٍ متحيِّرٍ شاكٍّ ، ومَن كان إنما يَصُولُ على الناس بقومٍ لا يعرِف منهم الموافقةَ فى الرأى والقولِ والسِّيرة ، فهو كراكب الأسد الذى يَوْجَلُ منَ رآه ، والراكبُ أشدُّ وَجَلاً ، فلو أن أمير المؤمنين كتب لهم أماناً معروفا بليغاً وَجيزا ، مُحيطاً بكل شىء يجب أن يعملوا[3] به أو يكفُّوا عنه ، بالغا فى الحُجَّة ، قاصراً عن الغُلُوِّ ، يحفظه رؤساؤهم حتى يقودوا به دَهماءَهم[4] ، ويتعهّدوا به منهم مَن دُونَهُمْ من عُرْض الناس ، لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحا ، وعلى من سواهم حُجَّةً ، وعند الله عُذْرا ، فإن كثيراً من المتكلمين من قُوَّاد أمير المؤمنين اليومَ إنما عامَّةُ كلامِهم فيما يُؤمَّر الأمرُ ، ويُزْعَم الزَّعْمُ أن أمير المؤمنين لو أمرَ الجبال أن تسير سارت ، ولو أمر أن تُستَدبَرَ القِبْلَةُ بالصلاة فُعِلَ ذلك ، وهذا كلام قلَّما يرتضيه مَن كان مُخالِفاً ، وقلَّما يَرِدُ فى سَمْع السامع إلا أحدَثَ فى قلبه ريبةً وشكّا ، والذى يقول أهلُ القصد من المسلمين هو أقْوَى للأمر ، وأعزُّ للسلطان ، وأقمع للمخالِف ، وأرْضى للموافِق ، وأثبتُ للعذر عند الله عز وجل .

---

(١) فى الأصل « اختلاطا » وهو تحريف . (٢) أى يخاف .

(٣) فى الأصل « أن يقول » وهو تحريف .

(٤) الدهماء : جماعة الناس ، وعرض الناس بالضم ويفتح : معظمهم .

فإنا قد سمعنا فريقاً من الناس يقولون : لا طاعة للمخلوق فى معصية الخالق ، بَنَوْا قولهم هذا بناءً مُعْوَجًّا فقالوا : إنْ أمَرَنا الإمامُ بمعصية الله فهو أهلٌ أنْ يُعْصَى ، وإنْ أمَرَنا الإمام بطاعة الله فهو أهل أن يُطاع ، فإذا كان الإمامُ يُعْصَى فى المعصية ، وكان غيرُ الإمام يطاع فى الطاعة ، فالإمام ومَن سِواه على حقّ الطاعة سَواءٌ ، وهذا قول معلوم يجده الشيطان ذَريعةً إلى خلع الطاعة ، والذى فيه أُمْنِيَّتُه لِكَيْ يكونَ الناس نَظائرَ ، ولا يقوم بأمرهم إمام ، ولا يكون على عدوّهم منهم ثِقْل .

سمِعْنا آخَرين يقولون : بل نُطيع الأئمةَ فى كل أمورنا ، ولا نفتّش عن طاعة الله ولا معصيته ، ولا يكون أحدٌ منا عليهم حَسِيباً ، هم وُلاةُ الأمر وأهلُ العِلم ، ونحن الأتْباعُ وعلينا الطاعةُ والتسليم ، وليس هذا القول بأقلَّ ضرراً فى توهين[1] السلطان ، وتهجين الطاعةِ ، من القول الذى قبْله ، لأنه ينتهى إلى الفظيع المتفاحِشِ من الأمر ، فى استحلال معصية الله جِهارًا صُراحا[2] .

وقال أهل الفضل والصواب : قد أصاب الذين قالوا : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولم يُصيبوا فى تعطيلهم طاعةَ الأئمة ، وتسخيفهم إياها ، وأصاب الذين أقرُّوا بطاعة الأئمة لِما حَقَّقوا منها ، ولم يُصِيبوا ما أبهموا من ذلك فى الأمور كلِّها .

---

(١) التوهين : الإضعاف ، والتهجين : التقبيح .

(٢) يقال : شتمه مصارحة وصراحا بالضم والكسر : أى مواجهة .

فأمّا إقرارُنا بأنه لا يطاع الإمام فى معصية الله، فإنما ذلك من عزائم الفرائض والحدودِ التى لم يجعل الله لأحد عليها سلطانا ، ولو أن الإمام نَهَى عن الصلاة والصيام والحج ، أو مَنَع الحدودَ وأباح ما حرّمَ الله ، لم يكن له فى ذلك أمر .

فأمّا إثباتُنا للإمام الطاعةَ فيما لا يطاع فيه غيره ، فإن ذلك فى الرأى والتدبير والأمر الذى جعل الله أزمَّتَه وعُراه بأيدى الأئمة ، ليس لأحد فيه أمرٌ ولا طاعة ، من الغَزْو والقفُول[١] ، والجَمْعِ والقَسْمِ ، والاستعمالِ والعَزلِ ، والحُكْمِ بالرأى فيما لم يكن فيه أثَر ، وإمضاء الحدودِ والأحكام على الكتاب والسُّنة ، ومحاربةِ العدو ومخادعته ، والأخذ للمسلمين والإعطاء عليهم ، وهذه الأمور وأشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة ، وليس لأحد من الناس فيها حقٌّ إلا الإمام ، ومن عَصَى الإمامَ فيها أو خَذَله فقد أوتَغَ[٢] نفسَه ، وليس يفترق هذان الأمران إلا ببُرهانٍ من الله عزوجل عظيم ، وذلك أن الله جعل قِوام الناسِ وصَلاحَ معاشهم ومَعَادِهم فى خَلَّتين : الدِّين والعقل ، ولم تكن عقولهم ـ وإن كانت نعمةُ الله عز وجل عظُمَتْ عليهم فيها ـ بالِغةً معرِفةَ الهدى ، ولا مُبْلِغةً أهلَها رِضوانَ الله ، إلا بما أكمل لهم من النعمة ، بالدّين الذى شَرَع لهم ، وشرحَ به صدرَ مَن أراد هُداه منهم ، ثم لو أنّ الدِّين جاء من الله لم يغادِرْ حرْفاً من الأحكام والرأيِ والأمرِ وجميع ما هو وارد على الناس ، وجارٍ فيهم مُذْ بَعَثَ الله رسوله صلى الله عليه وسلم

(١) القفول : الرجوع . (٢) أوتغ نفسه : أهلكها .

إلى يوم يَلْقَوْنه إلا جاء فيه بعزيمة ، لكانوا قد كُلِّفوا غيرَ وُسْعِهم ، فضُيِّق عليهم فى دينهم ، وأتاهم مالم تتّسع[1] أسماعُهم لاستماعه ، ولا قلوبُهم لفهمه ، ولَحَارَتْ عقولُهم وألبابُهم التى امتَنَّ الله بها عليهم ، ولكانت لَغْوًا لا يحتاجون إليها فى شىء ، وَلا يُعْمِلونها إلا فى أمرٍ قد أتاهم به تنزيلٌ ، ولكن الله مَنَّ عليهم بدِينهم الذى لم يكن يَسَعه رأيُهم ، كما قال عبادُ الله المتّقون : « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ » .

ثم جعل ما سِوَى ذلك من الأمر والتدبير إلى الرأى ، وجَعَلَ الرأىَ إلى وُلاة الأمر ، ليس للناس فى ذلك الأمر شىء إلا الإشارةُ عند المَشورة ، والإجابةُ عند الدَّعوة ، والنصيحةُ بظَهْر الغَيْب ، ولا يستحقّ الوالى هذه الطاعةَ إلا بإقامة العزائم والسُّنَن مما هو فى مَعْنَى ذلك ، ثم ليس من وجوه القول وَجهٌ يُلْتَمَسُ فيه إثباتُ فضلِ أهل بيت أمير المؤمنين على أهل كل بيتٍ، وغير ذلك مما يحتاج الناس إلى ذكره ، إلاّ وهو موجود فيه من الكلام الفاضل المعروف ما هو أبلغُ مماَّ يَغْلو فيه الغَالُون ، فإنّ الحُجَّة ثابتة ، والأمر واضح بحمد الله ونعمته .

ومماَّ يُنظَر فيه لِصَلاح أهل الجند ألاَّ يُوَلِّىَ أحداً منهم شيئاً من الخَراج، فإن ولاية الخراج مَفْسَدةٌ للمُقاتِلة ، ولم يَزَلِ الناس يتحامَوْن ذلك منهم ، ويُنَحُّونَه عنهم، لأنهم أهلُ دالَّة[2] ودَعْوَى بَلاء ، وإذا كان[3] جَلاَّبا للدراهم

---

(١) فى الأصل « تسع » وهو تحريف .

(٢) فى الأصل « أهل ذاك » وهو تحريف .

(٣) الضمير فيه يعود على « أحدا » المتقدم .

والدنانير اجترأ عليهما ، وإذا وقع فى الخيانة صار كلُّ أمْره[١] مدخولا : نصيحتُه وطاعتُه ، فإن جُعل بينه وبين رفعه أمرٌ حفّته[٢] الحميّة ، مع أن ولايةَ الخراج داعيةٌ إلى ذِلّة وعقوبةٍ وهوانٍ ، وإنما منزلة المقاتِل منزلةُ الكرامةِ واللُّطفِ .

ومما يُنْظَرُ فيه من أمرهم أن منهم من المجهولين مَنْ هو أفضلُ من بعض قادَتِهم ، فلو التُمِسوا وصُنِعوا[٣] كانوا عُدَّةً وقوةً ، وكان ذلك صلاحًا لمن فوقهم من القادَةِ ، ومَنْ دونَهم من العامّة .

ومن ذلك تعهّدُ أدَبِهم فى تعلُّم الكِتاب ، والتفقُّه فى السُّنَّة ، والأمانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى ، وأن يظهر فيهم من القَصْد والتواضُع واجتنابِ زِىِّ المُتْرَفين وشَكْلِهم ، مِثلُ الذى يأخذ به أمير المؤمنين فى أمرِ نَفْسِه ، ولا يزال يَطْلُع من أمير المؤمنين ، ويَخرج منه القولُ بما يُعرَفُ مَقْتَه لِلْإِتْراف والإسراف وأهلِهما ، ومَحبَّتَه القصدَ والتواضعَ ومَن أخَذَ بهما ، حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظورٌ عمن يَكْنِزُه بُخلا ، أو[٤] يُنفِقه سَرَفا فى العِطْر واللِّباس والمُغالاةِ بالنساء والمراكب ، فإن أمير المؤمنين يُؤْثِر بالمعروف مَن وجْهتُه المعروفُ والمؤاساةُ .

ومن ذلك أمرُ أرزاقهم أن يوقِّتَ لهم أميرُ المؤمنين فيها وقتاً يعرفونه ، فى كل ثلاثة أشهر ، أو أربعة ، أو ما بَدَا له ، وأن يَعلَم عامّتُهم العذرَ الذى

---

(١) فى الأصل « كل أمر » وهو تحريف (ونصيحته وطاعته بدل من كل أمره) .
(٢) فى الأصل « أمرضته » . (٣) أى أحسن إليهم .
(٤) فى الأصل « أن » وهو تحريف .

فى ذلك من إقامة ديوانهم ، وجَمْلِ[١] أسمائهم ، ويعلموا الوقتَ الّذى يأخذون فيه ، فينقطعَ الاستبطاءِ والشكوى ، فإن الكلمة الواحدة تخرُجُ من أحدهم فى ذلك ، أهْلٌ أن تَستَعْظَمَ ، وإنّ بابَ ذلك جَدِيرٌ أن يُحْسَمَ ، مع أن أمير المؤمنين قد عَلِم كثرةَ أرزاقهم ، وكثرةَ المال الذى يُخْرج لهم ، وأن هذا الخراج إن يكن رائجا لِغَلاء السِّعر ، فإنه لا بُدَّ من الكَسَاد والكَسْر ، وأن لكل شىء دِرَّةً وَغَزارةً ، وإنما دُرُورُ خراج العراق بارتفاع الأسعار ، وإنما يحتاج الجند اليومَ إلى ما يحتاجون إليه من كثرة الرزق ، لغَلاء السعر ، فمن حُسْنِ التقدير إن شاء اللّه أن لايدخُلَ على الأرض ضررٌ ، ولا بيتِ المال نُقصانٌ من قبَل الرحمٰن ، إلاَّ دخَلَ ذلك عليهم فى أرزاقهم ، مع أنه ليس عليهم فى ذلك نقصانٌ ، لأنهم يشترُون بالقليل مِثلَ ما كانوا يشترون بالكثير ، فأقولُ : لوأن أمير المؤمنين خلَّى[٢] شيئاً من الرزق ، فجعل بعضه طعاما ، وجعل بعضه عَلَفا ، وأُعْطوه بأعيانه ، فإنْ قُوِّمت لهم قيمة ، فخرج ما خرج على حِسابَةِ[٣] قيمة الطعام والعَلَف ، لم يكن فى أرزاقهم لذلك نقصانٌ عاجلٌ يستنكرونه ، وكان ذلك قوةً لهم فى تزالهم عند الحمل على العدو[٤] ، وإنصافَ بيت المال من أنفسهم فيما يستبطئون ، مع أنه إن زاد السعر أخذوا بحصّتهم من فَضْل ذلك .

ومن جِمَاع الأمر وقِوامه بإذن اللّه أنْ لايَخْفَى على أمير المؤمنين شىء

---

(١) الجمل : الجمع .

(٢) فى الأصل « ما خلا » والمعنى عليه غير مستقيم ، وأرى أن صوابه « خلى » بمعنى انتقص واقتطع

(٣) الحسابة : الحساب ، مصدر حسبه كنصر : أى عده .

(٤) فى الأصل « وكان ذلك ... تزالهم لحمل العدو » .

من أخبارهم وحالاتهم وباطِنِ أمرهم بخُراسانَ والعَسْكرِ والأطرافِ ، وأَنْ يحتقِر فى ذلك النَّفَقَةَ ، ولا يستعينَ فيه إلا بالثِّقاتِ النُّصَّاحِ ، فإنَّ تَرْكَ ذلك وأشباهَهُ أحزمُ بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة ، فتصير مغبَّته للجَهالة والكذب .

ومما يُذْكَرُ به أميرُ المؤمنين — أمتع الله به — أمرُ هذين المِصْرَين[1] ، فإنهم — بعد أهل خُراسان — أقربُ الناس إلى أن يكونوا شِيعَتَه ومُعِينِيه ، مع اختلاطهم بأهل خراسان — وإنهم منهم وهامَتهم[2] — ، وإنما ينظر أمير[3] المؤمنين منهم إلى صدق رابطتهم ، وما أراد مَعَزَّته[4] من أمورهم استعان أهلَ خراسانَ فى ذلك لهم ، مع الذى فى ذلك من جمال الأمر ، واختلاط الناسِ بالناس ، العربِ بالعَجَم ، وأهلِ خُراسان بالمِصْرَين .

إن فى أهل العراق يا أمير المؤمنين من الفِقه والعَفاف والألباب والألْسِنة ، شيئاً لا يكاد يُشَكُّ أنه ليس فى جميع مَن سواهم من أهل القِبلة مِثلُهُ ولا مثلُ نِصفه ، فلو أراد أمير المؤمنين أن يكتفِيَ بهم فى جميع ما يُلْتَمَسُ له أهل هذه الطَّبَقةِ من الناس ، رَجَوْنا أن يكون ذلك فيهم موجوداً ، وقد أَزْرَى بأهل العراق فى تلك الطَّبَقة أن وُلاةَ العراق فيما مضى كانوا أشرارَ الولاة ، وأن أعوانهم من أهل أمصارهم كذلك ، فَحُمِلَ

---

(١) يعنى البصرة والكوفة . (٢) هامة كل شىء : رأسه .

(٣) فى الأصل « وإنما ينظر أمير المؤمنين منهم .... صدق ولرابطتهم أو ما أراد من أمورهم معرفته استثقال أهل خراسان ذلك لهم من أمرهم » والعبارة مضطربة محرفة ، وقد أصلحتها كما ترى .

(٤) أى تقويته من عز كضرب : إذا قوى بعد ذلة ، وأرى أن هذه الكلمة أنسب من كلمة « معرفته » الواردة فى الأصل ، وبها ينسجم المعنى ، وربما كان الأصل « تقويته » .

جميعُ أهل العراق على ماظهر من أولئك الفُسُول(١) ، وتَعَلَّق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فَنَعَوْه(٢) عليهم ، ثم كانت هذه الدولةُ فلم يتعلق مَن دونَكم من الوزراء والعمال إلاَّ بالأقرب فالأقرب مما دنا منهم ، أو وجدوه بسبيل شيء من الأمر ، فوَقَعَ رجالٌ مَوَاقِعَ شائِنةً لجميع أهل العراق ، حيثُما وَقَعوا من صحابة خليفة ، أو ولايةِ عمل ، أو موضع أمانة ، أو مَوْطِنِ جهاد ، وكان مِنْ رَأْى أهل الفضل أن يَقْصِدوا حيث يُلْتَمسون ، فأبطأ ذلك بهم أن يُعْرَفوا ويُنْتَفَعَ بهم ، وإن كان صاحب السلطان ممن لم يعرِف الناس قبل أن يَلِيَهم ، ثم لم يزل يسألُ عنهم مَنْ يعرِفهم ، ولم يستثبِت فى استقصائِهم ، زالت الأمورُ عن مراكزها ، وَنَزَلت الرجالُ عن منازِلها ، لأن الناس لايَلْقَونه إلا متصنِّعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام ، غير أن أهل النقص هم أَشَدُّ تصنعا ، وأحلَى أَلسِنَةً ، وأرفقُ تلطُّفا للوزراء ، وتمحُّلاً لأن يُثْنى عليهم من وراءٍ وراءٍ ، فإذا آثَرَ الوالى أن يستخلص رجلا واحدا ممن ليس لذلك أهلا ، دعا إلى نفسه جميعَ ذلك الشَّرْج(٣) ، وطمِعوا فيه ، واجترءوا عليه ، وتواردُوه ، وزَحَموا على ما عنده ، وإذا رأى ذلك أهلُ الفضل كفُّوا عنه ، وباعَدوا منه ، وكرِهوا أن يُرَوْا فى غير موضعهم ، أو يزاحِموا غيرَ نُظَرائهم .

وممـا ينظُر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المِصْرين ، وغيرِهما من الأمصار والنواحى ، اختلافُ هذه الأحكام المتناقِضة ، التى قد بلغ اختلافُها

---

(١) الفسول جمع فسل بالفتح ؛ وهو الرذل الذى لامروءة له .

(٢) نعى عليه ذنوبه ينعاها : أى أظهرها وشهرها . (٣) الشرج : النوع والمثل .

أمراً عظيماً فى الدِّماء والفرُوج والأموال ، فيُسْتَحَلُّ الدمُ والفرْجُ بالحِيرة ، وهما يُحَرَّمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلافِ فى جوْف الكوفة ، فيُسْتَحَلّ فى ناحية منها ما يُحَرَّم فى ناحية أخرى ، غير أنه على كثرة ألوانه نافذٌ على المسلمين فى دمائهم وحرَمهم ، يَقضِى به قُضَاةٌ جائزٌ أمْرُهم وحُكْمُهم ، مع أنه ليس ممَّن ينظر فى ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريقٌ إلا قد لَجَّ بهم العَجَبُ مما فى أيديهم ، والاستخفافُ بمن سواهم ، فأقحَمَهم ذلك فى الأمور التى يتبيَّغ[1] بها مَن سَمِعَهَا من ذوى الألباب ، أمّا مَنْ يَّدعِي لزومَ السُّنَّةِ منهم ، فَيجعلُ ما ليس له سُنَّةٌ سُنَّةً حتى يبلغَ ذلك به إلى أن يسفِكَ الدمَ بغير بيِّنة ولا حُجّةٍ على الأمر الذى يَزعم أنه سُنّة ، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هُرِيق فيه دَمٌ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أئمةِ الهُدَى من بعده ، وإذا قيل له : أىُّ دم سُفِكَ على هذه السُّنّة التى تزعُمُون ؟ قالوا : فَعَلَ ذلك عبد الملك ابن مَرْوان ، أو أميرٌ من بعض أولئك الأمراء ، وإنما يأخذ بالرأى ، فيبلغ به الاعتزامُ على رأيه ، أن يقولَ فى الأَمْرِ الجسيم من أَمْرِ المسلمين قَولاً لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحِشُ لانفراده بذلك ، وإمضائه الحكمَ عليه ، وهو مُقِرٌّ أنه رأىٌ منه ، لا يحتجُّ بكتاب ولا سُنة .

فلو رَأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأَقْضِيَة والسُّنن المختلفة فتُرفعَ إليه فى كتاب ؛ ويُرفَع معها ما يحتجُّ به كل قوم من سُنّة ، أو قياس ، ثم نظر

(١) تبيغ به الدم : هاج به .

أمير المؤمنين فى ذلك ، وأمضى فى كل قضية رأيه الذى يُلهِمه الله ، ويَعْزِم له عليه ، وينْهَى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جامعا عَزْما ، لرَجَوْنا أن يجعل الله هذه الأحكامَ المختلِطَةَ الصوابِ بالخطأ ، حُكماً واحداً صَوابا ؛ ورجونا أن يكون اجتماعُ السِّيَر قُرْبةً لإجماع الأَمْرِ برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمامٍ آخَرَ آخِرَ الدهرِ إن شاء الله .

فأمّا اختلاف الأحكام . فإمّا شيء مأثور عن السَّلَف غير مُجْمَعٍ عليه ، يدبِّره قوم على وجه ، ويدبِّره آخَرون على وجه آخر ؛ فيُنْظَر فيه إلى أحقِّ الفريقين بالتصديق ، وأشبه الأمْرَيْن بالعَدْل . وإما رَأْيٌ أجراه أهلُه على القياس ، فاختلف وانتشر بغَلَطٍ فى أصلِ المقايسة ، وابتداءِ أمرٍ على غير مِثاله . وإما لطُول ملازمته القياسَ ، فإن من أراد أن يلزَمَ القياسَ ، ولا يفارقَه أبداً فى أمر الدين والحُكْم ، وقَعَ فى الوَرَطاتِ ، ومضى على الشُّبُهات ، وغَمَّض على القبيح الذى يَعرِفه ويُبْصِره ، فأَبَى أن يتركه كراهةَ تَرْكِ القياس ، وإنما القياسُ دليلٌ يُسْتَدَلُّ به على المحاسن ، فإذا كان مايقود إليه حَسَناً معروفا أُخِذَ به ، وإذا قاد إلى القبيح المستنكَر تُرِكَ ، لأن المبتغَى ليس عَيْنَ[1] القياس يَبْغِي ، ولكنْ محاسِنَ الأمور ومعروفَها وما أَلْحَقَ الحقَّ بأهله ، ولو أن شيئاً مستقيما على الناس ، ومنقاداً حيثُ قِيدَ ، لَكان الصدقُ هو ذلك ، ولا يُعتَبَر بالمقاييس ، فإنه لو أراد أن يقوده الصدقُ لم ينقَدْ له ، وذلك أن رجلا لوقال : أتأمرنى أنْ أَصْدُقَ فلا أَكذِبَ كِذْبَةً أبدا ، لَكان جوابه أن

(١) فى الأصل « ليس غيرالقياس » ، وهو تحريف لأنه ضد المعنى المقصود .

يقول : نعم ، ثم لو التمسَ منه قَوْدَ[1] ذلك فقال : أ أُصْدُقُ في كذا وكذا ، حتى يَبْلُغَ به أن يقول : أ أصدُقُ في رجل هاربٍ ، استدلَّني عليه طالبٌ ليظلمَه فيقتلَه ، لَـكَسَرَ عليه قِيادَه ، وكان الرأى له أن يترُكَ ذلك ، وينصرفَ إلى المُجْتَمَع عليه المعروفِ المستحسَنِ .

ومما يُذكَّر به أمير المؤمنين أهلُ الشام ، فإنهم أشدُّ الناسِ مُؤْنَةً ، وأخوفُهم عداءةً وبائقةً ، وليس يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة ، ولا يَطْمَعُ منهم في الاستجماع على المودَّةِ ، فمِن الرأيِ في أمرهم أن يختصَّ أميرُ المؤمنين منهم خاصّةً ، ممن يرجو عنده صلاحا ، أو يعرف منه نصيحةً أو وفاءً ، فإن أولئك لا يَلْبَثون أن ينفصِلوا عن أصحابهم في الرأى والهوَى ، ويدخلوا فيما حُمِلوا عليه مِنْ أمرهم ، فقد رأَيْنا أَشباهَ أولئك من أهل العراق الذين استدخَلَهم أهلُ الشام ، ولـكن أُخِذَ في أمر أهل الشام على القِصاصِ[2] : حُرِموا كما كانوا يَحْرِمون الناسَ ، وجُعِل فَيْئُهم إلى غيرهم كما كان فيء غيرهم إليهم ، ونُحُّوا عن المنابر والمجالس والأعمال كما كانوا يُنَحُّون عن ذلك مَن لا يجهلون فضلَه في السابقة والموضع ، ومُنِعَتْ منهم المرافقُ كما كانوا يمنعون الناسَ أن ينالوا معهم أُكْلَةً من الطعام الذى يصنعه أمراؤهم للعامّة ، فإذا رَغِبَ أميرُ المؤمنين بنفسه عن هذه السِّيرة وما أشبهها ، فلِمَ يعارضُ[3] ماعابَ ، ولم يُمَثِّل ما سَخِطَ ؟ كان العدلُ أن يقتَصِرَ بهم على فَيْئِهم ، فيجعلَ ما خرج من كُوَر الشام فَضْلاً عن النفقات ، وما خرج من مصر فضلا عن

---

(١) القود : القيادة ، والمعنى أن يتابع الصدق فى كل مايقول .

(٢) فى الأصل « وليس أحد فى أمر أهل السلم على القصاص » وقد أصلحته كما ترى .

(٣) أى لم يأتى بمثله .

حقوق أهل المدينة ومكة ، بأن يجعل أمير المؤمنين ديوان مُقَاتِلتهم ديوانهم ، أو يزيدَ ، أو ينقُصَ ، غيرَ أنه يأخذ أهل القوة والغَناء[1] وخِفةِ المُؤْنة والخفّة في الطاعة ، ولا يفضّل أحداً منهم على أحد ، إلا على خاصّةٍ معلومة ، ويكون الديوان كالغَرَض المستأنَف ، ويأمر لكل جند من أجناد أهل الشام بعِدَّة من العِيال يَقْتَرِعون عليها ، ويُسَوِّى بينهم فيما لم يكونوا أُسوةً فيه فيمن مات من عيالاتهم ، ولا يُضيعُ أحداً[2] من المسلمين .

وأمّا مايتخوّفون من نَزَواتهم ، فلعَمرى لئن أُخِذوا بالحق — ولم يؤخذوا به — إنهم لَخُلَقاء أن يكون لهم نَزَواتٌ ونَزَقات[3] ، ولكنّا على مِثل اليقين — بحمد الله — من أنهم لم يشركوا بذلك إلا أنفسَهم ، وأن الدائرةَ لأمير المؤمنين عليهم آخِرَ الدهر إن شاء الله ، فإنه لم يَخرُج المُلكُ من قوم إلاَّ بَقِيَتْ فيهم بقيةٌ يتوثبون بها ، ثم كان ذلك التوثّب هو سبب استئصالهم وتدويخهم .

ومما يُذَكَّر به أمير المؤمنين أمرُ أصحابه ، فإن من أَوْلَى أَمْرِ الوالى منه بالتثبُّت والتخيُّر ، أمْرَ أصحابه الذين هم بَهاءُ فِنائه[4] ، وزينةُ مجلِسه ، وأَلْسِنَةُ رَعيته ، والأعوانُ على رأيه ، ومواضعُ كرامته ، والخاصّةُ من عامّته ، فإن أمر هذه الصّحابة قد عَمِلَ فيه مَن كان وَلِيه من الوزراء[5] والكُتَّاب قبل

---

(١) الغناء : الكفاية .

(٢) فى الأصل « ولا يصنع بأحد » وأراه محرفا .

(٣) نزوات جمع نزوة كوردة ، فعلة من النزو بالسكون وهو الوثوب ، ونزقات جمع نزقة كنزوة أيضاً ، فعلة من النزق بالسكون ، نزق الفرس كسمع ونصر وضرب نزقا ونزوقا : نزا أو تقدم خفة ووثب ، أو من النزق بالتحريك ، نزق كفرح : طاش وخف عند الغضب .

(٤) فناء الدار : ما اتسع من أمامها . (٥) فى الأصل « الوزارة » وهو تحريف .

خلافة أمير المؤمنين عَمَلاً قبيحاً مُفْرِط القُبح ، مُفْسِداً للحَسَب والأدب والسياسة، داعياً للأشرار، طارداً للأخيار . فصارت صحبة الخَليط[1] أمراً سخيفاً ، فطمِعَ فيه الأوغاد ، وتزهَّد فيه من كان يرغَب فيما دونَهُ ، حتى إذا لقِينا[2] أبا العباس — رحمة الله عليه — وكنتُ في ناس من صُلَحاء أهل البصرة ووجوههم ، فكنت في عِصابة منهم أبَوْا أن يأتوه ، فمنهم من تغيَّب فلم يَقْدَم ، ومنهم من هرب بعد قُدومه ، اختياراً للمعصية على سوء الموضع ، لايعتذرون في ذلك إلا بضياع المَكْتَب[3] والدعوة والمَدْخَل، يقولون : هذه منزِلَة كان من هو أشرفُ من أبنائنا يرغبون فيما هو دونها عند من هو أصغر أمراء وُلاتنا اليومَ ، ولكنها قد كانت مَكْرُمةً وحسباً ، إذ الناس يُنْظَرُونَ ويُسْأَل عنهم ، فأمّا اليوم ونحن نرى فلانا وفلانا يُنْفَرَ[4] بأسمائهم — على غير قديمٍ سَلَفَ ، ولا بلاءٍ حَدَثَ ، فمن يرغب فيما هاهنا ياأمير المؤمنين — أكْرمكَ اللّٰه — ؟ أمّا يصير العدل كله إلى تَقْوَى اللّٰه عزَّ وجل ، وإنزالِ الأمورِ مَنَازِلَهَا ، فإن الأول قال :

لاَيَصْلُحُ الناسُ فَوْضَى لاسَرَاةَ لهم ... ولا سَرَاةَ إذا جُهَّالُهُمْ سادوا

وقال :

هُمُ سَوَّدوا نصراً ، وكلُّ قبيلةٍ ... يُبَيِّن عن أحلامها من يَسُودُها

وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيبُ ، دخلَتْ فيه مظالِمُ ، أمّا العَجَبُ

(١) الخليط : الشريك والمخالط . (٢) في الأصل « التقينا » وهو تحريف .

(٣) يريد به منزلة الكتابة ومكانة الكاتب .

(٤) أي يذهب بها ، والمعنى ترفع منازلهم وتعلى مكانتهم .

فقد سَمِعْنا من الناس من يقول : ما رأينا أُعْجوبةً قطُّ أعجبَ من هذه الصحابة ، ممن لاينتهي إلى أدب ذي نَباهةٍ ، ولاحَسَبٍ معروف ، ثم هو مسخوطُ الرأي ، مشهورٌ بالفجور في أهل مصره[1] ، قد غَبَرَ عامَّةَ دهرِه صانعاً يعمل بيده ، ولا يعتدُّ مع ذلك ببلاء ولا غَناء ، إلا أنه مكَّنه من الأمر صاغٍ[2] ، فاحتوى حيثُ أحبَّ ، فصار يُؤْذَن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبلَ قَرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب ، ويُجْرَى عليه من الرِّزق الضِّعفُ مما يجرى على كثيرٍ من بني هاشم ، وغيرِهم من سَرَوات[3] قريش ، ويُخْرَجُ له من المَعُونة على نحو ذلك ، لم يضَعْه بهذا الموضع رِعايةُ رَحِمٍ ، ولا فِقْهٌ في دين ، ولا بلاءٌ في مجاهدة عدوٍّ معروفةٍ ماضيةٍ متتابعةٍ قديمةٍ ، ولا غَناءٌ حديثٌ ، ولا حاجة إليه في شيء من الأشياء ، ولا عُدَّة يستعِدُّ بها ، وليس بفارسٍ ولا خطيب ولا عَلَّامةٍ ، إلا أنه خَدَم كاتبا أو حاجبا ، فأخبر أن الدين لايقوم إلا به ، حتى كتب كيف شاء ، ودخَل حيث شاء .

وأما المظلِمَة التي دَخَلَتْ في ذلك فعظيمةٌ ، قد خصَّتْ قريشا وعمَّتْ كثيراً من الناس ، وَأَدْخَلَتْ على الأحساب والمُروءات مِحْنةً شديدة وضَياعا كثيراً ، فإن في إذْنِ الخليفة والمَدْخَلِ عليه والمَجْلِسِ عنده ، وَمَا يُجْرَى على صَحَابته من الرزق والمَعُونة ، وتفضيلِ بعضِهم على بعض في ذلك ،

---

(١) في الأصل « في أهل مصر » وهو تحريف .

(٢) صغا إليه كسعى وقعد وفرح : مال ، أي شخص يميل إليه ويقربه .

(٣) سروات جمع سراة بالفتح ، وسراة : اسم جمع سريّ كغني ، وصف من السرو بالفتح وهو المروءة في شرف .

حُكما عظيما على[1] الناس فى أنسابهم وأخطارهم وبَلاء أهل البلاء منهم ، وليس ذلك كخواصّ المعروف ولطيف المنازل ، أو الأعمال التى يختص بها المَوْلَى مَن أحبّ ، ولكنه باب من القضاء جسيم عامٌّ يُقْضَى فيه للماضِين من أهل السّوابق والمآثر من أهل الباقين ، وأهل البلاء والغَناء بالعدل أو بما يُحَال فيه عليهم ، فإن أحقّ الظالم بتعجيل الرفع والتغيير ، ما كان ضرُه عائبا ، وكان للسلطان شائنًا ، ثم لم يكن فى رفعه مُؤْنةٌ ، ولا شَغَبٌ ، ولا تَوغيرٌ لصدور[2] ، عامّةٍ ، ولا للقوة والإضرار[3] سبب .

ولِصَحابة أمير المؤمنين ــ أكرمه الله ــ مَزِيّةٌ وفضل ، وهى مكْرمة سنيّةٌ حَرِيّةٌ أن تكون شَرَفا لأهلها ، وحَسَبًا لأعقابهم ، حقيقةٌ أن تُصان وتُحْظَر ، ولا يكون فيها إلا رجل بَدَرَ[4] بخَصْلةٍ من الخِصال ، أو[5] رجلٌ له عند أمير المؤمنين خاصّةٌ بقرابة أو بَلاء ، أو رجل يكون شرفُه ورأيه وعملُه أهلاً لمجلس أمير المؤمنين وحديثه ومَشورته ، أو صاحبُ نَجْدة يُعرَف بها ويستعِدُّ لها ، يجمع مع نجدته حَسَبًا وعفافا ، فيُرْفَع من الجند إلى الصَّحابة ، أو رجل فقيهٌ مُصْلِح يوضَع بين أظهُر الناس لينتفِعوا بصلاحه وفقْهه ، أو رجل شريف لا يُفْسِد نفسَه أو غيرَها ، فأمّا مَن يتوسّل بالشّفاعات فإنه يَكْتفِى أو يُكتفَى له بالمعروف والبر فيما لا يهجِّنُ رأيا ، ولا يُزيلُ أمرًا عن مَرْتبته ، ثم تكون تلك الصحابة المُخْلِصة على مَنازِلها ، ومَداخِلِها ،

---

(١) فى الأصل « على أن الناس » وكلمة « أن » لا لزوم لها فى الجملة ، والظاهر أنها وقعت سهوا

(٢) فى الأصل « بصدور » وهو تحريف . (٣) وفيه « ولا إضرار » وهو تحريف .

(٤) بدر إليه : عجل وسبق . (٥) فى الأصل « ومن رجل » وهو تحريف .

لا يكون للكاتب فيها أمرٌ فى رَفْع رِزق ولا وَضْعِه ، ولا للحاجب فى تقديم إذن ولا تأخيره .

ومما يذكر به أمير المؤمنين ، أمرُ فِتيانِ أهل بيته وبنى أبيه وبنى علىّ وبنى العباس ، فإن فيهم رجالاً لو مُتِّعوا بجِسام الأمور والأعمال سَدُّوا وجوهاً ، وكانوا عُدَّةً لأخرى .

ومما يذكَّر به أمير المؤمنين ، أمرُ الأرض والخراج ، فإن أجسَمَ ذلك وأعظَمَه خَطَرًا ، وأشدَّه مُؤْنةً وأقربه من الضَّياع ، ماين سَهله وجَبَله ، ليس لها تفسير على الرساتيق[1] والقرى ، فليس للعُمّال أمر ينتهون إليه ، ولا يحاسَبُون عليه ، ويحُول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعد ما يتأنّقون لها فى العمارة ، ويرجُون لها فضلَ ما تعمَلُ أيديهم ، فسيرة العمال فيهم إحدى ثِنْتين: إما رجلٌ أخذ بالخُرْق[2] والعُنْف من حيث وجد، وتتبَّع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجد ، وإما رجل صاحبُ مِساحةٍ ، يَستخرِج ممن زرع ، ويترك من لم يزرع ، فيَعْمُر مَن عَمَرَ[3] ، ويَسْلَم من أخرب ، مع أن أصول الوظائف[4] على الكُوَر لم يكن لها ثَبْتٌ[5] ، ولا عِلْم ، وليس من كُورَة إلا وقد غُيِّرت وظيفتُها مِرارًا ، خفِيَت وظائفُ بعضها ، وبقِيَتْ وظائفُ بعض ، فلو أن أمير المؤمنين أعمَلَ رأيَه فى التوظيف على الرَّساتيق والقُرَى والأرَضِين وظائفَ معلومةً ، وتدوينِ

---

(١) الرساتيق : جمع رستاق بالضم ، ويستعمل فى الناحية التى هى طرف الإقليم ، معرب .

(٢) الخرق بالضم وبالتحريك : ضد الرفق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور ، والحمق

(٣) يعمر هنا معناه : يدفع ، أى يعمر خزانة الدولة من عمر الأرض .

(٤) أى المقدرات . (٥) شىء ثبت : ثابت ، أى ليس لها قانون ثابت يجرى فيها على مقتضاه

الدواوين بذلك ، وإثباتِ الأصول ، حتى لا يؤخَذ رجل إلا بوظيفةٍ قد عَرَفَها وضَمِنها ، ولا يجتهد فى عِمَارة إلا كان له فضلُها ونفعُها ، لَرَجَوْنا أن يكون فى ذلك صلاحٌ للرعية ، وعِمارةٌ للأرض ، وحسْمٌ لأبواب الخيانةِ وغَشْمِ[1] العمال ، وهذا رأىٌ مُؤْنتُه شديدة ، ورجالُه قليل ، ونَفْعُه متأخِّر ، وليس بعد هذا فى أمر الخراج إلا رأىٌ قد رأينا أمير المؤمنين أخَذَ به ، ولم نَرَه من أحد قبله ، مِنْ تخيُّر العمال وتفقُّدهم والاستعتاب[2] لهم والاستبدالِ بهم .

ومما يذكَّر به أمير المؤمنين ، جزيرة العرب من الحِجَاز واليمن واليمامة وما سوى ذلك ، أن يكون مِنْ رأىِ أمير المؤمنين ـ إذا سَخَتْ نفسُه عن أموالها من الصَّدَقات وغيرها ـ أن يختار لِولايتها الخِيارَ من أهل بيته وغيرهم ، لأن ذلك من تَمام السِّيرة العادلة ، والكلمة الحَسَنة التى قد رَزَق الله أمير المؤمنين وأكرَمَه بها ، من الرأى الذى هو بإذنِ الله حِمًى وَنِظامٌ لهذه الأمور كلِّها فى الأمصار والأجناد والثغور والكُوَر ، إنّ بالناس من الاستجراح[3] والفساد ما قد عَلِم أميرُ المؤمنين ، وبهم من الحاجة إلى تقويم آدابهم وطَرائقهم ما هو أشدُّ من حاجتهم إلى أقواتهم التى يعيشون بها ، وأهلُ كل مِصْرٍ وجُند وثغرٍ فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسُّنَّة والسِّيَر والنصيحة مؤدِّبونَ مُقوِّمون يُذكِّرون ،

---

(١) الغشم : الظلم .

(٢) استعتبه : استرضاه .

(٣) الاستجراح : الفساد والعيب ، وفى الأصل « الاستخراج » وهو تصحيف .

ويبصِّرون[1] الخطأ ، ويَعِظون من الجهل ، ويمنعون عن البِدَع ، ويحذِّرون الفِتَنَ ، ويتفقَّدُون أمورَ عامَّةٍ من هو بين أظهُرهم ، حتى لايَخْفَى عليهم منها مُهِمٌّ ، ثم يستصلِحُون ذلك ويعالجون ما استنكروا منه بالرأى والرِّفق والنُّصح ، ويرفعون ما أعياهم إلى ما يَرْجُونَ قُوَّتَه عليهم[2] : مأمونين على سِرِ ذلك وَتَحْصِينِه ، بُصَرَاء بالرأى حين يبدو ، وأطِبَّاء باستئصاله قبل أن يتمكّن ، وفى كل قَوْمٍ خواصُّ رجالٍ عندهم على هذا مَعُونةٌ ، إذا صُنِعوا لذلك ، وتُلُطِّفَ لهم ، وَأُعِينوا على رأيهم ، وقُوُّوا على معاشهم ببعض ما يُفَرِّغهم لذلك وَيَبْسُطُهم له ، وخَطَرُ[3] هذا جسيم فى أمرين : أحدهما رجوع أهل الفساد إلى الصلاح ، وأهلِ الفُرقةِ إلى الأُلْفَة . والأمر الآخر أن لايتحرك متحرِّك فى أمر من أمور العامّة إلا وعينٌ ناصِحَةٌ تَرْمُقه ، ولا يَهْمِس هامِسٌ إلا وأُذُنٌ شفِيقةٌ تُصِيخ[4] نحوَه ، وإذا كان ذلك لم يقدر أهلُ الفساد على تربيض[5] الأمور وتلقيحها ، وإذا لم تُلَقَّح كان نِتاجها بإذن الله مأمونا .

وقد علِمْنا علماً لا يخالطه شكٌّ أن عامّةً قطُّ لم تصلُح من قِبَل أنفسها ، ولم يأتِها الصّلاحُ إلا من قبل خاصّتها ، وأن خاصّةً قطّ لم تصلُح من قِبَل أنفسها ، وأنها لم يأتِها الصلاح إلا من قبل إمامها ، وذلك لأن عدد الناس فى ضَعَفَتهم[6] وجُهّالهم الذين لايستغنُون برأى أنفسهم ، ولا يحمِلون العِلْمَ ، ولا يتقدمون فى الأمور ، فإذا جعل الله فيهم خواصَّ من أهل الدين والعقول ،

(١) بصره الأمر : فهمه إياه . (٢) كذا فى الأصل ، والأظهر أن يكون « قوتهم عليه » .
(٣) الخطر : القدر .
(٤) أصاخ له : استمع . (٥) من تربيض السقاء : وهو أن يجعل مافيه يغمر قعره .
(٦) ضعفة جمع ضعيف كضعاف .

يَنْظُرُونَ إليهم ويسمعون منْهُمْ ، واهتمّت خواصُّهم بأمور عوامِّهم ، وأقبلوا عليها بجدٍّ ونُصْح ومثابرة وقوة ، جعل الله ذلك صلاحا لجماعتهم ، وسَبَبا لأهل الصلاح من خواصِّهم ، وزيادةً فيما أنعم الله به عليهم ، وبلاغا إلى الخير كلِّه ، وحاجةُ الخاصّة إلى الإمام الذى يُصْلِحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك ، فبالإمام يجمع الله أمرهم ، ويَكْبِتُ[1] أهلَ الطعن عليهم ، ويجمع رأيهم وكلمتهم ، ويُبيِّن لهم عند العامة منزلتهم ، ويجعل لهم الحُجَّة والأَيْدَ[2] والمقال على من نَكَبَ[3] عن سبيل حقهم .

فلما رأينا هذه الأمور ينتظم بعضها ببعض ، وعَرَفْنا من أمر أمير المؤمنين ما بِمثله جَمَع اللهُ خواصَّ المسلمين على الرغبة فى حسن المعاونة والمؤازرة والسعى فى صلاح عامّتهم ، طَمِعْنا لهم فى ذلك يا أمير المؤمنين ، وطمِعْنا فيه لعامّتهم ، ورَجونا ألاَّ يعمل بهذا الأمر أحدٌ إلا رَزَقه الله المتابعة فيه ، والقوةَ عليه ، فإن الأمر إذا أعان على نفسه جعل للقائل مقالاً ، وهَيَّأ للساعى نجاحًا ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله وهو ربُّ الخلق ، ووليُّ الأمر يقضِى فى أمورهم ، يدبِّر أمره بقدرة عزيزة ، وعِلْمٍ سابق ، فنسأله أن يعزِم لأمير المؤمنين على المَراشِد ، ويحصِّنه بالحفظ والثبات والسلام ، ولله الحمد والشكر »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٨٢)

---

(١) كبته : أخزاه وأذله ورده بغيظه .

(٢) الأيد : القوة . (٣) أى مال وعدل .

٢٧ — الرسالة اليتيمة لابن المقفع

وقال ابن طيفور فى اختيار المنظوم والمنثور أيضاً :

ومن الرسائل المفردات اللَّواتى لا نظيرَ لها ولا أَشباهَ ، وهى أركانَ البلاغة ، ومنها استَقَى البُلغاء ، لأنها نهاية فى المختار من الكلام ، وحسن التأليف والنظام ، الرسالة التى لابن المقفع اليتيمة ، فإن الناس جميعاً مُجْمِعون أنه لم يعبر أحد عن مِثلها ، ولا تقدَّمها من الكلام شىء قبلها ، ولم نكتبها على تمامها لشهرتها وكثرتها فى أيدى الرُّواة لها ، فمن فصولها قوله فى صدرها :

« وقد أصبح الناس — إلا قليلا ممن عَصَمَ الله — مدخولين منقوصين ، فقائِلُهم باغٍ ، وسامِعُهم عيَّابٌ ، وسائِلُهم متَعَنِّت ، ومُجيبُهم متكلِّف ، وواعِظُهم غيرُ مُحقِّقٍ لقوله بالفعل ، وموعوظُهم غير سليم من الهُزْء والاستخفاف ، ومستشيرهم غيرُ موطِّنٍ نفسَه على إنفاذ ما يُشار به عليه ، ومُصْطَبِرٍ للحق مما يَسمَع ، ومستشارُهم غيرُ مأمونٍ على الغِشِّ والحَسَدِ ، وأن يكون مِهْتَاكا للسِّتْر ، مُشيعاً للفاحشة ، مُؤْثِرا لِلْهَوَى ، والأمينُ منهم غيرُ متحفِّظ من ائتمان الخَوَنة ، والصَّدُوقُ غير محترسٍ من حديث الكَذَبة ، وذو الدين غيرُ متورِّع عن تفريط الفَجَرة ، يتقارضون الثناء ، ويترقبون الدُّولَ ، ويَعيبون بالهَمْز ، يكاد أحزمُهم رأيًا يَلْفِتُهُ عن رأيه أَدْنَى الرضا وأدنى السُّخْط ، ويكاد أمْتَنُهم عُودًا أن تَسْحَره الكلمةُ ، وتُسْكِره[1] اللَّحْظة ، وقد ابتُليتُ أن أكون قائلا ، وابتليتم أن تكونوا سامعين ، ولا خيرَ

---

(١) فى الأصل « وتنكره » وأراه محرفا .

فى القول إلا ما انْتُفِعَ به، ولا يُنتفَع إلا بالصدق، ولا صِدْقَ إلا مع الرأى، ولا رأىَ إلا فى موضعه وعند الحاجة إليه ، فإن خير القائلين من لم يكن الباطلُ غايتَه ، ثم لزِمَ القَصْدَ والصوابَ ، وخير السامعين من لم يكن ذلك منه سُمعةً ولا رياءً ، ولم يتخذ مايسمع عَوْناً على دفع الهدى ، ولا بُلْغَةً إلى حاجةِ دنيا ، فإن اجتمع للقائل والسامع : أن يُرْزَق القائلُ من الناس مِقَةً وقَبولا على مايقوله ، ويُرْزَق السامعُ اتّعاظا بما يسمع فى أمر دنياه ، وقد صَلَحَتْ نيّاتهما فى غير ذلك ، فعسى ذلك أن يكون من الخير الذى يُبَلِّغُه اللهُ عبادَه ، ويعجِّل لهم من حَسَنة الدنيا ما لا يحرمهم[1] من حَسَنة الآخرة ، كما أن المُرِيدَ بكلامه أن يُعْجِبَ النَّاسَ ، قد يجتمع عليه : حرمانُ ماطلب مع سوء النية ، وحَمْلُ الوِزْر ، وقد وافقتم منى مسارَعَةً فيما سألتمونى من غير معاودة فى أشباهه ، ولكن اُستطالَ الناسُ فى جسيم أمورهم وإنفاذِ الطوالع[2] ، ولم يَبْرَحْ يُطَلِّع منى فى ذلك احتسابُ الخير فيما بلغَتْه القوةُ منى فى ذلك ، طمعا فى أن ينفع الله بذلك من يشاء ، فإنه ما يشاء يقع .

أمّا سؤالكم عن الزمان ، فإنّ الزمانَ الناسُ ، والناسُ رجلان: وَالٍ ومَوْلِيٌّ عليه ، والأزمنة أربعة على اُختلاف حالات الناس .

فخيارُ الأزمنة : مااُجتمع فيه صلاح الراعى والرعية ، فكان الإمام مؤدِّيا إلى الرعية حقَّهم : فى الردِّ عنهم ، والغيظِ على عدوهم ، والجهادِ من وراء

(١) فى كتب اللغة أن حرم يتعدى إلى اثنين فيقال : حرمه الشىء .

(٢) الطوالع: جمع طالع ، وهو السهم الذى يجاوز الهدف ويقع وراءه، والمعنى : مجاوزتهم الحدود وتعديها .

بِيضتِهم ، والاختيار لحكّامهم ، وتوليةِ صُلَحائهم ، والتوسعة عليهم فى معايشهم ، وإفاضةِ الأَمْنِ فيهم ، والمتابعة فى الحق[١] لهم ، والعدلِ فى القسمة بينهم ، والتقويم لأَوَدِهم ، والأَخْذِ لهم بحقوق الله عز وجل عليهم ، وكانت الرعية مؤدِّية إلى الإمام حقَّه فى المودة والمناصحة والمخالطةِ ، وَتَرْكِ المنازعة فى أمره ، والصبرِ عندمكروه طاعته، والمعونة له على أنفسهم،والشّدةِ على من أخَلَّ بحقه وخالف أمره ، غيرَ مُؤْثِرين فى ذلك آباءهم ولا أبناءهم ، ولا لابِسين[٢] عليه أحدا ، فإذا اجتمع ذلك فى الإمام والرعية ، تَمَّ صلاح الزمان ، وبنعمة الله تتمّ الصالحاتُ .

ثم إن الزمان الذى يليه : أن يَصْلُح الإمام نفسُه ويَفْسُد الناس ، ولا قوةَ بالإمام مع خِذْلان الرَّعية ومخالفتهم وزهْدهم فى صلاح أنفسهم ، على أن يَبْلُغ ذاتَ نفسِه فى صلاحهم ، وذلك أعظمُ ما تكون نعمةُ الله على الوالى ، وحُجَّةُ الله على الرعيـة بواليهم ، فبالْحَرَى أن يؤخـذوا بأعمالهم ، وما أخلَقَهم أن تُصيبهم فتنة أو عذابٌ أليم !

والزمان الثالث : صلاحُ الناس وفساد الوالى ، وهذا دون الذى قبله ، فإن لوُلاة الناس يدا فى الخير والشر ، ومكانا ليس لأحـد ، وقد عَرَفنا فيما يُعتبَر به : أنَّ ألفَ رجل كلُّهم مُفْسِدٌ وأَميرهم مصلِحٌ ، أقلُّ فسادا من ألفِ رجل كلُّهم مُصْلِحٌ وأَميرهم مُفْسِد ، والوالى إلى أن يصلح الله به الرعيةَ

---

(١) فى الأصل « فى الخلق » وهو تحريف .

(٢) يقال : لبست القوم : أى تمليت بهم دهرا ، قال الجعدى :

لبست أناسا فأفنيتهم وأفنيت بعد أناس أناسا

أقْرَبُ من الرعية إلى أن يُصلِحَ اللهُ بهم الوالىَ ، وذلك لأنهم لايستطيعون معاتبته وتقويمه ، مع استطالته بالسلطان ، والحَمِيَّة التى تعلوه .

وشر الزمان : مااجتمع فيه فسادُ الوالى والرعية ، وتلك كَارِثَةٌ[1] لم يتقادَمْ عهدُ كَوْنِهَا ، ولم تَعْفُ عنكم آثارُها ، وكلُّ هذه الطِّبَاق من الشدة والرخاء فيما يبتلى اللهُ عز وجل به عبادَه ، بجَزَاء مُعَدٍّ ، وكلمةٍ سابقة ، قال الله عز وجل : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ والْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » فقَوْلى فى هذا الزمان : إنه إلاَّ يكن خير الأزمان ، فليس على واليكم ذنب ، وإلاَّ يكن شَرَّ الأزمان فليس لكم حَمْدُ ذلك ، غيرَ أنا بحمد الله قد أصبحنا نرجو لأنفسنا الصلاحَ بصلاح إمامنا ، ولانخاف عليه الفساد بفسادنا ، وقد رأينا حَظَّه من الله عز وجل فى التثبُّت والعِصْمة ، فلم يَبْرَحِ اللهُ يَزيده خيرا ، ويَزِيد به رعيته مُذْ ولاَّه ، فعندنا من هذا وثائِقُ من عِبَر و بَيِّنَات ، ونحتسب من الله عز وجل أن لا يزال إمامُنَا يسارع فى مرضاة ربه ، بالاستصلاح لرعيته ، والصبرِ على مايُستنكَر منهم ، وقلةِ المؤاخـذة لهم بذنوبهم ، حتى يقلب الله له بصلاحه قلوبَهم ، ويفتح له أسماعَهم وأبصارهم ، فيجمع أُلْفَتَهم ، ويقوِّم أَوَدَهم ، ويُلْزِمهم مَرَاشِدَ أمورهم ، وتتم نعمة الله على أمير المؤمنين ، بأن يُصْلح له وعلى يديه ، فيكونوا رعية خيرِ راعٍ ، وَيكون راعِىَ خير رعية ، إن شاء الله وبه الثقة .

والذى أصبحْنا نَحْمَد من أمير المؤمنين كثير ، أنا ذا كِرٌ ما تيسَّر منه ؛

---

(١) فى الأصل « كارهة » وهو تحريف ، وقد أصلحت فى هامشه « كازمة » : أى كاسرة مجتاحة من كزمه يتقدم فمه كضرب : أى كسره واستخرج ما فيه ليأ كله .

وإلى هذا سِيقَ الحديثُ ، وهو [قيامُه على] رعاية العهد وجَحْدِ الجَحَدةِ ، وفيه استُبْطِئَ المستبطئُونَ ، ولِيمَ المُلِيمُونَ[1] ، فإن المستبطئين فى التقصير لأكثر من المستبطئين فى الإنكار ، فإنا قلَّما نَلْقَى من أهل العقل والمعاينة مُنكراً لنعمة الله بأمير المؤمنين على المسلمين إذا ذُكِّرَ ذلك ووُقِفَ عليه ، وقلَّما نَلْقَى إلا مقصِّرا من ناطق أو صامت ، ولم تُصبحوا معاتَبين على ما جَهلتم من حق أمير المؤمنين وفضله فى سير الأمور حين أقبلت ، فإن الأمر فى مستقبله مما يَشتبِهم على ذوى العقول ، وتشتد فيه حَيْرتهم ، لِمَا يشتبهُ عندهم ببعض مايتذكرون مما مضى : من أمورٍ لم يكن لها تمامٌ ، وأخرى تمَّتْ فلم تُحْمَد ، ولئن كانَ عِلْمٌ وصل إلى خاصَّةِ قَوْمٍ ، ماعلى من قَصُر ذلك عنه لومٌ[2] ، وإن كان ممن وَصَلَ ذلك إليه فأَخَذَه بحقّه ، فَضَّله بذلك ، فإذا آلتِ الأمور إلى مراتبها ، وحُصِّل محصولها ، وصَرَّحَتْ عَنْ مَحْضِها ، لم يكن فى جَهالتها عذر ، ولا فى تضييع حق ذى الحجة حجةٌ ، ومَنْ أشَدُّ جَهلا ، وأقطَع عذرا ، ممن لم يعرف النعمة ، ولم يقبل العافية ؟ نعوذ بالله أن نكون من الذين لايعقلون .

فتفهَّموا ماأنا ذاكر لكم ، وتدبَّرُوه بالحق والعدل ، فإن المرء ناظر بإحدى عيون ثلاث ، وهما الغاشَّتان والصادقة ــ وهى التى لاتكاد توجد ــ : عين مودةٍ تُريه القبيحَ حَسَنا ، وعين شَنآنٍ[3] تريه الحسن قبيحا ، وعين عدل تريه حسنها حسناً ، وقبيحها قبيحا .

---

(١) ألام فهو مليم : أتى مايلام عليه . (٢) فى الأصل « لومرق » وهو تحريف .
(٣) الشنآن : البغض والكراهية .

فتفكَّروا فيما جمع الله لأمير المؤمنين فى مَعْدِنه وفى سيرته ، وفيما ظَاهَرَ عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك فيما عسى القائل أن يبتغى فيه المَغْمَزَ والمقال ، فلعمرى إن للشيطان من أهواء الناس وألسنتهم فى الأمر لنصيباً ، وإن له لَمُسْتَرَاحًا بينهم ، يستوفيهم أمنيَّته ، ويُصدِّق عليهم ظنَّه ، ويُوحِى إليهم بمكايده ، فجعل الله كيده ضعيفاً ، وحزبه مغلوبا ، وجعله وإياهم نصيباً لجهنم من أجزائه المقسومة لأبوابها وحَطَبِها ووَقودها وحَصَبها[1] ليعدلَ لها .

فمن كان سائلاً عن حق أمير المؤمنين فى مَعْدِنه ، فإن أعظم حقوق الناس منزلةً ، وَأَكرمها نِسبةً ، وأولاها بالفضل ، حقُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة ، وإمام الهدى ، ووارث الكتاب والنبوة ، والمهيْمِن[2] عليهما ، وخاتَم النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله بشيراً ونذيراً ، ودَاعِياً إلى اللهِ بِإِذْنِهِ وسِراجًا مُنِيراً . ثم هو باعثه يوم القيامة مَقامًا محموداً ، شرع الله به دينه ، وأتمّ به نورَه على عهده ، ومحق رءوس الضلالة ، وجبابرة الكفر ، وخوّلَه الشفاعة ، وجعله فى الرَّفيق الأعلى ، صلى الله عليه وسلم » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٦٠)

٢٨ — تحميد لابن المقفع

« الحمد لله ذى العَظَمة القاهرة ، والآلاء[3] الظاهرة ، الذى لا يُعْجِزه

---

(١) الحصب : الحطب : وما يرمى به فى النار

(٢) المهيمن : الأمين أو المؤتمن أو الشاهد .

(٣) الآلاء : النعم .

شيء ولا يمتنع منه ، ولا يدفع قضاؤه ولا أمره « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » والحمد لله الذي خَلَقَ الخلق بعلمه ، وَدَبَّرَ الأمور بحُكمه ، وأَنْفَذَ فيما اختار واصطفى منها عَزْمَه ، بقدرةٍ منه عليها ، وَمَلَكةٍ[1] منه لها ، لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، ولا شريك له في شيء من الأمور ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، ما كان للناس الخِيَرَةُ في شيء من أمورهم ، سُبْحَانَ ٱللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الذي جعل صَفْوَةَ ما اختار من الأمور دينَه الذي ارتضى لنفسه ، ولمن أراد كرامتَه من عباده ، فقام به ملائكتُه المقرَّبون ، يُعَظِّمون جلاله ، ويقدِّسون أسماءه ، ويذكرون آلاءه ، لا يَسْتَحْسِرون[2] عن عبادته ولا يستكبرون ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ، وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه في أرضه ، يُطيعون أمره ، وَيَذُبُّونَ عن مَحَارمه ، ويصدِّقون بوعده ، ويُوفون بعهده ، ويأخذون بحقه ، ويجاهدون عدوَّه ، وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم ، وإفلاجه[3] حُجَّتَهم ، وإعزازِهِ دينَهم ، وإظهارِهِ حقَّهم ، وتمكينِهِ لهم ، وكانَ لِعَدُوِّهِ وعدوِّهم عندما أوعدهم من خزيه ، وإحلالِهِ بأسهم . وانتقامِهِ منهم ، وغَضَبه عليهم ، مَضَى على ذلك أمرُه ، ونَفَذ فيه قضاؤه فيما مضى ، وهو مُمْضِيهِ ومُنْفِذه على ذلك فيما بقي ، لِيُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، وليُحقَّ الحق ويُبْطل الباطل ولو كره المجرمون .

---

(١) الملكة : الملك . (٢) أي لا يعيون ولا يملون . (٣) أي نصره .

والحمد لله الذى لا يَقْضى فى الأمور ولا يدبِّرها غيرُه ، اُبتدأها بعلمه ، وأمضاها بقدرته ، وهو وَليُّها ومنتهاها ، وولىّ الخِيَرَةِ فيها ، والإمضاء لما أحب أن يُمْضِيَ منها ، يَخْلُقُ مَايَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الفتاح العليم ، العزيز الحكيم ، ذى المنّ وَالطَّوْل ، والقدرة وَالحَوْلِ ، الذى لا مُمْسِكَ لِمَا فتح لأوليائه من رحمته ، ولا دافِعَ لما أنزل بأعدائه من نقمته ، ولا رادَّ لأمره فى ذلك وقضائه ، يفعل مايشاء ، ويحكم مايريد .

والحمد لله ، المُثِيب بحمده ومنه ابتداؤه ، والمنعِم بشكره وعليه جزاؤه ، والمُثْنِي بالإيمان وهو عطاؤه » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٢)

٢٩ — كتاب ابن المقفع إلى بعض إخوانه

وكتب ابن المقفع إلى بعض إخوانه :

« أما بعد ، فتعلَّم العلْم ممن هو أعلمُ به منك ، وعلِّمه مَن أنت أعلَمُ به منه ، فإنَّك إذا فعلتَ ذلك علِمْتَ ماجهِلْتَ ، وحفِظتَ ماعلِمْتَ » .

(أمالى السيد المرتضى ١ : ٩٥)

٣٠ — وله فى وصف أحد إخوانه

ومن قوله يصف أخاله(١) :

« إنى مخْبِركَ عن صاحب لى كان أعظم الناس فى عينى ، وكَان رأسَ ما عظَّمه فى عينى صِغَرُ الدنيا فى عينه ، كان خارجًا من سلطان بَطْنه ، فلا يتشهَّى ما لا يجد ، ولا يُكثِر إذا وَجَد ، وكان خارجا من سلطان فَرْجه ، فلا يدعو إليه(٢) رِيبةً ، ولا يستخفّ له رأيًا ولا بدَنا ، وكَان لا يَأشَرَ(٣) عند نعمة ، ولا يستكين عِند مصيبة ، وكان خارجا من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يُمارِى(٤) فيما علِم ، وكان خارجا من سلطان الجَهالة ، فلا يتقدم أبداً إلا على ثِقةٍ بمنفعَة ، وكان أكثرَ دهره صامتا ، فإذا نطقَ بَذَّ القائلين ، وكان يُرَى ضَعيفا مستضعَفا ، فإذا جَدَّ الجِدُّ فهو الليث عاديا ، وكان لا يدخل فى دَعْوَى ، ولا يشارِك فى مِراء ، ولا يُدْلِى بحُجَّةٍ حَتى يَرى قاضيا فَهِماً وشهودا عُدُولا ، وكَان لا يلوم أحدا على ماقد يكون العُذْرُ فى مثله حتى يعلم ما اعتذارُه ، وكَان لا يشكو وَجَعَهُ إلا إلى من يرجو عنده البُرْءَ ، ولا يستشير

(١) وردت هذه القطعة فى آخر الأدب الكبير لابن المقفع ، وإنما ذكرتها هنا لوقوع الاختلاف فى نسبتها إليه ، فهى فى الأدب الكبير وزهر الآداب تعزى إليه ، ونسبها الشريف الرضى فى « نهج البلاغة ج ٢ : ص ١٤٧ » إلى الإمام على كرم الله وجهه ، ونسبها ابن قتيبة فى « عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٥٥ » إلى الحسن بن على رضى الله عنه ، مع اختلاف فى الرواية .

(٢) وفى زهر الآداب « فلا تدعوه إليــه مؤنة » وأرى أن صوابه « فلا يدعو إليه مؤنة » كما فى رسائل البلغاء .

(٣) هذه الجملة وما بعدها واردتان فى زهر الآداب دون الأدب الكبير ، وأشر كبطر وزنا ومعنى ، وفى زهر الآداب « لايتأثر » وهو تحريف .

(٤) لايمارى : لايجادل ، وفى الأدب الكبير « ولا ينازع »

صاحبا إلا من يرجو عنده النصيحة ، وكان لا يتبرّم[1] ولا يتسخط ، ولا يتشكى ولا يتشهّى ، وكان لا ينتقم على الولىّ ، ولا يغفل عن العدو[2] ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقْتها — ولن تطيقَ — ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع » . (الأدب الكبير ص ١٢٩ ، وزهر الآداب ١ : ٢٢٤)

٣١ — كتاب ابن المقفع إلى صديق له يهنئه بمولودة

وكتب ابن المقفع إلى صديق له ، ولدت له جارية :

« بارك الله لكم فى الأُبْنَةِ المستفادَة ، وجعلها لكم زَيْنا ، وأجرى لكم بها خيرا ، فلا تَكْرَهْها ، فإنهن الأمّهات والأَخَوات ، والعمّات والخالات ، ومنهن الباقياتُ الصالحات ، وَرُبَّ غُلامٍ ساء أهله بعدَ مَسرّتهم ، وَرُبَّ جاريةٍ فرّحت أهلها بعد مساءتهم » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٤)

٣٢ — كتابه يعزى عن ولد

وكتب تعزية عن ولد :

« أعظم اللهُ على المصيبة أجْرَك ، وأحسنَ على جليل الرُّزْء ثوابك ، وَعَجَّل لك الخَلَفَ فيه ، وذَخَرَ لك الثوابَ عليه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٣١٨)

---

(١) يتبرم : يضجر . (٢) وفى زهر الآداب « ولا ينتقم من العدو ، ولا يغفل عن الولى » .

٣٣ — كتابه يعزى عن ولد

وكتب يعزى عن ولد أيضاً :

« إنما يستوجب على الله وَعْدَه ، مَن صَبَر لِله بحقه ، فلا تَجمعَنَّ إلى ما فُجِعْتَ به من ولدك ، الفجيعةَ بالأجر عليه والعِوَضِ منه ، فإنها أعظم المصيبتين عليك ، وأنكَى المَرْزِئَتين[1] لك ، أخلف الله عليك بخير ، وذَخَر لك جزيلَ الثواب » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

٣٤ — كتابه يعزى عن بنت

وكتب يعزى عن ابنة :

« لا يَنْقُصِ الله عَدَدَك ، ولا يَنْزِعْ عنك نعمته التى ألبَسك ، وأحسَنَ العِوَض لك ، وجعل الخَلَف لك خيراً مما رَزَأك به ، وما أعطاك خيراً مما قَبَضَ منك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

٣٥ — كتابه يعزى عن بنت

وكتب يعزى عن بنت أيضاً :

« جَدَّد الله لك من هِبَته ما يكون خَلَفا لك بما رُزِئْتَه ، وعِوَضاً من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليه أضعافَ مارَزَأك به منها ، فما أقلّ

(١) المرزئة والرزيئة والرزء : المصيبة .

كثير الدنيا ، فى قليل الآخرة ، مع فَنَاء هذه ، ودوام تلك »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢١٨)

٣٦ — كتاب تعزية له

وله تعزية أيضا :

« أعظم الله أجرك فى كل مصيبة ، وأوْزَعَك[1] الشكرَ على كل نعمة، أعْرِف لله حَقَّه ، واُعتصِمْ بما أمر به من الصَّبر، تَظفَرْ بما وعد من عظيم الأجر»

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢١٨)

٣٧ — كتاب آخر

وله أيضا :

« أما بعد ، فإن أمْرَ الآخرة والدنيا بيد الله ، هُو يدَبِّرهما ويقضى فيهما مايشاء ، لارادَّ لقضائه ، ولا مُعَقِّبَ لحُكْمه ، فإن الله خالق الخلق بقدرته ، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة ، لئلا يطمعَ أحد من خلقه فى خُلْدِ الدنيا ، ووقَّت لكل شىء ميقاتَ أَجَل ، لايَسْتأْخِرُونَ عنه ساعَةً ولايَسْتَقْدِمُونَ ، فليس أحد من خَلْقه إلا وهو مستَيْقِنٌ بالموت ، لايرجو أن يخلِّصه من ذلك أحد ، نسأل الله خيرَ المُنْقَلَب .

وبلغنى وفاةُ «فلان» فكانت وفاته من المصائب العِظام ، التى يُحْتَسَب ثوابُها من ربنا ، الذى إليه مُنْقَلَبُنا وَمَعَادُنا ، وعليه ثوابُنا .

---

(١) أى ألهمك .

فعليك بتقوى الله والصبر ، وحُسْنِ الظن بالله ، فإنه جعل لأهل الصبر صلواتٍ منه ورحمةً وجعلهم من المُهْتَدِين» .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٥)

٣٨ — كتابه إلى صديق له يستقضيه حاجة

وكتب إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة :

« أما بعد ، فإن مَن قضى الحوائج لإخوانه ، واستوجَبَ بذلك الشكرَ عليهم، فلِنَفْسِهِ عَمِل لا لهم ، والمعروفُ إذا وضع عند من لا يشكره فهو زَرْعٌ لا بدَّ لزارعه من حَصاده ، أو لِعَقِبِه من بعده .

وكتبتُ إليك ، ولحالنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجةٌ ، أوَّلُ ما فيها معروفٌ ، تستوجِبُ به الشكرَ علينا ، وتَدَّخِرِ به الأيادىَ قِبَلنَا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣: ٣٩٢)

٣٩ — كتاب آخر

وكتب فى استقضاء حاجة أيضاً :

« إن الناس لم يَعْدَموا أن يطلبوا الحوائج إلى الخواصِّ من الإخوان ، وأن يتواصلوا بالحقوق، ويَرغبوا إلى أهل المقامات ، ويتوسَّلوا إلى الأكفاء ، وأنت بحمدالله ونعمته من أهل الخير ، وممن أعان عليه ، وبَذَل لأهل ثقته المُصَافِينَ ، وإنّ بَذْلَ النفوس فيه ، وإعطاء الرَّغيب ، ليس منك ببِكْر ولا طَرِيف ، بل هو تَلِيدٌ ، أتْلَدَه أوّلُكم لآخركم، وأورثه أكابرُكم أصاغِرَكم.

ومن حاجتى « كذا » ، وأنت أحقُّ من طلبْتُ إليه واستعنْتُه على حوادث الدهر ، وأنزلتُ به أمرى ، لِقُرْب نسبك ، وكريم حَسَبك ، ونباهتِك وعلوِّ منزلتك ، وجسيم طبائعك ، وعوامّ أياديك إلى عشيرتك وغيرها ، فليكن من رأيك ما حمَّلتُك من حاجتى ، على قدر قَسْمِ الله لك من فضله ، وما عوَّدك من مِنَنه ، ووَسِعَ غيرى من نَعمائك وإحسانِك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٢)

٤٠ — كتاب له فى السلامة

وله فى السلامة :

« أما بعد ، فقد أتانى كتابك فيما أخبرتَنَا عنه ، من صلاحك وصلاح ما قِبَلك ، وفى الذى ذكرت من ذلك نعمةٌ مُجَلِّلة عظيمة ، نَحْمَدُ عليها وَلِيَّها المُنْعِمَ المُفْضِلَ المحمودَ ، ونسأله أن يُلْهِمنا وإياك من شكره وذكره ما به مَزِيدُها ، وتأديةُ حقِّها .

وسألتَ أن أكتب إليك بخبرنا ، ونحن من عافية الله وكِفَايته ودفاعِه على حال لو أطنبتُ فى ذِكرها ، لم يكن فى ذلك إحصاء للنعمة ، ولا اعترافٌ لِكُنْهِ الحق ، فنرغبُ إلى الذى تَزداد نِعمُه علينا فى كل يوم وليلة تظاهُراً ، ألاّ يجعلَ شكرنا منقوصا ولا مدخولا ، وأن يرزقنا مع كل نعمة كِفاءَها ، من المعرفة بفضله فيها ، والعملَ فى أداء حقها ، إنه ولىٌّ قديرٌ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٨ و ٣٧٦)

٤١ — كتاب آخر إلى ابن الثقفي

وله في السلامة إلى ابن الثَّقَفي :

« أما بعد ، فإن مما نَمَّى الله به مَناقِبك الكريمة المحمودةَ الفائِتةَ عن القول والوصف ، أنك موضعُ المُؤْنات(١) عن إخوانك ، حَمَّالٌ عنهم أثقال الأمور ، ومما وضعت عنه المؤنةَ ارتفاعُك عن الأمور التي يطأطأ إليها الكلام على ألسنة الناس إذا أباحوه وبَهْرَجوه(٢) ، وضيّعوا القولَ ونَسُوا القَصْدَ فيه ، وأخذوا به في كل فن ، وأَصْفَوا(٣) بصَفْوَته غيرَ أهلها فيما لاينبغي لهم من التشبيه والتوقير والتفضيل .

كان من خبري بعدك أني قَدِمْتُ بلد كذا ، فتهيأ لي بعض ماشَخَصْتُ له ، والمحمودُ على ذلك اللهُ عز وجل ، وأنا على أن يأتيني خَبَرُكَ محتاجٌ ، فأمّا جُمْلة خَبَري في فراقك فقَلْبِي مكةُ : كلٌّ ماسواك حَرَامٌ فيها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٦)

٤٢ — كتاب آخر

وله جواب في السلامة :

« أما بعدُ ، فقد أتاني كتاب الأمير ، رَجْعَةَ كتابي إليه ، فكان فيه تصديقُ الظن ، وتثبيت الرأي ، ودَرْكُ البُغْية ، والله محمودٌ ، فأَمْتَعَ اللهُ

---

(١) المؤنة كغرفة وركوبة وسورة : الثقل .

(٢) البهرجة : أن يعدل بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيرها .

(٣) أصفاه بكذا : آثره .

بالأمير ، وأمتعه بصالح ما آتاه ، وزاده من الخير مستعمرًا له فيه ، مستعملا بطاعته التي بها يفوز الفائزون ، والذي رَزَق اللهُ من الأمير فهو عندي عظيم نفيس ، وكلُّ الذي قِبَلي عن مكافأته فمقصِّر ، إلا أنه ليس في النية تقصيرٌ ، ولا بلوغَ لشيء من الأمور إلاَّ بتوفيق الله عز وجل ومَعُونته ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٦)

٤٣ — كتاب في السلامة

وفي السلامة أيضاً[١] :

« كتبتُ إليك ، وأميرُ المؤمنين وما يأتيه من لِين الطاعة واتِّساق الكلمة ، عَمَّت في الداني والقاصي من بُلْدانه ، وحَواشِي سُلْطانه ، على ما يحمد الله عليه ، فإن نعمة الله على أمير المؤمنين تَجْرِي على أذْلالها[٢] ، وتنقادُ في أسهلِ سبيلها » (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٧)

٤٤ — كتاب لابن الثقفي في السلامة

وكتب ابن الثَّقَفي في السلامة :

« أما بعد ، أصلَحَنا الله وإياك صلاحًا دائمًا يجمع لنا ولك به الفضيلةَ في العاجلة ، والكرامةَ في الآجلة ، فإني لا أعلم أمراً أعظمَ عند أهل منفعةٍ من أمرٍ تُرِكَ ذِكْرُه لفضله ، ولا أعلمُ أمراً أحقَّ أن يستغنيَ أهلُه بفضله

(١) هكذا ذكر ابن طيفور ، ولم ينص على أنه لابن المقفع .
(٢) يقال : أمور الله جارية أذلالها وعلى أذلالها : أى مجاريها جمع ذلّ بالكسر .

عندهم ، عن ذكره فيما بينهم ، من أمر وشجَ[1] اللهُ بيننا وبينك فى الدنيا ، حتى نكون به إخوانا فى الآخرة ، حين تصير الخُلَّة[2] عداوةً بين أهلها ، إلا عداوة المتقين .

كتبتُ والأمير فى دِخلة أمره وجميع حاله ومَن قِبَله من الجند والرعية على « كذا » ، ونحن فيما يحبُّ امرؤ أن يكون عليه أحد من إخوانه ، فإنى لا أرجو إلاَّ أن أكونَ مقصِّرًا عن أفضل غاية ذلك ، فى تعظيم حقك ، ورعاية وُدِّك وعهدك وحفظك ، إن شاء الله .

وأمَّا ما قِبَلَ فلان فليست بك إلينا فيه ولا إلى غيرنا حاجة ، أنت منه بمكانِ أخصِّ الخاصَّة فى المودة والثِقَة ، وأرْضَى الرِّضا فى الدين والمُروءة ، ونسأل الله أن يَزِين كلَّ محسن بك ظنا ، وطالبٍ لك فضلاً ، بتصديق أحسن ما نظَر وتعرَّف » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٦)

٤٥ — كتاب ابن المقفع إلى يحيي بن زياد الحارثى

ولعبد الله بن المقفع إلى يحيي[3] بن زياد الحارثى ابتداء فى المؤاخاة :

« أما بعد ، فإن أهلَ الفضلِ فى اللُّب ، والوفاءِ فى الودِّ ، والكرمِ فى الخُلُق ، لهم من الثناء الحسَن فى الناس لسانُ صِدْقٍ يُشِيد بفضلهم ، ويُخْبِر عن صحة ودِّهم ، وثِقَةِ مؤاخاتهم ، فيتخيَّر إليهم رغبةَ الإخوان ، ويصطفى

(١) أى ألف ووصل . (٢) الخلة : الصداقة .

(٣) من ولد الحارث بن كعب ، شاعر مترسل بليغ — انظر الفهرست ص ١٧١ ، وله أخبار متفرقة فى الأغانى .

لهم سلامةَ صدورهم ، ويَجتَنِي لهم ثمرةَ قلوبهم ، فلا مُثْنِيَ أفضلُ تقريظا ، ولا مُخْبِرَ أصدقُ أُحدوثةً منه ، وقد لزِمتَ[1] من الوفاء والكرم فيما بينك وبين الناس طَريقةً محمودةً ، نُسِبْتَ إلى مزيتها في الفضل ، وجُمِل بها ثناؤك في الذِّكر ، وشَهِدَ لك بها لسانُ الصِّدق ، فعُرِفْتَ بمَنَاقِبها ، ووُسِمْتَ بمحاسنها ، فأسرَعَ إليك الإخوان برغبتهم مُستَبِقِين ، يَبتدرون[2] وُدَّك ، ويَصِلُون حَبْلَك ، ابتدارَ أهلِ التنافُس في حَظٍّ رغِيبٍ ، ونَصَبْتَ لهم غايةً يجرِي إليها الطالبون ، ويفوزُ بها السابقون ، فمن أثبتَ اللهُ عندك بموضع الحِرْز والثقة ، وملأ بك يَدَه من أخٍ وفاء ووُصْلة ، واستنام منك إلى شِعْبٍ[3] مأمون ، وعَهْدٍ محفوظ ، وصار مغمورًا بفَضْلِكَ عليه في الودِّ ، يتعاطَى من مكافأتك ما لا يستطيع ، ويطلُبُ مِنْ أثَرك في ذلك غايةً بلوغُها شديدٌ ، فلو كنتَ لا تُؤاخِي من الإخوان إلاَّ من كَافَأ بودِّك ، وبلغ من الغايات حَدَّك ، ما آخيتَ أحدا ، ولَصِرْتَ مِنْ الإخوان صِفْرا ، ولكن إخوانك يُقِرُّون لك بالفضل ، وتَقبَلُ أنت ميسورهم من الودِّ ، ولا تجشِّمهم كُلَفَ مكافأتك ، ولا بلوغَ فضلك فيما بينك وبينهم ، فإنما مَثَلُكَ في ذلك ومثلهم كما قال الأول :

---

(١) وجاء في العقد الفريد (٢ : ١٩٦) : « فصل لمحمد بن الجهم : إنك لزمت من الوفاء طريقة محمودة ، عرفت بمناقبها ، وشهرت بمحاسنها ، فتنافس الإخوان فيك يبتدرون ودك ، ويتمسكون بحبالك ، فمن أثبت الله له عندك ودا ، فقد وضع خلته موضع حرزها » — والخلة بالضم : الصداقة — وفي الأصل « حلته » وهو تصحيف .

(٢) أي يتسابقون إليه . (٣) استنام إليه : سكن واطمأن ، والشعب : الطريق في الجبل .

ومَن ينازِعْ سعيدَ الخيرِ فى حَسَبٍ ... يَنْزِعْ طَلِيحًا ويُقْصِرْ قَيْدَه الصَّعَدُ[١]

ولم أُرِدْ بهذا الثناء عليك تزكيتَك ، ليكون ذلك قُرْبةً عندك ، وآخِيَةً[٢] لى لديك ، ولكن تحرَّيتُ فيما وصفتُ من ذلك الحقَّ والصدقَ ، وتنكَّبْتُ[٣] الإثم والباطلَ ، فإن القليلَ من الصدق البرىء من الكذب ، أفضلُ من كثيرِ الصدق المَشُوبِ بالباطل ، ولقد وصفْتُ من مَنَاقبك ومحاسنِ أمورك ، وإنى لأخاف الفتنةَ عليك حين تسمع بتزكيةِ نفسِك ، وذِكْرِى ما ذكرتُ من فضلك ، لأن المدح مَفْسَدةٌ للقلب ، مَبْعَثَة للعُجْب ، ثم رجوتُ لك المَنَعة والعِصْمة ، لأنى لم أذكُر إلا حقًّا ، والحقُّ ينفِى عن عن اللبيب العُجْبَ ، وخُيَلاءَ الكِبر ، ويَحْمِلُه على الاقتصاد والتواضع ، وقد رأيتُ — إذ كنتَ فى الفضل والوفاء على ما وصفتُ منك — أنْ آخُذ بنصيبى من وُدِّك ، وأَصِلَ وثيقةَ حَبْلِى بحَبلك ، فيَجْرِىَ بيننا من الإخاء ، أواصِرُ[٤] الأسباب التى بها يستحكِمُ الودُّ ، ويدوم العهدُ ، وعلمتُ أن تَرْكى ذلك غَبْنٌ ، وإضاعتى إياه جَهْلٌ ، لأن التاركَ للحَظِّ داخِلٌ فى الغَبْنِ ، والعائد عن الرشد مُوجِفٌ[٥] إلى الغَىِّ ، فارغَبْ مِنْ وُدِّى فيما رغِبت فيه مِنْ وُدِّك ، فإنى لم أَدَعْ شيئًا أستَتْلِى به منك الرغبةَ ، وأَجْتَرُّ به منك المودةَ ، إلا وقد اقْتَدْتُ إليك ذريعتَه ، وأعملْتُ نحوك مَطِيَّتَه ، لِتَرَى حِرْصى على مودتك ، ورغبتى فى مؤاخاتك ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠١)

---

(١) طلح البعير كمنع : إذا أعيا وكلّ وسقط من السفر ، فهو طليح ، والصعد : المشقة .

(٢) الآخية بالتشديد والتخفيف : مثل عروة تشد إليها الدابة ، ومعناها هنا وصلة وقربة .

(٣) تنكب : عدل وتجافى .

(٤) أواصر جمع آصرة : وهى حبل صغير يشد به أسفل الخباء .

(٥) أى مسرع .

٤٦ — رد يحي بن زياد على ابن المقفع

فكتب إليه يحي بن زياد :

« أما بعد ، فإنا لمّا رأينا موضعَ الإخاء ممن يحتمله فى تأنيسِه من الوَحْشة ، وتقريبِه لذى البُعْدة(١) ، ومشاركته بين ذوى الأرحام فى القُرْبة ، لم نَرْض بمعرفة عَيْنِه دون معرفة نِسْبته ، فنسَبْنا الإخاء فوجدناه فى نِسْبته لايَستحقُّ اسمَ الإخاء إلا بالوفاء ، فلما انتقلْنا عنه إلى الوفاء فنسَبْناه ، انتسَبَ لنا إلى الصبر ، فوجدناه مُحتويا على الكرم ، والنَّجدة ، والصدق ، والحياء ، والنَّجابة ، والزَّكانة(٢) ، وسائر مالا يأتى عليه العددُ من المحامدِ ، ثم انحَدَرْنا فيما أَصْعَدنا فيه من هذا النَّسَب ، فعُدْنا إلى الإخاء فوجدناه لا يقُوم به إلا مَنْ هذه الخِصالُ كُلها أخلاقُه ، ولمّا استوجب الإخاء مَسالِكَ المَحْمَدة كلها ، رأَيْنا أن نتخيَّر له المواضع فى صواب التوزير ، وإحكامِ التقدير ، وعلِمْنا أن الاحتباس به ، أحسنُ من الندم بعد بَذْلِه ، واستوجَبَ ـ إذ كان جِمَاعَ المحامدِ ـ أن نتخيَّرَ له محامِلَه التى كان يُحْمَلُ عليها ، فكان الناس فيما احتبَسْنا به عنهم من الإخاء ، على صِنفين : فصنفٌ عَذَرُونا بالتحبُّس للتخير ، إذ كان التخيُّر من شأنهم ، وصنف هم ذوو سُرْعة إلى الإخاء ، وسُرعة فى الإنتهاء ، فقَدَّموا اللائمة(٣) ، واستعجلوا بالمودَّة ، وتركوا باب التَّروِيَة ،

(١) ذو البعدة : الذى يبعد فى المعاداة ، ويقال أيضا إنه لذو بعد وبعدة بالضم فيهما : أى لذو رأى وحزم ، يقال ذلك للرجل إذا كان نافذ الرأى ذا غور وذا بعد رأى .

(٢) الزكانة : الفطنة والحدس الصادق . (٣) اللائمة : اللوم .

واستحلَوا عاجلَ المحبة ، ولهَوا عن آجلِ الثقة ، فكانوا بذلك أهلَ لائمةٍ ، ولم يجد المعْذِرون[١] إلا الصبرَ على تلك ، والاستعمالَ للرأى ، والاستعدادَ بالعُذْر عند المحاجَّة .

وقد فهمتُ كتابَك إلىَّ بالمودة ، واستحثاثَك إياى فى الأخوة ، وما دعَوتَ به من حُرْمة المحبة ، فنازعَت[٢] إليك نفسى بمثل الذى نازعَتْ به إلىَّ نفسُك ، فواثبتْنى عادةُ الاستعمال للتروية فى الخبرة ، والتخيُّر للمغَبَّة ، فجُلْتُ عن كتابك جولَةً غيرَ نافرة ، ثم راجعتُ مقاربتَك ، فقلتُ : أُلْقى إلىَّ أسبابَ المودة قبل كشْف الغطاء بالخِبرة ، فخشِيتُ أن تعْذِر نفسك بالتقدم ، وتُحْدِث الزهادة للتعسُّف بالجهالة عند الخِبرة ، فجُلْتُ عن هذا جولَةً كالجولة الأولى ، ثم عاودت إسعافَك . وطاعةَ التشوق ، ومعصية التخيُّر ، ثم قلتُ ما حالُ مَنْ جعَلَ الظنَّ دون اليقين ، والتقدمَ قبلَ الوَثيقة ؟ فلما كان الرأى لى خصْما ، تنكَّبْتُ الوقوعَ فى خِلافه ، فلم أجدْ إلا الإدبارَ عن إقبالك سبيلا ، ولا مع ذلك فى طاعة الشوق حُجَّةً ، فتَبيَّنْتُ[٣] السبيلَ بين ذلك إلى إعطائك طرَف حبلِ الإخاء ، فى غير الخروج من سبيل التخيُّر ، وكَرِهْتُ أن تستعبدَنى بالإخاء ، قبل أن أعرفَك بحُسْن المَلَكَةِ ، وأن تستظهِرَ بى[٤] على الأعداء ، قبل أن أعرِفك بعَدْلِ السِّيرة ، وأن تستضىءَ بى فى ظُلَمِ الجهل ، قبل أن أعرفك بعقْدِ اللُّبِّ ، وأن تستمكِنَ بى فى المَطَالب ، قبل أن أعرِفك بقَصد الهِمَّة ، فقدَّمْتُ إليك الترحيبَ والعِدَة ، وأحسنت

---

(١) المعذر : من كان له عذر . (٢) أى اشتاقت .

(٣) فى الأصل « فتنيت » وهو تحريف . (٤) أى تستعين .

عنك المفاوضَةَ والثّقة ، وتنظَّرت أن تُثْمِرَ لى فأذوقَ جَناكَ[1] ، فأُعرفَكَ بالمَذَاقة فى الطَّعم ، إما لافظا ، وإما مُستبلِعاً[2] ، فإن كان اللَّفْظَ لم أكن من الرأى فى قلبه ، وإن كان الاستبلاعُ ذوّقتك ما تشوقتَ إليه مما أُدّعيتَ منى به الخِبرةَ ، وأوّلُ ما أنا معتبِرٌ به منك المواظبةُ على استنجاح ما سألتَ أو السآمةُ له ، فإن كانت المواظبة فأحَدُ الشهود المعدِّلين[3] ، وإن كانت السآمة ، فأنت عن حَمْلِ ما تُعطى أضعفُ منك عن حمل ما تطلب ، طالِعْنِى بكتبك ، فإنك قد حَلَلْتَ قِبَلى عَقْدا من التحفظ ، وعَقَدت عَقْدا من التقرب ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٢)

٤٧ — كتاب أبى نصر الرقاشى إلى يحي بن زياد

وكتب أبو نصر[4] الرّقاشِى إلى يحيِ بن زياد فى الإخاء :

« أما بعدُ ، أصلحك الله وأمتَعَ بك ، فى سَترٍ منه وكرامة دائمة ، فإن خيرَ ما استفاد المرء لنفسه ، واستعان به على مُروءته ، واعتقد[5] لدنياه وآخرته ، وإن كان الله قد أكمَلَ عقلَه ، وأحسَنَ إليه فى جميع أموره ، الأدبُ الصالحُ الذى به يُكشَفُ غِطاءُ الجهل ، وتجلِى غِشاوة العمَى ، ويستنبط به مَذْخور العلم ، ويستدل به على سبيل الرشاد ، وإنى وجدت

(١) الجنى : مايجنى . (٢) فى الأصل « مستبلغا » وهو تصحيف .

(٣) أى المزكين ، من عدّله إذا زكاه .

(٤) هو يونس بن أبى ذروة ، كتب لعيسى بن موسى — انظر الفهرست ص ١٨١ —

(٥) أى امتلك ، اعتقد مالا : اقتناه .

الطريق إلى سبيل الخيرِ الأدبَ ، لأن ما سَلَف من عهد الله فى الماضين ، وبقِىَ فى الغابرين ، تأديبٌ لهم ، وحُجَّة عليهم ، ولم أرَ من درجات الخير درجةً ، ولا فى أعلى الشرف مَحَلَّةً ، إلا والأدب الصالح مفتاحُ بابها ، والسُّلَّم إلى إحراز نُبلها ، قَبِلَ ذلك مَن قَبِلَه فكان أسعَدَ به ، وضيَّعه مَن ضَيَّعه فكان أشقَى به .

وقد ابتليتنى فى ذلك أحسَن البلاء ، ووليِتَنى فيه بأحمدِ الولاية ، فحملتَ منى المؤنةَ ، وقَبِلْتَنى بالأدب على الصغيرة ، ورضيتنى مُحْرِماً[1] عَتِيقاً ، لا تدَّخِرنى نُصْحاً ، ولا تألُونى رشداً ، فعلَّمتنى ما لم أعلَمْ ، وبصَّرتنى ما كنتُ أجهل ، حتى وسَمْتَنى بعد الإغفالِ ، ونوَّهتْ بى بعد خُمُول ذِكرى ، وشهرَتْنى بعد الأُفُول بَسْطةٌ من طَوْلك ، ويدٌ من فضلك ، كأنك تشكر لذلك نعمةً ، أو تَجْزِى[2] مِنَّةً ، فكنتُ فى نعمتك إلى يومى هذا ، قد أعطيتنى منك النَّصَفَ ، ، مودةَ كريمٍ بنا وحفظًا وإنعامًا ، وليس المُنْعِم كمتحمِّل النعم ، إفضالاً بعد إفضال ، ورِبابةً[3] بحسن بلائك ، وتنبيها على كريم فعالك ، فِعلَ ذى الشرف بذى الشرف ، والوالدِ ذى النعمة ، فأصفَيْتَنى دونَ[4] لُطْفِ بَنِى الأخِ ، وَلَطُفَتْ لِى دُونَ منزلةِ العموم ، أخًا برًّا ، لا بل أبًا كريمًا ، فَخَلَفْتَ لى من سواكَ ولستَ بمخلوف ، وكفيتنى الهَمَّ بإذن الله ، وسَدَدْتَ

(١) من أحرم : إذا دخل فى الحرم ، دخل فى حرمة لا تهتك .

(٢) فى الأصل « تجرى » وهو تحريف .

(٣) رب النعمة والصنيعة كنصر ربابة : نماها وزادها وأتمها وأصلحها .

(٤) دون : نقيض فوق ، وتأتى بمعنى فوق ، وهو المراد هنا ، والمعنى : وآثرتنى بلطف فوق لطف بنى الأخ .

عنى ثُلْمَةَ البعيد ، ثم لم يأتِ علىّ يومٌ منذُ أنزلنى الله منك بحيثُ أنزلنى ، وأصفانى منك بما أصفانى ، إلاَّ وأنا لك فيه أحْمَدُ من الماضى قبلَه ، وكذلك أنت لى فى غَدِكَ إن شاء الله .

ثم رأيتك لا تزداد على الخِبْرة إلا طِيبا ، ولا على بُعد الغاية إلا قُربا ، ولا على طول الأيام إلا حُسْنا ، لم أتحلَّل من عَقدك عُقدة ، ولم أزدَد من فضلك إلا وَفْرا ، ولم يُقصِّر بى[1] عن أداء حقك والمحافظةِ عليه وعلى ما يجب من المعرفة بفضلك ، تضييعُ الأمانة ، ولا نسيانُ النعمة ، ولا نُقصانُ الشكر .

وقد علمتُ أن لك فى الشكر رأيًا ، وفى استخراجك الشكرَ منى دليل على أنى من أهله إن شاء الله ، فإنى وجدت الشكر شقيق الحَسَب ، والوفاء وجدته يَجْزِى[2] من النعم ماقبله ، ويستدعى تمامَها بعده ، فأىُّ امرئٍ أخبَثُ صنيعاً إلى نفسه فيما يسوءها[3] متّى إذا كان شكرك عندى منقوصاً ، وبَلاؤك لدىّ مكفوراً ، وفضلُك علىّ مجهولا ؟ ولكنه لم يساعدنى دهرٌ مُعِين ، فأَجْزِى بالبُؤْسَى ، وأُصْفِى بالنُّعْمَى ، وإنْ أَبْلُغْ ذلك بعون الله ، فهو أَمَلى وما فيه النعمة ، وإنْ تقَصِّرْ بى دونَ ذلك مقصِّراتُ التقدير ، فنحن وأنت راضون[4] بما أتانا به تقديرُ المُسَوِّى بعَدله بين خلقه ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٤٠٦)

---

(١) فى الأصل « ولم يقصدنى » وهو تحريف .

(٢) فى الأصل « يجرى » وهو تصحيف . (٣) فى الأصل « فن سواها » .

(٤) فى الأصل « راجونا » وهو تحريف .

٤٨ – جواب يحيى بن زياد

«أما بعدُ ، دَفَعَ اللهُ عنا وعنك ما نكرهه بالنعم السّوابغ ، ووقانا وإياك الأمورَ المشتبهة بالكرامات الظاهرة ، والأيادي المترادفة ، حتى يزول القضاء بنا وبك إلى ما نُحِبُّ ونَرْضى ، فإنك كتبتَ إليَّ تذكُر منزلةَ الأدب من المتأدِّب ، ورأيتُك ترغَب إلى الإكثار والترديد ، وقد يفزَع إلى ذلك بعضُ المجتهدين ، فإن اسم الاجتهاد إنما يقع على من بَلَغَ جُهْدَه ، ولكنى قد رأيت لك إخوانا ممن لم تعلَقْ بهم معرفتانك يُحجبهم من أنفسهم وإخوانهم أن يجدوا لكثير الكلام جوامعَ[1] يحيدون[2] بمعرفتها عن سَقْطة الهَذَر ، ويأمَنون بها مع ذلك الخطأ ، ولم تَعْدِلْ عن حسن النية فى الإرادة لذلك ، كما[3] عرَفتُ من إعلامَ كتابك ، إلا أن المُريد بنيته غيرُ معذور ، دون أن يبلغ فيه بفعاله[4] ، وقد يُنَحِّى عنى اسمَ العنف بك ، وَيُلْزِمنى اسمَ التأديب لك ، أن التأديب بينى وبينك غير مُنكَر عندى وعندك ، وَإنْ حَمَلْنَاهُ على قَعُود[5] العُنفِ كان كافيا لك من جميع صفات تعظيم الأدب أن تقول : لولا الأدبُ سَقَطَ اسمُ المتأدبين ، وإذا سقط غَلَب اسمُ الجاهلين ، وإذا غلب اسم الجاهلين عُصِيَ الخالق ، وَفسَدَتْ الدنيا ومن فيها .

---

(١) الجوامع : جمع جامعة ، وهى القيد . (٢) فى الأصل «يحدون» وهو تحريف .

(٣) فى الأصل « فما » وهو تحريف . (٤) فى الأصل « بفعله » وهو تحريف .

(٥) أى على محمل العنف ومركبه ، والقعود من الإبل : ما يقتعده الراعى فى كل حاجة .

وفهمتُ قولك ، وما دَلَلْتَ به على نفسك من معرفة الشكر ، فليس شيء مما سبَقَتْ به يدى إلى إخوانى ، مِنْ مشاركتهم إياى فى مِثل مابه نفسى ، بِسَارٍّ لى أن يقع منى موقعَ إذلال لهم . أو عذاب عليهم ، فإنه من يتخذ أيادى الإخوان عذابا على نفسه ووِقْرا[1] ، على قوّته ، فقد تعرّض لمعاودة بعض الأدب ، الاستزادة من الأوقار المغْتَمّ بها ، المَلُول[2] مِنْ حَمْلِها ، وبئست اليدُ يدٌ جَرِيرتُها[3] استثقالُ الكتبِ ، وضيقُ الذِّراعِ من فوائد الأحبَة .

فأمّا ما عَظَّمْتَ من الشكر ، فإن الشكر مكافأة ، وإذا كان الشكر كَفِيء[4] المِنَّة ، فإن الكَفِيء لا يكون دون كَفِيئه ، وإذا بلغتَ بالشكر منزلةَ المكافأةِ ، فقد علَوْتَ به أعلى المنازل ، وكان يجمع لك ذلك أن تقول : الشكرُ مكافأة ، والمكافأة كفيئةٌ ، والكَفِيء مثل كفيئه .

فأمّا ما ظننتَ أنى أستدلُّ به على أنك من أهل الشكر ، بالكلمات التى وصفتَ ، فلئن تقدمتُ باليد على جَهالةٍ — فى أول يوم — منّى بموضعِ الشكرِ ، ما أنا[5] بمُبْصِرٍ موضعَ الأمرِ ببادِرَةٍ من الكلام هى[6] مع ذلك غيرُ حدودٍ جامعةٍ ، ولو جَمَعَتْ .

فأمّا ما ذكرتَ من إبطاء الدهر عنك بالتقوية على مساعدتى ، فكأنك عنَيْتَ بهذه الكلمة [أنَّ صداقتك لى من ذاتِ[7]] الأيدى ، فإن كنتَ

(١) الوقر : الحمل . (٢) فى الأصل « الأموال » وهو تحريف .
(٣) أى ذنبها . (٤) أى مكافئ .
(٥) فى الأصل « وأنا » وهو تحريف . (٦) فى الأصل « ببادرة من الكلام مع ذلك » .
(٧) ما بين القوسين بياض بالأصل ، وقد زدته لتستقيم العبارة .

ذلك عنيتَ ، فما أَشنعَ ما أَلزمْتَنى ونفسَك من قبيح الخُلُق ، وقد يرُدُّ عنى فَوْرَةَ الغضب أنك لم تقل ذلك قاصداً ، واستدللتُ على أنك لم تقصِد له ، بأنك بنفسك بدأتَ بالإِفحاش ، وسأحذِّر لك ما صغر اللهُ من ذات الأيدى التى تقَطَّعُ إليها أعناقُ السُّخَفاء ، وأُعظِّم لك منزلةَ المودة بتدبير العقل ، بما عظَّم اللهُ منها ، ألاَ ترَى رحمك الله أن العقلَ يكسِبُ المالَ ، وأن المَالَ معجوزٌ به عن مكسَبة العقل ، حَسْبِى وَحَسْبُك ممن لم تكن له أخا أن تجعله أخا ، وَحَسْبُنَا ممن كان بعيداً أن نجعله قريبا ، وَحَسْبُنَا من المخالفين أن يكونوا موافقين ، فأمّا ما تملِكُ الأيدى ، فإنى لا أدرى : أَمَا خَدَعْتَ العدوَّ عنه أكثرُ ، أم ماتناولتَه بغير المؤامرة[1] من مال الصديق ؟ فإن بلغْتَ حَدَّ المؤامرة ، فذلك وَصْمٌ[2] فى صداقة المأخوذ منه ، أو عَجْزٌ من الآخذ من صديقه ، قد مضى لك إخوان لم تَلْحَقهم ، وآخرون كثيرٌ أنت بين أظهُرِهم لم تعرِفهم ، كان الرجل منهم يكرَهُ أن يعِدَ إخوانَه الوفاء ، فيضرَّ اختلاطُ المواعيد بصادق النية المكسوب عليها ، مع ما فى المواعيد من التغرير بالعَجز عنها ، وما فى الزمان من الخيانة لأهله ، وما فى الاختلاط[3] من الضعف .

أَمَا إنى قد كنتُ أرَى مكانَ الموافَقَةِ فى الجواب ، فأتعجَّل حاضرَ سرورك بذلك ، وتجرى بيننا وبينك الخديعةُ والرياء ، فتركب (سبيل) السِّفلة الذين أغلبُ الأشياء عليهم المَلَقُ ، ولكن حرّكتنى المودةُ بالتأديب

---

(١) المؤامرة : المشاورة . (٢) عيب وعار .

(٣) فى الأصل « وما .... لاختلاط » .

لبعض تلك المحرّ كانت فيما مضى ، حين عاودتْنى المكاتَبة بالمناسَمة[1] ، وإنى قد علمت أنّ كل ذى عقل ذو حاجة ، وأن الأعقلَ فالأعقلَ الأحْوَجُ ، فالأحوجُ ، والاستفادة فيما مضى غيرُ مُغيِّرة عما يستفيد فيما يَستقبلُ ، وأن بعض ذلك اتّكالٌ على بعض ، غيرُ مضرٍّ به ، ولا ناقضٍ له ، ولا مُسىء الثناء عليه ، فافهَمْ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٧)

٤٩ — كتاب حماد عجرد إلى يحيى بن زياد

وروى صاحب الأغانى قال :

كان حَمَّادُ عَجْرَد[2] صديقا ليحيى بن زياد ، فأظهر تورُّعا وقراءة ونُزُوعا عما كان عليه ، وَهَجَر حماداً وأشباهه ، فكان إذا ذُكِرَ عنده ثَلَبه[3] ، وذكر تهتكه ومُجُونَه ، فبلغ ذلك حمَّادا ، فكتب إليه[4] :

(١) ناسمه : شامه ، وجدت ريحه ووجد ريحى ، والمعنى بتنسم أخبارك .

(٢) هو حماد بن يحيى بن عمرو ، وعجرد لقب له ، وهو من مخضرمى الدولتين ، وكان خليعا ماجنا متهما فى دينه ، وكان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون : حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد الزبرقان ، يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يرمون بالزندقة جميعا ، وأشهرهم بها حماد عجرد ، وقتله محمد بن سليمان بن على عامل البصرة بظاهر الكوفة على الزندقة سنة ١٥٥ — انظر ترجمته فى الأغانى ١٣ : ٧٠ ووفيات الأعيان ١ : ١٦٥ ، وكذلك كان يحيى ابن زياد متهما بالزندقة ، قال على بن الجعد : « قدم علينا (ببغداد) فى أيام المهدى هؤلاء القوم : حماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد ، فنزلوا بالقرب منا ، فكانوا لا يطاقون خبثا ومجانة » .

(٣) ثلبه كضربه : عابه .

(٤) وفى رواية ابن خلكان فى وفيات الأعيان « ويحكى أنه كانت بين حماد عجرد وبين أحد الأئمة الكبار — وما يليق التصريح بذكر اسمه — مودة ، ثم تقاطعا فبلغه عنه أنه يتنقصه ، فكتب إليه حماد .... » وجاء فى رواية أخرى لصاحب الأغانى قال : « كان أبو حنيفة الفقيه صديقا لحماد عجرد ، فنسك أبو حنيفة وطلب الفقه ، فبلغ ما بلغ ، ورفض حمادا وبسط لسانه فيه ، فجعل حماد يلاطفه حتى يكف عن ذكره ، وأبو حنيفة يذكره ، فكتب إليه حماد بهذه الأبيات » والصحيح أن ذلك الكتاب إلى يحيى بن زياد كما فى الرواية الأولى ، أما الرواية الأخرى فانا نجزم أنها كذب على أبى حنيفة قطعا .

هــل تَذْكُرَنْ دَلَجِي إليــك على المُضَمَّرة القِلاصِ(١)
أيامَ تُعْطيــنى وتأ خُذُ من أباريقِ الرَّصاصِ
إن كان نُسْكُك لايتــمُّ بغير شَتْمِي وانتقاصِي
أو كنتَ لستَ بغيرِ ذا كَ تنالُ منزلةَ الخَلاَصِ
فعليك ، فاشــتُمْ آمناً كلَّ الأمانِ من القِصاصِ
واقعــد وقُمْ بى مابدَا لك فى الأَدانى والأقاصِي
فلَطــالَمَا زَكَّيْتَنِي وأنا المُقِيم على المعاصى
أيامَ أنت (إذا ذَكَرْ تَ) مُناضِلٌ عــنى مُناصِي(٢)
وأنا وأنت على ارتــكا بِ المُوبقاتِ مِن الحِراصِ
وبنا مَواطِنُ مايُنَا فِى البرِّ آهِـــلَةُ العِراصِ(٣)

فاتصل هذا الشعر بيحيى بن زياد ، فنَسَب حماداً إلى الزَّندقة ، ورماه بالخروج عن الإسلام . فقال حماد فيه :

لا مُؤمِنٌ يُعْرَف إيمانُه وليس يحيى بالفَتَى الكافِرِ
منافِقٌ ظاهِرُه ناسكٌ مُخالِفُ الباطِنِ للظاهِرِ

(الأغانى ١٣ : ٧٦ ووفيات الأعيان ١ : ١٦٦)

(١) الدلج : السير من أول الليل ، والقلاص جمع قلوص كصبور : وهى الناقة الفتية .
(٢) ناصيته : نصوته ونصانى ، أى أخذت بناصيته وأخذ بناصيتى ، والمعنى : مناضل مدافع .
(٣) العراص: جمع عرصة كوردة وهى: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء، وفى الأصل «مابنا: فى .... » وهو تصحيف .

٥٠ — جواب سلامة لمحمد[1] بن زياد الحارثى إلى المنصور

« أما بعدُ : أصلح الله أمير المؤمنين صلاحًا دائمًا يستقبلُ به أنفَسَ العمر فى أدْوَم السعادة ، ويستقبل بنا فيه أحسنَ المتاع ، مساعِدًا له القضاء على كل ما يَرَى فى نفسه وأهل بيته ورعيته ، معدولاً عنه كلُّ محذور عليه ، حتى يبلِّغَه فى نفسه غاية الأمل ، وفى أهل بيته أحسنَ العِمارة ، وفى أمَّته أكملَ الصلاح ، وفى أهل العداوة لدينه أبلَغ النقم .

أتانى كتابُ أمير المؤمنين بما أحَبَّ أن يسُرَّنى به من سلامته ، فى نعمته و ولده وخاصَّته ، فأدام اللهُ لأمير المؤمنين العافيةَ ، ووثَّق له عَقْدَ الكرامة ، وأسبَغَ عليه فضائلَ النعمة ، وفواضلَ الأيادى ، فإنه أصبح محتجِراً[2] بصلاح أمير المؤمنين فى نفسه وولده وجميع أمته ، مقروناً بما كَرِهوا له أو عليه ، ما كَرِهوا لأنفسهم أو عليها ، محقوقين ألاَّ يَرَوا للنعمة تمامًا ، ولا للعافية دوامًا ، إلاَّ بتمامها على أمير المؤمنين وبقائها له ، فإن الوالىَ إذا نزل من أمته ، فى إحياء العدل لها ، ودفع المكروه عنها ، وإثباتِ شرائع الحق فيها ، وإسباغ الأيادى بالفضل عليها ، بمثل مَنْزِلِ أمير المؤمنين الذى أنزله الله به من رعيته ، فى دينهم وحَريمهم ومعاشهم ، لم يرَوه بالنعمة عليه فى نفسه وولده وخاصته مخصُوصاً دون أنفسهم ، لأن بقاءه وصلاحه مقرون موصول ببقائهم وصلاحهم ، فلا زال أمير المؤمنين

---

(١) هو أخو يحيى بن زياد الحارثى ، شاعر مترسل بليغ — انظر الفهرست ص ١٧١ .

(٢) احتجر به : التجأ واستعاذ ، والمعنى مقترنا به ومرتبطا .

مصنوعًا له ، مدفوعا عنه ، مجنَّبا مَحْذورَ الليل والنهار ، مُوَقًّى ما تشتمل عليه الأ[يام من الأحداث(١)] ، ممنوعا يَمنعه الله برحمته فى نفسه وولده ، محروساً بكِلاءة(٢) الله وحفظه فى جميع ما أنعم به عليه ، نسأل الله لأمير المؤمنين تمامَ النعم ، ودوامَ الكرامات ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٣٧٠)

٥١ — كتاب له فى الشكر

« لولا ما يجب علينا من قضاء حق الأمير بما تَبْلُغُه الطاقة فى تقريظ الألسن ، ونصائح القلوب ، والتمسُّكِ بحبل الشكر له ، والوفاء فى المَحْضَر والمَغيب ، كَانَ أَوْلَى الأمور بنا فى التخيُّر لأنفسنا والنظر لها ، الإمساكُ من ذلك عما لا يَزِيدنا ذِكرُه إلا بعداً من غايته ، وعجزًا عن بلوغه ، ولكنا لما صرنا نعتمد فى القول على الاجتهاد فى معرفة الحق على صدق النية ، والمكافأة على باطن الشكر ، وَسِعَنا أن نُظْهِر ما قَدَرْنا عليه من الأسرار ، لتعرف أنْ قد اجتهَدْنا فى قضاء حقه ، ليعذِرَنا فيما قصّرنا عنه القول بالاجتهاد ، ويحمل أمْرَنا فى الوفاء والشكر على ما يثق به منا فى مَحِيض المودة ، وصحة الضمير » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤)

---

(١) فى الأصل « موق يشتمل عليه الا ...... ممنوعا » .

(٢) كلأه كمنعه ، كلاءة : حرسه .

٥٢ — كتاب آخر

« ما زال ظاهِرُ معروفِ الأميرِ يشهدُ على باطن سريرته ، وما بَرِحَت سريرةُ باطنه من جميل رأيه ونيَّته متصلةً بمعروفٍ ظاهر ، وما انفكَّ قديمٌ من صلته يلحَقُ بحديث ، حتى ما نجدُ مستزاداً ، ولا لِأَمَلنا على ما أصبحنا فيه من بِرِّه متنفَّسا ، ولا من التقصير وإن جَهَدْنا فى تأدية الحق وشكر النعم مَخْرَجا » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤)

٥٣ — كتاب آخر

« قد يجب على من يتقلَّب فى ظلّ كرامتِك ، ويأوِى إلى كَنَف نعمتك ، أن يقول بما هو أولَى ، ويُخبر عما هو به مرتهَن ، مِن شُكر بَلائِك ، وحقِّ نعمتك ، ونحن الذين سبقت نعمتُك عليهم ، وعظُمَت مِنَّتُك لديهم ، فيما أَبْلَيْتَ وأولَيْتَ من جميل رأيك ، وحُسْن أثرك ، بعطفك وتحنّنك ، واستخلاصك إياه مِقَةً وأُنْسا ، دون أصحابك من نظرائه فى أيادٍ من أياديك عظُمَتْ فلا تُجْحَد، ونِعَمٍ من نعمك شُهِرَتْ فلا تنكرُ ولا يُحْصَى عددها ، وإن اجتهدْنا فى حفظها ، ولا نبلغ فى شكرها ، وإن دَأَبْنا فى بلوغ تأديتها ، فقد اعتقدتَها مِنَّةً علينا ، ويداً عندنا ، فنحن لك صنيعة ما بَقِينا ، وبَقِىَ الخَلَفُ منا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤)

٥٤ — كتابه إلى صالح بن على

وكتب إلى صالح بن على :

« فإن أحقَّ الناس أن يَحِلَّ موضعُ رضاه وسُخطه مَن كان سُخطه حِطَّةً ، ورضاه شرفا ، وقد جعل الله الأميرَ كذلك : فرضاه عمن رضى عنه زَيْنٌ ، وسُخْطه عليه حُجَّة ، وإقبالُه إلى من أقبل إليه فائدة ، وإدبارُه عمن أدبَرَ عنه تأديب ، وليس فى شىء مما يميل إليه الأمير من دواعى السخط والرضا تحامُلٌ يحجُزُه عن إنصاف، ولاهوى يُزِيله عن رأى،ولابادِرة تُعْجِله عن تثبُّت ، ولا غَلَق[1] يُقْعِده عن حِلْم ، ولا سطوةٌ بيدٍ ولا لسان تَحُولُ بينهُ وبين عفو ، بل يَحْلُم ولا يجهَل ، ويَعْذِر ولا يعاقب ، ويصفح الصفحَ الجميل ، ويدفع السيئةَ بالتى هى أحسنُ ، واللهُ محمودٌ .

وقد نالنى من جَفوة الأمير بعد ما كنت أعرِف من بِرِّه وإلطافِه[2] ، أمرٌ أحلَّنى مع المُذْنب فى نفسى مع البراءة من الذنب ، وألزَمنى الإساءة مع التقصير ، وزاده عندى عِظَما أنّى شَدّما[3] حاولتُ المَخرجَ منه بالاعتذار ، ولم أجد إلى الأمير ذنباً أعتذِر منه إليه ، ولا فيما ألزَمَنى من معتَبَتِه حُجَّةً أحاوِلُ دفْعَها والتخلصَ منها ، فأصبحتُ أعالج من ذلك ماقد خَفِى عنى دواؤه ، وأحاول صلاحَ مالم أجْنِ فسادَه ، فإن رأى الأميرُ أن يَصِلَ قديم معروفه بحديثه ، فإنى لم أجد إلىالأمير فى مطالبته بذلك أنجحَ من التوجُّه إليه بنفسه»

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٥)

---

(١) الغلق : ضيق الصدر وقلة الصبر . (٢) ألطفه بكذا : برّه .

(٣) فى الأصل « وزاده عندى عظما وشد مما حاولت .... » والمعنى عليه غير مستقيم .

٥٥ — كتاب عبد الله بن الحسن إلى صديق له

وكتب عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب إلى صديق له :

« أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإن الله جعل لمن اتقاه المَخْرَج من حيثُ يَكْرَه ، والرزقَ مِنْ حيث لايحتسِبُ » . (زهر الآداب ١ : ٩٣)

٥٦ — أبو جعفر المنصور وعبد الله بن الحسن

وروى صاحب العقد الفريد قال :

لما قام أبو جعفر بالأمر بعث بعَطاء أهل المدينة ، وكتب إلى عامله أن :

« أَعْطِ الناس فى أيديهم ، ولا تَبْعَثْ إلى أحد بعطائه ، وتفقَّدْ بنى هاشم ، ومَنْ تخلَّف منهم ممن حضر ، وتحفَّظْ بمحمد وإبراهيم ابنى عبد الله ابن الحسن » .

ففعل وكتب : « إنه لم يتخلف أحد عن العطاء إلا محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن ، فإنهما لم يحضرا[1] » .

(١) كان بنو هاشم ــ الطالبيون والعباسيون ــ قد اجتمعوا أخريات العصر الأموى بمكة، وتذاكروا حالهم وماهم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بنى مروان من الاضطراب ، واتفقوا على أن يدعوا الناس إليهم سرًّا ، ثم قالوا : لابد لنا من رئيس نبايعه ، فاتفقوا على مبايعة محمد بن عبد الله بن الحسن ــ وكان يلقب بالنفس الزكية ــ وكان من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلما ــ وكان المنصور =

فكتب أبو جعفر إلى عبد الله بن الحسن ـ وذلك مبدأ سنة تسع وثلاثين ومائة ـ يسأله عنهما ، ويأمره بإظهارهما ، ويُخبره أنه غيرُ غادِره .

فكتب إليه عبد الله : « أنه لايدرى أين هما ، ولا أين توجها ، وأن غَيْبَتهما غير معروفة » .

فلم يلبث أبو جعفر ـ وكان قد أذكَى[1] العيونَ ، ووضع الأرصاد ـ حتى جاءه كتاب من بعض ثقاته يخبره أن رسولا لعبد الله ومحمد وإبراهيم خرج بكتب إلى رجال بخُراسان يستدعيهم إليه ، فأمر أبو جعفر برسولهم فأتى به وبكتبه ، فردّها إلى عبد الله بن الحسن بطوابعها لم يفتح منها كتابا ، وردّ إليه رسوله وكتب إليه :

« إنى أُتيتُ برسولك والكتب الذى معه ، فرددْتُهَا إليك بطوابعها ، كراهِيَةَ أن أطّلِعَ منها على ما يُغيِّر لك قلبي ، فلا تدعُ إلى التقاطع بعد التواصل ، ولا إلى الفُرقة بعد الاجتماع ، وأظهِرْ لى ابنيك ، فإنهما سيصيران بحيث تُحِبّ من الولاية والقرابة وتعظيم الشرف » .

فكتب إليه عبد الله بن الحسن : يعتذر إليه ، ويتنصّل فى كتابه ،

= ممن بايعه ـ وشاء القدر أن يظفر العباسيون بالخلافة ، فوليها السفاح ، ثم المنصور ، ولم يكن للمنصور هم منذ تبوأ عرشها سوى طلب النفس الزكية ليقتله أو يخلعه ، وأغراه بذلك أن الناس كانوا شديدى الميل إليه ، وكانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة ، فطلبه المنصور هو وأخاه إبراهيم من أبيهما عبد الله بن الحسن ، فقال : لاعلم لى بهما ـ وكانا قد تغيبا خوفا منه ـ فلما طوّل عليه القول ، قال : كم تطول ؟ والله لو كانا تحت قدمىّ لما رفعتهما عنهما ، سبحان الله ! آتيك بولدىّ لتقتلهما ؟ فقبض عليه وعلى أهله من بنى الحسن ، وحبسهم فى سجن الكوفة حتى ماتوا فيه ـ انظر الفخرى ص ١٤٦ وتاريخ الطبرى ٩ : ١٨٠ .

(١) أذكى عليه العيون : إذا أرسل عليه الطلائع .

وَيُعْلِمه أن ذلك من عدو أراد تشتيت ما بينهم بعد التئامه ، ثم جاءه كتاب ثقة من ثقاته يذكر أن الرسول بعينه خرج بالكتب بأعيانها على طريق البصرة ، وأنه نازل على فلان المُهَلَّبيِّ ، فإن أراده أمير المؤمنين فليضع عليه رَصَده ، فوضع عليه أبو جعفر رصده ، فأتى به إليه ومعه الكتب ، فحبس الرسول وأمضى الكتب إلى خراسان مع رسول من عنده من أهل ثقاته ، فقدمت عليه الجوابات بما كره ، واستبان له الأمر .

فكتب إلى عبد الله بن الحسن يقول :

« أُريد حياته ويُريد قتلى عَذِيرَكَ مِنْ خَليلك مِنْ مُرَادِ[1]

أما بعد فقد قرأت كتبك وكتبَ ابنَيْك ، وأنفذتُها إلى خراسان ، وجاءتني جواباتها بتصديقها ، وقد استقرَّ عندى أنك مُغَيِّب لأبنيك تعرفُ مكانهما ، فأَظْهِرهما لى ، فإن لك علىّ أن أُعْظِم صِلَتَهما وجوائزهما ، وأَضَعَهما بحيثُ وضَعَتْهما قرابتهما ، فتدارَكِ الأمورَ قبل تفاقُمِها » .

فكتب إليه عبد الله بن الحسن :

وكيف أُريد ذاكَ وأنت منى وَزَنْدُكَ حين تَقْدَح من زِنادِي؟
وكيف أُريد ذاكَ وأنت منى بمنزلة النِّياط من الفؤاد ؟[2]

وكتب إليه : أنه لا يدرى أين توجها من بلاد الله ، ولا يدرى أين صارا ، وأنه لا يعرف الكتب ، ولا يشكُّ أنها مفتَعَلة[3] . (العقد الفريد ٣ : ٢٩)

---

(١) قاله على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو ينظر إلى عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله ، ويقال : عذيرك من فلان بالنصب : أى هات من يعذرك ، فعيل بمعنى فاعل .

(٢) النياط : عرق متصل بالقلب من الوتين إذا قطع مات صاحبه .

(٣) فدسّ المنصور إليه سالم بن قتيبة الباهلى ، وبعث معه بمال ، وأمره بأمره ، فقدم سالم المدينة =

٥٧ – كتاب أبي جعفر إلى النفس الزكية

ولما بلغ أبا جعفر المنصور خروجُ النَّفْس الزَّكِيَّة بالمدينة[١] – وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب – كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد ابن عبد الله، أما بعد : فـ«إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . ولك[٢] عليَّ عهدُ الله وميثاقُه وذِمَّتُه وذمةُ رسوله صلى

= فجلس إلى عبدالله بن الحسن ، وأظهر له المحبة والميل إلى ناحيته ، فلما أنس به قال له : إن نفرا من أهل خراسان – وسمى له رجالا يعرفهم ممن كان يكاتب – قد بعثوا إليك معي مالا ، وكتبوا إليك كتابا ، فقبل الكتاب والمال . فلما ازداد به أنسا واستئناسا ، قال له : إني قد بعثت بكتابين إلى أمير المؤمنين محمد ، وإلى ولي عهده إبراهيم ، وأمرت ألا أوصل ذلك إلا في أيديهما ، فان أوصلتني إليهما أوصلت إليهما الكتابين والمال ، ورجلت إلى القوم بما يثلج صدورهم ، فأنا عندهم بموضع الصدق والأمانة ، وإن أمرهما مظلم ، وإن لم تكن تعرف مكانهما لم يخاطروا بدينهم وأموالهم ومهجهم ، فأوصله إليهما، فدفع لهما الكتابين والمال ، ومازال سالم يحتال له ويغريه بأن يخلع أبا جعفر ويبايع ابنه محمدا حتى أجابه فخلع أبا جعفر وبايع محمدا وبايعه سالم من بعده ، وأخذ كتبه وكتب إبراهيم ومحمد فخرج فقدم على أبي جعفر فأخبره بحقيقة الأمر .

(١) لم يزل النفس الزكية متغربا منذ أفضت الدولة إلى بني العباس خوفا منهم على نفسه ، فلما علم بما جرى لأبيه ولقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره ، وتبعه أعيان المدينة ، ثم غلب عليها وعزل عنها أميرها ، ورتب عليها عاملا وقاضياً ، فوجه المنصور لقتاله جيشاً بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فكانت الغلبة لجيش المنصور ، وقتل النفس الزكية ، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ ، ثم خرج أخوه إبراهيم على المنصور بالبصرة ، فوجه إليه المنصور عيسى بن موسى – بعد رجوعه من قتال النفس الزكية – فقاتله ، وقتل إبراهيم في المعركة سنة ١٤٥ هـ أيضا – انظر الفخري ص ١٤٨ وتاريخ الطبري ج ٩ ص ٢٠١ .

(٢) في رواية الكامل للمبرد وصبح الأعشى اختلاف يسير عن هذه الرواية ، وهي : « ولك =

اللّٰه عليه وسلم إن تُبتَ ورَجَعتَ من قبل أن أقدِرَ عليك أن أؤمِّنك وجميعَ ولدك وإخوتك ، وأهل بيتك ومن اتبعكم ،على دمائكم وأموالكم ، وأسوِّغك ما أصبْتَ من دم أو مال ، وأُعطيَك ألفَ ألفِ درهم ، وما سألتَ من الحوائج، وأُنْزِلَك من البلاد حيث شئتَ، وأن أُطْلِقَ مَن فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمِّن كل من جاءك وبايعك واتّبعك ، أو دخل معك فى شىء من أمرك ، ثم لا أُتْبِعَ أحداً منهم بشىء كان منه أبدا ، فإن أردتَ أن تتوثَّق لنفسك فوجِّهْ إلىَّ مَن أحببتَ يأخُذْ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثِقُ به » .

وكتب على العنوان : من عبد الله عبد اللّٰه أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢١٠ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٥ : ١٩٩ ، والكامل للمبرد ٢ : ٢٩٣ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٣١)

٥٨ — رد النفس الزكية على أبى جعفر

فكتب إليه محمد بن عبد الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المهدىّ(١) محمد بن عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد :

= عهد الله وذمته وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تبت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك ، وأن أعطيك ألف ألف درهم، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأقضى لك ماشئت من الحاجات ، وأن أطلق من فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتبع أحدا منكم بمكروه ، فإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلىّ من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت ، والسلام » .

(١) كان أبوه عبد الله يقول للناس عنه : هذا هو المهدى الذى بشر به ، فلقب بالمهدىّ .

« أما بعد : « طسم ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ، نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ، وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » وأنا أَعرِضُ عليك من الأَمان مثل الذى عرَضْتَ علىّ ، فإن الحقّ حقّنا ، وإنما ادَّعيتم هذا الأمرَ بنا ، وخرجتم له بشيعتنا وحَظِيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليًا كان الوَصِيّ ، وكان الإمامَ ، فكيف ورثتم ولايته ووَلَدُه أحياء ؟ ثم قد علمتَ أنه لم يطلب هذا الأمر أحدٌ له مثلُ نَسَبنا وشَرَفنا وحالنا ، وشَرَف آبائنا . لسنا من أبناء اللُّعَناء ولا الطُّرَدَاء ولا الطُّلَقَاء ، وليس يَمُتُّ[1] أحد من بنى هاشم بمثل الذى نَمُتُّ به من القرابة والسابقة والفضل ، وإنا بنو أمِّ أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو[2] فى الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا ، فوَالِدُنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السَّلف أولهم إسلاما علىّ ، ومن الأزواج أفضلهن خَديجة الطاهرة ، أول من آمَن بالله وصَلَّى إلى القِبْلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام : حَسَن وحُسَيْن سيِّدا شَباب أهل الجنة ، وإن هاشمًا وَلَدَ عليًا

---

(١) أى يتوسل .

(٢) هى فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وهى أم أبى طالب وأم عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم — انظر شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٥ وتاريخ الطبرى ٢ : ١٧٢ وغيره

مرتين(١) ، وإن عبد المطَّلِب ولَدَ حَسَنا مرتين(٢) ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وَلَدَنى مرتين من قِبَل حسن وحسين(٣) ، وإنى أَوْسَطُ(٤) بنى هاشم نَسَبًا ، وأَصْرَحُهم أبا ، لم تُعْرِق فىَّ العَجَمُ ، ولم تَنَازَعْ فىَّ أمهاتُ الأولادِ(٥) ، فما زال الله يختار لى الآباءَ والأمهاتِ فى الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لى فى النار ، فأنا ابنُ أرفعِ الناس درجةً فى الجنة ، وأهونِهم عذابا فى النار(٦) ، وأنا ابنُ خير الأخيار ، وَابنُ خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار .

ولك اللهُ علىَّ إن دخلتَ فى طاعتى ، وأجبْتَ دعوتى ، أن أُؤَمِّنك على نفسك وولدك ومالك وعلى كل أمر أحدثته ، إلا حَدًّا من حدود الله ، أو حقًّا لِمُسْلِم أو مُعَاهَد ، فقد علمتَ ما يلزمك فى ذلك ، وأنا أَوْلَى بالأمر منك ، وأوفَى بالعهد ، وأنت أَحْرَى بقبول الأمان منى ، فأما أمانُك الذى عَرَضْتَ علىَّ فأىُّ الأمانات هو ؟ أأمانُ ابنِ هُبَيرة(٧) ؟ أم أمانُ عمك عبد الله ابن على(٨) ؟ أم أمانُ أبى مُسْلِم(٩) ؟ والسلام »(١٠) .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢١٠ والكامل لابن الأثير ٥ : ١٩٩ والكامل للمبرد ٢ : ٢٩٤ وصبح الأعشى ١ : ٢٣٢)

---

(١) يعنى على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وعليا زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب . (٢) يعنى جده وأبا جده ، فهو محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ابن عبد المطلب .

(٣) يعنى نفسه ، ويعنى محمدا الباقر بن على زين العابدين بن الحسين . (٤) أى أرفعهم وخيرهم .

(٥) يعرض بالمنصور ، وكانت أم المنصور أم ولد يقال لها سلامة ، بربرية — انظر مروج الذهب ٢ : ٢٢٨ والعقد الفريد ٣ : ٤٤ .

(٦) يعنى جده أبا طالب ، وأن الله سيخفف عنه العذاب لما كان منه من نصرة رسول الله وحمايته من أذى قريش . (٧) انظر ص ٥ . (٨) انظر ص ١٩ . (٩) انظر ص ٢٥ .

(١٠) فى رواية الكامل للمبرد وصبح الأعشى اختلاف يسير أيضا ، جاء فيهما بعد الآية الكريمة :

٥٩ — رد أبي جعفر على النفس الزكية

فكتب إليه أبو جعفر :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبدِ الله عبدِ الله أمير المؤمنين إلى محمد ابن عبد الله . أما بعدُ : فقد أتاني كتابُك ، وبلَغني كلامُك ، فإذا جُلُّ فخرك بقَرابة النساء ، لِتُضِلَّ به الجُفَاةَ وَالغَوْغاءَ ، ولم يجعل الله النساءَ كالعُمومة[1] والآباء ، ولا كالعَصَبةِ والأولياء ، لأن الله جعل العَمَّ أبا وبَدَأ به في كتابه على الوالد الأدْنى ، فقال جل ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام : « وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ[2] » ، ولقد علمتَ أن الله تبارك

« وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى ، فقد تعلم أن الحق حقنا ، وأنكم إنما طلبتموه بنا ، ونهضتم فيه بشيعتنا ، وحظتموه بفضلنا ، وأن أبانا عليا عليه السلام كان الوصى والإمام ، فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء ، وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ، ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا ، وأنا بنو أم أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية دونكم ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام من بينكم ، فأنا أوسط بنى هاشم نسبا ، وخيرهم أما وأبا ، لم تلدنى العجم ، ولم تعرق فىّ أمهات الأولاد ، وإن الله عزّ وجلّ لم يزل يختار لنا ، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاما ، وأوسعهم علما ، وأكثرهم جهادا ، على بن أبى طالب ، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد ، أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة ، ومن بناته أفضلهن وسيد نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل جدى الحسن والحسين ، فما زال الله يختار لى ... الخ » .

(١) لا يجهل أبو جعفر أن النفس الزكية فضلا عن قرابته برسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة النساء (إذ أن جده الحسن بن على هو ابن فاطمة بنت رسول الله) له به قرابة من جهة العمومة أيضا كأبى جعفر (إذ أن جده أبا طالب عم رسول الله ، كما أن العباس جد المنصور عم رسول الله) غير أن العباسيين كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من العلويين . لأن رسول الله مات وعمه العباس حى ، فهو أولى بوراثته بعصبية العمومة من ابن عمه علىّ ، ومقدم عليه فى الميراث ، وسترى أبا جعفر يصرح فى أواخر هذه الرسالة بأن العباس هو وارث الرسول .

(٢) أقول : ولا تنهض الآية دليلا لأبى جعفر ، فإن المذكورين فيها ليسوا بأعمام ليوسف ، بل

وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ، وعمومته أربعةٌ ، فأنزل الله عز وجل « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبى[1] ، وكَفَرَ اثنان أحدهما أبوك[2] ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلاًّ[3] ، ولا ذمّةً ، ولا ميراثاً .

فأما ماذكرتَ من النساء وقراباتهن ، فلو أُعْطِين على قرب الأنساب وحقّ الأحساب ، لكان الخير كلّه لآمِنَةَ بنت وَهْب[4] ، ولكن الله يَختارُ لدينه من يشاء من خَلْقه[5] .

وأما ماذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلامَ ، لا بنتاً ولا ولداً[6] ، ولو أن أحداً رُزِق الإسلام بالقرابة رُزِقَه عبدُ الله أَوْلاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء[7] ، قال الله عز وجل : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

يعقوب أبوه ، وإسحق جده ، وإبرهيم أبو جده ، على أن البدء فيها بإبرهيم لغرض ، فهو أبو الله وأبناؤه تبع له فيها .

(١) يعنى جده العباس ، وثانيهما سيدنا حمزة .

(٢) يعنى جد النفس الزكية أبا طالب ، وثانيهما أبو لهب . (٣) أى عهدا .

(٤) هى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، أم رسول الله .

(٥) فى رواية الطبرى : « ولوكان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحما ، وأعظمهن حقا ، وأول من يدخل الجنة غدا ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم واصطفائه لهم » .

(٦) روى الطبرى (ج ٢: ص ١٧٢) قال : « عبد الله أبو رسول الله ، وأبو طالب ، والزبير، وعبد الكعبة ، وعاتكة، وبرة، وأميمة ، ولد عبدالمطلب إخوة . أم جميعهم فاطمة بنت عمرو ...»

(٧) وفى رواية الكامل للمبرد « فأما ماذكرت من فاطمة أم أبى طالب ، فإن الله لم يهد أحدا من ولدها للإسلام ، ولوفعل لكان عبد الله بن عبدالمطلب أولاهم بكل خير فى الآخرة والأولى ، وأسعدهم بدخول الجنة غدا ، ولكن الله أبى ذلك فقال ... » .

وأما ما ذكرتَ من فاطمة بنت أَسَد[١] أم على بن أبي طالب ، وفاطمة أم الحسن ، وأن هاشماً وَلَدَ عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين . وأن النبي صلى الله عليه وسلم وَلَدَكَ مرتين ، فخيرُ الأَوَّلين والآخِرين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلِدْه هاشم إلا مرةً واحدةً ، ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحدة .

وزعمتَ أنك أوسطُ بني هاشم نَسَباً ، وأصرحُهم أمًّا وأبًا ، وأنه لم تَلِدْكَ العَجَمُ ، ولم تُعْرِق فيك أمهاتُ الأولاد ، فقد رأيتُك فَخَرْتَ على بني هاشم طُرًّا ، فانظر وَيْحَكَ أين أنت من الله غداً ؟ فإنك قد تعدَّيت طَوْرَكَ ، وفخَرْتَ على مَن هو خيرٌ منك نَفْسًا وأبًا ، وأوّلا وآخِرا ، فَخَرتَ على إبراهيم[٢] ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والدِ وَلَدِه ، وما خِيارُ بني أبيك خاصَّةً وأهلُ الفضلِ منهم إلا بنو أمَّهات أولاد ، وما وُلِد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضلُ من عليِّ بن الحسين[٣] ، وهو لِأُمٍّ

(١) هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤) وليتنبه إلى أنها لم يرد لها ذكر في كتاب النفس الزكية السالف .

(٢) أمه مارية التي أهداها المقوقس عظيم القبط إلى رسول الله فتسرى بها ، وجاء منها به .

(٣) هو علي زين العابدين بن الحسين بن علي ، قال ابن خلكان في ترجمته : « وذكر أبو القاسم الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار أن الصحابة رضي الله عنهم لما أتوا المدينة بسبي فارس في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد ، فباعوا السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضا ، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة ، فقال : كيف الطريق إلى العمل معهن ؟ قال : يقوَّمن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن ، فقومن . فأخذهن علي بن أبي طالب ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق ، فأولد عبد الله أمته ولده سالما ، وأولد الحسين زين العابدين ، وأولد محمد ولده القاسم ، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة ، وأمهاتهم بنات يزدجرد » اه ثم قال : « وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ، ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا ، فرغب الناس في السراري — وفيات الأعيان ١ : ٣٢٠ .

ولد ، ولَهُو خير من جَدِّك حَسَن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثلُ أُبنه محمد[١] بن عليّ ، وَجَدَّتُه أمُّ ولد ، وَلَهُو خير من أبيك ، ولا مثلُ أُبنه جعفر[٢] ، وجَدَّتُه أمّ ولد ، ولهو خير منك .

وأما قولك: إنكم بنو رسول أُلله صلى أُلله عليه وسلم ، فإن أُلله عزوجل قد أبَى ذلك . فقال : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَـكِنْ رَسُولَ أُللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » . ولكنكم بنوابنته ، وإنها لَقَرَابةٌ قريبة ، غير أنها امرأة لاتحوزُ الميراث[٣] ، ولا تَرِث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تُورَثُ الإمامة من قِبَلِهَا ؟ ولقد ظلَمها أبوك من كل وجه ، فأخرجها تُخَاصِم[٤] ، وَمَرَّضَهَا سِرًّا ، ودفَنَهَا ليلا ، فأبى الناسُ إلا تقديمَ الشيخين وتفضيلَهما ، ولقد جاءت السنة التى لا اختلافَ فيها بين المسلمين أن الجَدَّ أبا الأم والخالَ والخالةَ لايَرِثون .

وأما قولك : إن أُلله اختار لك فى الـكفر ، فجعل أباك أهونَ أهل النار عذابا ، فليس فى الشر خِيَار ، ولا من عذاب أُلله هيِّن ، ولا ينبغى لمسلم

---

(١) هو محمد الملقب بالباقر وأمه هى أم عبد الله بنت الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٤٥٠ — ولكن أخاه زيد بن على كانت أمه أمة ، وقد قدمنا فى الجزء الثانى ص ٤٢٢ مادار بينه وبين هشام بن عبد الملك من الحديث فى هذا الصدد .

(٢) هو جعفر الملقب بالصادق ابن محمد الباقر ، وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ١٠٥ .

(٣) لأنها من أصحاب الفروض ، فتأخذ فرضها فقط (نعم إنها تأخذ التركة كلها فرضا وردا إن لم يكن هناك عاصب) .

(٤) يريد خروج فاطمة إلى أبى بكر رضى الله عنهما تطلب ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فدك — انظر الجزء الثانى ص ٢٣١ — وقد هجرت فاطمة أبا بكر فلم تكلمه حتى ماتت — بعد ستة أشهر من وفاة أبيها — فدفنها علىّ ليلا ، ولم يؤذن بها أبا بكر — تاريخ الطبرى ٣ : ٢٠٢ .

يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار ، وستَرِد فتعلم ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ[1] .

وأما مافخَرتَ به من علىّ وسابقتِه ، فقد حضرَتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الوفاةُ ، فأمَرَ غيرَه[2] بالصلاة ، ثم أُخِذَ الناس رجلا بعد رجل[3] فلم يأخذوه ، ثم كان فى أصحاب الشُّورَى[4] فتركوه كلُّهم دَفْعًا له عنها ، ولم يَرَوا له حقا فيها ، أمّا عبد الرحمن فقدَّمَ عليه عثمان ، وقُتل عثمان وهو له مُتَّهم ، وقاتَلَه طلحةُ والزُّبير ، وأبَى سعد بيعته[5] ، وأغلق دونه بابَهُ ، ثم بايع معاويةَ بعده .

ثُمَّ طَلَبَهَا بكل وجه ، وَقَاتَلَ عليها ، وتفرَّق عنه أصحابُه ، وشَكَّ فيه شِيعتُه قبل الحُكومة ، ثم حَكَّم حَكَمَينِ ، وأعطاهما عهدَه ومِيثاقه على الرِّضا بما حَكَما به ، فاجتمَعا على خلْعه .

وأفضَى أمرُ جَدِّك إلى أبيك الحسن ، فباعها من معاوية بخِرَقٍ ودراهم ، ولَحِق بالحجاز ، وأسلَمَ شِيعته بيد معاوية ، ودفَعَ الأمرَ إلى غير أهله ، وأخذ مالاً[6] من غير وَلائِه ولا حِلِّه ، فإن كان لكم فيها شىء فقد بِعتموه وأخذتم ثمنه .

---

(١) وفى رواية الطبرى : « وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا ، وابن خير الأشرار ، وليس فى الكفر بالله صغير ، ولا فى عذاب الله خفيف ولايسير ، وليس فى الشر خيار ، ولاينبغى ... الخ »

(٢) لما مرض رسول الله المرض الذى مات فيه ، أذن بالصلاة ، فقال : مروا أبا بكر أن يصلى بالناس — تاريخ الطبرى ٣ : ١٩٥ وغيره .

(٣) أى لتولى الخلافة .

(٤) وهم : على وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف .

(٥) وكان سعد ممن تربص ولم يبايع عليا حين ولى الخلافة — تاريخ الطبرى ٥ : ١٥٤ .

(٦) انظر الجزء الثانى ص ١٥ .

ثم خرج عمك الحسين بن عليّ على ابن مَرْجانة[1] ، فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ، وقتلوا رجالكم ، وأسروا الصِّبْية والنساء ، وحملوهم بلا وِطَاء[2] فى المَحَامِل ، كالسَّبْي المجلوب ، إلى الشأم[3] .

ثم خرج منكم غير واحد على بنى أمية ، فقتَّلوكم وصلَّبوكم على جُذُوع النخل[4] ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفَوْكم من البُلدان ، حتى قُتل يحيى[5] ابن زيد بخُراسان .

حتى خرجنا عليهم ، فأدركنا بثأركم إذ لم تُدْركوه ، ورفعنا أقداركم ، وأورثْنا كم أرضهم وديارهم ، بعد أن كانوا يلعنون أباك فى أدبار الصلاة المكتوبة ، كما تُلْعَن الكَفَرَةُ ، فعنَّفناهم وكفَّرناهم ، وبيَّنا فضله ، وأشَدْنا بذكره ، فاتخذتَ ذلك علينا حُجةً ، وظننتَ أنا — لِمَا ذكرنا من فَضْل عليّ — قدَّمناه على حمزة والعباس وجعفر[6] ، كلٌّ أولئك مضوا سالمين مُسَلَّماً منهم ، وابتُلِي أبوك بالدماء[7] .

---

(١) هو عبيد الله بن زياد ، ومرجانة : أمه .

(٢) الوطاء بالكسر والفتح : المهاد الوطىء ، وجمعه أوطية ، والمحمل كمجلس : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان وجمعه محامل ، وفى الكامل للمبرد وصبح الأعشى « ثم أتوابكم على الأقتاب من غير أوطية كالسبي المجلوب ... » والأقتاب : جمع قتب بالتحريك وهو الإكاف (بالكسر) الصغير على قدر سنام البعير .

(٣) انظر الجزء الثانى ص ٩٢ .

(٤) خرج زيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ هـ فقتل وصلب بالكناسة ثم أحرق — انظر ماقدمناه فى الجزء الثانى ص ٤٢٠ .

(٥) هرب بعد مقتل أبيه إلى خراسان ، وخرج فى خلافة الوليد بن يزيد بن عبدالملك سنة ١٢٥ هـ فقتل وصلب وأحرق وذرّى فى الفرات — انظر الجزء الثانى ص ٤٥٧ .

(٦) هو جعفر بن أبى طالب ، قتل فى غزوة مؤتة سنة ٨ هـ — انظر الجزء الأول ص ٤٤٩ .

(٧) فى رواية الطبرى « حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم

ولقد علمتَ أن مَكْرُمَتنا فى الجاهلية سِقايةُ الحجيج الأعظم وولايةُ زَمْزَم ، وكانت للعباس دون إخوته[١] ، فنازَعنا فيها أبوك[٢] ، فقضَى لنا عليه عمر ، فلم نَزَل نَليها فى الجاهلية والإسلام ، ولقد قَحِط أهل المدينة[٣] ، فلم يتوسَّل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه ، إلا بأبينا[٤] ، حتى نَعَشَهم الله ، وسقاهم الغيثَ ، وأبوك حاضر لم يتوسَّلْ به .

ولقد علمتَ أنه لم يبقَ أحدٌ من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره ، فكان وارِثَه من عُمُومته[٥] ، ثم طلب هذا الأمرَ غيرُ واحد من بنى هاشم فلم ينَلْه إلا ولدُه ، فالسِّقايةُ سِقايتُه ، وميراثُ النبيِّ له ، والخلافة فى ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل ، فى جاهلية ولا إسلام ، فى دنيا ولا

أرضهم وديارهم ، وأسنينا سلفكم (أى رفعناه) وفضلناه ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه ، للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين مسلما منهم ، مجتمعا عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له ، وذكرناهم فضله ، وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه » .

(١) انظر أسد الغابة ٣ : ١٠٩ .

(٢) جاء فى شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤٦١ « وكانت السقاية فى الجاهلية بيد أبى طالب ثم سلمها إلى أخيه العباس » .

(٣) كان ذلك عام الرمادة سنة ١٨ هـ ، أصابت الناس فيه مجاعة شديدة بالمدينة وما حولها ، فكانت تسفى إذا ريحت ترابا كالرماد فسمى ذلك العام عام الرمادة — انظر تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢٣ .

(٤) خطب عمر عام الرمادة بالعباس ، فكان فيما قال : « اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آبائه وكبار رجاله ، فإنك تقول (وقولك الحق) : «وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا » فحفظتهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهم نبيك فى عمه » فما برحوا حتى علقوا الحذاء ، وقلصوا المآزر ، وطفق الناس بالعباس يقولون : « هنيئا لك ياساقى الحرمين » — انظر العقد الفريد ٢ : ١٣٢ .

(٥) فى الكامل للمبرد وصبح الأعشى « وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد حيا إلا العباس ، فكان وارثه دون بنى عبد المطلب » .

آخرة ، إلا والعباسُ وارِثُه ومَورِّثُه(١) ، ولقد جاء الإسلام(٢) والعباس يَمُون أبا طالب وعِيالَه ، ويُنفق عليهم للأَزْمة التى أصابته(٣) ، ولولا أن العباس أُخْرج إلى بَدْر كُرْهاً لمـاتَ عَمَّاكَ طالِب وعَقِيلٌ جوعا ، وللَحَسا جِفَانَ عُتْبة وشَيْبة(٤) ، ولكنه كان من المُطعِمِين ، فأذهب عنكم العارَ والشَّنار(٥) ، وكفاكم النفقةَ والمَئُونة ، ثم فَدَى عَقِيلا يوم بَدْر(٦) .

فكيف تفخَر علينا ؟ وقد مُنَّاكم(٧) فى الكفر ، وفَدَيْناكم من الأَسْر ،

(١) وفيهما : « فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، وبنوه القادة الخلفاء ، فقد ذهب بفضل القديم والحديث » .

(٢) فى الطبرى « وأما ماذكرت من بدر فإن الإسلام جاء ... » غير أنه لم يرد ذكر بدر فى كتاب النفس الزكية .

(٣) جاء فى شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٥ « ذكروا أن قريشا أصابتها أزمة وقحط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعميه حمزة والعباس : ألا نحمل ثقل أبى طالب فى هذا المحل (والمحل كالقحط وزنا ومعنى) فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لى عقيلا وخذوا من شئتم ، وكان شديد الحب لعقيل ، فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفرا . وأخذ محمد صلى الله عليه وآله وسلم عليا » .

(٤) الجفان: جمع جفنة بالفتح وهى القصعة ، وعتبة هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أبو هند أم معاوية ، وكان من المطعمين من قريش — انظر سيرة ابن هشام ١ : ٤٠٦ ، وشيبة أخو عتبة .

(٥) الشنار: أقبح العيب ، وفى الطبرى «السبة» والمعنى واحد .

(٦) كان العباس ممن خرج مع المشركين يوم بدر ثم أسر ، وكذا عقيل بن أبى طالب . وروى الطبرى (ج ٢ : ص ٢٩٠) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس حين انتهى به إلى المدينة : يا عباس افد نفسك وابنى أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو بن جحدم ، فانك ذو مال . فقال : يا رسول الله إنى كنت مسلما ولكن القوم استكرهونى . فقال : الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ما تذكر حقا فالله يجزيك به ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك . قال : فإنه ليس لى مال ، قال : فأين المال الذى وضعته بمكة حيث خرجت عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد ، ثم قلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا ، فللفضل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا ، ولقثم كذا وكذا ، ولعبيد الله كذا وكذا . قال : والذى بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيرى وغيرها وانى لأعلم أنك رسول الله ، ففدى العباس نفسه وابنى أخيه وحليفه .

(٧) فى الطبرى «وقد علنا كم» والمعنى واحد .

وحُزْنا عليكم مكارِمَ الآباء ، ووَرِثنا دونكم خاتَمَ الأَنْبِياء ، وطلبنا بثأركم فأدركْنا منه ما عَجَزتم عنه ، ووضعناكم بحيث لم تَضَعُوا أنفسَكم ، والسلام عليك ، ورحمة الله » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢١١ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٥ : ١٩٩ ، والكامل للمبرد ٢ : ٢٩٥ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٣٣)

٦٠ — كتاب أبى جعفر إلى الحسن بن زيد

وخاصم عيسى وسليمانُ وإدريسُ بنو عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب ، بنى محمد النفس الزكية فى ميراث عبد الله ، وقالوا : قُتل أبوكم محمد فوَرِثه عبدُ الله ، فتنازَعوا إلى الحسن بن زيد ، فكتب بذلك إلى أبى جعفر ، فكتب إليه .

« أما بعد : فإذا بلغك كتابى هذا فورِّثهم من جَدهم ، فإنى قد رَدَدْتُ عليهم أموالهم(١) ، صِلَةً لأرحامهم ، وحفظاً لقرابتهم » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٣٢)

٦١ — كتب بين أبى جعفر وسلم بن قتيبة

وكتب أبو جعفر إلى سَلْم بن قُتيبة الباهلى لما ولّاه البصرة — بعد مقتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن — :

« أما بعدُ ، فاهدم دُورَ مَن خرج مع إبراهيم واعقِر نخلهم » .

فكتب إليه سلْم : « بأى ذلك أبدأ ، أبالدور أم بالنخل » ؟

(١) كان عيسى بن موسى لما قتل محمدا النفس الزكية ، قبض أموال بنى الحسن كلها ، فأجاز ذلك أبو جعفر .

فكتب إليه أبو جعفر : «أما بعد ، فقد كتبت إليك آمُرك بإفساد تمرهم، فكتبت تستأذننى فى أيِّه تبدأ به . أبِالبَرْنِىّ[(١)] أم بالشَّهْرِيز[(٢)]؟»

وعزله ، وكان ذلك سنة ١٤٦ هـ . (تاريخ الطبرى ٩ : ٢٦٤)

٦٢ — كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى

وكان أبو العباس السَّفّاح ، عامَ وفاته (سنة ١٣٦ هـ) عَقَد لأخيه أبى جعفر الخلافة من بعده ، وجعله ولىّ عهد المسلمين ، ومن بعده ابن أخيه عيسى بن موسى ، وكتب العهد بذلك وصَيَّره فى ثوب ، وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ، ودَفَعه إلى عيسى بن موسى[(٣)] .

فلما وَلِىَ أبو جعفر الخلافة أقرّ عيسى بن موسى على ما كان أبو العباس ولاّه من ولاية الكوفة وسَوادها ، وكان له مُكْرِماً مُجِلاً ، وكان إذا دخل عليه أجلسه عن يمينه ، وأجلس المهدى ابنه عن يساره ، ثم عزم على تقديم المهدى عليه فى الخلافة ، وكلّمه فى ذلك برفيق من الكلام فأبَى ، فتغيّر عليه وباعَدَه بعضَ المباعدة ، وقصَد إليه بالأذى حتى أجابه إلى ما سأله[(٤)] ، وكان ذلك سنة ١٤٧ هـ .

---

(١) البرنى : تمر ، فارسى معرب .

(٢) تمر أيضا ، جاء فى القاموس: «تمر سهريز بالضم والكسر ، وبالنعت وبالاضافة ، وبالشين: نوع معروف» .

(٣) انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٥٤ .

(٤) من ذلك ما قيل من أن أبا جعفر سقاه بعض ما يتلفه ، فرض مدة ، وبلغت العلة منه كل مبلغ حتى تمعط شعره ثم أفاق من علته ، وقيل : إنه وضع الجند فصاروا يشتمونه إذا رأوه وينالون منه ،

وروى الطبرى أن أبا جعفر كتب إليه فى ذلك :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبدِ الله المنصور أمير المؤمنين إلى عيسى بن موسى ، سلام عليك ، فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، أما بعدُ : فالحمدُ لله ذِى المَنِّ القديم ، والفضلِ العظيم ، والبَلاء(١) الحَسَن الجميل ، الذى ابتدأ الخَلقَ بعِلمه ، وأنفذَ القضاءَ بأمره ، فلا يبلغُ مخلوق كُنْهَ حقِّه ، ولا ينال فى عظمته كُنْهَ ذِكره ، يُدبِّر ما أراد من الأمور بقُدْرته ، ويُصْدرها عن مشيئته ، لا قاضِيَ فيها غيرُه ، ولا نَفاذَ لها إلاّ به ، يُجْرِيها على أَذْلالِها(٢) ، لا يستأمِرُ(٣) فيها وزيراً ، ولا يُشاور فيها مُعِيناً ، ولا يلتبس عليه شىء أرادَه ، يَمْضى قضاؤه فيما أحبَّ العبادُ وكَرِهوا ،

فشكا ذلك إلى المنصور فقال للجند : لا تؤذوا ابن أخى ، فإنه جلدة بين عينىّ ولو كنت تقدمت إليكم لضربت أعناقكم ، فكانوا يكفون ثم يعودون ، فمكث بذلك زمانا ، فلما كتب أبو جعفر إليه الكتاب الآتى ، وأتاه جوابه بالإباء . عاد الجند لأشد ما كانوا يصنعون ، فكانوا يأتون باب عيسى فيمنعون من يدخل إليه ، فإذا ركب مشوا خلفه ، وقالوا : أنت البقرة التى قال الله فيها « فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » فعاد فشكاهم ، فقال له المنصور : يابن أخى أنا والله أخافهم عليك وعلى نفسى قد أشربوا حب هذ الفتى (المهدى) فلو قدمته بين يديك فيكون بينى وبينك لكفوا ، فأجابه ، وقيل إن أبا جعفر لما أعياه الأمر فى خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، بعث إلى خالد بن برمك وقال له : هل عندك حيلة فيه ، فقد أعيتنا وجوه الحيل ، وضل عنا الرأى . فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، وسار إليه فى ثلاثين رجلا من كبار شيعة أبى جعفر ، فأداره بكل وجه من وجوه الحذر والطمع ، فأبى عليه ، فخرج خالد فقال : نخبر أمير المؤمنين أنه قد أجاب ، ونشهد عليه إن أنكره ، وساروا إلى أبى جعفر ، فأعلموه أنه قد أجاب . فأخرج التوقيع بالبيعة للمهدى ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، وبلغ الخبر عيسى فأتى أبا جعفر منكرا لما ادعى عليه ، فدعاهم أبو جعفر فسألهم ، فقالوا : نشهد عليه أنه قد أجاب ، وليس له أن يرجع ، فأمضى أبو جعفر الأمر وشكر لخالد ما كان منه — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٢٧٢ ، والفخرى ص ١٥٥ .

(١) البلاء يكون منحة ، ويكون محنة .

(٢) يقال : أمور الله جارية أذلالها (بالنصب) وعلى أذلالها : أى مجاريها، جمع ذل بالكسر ، وذلّ الطريق : محجته . (٣) الاستئمار والمؤامرة : المشاورة .

لا يستطيعون منه امتناعا ، ولا عن أنفسهم دِفاعًا ، ربّ الأرض وَمن عليها ، له الخلقُ والأمرُ ، تبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ .

ثم إنك قد علمتَ الحالَ التي كُنّا عليها في ولاية الظَّلَمَة : كيف كانت قُوّتنا وحِيلتُنا ، لِمَا اجترأ عليه أهلُ بيتِ اللّعنة علينا ، فيما أحبَبْنا وكرِهْنا ، فصبَرنا أنفسَنا على ما دَعَونا إليه ، من تسليم الأمور إلى من أسنَدُوها إليه ، واجتَمعَ رأيُهم عليه ، نُسامُ الخَسْفَ[1] ، ونُوطَأُ بالعَسْف ، لا نَدْفَع ظُلماً ، ولا نَمْنع ضَيْما ، ولا نُعْطَى حقا ، ولا نُنكِر مُنْكَرًا ، ولا نستطيع لها ولا لأنفُسِنا نفعاً ، حتى إذا بَلَغَ الكتابُ أَجَلَه ، وانتهى الأمر إلى مُدّته ، وأذِنَ اللهُ في هلاك عدوِّه ، وارتاح بالرحمة لأهل بيتِ نبيه صلى الله عليه وسلم ، فابتَعَثَ اللهُ لهم أنصاراً يطلبون بثأرهم ، ويجاهِدون عدوّهم ، ويَدْعُون إلى حُبِّهم ، وينصرون دولتهم ، من أرَضِينَ متفرّقة ، وأسباب مختلفة ، وأهواء مؤتلفة ، فجمَعَهم الله على طاعتنا ، وألَّف بين قلوبهم بمودّتنا على نصرتنا ، وأعزّهم بنَصْرنا ، لم نَلْق منهم رجلا ، ولم نَشْهَر معهم سيفاً ، إلاّ ما قَذَفَ اللهُ في قلوبهم ، حتى ابتعثهم لنا من بلادهم ببصائرَ نافِذَة ، وطاعةٍ خالِصة ، يَلْقَوْن الظَّفَر ، ويعودون بالنصر ، ويُنْصَرُون بالرُّعْب ، لا يَلْقَون أحداً إلا هزَموه ، ولا وَاتِرا إلا قتَلوه ، حتى بَلَغَ الله بنا بذلك أقْصَى مَدانا ، وغاية مُنَانا ، ومنتهَى آمالِنا ، وإظهارَ حقنا ، وإهلاكَ عدوّنا ، كرامةً من الله جلّ وعزّ لنا ، وفضلا منه علينا بغير حَوْلٍ منا ولا قوّة .

---

(١) سامه الخسف : أولاه الذل ، والعسف : الظلم .

ثم لم نَزَلْ من ذلك فى نعمةِ اللهِ وفَضْلِه علينا ، حتى نَشَأَ هذا الغُلام(١) ، فقَذَفَ اللهُ له فى قلوب أنصار الدِّينِ الذين ابتَعَثَهم لنا مِثْلَ ابتدائه لنا أَوَّلَ أمرنا ، وَأَشْرَبَ قلوبَهم مَوَدَّتَه ، وقَسَمَ فى صدورهم مَحَبَّتَهُ ، فصاروا لا يَذكرون إلا فَضْلَهُ ، ولا يُنَوِّهون(٢) إلا باسمه ، ولا يعرفون إلا حَقَّه ، فلما رأى أميرِ المؤمنين ما قَذَفَ اللهُ فى قلوبهم من مودته ، وأجْرَى على ألسنتهم من ذِكره ، ومعرفتِهم إياه بعلاماته واسمه ، ودعاءِ العامَّة إلى طاعته ، أيقنَتْ نفسُ أميرِ المؤمنين أَنَّ ذلك أَمْرٌ تولَّاه اللهُ وصَنَعه ، لم يكن للعباد فيه أمرٌ ولا قدرة ، ولا مُؤَامَرَة ولا مُذاكَرَة ، لِلَّذى رَأَى أميرُ المؤمنين من اجتماعِ الكلمة ، وتتابُعِ العامّة ، حتى ظن أميرِ المؤمنين أنه لولا معرفةُ المهدىِّ بحقِّ الأُبُوَّة لأَفْضَتِ الأمورُ إليه ، وكان أميرِ المؤمنين لا يَمْنَعُ مما أُجتمعت عليه العامَّةُ ، ولا يجدُ مُنَاصاعن خلاصِ ما دَعَوا إليه ، وكان أشدَّ الناس على أميرِ المؤمنين فى ذلك الأقربُ فالأقربُ من خاصَّته وثِقاته من حَرَسه وشُرَطه ، فلم يجد أميرُ المؤمنين بُدًّا من استصلاحهم ومتابعتهم ، وكان أميرِ المؤمنين وأهلُ بيته أحقَّ مَنْ سارَعَ إلى ذلك ، وَحَرَصَ عليه ، وَرَغِبَ فيه ، وعَرَفَ فضلَه ، وَرجا بَرَكَتَهُ ، وصَدَّق الرِّوايةَ فيه ، وحَمِدَ اللهَ إذ جعل فى ذُرِّيَّته مِثْلَ ما سألتِ الأنبياءُ قبلَه ، إذ قال العبد الصالح(٣) : «فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ

---

(١) يعنى ابنه محمدا المهدى .

(٢) نوّه بفلان : إذا رفعه وطير به .

(٣) هو زكريا عليه السلام .

يَعقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » . فوهَبَ اللهُ لأمير المؤمنين وليًّا ، ثم جعله تَقِيًّا مبارَكا مَهْدِيًّا ، وللنبي صلى الله عليه وسلم سَمِيًّا ، وسَلَبَ مَن انتحَلَ هذا هذا الاسمَ[1] ، ودعا إلى تلك الشُّبْهَة التي تحيَّر فيها أهلُ تلك النِّيَّة ، وافتتن بها أهلُ تلك الشِّقْوَة ، فانتزَعَ ذلك منهم ، وجعل دائِرَةَ السَّوء عليهم ، وأقرَّ الحقَّ قَرَارَه ، وأعلَن للمهديِّ مَنَارَه ، وللدين أنصارَه .

فَأَحَبَّ أميرُ المؤمنين أن يُعْلمك الذي اجتمع عليه رأيُ رعيته ، وكنتَ في نفسه بمنزلة ولده ، يحبُّ مِنْ سَتْرِك ورُشْدك وَزَيْنِكَ ما يحبُّ لنفسه وولده ، وَيَرَى لك — إذا بَلَغك مِنْ حال ابن عمك ما تَرَى من اجتماع الناس عليه — أن يكون ابتداء ذلك مِنْ قِبَلك ، لِيعلمَ أنصارُنا من أهل خُراسان وغيرهم أنك أسرعُ إلى ما أحبُّوا ، مما عليه رأيهم في صلاحهم منهم إلى ذلك من أنفسهم ، وأن ما كان عليه من فضلٍ عرَفوه للمهديِّ ، أو أمَّلوه فيه ، كنتَ أحظَى الناس بذلك وأسَرَّهم به ، لِمكانِه وقرابته ، فاقبَلْ نُصْحَ أمير المؤمنين لك ، تَصْلُحْ وَتَرْشُد ، والسلام عليك ورحمة الله» .

(تاريخ الطبري ٩ : ٢٦٩)

٦٣ — رد عيسى بن موسى على المنصور

فكتب إليه عيسى بن موسى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين من عيسى ابن موسى .

. . . . . .

(١) يعني النفس الزكية ، وكان يلقب بالمهدي — انظر ص ٨٥ .

سلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إلهَ إلا هو ، أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابك تذكر فيه ما أجمعْتَ[١] عليه ، من خِلاف الحقِّ ، وركوبِ الإثم فى قطيعةِ الرَّحِم ، ونقْضِ ما أخذَ اللهُ عليه من الميثاق من العامَّة ، بالوفاءِ للخلافة والعهدِ لى مِنْ بعدك ، لتَقطعَ بذلك ما وَصَلَ اللهُ من حبْله ، وتُفرِّقَ بين ما ألَّفَ اللهُ جمْعَه ، وتَجْمَعَ بيْنَ ما فرَّق الله أمرَه ، مكابَرةً لله فى سمائه ، وحَوْلاً[٢] على الله فى قضائه ، ومتابعَةً للشيطان فى هواه ، وَمَنْ كابَرَ اللهَ صرَعَه ، ومن نازَعه قمَعه[٣] ، ومَن ماكَرَه عن شيء خَدَعَه ، ومن توكَّل على الله منَعه ، وَمَنْ تواضَعَ لله رَفَعَهُ .

إن الذى أُسِّسَ عليه البناء ، وخُطَّ عليه الحِذاء[٤] ، من الخليفة الماضى ، عَهْدٌ لى من الله ، وأَمْرٌ نحن فيه سواءٌ ، ليس لأحد من المسلمين فيه رُخْصَةٌ[٥] دون أحد ، فإن وَجَبَ وفاءٌ فيه فما الأولُ بأحقَّ به من الآخِر ، وإن حَلَّ من الآخِر شيء فما حُرِّم ذلك من الأول ، بل الأولُ الذى تلا خَبَرَه ، وعَرَفَ أثَرَه ، وكشَفَ عما ظَنَّ به وأمَّلَ فيه ، أسرعُ ، وكان الحقُّ أَوْلَى بالذى أراد أن يصنع أوَّلا ، فلا يَدْعُك إلى الأمن من البلاء

(١) أجمع الأمر وأجمع عليه : عزم ، وخلاف : مخالفة .

(٢) الحول : الاحتيال والتحيل .

(٣) قمعه كمنعه : قهره وذلله .

(٤) أى القالب الذى قدّر الحذاء وقطع على مثاله ، ومعنى هذا وما قبله : أن القاعدة التى أسس عليها بنيان الدولة ، والخطة التى رسمها أبو العباس وارتضاها ، عهدلى ... الخ .

(٥) الرخصة : ترخيص الله للعبد فيما يخففه عليه ، والتسهيل ، والمعنى : ليس لأحد منهم أن يتحلل منه ، بل يجب عليهم جميعا الوفاء به .

اغترارٌ بالله ، وترخيصٌ للناس فى تركِ الوفاء ، فإنَّ مَنْ أجابك إلى تركِ شيءٍ وَجَبَ لى ، واستحَلّ ذلك منى ، لم يَحْرَج[١] إذا أمكنَتْهُ الفُرصة ، وأفتَنَتْه[٢] بالرُّخصَة ، أن يكونَ إلى مثل ذلك منك أسرَعَ ، ويكون بالذى أسَّسْتَ من ذلك أنجَعَ ، فاقبَلِ العافِيَةَ[٣] ، وَأرْضَ من الله بما صَنَعَ ، وخُذ ما أُوتيتَ بِقُوَّة، وَكُنْ من الشاكرين ، فإن الله جلَّ وعز زائِدٌ مَنْ شكَرَه ، وَعْدًا منه حقًّا لا خُلْفَ فيه ، فمن راقَبَ اللهَ حَفِظَهُ ، ومن أضمَرَ خِلافَهُ خَذَلَهُ ، والله يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، ولسنا مع ذلك نامَنُ من حوادث الأمور ، وبَغَتَاتِ الموت ، قبل ما ابتدأتَ به من قطيعتى ، فإن يَعْجَلْ بى أمرٌ كنتَ قد كُفِيتَ مَئُونَةَ ما اغتَمَمْتَ له ، وستَرْتَ قُبْحَ ما أردتَ إظهارَه ، وإن بقيتُ بعدكَ لم تكن أوْغَرْتَ[٤] صدرى ، وقطعْتَ رَحِمى ، ولا أظهرتَ[٥] أعدائى فى اتّباع أثَرِك ، وقبولِ أدَبك ، وعَمَلٍ بمثالك .

وذكرتَ أن الأمور كلَّها بيَدِ الله هو مُدَبِّرها ومُقَدِّرها ومُصْدِرها عن مشيئته ، فقد صدقتَ ، إنَّ الأمور بيد الله ، وقد حَقَّ على من عرَفَ ذلك ووَصَفه العملُ به ، والانتهاء إليه .

وأعلم أنا لَسْنا جَرَرْنا إلى أنفسنا نفعاً ، ولا دَفَعْنَا عنها ضَرًّا ، ولا نِلنا

---

(١) حرج كفرح : أثم .

(٢) فتنه كضربه وفتّنه وأفتنه : أوقعه فى الفتنة .

(٣) فى الأصل « العاقبة » وهو تصحيف .

(٤) الوغر ويحرك : الحقد والضغن والعداوة والتوقد من الغيظ ، وفى الأصل « أوعرت » وهو تصحيف .

(٥) ظهر عليه : غلبه وقوى عليه ، وأظهره عليه : أعانه عليه وأظفره به .

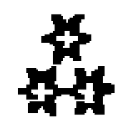
ألذى عرّفتَهُ بحَوْلنا ولا قوتّنا ، ولو وُكِلنَا فى ذلك إلى أنفسنا وأهوائنا ، لَضَعُفتْ قوتُنا ، وَعَجَزَت قدرتنا فى طلب ما بَلغَ ألّلهُ بنا ، ولكن ألله إذا أراد عَزْمًا لإنفاذِ أمره ، وإنجازِ وعده ، وإتمام عهده ، وتأكيد عَقْدِه ، أحْكَمَ إبرامه ، وأبْرَمَ إحكامه ، ونوّرَ إعلانَه ، وثَبّتَ أركانه ، حين أسّس بُنيانَه ، فلا يستطيع العباد تأخيرَ ما عَجّل ، ولا تعجيلَ ما أخّر ، غيرَ أن الشيطان عدوٌّ مُضِلٌّ مُبين ، قد حذّرَ ألّلهُ طاعتَه ، وبيّنَ عداوتَه ، يَنْزَغُ(١) بين وُلاةِ الحق وأهلِ طاعته ، لِيُفرِّق جَمْعَهم ، ويشتّتَ شمْلهم ، ويُوقعَ العداوة والبغضاء بينهم ، ويتبرأ منهم عند حقائق الأمور ، ومَضايق البَلايا ، وقد قال ألله عز وجل فى كتابه : «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ ٱللّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللّهُ آيَاتِهِ وَٱللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» . ووصَفَ الذين اتقَوا فقال : «إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَاهُمْ مُبْصِرُونَ» .

فأُعيذُ أميرَ المؤمنين بألله من أن يكون نيتُه وضميرُ سريرتِه خِلافَ ما زيّنَ ألّلهُ به جلّ وعزّ من كان قَبْله ، فإنه قد سألتهم أبناؤهم ، ونازَعتْهُمْ أهواؤهم إلى مثل الذى هَمّ به أميرُ المؤمنين ، فآثَرُوا الحق على ماسواه ، وعرَفوا أن ألله لاغالبَ لقضائه ، ولا مانعَ لعطائه ، ولم يأمَنوا مع ذلك تغيير النِّعَم ، وتعجيلَ النِّقَم ، فآثَرُوا الآجِلَةَ ، وقبلوا العافِيَةَ ، وكرِهُوا التغيير ، وخافوا التبديلَ ، فأظهروا الجميلَ ، فتمّم ألله لهم أمورهم ، وكفاهم

---

(١) نزغ بينهم كنع : أفسد وأغرى ووسوس ، قال تعالى « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » وفى الأصل « ينزع » وهو تصحيف .

ما أهمّهم ، ومَنَع سلطانَهم ، وأعزّ أنصارَهم ، وكرّم أعوانهم ، وشرّف بنيانهم ، فتمت النعمُ ، وتظاهرتِ(١) المننُ ، فاستوجبوا الشكر ، فتمّ أمرُ الله وهم كارهون ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » .



وروى أن المنصور لمَّا رجع إليه من عند عيسى جواب كتابه ، وقّع فى كتابه :

« أُسْلُ عنها تنَلْ منها عِوَضا فى الدنيا ، وتأمَنْ تَبِعَتَها فى الآخرة » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٧٠)

٦٤ — كتاب عيسى بن موسى إلى المنصور

وروى الصُّولى قال :

وكتب عيسى بن موسى إلى المنصور ، حين ألحّ عليه فى البيعة للمهدى ، كتابا غليظا جوابا لكتاب المنصور إليه :

« فهمتُ كتابَ أمير المؤمنين ، المُزِيلَ عنه نعمَ الله ، والمعرِّضَه لسُخْطه ، بما قرُب فيه من القطيعة ونقضِ الميثاق ، أوجبَ ما كان الشكرُ لله عليه ، وألزَمَ ما كان الوفاء له ، فأعقبَ سُبُوغَ(٢) النعم كفرا ، وأتبَع الوفاء بالحق غَدْراً ، وأمِنَ اللهَ أن يجعلَ ما مدّ من بَسْطتِه إحسانا ،

---

(١) معناه : تضاعفت ، يقال ظاهر بين ثوبين أى لبس أحدهما على الآخر وتظاهروا عليه : تعاونوا .
(٢) أى تمامها .

وتمكينه إياه استدراجا ، وكفى اللهُ من الظالم منتصِرًا ، والمظلومِ ناصراً ، ولا قوةَ إلا بالله ، وهو حسبي وإليه المصير .

ولقد انتهت أمورٌ يا أمير المؤمنين لوقعدتُ عنك فيها — فضلا عن ترك معونتك عليها — لَقامَ بك القاعِدُ ، ولطالَ عليك القصيرُ ، ولقد كنتُ واجداً فيها بُغْيتى ، وآمِناً معها نَكْثَ بيعتى ، فلزِمْتُ لك طريقةَ الوفاء ، إلى أن أوردْتُك شريعةَ[1] الرخاء ، وما أنا بآيِسٍ من انتقام الله ورَفْع حِلْمه» .

وكتب بعد ذلك :

« بَدَتْ لِي أماراتٌ من الغَدْرِ شِمْتُها — أظُنُّ وإياها سَتُمْطِركم دَمَا[2]

وما يعـلَمُ العَالِي مَتَى هَبَطاتُه — وإن سارَ فى ريح الغرور مُسَلَّما

أتَهْضِمُنى حقا تراه مُؤَخَّرا — لِحُكمٍ إلَهى حين صرتُ مُقَدَّما ؟

سَنَنْتَ انتقاضَ العهدِ فاصبِرْ لمثله — بنَقْضِكَ من عهدى الذى كان أبْرِما

(الأوراق للصولى ٢ : ٣١٥)

٦٥ — كتاب آخر

وكتب عيسى بن موسى إلى المنصور حين ألحّ عليه فى الخلع ، وطرح عليه من أهل خراسان مَنْ هدَّده بالقتل :

« لوسامَنى غيرُك ما سُمْتَنى لاستنصرتُك عليه ، ولاستشفَعتُ بك إليه ، حتى تقِرَّ الحُرَم[3] مَقرَّها ، وتُنزِل الوفاءِ منزِلتَه ، ونحن أول دولة

---

(١) الشريعة : المورد .

(٢) فى الأصل « سمتها » وهو تصحيف .

(٣) الحرم : جمع حرمة بالضم ، وهى مايجب القيام به ولا يحل انتهاكه .

يُستَنُّ بِعَمَلِنَا فيها ، ويُنْظَر إلى ما اخترناه منها ، وقد استعنتُ بك على قوم لايعرِفون الحقّ معرفتَك ، ولا يَلْحَظون العواقبَ لَحْظَك ، فكن لى عليهم نصيراً ، ومنهم مُجيرًا ، يَجْزِكَ اللهُ خيرَ جزائك عن صلة الرَّحِم ، وقَطْعِ الظُّلْم ، إن شاء اللهُ » . (الأوراق للصولى ٢ : ٣١٦)

٦٦ — رد المنصور عليه

فأجابه المنصور :

« لولا أنك تُسَامُ النزولَ عن حقٍّ لك ، وواجبٍ فى يديك ، لزال الضَّرَعُ[1] إليك ، والتحمّلُ عليك ، ولولا أنى أخاف أن تسبق أيدى هذه العصبةِ من أهل الدولة إليك ، لَمَا كلّفتُك شاقًّا ، ولا حمّلتك مكروها ، ولكنى عندك — بالنصح لك ، والإشفاقِ عليك — فى جَنَبَةِ[2] مَنْ لايرضَى منك إلا بإرادته ، ولا يستمهل أيامَك لسرعته ، وما الذى أسمو بك إليه بدون الذى يستنزلونك عنه ، واللهُ يوفّقك ويُحْسِن الاختيارَ لك »

(الأوراق للصولى ٢ : ٣١٦)

٦٧ — كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى

وكتب المنصور إلى عيسى بن موسى كتابا يحثه فيه على خلع نفسه وتقديم المهدى عليه ، فكتب إليه عيسى :

---

(١) الضرع والضراعة : الخضوع والاستكانة .

(٢) الجنبة : الجانب .

« بسم اللّٰه الرحمن الرحيم : وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ[١] فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ » . وقال عز وجل : « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً » .

قرأتُ كتاب أمير المؤمنين وتفهَّمْته وأنعمتُ[٢] بالنظر إليه كما أمر ، ونَحَرْتُه[٣] ، فوجدتُ أمير المؤمنين إنما يَزيدنى ليَنْقُصَنى ، ويقرِّبنى ليُبْعِدَنى ، وما أجهَلُ مالى فى رضاه من الحظ الجزيل ، والأثر الخَطير[٤] ، ولـكنه سامَنى ماتَشِحّ[٥] به الأنفسُ ، وتُبْذَلُ دونه ، وما لايسمح به والد لولده مادام له حَظٌّ فيه .

وقد علم أمير المؤمنين أنه يريد هذا الأمر لأبنه لا له ، وهو صائر إلى ماسيصير إليه ، أشْغَلَ مايكونُ ، وَأَحْوَجَ إلى حَسَنَةٍ قدَّمَها ، وسيئة اجتَنَبها ، ولا صِلَةَ فى معصية اللّٰه ، ولا قطيعةَ ما كانت فى ذاتِ اللّٰه » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٣١٩)

٦٨ — كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى

وبلغ المنصورَ أن عيسى بن موسى قتل رجلا من ولد نَصْر بن سَيَّار[٦] كان مستخفِيا بالـكوفة ، فَدُلَّ عليه فضرب عُنقه ، فأنكر ذلك وأعظمه

---

(١) نصب على المدح .

(٢) يقال : أنعم فى الأمر : بالغ .

(٣) معناه : وخبرته كل الخبرة وأصبت حقيقته ، وأصله من نحر البعير إذا أصاب نحره ، وفى الأصل « وتنحرته » وهو تحريف .

(٤) أى العظيم .

(٥) أى ماتبخل به وهو الخلافة ، وفعله كفرح ونصر وضرب .

(٦) كان واليا على خراسان فى خلافة مروان بن محمد الأموى .

وَهَمَّ فى عيسى بأمر كان فيه هلاكُه ، ثم قَطَعَه عن ذلك جهلُ عيسى بمـا فعل ، فـكتب إليه :

« أما بعد : فإنه لولا نظرُ أميرِ المؤمنين واستبقاؤه ، لم يؤخرك عقوبةَ قتل ابن نصر بن سَيَّار ، واستبدادِك به ، بمـا يقطع أطماعَ العُمَّال فى مثله ، فأمسِك عمَّنْ ولاك أمير المؤمنين أمرَه من عربىّ وأعجمىّ ، وأحمرَ[1] وأسودَ ، ولا تستبدنَّ على أميرالمؤمنين بإمضاء عقوبةٍ فى أحد قِبَله تِبَاعَةٌ[2]، فإنه لايَرَى أن يأخذ أحداً بظِنَّة[3] قد وضَعَها اُلله عنه بالتوبة ، ولا بِحَدَثٍ كان منه فى حرب أعقبه اُلله منها سِلْماً سَتَرَ به عن ذى غُلَّة[4] ، وحَجَزَ به عن مِحْنة ما فى الصدور ، وليس ييأسُ أميرُ المؤمنين لأحدٍ ولا لنفسه من اُلله مِنْ إقبال مُدْبِرٍ ، كما أنه لا يأمَنُ إدبارَ مُقْبِلٍ إن شاء اُلله والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٩٤)

٦٩ — كتاب عبيد الله العمرى إلى أبى جعفر المنصور

وروى ابن قُتَيبة فى الإمامة والسياسة أن أبا جعفر المنصور لمـا قَفَل من حَجِّه سنة ثمـان وأربعين ومائة ، سأل عن عُبيد اُلله بن عمر بن حَفْص ابن عبد اُلله بن عمر بن الخطاب، وهو الفقيه المعروف بالعُمَرى ، فقيل له : إنه لم يحجَّ العامَ يا أمير المؤمنين ، ولو حجَّ لـكان أول داخل عليك ، فلا تَقبل

(١) الحمراء : العجم لبياضهم ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم ، وكانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالبا على ألوانهم مثل الروم والفرس ومن صاقبهم إنهم الحمراء ، وكانت تسمى الموالى الحمراء

(٢) التباعة كـكتابة ، والتبعة كفرحة ، واحد . (٣) الظنة : التهمة .

(٤) الغلة فى الأصل : شدة العطش وحرارة الجوف .

عليه أحداً ، ولا يَقْدَح فيه عندك إلا باطلىّ أو كذّاب ، فإنه من علمتَ ، فقال أبو جعفر : والله ماتخلف عن الحج فى عامه هذا إلاّ عِلماً منه بأنى حاجّ فلذلك تخلَّفَ ، ولا واللهِ ما زاده ذلك عندى إلا شرفا ورفعة ، وإنى من التوقير والإجلال له بحال لا إخال أحداً من الناس بذلك ، لشرفه فى قريش وعظم منزلته من هذا الأمر ، والموضعِ الذى جعله الله فيه ، والمكانِ الذى أنزله به ، فلما قَدِم أبو جعفر بغداد ورد عليه كتاب عبيد الله العمرى ، وفيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أبى جعفر أمير المؤمنين من عبيد الله ابن عمر .

سلام الله عليك ورحمة الله التى اتسعت فوَسِعَتْ من شاء ، أما بعدُ : فإنى عَهِدْتُك وأمرُ نفسك لك مُهِمٌّ ، وقد أصبحتَ وقد وليتَ أمر هذه الأمة أحمرِها[1] وأسودِها وأبيضِها ، وشريفِها ووضيعِها ، يجلس بين يديك العدوّ والصديق ، والشريف والوضيع ، ولكلٍّ حِصَّتُه من العدل ، ونصيبُه من الحق ، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر ، وإنى أحذِّرك يوما تعْنُو[2] فيه الوجوهُ والقلوب ، وتنقطعُ فيه الحُجَّةُ ، لِمَلِكٍ قد قهرهم بجَبَرُوته ، وأذلَّهم بسلطانه ، والخلقُ داخِرون[3] له ، يرجون رحمته ، ويخافون عذابه وعقابه ، وإنا كنا نحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع فى آخر زمانها أن يكون إخوان العَلانية أعداءَ السَّريرة ، وإنى أعوذ بالله أن تَنزل كتابى سوءَ المنزِل ، إنما كتبتُ به نصيحةً والسلام[4] » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ١١٧)

---

(١) انظر هامش ص ١٠٩

(٢) عنا كسما : ذل وخضع . (٣) دخر كمنع وفرح : ذل أيضا .

(٤) قدمنا فى الجزء الأول ص ١٥٨ أن هذا الكتاب كتبه أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل

٧٠ — رد أبي جعفر على العمرى

فأجابه أبو جعفر المنصور :

« من عبد الله بن محمد أمير المؤمنين إلى عبيد الله بن عمر بن حفص ، سلام عليك . أما بعدُ ، فإنك كتبتَ إلىّ تذكر أنك عهِدتنى وأمرُ نفسى لى مهمّ ، فأصبحتُ وقد وَلِيتُ أمر هذه الأمة بأسْرِها وكتبتَ تذكرُ أنه بلغك أن أمر هذه الأمة سيرجع فى آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة ، ولستُ إن شاء الله من أولئك ، وليس هذا زمان ذلك ، إنما ذلك زمان تظهر فيه الرغبة ، والرغبة تكون رغبة بعض الناس إلى بعض، صلاح دنياهم أحب إليهم من صلاح دينهم ، وكتبتَ تحذرنى ما حُذِّرَت به الأمم من قبلى ، وقِدْمًا كان يقال : اختلافُ الليل والنهار يُقرِّبان كلّ بعيد ، ويُبْلِيان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار ، وكتبت تتعوّذ بالله أن نُنزِل كتابك سوء المنزل ، وأنك إنما كتبت به نصيحة ، فصدقْتَ وَبَرِرْتَ ، فلا تَدَعِ الكتبَ إلىّ ، فإنه لاغنى بى عن ذلك ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ٢ : ١١٨)

إلى عمر بن الخطاب حين ولى الخلافة ، وأن الكتاب الذى يليه كتبه عمر إليهما ردًّا عليهما ، كما جاء فى رواية صاحب فتوح الشام وإعجاز القرآن .

٧١ — كتاب أبي جعفر إلى محمد بن سليمان

وأُتِىَ محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس فى عمله على الكوفة — وكان أبو جعفر ولاّه إياها سنة ١٥٠ هـ — بعبد الكريم بن أبى العَوْجاء ، فأمر بحبسه ، وكثُر شفعاؤه عند أبى جعفر ، وألحّوا عليه فيه ، فلم يتكلم فيه إلا ظَنين[١] ، فأمر بالكتاب إلى محمد بن سليمان بالكفّ عنه إلى أن يأتيه رأيه .

ثم إن محمداً دعا به وأمر بضرب عنقه ، فلما أيقن أنه مقتول قال : أَمَا وَاللّٰهِ لئن قتلتمونى لقد وضعتُ أربعة آلاف حديث ، أحرِّم فيها الحلال ، وأُحِلُّ فيها الحرام ، واللّٰهِ لقد فطَّرتكم فى يوم صومكم ، وصوَّمتكم فى يوم فِطركم ، فضُربت عنقه .

وورد على محمد رسول أبى جعفر بكتابه : « إياك أن تُحْدِث فى أمر ابن أبى العوجاء شيئاً ، فإنك إن فعلتَ فعلتُ بك وفعلتُ ... يتهدده » .

فقال محمد للرسول : هذا رأس ابن أبى العوجاء وهذا بدنه مصلوبا بالكُنَاسة[٢] ، فأخبِر أمير المؤمنين بما أعلمتك ، فتغيَّظ عليه أبو جعفر وأمر بالكتاب بعزله ، وقال : واللّٰهِ لَهَمَمْتُ أن أُقِيدَه[٣] به ، ثم أرسل إلى عيسى ابن على وقال له : هذا عملك ، أنت أشرتَ بتولية هذا الغلام ، فولّيتُه غلاما جاهلا لاعلْم له بما يأتى ، يُقْدِم على رجل يقتله ولا ينتظر أمرى ! وقد كتبتُ

---

(١) الظنين : المتهم .   (٢) الكناسة : محلة بالكوفة .

(٣) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

بعزله ، وبالله لأفعلنّ به ولأفعلن ... فسكت عنه عيسى حتى سكن غضبه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين إن محمداً إنما قتل هذا الرجل على الزندقة ، فإن كان قتلُه صواباً فهو لك ، وإن كان خطأً فهو على محمد ، فأمر أبو جعفر بالكتب فمُزقت وأُقِرّ على عمله ـ وكان ذلك سنة ١٥٥ هـ .

تاريخ الطبرى ٩ : ٢٨٧

٧٢ — رسالة غسان بن عبد الحميد فى العتاب

قال ابن طيفور :

ومن الرسائل المفردات رسالة غَسَّان[١] بن عبد الحميد المدائنى كاتب جعفر بن سليمان فى العتاب :

« أما بعد : فإن الله جعل العباد أطواراً فى أخلاقهم ، كما جعلهم أطواراً فى صُوَرِهم ، وجعل بينهم أموراً يتآلفُون عليها ، ويُعْمِلُون أحْلامَهم[٢] فيها : مِنْ حُرَمٍ يتجاملون بها ، وحقوقٍ يتنازعونها ، ومودّةٍ يتعاطَوْنها ، وأخُوّةٍ يتداولونها ، تُرْعَى بوفاء ، وتؤدَّى بأمانة ، وتُضيَّع بتقصير ، وتُنتقَص بخيانة ، ليس مَن أُدِّيَتْ إليه فيما يَحفظ منها ، بأسعدَ من المؤدِّى لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه، وليس مَن ضُيِّعَتْ منه بأشْقَى ممن ضيَّعها فيما يُدْخِل من التقصير عليه ، فإنه من أخطأه الوفاء من أخيه ، فإنما يَدْخل عليه تقصيرُ غيره ، ومن

(١) قال ابن النديم فى الفهرست (ص ١٨٣) : « كان يكتب لجعفر بن سليمان بن على ، وكان بليغا حلو الكلام لطيف المعانى » .

(٢) فى الأصل « أخلاقهم » وأراه محرفا .

ضَيَّع الوفاءَ لإخوانه فقد أَدخَل النقصَ في خاصَّة نفسِه ، والمرء يجدُ من أخيه إذا خانه بَدَلاً ، ولا يجد عن نفسه إذا قصَّرَت به متحوَّلا ، فليس نقصٌ يستبدِلُ به كنقصٍ لا يستطيع مزايلتَه ، وقد ألبس الله عباداً من عباده نِعَما ، وجعل لهم في صلاح الأمور قَسْماً ، فكان ذلك عندهم ذريعةً يرعَوْنها ، لِما أُلحق عليهم فيها ، مما يكون صلاحا وتماما لها ، لئلا يعملوا بانتقاصٍ لِأَمْرٍ بلّغهم الله إياه ، ولا بوضيعةٍ لخُلُقٍ رفعهم الله إليه حتى نُسِبَ إليهم ونُسِبوا إليه ، فسمَّى لهم فِعْلا ، وسُمُّوا له فُعُلاً(١) ، وأَوْلى مَن أُلبسَتْه(٢) نعمةً ، وأُجْري لها على الألسُن صِفةٌ ، أن يكون عملُه موافقا لما صَنَعَ الله به ، ولا يكون لما أصلح منه مُفْسِدا ، ولا يكون(٣) له مخالِفا .

ولم أزَلْ أتعرَّفُ مِن نِعَم الله عز وجل عليَّ ، قديماً وحديثاً ، ويافِعاً ومُسِنّا ، فيما أبْلانى(٤) وأظهرَ منى ، وأَثبتَ معرِفتَه عند الناس ، ما أصبحتُ أَرَى استصلاحَه والتوقّيَ لتغيُّره حقاً عليَّ واجباً، فليس(٥) مَن كانت منه نجيعةٌ لأهل الإخاء والحُرْمة الذين ارتادوا ارتيادا ، واختَارَ واختارُوا ، فوقَعَ رأيُه عليهم ، ووقع رأيُهم عليه ، وارتضَوه لأنفسهم ، وارتضاهم لنفسه ، واقتصروا عليه بمودتهم ، واقتصر عليهم بمودَّته ، فحمَّلوه أُخُوَّتَهم ، وحمَّلهم أُخوَّتَه ، واسترعَوه الوفاءَ لهم ، حتى ثبّت اللهُ بينهم وبينه ما كان داعياً لكل رأيٍ جميل ، نافياً لكل صَنيعٍ مَعِيبٍ ، وأمرٍ مُرِيب ، فأىُّ نقصٍ أكثرُ ،

(١) جمع فعول كصبور . (٢) في الأصل « السنة » وهو تحريف .
(٣) في الأصل « ولم يكن » . (٤) أبلاه الله : أنعم عليه وأحسن إليه .
(٥) تنبه إلى أن خبر ليس لم يرد بعد في الكلام ، إلا أن يكون محذوفا لأنه مفهوم من السياق .

وأىُّ دناءةٍ أبْيَنُ ، من أن يكون امرؤ بمنزلَة ثقةٍ ، قد حُفِظَتْ منه حُرمةٌ ، واعتُقِدَتْ بها عليه أمانةٌ ، فوجَبَتْ منه مُصافاةٌ، وانتُظِرَتْ منه صِلةٌ ، ثم ينكشِفُ عن خيانة وغَدْر وقطيعةٍ وجفوةٍ ؛ ثم أحقُّ مَن كنتُ له على الجميل فيما بينى وبينه ، أهلُ الفضلِ فى المنزلة ، والثقة فى المكافأة ، والأمانة فى الوفاء ، والجمالِ فى الإخاء ، الذين(١) يُرْغَبُ فيهم إنعامُه ، ويُوثَقُ بحفظهم اليسيرَ من الحُرْمة ، فما كنتُ لأقطعَ خاصَّتى ممن يرغب فى عامتى ، ولا لأضيِّعَ الكثيرَ ممن لا يضيع اليسيرَ ، ولا ألْقَى أخاً شاهداً، بغيرِ ما أكون عليه غائباً، فأكونَ قد لقيتُه بدَلٍّ(٢) ، وغِبْتُ عنه بقَذَرٍ(٣) ، ويكون قد استودَعَنى شيئاً حفِظتُ ضِدَّه وسترتُ سواه ، بل أنا لِأخى حين يَغيبُ عنى وأرْعاه ، أحفظُ منّى حين يشاهِدُنى فيُعاينُ ما يكونُ منى ، ولم يكن ليَمُتَّ(٤) بالأسباب إلىَّ أهلُ الفضلِ والأحساب ، لايدعونى إليهم إلا الرغبةُ فيهم ، والتزيُّنُ بأحسابهم ، والاستعدادُ بعُدَدهم ، حتى إذا استحكمتْ حُرْمتُهم وتظاهرَتْ ، ووجَبَتْ وعظُمَتْ ، وصرتُ إمّا محافظاً يَزِينُه حِفاظُه ، وإما مضيِّعاً يَشِينُه تضييعُه(٥) ، عمِلتُ فى ذلك بما يقطَع ما أردتُ صلتَه ، ويَشِينُ ما أردتُ زَيْنَه ، ويصيرُ علىَّ ولا يَصِيرِ لى ، ويزهِّد فىَّ نُظراءَهم ، إذا مددتُ بالأسباب إليهم ،

---

(١) فى الأصل « لا الذين » والكلام على الإثبات لا على النفى ، وإنعامه : زيادته .

(٢) الدَّل (والهدى بفتح فسكون والسمت أيضا) : الحالة التى يكون عليها الإنسان ، من السكينة والوقار فى الهيئة وحسن المنظر والشمائل والسيرة .

(٣) فى الأصل « وعتب عند تعذر » وهو تحريف .

(٤) أى ليتوسل . (٥) فى الأصل هكذا « يشنه تضيه » .

فأكون عند من اعتقدتُ إخاءهُ مَقْلِيًّا[١] ، قد تغيَّرتْ عنده منزلتى ، ومن أردتُ استعارة مودَّته مكروها ، لا يقبل ذلك منى ، إنى إذَنْ إلى نفسى لَمُسِىءٌ ، وبحَظِّى لمخطِئٌ ، وما كنتُ لأختار الإخوان على فضلهم ، ثم أسيرَ فيما بينى وبينهم بما يخالف أخطارهم[٢] ومنازلهم ، لَبِئْس[٣] إذَنْ ما خالطتُ به الأكفاء ، وراقبتُ به الحُرَمَ ، وأسلمتُ[٤] به المودةَ التى قد أعطى الله فيها النعمَ ، وأترك[٥] مخالطةَ الأكفاء قبل اعتقادها ، وإن كان الفضلُ فيما بيننا أحسنَ من إيجاب حقها ، ثم الاستخفافِ بها ، فإن المُجَانِبَ المستورَ خيرٌ من المحافِظِ المذمومِ ، ومَن لِيمَ على جميل لم يتناوله ، أحسنُ ممن ليم على سَمِجٍ[٦] قد أتاه .

وإنه بَلَغَنِى أن غاشًّا ظالما أتاك بأمرٍ ، لم أكن له أهلاً ، ولم تكن بقبوله خَلِيقاً ، لأنى لم أكن لأشباهِه معروفا ، ولم أكن على استماع مِثله مَخُوفا ، فوجد فيك مَساغاً ، وعندك مستقَرًّا ، وكنتُ أحسنَ منازل إخوانك عندك ، والثقة لهم منك فى حِصن حَصينٍ ، ومحلّ مكين ، لا يناله أكاذيب الكاذبين ، ولا أقاويلُ المفسدين ؛ وذلك أن الكاذب كان بالتُّهَمة على منزلتى وحُرْمتى ، أحقَّ منى بالتُّهَمَة على رأيى وخُلقى ، وأنا كنتُ عندك بالثقة فى

---

(١) قلاه كرماه ورضيه : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه .

(٢) الأخطار : جمع خطر بالتحريك : وهو القدر .

(٣) فى الأصل « ليسير » . (٤) أى خذلت .

(٥) والمعنى : وإنه لجدير بى أن أترك مخالطتهم مادام حالى فى السير معهم على ما ذكر ، التقدير : وإنى إذن أترك ... الخ .

(٦) سمج كشمس وكتف : قبيح .

وفأى ، أحقَّ منهُ بالتصديق فى عَضِيهته (١) إياى ، فإن الأخ المخبور (٢) ، أولى بالثقة من السّاعى بالكذب والزُّور ، وإذا كان يُحفِظ الإخوان ما هو مَثْلومٌ بأيدى السفهاء (٣) ، إذا شاءوا سَعَوا فقُبِل قولُهم ، فكيف تبقى على ذلك أخوةٌ ، أو تُرْعى معه حُرمةٌ ، أو يَصْلُح عليه قلبٌ ، أو يسلَم صَدْرٌ ؟ وكنتَ إذ حذَّرتَ أخاك من أهل الدناءة حقيقاً أن تحذَرهُمْ فى إخوانك (٤) الذين وقع إحسانُك عليهم ، فلا تقبلُ سِعايتهم بهم ، وكيف تسخَط على أهل الدناءة لإخائك (٥) وترضَى قولَهم على إخوانك ؟ لقد عَرَفتَ أن على الأخ مِن رَدِّ الكذبِ عن أخيه (٦) ما حَسَّنَ الغيبَ له ، فإذا لم تكن لذلك رادًّا مكذِّبا ، فهلاَّ كنت فيه واقفا متأمِّلا حتى تكشِفَهُ ويتبيَّن لك حقُّه من باطله ! فإن وجدتَه حقا أتيتَ ما أتيتَ على بيِّنة لك فيها حُجَّةٌ ، وإن وجدتَه باطلا كان أن تستخرجَ أخاك من تُهمَة ، خيراً من أن تُقيم له على سَخْطةٍ ولم يكن منه إساءةٌ ، فقد كان إخوانك يرجُون إن أساءوا أن يأتى على ذلك فضلُك ، ولا يخافون إن أحسنوا أنْ يضيعَ ذلك عندك ، لقد طالت عِشرتى ، وتردَّد خبرُك (٧) علىّ فى حالات متصرِّفة ، ومنازلَ مختلفة ، لا يَصْرِف حالى لك حالٌ انصرفتْ ، ولا يَقْلِبُ رأيى منزلةٌ انقلبَتْ ، فكان ذلك منى فى غِياب

(١) العضيهة : الكذب والبهتان ، عضهه كنعه عضها وعضيهة : قال فيه مالم يكن .

(٢) أى المختبر المجرب ، وفى الأصل « المجبور » وهو تصحيف .

(٣) أحفظه : أغضبه وفى الأصل « إذا كان يحافظ الإخوان إنما هومعلوم ... » وهو تحريف

(٤) فى الأصل « أن يحذرهم منهم إخوانك » وهو تحريف .

(٥) فى الأصل « لأحبابك » وهو تحريف .

(٦) فى الأصل « من » .

(٧) فى الأصل « وترددت حبرك علىّ » .

سلطانك ، ثم كان فى مُؤاتى[١] زَمانك ، والناسُ فى ذلك تنصرف عنك حالاتُهم ، ويختلف عليهم رأيُهم ، فلم تكن حاجةُ كثيرٍ من الصديق فى السلطان إلا أن يأكلوك ويأكلوا بك ، ويتعجّلوا يومَك مِن غدك ، ولا ينظرون لكَ ولا يالون مادخل — إذا أصابوا — فى جَنْبك ، فكانت حاجتى الإبقاء عليك ، والادّخار لك ، والاستغفار لما يتعجّل المتعجّلون منك مع ماأؤمل فيك ، ولم تكن حاجتهم حين نبَا بك الزمان إلا أن يخذُلوك ويدفنوا مودتك ، ويُميتوا ذِكرَ إخائك ، ويتقرب أكثرهم بك ، ويسمو بعداوتك ، وإن كانوا قد أخلّوا بصداقتك[٢] ، وكانت حاجتى حفظك وحياطتك ، أفما كان فى هذا ماترُدُّ به عنى بَغْىَ باغٍ ، وسعاية ساعٍ ؟ ما كنتُ لأُعادِىَ مَن غَشّك وأَعْتَتِب[٣] بالغشّ لك ! ولا لأُوالىَ من ناصَحَك وأقطع نصيحتى لك ! ولا لأُعَرّض نفسى فيك وأستخِفّ بعد ذلك بحقك ! فأكونَ عوناً لمن عاديتُه فيك ، مفارقا لمن واليتُ فيما واليتُه عليه ، مرّضا فى أمرٍ لأسَلّم له ما قِبَلى ، لقد بحمد الله خَبَرَنى الإخوانُ فى طول هذا الزمان ، فبغير هذا عَرَفونى ، وعلى[٤] غيره احتملونى ، فما[٥] كنتُ لأُعايِشك بغير ما عايَشتهم ، ولا لأعمَلَ[٦] فى إخائك بغير ما عمِلْتُ فى إخائهم ، وأنت أعظمهم منزلةً ،

---

(١) آتاه على الأمر : طاوعه ووافقه — وفى لغة لأهل اليمن واتاه — والمعنى وقت أن كان الزمان لك مواتيا ومساعدا . أى إبان سلطانك ، وفى الأصل « موان » وهو تحريف .

(٢) فى الأصل « وإن كان قد دخلوا صداقتك » وهو تحريف ، وعندى أن هذه الجملة مقحمة فى الكلام . إذ الأولى حذفها .

(٣) اعتتب : رجع عن أمر كان فيه إلى غيره ، وفى الأصل هكذا « واعتب » .

(٤) فى الأصل « واعل » وهو تحريف .

(٥) فى الأصل « فيما » وهو تحريف . (٦) فى الأصل « لأتحمل » وهو تحريف .

وأقدمهم مودةً ، وأكملهم ثقة ، وأزينهم أُخُوَّةً ، وأجملهم محافظةً ، فما أعظمَ عندى أن أُنْزَل منزلةَ استخفافٍ بحقك ، أو تُهَمة عندك على براءةٍ فيما بينى وبينك ! فإنه إن تكن البراءة أُخرجتنى من التقصير عندك فى الظن بك ، فغفر الله لك ، لقد جرَى على لسانك ما لم يجْرِ على لسان أخٍ قبلك ، واضطررْتَنى فى إخائك إلى معاذيرَ لم يضطرَّنى إليها أحدٌ سِواك ، ولو لم أكن بفضلك عارفا ، وعلى نصيبى منك شَحِيحاً ، لَشَحَحْتُ على ما سَلَف منى فيما بينى وبينك أن يَذْهَب باطلا ، ويصيرَ ضائعاً ، ويتحول حَسَنُه قبيحاً ، ومعروفه مُنكرًا ، ولو كانت منك إساءة فيما بينى وبينك لرأيت أنْ قد وجَبَ علىَّ من حقك ما يُوجِبُ احتمالَ ذلك ، فكيف أهتِك حُرمتَك عن غير إساءة منك ؟ ولو أنى قد هجوتُك لكنتُ لنفسى بهجائك ، أهجَى منى لك ، لأنى بذلك لها مكذِّب فيما سلف من مِدْحتى إياك ، وثنائى عليكَ ، وقولى فيك ! فهل يهجو امرؤ غيرَه بأشدَّ من إكذابه نفسَه ؟ مع قطع الأخوَّة ، وهَتْك الحُرمة ، ولو كنتُ شاعراً ألتمسُ بشعرى موضِعاً ، وأطلب له مَخْرَجا ، ما جعلت مَخْرَجى فى صديق ، الذى هجاؤه علىَّ أشدُّ منه عليه ، فإن ظهر افتضحتُ ، وإن خفِىَ احتفظت ، ولو وجدتُ من أهل الدناءة والسَّفاه مَن شَيْنُه بهم ألصقُ ، وهم به أحقُّ ، ما أنا بالقول فيهم بحَرِىٍّ[1] ، وأيمُ الله إنى لأرَى الشعرَ فى جميل الأمور ، وحُسْن الثناء على الصديق ، قبيحاً ، فكيفَ إذا كان فى الظلم العدوانُ ، والفجيعةُ للإخوان ؟ فاجتمعتْ

---

(١) فى الأصل « ولو وجدت من أهل الدناءة والسفاه فاسد لهم بهم ألصق وهم به أحق وأنا للقول فيهم وهم فيه أحرى » وقد أصلحتها كما ترى .

نقيصة الشعر ونقيصة الغدر ، ولقد ثقل عليّ ما كان من ذلك وهو باطل ، صونًا للنفس عنه ، فكيف أرضى أن يكون منى ما أستحقه به ؟ وإنى لأرجو أن أكون ممن يصبر للوفاء على بليّةٍ إن نزلتْ ، فكيف أخرج منْهُ بغير اضطرار إلى غيره ؟ ، ولو كنت على وقع عليه[1] لكنت بالنقص على نفسى مُقرًا ، وكيف أسخطُ على من أساء القول إلىّ : إذا أسأتُ الفعلَ إلى نفسى؟ وأسَرُّ بأن يحْسِن لى القولَ ، وأنا مسىءٌ إلى نفسى فى الفعل ؟ فهلاً رغبتَ بى أن أكون أتيتُ ذلك ، كما رغبتُ بك عن التصديق به فيما بينى وبينك ! ولكنك حبَسْتَ كتبك عنا وقطعْتَ تعهُّدَك ، ونحن نُحْسِنُ الظن بك ، وبحالنا عندك ، لا نُنْزِلُ ذلك إلا على العُذر لك، والشغلِ منك ، ثم إخراجك ما أخرجت إخراجَ محقِّقٍ متيقِّنٍ ، لا إخراجَ متأمِّلٍ ناظرٍ ، فراجعْ أحْسَنُ[2] ، واعلمْ أنّا لم نَخُلْ عن حبس الرأى فى حفظ حقك ساعةً من ليل ولا نهار ، فى سِرّ ولا علانية ، ولا غَيْبةٍ ولا شهادة ، ولا نأتِى أمراً ينْقُص من حُرْمتنا ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ٢ ١ : ١٩٨)

٧٣ — كتاب لغسان بن عبد الحميد فى تهنئة بتزويج

وكتب غسّان بن عبد الحميد فى تهنئة تزويج :

« قد بَلَغنى جَمْعُ الأمير أهلَه على الحال التى جَمَعهم عليها من نعمة الله عليه ، فالحمدُ لله على كل ما يَرَى الأميرُ فيما له فيه نعمةٌ ، فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك ميمونا ، والشَّمْلَ مجتمِعا ، والبركةَ عظيمةً ، والأمورَ سليمةً ،

---

(١) أى على الاضطرار إلى غير الوفاء .

(٢) أى فالمراجعة أحسن ، وربما كان « فراجع وأحسن » .

وكذلك فقد عظَّم الله القَسْمَ منه لزَوْجه ، جعل الأمير سَكَناً [1] لها ، وأجرى المودة والرحمة بينهما ، فإنه يقول عز وجل : « خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَل بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » فلما كان الأمير هو المنظور إليه وهى المنظور إليها ، اختارَها الأمير لنفسه ، واختار نفسَه لها ، وأراد الله عز وجل أن يَزِيدها مع فضلها فى نفسها ، فضلاً باختيار الأمير إياها ، وباختصاص الله لها بالأمير دونَ غيرها ، فكانَ ذلك فضلا من الله زَيَّنَه بفضل ، وكرامةً من الله وَصَلَ بعضَها ببعض ، فنرغب إلى الله عز وجل فى أن يَزِيد الأميرَ فى كل سَعَةٍ مبسوطة، ونعمةٍ مقسومةٍ ، ويُعطيَه فى ذلك شكراً يكون لرضاهُ مُوجباً، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبا ، ثم يُمَلِّي [2] الأميرَ ذلك بأحسَنِ مَا مَلَّى أحداً من خَلْقه ، كرامةً اصطَنَعها عنده ».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٢)

٧٤ — تحميد له

وله تحميد فى المطر :

« الحمد لله الذى نشرَ رحمتَه فى بلاده ، وبسَطَ سَعَتَه على عباده ، الذى لا يزال العبادُ منه فى رِزْق يقتسمونه ، وفضلٍ ينتظرونه ، لا ينقُضُه ما قبله ، ولا ينقضِى ما بعده » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٢)

---

(١) السكن : مايسكن إليه .

(٢) ملاه الله حبيبه : متعه به وأعاشه معه طويلا .

٧٥ — تعزية له

« أما بعد ، فإن الله لم يَرْضَ لنفسه أن يُمْضِيَ قضاءه فيما وافق العبادَ أو خالفَهم ، ولم يَرْضَ من العباد إلا بأن يسلّموا لأمره فيما أحبّوا أو كرِهوا مما أنزلَ بهم ، فقضاءُ الله غير مردود ، وأمْرُه غيرُ مدفوعٍ ، والساخِط لذلك غير مُعْتَب[1] ، وللراضى به أفضلُ العِوَض » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٦)

٧٦ — تعزية له الى خليفة

« أما بعد ، فإن الله جعل خلافته حفظا لدينه ، ورحمةً لعباده ، ثم جعلَ لهم أولياءَ خلفاءَ يتوارثونها ، ويتداولون الكرامةَ من الله بها ، فتنقضِى مدةُ ماضيهم[2] لخِيرة الله إياه ، وتأتى خِلافةُ باقيهم لاصطناعِ الله له ، فنحمَد اللهَ الذى جعل فيكم أهلَ تلك الخلافة الذين جعلهم لها وُرّاثا ، فكان منهم الماضى الذى كانت له ، والباقى الذى صارت إليه ، والحمد لله على ما كانت عليه حياةُ أمير المؤمنين ووفاتُه من كرامة الله إياه ، وعلى وضعه الخلافةَ عند أمير المؤمنين الباقى ، ونسأل الله أن يُعْظِم فى الماضى الأجرَ ، ويمنحك من الباقى أفضلَ الحظ ، ويُعينك فى المصيبة على أفضلِ الصبر ، وفى النعمة على أفضل الشكر » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٦)

---

(١) أعتبه : أرضاه .

(٢) فى الأصل « ماينهم » وهو تحريف .

٧٧ — تعزية له

« أما بعد ، فإن الله تبارك وتعالى تولى القضاء فى خلقه ، وأوجب عليهم الرضا بما قضى به ، والموتُ لا بُدَّ منه ، وأمرُ الدنيا إلى فناءٍ كلِّه ، فما أشبهَ الباقىَ الذى يُنتظر الفَناء له ، بالماضى الذى قد أتى الفناء عليه ؛ وأحوجُ ما يكون ذو العقل إلى عقله ، وذو الفضل إلى فضله ، حين ينزلُ به من قضاء ربه ما يبتلى فيه صَبْرَه ، ويختبرُ به تسليمَه ، فإن فاته الصبر كان عنده أكبر الرزيّة ، وإن أحرَزَه كان أعظم الغنيمة ، وقد أحسَنَ الله إليك فى رأيك ، وما قَسَمَ لك ، وعرّفك ما اتخذ به الحجةَ عليك ، وما ينبغى لك أن تعود بمنفعة على غيرك ، فكيف بك إن عجز ذلك عنك عند اختبار ربّك إياك ، فإذا أخذ منك مَن قد سَبَقتِ النعمةُ فيه المصيبةَ به ، مع إمتاعه إياك بطول صحبته على الذى خَلَق لك منه ، ومنه لك ، ثم قدّمه الله قبلك فكان فَرَطا [1] لك ، وعوّضَك اللهُ أجْرَه ، وجعلك المستخلَف بعده ، فى الصلة له ، والترحُّم والصلاة عليه ، والخلافة فى رُكنه ، ولم ينزل بك من المصيبة بأخيك ، إلا ما رأيته نزل بالناس فى أحبائهم قبلك ، فلا أحسِبك رأيت منهم صابراً إلا غبَطْتَه [2] ، ولا جازعا إلا عجَّزته ، فخذ لنفسك بالذى تغبطُ به غيرك ، واحْذَر عليها الذى تعجّز فيه سواك ، وإذا ذكر الشيطانُ مصيبتك ، فاذكر ثوابَ ربك ، فهو خير لك من نصيبك من حياة أخيك ، فاطلُبْ بذلك صحبته

---

(١) الفرط : ماتقدمك من أجر وعمل .

(٢) غبطه : تمنى مثل نعمته على أن لا تتحول عن صاحبها .

لا يرْزَؤك ولا ترزؤه ، ولا تدخل فُرقةٌ بينك وبينه ، فلعمرى لئن كنتما اصطحبتما فى الدنيا بما اصطحبتما به من النعمة، ثم أُعطيتَ صحبتَه فى دار المُقامَة والرَّحمة ، لقد سَعِد بك وسعِدْتَ به ، ونفع الله بكل واحد منكما صاحبَه ، فما أقدر اللهَ على أن يُعطيَك ذلك فيه باحتسابك إياه ، ويُعطيَه ذلك فيك بدعائك له ، فإنه قد تقدّم لك فيه من الأجر ، وتخلَّفَ عليك له الدعاء ، فاستكْمِلْ إحداهما بالأخرى ، أكمَلَ الله لنا ولك الآخرةَ والأولى ، ورحمةُ الله على فلان ، وجعل الله ما يرجع إليه خيراً له مما كان فيه ، وجعل أجره خيراً لك من بقائه ، وخلَفَه بأحسن خلافة ، وأعانك على حسن الخلافة له من بعده ».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٠)

٧٨ — تعزية له

« إن أعظم المصائب عندنا مصيبتك ، وأجلّ المَرَازِئ فى أنفسنا مَرْزِئتك ، ولو تركنا تعزيتك بمصيبتك لِخاصَّتنا بك ، ومشاركتنا فيها لك ، لكنت بمنزلة ذلك إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢١)

٧٩ — تعزية له

« أما بعد ، فإن الله تبارك وتعالى خلق الدنيا هيِّنةً عليه ، زهيدةً عنده ، ثم أمر عباده أن يُنْزِلوها المنزلةَ التى أنزلَها اللهُ بها ، ثم أمتع بها البرَّ والفاجرَ ، والمُحسنَ والمسىء ، فلم تكن سَرَّاؤها علامةً لرضاه ، ولا بلواها

دليلا على سُخطه ، نظراً لهم . بأن يَبْلُوَهم فى أهونِ الدارَين عليه ، ويجزِيَهم فى أفضل الدارين عنده ، وأكرَمَ أهلَ طاعته بأن أعطاهم فيها الزَّهادةَ ، كما أكرمهم بأن زَوَى[١] عنهم فيها الفتنةَ ، ولو كانت عنده بمنزلة كرامةٍ ، جعَلَ أهلَ طاعته هم أهل الإكثار منها والمسارعة فيها ، فليست داراً اختارها الله لأهل ولايته ، قَبَضها عنهم ، وأمرهم بالإبعاد[٢] عنها بأنفسهم ، وجعلها فتنةً وغُروراً ، وأسماها لعباده لهواً ولعباً ، لئلا يُسَرَّ ذو عقل بما أُعْطى[٣] فيها ، ولا يَأْسَ[٤] على مافاته منها ، ولولا أن الله عز وجَلّ جعلها بُلغةً للآخرة ، وامتحانا لأعمال البرية ، لكانت هى أهون عليه من أن يخلُقها ، أو أن يعمُرها بمن عَمَرها ، أو يَبُثَّ ما بَثَّ لها .

ومن أمور الدنيا ما جعله الله على الأُسوة[٥] ، ومنه ما جعله على التفضيل ، فأحقُّ أمورِها أن يرضاه مَن أُعْطِيَه ، ويصبرَ له من نزل به ، ما كان أمرَ أسوةٍ فى محبةٍ أو مكروه ، وهذا الموتُ مما آسَى الله فيه بين الخلائق ، فقضى أن تذوقه كلُّ نفسٍ ، ويُعْنَى به كل حى . فالمتقدِّم فيه على أسوةٍ ممن قبله وممن بعده ، وأنه سيلحَقُه الباقى كما سبقه الماضى ، ومكارهُ الدنيا حالَّةٌ[٦] على من عَمَر الدنيا ، فإن الله خلقها للبلاء حين خلقها ، وخلق أهلها على الابتلاء ، فجعل لهم منها أطْباقاً[٧] يركبونها ، وحالاتٍ ينتقلون فيها من مِحْنة إلى مكروه ،

---

(١) أى نحاها وأبعدها .
(٢) فى الأصل « فنصها عنهم والابعاض عنها ... » .
(٣) فى الأصل « بما أمضى » .
(٤) أى يحزن . (٥) أى القدوة .
(٦) فى الأصل « حلة » وهو تحريف .
(٧) جمع طبق بالتحريك : وهو الحال .

ونقص[1] وعافية ، فكلُّ ذى سلامةٍ وإن طالت ، وذى عافية وإن تتابعَت ، لابُدَّ أن تنالَه المكارهُ ، وتتصرَّف به الحالاتُ ، ويُبْلَى بالخير والشر فتنةً ، على ذلك وضعت ، فيرجو عبدٌ أن يَعْمُرَها بما لم يعمرها أحد قبله ، ولا يعمُرها به أحد بعده ؟ إنه من نفسه فى قريب الدنيا وظاهرها — وينسَى عواقبها التى بقيَتْ وعِبَرها التى مضت — كان جاهلا مغروراً ، ومن جعل قلبه فى الفِكر والتذكر كان مُعافًى معصوما ، وكلُّ كثيرِ الدنيا قليلٌ ، وكل حالاتها غرورٌ ، غيرَ أن الله برحمته جعل ما يتقرَّب به العباد إليه زاكياً عظيما عنده ، فاصبِرْ لأمره ، وارضَ بقضائه ، وارجُ ما وعد أهل المعرفة بحقه من النعيم المقيم ، والخلود الدائم ، فيما لم تعلمه نفسٌ ، ولم تَرَه عين ، ولم يخطُر على قلب ، ولم تبلغه أمنيَّةٌ ، فضلا مذْخُورًا لأهل طاعته حين يحُلُّون عنده ، ويتلذذون فيه بالشهوات ، ويتجددون فيه على طول البقاء ، قد فنى الموتُ وبقُوا بعده كما كان يُفنيهم ويبقَى بعدهم ، وجميعُ العباد أسوة لأخيك فى الموت الذى أتى عليه ، ونظير ذلك فى أشباه المَرْزِئة التى دخلت عليك ، فاذكر ذلك عند مصيبتك ، والعبادُ على مقادير ، فكلٌّ داخلٍ فيها مكتوبٌ الذى له وعليه ، وكلٌّ خارج منها محفوظٌ ما قدَّم وما تقدم إليه فى الدنيا ، أعمال قُدِّرت لآجال ، وآجالٌ قُدِّرت لأعمال ، وابتلاء قُدر لجزاء ، وجزاء أُخِّر لابتلاء ، وكذا ، والسلام . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٢١)

---

(١) فى الأصل « ونقض » .

٨٠ — رسالة عمارة بن حمزة فى على بن ماهان

قال ابن طيفور : ومن الرسائل المفردات رسالة عُمارة بن حمزة[1] فى على بن ماهان ، فإنه يقال إنه لا مثل لها فى معناها وهى :

« أما بعد ، فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك فى ابن ماهان وخالد ، ولم يُرِدْ أمير المؤمنين بكتابه إليك مشقّةً عليك فيما وَصَف لك من الأمور ، وصَرّف لك من الموعظة ، ولكنه أحبَّ أن ينبّهك لرُشدك ، ويدُلّك على حظّك ، فيشُدَّ بذلك عَقْدَ ما خشِيتَ وَهْيَه[2] ، ويذلِّل لك صعوبةَ ما خِفْتَ نِفارَه — ولم يكن يقع ذلك ليصلَ إليك ، إلا ببعض الغِلظة التى فيها لَذْعٌ وتقبيض — وَيأْخذَ بمراشدِ الأمور ، ووثائِق الحزم ، ورغائب الحظ التى لا يصل إليها إلا بالكُره دون الهُوَيْنَى ، وبما يَمَرُّ على أهلِه ويغلُظ ، دون مايَحْلَوْلِى ويلين ، وأخْلِقْ بما شَقَّ عليك من كتاب أمير المؤمنين أن يُعْقِبَكَ منه مسرّةً ، فإن خيرَ الأمور خيرُها عواقبَ .

وقد أصبح أمير المؤمنين واثقا بتمام عصمة الله عز وجل فى حالك التى يرجو أنْ لا يُزيلك اللهُ عنها سَرّاءَ لا ضَرّاءَ ، مادمتَ بحقها قائمًا ، ولبُعْدها[3] لازِما ، مع أن أمير المؤمنين ليس ذلك يَخافُ عليك ، ولا فيه يتَعهَّدُكَ ، ولكنَّ أموراً من فلَتات الخطأ ، وميل الهَوَى ، وخشية الزَّلل ، لا يأمَنها عليك ولا

---

(١) فى الأصل « إلى على بن ماهان » ولكن سياق الرسالة يدل على أنها كتبت عن الخليفة إلى أحد عماله فى شأن على بن ماهان ، لا إليه ، كما سترى :

(٢) الوهى : الشق فى الشىء .

(٣) البعد : المذهب ، يقال : لاله بعد : أى مذهب .

على نفسه ولا على الأقرب رُحماً[١] ونصيحةً له ، فإن الجهاد جهادُ المرء نفسَ ثم حامّته[٢] ، لأن النفس أمّارة بالسوء ، والناس متزيّنون بالباطل ، والشيطان شديد العداوة ، لطيف[٣] الغِشّ ، بصير بالعَوْرة ، مُعِدٌّ للفُرْصة ، قد التمس أ يصعِّب على نفسه ما ذلّل اللهُ ، ويحمِل عليها مُؤْنةَ ما قدّم الله فيه الصُّنْ والكفاية .

قد علم أمير المؤمنين أنه لم يبلُغ غاية التأديب . فإنه لا يبلغ ذلك دون انقطاع الأمور التى يُحتاج فيها إلى الأدب ، وليس لها نهاية دونَ الفناء ، وَ يُصْبح يتعهّد أحدا من الناس بعد نفسِه أحقّ منك بتعهُّده ، لأنك الثقةُ له ولعدوه الثائر[٤] الأعظم ، وإن الناس بأوساط الأرض وأقطارها يُصيخون[٥] بأسماعهم إلى خبرٍ : يَوَدُّون أن تَزِلّ قَدَم بعد ثبوتها ، وتفسُدَ حال بعد صلاحها ، وتَكِلّ بصيرة بعد نفاذها ، متخذين ذلك ذريعةً إلى الإخلال بحق أمير المؤمنين ، ولم يكن بين طاعته ومعصيته إلا ساعة من نهار .

وأمير المؤمنين لا يُنْكِر قُربَ الطاعة من المعصية ، قُرْبَ بعض الأمور من بعض ، لسرعة تقلُّب القلوب ، واختلاف الحالات عند مَيْل الهوى ، ولا يُنكر جَرْيَ المقادير بغَيبِ ذلك عن العباد ، واستئثار الله بعلم مالم يأتهم إلا بَغتةً ، بل قد علم أمير المؤمنين أن أقواما فى قلوبهم ضغائنُ دونها الغَدْرُ يُظْهِر أسرارهم ، ويَخرج أضْغانهم ، ثم يبلُغ بغضبه منهم مالم يكن

---

(١) أى رحمة وعطفا .

(٢) الحامة : الخاصة . (٣) أى دقيق ، من لطف ككرم : إذا دق .

(٤) أى الآخذ بالثأر .

(٥) أصاخ له : استمع .

ذلك عنده عزيزا ، ولم يكن بهم امتناع ، غير أنه قد أنكر وأتعم (١) أن تعجل إلى « ابن ماهان » — وإن كان محلا بارزا — بأمر دون مؤامرته (٢) ، ويكره لك العجلة فإنها موكَّلٌ بها الندمُ ، وإنه كان يقال : « أصاب متأمل أو كاد » وقالت العرب « فإمّا ترينّ أمرا رشدا ، فتبيّنْ ثم ازعو ، أو أقْدِمْ وأحْكِمْ » ولحقّ ما أمر الله عز وجل به من التبيُّن ، وما حذّر أن يُصابَ قومٌ بجهالةٍ ، وما خوَّفَ على ذلك من الندامة (٣) ، فليس يبرح المرء بخيرٍ ما فزع لقول الله عز وجل واتعظ واستيقظ .

وأما ما ذكرتَ من كذا ، فليس يبعُدُ أن يدعو إلى « خالد » التُّهَمَةَ ، وإلى « ابن ماهان » المعذرةَ ، فإنما العجلة مُستراحُ المُريب ، والبِدارُ بالأمور أمرُ مَن ليس على ثقةٍ من رأيه ، ومن لايرجو أن يكون التثبُّت لقوله مُصدِّقا ، ولرأيه مُنفِّذًا ، فمن أخذ بهذا الرأى ، وأنزل أحدا منزلَ تُهَمة وهو غيرُ ظنين (٤) فقد أعظم الجريرةَ .

وأمّا ما سألتَ من البعثة إليك فرأيُ أمير المؤمنين البيانُ الذى يُذْهِب عنه رَيْبَ الشك ، ولَبْسَ الشبهة فيما تحمله من أمر عيسى ، وما دام على الثقة واليقين فليست منزلتك عند أمير المؤمنين بالمتلوِّنة ، فيكون للناس مجازا إلى

(١) أتعم : زاد (أى فى إنكاره) . (٢) المؤامرة : المشاورة (أى مؤامرة أمير المؤمنين) .

(٣) قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » .

(٤) الظنين : المتهم .

انتقامك ، وقد صدَّق أمير المؤمنين قولَك ، وعَذَر خالدا باعتذارك ، وتجاوَزَ عما لا عُذرَ فيه ، غيرَ أنه ليس يحبُّ لنفسه من العَجَلة وسرعةِ المبادَرة ، ما يَكرْه لكم ، وَلا يرضَى منها بمثلِ ما يسْخَط منكم ، ولا يريد المخالفةَ إلى ما ينْهَي عنه .

وأما الشر الذى كَان يُثيره لو كان نُفّسَ[1] عنه ، فما لم يكن ليدافعه ولا ليستظهِر عليه بمثلِ طاعة الله عز وَجل وتقواه ، ولزوم الأمر ذى الحُجة والعذر ، ولو ميَّلَ[2] أمير المؤمنين بين أن تقع كريهةٌ ذاتُ شوكة يُزاول[3] خَطَرها ، ويعالج مُؤْنتها ، وبين أن يأخذ بشُبُهات الأمور المبْهَمة ، حذَراً لما عسى أن يقع، لاختار ذاتَ الشوكة بأن يحمل[4] بليَّتها على التحفظ وَالإقدام على الشبهة بغير بيِّنة ، ليس ذلك إلا أن يكون عهدُ أمير المؤمنين حديثاً بغَشمِ[5] الحرب التى لم تكن تكفُّ أيدى شِيعته عما بَسَطوها إليه ، ولكنه لاتستوى السيرةُ قبل الإنجاز وبعده ، بذلك مَضت سُنَن الله عز وجل ، حتى حرَّم الله على الأنبياء أن تكون لهم أَسْرَى حتى يُثخِنوا فى الأرض ، وَأمَر بضَربِ الرقاب فإذا أثخنوا فالمنُّ أو الفِداء[6] وليس مَن سَعى فى طاعته فى

---

(١) نفس عنه : فرج .

(٢) ميل بين أمرين : يقال : إنى لأميل بين ذينك الأمرين وأمايل بينهما ، أيهما آتى : أى أتردد وأرجح .

(٣) فى الأصل « نزلت » وأرى أنه محرف وصوابه « يزاول » أو « يرد » أو « يزيل » .

(٤) فى الأصل « يتحمل » وأراه محرفا ، وربما كان « يحيل » أو « ينحى » أى يوجه .

(٥) الغشم : الظلم ، والمعنى : بشدتها .

(٦) قال تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » ـ يثخن : أى يبالغ فى

البَسْط أمس بأجسَمَ بلاءٍ ممن انتهى إلى أمره فى الكفِّ اليومَ ، فإنما الطاعةُ كلها بمنزلة قُربانٍ وتمحيصٍ يحُول بين الناس وبين أهوائهم؛ لأن الحق لا يتبَع الهوى ، ولا يجرِى على شهوات النفوس ، فمَن أراد الله به الخيرَ محَّصَه فأخلص إعانه ، وأنفذ بُغيته ، وألهمه عزائمَ الصبر عند ما يثقُل عليه من الحق ، ويخِفّ عليه من الباطل ، ومن يتّبع هواه فى كفٍّ أو بسطٍ محَقَه الله عزّ وجل وخَذَله .

قد علم أمير المؤمنين أن للشيطان من كل قوم قسما يَجْتَبيهم[(١)] ويصدِّق عليهم ظنَّه ، ولو كان ذلك مُخْطِئَه من قوم أخطأه من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد وقع هذا الحق بمَرَاغِمِ الشيطان ومَكارِهه ، فليس تاركَه جُهْدًا ، وليس وبالُ ذلك كله كائناً إلاّ على أوليائه ومستجيبيه ، وأميرُ المؤمنين يرجو أن يكون الله قد بلغ بحقِّه مَبلغاً لا يَضِيره[(٢)] معه عداوةُ عدو ، ولا خِذلانُ خاذل ، ولا يستجيش[(٣)] من لم ينصره اليومَ لو لم يكن له نصير .

وقد رآك أمير المؤمنين خلطتَ اعترافا باعتذار ، وتنصُّلا بمجاحدة ، فأما الذنبُ فمغفورٌ متجاوَزٌ عنه ، وأما العذر والحجة فلم يعرِفهما أمير المؤمنين،

قتل الكفار — وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى يوم بدر بسبعين أسيرا . فاستشار أصحابه فيهم ، فقال أبو بكر : يارسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله النصر عليهم ، استبقهم لعل الله يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك ، وقال عمر : اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر وقد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك ، فرأى عليه السلام رأى أبى بكر ، وأخذ الفداء من الأسرى ، فنزلت الآية عتابا له فى قبول الفدية ، ثم نسخت بقوله تعالى « فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » أمره سبحانه بالإثخان فى الكفار الذين يصدون عن سبيل الله ، ومنعه عن قبول الفدية منهم — وذلك حين كانت الشوكة للمشركين — ثم خير بين المن والفداء لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين .

(١) اجتباه : اختاره . (٢) ضاره يضيره : ضرّه .

(٣) استجاشه : طلب منه جيشا ، أى استنصره .

ولم يـ... لك ، ولو ثبَتا لك لم يزد ذلك مِن رضاه عنك ، ورأيه فيك ، على ما رأيت مستحكِماً لك عنده .

وأمّا قُرب بعضِ أصحابِك لبعض حتى يدعُوَهم ذلك إلى الشهادة بسَفْك دمائهم ، فإن ذلك قد عمَّ الناس بكل أُفُق ، وهو راجع إليك جوابا يجب أن تفهمه وتَدَبَّرَه ، وهو يستعيذ بالله من زَلل[1] الغيّ ، وخَطَل القول ، وشُبُهات العملِ ، وزينة الهوى ، وخَطَراتِ الشيطان .

اعلم أن هذا الجند الذين اُسْتُرْعيتَهم ، وأُعِنْتَ بطاعتهم ونُصرتهم ، مِن أفضلِ أهل الأرض عليك حقا ، وأن حقَّهم هو حقُّ الله عز وجل ، وحق أمير المؤمنين ، وحق همّة نفسك على نفسك ، وأنه إن وصل إلى أقصاهم دارا ، أو أدناهم منزِلا ، ضَياعٌ ، كان ذلك لك ماسًّا ولو لم تشعُر به ، وأنك لا تقدر لهم على شيء ممـا تَلْتَمِس به صلاحَ أمورهم ، مِن بذلِ مالٍ ، أو مواساةٍ بنَفْس ، هو أعمُّ لهم نفعا ، وأغزرُ عليهم غَناء ، مِن أدبٍ صالِح تأخذهم به ، وسيرةٍ صالحةٍ تحمِلُهم عليها ، من العفاف فى الدين ، والحضور للصلوات ، والتعلُّم للقرآن ، والتكرُّم فى الأخلاق ، والتزيُّن بالوقار والصدق والكفّ عن الشبهة ، مع أن عفو الوالى عما بداله أن يعفو عنه ، ليس ذلك بإبطال شهادة مَن شُهِد عليه ، وَإنمـا يكون ذلك لو كانت حقوقهم فيما بينهم ، فلا يستطيع الإمام أن يُبْطلها ، وأما إذا كان الحق حقّ الإمام يُمْضِى فيه ماأحبَّ ، ويعفو عما أراد ، فمن ذا الذى يخاصِمُه فى حَقه ، وينهاه عن التثبُّت فيما اشتبه عليه ،

---

(١) فى الأصل « من ذلك » وهو تحريف .

والعفوِ فيما أحبَّ العفو عنه ؟ أوَ ليس قد يكفُر الرجل بعد إيمانه ، ثم يَثبُت ذلك عليه ، إمّا بإقراره ، وإما بِبيِّنة فيستتيبه الإمام ، ويحقنُ دَمَه إن تاب ، ولا يشاركه الشهودُ فى أمره ، ولاَ يعلّمونه ، وَلا يقولون اتّهَمْنا وَرُدَّتْ شهادتنا ، مع أن تثبُّت الوالى فيما تثبَّت فيه من أمر أصحابه ، حتى يُبرِّئَ البرىء ، وَيُنطِّف[1] السقيم المُقرَّ بذنبه، هو أقوى فى الأمر ، وأبلغ فى الرأى، وأقرب إلى أن يأمَن البرىء ، ويخاف السقيم ، وينطق الصدوق ، ويهاب الكذوب ، وإذا سوَّى بين البرىء وَالسقيم فى العقوبة ، وبين الصَّدُوق والكَذوب فى إجازة القول ، لم يتبكَّل[2] ذو الحزم ، ولم يسلَم ذو الاستقامة ، ولم يَزد الشرُّ إلا فُشُوّا فى دين وَرأى ونُصح[3] .

وأما ما سألتَ أمير المؤمنين من رضاه عنك ، وما عظَّمتَ من موقع كتابه منك ، فلم يكتب إليكَ كتاب ساخط ، ولكن كتابَ استعتاب ، وليس كلٌّ مستعتباً — وقد أعطاك الله عز وجل منه الرضا قبل أن تسأله ، وأنَّى سألْتَه ، ورضى عن « خالد » بما رأى من إشراكك إياه مع نفسك فى المعذرة والطِّلْبة ، وهو يسأل الله توفيقه وَتسديده ، وَأن يحنِن عليكم برأفته ، وَيُؤْوِيَكم فى كَنَف ألفته ، وَيحجُزكم عن معاصيه ، ويجعلكم خير أعوان وَإخوانٍ ووزراء على إنفاذ عَدله فى مشارق الأرض ومغاربها ، إنه سميع قريب ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٦٣)

---

(١) نطفه كنصر وضرب ونطفه : اتهمه ولطخه بعيب ، وفى الأصل « وينطق » .

(٢) أى لم يغنم ، قال أوس بن حجر :

على خير ما أبصرتها من بضاعة لملتمس بيعا لها أو تبكلا

أى تغنما ، وفى الأصل « لم ىتكل » وربما كان « لم يتكلم » .

(٣) فى الأصل « إلا ومسوا من دين ورأى مصح » وهو تحريف .

٨١ كتاب له فى السلامة

« أما بعد ، فإنى كتبت إلى أمير المؤمنين حين حَلَلتُ محلّ الوالى من خُراسان من دار الإمارة بمَرْوَ : متعرِّفا من حفظِ الله أميرَ المؤمنين فيها ، أجمل ما يعرفه أحدٌ توجّهَ فى أموره ، وسار مَسِيرا فى طاعته ، وقرأتُ عهد أمير المؤمنين على مَن قَدِمْتُ عليه من رعيته وَجنده ، مؤدِّيا إليهم عنه الذى جعل الله لهم عنده من كذا ، وأعلمتُهم أن كل مُحْسِن أحمَدُوا له أثراً ، فبسيرته سار ، وبهُداه وعهدِه ائتَمّ واهتَدَى ، وأن مَن خالف بهم سُبُلَ العدلِ والإنصاف ، وسار فيهم بالجَوْر والاعتساف ، فبالتعدِّى لأمره ، والخلافِ لعهده ، وأعلمتُهم أن القيام بكل ما قرأتُه فى عهده ، أو حَكَيتُ لهم من رأيه وأمره ، رَهْنٌ غَلِق[١] ، فأثبتُّ لى فيهم قَدَمَ ولاية [وتوطّد][٢] منّى به سلطان ، فاستقام سرورُ ذلك فيهم ، ورجع بأهوائهم إلى الألفة ، ونَفَى عن صدورهم حَسَكَاتِ[٣] الوَحْشة والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٣٦٨)

٨٢ — كتاب له

وكتب :

« بلغنى كتابك تصف (كذا) ، فإن رأيتَ ألاّ تعتمد على ماألصقْتَ

(١) غلق الرهن كفرح فهو غلق : استحقه المرتهن . وذلك إذا لم يفتك فى الوقت المشروط . وفى الأصل « منغلق » وهو تحريف .

(٢) مابين القوسين بياض بالأصل ، وقد زدته لتستقيم العبارة .

(٣) الحسك بالتحريك : نبات عند ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب ، واحدته حسكة .

به من حُذرك ، وأطمعتَ فيه الهوَى من قَبول عفوك ، وتجعلني أحَد من يُسَرُّ بسرورك ، وتُشْرِكه في مُهمّات أمورك ، فإني أحدهم وأوسَطُهم عنايةً بما عَناك ، وتوسُّطاً لِمَا عَراك ، فعلتَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

٨٣ — كتاب جبل بن يزيد إلى بعض إخوانه

وكتب جَبَلُ بن يزيد[١] إلى بعض إخوانه .

« تَمَّم الله علينا وعليك النعمَ ، وأجزَلَ لنا ولك محاسِنَ صالح القِسَم ، إن الله تبارك وتعالى أجرى بيننا وبينك لطيفَ مَوَدَّةٍ ، وخاصَّ أُخُوَّة ، غير أن المعرفة قد تُحمَدُ بعد الخِبْرة ، والثقة إنما تعرَفُ بعد التجربة ، وقد أحببتُ أن يعلم مَن قِبَلك الذى أحدَثَ اللهُ لك من حال دولتك ، وأن يعلم : هل أبقَتْ لنا منك النعمةُ سَعَةً ، أم تركَتْ لنا منك صَفْحةً نعرِف بها عهدَك ، ونأمُلُ بها وصْلَك ؟ فإن أصحاب السلطان بحالِ بَلْوَى فى التغيُّر والانتقال، إلاَّ مَن نالته من الله تباركَ وتعالى عِصمةٌ، فإن كنتَ على مارجَوْنا من الوفاء، وحُسْنِ الحفظ للمودّة والإخاء، فمثلك لم يرضَ لنفسه إلا بأجمل الأخلاق ، وأوفقِها للسَّداد ، وإن حَجَزَك عن ذلك ما تأتى به الأقدارُ فى مُتصرَّف الليل والنهار، نَعذِرْك بما نعذِرُ به أهلَ السلطان إذا غيَّرتهم الحالُ، وتنكَّرتْ شمائِلُهم بين الإخوان » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

---

(١) قال ابن النديم فى ترجمته : « هو كاتب عمارة بن حمزة ، وكان مترجما من معدودى البلغاء والبرعاء » — انظر الفهرست ص ١٧١ .

٨٤ — كتابه إلى بعض إخوانه

وله إلى بعض إخوانه أيضاً :

« اعلم أنى إليك مَشُوق ، وأن صِلَةَ الإخوان كَرَم ، وخير الصِّلات مالم يكن لهـا وجهٌ إلا الرجاء والحفظُ وتجديدُ المودَّة وتصحيحُ الإخاء ، فإن الذى يكاتِب اخوانَه على حال الرغبة ، يكفى القائلَ كتابُه حيثُ شاء إن أحبَّ مال به إلى الصحَّة ، وإن شاء وَضَعه للرغبةِ ، والرَّغْبَةُ أملَـكُهما به ، والذى يكاتب إخوانه على حال الضرورة، فقد يستَقْطِع الصِّلَة عندالحَدَث مخافة المَلامة من الناس على القطيعة الشَّنْعاء المشهورة لإخوانه ، فإن الذى لامودةَ له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والـكتابُ على مثلِ حالنا وحالك اليومَ شاهدٌ على أن ذلك ليس إلا صحّةَ الإخاء ، والشوقَ إلى المحادثة بالـكتاب ، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ، ولا يُوضع منك الرغبة فى الإطماع ، إياك أن تعتلَّ بالأشغال أن كنتَ فى خاصَّة نفسك ، فإن أداء الحق وصِلةَ الإخوان أعظم الخاصَّةِ بك خاصَّةً ، وإنما أمْرُنا فى كل هذا كأمركَ فى الذى تستغنى به من خاصّتك تلك التى لنا ، فإن لنا مالك، وهذه التى لنا لكَ ، أليس ماسَرَّنا سرَّك، وما سَلَبناه حظا لك ، فهذه كذلك وذلك كهذى ، والله يوفِّقنا وإياك ، وأنت أبا يوسف ، هكذا حال ما بيننا وبينك ما وصفتُ لأبى سعيد ، غير أنه سألَنا أمراً لم يسألْناه قطُّ ، فله فضلُ السَّبْق علينا فى المسألة ، ولنا فضلُ المنزلة

عليك فى اللائمة ، ولن أَدَعَك والفِعلَ ، دونَ أن تشفَعَه بالعمل الذى هو صِلَة القول ، وسلام عليك ورحمة الله ، وقَضَى الله عز وجل بالحُسْنَى لنا ولك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٥)

٨٥ — كتابه إلى بعض إخوانه

وله إلى بعض إخوانه :

« أما بعد ، فإن أعظم الأمور فيما بين الناس حقا أمران : منهما الإخاء فى الدين ، فهو سبب وصيّة الله بين عباده بالألفة والمحبّة التى انقطعت بها قرائنُ القلوب من بعضهم إلى بعض ، فاتّصَلَتْ بحبائلهم مرائرُ(١) حَبْلها ، وتقطعَتْ فيما بينهم عاطِفاتُ وَصْلها ، ومنهما مجاملةُ جميل الأعداء ، وحفظُ ما يحِقّ لأهل حُسن البلاء ، ثم الصنائعُ بعد ذلك فى مواقعها فضائلُ ، بقَدْرِ ماجَرَتْ به أسبابُها ، ولَطُفَتْ مَداخِلُها » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٣)

٨٦ — كتاب له فى المطر

قد كنتُ كتبت إلى أمير المؤمنين أُعْلِمه المَطْرة التى أصابتنا ، وما أنزل الله بها من رحمته ، ثم عادت لنا بعدها من الله عائِدةُ رحمة ، بوَلِيٍّ(٢) مطرٍ أنزله الله بأحسنِ ما رأينا من المطر ، ووابلاً جَوْداً(٣) لا يَفْتُر غزيرُه ،

---

(١) المرائر جمع مريرة : وهى الحبل الشديد الفتل .

(٢) الولىّ : المطر يأتى بعد المطر .

(٣) الوابل : المطر الشديد الضخم القطر ، والجود : المطر الغزير أو مالا مطر فوقه .

ولا يرعوى جَوْده ، إلا إلى دِيعَة[1] عن دِيعةٍ ، يتراخى إليها يسيرا رَيثما تعود ، فأقامت علينا سماؤه مستهلّةً[2] بذلك وكذلك ، إلى غروب الشمس، ثم انقطع مطرها بسكونٍ من الريح ، وفُتورٍ من القُرّ[3] ، وفضلٍ من الله عظيم ينشر به رحمتَه ، ويبسُط به رزقَه ، فأسبغَ النعمة ، وأوسَعَ البركةَ ، وأوثقَ[4] بحمد الله معارِفَ الخِصْب والحَى ، والله محمود على آلائه[5] ، وَمشكور على بلائه ، وما أنزل الله من سُقياه ورحمته بعد الذى أقبلَتْ به السَّنَة البَرِّيَّة[6] والقَحْطُ وعدم الإمطار ، وشدةِ ما بلغ الناسُ من القُنُوطِ وسوء الظنون » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٣)

٨٧ — تعزية له

« مَن كان من نعمة الله ، وَالعلم بالله ، على مِثْل الذى حُبيتَ به ، اقتصَرَ برأيه وَصحة فهمه على ما يعود عليه فى العاجل والآجل ، وبلَغَنى وفاة فلان ، فأعظِمْ لله بها فى المصائب مصيبةً ، وأجِلِلْ بها فى الأحداث نائبةً ، نَوَّر الله له فى قبره ، وعَزَم لك على الصبر ، وَبارك لنا وَلك فى الذى تَئُول إليه العواقبُ » .   (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٨)

---

(١) الديعة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد وبرق .

(٢) استهل المطر : اشتد انصبابه .   (٣) القر مثلثة : البرد .

(٤) فى الأصل « وأوبق » وأراه مصحفا ، والصواب « وأوثق » أى جعلها وثيقة ، وأرض وثيقة : كثيرة العشب موثوق بها .

(٥) الآلاء : النعم ، والبلاء : النعمة أيضا .

(٦) البرّية : الصحراء ، ونسب السنة إليها تشبيها بها فى الجدب والقحط .

٨٨ — تعزية له

« أما بعد ، فإن من صحِبَ الدنيا لم يَخْلُ من تصرُّف أحوالها ، وكثرة مَعارِيضِ فجائعها ، في اخترام[1] الأنفس في خواصِّها ، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يَهُدُّها ، ويَعْرُو من الأسى عليها ، وكلُّ ذلك لا سبيلَ إلى دفعه ولا حيلةَ يستعان بها عند نزوله ، إلا الرضا عن الله عز وجل فيما قَضَى ، والتسليمُ لأمره في كل ما أَتَى ، والسكونُ إلى الأسْوة التي نَهَجَ الله سبيلها ، وخفَّف بها مواقعَ المصائِب على أهلها ، ثم الرجاء بعد ذلك لحسن ثواب الله ، الذي جعله لمن لَزِم أمره ، وأجْشَمَ[2] نفسَه مكروهها في مَواطِنِ الصبر على المصيبة ، والشكر في حال العافية » (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٨ و ١٢ : ٢٦٣)

٨٩ — تعزية له إلى الخليفة

« فإن الله أنزل أميرَ المؤمنين من الإسلام وأهله منزلاً عظَّم فيه فضلَه، وَاختصَّه منه بالذي هو أهلُه وأوْلى به ، فأصبح بفضل نعمة الله عليه ، ولطيف إحسانه إليه ، عِماداً لجميع المسلمين ، عليه تجتمع أهواؤهم ، وإليه تسكُن أملاؤهم[3] ، وبه يُصلح الله دينَهم ، ولا تصلُح إلا به دنياهم ، فما يُلبسه اللهُ من عافية ، ويُحْدِث له من كرامة ، تُجلِّلهم مع النعمة في وصولها ، وأعباء الشكْر في وجوبها ، وما ينوبُه — والله ولي حِفظِه — من نائبةِ حدثٍ برزء

(١) اخترمته المنية : أخذته . (٢) أي كلفها تجشمها .
(٣) جمع ملأ بالتحريك : وهو الجماعة.

مصيبة ، شَرِكوه فى ألم الحَدَث ، وَتركوا شرِكته فى حسن الثواب .

وَقد كان من قضاء الله فى ابن أمير المؤمنين ، ما عَظُمت به المصيبةُ ، وعمَّت به الرزيةُ ، للمنزلةِ التى أنزله الله بها من دينه وقرابته من نبيه صلى الله عليه وسلم ، مع مكانه من خليفته ، وما كان فيه مع ذلك من الأمل العظيم ، والرجاء الجسيم ، الذى به سكَنتِ القلوب ، وأُمِّل لجليلات الخطوب ، وَكان عاريَّةً من عوارى نعم الله ، أنعم بها الله على أمير المؤمنين ، فاستمتَعَ بما أعاره فيه من قُرَّة العين والغِبطة والسرور ، إلى أن بلغَ منتهى مُدَّةِ ما أُعِير ، وقَضى كل ارتجاع [أن] يرتَجعها مُعيرُها فيَبتلِى بها مَن أُعِيرها ، وكان يجْرِى من تقدير الله فى ذلك على حَتْمٍ من العمر ، وقَسْمٍ من الرزق ، ومدةٍ لها وقتٌ وَتأجيل ، فلما استكمَلَ الحَتمَ من عمره ، واستتمَّ القسمَ من رزقه ، قبضه الله إليه اختياراً لما عنده ، وابتلَى أمير المؤمنين ليجمَع له إن شاء الله حسنَ ثواب حِسْبته ، إلى ماضِى ما استمتعَ به فيه من نعمه ، محموداً فى ذلك بلاؤه ، منتصَحاً فيه قضاؤه ، مسلِّما فيه لأمره الذى جرَت به سُنَّته ، واعتدلَتْ بالأُسوة فيه حالُ جميع خلقه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، نسأل الله الذى ابتدأه بمَنِّه وفضلِه ، أن يجعله وخليفتَه وارثَ إرثِ نبوَّته ، وَصَفِيَّ الأصفياء من صَفْوته ، وفى معدنِ الفضل من أهل خِيرته ، وأنْ يُلْحِقه بالأخيار من سَلفه والمنتجَبين[1] الأبرار من فَرَطِه ، ويُكْرِم فيما لديه مآبَه ، ويُحْسِن فى المَعادِ ثوابَه ، وَيُعْظِمَ هناك فضيلَته ، وَيقرِّب إليه وسيلته ، ويرفع فى أعالى درجات الصالحين درجتَه ، إكراما بذلك لنبيِّه ، وَتوقيرا لخليفته ، وتطوُّلا عليه فيه

---

(١) انتجبه : اختاره .

عِنّه وكرمه ، وأن يُعظم أجر أمير المؤمنين فى مصيبته وَيُحسن فيها ثوابَه ، ويُجْزِل فيها عِوَضَه، ويُكرِم بها فى المَاد ذِكرَه، ويُريه من مَعارِفِ عاجِلِ حُسنِ الخلفِ فى الزيادة النامية فى عباده ، والمواهب المتابعة فى ولده ، مايَجبُر به مصيبتَه ، وَيقِرُّ به عينَه، وَيتمُّ به كرامته، وَيبلغ به أفضلَ ماينتهى إلى رضاه ، من سُبُوغِ[1] العطية ، وتمامِ النعمة ، وإيتاء كل حسنة ، وصَرْفِ كل سيئة ، ولا يُريه وإيانا فى ولده مكروهاً أبداً ، فإنه وليه وولىُّ إتمام النعمة عليه ، وما اختصه به وظاهَرَ عليه من المن والإحسان والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٨)

٩٠ — فصل له فى الذم

« إن فلانا حُمَة[2] من بقايا حُمَة الشيطان ، جمع الله إليه أولادَ الهزائم وذوى الفَتك وأبناء النِّقَم ، ثم قدَّم باطلهم بين أعينهم ، فلفَقَهم[3] على غير أسباب ، حتى إذا تضايقتْ بهم المذاهبُ ، أخرجهم الله كالنَّبل لم يوصَل به ريشُه ، ولم يُشْدَد عليه نصلُه ، فطاش عن المرمَى ، وقصُر عن المَدى ، فنزَعُوا أيديهم ، وصاروا إلى ربِّهم بالخَبَل[4] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٩)

---

(١) أى تمامها .

(٢) الحمة : الإبرة تضرب بها الحية .

(٣) أى جمع بعضهم إلى بعض ، من لفق الثوب كضرب : ضم شقة إلى أخرى فخاطهما .

(٤) الخبل : الفساد .

٩١ — كتاب بشر البلوى إلى يزيد بن منصور

وكتب بِشْر[١] بن أبى كِبَارٍ البَلَوِىُّ إلى يزيد بن منصور عامل أبى جعفر المنصور على اليمن ، وقَدِم إلى صَنْعاءَ أَوَّلَ سنة ١٥٤ بعد الفُرَات بن سالم ، وقد طلب منه ما كان فَرَضه الفُرَاتُ لنفسه على أهل اليمن :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فإنه قَدِم علىَّ كتاب من الأمير — حفظه الله — مع رسوله نُعْمان الهَمْدانِىّ ، يأمرنى أن أبعثَ إليه بفَرْض الفُرَات بن سالم ، وأنا أخبر الأمير — أكرمه الله — أنه كان قَدِم علينا قبل كتابه كتابُ الله تعالى مع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، يأمرنا فيه أن نفرِّق ما جَمَع الفُراتُ ، وأن نهدِمَ ما بَنَى ، وأن نُوالىَ مَن عادَى ، وأن نُعادِىَ مَن والى ، ونظرتُ فى الرسالتين ، وقِسْتُ بين الرسولين ، لغير تخيُّرِ عَرَضَ ، ولا لشُبهةٍ بحمد اللّٰهِ دخلَتْ ، فرأيتُ أَنْ لا أنقُضَ ماجاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، لِمَا قَدِمَ به النعمان — لعنه الله وغضب عليه — وعلمتُ أنَّهُ من يَزِغْ منا عن أمر الله يُذِقْه من عذاب السَّعِير[٢] ، فليَقْضِ الأمير — حفظه الله — فىَّ ما كان قاضياً[٣] ، ثم ليُعَجِّلْ ذلك ولا يُنْظِرْنى[٤] ، فواللّٰهِ إنَّ

---

(١) جاء فى المواهب الفتحية ٢ : ١٤٠ « هو من فضلاء اليمن من أهل صنعاء ، من قبيلة بلىّ كثنىّ ، وهو من أبلغ الناس ، وكانت بلاغته تتهادى فى البلاد ، وكان له فيها مآخذ لم يسبقه إليه أحد ولم يلحقه فيه ، ويتعجب من بلاغته ونفاستها ، وأنه فيها أوحد ، وأنه لايشابه بلاغته البلغاء ، وأنه منفرد بحسن اختلاس القرآن الكريم — هكذا ذكر أبو محمد الهمدانى الشهير بابن الحائك المتوفى سنة ٣٣٤ » .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ »

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ » .

(٤) أنظره : أخره .

العافية لَفِي عقابه ، وإن العقاب لفى عافيته ، وإن الموت لَخيرٌ من الحياة معه ، إذا كان هذا الجِدَّ منه ، والحقَّ عنده والسلام » .

(مفتاح الأفكار ص٢٧٢ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤١)

٩٢ — كتاب أبى جعفر إلى عامله بحضرموت

وولَّى المنصور رجلا من العرب حَضْرَمَوْتَ ، فكتب إليه والى البريد « إنه يُكْثر الخروج فى طلب الصيد بِبُزَاةٍ (١) وكلابٍ قد أعدَّها » فعزله ، وكتب إليه :

« ثكِلَتك أُمُّك (٢) ، وعَدِمَتك عشيرتُك ، ما هذه العُدَّةُ التى أعدَدْتَها للنِّكاية فى الوَحْش ؟ إنَّا إنما استكفيناك أمورَ المسلمين ، ولم نستكفِك أمورَ الوحش ؛ سلِّم ما كنت تَلِي مِن عملنا إلى فلان بن فلان ، والْحَقْ بأهلك مَلوما مَدْحُورا (٣) » . (تاريخ الطبرى ٩ : ٢٩٧)

٩٣ — فصل من كتاب أبى جعفر إلى الآفاق بالبيعة للمهدى

« والمهدىُّ — معشرَ المسلمين — فى عَفافه وصلاحه وَوَرعه وطبائعه وشِيَمه وحِلمه ورأفته ، واستصلاحه واستبقائه ، وعفوه ومقدرته ، ورأيه وَمكيدته وشَوكتهِ على عدوّه ، وحسن تدبيره فى ولايته وسياسته لجنوده ، ورِفْقه وعدله ، وأدبه وفِقهه ، وفهمه ونجابتِه ، ويُمْنِ نَقيبته (٤) وتَوْسعةِ ذات

(١) البزاة جمع البازى : وهو ضرب من الصقور .
(٢) ثكله كفرح : فقده .
(٣) دحره كمنع : طرده وأبعده ودفعه .
(٤) النقيبة : النفس والطبيعة .

يده، واغتفاره وهَدْيه ، وحسن جزائه أهلَ الغَناء[1] عنه والبلاء معه ، والطاعة له والسمع منه ، ولينه وحزمه وعزمه ، ووفائه وصدقه ، هو المصطنَع[2] لولايتكم ، والمتخيَّر لسياستكم واجتماع أُلْفتكم ، وتمام نعمةِ الله عليكم ، ولم يكن الله ليُعدَّ لهذه الأمور إلا مصطنَعا فى رأيه ، كاملا فى فضله وسياسته ، قويا على طاعة الله ونَصر دينه والذبِّ عن حقه وملَّته.

وقد بايع أميرُ المؤمنين ومَن قِبلَه من أهل بيته وجنوده ورعيته للمهدى محمد ابن أمير المؤمنين ، ولعيسى بن موسى من بعد محمدٍ المهدىّ ، مستبشرين ببيعتهم ، راغبين فيما صَفَقتْ[3] عليه أيمانهم من تخيُّرٍ للذى كان يُذْكَر فى الأمير من تمام نعمَة الله عليهم ، مؤمِّلين لما فى الأحاديث المأثورة من أهل الحق قبلهم مُوقنين بخيرة الله لهم ، فإن اسم المهدى محمد ابن أمير المؤمنين واسم أبيه ، والزمان الذى كان يُذْكَر ذلك فيه ، والأمور التى تُنْسَب إليه ، والفتوح التى كانت تُذكَر أنها تُفْتَح عليه فى أول أمره ، ومبتَدإ زمانه ـ وقد رأيناها وعَرفناها يشهَدُ بعضها لبعض ، متصلةً على حالاتها ، متواليةً على ما ذُكر فى الأحاديث منها يصدِّق الأولُ منها الآخِرَ على مراتبها ومنازلها ، والأحايين التى تكون فيها ، لا يُخْرَم[4] شىء منها عن شىء متلاحقةً ملتئمةً إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ـ واصِلٌ[5] هذه الأطرافَ المنكَرَةَ والأعلامَ المقدَّمة بأصولها الجسيمة العظيمة التى ملأت[6] الأرض نورا وعدلا وعِزا

(١) الغناء . الكفاية . (٢) أى المختار .

(٣) صفق يده بالبيعة والبيع كضرب وعلى يده : ضرب بيده على يده ، وذلك عند وجوب البيع

(٤) فى الأصل « لا يحرم » وأراه مصحفا . (٥) خبر « فإن » .

(٦) فى الأصل « علا » .

لأهل الإسلام ، وظفرا وتأييداً لأهل الحق ، ونصراً وفضلا ونعمةً من الله عليهم ، ولم يحبَّ أميرُ المؤمنين أن يُخْرِج عيسى بن موسى من هذا الإلِّ(١) ، فعقد له من بعد محمد ابن أمير المؤمنين ، وجَعَلَه وليَّ عهده ، ونوى أميرُ المؤمنين الخيرَ فى ذلك ، واحتسبَ الأجرَ من الله عليه ، ورجا صلاحَ الرعية .

فبايِعوا باسم الله وعلى بَرَكتِهِ وتوفيقه وتسديده ، لمحمد ابن أمير المؤمنين بيعةَ رضوانٍ من الله إن شاء الله ، بصحَّةٍ من نيَّاتكم ، وسلامةٍ من صدوركم ، ووفاءٍ واستقامةٍ بخيرِ صَفْقَةٍ صَفَقَتْ عليها أيمانكم ، وأعظمِها إن شاء الله وأتمِّها نعمَةً ، وأحسنها عاقبَةً ، وأبلغها فى طاعةَ الله منزلةً ، وأرفعها فى الخير درجةً ، فأبْشِرُوا بنِعمٍ مخبَّآتٍ : عاجلاتٍ وآجلاتٍ ، يُعزّ الله بها دينكم ، ويتِمُّ بها النعمةَ عليكم ، ويقمَعُ بها الشيطانَ وجنودَه وأبالِسَته ، ويفُلُّ بها حَدَّهم ، ويُوهِن بها قوتهم ، ويَصْرَعهم فى كل مَوْطِنٍ ، ويقتلهم فى كل مشهد ، فإنكم ـ معشر المسلمين ـ قد أخذتم فى توفيق الله إياكم ، وتسديده لكم ، بطَرَف أمرٍ فيما ألهمكم الله من بيعتكم للمهدى ابن أمير المؤمنين ، سيؤدِّيكم إلى النِّعم التى كانت توصَف، والظهورِ الذى كان يُذْكَر » .

(اختيار المنظوم والنثور ١٣ : ٣٣٩)

٩٤ ـ كتاب بعض الهاشميين إلى المهدى وهو ولى عهد

وكتب بعض الهاشميين إلى المهدى وهو ولى عهد يشكر له :

« إن لباسَ النِّعَم التى ألبسَ اللهُ الأميرَ ، كرامةٌ توحَّدَ له بها فى سابق

(١) الإلّ : العهد ، وفى الأصل « الا » .

علمه ، ونافذِ قضائه ، فأحلَّه من التناسُل فى أذكى النَّسْل ، وأطيبِ المحَلّ ، طينةً عن طينةٍ ، وأباً عن أب ، وخَلَفاً عن سَلَف ، حتى انتهى به إلى المحلّ الذى منهُ بَرَزَ ، فكان خيرَ البريَّة وابنَ خيرِها ، حقًّا له غيرَ مجحود ، وسابقةً له معروفة عند أهل الأدب والدين ، ثم خصَّنا اللهُ فى أنفسنا : بأن جَعَلنا من أهل المعرفةَ بذلك ، وفى الأمير : بأن جعل لنا فى نَسَبه شَرِكةً انشعبَتْ بها إلينا شُعْبةٌ فى شرفنا المذكور ، وزَيْنِنا الأعظم ، واللهُ محمودٌ .

ثم كان من بلاء الأمير عندى ما كان فى الخاصَّة مشهورا ، وعن لسانى وشكرى وقولى منشورا ، ولست أدَّعِي حقا لى قِبَلَ الأمير فى القرابة والحُرْمة والمودَّة إلا وَللأمير عندى الفضلُ والزيادة على القَدْر ، فأما ما علىَّ من واجب الحق للأمير فلا أرانى — وإن اجتهدتُ — بالغاً كُنْهَ حقِّ الأمير علىَّ ، غير أن المحصول منى أن دنياى التى أُصْلِح ، وآخرتى التى أطلُب ، إنما أستَنْجِحُها بالأمير ، لأن الأمير فى الدنيا ذو قرابتى ، فالعائِدَةُ[1] علىَّ ، وفى دينى المهدىّ المرتضَى ، على ذلك بَيْعةُ يدى ، ورِضا نفسى ، قد أوضح الله للناس من بَرَكة الأمير وَيُمْنه وعلامات صفته ، مالم يُصبح أحد يحتاج فيه إلى خَبَرِ مُخْبِر ، ولا صِفَة واصفٍ ، وَالله محمودٌ ، نسأل الله الذى بلَّغ الأميرَ فى نفسه وعلى ألسُن الناس ما بلَّغ ، أن يتمِّمه له بأحسن ما تَمَّمهُ لأحدٍ قطُّ فى طول البقاء لأمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، وأتمّ النعمَة عليه فيه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٣)

---

(١) العائدة : الفائدة والمعروف والصلة .

٩٥ — كتاب أبى جعفر عند موته يوصى بالمهدى

وروى الطبرىّ أنه لما مات أبو جعفر المنصور (سنة ١٥٨ هـ) خرج الربيع[١] بن يونُس، وفى يده قِرطاس، فألقى أسفله على الأرض، وتناول طَرَفه ثم قرأ:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم: من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى مَن خَلَف بعده، من بنى هاشم، وشيعته من أهل خُراسان، وعامّة المسلمين» ثم ألقى القرطاس من يده وبكى وبكى الناس، فأخذ القرطاسَ وقال: قد أمكنكم البكاء، ولكن هذا عَهْدٌ عَهِده أمير المؤمنين، لابدّ من أن نقرأه عليكم، فأنْصِتوا، رَحِمكم الله، فسكت الناس ثم رجع إلى القراءة. «أما بعدُ: فإنى كتبت كتابى هذا، وأنا حَىٌّ فى آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة، وأنا أقرأ عليكم السلام، وأسألُ اللهَ ألاّ يَفْتِنكم بعدى، ولا يَلْبِسَكم[٢] شِيَعاً، ولا يُذيق بعضكم بأس بعض، يابنى هاشم ويأهل خراسان» ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدىّ، وإذْكارهم البيعةَ له، وحضِّهم على القيام بدولته، والوفاء بعهده... إلى آخر الكتاب.

---

(١) هو أبو الفضل الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبى فروة كيسان مولى الحرث الحفار مولى عثمان بن عفان، وزر للمنصور، وكان مهيبا فصيحا كافيا حازما فطنا، ولم يزل وزيرا للمنصور إلى أن مات المنصور، فقام بأخذ البيعة للمهدى، ثم سعى به أعداؤه إلى الهادى، فقتله سنة ١٧٠هـ انظر ترجمته فى الفخرى ص ١٥٨ ووفيات الأعيان ١ : ١٨٥ .

(٢) أخذه من قوله تعالى «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» واللبس: الخلط، يقال: لبست الأمر ألبسه كضرب إذا خلطت بعضه ببعض، أى يجعلكم فرقا مختلفة الأهواء.

قال النوفلي قال أبي : وكان هذا شيئا وضعه الربيع .

ثم أخذ الربيع البيعة منهم لمحمد المهدى .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣٢٤)

٩٦ — كتاب لجبل بن يزيد تعزية وتهنئة للمهدى

فإنَّه مَنْ أقرَّ لهُ بالقُدْرةِ ، واعترَف لهُ بالرُّبُوبيَّة ، لم يُنكِر مواقعَ أقداره ، وما مَضَتْ به سُنَّتُه على إحلالِها فى الأوَّلين والآخِرين . وإنَّ الخبَرَ أتانا بوافِدِ أمير المؤمنين المهدىّ بأنها[1] كانت بيعةً سليمةً مباركةً ، لم يُطْلِع أحداً منَ الناس فيها اعتِراضٌ ولا خلافٌ بقول ولا فعل ، بل استفاضَ به الرِّضَا والغِبطةُ ، وَظَهَر السرورُ من العامَّة والخاصَّة ، واجتمَع فى ذلك أمران : مصيبةٌ لا تَعْدِلُها المصائبُ ، ولا تُوَازِيها الفجائعُ ، وعائِدَة[2] من الله تَعظُمُ عن كل ما عسى وَاصِفٌ أن يصِفَه مِن أهلها ، أو يعظِّم من وُجُوهِ شكرِ اللهِ فيها ، فإنا للهِ وإنا إليه راجعون ، إعظاماً للرزِيَّة ، وإقرارا بالقَضِيَّة ، واعترافا لله بالقدرة .

والحمدُ للهِ على ما تَلَافَى بهِ عبادَه فى بَلائه ، من نعمته التى لَمَّ بها الشَّعَثَ[3] ، وجَبرَ بها المصيبةَ ، وَشدَّ بها أركانَ الإسلام وَأهلَه ، وأعظِمْ بالمصيبة مصيبةً نَزَلَتْ ، وأعظِمْ بالنعمَة نعمَةً حَدَثَت ، وإن أحقَّ من انتصحَ لله فى قضائه ، واعترف بوجود حُسْن بلائه ، مَنْ علِمَ أن الفجائع

---

(١) فى الأصل « كأنها » وهو تحريف . (٢) العائدة : المنفعة .

(٣) الشعث : انتشار الأمر .

أمرٌ جَرَتْ به سُنَنُ الله بين عباده تذكيرا وتحذيرا، ومنْ به انقادت معرفتُها، ووقعَتْ حُجَجُ الله على العباد فيها، ولولا ذلك لم يكن لِمُعَزٍّ أن يَرُوم تعزية أمير المؤمنين، ولا لِمُؤَسٍّ (١) تأسيةً، إعظاما له عن ذلك، وتوقيرا لجلال منزلته، واكتفاء به فى ذلك بنفسه، مع الذى يحِقّ على جميع المسلمين من الوقوف على مساماة فضله، والترقِّى فى رفيع درجته، فعظَّم اللهُ على الحادث النازل أجْرَه، وأحسَنَ على الخلافة عوْنَه، ثم لا وَكَلَه اللهُ فى شىء من الأمور إلى نفسه، وَألهمه العملَ بما يُرْضيه، ويبلغ به تأديةَ حقِّه فيما استنزعاه واستحفظه، وجعَلَه أهلَه وأحقَّ به، واللهُ فاعِلٌ ذلك إن شاء الله والسلام».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٠)

٩٧ — تعزية لغسان بن عبد الحميد عن خليفة (٢)

«أما بعدُ: فإن اللهَ تبارك وتعالى جعل المقادير عِلماً ثابتاً عنده، وكتابا سابقاً منهُ، فجرَت عليه ومضَتْ به الأمورُ فى قدرته، والعبادُ فى قبْضَته، وليس عبد من عبيده إلا وقد كان عُمْرُه فى الدنيا موظُوفا قبل خَلْقه، وكَان ما يصيبه منها مكتوبا عليه قبل أن ينزل به، ثم جعل أهلَ عبادته أهلَ حظوظٍ متكاملةٍ فى السعادة، وأهلَ فضائِلَ متظاهِرةٍ فى الكرامة، فاصطفى منهم أنبياءه، وانتَجَبَ (٣) منهم خلفاءه، وألزمَهم على ذلك الموتَ الذى لا بُدَّ منه، وجعله الحياةَ لهم فيما عنده، فكانت وفاةُ مَن تَوَفَّى (٤) منهم له سعادةً

(١) أساه تأسية : عزّاه .

(٢) أرى أن هذه الرسالة تعزية من غسان للمهدى عن أبيه المنصور .

(٣) أى اختار (٤) عائد الموصول محذوف أى من توفاه .

فيما يُصيِّرهم إليه ، وحياةٌ من أحْيَا منهم له كرامةً فيما يصطنِعُهم له ، فيَمْضِي الأول منهم سعيدا ، ويَبْقَى الباقي منهم مُصْطَنَعا ، فلا تنقطع الدنيا بماضيهم إلا إلى خير منها ، ولا يَبْقَى باقيهم إلا ليزداد خيرا فيها ، قد أخذوا من الله بأسبابٍ أصلح لهم بها مَعادَهم فى آخرتهم ، وحفِظَ لهم بها دنياهم فى مَحْياهم ، يُعْرَفُ حقُّ الميت منهم بعد موته ، كما كان يُعْرَف حقُّه فى حياته ، ويُعَظَّم حقُّ الحيِّ منهم المنزل الذى أنزله الله به .

والحمدُ لله الذى جعل أمير المؤمنين « فلانا » من خلفائه الذين عُمِّروا فى كرامته وتمكينه ، ومَضَوا على أحسن الرجاء فيما عنده ، ثم جَمَعَ له الأجرَ بما أدَّى من حق الله فى حياته ، فيما نظر به للرعيَّة ، من استخلاف أمير المؤمنين بعده ، وجَمَعَ لأمير المؤمنين الأجرَ فى محبته إياه بالبرِّ والمؤازَرة له ، وفيما احتسَبَ به من مودَّته ، وقامَ به من الحق فيما استخلفه عليه ، فوالدُكَ يا أمير المؤمنين خيرُ الناس فَرَطا (١) ، وأنت أفضل الناس خَلَفا ، لقد لقَّيْت واللهِ والدَكَ من الحياة ، ما يُرجَّى له فى الوفاة ، وأعقَبَك من مصيبتك به ، ما وطَّأ لك من الخلافة بعده ، وأعقبَ الرعيةَ من فَقْده ، ما عمِلتَ به فيها من المعدِلة (٢) ، والماضى مفقودٌ مستخلَفٌ منه ، والباقى محمودٌ مرضيٌّ به ، وأمرُ الرعية قائم معدولٌ فيه ، فَعَلَ اللهُ كذا والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٣)

---

(١) الفرط : ماتقدمك من أجر وعمل .

(٢) فى الأصل « العقلة » ولا يستقيم بها المعنى ، وأرى أنها محرفة عن « المعدلة » أى العدل .

٩٨ — فصل من تعزية له

« ولم يَزَلْ أهلُ بيتِ أميرِ المؤمنين أعظمَ الناسِ مصيبةً بميِّت ، وأعظمَ الناس نعمةً بحَيٍّ ، لِفضلِ أمواتهم ، ونعمةِ الله على أحيائهم ، فإن الله جعلَ أمواتَهم للمسلمين سَلَفا ، وجعل أحياءَهم لهم عِصَما ، فلُحُوق[1] المسلمين بسَلَفِهم من أمواتهم نجاةٌ لهم في مَعادهم، واعتصامُهم بطاعة أحيائهم صلاحٌ لأمورهم في دنياهم ، وأحقُّ الأموات أن يسلُوَ عنه الأحياء ، مَن يُرْجَى له — لفضله — أن يكون اختار اللهُ له ما عنده ، فيذهب ما يوجَد عليه من الحزن ، لِمَا يقع له عند الله من حُسْن الأمل ، فإن الحِسْبة تَجبُر المصيبةَ ، والحزن لا يَرُدُّ المَرْزِئَةَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٤)

٩٩ — كتاب له في المودة

« وقد أصبحَتْ للوسائل إليك أسبابٌ ، وللحقوق إليك دواعٍ ، منها ما يَشْهَدك ممن خالَطَك وكثُر لِقاؤه لك ، ومنها ما غاب عنك ، من مُؤَدٍّ لحقك ، وعارفٍ بفضلك ، مناصِحٍ لك ، مُدَّخِرٍ لموضع ذلك إذا هُومَتَّ[2] به إليك ، وليس من كان له نصيبٌ من مخالطتك ، بأوجَبَ حقاً ممن له فضلٌ في أداء حقك ، ولا أحسِب أحدا ممن طالت لك خِلْطتُه[3] ، يبلغ من المعرفة بحقك ، وما جعل الله فيك من الفضل ، ما بلغ[4] أصحابُ النصيحة

(١) في الأصل « للحقوق » وهو تحريف . (٢) أي توسل .
(٣) الخلطة بالكسر : العشرة (وبالضم : العركة) .
(٤) في الأصل « بل أبلغ من أصحاب ... » وهو تحريف .

وإظهار المودة والسرور بما أحدث الله لك من الزيادة ، وقد أحْبَبْتُ ـ إذ كنتُ على ذلك لك ، وأحرزتُ حظى من معرفة فضلك ـ أن أُحْرِز حظى فى موقع ذلك لى عندك ، وأن تجرىَ المكاتبة وكذا ..... » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٩)

١٠٠ — عهد من المهدى إلى أحد ولاته

« هذا ما عَهِد به عبد الله المهدىّ محمد أمير المؤمنين إلى فلان ، حين ولاّه ثغرَ أرمينيــةَ والباب والأبواب (١) ، حَرْبَها وخَراجَها وصدقاتِها وجميعَ أعمالها .

أمَرَه بتقوى الله فى سرائره وعَلانيته ، والاعتصام بالله والعمل بطاعته ، والإيثارِ لحقّه على ماسواه ، والمراقبة له والخَشْية منه ، والحفظ لدينه وأمانته ، والانتهاء إلى ما يحِقّ عليه فيما وافقَه وخالفَه ، فإن الله لا يُضيع لمحسِن أجرا ، ولا يُصْلِح لمُفْسِدٍ عملا .

وأمَرَه أن يُشْعِر قلبَه مخافةَ الله وهَيبتَه ، وأن يعلم أنه لا حَول ولا قوةَ فى شىء إلا بالله والعملِ بطاعته ، فإن الله عز وجل إذا علم بذلك بصدق نيته ، وصحةٍ من يقينه ، أحْسَنَ عَونَه ، وخارَ (٢) له فى قضائه ، وكفاه ما همّه ، ولم يكِلْه فى شىء من أموره إلى نفسه إن شاء الله .

وأمَرَه أن يتعاهد نفسَه فى دينه وطاعته ونصيحته وحاله ، فى الصغير

---

(١) قال ياقوت فى معجم الأدباء ٢ : ٩ « باب الأبواب ، ويقال له الباب غير مضاف ، والباب والأبواب ، ... مدينة على بحر طبرستان . وهو بحر الخزر » .

(٢) خار الله له فى الأمر : جعل له فيه الخير .

والكبير من أمره ، ويُكثِر ذِكرَ علمه به وقدرته عليه ، وألاّ يأتمر أمرا حتى يستخيرَ الله فيه ، ويستمينَه عليه ، ويستقضيَه فيه ، بالذى هو أحبُّ إليه ، وأرْضَى عنده ، فإن العاقبة لِلتَّقْوَى ، وإن أفضل الأمور أصلحُها عاجلا ، وخيرُها عاقبةً ، وأعظمُها أجرا ، وأحسنها ذُخرا ، إن شاء الله .

وأمَرَه أن يعلم أن الثَّغْر الذى ولاَّه أمرَه ، من أعظم ثغوره عنده ، وأهمّ أعماله إليه ، لِقُربه من العدو ، وإطْلاله عليهم ، وموقعه من المسلمين ، وأنه لم يُسْنِده إليه إلا لحاله عنده ، وثِقته به ، ومعرفته بطاعته ونصيحته ، وكِفايته وضبطه ومبالغته ، وحسن سيرته وسياسته ومكيدته ، ونكايته فى أهل الشرك بالله ، وعن الإسلام ، وأهله وأنه ليس أحد من عماله إن اتَّقَى واعتَصم بأمره وأخذ بعهده ورأيه ، بأسرعَ منه بكل أمر زاده الله به عنده منزلةً ومزيةً وفضلا .

وأمرَه أن يصلِّيَ الصلواتِ لمواقيتها فى مسجد الجماعة ، ولا يتشاغل عنها بغيرها ، فإن الله جعلها عمود الدين فقال تبارك وتعالى : « فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا »

وأمَرَه أن يفتح بابه لأهل عمله ، ويُقِلَّ الاحتجابَ عنهم ، ويُلِينَ كَنَفَه(١) لهم ، وينظر فى أمورهم ومظالمهم ، ويُنْصِف بعضهم من بعض ، ولا يُحابِى شريفا لشرفه ، ولا يتعدَّى على وضيع لِضَعَته ، وألاَّ يكون لأحد من الناس ، يخالف الحقَّ عنده ، هوادةٌ ولا غَمِيزة(٢) ، وأن يصبر نفسه على ما نابه وَوَرَدَ عليه من أُمورهم ومظالمهم ، وينظر ويَجلس له ، حتى يؤدِّيَ إلى كل

(١) الكنف : الجانب . (٢) أى مطعن أو مطمع .

ذى حقٍّ حقه ، فإن فى ذلك صلاحَهم ومعونتَه على ماينوى من العدل عليهم ، وتأدية حق الله عليه فيهم إن شاء الله.

وَأمرَه بحُسْنِ الولاية وَرِفقِ السياسة ، وَإظهارِ العدل والعمل بالحق ، وَكفّ الظلم ، وإبطالِ الجَوْر ، وإيثار أهل الطاعة والنصيحة وَالفضل وَالورع وَصدق النية ، ويفضّلهم على غيرهم ، وَيستعين بآرائهم فيما هو مُصْدِرُه حتى يكون ما يُمْضى ويُنْفِذ منه بحسَب ما يجتمعون عليه ويرَوْنهُ موافقاً للعدل ، وَمجانبا للظلم والجَوْر

هذا عهدى إليك ، وَأمرى إياك فيما وَليتك ، وَأسندتُ إليك وقلّدتك ، فامتثْله واعمَلْ به ولا تُجاوِزْه ، واستعن بالله فيما غلبك ، يُعِنْكَ اللهُ ، واللهَ أسأل أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، وأن يوفقك ويُحْسِن كفايتك» .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٥)

١٠١ — كتاب المهدى إلى محمد بن سليمان

وكتب المهدىُّ إلى محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، وهو والى البصرة ، يأمره أن يردّ آل زيادٍ إلى نسبهم (١) .

(١) كانت سمية أم زياد قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندى للحرث بن كلدة الثقفى ، وكان طبيبا يعالجه ، فولدت له على فراشه نافعا ، ثم ولدت أبا بكرة ، فأنكر لونه ، وقيل له : إن جاريتك بَغِىٌّ ، فانتفى من أبى بكرة ومن نافع ، وزوجها عبيدا وكان عبدا لابنته ، فولدت على فراشه زيادا ، (فى السنة الأولى من الهجرة كما جاء فى الطبرى ٢ : ٢٥٩) فلما كان يوم الطائف نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما عبد نزل فهو حر ، وولاؤه لله ورسوله » فنزل أبو بكرة وأسلم ولحق برسول الله ، فقال الحرث بن كلدة لنافع : أنت ابنى فلا تفعل كما فعل هذا ، يريد أبا بكرة ، فلحق به (العقد الفريد ٣ : ٢) .

وقد قدمنا لك أخبار زياد واستلحاق معاوية إياه — انظر الجزء الأول ص ٣٨٠ ، ص ٥٨٤

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فإن أحقَّ ما حَمَلَ عليه وُلاةُ المسلمين أنفسَهم وخواصَّهم وعوامَّهم ، فى أمورهم وأحكامهم ، العملُ بينهم بما فى كتاب الله ، والاتباعُ لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصبرُ على ذلك والمواظبةُ عليه ، والرضا به فيما وافقهم وخالفهم ؛ للَّذى فيه من إقامة حدود الله ، ومعرفةِ حقوقه ، واتّباع مَرضاته ، وإحراز جَزائه وحُسن ثوابه ، ولِمَا فى مخالفة ذلك والصُّدودِ عنه وغَلَبة الهوى لغيره ، من الضلال والخَسارِ فى الدنيا والآخرة .

وَقد كان من رَأْىِ معاوية بن أبى سُفيان فى استلحاقِه زيادَ بن عُبَيدٍ ، عَبْدِ آلِ عِلاجٍ من ثقيف ، وادّعائه ما أباه بعدَ معاويةَ عامَّةُ المسلمين ، وكثيرٌ منهم فى زمانه ، لِعلمهم بزيادٍ وأبى زياد وأمّه ، من أهل الرضا والفضل والفقه والوَرَع والعلم ، ولم يَدْعُ معاويةَ إلى ذلك وَرَعٌ ولا هدى ، ولا اتباعُ سُنَّة

والجزء الثانى ص ٣٢ ، ومنذ استلحاقه (سنة ٤٤ هـ) أصبح هو وذريته يعدون فى سلالة أبى سفيان ويعتبرون من قريش ، وبعد قليل أصبحت سلالة أبى بكرة مولى رسول الله تعدّ فى ثقيف .

فلما كانت خلافة المهدى أمر برد آل أبى بكرة من نسبهم فى ثقيف إلى ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبرد آل زياد إلى نسبهم من عبيد ، وكان سبب ذلك أن رجلا من آل أبى بكرة رفع ظلامة إلى المهدى ، وتقرب إليه فيها بولاء رسول الله ، فقال المهدى : إن هذا نسب واعتزاء ماتقرّون به إلا عند حاجة تعرض لكم ، وعند اضطراركم إلى التقرب به إلينا ! فقال : يا أمير المؤمنين ، من جحد ذلك فإنا سنقرّ . أنا أسألك أن تردنى ومعشر آل أبى بكرة إلى نسبنا من ولاء رسول الله ، وتأمر بآل زياد بن عبيد فيخرجوا من نسبهم الذى ألحقهم به معاوية ، فيردوا إلى نسبهم من عبيد فى موالى ثقيف ، فأمر المهدى فى آل أبى بكرة وآل زياد أن يرد كل فريق منهم إلى نسبه ، وكان مما قوى رأيه فى آل زياد أنه قدم عليه وهو ينظر فى المظالم رجل منهم ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا ابن عمك ، قال : أى ابن عمى أنت ؟ فانتسب إلى زياد ، فقال له المهدى : يابن سمية الزانية ، متى كنت ابن عمى ؟ وغضب وأمر به فوجئ فى عنقه وأخرج ، وكتب المهدى فيهم إلى محمد بن سليمان الكتاب المذكور ، فأخرجوا من ديوان قريش .

ثم إن آل زياد بعد ذلك رشوا الديوان حتى ردهم إلى ما كانوا عليه — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٣٣٤ والفخرى ص ١٦٢ .

هادية ، ولا قُدوة من أئمة الحق ماضية ، إلا الرغبةُ فى هلاك دينه وآخرته ، والتصميم على مخالفة الكتاب والسُّنّة ، والعُجْب بزياد فى جَلَده ونَفاذه ، وما رَجا من معونته ومُوازَرته إياه على باطلٍ ما كان يَرْكَن إليه فى سِيرته وآثاره وأعماله الخبيثة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الولدُ للفِراش وللعاهِر الحَجَرُ (١) » وقال : « من ادَّعَى إلى غير أبيه ، أو انْتمَى إلى غير مَواليه ، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صَرْفا ولا عَدْلا (٢) » .

ولعَمْرى ما وُلدَ زيادٌ فى حِجْر أبى سفيان ، ولا على فِراشه ، ولا كان عُبيدٌ عبداً لأبى سفيان ، ولا سُمَيّةُ أَمَةً له ، ولا كانا فى مِلكه ، ولا صارا إليه لِسَبب من الأسباب ، ولقد قال معاوية فيما يعلمه أهلُ الحفظ للأحاديث عند كلام نصر بن الحَجّاج بن عِلاط السُّلَمىّ ومن كان معه من مَوالى بنى المُغيرة المخزوميّين ، وإرادتهم استلحاقَه وإثباتَ دعوته ، وقد أعَدَّ لهم معاوية حَجَرا تحت بعض فَرْشِه ، فألقاه إليهم ، فقالوا له : نسوِّغ لك ما فعلتَ فى زياد ، ولا تُسَوِّغ لنا ما فعَلْنا فى صاحِبنا ! فقال : قضاءُ رسول الله صلى الله عليه وسلم خير لكم من قضاء معاوية ، فخالف معاويةُ بقضائه فى زياد واستلحاقِه إياه ، وما صنع فيه وأقْدَم عليه ، أَمْرَ الله جلّ وعزّ ، وقضاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتّبع فى ذلك هواه رغبةً عن الحق ، ومجانبةً له ،

(٢) العاهر : الزانى ، أى لاحق له فى النسب ولاحظ له فى الولد ، وإنما هو لصاحب الفراش ، أى لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها ، وهو كقوله الآخر : له التراب ، أى لاشىء له .

(٣) الصرف : التوبة ، والعدل : الفدية — انظر الجزء الأول ص ٢٨ .

وقد قال الله عز وجل : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لاَيَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » وقال لداود صلى الله عليه وسلم ـ وقد آتاه الحكم والنُّبُوة والمال والخلافة ـ : « يَادَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِـعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » .

فأمير المؤمنين يسأل الله أن يَعْصِم له نفسَه ودينَه ، وأن يُعيذه من غَلَبة الهوى ، ويُوفِّقهُ فى جميع الأمور لِمَا يحبّ ويرضى ، إنه سميع قريب ، وقد رَأى أميرُ المؤمنين أن يردَّ زيادا ومن كان مِن ولده إلى أمّهم ونَسَبهم المعروف ، ويُلْحِقَهم بأبيهم عُبيد وأمّهم سُمَيَّة ، ويتّبع فى ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أجمع عليه الصالحون وأئمةُ الهدى ، وَلا يُجيز لمعاوية ما أقْدَم عليه مما يخالف كتابَ الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكان أمير المؤمنين أحقَّ مَن أخذ بذلك وعَمِل به ، لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وَسلم واتّباعِه آثارَه ، وإحيائه سُنَّتَه ، وإبطاله سُنَنَ غيره الزائغة الجائرة عن الحق والهدى ، وقدقال الله جل وعز « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ »

فاعلَمْ أن ذلك مِن رَأىِ أمير المؤمنين فى زياد وما كان من ولد زياد ، فألحِقهم بأبيهم زياد بن عبيد وأمّهم سمية ، واحمِلْهم عليه ، وأظْهِرْه لمن قِبَلك من المسلمين ، حتى يعرِفوه وَيستقيمَ فيهم ، فإن أمير المؤمنين قد كتَبَ إلى قاضى البصرة وصاحِب دِيوانهم بذلك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »

وكَتب معاوية بن عبيد الله فى سنة ١٥٩ هـ . (تاريخ الطبرى ٩ : ٣٢٥)

١٠٢ — كتاب بشر البلوى الى على بن سليمان

وكتبَ بِشر البَلَوِىّ إلى على بن سليمان وكان والياً للمهدى على اليمن يعاتبه (١) .

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : أما بعدُ ، فإنه مهما اختلَطَ عَلَىّ من عقلى ، واشتَبَهَ علىّ من رأيى ،وشككْتُ فيه من أمرى ، فلستُ أشُكُّ فى أن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يَقْدُرَ (٢) علىّ رزقى ، أو يبتلِىَ بالشِّدة عِيالى ، أطلَعَكَ على (٣) باب طمعى ، وَدلَّك على وجه طلبى ، وجعلك جليسا لأهل حاجتى ، ثم ابتلانى بطلبها إليك ، فإذا ذكرتُها لك أسْفَرتَ (٤) وأبشرتَ ، ووعدتَ من نفسك وعداً حسنا ، ففرّقتُ نفقتى لإسفارك ، ووسَّعتُ على عيالى لإبشارك ، وتسلَّفْتُ (٥) من إخوانى لموعدك ، فإذا أتيتك مُتَنَجِّزا ذلك عَبسْتَ وبَسَرْتَ ، ثم أدبرتَ واستكبرتَ (٦) وقد تصرَّمَتِ النفقةُ ، وانقطع الرجاء ، ويئِسْتُ من الطمع ، كما يئِس الكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ (٧)

(١) هكذا قال صاحب مفتاح الأفكار، وفى المنظوم والمنثور أن هذا الكتاب لمطرف بن أبى مطرف
(٢) قدر عليه رزقه كنصر وضرب وقدّره : ضيقه .
(٣) فى مفتاح الأفكار « على ذات طمعى » .
(٤) سفر الصبح كضرب وأسفر : أضاء وأشرق ، وأبشرت : أى بشرت .
(٥) أى اقترضت .
(٦) اقتبسه من قوله تعالى : « ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ » وبسر كنصر : كلح وعبس .
(٧) أخذه من قوله تعالى : « قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ » .

وأعظمُ من ذلك عندى كَرْبًا ، وأشده جَهْدا (١) أن غيرك يعرض عليّ الحاجةَ التي طلبتُها إليك ، فأكرهُ أن تكون إلاّ بسببك ، وأن تجرى إلاّ على يدك ، ولعَمْرى ما كان ذلك إلا لسابقِ العلم فى شِقْوَتى (٢) بك . فأسألُ الله الذى جعل جاهتَك (٣) من بلائى ، وحُسْنَ منزلتك من مُصابى . وطولَ حياتك فتنةً لِعيالى ، أن ينقُلَك إلى جنّته (٤) قبلَ أنْ يرْتدَّ إليكَ طَرْفُكَ (٥) والسلام » (مفتاح الأفكار ص٢٧٧ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٦)

١٠٣ - كتاب عيسى بن موسى بنزوله عن ولاية العهد لموسى الهادى

وفاوض المهدىُّ عيسى بنَ موسى فى أن ينزِل عن ولاية العهد لابنه موسى الهادى ، وألحّ عليه فى ذلك فأبَى ، ثم أجابه إلى سؤْله ، على مالٍ عوّضَه المهدىّ إياه مِنْ حقِّه : عشرة آلافِ ألفِ درهم وضِياعٍ بالزّابِ الأعلى (٦) وكَسْكَرَ (٧) ، وكتب عليه بذلك كتابًا أُشْهِدَ عليه فيه جماعةَ أهل بيته وصحابته وجميع شيعته وكُتّابه وجنده فى الدواوين ، ليكون حُجة على

---

(١) الجهد : المشقة . (٢) الشقوة : الشقاء .

(٣) الجاه والجاهة : المنزلة والقدر وفى المنظوم والمنثور « جاهك » .

(٤) فى المنظوم والمنثور « أن يعجلك إلى نار جهنم » .

(٥) أخذه من قوله تعالى : « قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » .

(٦) انظر ص ٦ .

(٧) كسكر : كورة جنوبى العراق ، كانت قصبتها مدينة واسط (التى بين الكوفة والبصرة)

عيسى وقَطْعاً لقوله ودعواه فيما خرج منه، وكان ذلك سنة ١٦٠ هـ .

وهذه نسخة الشرط الذى كتبهُ عيسى على نفسهِ :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم: هذا كتابٌ لعبد الله المهدى محمدٍ أمير المؤمنين، وَلِوَلىِّ عهد المسلمين موسى بن المهدىّ، ولأهل بيتهِ وجميع قُوّاده وجُنوده من أهل خُراسان، وعامَّةِ المسلمين فى مَشَارق الأرض ومَغارِبها، وحيثُ كان كائنٌ منهم، كتبتُه للمهدىّ محمدٍ أمير المؤمنين، وَولىّ عهد المسلمين موسى ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن على، فيما جُعِل إليه من العَهد، إذ كان إلىَّ، حتى اجتَمَعَتْ كلمة المسلمين، واتّسَقَ أمرهم، وَأْتَلَفَتْ أهواؤهم على الرضا بولاية موسى بن المهدىّ محمد أمير المؤمنين، وعرَفْت الحظَّ فى ذلك علىَّ، والحظَّ فيه لى، ودخلتُ فيما دخل فيه المسلمون من الرضا بموسى ابن أمير المؤمنين، والبَيعةِ له، والخروج مما كان لِى فى رقابهم من البَيعة، وجعلتكم فى حِلٍّ من ذلك، وَسَعةٍ من غير حَرَج يَدْخُل عليكم، أو على أحد من جماعتكم وعامّة المسلمين، وليس فى شىء من ذلك قديمٍ وَلاَ حَدِيثٍ لى دَعْوَى ولا طِلْبةٌ[1] ولا حُجة ولا مقالة ولا طاعة على أحد منكم ولا على عامة المسلمين ولا بَيعة، فى حياة المهدى محمد أمير المؤمنين، ولا بعده، ولا بعد ولىّ عهد المسلمين موسى، ولا ما كنتُ حيًّا حتى أموت، وقد بايعتُ لمحمد المهدى أمير المؤمنين، ولموسى ابن أمير المؤمنين مِنْ بعده، وجعلتُ لهما ولعامّة المسلمين من أهل خراسان وغيرهم الوفاء بما شرطتُ

(١) الطلبة بالكسر : الطلب، والطلبة بفتح فكسر : ماطلبته .

علىٰ نفسى فى هذا الأمر الذى خرجتُ منهُ ، والتَمام َ[١] عليه ، علىّ بذلك عهدُ اللهِ وما اعتقَدَ أحدٌ من خَلْقه مِن عهدٍ أو ميثاق أو تغليظ أو تأكيد ، على السَّمْع والطاعة والنصيحة للمهدى محمد أمير المؤمنين ، وولىّ عهدِه موسى ابن أمير المؤمنين ، فى السرِّ والعَلانية ، والقول والفعل والنية ، والشِّدة والرخاء ، والسَّرّاء والضَّرّاء ، والموالاةِ لهما ولمن والاهما ، والمُعاداةِ لمن عاداهما ، كائنا من كان ، فى هذا الأمر الذى خرجتُ منهُ ، فإن أنا نَكَبْتُ[٢] أو غيَّرتُ أو بَدَّلت أو دَغَلت[٣] أو نويتُ غيرَ ما أعطيتُ عليه هذه الأيْمانَ ، أو دعوتُ إلى خِلافِ شىء مما حملتُ على نفسى فى هذا الكتاب، للمهدى محمد أمير المؤمنين ، ولولىّ عهده موسى ابن أمير المؤمنين ولعامَّة المسلمين ، أولم أفِ بذلك ، فكلُّ زوجة عندى يومَ كتبتُ هذا الكتاب أو أتزوجها إلى ثلاثين سنةً طالقٌ ثلاثا ألبَتَّةَ[٤] طلاقَ الحَرَج[٥] ، وكل مملوك عندى اليومَ أو أملِكه إلى ثلاثين سنةً أحرارٌ لوجه الله ، وكل مالٍ لى نَقْدٍ أو عَرْض[٦] أو قَرْض أو

---

(١) تم على الأمر وتَم عليه بالتحريك : أى استمر عليه .

(٢) نكب عنه كنصر وفرح : عدل .

(٣) دغل فى الشىء كمنع : دخل فيه دخول المريب ، وأدغل فيه : أدخل فيه مايخالفه ويفسده ، والمعنى على كليهما مستقيم .

(٤) يقال : لاأفعله بتة بالنصب ، ولا أفعله ألبتة ، لكل أمر لارجعة فيه ، ونصبه على المصدر ، من البت : وهو القطع المستأصل ، وطلقها ثلاثا بتة وبتاتا وألبتة : أى قطعا لاعود فيها ، قال شارح القاموس : « ألبتة ، بقطع الهمزة كما فى نسختنا ، وضبط فى الصحاح بوصلها » وفى شرح التصريح (١ : ٣٣٣ ـ باب المفعول المطلق) : « وفى اللباب : لم يسمع فى البتة إلا قطع الهمزة ، والقياس وصلها » .

(٥) أى طلاق التحريم ، يقال : حرجت الصلاة على المرأة (كفرح) حرجا بالتحريك : أى حرمت وهو من الضيق ، لأن الشىء إذا حرم فقد ضاق ، وحرج علىّ ظلمك حرجا أى حرم ، ويقال : أحرج امرأته بطلقة أى حرّمها .

(٦) العرض : المتاع ، وكل شىء عرض إلا الدراهم والدنانير فإنها عين .

أرض ، أو قليل أو كثير ، تالدٍ أو طارفٍ[١] ، أو أستفيده فيما بعد اليوم إلى ثلاثين سنة ، صدقةٌ على المساكين يضع ذلك الوالي حيث يَرَى ، وعليَّ من مدينة السلام[٢] المشيُ حافيا إلى بيت الله العَتيق الذى بمكّةَ ، نَذْرا واجبا ثلاثين سنةً لا كفّارة لى ولا مَخْرَج منه إلا الوفاء به ، والله على الوفاء بذلك راعٍ كفيلٌ شهيدٌ ، وكفى بالله شهيدا » .

وشَهِد على عيسى بن موسى بإقرَارِه بما فى هذا الشرْط أرْبعمائة وثلاثون من بنى هاشم ، ومن المَوالى والصحابة من قرَيش والوزراء والكتاب والقضاة .

وكتب فى صفر سنة ١٦٠ هـ ، وختم عيسى بن موسى .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣٣٣)

١٠٤ — كتاب المهدى إلى روح بن حاتم

وفى سنة ١٦٧ هـ تُوُفِّى عيسى بن موسى بالكوفة ، ووالى الكوفة يومئذ رَوْحُ بن حاتم ، فحضر جنازته فقيل له : تقدَّمْ فأنت الأمير ، فقال : ما كان الله ليَرَى رَوحا يصلى على عيسى بن موسى ، فليتقدَّمْ أكبرُ ولده ، فأبَوا عليه ، وأبى عليهم ، فتقدم العباس بن عيسى فصلّى على أبيه .

وبلغ ذلك المهدىَّ فغضِب على روح وكتب إليه :

(١) التالد والتليد والتلاد (بالكسر) والمتلد (بضم فسكون ففتح) : المال القديم الأصلى الذى ولد عنك ، والطارف والطريف : المال المستحدث .

(٢) هى بغداد ، بناها المنصور وانتقل إليها من الهاشمية (وهى مدينة كان قد اختطها أخوه السفاح قرب الكوفة). وشرع فى عمارتها سنة ١٤٥ ونزلها سنة ١٤٩ فكانت قاعدة الدولة العباسية .

« قد بلغني ما كان من نُكُوصِك [1] عن الصلاة على عيسى ، أبنفسِك ، أم بأبيك ، أم بجدِّك ، كنت تصلِّي عليه ؟ أَوَليس إنما ذلك مقامي لو حضرتُ ؟ فإذْ غبتُ كنتَ أنت أولَى به ، لِمَوْضِعك من السلطان »

فأمر بمحاسبته ، وكان يَلِي الخَراج مع الصلاة والأحداث .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٩)

١٠٥ — كتاب أبي عبيد الله إلى المهدى

وكتب إلى المهديّ وزيرُه أبو عُبَيد الله [2] وقد عَزَله عن ديوان الرسائل سنة (١٦٧) هـ ، وولَّاه الربيعَ :

« لم يُنْكِر أميرالمؤمنين حالى فى قُرْب المُؤانسة ، وخُصوص الخِلْطَة [3] ، من حالى عنده قبل ذلك فى قيامى بواجب خدمته التى أدْنَتْنى من نعمته ، ووَطَّدَت [4] لِقَدَمى من كرامته ، فلِمَ أُبَدَّلُ — أعزّ الله أميرَ المؤمنين — حالَ التبعيد ؟ وأُقرَّب فى محل الإقصاء ، وما يعلم الله منى فيما قلتُ إلاَّ ما عَلِمه

---

(١) نكص عن الأمر: أحجم .

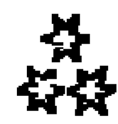
(٢) هو أبوعبيد الله معاوية بن يسار من موالى الأشعريين ، كان كاتب المهدى ونائبه قبل الخلافة ، ضمه المنصور إليه، وكان قد عزم على أن يستوزره ، لكنه آثر به ابنه المهدى ، فكان غالبا على أمور المهدى لا يعصى له قولا ، وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ويأمره بامتثال مايشير به ، فلما ولى المهدى الخلافة فوض إليه تدبير المملكة ، وسلم إليه الدواوين ، وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقا وعلما وخبرة ، ومات سنة ١٧٠ هـ » .

وكان الربيع بن يونس يحقد عليه، فجهد أن ينال منه، وسعى بابنه إلى المهدى، واتهمه بالزندقة فقتله المهدى — انظر أخباره فى تاريخ الطبرى ٩ : ٣٣٩ و ١٠ : ٩ والفخرى ص ١٦٣ .

(٣) الخلطة بالكسر : العشرة .

(٤) وطد الشىء كوعد ووطده : ثبته .

أمير المؤمنين ، فإن رأى ـ أكرمه الله ـ أن يعارض قولى بعلمه بدءًا وعاقبةً ، فعَلَ إن شاء الله »



فلما قرأ كتابه شهد بتصديقه قلبُه ، فقال : ظلَمْنا أبا عبيد الله فليردّ إلى حاله ، ويعلم ما تجدّد له من حسن رأيى فيه . (زهر الآداب ١ : ٢٤٣)

١٠٦ — تحميد لأبى عبيد الله

« الحمد لله الذى شرَع ـ لإظهار حقّه ، وإنفاذِ سابقِ قضائه فيمن ذرأ وبرأ [١] من عباده . بإدخال مَن أراد أن يُدْخِلَ فى رحمته ، وإنجازِ ما حقّ له من العبادة على خَلْقه ، بابتدائه خَلْقَهم ، ومُظاهرتِه الآلاءَ [٢] عليهم ، وإحسانِه البلاءَ عندهم ، وإبلاغِه فى الحجج إلى عامّتهم ـ دِيناً رَضِيَه لنفسه وملائكتِه الذين أسْكَنَ سَمواتِه ورسُلِه فأتمّه على وجهٍ لم يَرْضَ إلاّ به [٣] ، ولم يقبَلْ إلا إياه ، ثم كان ما أعَزَّ به نفسَه ، وأظْهَرَ به نورَه ، وأراد أن يَبلُوَ [٤] به عبادَه ، تحقيقاً لِما سبَقَ به علمُه ، وإنفاذاً لِما جرَتْ به مقاديرُه ، أنْ بَعَثَ لِما شرَع من دينه ، واصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقرَّبين ، مَن ارتضَى واختار من أنبيائه ورُسُلِه المُجْتَبَيْن [٥] لتبليغ رسالته

(١) ذرأ الله الخلق وبرأهم — كجعل فيهما — خلقهم .
(٢) الآلاء : النعم ، ومظاهرتها : مضاعفتها ، والبلاء : النعمة أيضا .
(٣) فى الأصل « فأتمن على وجه من لم يرض إلا به » وهو تحريف .
(٤) بلاه يبلوه : اختبره . (٥) اجتباه : اختاره .

وإظهارِ حقه ، واستشلاءِ [1] من أراد سعادتَه مِن خَلْقِه بالرحمة التي اطَّلَعَتْ عليهم وَعمَّتْهم ، ليُعبَد مُخلَصًا له ، محمودا بما استَحْمَدَ به إلى خَلْقه ، مشهودا له بما أَشْهَدَ به من كلمة الحق ، فكان منهم التبليغُ لِما ارسِلوا به ، والنصيحة لمن أُرْسِلوا إليه ، غيرَ مختلفين فيما بُعِثوا له ، ولا متفرِّقين فيما استُعْمِلوا فيه ، يدعوهم آخِرُهم إلى ما دعاهم إليه أولُ ، فيصدِّق بذلك بعضُهم بعضا ، ويهدون إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فمضَتْ رسلُ الله وأنبياؤه على ذلك ، سالكين مِنْهاج الحق وَسبيلَه ، والدّعاءِ إلى الله عز وجل وَإلى طاعته ، هادِين مهديِّين ، غيرَ مَبْخُوسين شيئا مما كانوا أهلَه في المنزلة عند الله ، والقُربة منه ، والوسيلةِ إليه ، هم ومن آمَن بهم وعزَّرَهم [2] واتّبع النور الذى أُنْزِل معهم ، حتى تقضَّتْ بهم الأعمارُ ، وتقطَّعَتْ بهم الآثار ، وتخرَّمتْهم [3] الآجالُ » (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٧)

١٠٧ — تحميد لأبي عبيد الله

« الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمةً قَدَّمها لعباده قبل خَلْقِه إياهم ، واستيجابِهم إياها منه ، فاصطفاه لنفسه وشَرَعَه لهم دينا يَدِينون به ، ثم جعل تجديدَ وَحْيِه ومُتابعة رسله رحمةً تَلافاهم بها بعد تقديمها ، ومِنَّةً ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها ، تطوُّلاً على العباد بالنَّعماء ، وإعذارا إليهم بالحجج ، وتقدِمَةً بالوعد ، وإنذاراً إليهم عواقبَ سُخْطه في المَعاد .

---

(١) الاستشلاء : الاستنقاذ من الهلكة . (٢) التعزير : التفخيم والتعظيم .
(٣) تخرمته المنية واخترمته : أخذته واقتطعته .

والحمد لله الذى ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهُداه وشرائع حقه ، على فَترة من الرسل ، وطُمُوس من مَعَالِم الحق ، ودُرُوسٍ[١] من سُبُل الهدى ، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه ومقاديره أن يجتبِيَ لدينه الأصفياء ، ويختار له الأولياء ، الظاهِرين بحقه ، القاهرين لمن ابتغى سبيلا غير سبيله ، فعظَّم حُرْمَتَه ، ووسَّع حَوْزَتَه ، وصَدَعَ[٢] بأمره ، وجاهَدَ عن حقه فى حَوْماتِ الضلالة وظُلُمات الكفر ، بالحق المبين ، والسِّراج المنير ، ثم جعله مصدّقا لمن سَبَقَه من الرسل ، ومجدّدا لما بُعثوا له وهُدًى ورحمة ، ثم جعل لدينه وظائفَ وظَّفها على أهله ، وشرائعَ شَرَعها لهم ، لا يكمُلُ دينهم إلا بها ، وجعل أداءها إليه ، واعتصامَهم بها ، إماما لدينه ، ونِظاما لنوره ، وقِواماً لحقه ، واستيجابا لما وَعَد عليه من ثوابه ، وأَمْناً لما أوعَدَ مَن خالَفَه من عقابه ، فليس يَسَعُ أهلَ الإيمان بالله الذين أكرمهم به ، وأجزَلَ لهم فضلَه وأجْره ، وجعل لهم عِزَّه وعُلوَّه ، واختار لهم الغَلَبة والعاقبة على مَن فارقهم فيه ، إلا معرفتُها وأداؤها بما يُستكمَل به حدودُها ، ومما لها من كذا وكذا »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٨)

١٠٨ — تحميد لأبى عبيد الله

« أما بعدُ ، فالحمد لله ذى الآلاء والقدرة ، والطَّوْل والعِزَّة ، الذى اصطفى الإسلام دينا لنفسه وملائكتِه وأنبيائه وَمَن كرُم عليه من خلقه ، فبعث به محمداً صلى الله عليه وسلم اختصاصاً له فى ذلك بكَراماته ، واصطفاء له

---

(١) أى امحاء . (٢) أى جهر .

به على عباده، فأعزَّه ومَنَعه، وكفاه وحَاطَه، وتوكَّل لأهله بالعلم والتمكين، والظهورِ والتأييد، فلم يُلْحِد فيه مُلْحِد، ولم يَزِغْ عن قبول حقه زَائغٌ، بعد إعذار الله إليه، وإعادة الحُجَّة لله عليه، إلا أنزلَ به من الذُّل والصَّغار، والاجتياح والاستئصال، ما يجعل له فيه قَمْعاً[1]، حَمْداً كثيراً دائماً مُرْضِيا له، مُؤمِّنا من غِيَرِه[2]، مُوجِبا لأفضلِ مَزيد ثوَابه».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٤)

١٠٩ — تحميد لأبي عبيد الله

«والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بما أصارَ إليه من الخلافة، وإرْثِ النبوَّة، وجعله القائمَ بأمر عباده وبلاده، والمُحْيِيَ لسُنَنه، والذابَّ عن دينه وحقه، والمُناصِبَ لأهل الشِّرْكِ والجُحودِ به، ثم نَصَره وأظهرَ فضلَ أيامه ودولته، ومكَّن له في بلاد عدوِّه، وجعل كلِمَته العُليا، وأنصارَه الغالبين، ومَن ناوَأه[3] من أهل الخلافِ الأذلِّين المقهورين، وعرَّفَه من نعمته في ذلك ومنَّته وجميل صُنْعه وعاداته، أحسنَ ما عوَّد أحداً من أوليائه الذابِّين عن الإسلام وأهلِه، حَمْداً متتابِعا لا انقطاعَ له ولا انصرامَ دون بلوغ حقه، وقد كان كذا وكذا» (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٩)

---

(١) الصغار : الذل . واجتاحه : أهلكه واستأصله . وقمعه كمنعه : قهره وذلله .
(٢) أي من نقمته . وغير الدهر : أحداثه المغيرة .
(٣) ناوأه : عاداه .

١١٠ — تحميد لأبى عبيد الله فى آخر كتاب

« فالحمد لله على ما يُحْدث لأمير المؤمنين فى دولته وسلطانه ، ولِعَامَّة المسلمين من صُنْعه وكراماته ، فى جسيم الأمور ولطيفها ، وخاصِّها وعامِّها ، بما يجعله للنعمة تماما ، وعلى ما يُحِلُّ بعدوّه من بأسه وقَوارعه[1] ، ويُوقع بهم من جوائحه واستئصاله ، ما يكون لموعوده إنجازا ، حَمْدا يبلُغُ رِضاه ، ويُستوجَب به مزيدُه » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٥)

١١١ — كتاب إبراهيم بن أبى يحيى الأسلمى إلى المهدى

« وكتب إبراهيم بن أبى يحيى الأسْلَمِىّ إلى المهدى يعزّيه على ابنته[2] :

«أما بعدُ : فإنّ أَحَقّ مَن عَرَف حقّ الله عليه فيما أَخَذَ منهُ ، مَن عظَّم حقّ الله عليه فيما أبْقَى له . واعلم يا أمير المؤمنين أنَّ الماضِىَ قَبْلَك هو الباقى لك ، وأن الباقىَ بعدكَ هو المأجور فيك ، وأنَّ أجْرَ الصابرين فيما يُصابُون به ، أعظمُ من النِّعمَة عليهم فيما يُعافَوْنَ منه »

(البيان والتبيين ٢ : ٣٦ والعقد الفريد ٢ : ٣٥ واختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٦)

---

(١) القارعة : الداهية الفاجئة .

(٢) هى ابنته البانوقة ، وقد أظهر عليها المهدى جزعا لم يسمع بمثله ، فجلس للناس يعزونه ، وأمر ألا يحجب عنه أحد ، فأكثر الناس فى التعازى ، واجتهدوا فى البلاغة — تاريخ الطبرى ١٠ : ٢١ .

١١٢ — جواب تعزية لشبيب بن شيبة[١]

« قد نالتني عِظَتُك بما عزَّيتَ به[٢] ، فجزاك الله أفضلَ الجزاء ، فمِثلُك أهْدَى النُّصح ، وتوكَّلَ بالتذكر ، وقضَى واجبَ الحق عليه في الإرشاد ».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٣)

١١٣ — كتاب في البيعة لمحمد بن حجر[٣]

« أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين بمنّ الله ونعمته عليه وحسن بدئه وبَلائِه[٤] عنده ، لم يزل مُذْ حَمَّله رعاية هذه الأمة ، وقلَّده حَريمَهم[٥] ، يفعل كذا .

وقد كان من حادثِ نعمة الله على هذه الأمة في حِينه هذا وزمانه ، أنْ أخرجَ لهم من ذرّية أمير المؤمنين ذريةً مباركةً طيبةً ، حَذَاهم على مِثاله ، وحَلاَّهم بحِلْيته ، وجعل فيهم وليَّ عهده ، فلمَّ بهم أمورهم ، وسَدَّ بهم ثغورهم ، ثم أحدثُ نعمِه عليهم ما أَلَّفَ بين قلوبهم ، وأفشى ذِكرَه في خاصّتهم وعامتهم ، وسَمَتْ نحوَه أبصارُهم ، من البيعة لهرون ابن أمير المؤمنين ، وما أمَّلُوا في ذلك ورجَوْا ، من أُلْفتهم في دينهم ، والبلوغ لأفضلِ أملهم ، ولم

---

(١) هو شبيب بن شيبة بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم المنقرى التميمى ، خطيب عباسى بليغ ، توفى سنة ١٧٠ هـ .

(٢) فى الأصل « قد نالتني عظتك بما عزيت به أو تعزيتك » والعبارة غير مستقيمة .

(٣) هو محمد بن حجر بن سليمان ، كاتب العباس بن محمد أخى المنصور ، وهو كاتب بليغ مترسل — انظر الفهرست ص ١٧٢ ، ص ١٨١ — .

(٤) أى نعمته . (٥) الحريم : ماتحميه وتقاتل عنه .

يكن الله ليختارَ للقيام بأمر هذه الأمة ، والذّبِّ عن دينها إلا مِن بيتِ نبيّه صلى الله عليه وسلم وخيرته وصَفْوته مُضْطَلِعاً [١] فى رأيه ، كاملا فى فضله ، سائِساً قويًّا على طاعته ، ولو أن الرعية عَدَلَتْ بأبصارها عنه ، أو قَصَدَتْ بأهوائها دونه ، لَحَقَهَا اللهُ ، [إذ أفاض عليها بِبَرَكته ويُمْنِه ، من الخير والصلاح [٢]] ما أصبحَتْ تتقلَّبُ فيه من نعمته ، وتتسرْبَلُه من كرامته ، كما قد عَرَّفهم وأراهم من حسن ثوابه على صدق نياتهم فيه ، وعظيم رجائهم له ، وقد أتتنا بيعةُ هٰرون على حين ظَمَأ إليها ، وتطلُّعٍ نحوها ، فتبادَرَتْها أكُفُّنا ، وأسرعَ إليها شاهِدُنا وغائبنا ، وبايَعْنا بيعةَ رِضوانٍ من الله ، بصِحَّةٍ من نيَّاتنا ، وسلامةٍ من صدورنا ، مستبشرين ببيعتنا ، راغبين فيما صَفَقَت [٣] عليه أيمانُنا ، عارفين بأنها مَفتَحُ نعْمة ، ومقدِّمة فضيلة ، ودرجة فى الخير رفيعة ، مقدِّمين للسرور بها نُصْحَ الجيوب [٤] ، باذلين للرجاء فيها ثمارَ القلوب ، فنسأل الله أن يفعَل الذى . . . . . . [٥] »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٤٠)

---

(١) أى قويا .

(٢) فى الأصل « لحقها الله صالح ماأصبحت تتقلب ... » والعبارة كما ترى مضطربة ، وقد زدت مابين القوسين ليستقيم المعنى .

(٣) صفق يده بالبيعة والبيع كضرب وعلى يده : ضرب يده على يده ، وذلك عند وجوب البيع

(٤) جيب القميص : طوقه ، وهو ناصح الجيب : أى القلب والصدر .

(٥) كذا فى الأصل .

١١٤ — رسالة ابن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكى

وكتب ابن سَيَابَة[(١)] إلى يحيى[(٢)] بن خالد بن بَرْمَك :

« لِلأَصْيَدِ[(٣)] الجَوَادِ ، الوَارِى الزِّنادِ ، الماجدِ الأجداد ، الوزير الفاضل ، الأَشَمِّ[(٤)] الباذل ، اللُّبَابِ الحُلَاحِلِ[(٥)] ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير ، فإنى أحمد اللهَ ذا العِزة القدير ، إليك وإلى الصغير

(١) هو إبراهيم بن سيابة مولى بنى هاشم ، وهو من مقاربى شعراء وقته ، وليست له نباهة ولا شعر شريف ، وإنما كان يميل بمودته ومدحه إلى إبراهيم الموصلى وابنه إسحق فغنيا فى شعره ورفعا منه — انظر ترجمته فى الأغانى ١١ : ٥ .

(٢) هو يحيى بن خالد بن برمك وزير الرشيد ، كان جده برمك من مجوس بلخ ، وكان يخدم « النوبهار » وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران ، وكان برمك عظيم المقدار عندهم ، فلما فتح المسلمون بلخ أسلم ابنه خالد فيمن أسلم من أهلها ، وساد وتقدم فى الدولة العباسية ، واستوزره السفاح بعد وزيره أبى سلمة الخلال ، ولما تولى المنصور الخلافة أقره على وزارته فبقى سنة وشهورا ، وولد له ابنه يحيى ، وكان من النبل والعقل وجميع الخلال على أكمل حال ، فضم إليه المهدى ولده الرشيد وجعله فى حجره ، ثم صار يحيى كاتب الرشيد ونائبه ووزيره قبل أن يتولى الخلافة ، وكان الهادى أراد أن يجعل الخلافة فى ابنه جعفر ، ويخلع أخاه الرشيد ، وسعى إلى الهادى بيحيى بن خالد ، وقيل له : إنه ليس عليك من الرشيد خلاف ، وإنما يفسده يحيى ، فأغضب ذلك الهادى على يحيى وأمر بحبسه ، فلما كانت الليلة التى توفى فيها الهادى (من سنة ١٧٠ هـ) قعد الرشيد للخلافة فدعا يحيى من محبسه — وكان الهادى قد عزم على قتله وقتل الرشيد فى تلك الليلة — وقال له : يا أبت ، أنت أجلسني فى هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الأمر ، ودفع له خاتمه ، فتولى الوزارة ونهض بأعباء الدولة أتم نهوض ، وكان كاتبا بليغا لبيبا سديد الآراء حسن التدبير ، ثم أقاله واستوزر ابنه الفضل ، ثم أقال الفضل واستوزر أخاه جعفرا ، إلى أن نكب البرامكة فغضب عليه وحبسه (سنة ١٨٧) وخلده فى الحبس حتى مات فيه (سنة ١٩٠) — انظر وفيات الأعيان ٢ : ٢٤٣ وتاريخ الطبرى ١٠ : ص ٣٤ ؟ ص ٤٨ والفخرى ص ١٣٩ ؟ ص ١٧٩ ومروج الذهب ٢ : ٢٦٣ .

(٣) الأصيد : الذى يرفع رأسه كبرا ، ومنه قيل الملك أصيد لأنه لا يلتفت من زهوه يمينا ولا شمالا ، والزناد جمع زند بالفتح : وهو العود الذى يقدح به النار ، وورى الزند كوعى وولى : خرجت ناره ، وفلان وارى الزناد : كناية عن مضاء العزيمة .

(٤) الأشم : السيد ذو الأنفة .

(٥) لباب كل شىء : خياره ، والحلاحل : السيد الشجاع ، أو الضخم الكثير المروءة ، أو الرزين فى ثخانة ، والمستكين : الخاضع .

والكبير ، بالرحمة العامّة ، والبركة التامة .

أما بعدُ ، فاغنَم واسْلَم ، واعلَمْ — إن كنت تعلَم — أنه من يَرْحَم يُرْحَم ، ومن يَحْرِم يُحْرَم ، ومن يُحسن يَغْنَم ، ومن يصنع المعروف لا يَعْدَم[1] ، وقد سبقَ إلىَّ تغضُّبك على ، واطِّراحُك لى ، وغفلتك عنى ، بما لا أقوم له ولا أقعد ، ولا أنتبِه ولا أَرقُد ، فلستُ بحىٍّ صحيح ، ولا بميتٍ مستريح ، فَرَرْتُ بعد الله منك إليك ، وتحمَّلت بك عليك ، ولذلك قلت :

أسرَعَتْ بى حَثًّا إليك خِطائى ... فأناخَتْ بَمَذْهَبٍ ذى رَجاءِ[2]

راغِبٌ راهِبٌ إليك يُرَجِّى ... منك عَفْوًا عنه وفَضْلَ عطاءِ

ولَعَمْرِى ما مَنْ أصرَّ ومن تا ... ب مُقِرًّا من ذنبه بِسواءِ

فإن رأيتَ — أراكَ الله ما تحبُّ ، وأبقاكَ فى خير — أن لا تزهَدَ فيما ترى من تضرُّعى وتخشُّعى ، وتذلُّلِى وتضعُّفِى ، فإن ذلك ليس منى بنَحِيزةٍ[3] ولا طبيعة ، ولا على وجه تصنُّع ولا تخدُّع ، ولكنه تذلُّلٌ ، وتخشُّع ، وتضرُّع ، من غير ضارِعٍ[4] ولا مَهِين ولا خاشِع لمن لا يستحق ذلك ، إلاّ لِمَن التضرُّعُ له عِزٌّ ورفعة وشرف » . (البيان والتبيين ٣ : ١١٠)

١١٥ — بين ابن سيابة وصديق له

وكتب إبراهيم بن سَيَابَةَ إلى صديق له يساويه فى الأدب ، ويرتفع

---

(١) أخذه من قول الحطيئة :

من يفعل الخير لم يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

(٢) الخطوة بالفتح : المرة الواحدة من الخطو ، والجمع خطوات بالتحريك وخطاء بالكسر .

(٣) النحيزة : الطبيعة . (٤) الضارع : الذليل ، والمهين : الحقير .

عليه فى الحال ، وكان كثيرَ المال ، كثير الصامت ، يستسلِفُ منه بعض ما يرتفِقُ به إلى أن يأتيه بعضُ ما يؤمِّل ، فكتب إليه صديقه هذا يعتذر ويقول : « إن المال مكذوب له وعليه ، والناس يُضيفون إلى الناس فى هذا الباب ماليس عندهم ، وأنا اليوم مُضِيق(١) ، وليست الحال كما نحبّ ، وأحقُّ مَن عَذَر الصديقَ العاقلُ » فلما وَرد كتابه على ابن سيابة كتب إليه : إن كنتَ كاذبا فجعلك الله صادقا ، وإن كنت مَلُوما فجعلك الله معذورا »

(البخلاء ص ١٧٩ ، والأغانى ١١ : ٦)

١١٦ — كتاب جعفر بن محمد بن الأشعث الى يحيي بن خالد

وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحي بن خالد يستعفيه من عمل :

« شُكْرِى لك على ما أسألك الخروجَ منه ، شكرُ مَن نال الدخولَ فيه ، فأمّا عُذرى فى تطويلِ الكتاب إليك فلم يذهب ، على أن وجوهَ الحوائج قد يكثُر الكلامُ فيها ، وتشتد قراءتُها ، وإن من الحق على الراغب الاكتفاء ببعض ما بلغ ، وَإن نفسى جاشَتْ بعظيم حاجتها » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨١ ، وكتاب الصناعتين ص ٣٢٧)

١١٧ — كتاب آخر

وكتب جعفر إليه أيضاً :

« إنما حمَّلت فلانا حاجتى ، لأنه ضَعُفَ عن حَمْل أياديك شكرى ،

---

(١) أضاق الرجل فهو مضيق : إذا ضاق عليه معاشه .

فجعلتُه شاهِداً على فضلك عندي . وقَيِّمًا بشكري لك وحدي » .
(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤)

١١٨ — كتاب آخر

وكتب جعفر إلى رجل لم يكاتبه :

« لستُ بما صرفتَ إليَّ من معروفك ، بأسَرَّ مني بما أهديتَ إليَّ من قضاء الحق عنك ، وقلة ذوي الحُرْمة بك ، لأنك قد تصل من لا يثق ولا يأنس إلا بمن يعتمد عليه » . (المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٧)

١١٩ — كتاب يوسف بن القاسم الى يحيى بن خالد

وزوَّج يوسفُ بن القاسم ابنَه أحمدَ بابنةِ الحسن بن سليمان — ويعرف بالشِّيعي — وكان من كُتَّاب البرامكة ، فكتب إلى يحيى بن خالد :

« عرَضَتْ حاجةٌ فكرِهْتُ أنْ أعدِل بها عن الوزير ، فأبْخَسَه[1] — مع معرفتي بمحبته لِرَبِّ[2] نعمتِه ، والزيادةِ في صنيعته — حَظًّا ، ولزِمَني حقٌّ لا يمكن دفعُه ولا تأخيرُه ، وهو نَقْدُ مَهْرٍ عن « أحمد » إلى ابنة الحسن بن سليمان ، فإن رأى الوزيرُ أن يوقِّع مع ما استحققْتُه من أرزاقي بشهرين ، سَلَفًا لشهرين ، فعَلَ ، فإني أرجو أن أبلُغَ بذلك لعبَده « أحمدَ » محبَّتَه ، وأنال بُغيتَه إن شاء الله » .

---

(١) أي أنقصه . (٢) رب النعمة : تنميتها وزيادتها وإتمامها وإصلاحها .

١٢٠ — رد يحي عليه

فوقّع يحي إليه :

« هذه فضيلةٌ فى أوليائنا ، وحقوق فى ضيافتنا ، فنحن بالقيام منها دونَك حَرِيُّون ، وبِحَظّ تقلِها عن مالك جَديرون ، وقد أمرتُ لأحمدَ بما سألتَ من المال ، بمسألتك فيه ، وزيادةِ الضعف ، استظهاراً منى له ومؤكدا ، وأمرتُ باستحقاقك لشهرين من مال السلطان ـ أعزه اللهُ ـ ومثله صلةً من مالى ، وأنفذْتُ إليك بذلك كلّه رِقاعاً بخَطّى إلى مَن تقْبض ذلك منه ، فأما السَّلَف من مال السلطان فلا سبيل إليه ، ولا أعرِفُ « جعفرا » بتارك « أحمَدَ » إليك ولا إلينا، كما لم يترك « الفضلُ » « قاسماً (١) » إن شاء الله »

وفى أسفل الرقعة من شعر يحي :

عِنْدِى لمثلك إحسانٌ وتكرِمَةٌ فثِقْ بذلك منى وابسُطِ الأَمَلاَ
اعمَلْ على ثقةٍ ، إنى أنا رَجُـــلٌ لا أمنَعُ المرءَ موجوداً إذا سألا
وإن عندى لك الحُسْنَى ونافلة (٢) بنُصْحِ غَيْبِك إذ لم تبْغِ بى بَدَلا

١٢١ — رد يوسف بن القاسم عليه

فكتب إليه يوسف بن القاسم :

---

(١) يعنى القاسم بن يوسف أخا أحمد بن يوسف ، وقد أمر له الفضل بن يحيى لما بلغه خبر أبيه يوسف وأخيه أحمد ، بثلاثين ألف درهم ، ولقيه معاوية بن صالح فقال له : فما عزمت أن تعمل فيها قال : أرفد بها أخى أحمد فى عرسه ، قال معاوية : وإن أخذها كلها ؟ قال : وإن أخذها كلها فلا بأس . (٢) النافلة : العطية .

فهمتُ ما قلتَ فى بِرِّى ومنزلتى ونُصْحِ غيبِى و بَسْطِى نحوكَ الأَمَلا
ولم أَزَلْ منك من أمرى على ثقةٍ لا أَبتغِى بك ممن قد تَرَى بَدَلاَ
بصِدقِ وعدِكَ إذ أسلفْتَ عارفةً[1] وحسنِ عفوِكَ عمن زاغ أو جهلاَ
فِىَّ و بِابْنَىَ وَسْمٌ[2] فى محبتِكم كما تَعَرَّفْتَ مِن نيرانها الإبِلاَ
فقد بسَطتم لنا جاها بجاهِكمُ وقد كُفيتم ببذل العُرْفِ مَن بَخِلا
لولا كمُ كان جُود الناس مشتبِهاً لـكن بَرَعْتم فأضحى جُودكم مَثَلا

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٥٦)

١٢٢ — كتاب يوسف بن القاسم إلى محمد بن زياد الحارثى

وكتب يوسف بن القاسم إلى محمد بن زياد الحارثى :

« حَفِظك الله وحاطَك ، رأيتك — أكرمك الله — فى خَرْجَتك هذه رغِبْتَ عن مواصلتنا بكُتُبك ، وإبلاغنا خَبرَك ، وقطعْتَنا قطعَ ذى السَّلْوَة ، أوأخِى المَلَّة[3] ، حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقا ، وإلى البُعد منا توّاقا ، فوقَع بُعْدُك بحيثُ تحبُّ من جهتين : إحداهما حلاوةُ الولاية ، والأخرى لَذّةُ الراحة منا ، فإن يكن ذلك كما رجَّيْناه ، قاطعناك مُجملِين ، أو لَبِسْناك[4] على يقين ، وإن لم يكن إدلالاً بهدية أعددتها لنا من ناحية عملك ، فليس قدر الهدايا وإن كثُرت ، ولا الفوائد وإن جلَّت ، احتمالَ لَوْم الإخوان

---

(١) العارفة : المعروف .

(٢) الوسم : العلامة — أثر الكىّ — وقوله « كما تعرفت ... » أى كما تميز الإبل بسماتها وهى الآثار التى تحدث بكيها بالنار ، وفى الأصل « كما تفرقت » وهو تحريف .

(٣) ملته ومنه بالكسر مللا وملة وملالة وملالا : سئمته .

(٤) يقال : لبست قوما : أى تمليت بهم دهرا .

إذ كانت الهدايا تُراد لهم ، والفوائد إنما تنال بهم ، والمباهاة بأعراض الدنيا تراد لخِلْطتهم [١] ، وما أدرى ما أقول فى اختيارك تركَ الكتب المحدِّثة عن العَتْب بالأسرار المفهومة ، حتى كأنها محادثةُ الحُضور ، على تنائى الدُّور ، والقلوبُ بها مشاهِدة ، وإن كانت الأبدان متباعِدة ، ولئن كذب فيك الرجاء ، لقَدِيماً عزَّ الوفاء ، وقد أصبْتك من مرارة العتاب بمالا تُقيم بعده على قطيعة ولا جَفاء ، ولا تتوهَّمَنَّ أنى أردت إعْناتك [٢] بإعتابى ، ولا أَزْرِى [٣] عليك بكتابى ، فإن وصلتَ فمشكور ، وإن قطعتَ فمعذور ، والسلام » .

(كتاب الاوراق للصولى ١ : ١٥٢)

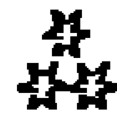
١٢٣ — بين يوسف بن القاسم ومحمد بن زياد

واقتضَى محمد بن زياد الحارثى يوسفَ بن القاسم حوائجَ له ، سأله عَرْضَه لها على الرشيد ، فقال له : إنى أنتظِرُ بها وقتا أرجو لك فيه رجوعَها بمَسَرَّتك دون مساءتك ، ثم كتب محمد بن زياد إليه فى ذلك ، وكان صديقا له مُدِلاًّ عليه ، فكان فى كتابه :

« ولولا أنك وَسَمْتَ حاجتى بالتأخير ، لَجَرَتْ مَجْرَى غيرها ، إماً بنجاح ، وإما بسَراح » .

---

(١) الخلطة بالكسر : العشرة .
(٢) أعنته : أدخل المشقة عليه ، وأعتبه : طلب إليه العتبى (بالضم) أى الرضا .
(٣) زرى عليه كرمى : عابه وعاتبه كأزرى لكنه قليل ، وفى الأصل « ولا أرزأ » وهو تحريف



فوقّع يوسف بن القاسم فى كتابه :

« صدقتَ وتعدَّيْتَ ، فأمَّا صِدْقُك ففى تأخيرى ، وأما تعدِّيك ففى عَذْلى عليه ، وإنما طلبتُ وقتاً أُصادِف منهُ فيه طِيبَ نفْس ، وطَلاَقَةَ وَجْه ، فيمكننى القول ـ قبلَ عَرْضِ الحاجة ـ فى تقريظك ، بما لعلَّه أن يُميلَ إليك قلبَه ، وَظننتَ أنى أخَّرْتُها توانياً فتعديتَ » .

وكتب بعدها .

إنى إذا ما صاحِـبِي تَعَدَّى ... فى اللوم والعذل علىَّ حَـدَّا
لم أُولِه بالعذلِ عذلاً قَصْدَا ... ولم أُبَقِّ فى احتمالٍ جُهْـدَا
فإن أَبَى إلا التعدِّى عَمْدَا ... أوسعتُه بالحِـلم منى صَدَّا
حتى يَرَى وجه اختيارى سدَّا ... ويَرجِـعَ الذم إلىَّ حَمْـدَا

ثم قضى حوائجه ، وكتب إليه :

« قد حقَّق الله رجاءنا فيما أملنا ، وأنجح طلبنا فيما ابتغَيْنا ، ، وخرج التوقيعُ بما أحببْنا ،والحمد لله على ذلك » .

وفى أسفل الرقعة :

الرِّفق يُمْنٌ وبعضُ الناس يحسِبهُ ... عجزا،وماالعجزُ إلاالخُرْقُ والعَجلُ
وَالخُرْقُ يُورِثُ رَيْثاً لا نجَاحَ له ... والرفقُ يحيا به للآمِلِ الأَمَلُ(١)

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٥٩)

---

(١) الريث : البطء .

١٢٤ — كتاب ليوسف بن القاسم عن الفضل بن يحيي

وكتب يوسف بن القاسم عن الفضل بن يحيي فى حاجة لرجل :

« فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكى لك بأمره ، لأن الصنيعة حُرْمة المصطنَع ، ووسيلتُه إلى مصطنِعه ، سيَّما عند من يُحْسِن الصنيعة ويستتمُّها مستثبِتا للشكر عليها ، والثناء الجميل بها ، بَسَطَ الله بالخير يديك ، وَوَصَلَ به أسبابك ، وأعانك عليه ، وجعلك من أهله » .

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٥٨)

١٢٥ — كتاب يحيي بن خالد إلى ابنه الفضل

وقال الرشيد ليحيي بن خالد البَرمكىّ : ياأبتِ [1] إنى أردت أن أجعل الخاتَم [2] الذى فى يد الفضل إلى جعفر ، وقد احتشمتُ من مكاتبته فى ذلك ، فاكْفِنيه ، فكتب إليه يحيي:

« قد أمَرَ أمير المؤمنين أعْلَى الله أمْرَه ـ أن يحوِّل الخاتَم من يَمينك إلى شمالك » .

---

(١) كان الرشيد يعظم يحيي بن خالد ، وكان يدعوه : ياأبت ، لتربيته إياه ويده عليه ، كما قدمنا ، ولأن ابنه الفضل كان أخاه من الرضاع ، ولذا كان الرشيد يدعوه : ياأخى ، وذلك أن الرشيد ولد أول المحرم سنة ١٤٩ هـ ، وولد الفضل بن يحيي قبله بسبعة أيام ، فجاءت أم الفضل ظئرا للرشيد ، فأرضعت الرشيد بلبان الفضل ، وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل بلبان الرشيد — انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٠٨ .

(٢) يكنى بذلك عن الوزارة ، وكان جعفر أبلغ فى الرسائل والكتابة من الفضل .

١٢٦ — رد الفضل عليه

فكتب إليه الفضل (١) :

« قد سمعتُ مقالة أمير المؤمنين فى أخى ، وقد أطعتُ أمْرَه ، وما انقَلَبَتْ عنى نعمةٌ صارت إليه ، ولا عَزَبت (٢) عنى رُتبةٌ طَلَعَت عليه » .

فقال جعفر (٣) :

« للهِ أخى ما أنْفَسَ نَفْسَه ! وأبْيَنَ دلائِلَ الفضل عليه ، وأقوى مُنَّةَ (٤) العقل فيه ، وأوسعَ فى البلاغة ذَرْعَه (٥) ، وأرْحَبَ بها جَنابَه ! يُوجِب على نفسه ما يجب له ، ويحمِل بكَرَمه فوق طاقته » .

(زهر الآداب ١ : ٣٣٣ ، ووفيات الأعيان ١ : ٤٠٩ ، والفخرى ص ١٨٦)

١٢٧ — كتاب يحي بن خالد إلى ابنه الفضل

ثم إن الرشيد قلَّد الفضلَ بن يحي خُراسان ، فتوجَّه إليها وأقام بها مُدَّةً وورد على الرشيد يوما كتابُ صاحب البريد بخراسان ـ ويحي بن خالد بين يديه ـ يذكر فيه أن الفضل بن يحي متشاغِل بالصيد وإدمان اللَّذات عن النظر فى أمور الرعية ، فلما قرأه الرشيد رمى به إلى يحي وقال له : يا أبت

---

(١) وزر للرشيد كما قدمنا ، وتوفى فى سجنه سنة ١٩٣ هـ — (فى السنة التى مات فيها الرشيد) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٤٠٨ والفخرى ص ١٨٣ .

(٢) عزب كدخل وجلس : بعد وغاب ، وفى رواية « ولا غربت » وغرب كنصر : بعد أيضا .

(٣) قتله الرشيد سنة ١٨٧ كما سيأتى ـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ١٠٥ والفخرى ص ١٨٦ . (٤) المنة : القوة .

(٥) أصل الذرع : بسط اليدين .

اقرأ هذا الكتاب ، واكتب إليه بما يَرْدَعُه عن مثل هذا ، فمدَّ يدهُ إلى دواة الرشيد ، وكتب إلى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد :

« حَفِظك الله يا بُنَيّ ، وأَمْتَعَ بك ، قد انتهى إلى أمير المؤمنين مما أنت عليه ، من التشاغُل بالصيد ومداومة اللذات ، عن النظر فى أمور الرعية ما أنكرَه ، فعاوِدْ ما هو أزينُ بك ، فإنه من عاد إلى ما يَزِينه أو يَشِينه لم يعرِفْه أهلُ دهره إلاَّ به والسلام » :

وكتب فى أسفله هذه الأبيات :

إنصَبْ نهاراً فى طِلاب العُلا ... واصبر على فقدِ لقاء الحبيبِ
حتى إذا الليلُ أتى مُقْبِلاً ... واستترَتْ فيه وجوهُ العُيوبِ
فكابِدِ الليلَ بما تشتهى ... فإنما الليلُ نهارُ الأَريبِ[1]
كم مِن فتًى تَحْسِبه ناسِكا ... يستقبلُ الليل بأمرٍ عجيب
أَرْخَى عليه الليلُ أستارَه ... فبات فى لهوٍ وعيش خَصيبِ
ولذَّةُ الأحمقِ مكشوفةٌ ... يَسْعَى بها كلُّ عدوٍ رقيب

والرشيد ينظر إلى ما يكتب ، فلما فرغ قال : أبلغْتَ يا أبتِ ، فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهاراً إلى أن انصرف من عمله .

(وفيات الأعيان ١ : ٤٠٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٨٢)

١٢٨ — كتاب أبى العباس بن جرير إلى الفضل بن يحيى

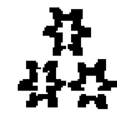
وكتب أبو العباس بن جَرير إلى الفضل بن يحيى :

---

(١) الأريب : العاقل .

« لا أعلم منزلةً تُوحِشني من الأمير ولا تُوحِشه منى ، لأنى فى المودّة له كنفسى ، وفى الطاعة كَيدِه ، وإنما أُطْفِه[1] مِن فَضله ، وقد بعثتُ بعضَ ما يحتاج إليه فى سفره » وذَكَرما بَعَثَ .

(زهر الآداب ٣ : ٣٤٣)



قال صاحب زهر الآداب :

وكتب غيره فى هذا المعنى :

« إذا كان اللَّطَفُ دَليلَ محبة ، ومِيسَم[2] قُربة ، كَفَى قليلُه عن كثيره ، وناب يسيرُه عن خَطيره ، لاسيما إذا كان المقصود ذا هِمَّة ، لا يستعظم نفيسا ، ولا يستصغر خَسيسا ، وقد حُزْتَ من هذه الصفة أجَلَّ فضائلها ، وأرفعَ منازلها » . (زهر الآداب ٣ : ٣٤٤)

١٢٩ — كتاب للفضل بن يحي

وكتب الفضل بن يحي إلى رجل يشاوره فى أمر حَدَث :

« ليس كل امرئ — وإن كان ذا عزيمةٍ فى رأيه ، وأَصالةٍ فى عقله — يستغنٍ عن مكاشَفَة أهلِ الرأى ، لتوزيع الله عز وجل أقسامَ الفضلِ فى خلقه ، وَإشراكه إياهم فى عطاياه فرأيك فى كذا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٧)

---

(١) ألطفه بكذا : أتحفه وبرّه به ، واللطف بالضم وبالتحريك : البر والتكرمة ، ويقال : جاءتنا لطفة من فلان بالتحريك أى هدية .

(٢) أى علامة — والميسم كما يكون اسما للآلة التى يوسم بها يكون اسما لأثر الوسم أيضا ، قال الشاعر :

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى   جعلت لهم فوق العرانين ميسما

أى أثر وسم .

١٣٠ — كتاب عمر بن مهران إلى الرشيد

وولَّى الرشيدُ جعفر بن يحيى مصر سنة ١٧٦ هـ ، فولَّاها عمرَ بن مِهْران ، وكان بها قوم قد اعتادوا المَطْلَ وكَسْر الخَراج ، فبدأ برجل منهم ، فلَوَاه [1] ، فقال : واللهِ لا تؤدى ما عليك من الخراج إلا فى بيت المال بمدينة السلام إن سلمتَ ، قال : فأنا أؤدِّى ، فقال : قد حلفتُ ولا أحْنَثُ ، فأشخصه مع رجلين من الجند ، وكتب إلى الرشيد :

« إنى دعوت بفلان بن فلان ، وطالبته بما عليه من الخراج فلَوانى واستنظرنى [2] فأنظرتُه ، ثم دعوتُه فدافع ومال إلى الإلطاط [3] ، فآليتُ ألاَّ يُؤَدِّيَه إلا فى بيت المال بمدينة السلام ، وجملةُ ما عليه كذا وكذا ، وقد أنفذْتُه مع فلان بن فلان وفلان بن فلان من قيادة فلان بن فلان ، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلىَّ بوصوله فعل إن شاء الله » .

فلم يَلْوِه أحد بشىء من الخراج. (تاريخ الطبرى ١٠ : ٦١)

١٣١ — كتاب ابى الربيع محمد بن الليث الى جعفر بن يحيى

« وكتب جعفر بن يحيى إلى محمد [4] بن الليث يستوصفه الخطَّ ، فكتب إليه » :

---

(١) لواه بدينه : مطله .
(٢) استنظره : طلب منه النظرة (بفتح فكسر) وهى التأخير ، وأنظره : أخره .
(٣) لط حقه وألط : جحده .
(٤) هو أبو الربيع محمد بن الليث ، من موالى بنى أمية ، وكتب ليحيى بن خالد ، وكان بليغا مترسلا كاتبا فقيها متكلما بارعا واعظا فى رسائله — انظر ترجمته فى الفهرست لابن النديم ص ١٧٥ .

« أما بعدُ ، فليكن قلمك بَحْريا ، لا متينا ولا رقيقا ما بين الرِّقة والغِلَظ ، ضيِّق النَّقب(١) ، فابْرِه بَرْياً مستوياً كَمِنقار الحمامة ، اعطِفْ بطنَه ، ورقِّق شفتَيْه ، وليكن مِدادك فارسيّا ، خفيفا إذا وزنتَه ، فانقعْه ليلةً ثم صفِّه فى الدَّواة ، وليكن قِرْطاسك رقيقا مستوىَ النَّسج ، تخرج السَّحاة(٢) مستويةً من أحد الطَّرَفين إلى آخره ، فليست تستقيم السطورُ إلا فيما كان كذلك ، وليكن أكثر تمطيطك فى طَرْف القرطاس الذى فى يسارك ، وأقلُّه فى الوَسَط ، ولا تمُطَّ فى الطرف الآخر ، ولا تمط كلمةً ثلاثة أحرف ولا أربعة ولا تترك الأخرى بغير مَطّ ، فإنك إذا قَرَنْتَ القليلَ كان قبيحا ، وإذا جمعتَ الكثير كان سَمِجا .

ثم ابتدىء الألف برأس القلم كله واخطُطه بعَرْضه واختِمه بأسفله ، واكتب الباء والتاء والسين والشين والمطَّةَ العليا من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين ، ورأسَ كل مُرْسَل ، برأس القلم ، واكتب الجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء ، والمطةَ السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين بالسِّنّ السفلى من القلم ، وَامْطُط بعَرْض القلم ، والمطُّ نِصفُ الخط ، ولا يقوَى عليه إلا العاقل ، ولا أحسَبُ العاقل يقوى عليه أيضا إلا بالنظر إلى اليد فى استعمالها الحركة والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ١٨١)

---

(١) النقب : الثقب ، بالفتح فيهما .

(٢) سحاة القرطاس : ماأخذ منه . وسحا القرطاس وسحاه : أخذ منه سحاة .

١٣٢ — كتاب له فى السلامة

وكتب أبو الربيع محمد بن الليث فى السلامة :

« أما بعدُ ، فإنى كتبت إليك ، وأميرُ المؤمنين — أطال الله بقاءه ، وزيّن أمرَه بلباس التقوى — وولىُّ عهده — مدَّ الله للمسلمين فى عمره — فى تظاهرِ نعم الله عليهما ، وتوالِى إحسانه إليهما ، وحوادثِ مزيده إياهما ومَن قِبَلهما وما يتناهى إليهما ، ويُعَزَّز لديهما ، من عِز أطرافهما ، وثغورِ رعيتهما وجنودهما ، من الأمن والسلامة ، والهدوء والاستقامة ، على أحسنِ ماجَرَت به العادةُ ، ومضَتْ به النعمة عليهما ، والله محمود مشكور ، والأميرُ أسعده الله بما آتاه ، ومن جمعت النعمة فى ظِلّ كَنَفه ، على أحسنِ ما كان يُبليه ويُوليه ، ويُجْرِى النعمة فيه ، وهو محمود ، ونحن من تتابُع النعمِ ، وتكامُلِ المزيد ، بحيثُ يَقْصُرُ الوصفُ عنا ، وعن الحفظ له نظرُنا ، والله نسأل العَوْنَ على شكره وتأدية حقه » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٥)

١٣٣ — كتاب له فى الاعتذار

« كيف يَسَعُك أن تأخذنى بظنّ ، لو كنتَ فيه على حقيقة عِلْمٍ لما وَسِعَك أخْذِى ولا عقابى عليه ، ولو كانت العقوبةُ على الذنب الكامن فى سُوَيْداء القلب ، واسعةً لك فى حُكْمِ الرّبِّ ، لكان فيما حَجَبَتِ الغيوبُ من العمل ، ما ينتقل فى القلوب التى لا تثبُتُ على حالٍ ، إلاّ رَيْثَما يتْبَعُها

انتقالُ ما يدعوك إلى أن تُمْسِك عني ، وتقِفَ حتى تعرِفَ أيُمْضَى رأْيٌ أم ينصرف ؟ » (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٨)

١٣٤ — كتاب منصور النمرى إلى الرشيد

وكتب منصور (١) النَّمَرى (٢) إلى الرشيد :

« والله يا أمير المؤمنين ما وَخَزَتنا شوكتُهم ، ولا مَضَّتْنا (٣) فرحتُهم ، وإنما نحن حُرْمة من حُرَمك ، وطَرَف من أطرافك ، فَنَنْشُدك الله أن يَحُول غَضَبُك لنا غضباً علينا ، وتقمتُك فينا نقمةً منا ، فقد صرنا نشترى : ألاَّ تغضبَ لنا بألاّ تغضبَ علينا ، وألاَّ تنتقمَ فينا بألاّ تنتقم منا » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٨)

١٣٥ — كتاب محمد بن عبد الله بن حرب

وكتب محمد (٤) بن عبد الله بن حرب :

« أما بعد ، فإنى أحمَد الله الذى توحَّد بالحمد لنفسه ، وجعله غايةَ شكرِ عباده ، وأَوَّلَ دَعْوَى أهلِ جَنَّته (٥) إذ أذهب عنهم الحَزَنَ ، وأصارهم إلى

(١) هو منصور بن الزبرقان بن سلمة بن النمر بن قاسط ، شاعر من شعراء الدولة العباسية من أهل الجزيرة وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابى وراويته وعنه أخذ ومن بحره استقى ، ووصفه العتابى للفضل بن يحيى بن خالد وقرظه عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه ثم وصله بالرشيد — انظر ترجمته فى الأغانى ١٢ : ١٦ .

(٢) فى الأصل « النميرى » وهو تحريف .

(٣) مضه الشىء وأمضه : بلغ من قلبه الحزن به .

(٤) كاتب الحسن بن قحطبة على أرمينية ، ثم كتب ليزيد بن أسيد ، ثم كتب للفضل بن يحيى — انظر الفهرست ص ١٨٣ .

(٥) يشير إلى قوله تعالى : « جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ

مغفرته وحُلولِ دار المُقامَة من فضله ، وأُتْبِــعُ ذلك الصلاةَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ، لما به من الضلالة هُدِينا ، ومن حَيْرات العمَى نُجِّينا ، ثم أقول : جعلك الله لكل خير مُوفَّقاً ، ومن كل سوء معصوما ، قد كان أتانى منك كتابٌ حالَ عليه الحَولُ عندى ، ولم يمنعنى من إجابتك فيه فى البَدْء إلا أن رسولك الموصِّل له أخبرنى بإجماعٍ منك على بَعْثِه خاصَّةً من أهلك لمطالعتى ، فكانت الإجابة منى مع خاصَّتك أوقعَ بموافقتى ، ثم رأيتك ـ والله يُصْلِح بالك ـ قَطعتَ رُسُلَك عنى ، فصار ذلك سبباً لإبطاء جوابى عنك ، غيرَ زاهدٍ فى إخائك ، ولا راغبٍ عن ودادك ، ولا مُنكِرٍ لجميل حالك ، والفاضلِ من أقسام الله لك فيما منحك وأعارك فى عقلك ومحمودِ صفاتك ووفائك ، فإنى وجدت حقائق الأُخوَّة لا تثبُتُ إلا بمَحْض المودَّة من صحة العقل والمجبولِ فى الطبيعة ، وأُصبْتُ العقل قائدا إلى زين العاجلة وحُظْوتها ، ومحبوبِ مايتعاطف به ذوو الحِجَى فيها ، ويتواصلون به فى دوام نعيمها وميسور أمورها ، ودَرْكا لمذخور أجر الآخرة وسعادتها ، وما ليس له عَدْلٌ ولا خَطَرٌ من جزائها وثوابها ، وقد ألزَم نفسى من تنافسها فى إخائك ، وضَنِّها وتمسكها بما أجرى الله بينى وبينك ، مايجاوز مَدَى المتنافسين فى رغائب الأمور المحروص عليها من كنوز الذهب والفضة ، لأنى رأيت الأموال ، وإن كثُرتْ عند مَن يجْمَعها ، حتى لايُحْصَى عددها وتَعجَز

وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَقَالُوا الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ»

المواضعُ عنده لما نال منها دانيةً لديه إلا رَيْثما تختلف أعصُرُ الدهر عليه فيها بالإئتلاف لها، بالنوائب المفرِّقة لما اجتمع منها، وكَنزَ الإخاء ممّن استحكمتْ منه قواه بخالص الصفاء، أفضلَ ذخيرةً وأحمد مَغَبَّةً، وأمسَّ عند ملمّات الدهور منفعةً، وأوصلَ إلى كل مرجوٍّ من خير فى عاجل أو عاقبة، من كنوز الأموال المكتنَفة المتصرفة، فعلى ذلك فليكن عندك من الحالة. وبه فليكن فى غابر الأيام لى الثقة، وإلى الله الحَوْلُ والقوة، فأمّا قِيلُك: إنّا صِرْنا عندك — فيما أخلفْنا من ظنك، وبعد الذى اختبرتَ مِن شاهِدنا، ووافقَك منا — كَبَرْقِ الخُلَّب[1] الذى يُضيء قليلا، ويضمحِلُّ وشِيكا[2]، فإن برق الخلَّب لِمَنْ عايَنه غيرُ متصل له ما يلتمس به النور أمامه، ولا يبلغ له منتهى غايته فى دُجَى ظلمة الليل وأهواله، وذلك غيرُ قياسِ مَن رسَخَتْ فى القلوب مودتُه، واستكنَّت فى سريرتها مِقَتُه[3]، وساعدتها منه محبَّتُه وثِقَتُه، وتمسكتْ بها حبائلُه. وانطوت عليها ضمائرُه، وإن الدليل من ذلك على رأيى فيك، لاحتفاظى بكتابك إلىّ منذُ سنةٍ قد مضَتْ له، وهو عندى غير مضيَّع، ولا مُغْفَل لدىّ، وقد أتلفتُ ما يناهز المائةَ الألفِ من مالى فى معاريض نوائبى وحاجاتى، وأنا متمسك بكتابك، متلوِّم[4] بحوائجك، وتأدِية الواجب من حقك، جعل الله الخُلَّة[5] منا ومنك فيما يُديم به المَسَرَّة، ويوالى به النعمة، وتكون عاقبته إلى السعادة فى دار الخلود والمُقامة من فضله والسلام».

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٩)

---

(١) البرق الخلب (بالوصف) وبرق الخلب (بالإضافة): المطمع المخلف.
(٢) أى سريعا. (٣) المقة: المحبة.
(٤) تلوم فى الأمر: تمكث وانتظر. (٥) الخلة: الصداقة.

١٣٦ — كتاب محمد بن على الى محمد بن يحيى بن خالد

وكَتب محمد بن على إلى محمد بن يحيى بن خالد ، وكان والياً على أَرْمينية للرشيد .

« إن قوما صاروا إلى سبيل النُّصْح ، فذكروا ضياعا بأرمينية قد عَفَت وَدَرَسَتْ (١) يرجع منها إلى السلطان مال عظيم ، وإنى وقفتُ عن المطالبة حتَّى أعرِفَ رأيك».

١٣٧ — رد محمد بن يحيى عليه

فكتب إليه :

« قرأتُ هذه الرُّقْعة المذمومة وفهمتها ، وسوقُ السِّعاية بحمد الله فى أيامنا كاسِدة ، وألسنةُ السُّعاة فى أيامنا كليلَة خاسِئة ، فإذا قرأت كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخُذهم بما فى ديوانك ، فإنا لم نُوَلِّك الناحية لتَتَبَّع الرسوم العافية ، ولا لإحياء الأعلام الدَّاثِرَة ، وجنِّبنى وتجنَّبْ بيت جرير يخاطب الفرزدق:

وكنتَ إذا حَلَلْتَ بدار قوم رَحَلْتَ بخزْية وتركتَ عارا

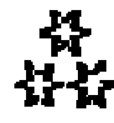
وأَجْرِ أمورك على ما يكسِب الدعاء لنا لا علينا ، وَاعلم أنها مدة تنتهى ، وأيام تنقضى ، فإما ذكر جميل ، وإما خِزى طويل » . (زهر الآداب ١ : ٣٠٥)

(١) عفا الرسم ودرس ودثر : بمعنى .

١٣٨ — كتاب جعفر بن يحيي إلى احد عماله

وكَتب جعفر بن يحيي فى العفو والمسامحة لأحد عماله :

« عندنا الاغتفارُ لِمَا اقترفتَ، وتصديقُ كلِّ ماقلتَ واحتججتَ بذكره ، وَاعتذرتَ بوَصفه ، وَالإسقاط لِما جَحَدْتَه . وَالإكذابُ للجَوْرِ الذى اقترفتَه ، والرجوعُ عما أنكرته ، والزِّيادةُ فيما اخترتَه ، استدعاءً لك وإن انصرفتَ ، وحِياطةً لما قدَّمْتَ وإن ذُمِمْتَ ، وإيثاراً للإغضاء والاحتمال ، فإنهما أبلغُ فى الإصلاح ، وأنجعُ فى الاستنجاح ، وأسرع فى التعليم ، وأكبر فى التقويم ، إن احتيج إليه فى مثلك ممن تؤمَن عليه قريحتُه ، وتَرُدُّه إلى الاُستقامة تجربته » .



وله فصل من رسالة :

« فإن العذر إذا جاء واضحا لم يكن لسوء الظن مجازٌ ، ولا لمن أراد التَّجنِّيَ مَخْلَص، وما أريد أن أزداد بك عِلْما إلى علمى » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٦)

١٣٩ — كتاب حميد بن مهران إلى عامل معزول

وكتب [حُمَيد (١) بن مِهْرَان] إلى عامل عزل عن عمله :

(١) فى الأصل « حمدون بن نهراق » ولم أجد فى كتب التراجم ترجمة بهذا الاسم ، وأرجح أن يكون محرفا وصوابه « حميد بن مهران » كما ذكرت ، قال ابن النديم فى الفهرست س ١٧٩ : « حميد بن مهران الكاتب من أصبهان ، وكان يكتب للبرامكة مدة حياتهم ، وله كتاب رسائل » .

« بلغني — أعزك الله — انصرافُك عن عملك ، ورجوعُك إلى منزلك ، فسُرِرت بذلك ، ولم أستفظِعه وأجزَعْ له ، لعلمي بأن قدرك أجَلُّ وأعلى من أن يرفعك عملٌ تتولاه ، أو يضَعَك عزلٌ عنه ، ووالله لو لم تختَرْ الانصرافَ ، وتردْ الأعتزالَ ، لكان في لُطْف تدبيرك ، وثُقُوب رويّتك ، وحسن تأتِّيك[1] ، ما تُزِيل به السببَ الداعيَ إلى عزلك ، والباعثَ على صَرْفك ، ونحن إلى تهنئتك بهذه الحال أولَى بنا من أن نعزِّيَك ، إذ أردت الأنصراف فأُوتيته ، وأحببتَ الأعتزال فأُعْطِيته ، فبارك الله لك في منقلَبك ، وهنَّأك النعمَ بدوامها ، ورزقك الشكر الموجبَ لها ، الزائد فيها » .

(زهر الآداب ١ : ٣٢٥)

١٤٠ — تحميد لأنس بن أبي شيخ[2]

« الحمد لله الذي بالقلوب معرفَتُهُ ، وبالعقول حُجَّته ، الذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم أميناً فوفَّى له ، ومُبَلِّغاً فأدَّى عنه ، فحجَّ به المُنكِرَ ، وتألَّفَ به المُدْبِرَ ، وثبَّتَ به المستبْصِرَ ، إلى أن توفَّاه على مِنْهاج طاعته ، وشريعةِ دينه ، ثم أورثكم عَهْدَه ، وخصَّكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمةَ الوُسْطَى[3] » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٥)

---

(١) تأتى للأمر . ترفق له وأتاه من وجهه .

(٢) قال ابن النديم في الفهرست ص : ١٨٢ « بلغاء الناس عشرة : عبد الله بن المقفع ، عمارة ابن حمزة ، حجر بن محمد ، محمد بن حجر ، أنس بن أبي شيخ — وعليه اعتمد أحمد بن يوسف الكاتب — سالم ، مسعدة ، الهزبر ، عبد الجبار بن عدى . أحمد بن يوسف » .

وكان جعفر بن يحيى معجبا ببلاغته : وقد اجتباه وجعله كاتبه الخاص ونديمه ، ولما نكب الرشيد البرامكة وقتل جعفرا ، أشركه الرشيد معه في الإثم وقتله وصلبه على عود في الرقة .

وفيه يروى ابن عبدوس الجهشيارى عن الجاحظ أنه قال : « كان أنس بن أبي شيخ يكتب لجعفر ابن يحيى ، وكان ذكيا فهما نقي الألفاظ جيد المعاني حسن البلاغة ، وقتل مع جعفر بن يحيى » — انظر كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٩٩ .

(٣) الوسطى مؤنث الأوسط ، ويقال : فلان أوسط قومه : أي أشرفهم وأحسبهم .

١٤١ — كتاب بشر البلوى إلى إبراهيم بن عبد الله الحجبي

وكتب بشر البَلَوىّ إلى إبراهيم بن عبد الله الحَجَبىّ والى صَنْعاء لهٰرون الرشيد ، لمّا قَدِمها سنة ١٨٢ ، وعزم على أن يولّى بشرا بعض نواحى اليمن ، فعاقه عن ذلك هشام بن يوسف الأَبْناوى(١) :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : أما بعد ، فإن رأى الأمير — أمتع الله به — أن لا يُعْلِم هشاما ما يُريد من صِلَتى ، فإنه لم يُرِدْنى وآلِى قطُّ بخير ، ولم يفتح لى بابَ صلةٍ ، فتكون منهُ خالصةً لا يريد بها إلا وجهَ الله وَحْدَه ، وَلا يرجو بها إلا ثوابه ، إلا عَرَضَ هشام من دونها ، فثقّلها وكرّهها(٢) وأدارَ القياسَ فيها ، وضرب لها الأمثالَ ، وألقى الحيلةَ فيها إلى الكاتب والحاجب ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ(٣) » ومَدَحنى بما لا يُسْمَع به من أخلاقى ، وَانتقصَنى فيما لا يُطْمَع بغيره منى ، ليكون ما أظهر من المِدْحة ، مصدِّقا لِما أسرَّ من العَيْبَة ، ثم زخرف ذلك بالموعظة ، وزَيَّنه بالنصيحة ، وَقارَبه بالمودَّة ، وأغراه من ناحية الشفقة ، وشهدَ عليه أربعَ شهاداتٍ بالله إنّه لَمِنَ الصَّادقينَ ، والخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللّهِ عَلَيْهِ إنْ كانَ مِنَ الْكَاذِبِين(٤) ، فإذا الحاجب يُزْلِقُنى

---

(١) نسبة إلى الأبناء ؛ وهم قوم من الفرس استوطنوا اليمن ، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف ابن ذى يزن لما جاء يستنجده على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن وتزوجوا فى العرب ، فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم — كغلبة الأنصار — .

(٢) وفى مفتاح الأفكار « وكثرها » .

(٣) أخذه من قوله تعالى فى قصة إبليس مع آدم وحواء ، وقاسمهما : أى أقسم لهما .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاء

ببصره (١) ، وإذا الكاتب يَسْلِقُنِي بلسانه (٢) ، وإذا الخادم يُعْرِض عنى بجانبه (٣) ، وإذا الوالى ينظرنى نظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ (٤) ، فصارت وجوه النفع مردودَة ، وأبوابُ الطمع مسدودَة ، وأصبح الخير الذى كنت أرجوه هشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّياحُ (٥) ، والصلة التى كنت أشْرَفتُ عليها صَعيداً زَلَقاً ، وَأصْبَحَ ماؤُها غَوْراً فَما أستطيع له طَلَباً (٦) ، فأسأل الذى جعل لكل نبيٍّ

إلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » .

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ » أى أنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك نظرا شزرا يكاد يزلّ قدمك .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ » وسلقه بالكلام : آذاه ، قال صاحب الصحاح : وبابه ضرب .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ » :

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ » والهشيم : النابت اليابس المتكسر ، تذوره : تطيره وتذهبه .

(٦) اقتبسه من قوله تعالى : « فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا » والحسبان : البلاء والشر والجراد والصواعق . والصعيد : التراب ووجه الأرض ، زلقا أى ملساء لايثبت عليها قدم ، غورا : أى غائرا .

عدُوّا من المجرمين (١) أن يكفيني شره، ويَصرِفَ عني كيدَه، فإنهُ يَرَاني هُوَ وَقَبِيلُهُ مِن حيثُ لا أراهم (٢) والسلام »

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٣ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤٠)

١٤٢ — كتاب بشر البلوى إلى إبراهيم بن عبد الله الحجبي

وكتب بِشر (٣) البَلَوِىّ إلى إبراهيم بن عبد الله الحَجَبِيّ أيضاً يستمنحه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ، فإن الله — وله الحمد — قد كان عرضني وجوها كثيرة، وخيَّرني في مَكاسِب حلال، وكنت — بتوفيق الله عز وجلّ وإحسانه — قد اخترتُ منها ناحيةَ الأمير — حفظه الله تعالى — ورضيتُ به من كل مَطْلَب، واقتصرت على رجائه من كل مكسَب، فأثابه اللهُ عز وجل فَتْحًا قَرِيباً ومَغانِمَ كثيرةً عَجَّلَها، وكانَ اللهُ عَزِيزاً حكيماً (٤)، وقد عَرَف

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً »

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ »

(٣) كذا نقل صاحب مفتاح الأفكار، وفي المنظوم والمنثور أن هذا الكتاب لمطرف بن أبي مطرف

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيباً ، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيمًا »

الأمير ـ أبقاه الله تعالى ـ طُولَ مودَّتى له، وَقديمَ حُرْمتى، وهِجْرتى معه، وَأنّى ممّن أنفقَ من قبل الفَتْح وَقاتَل(١)، ثم إنى لم أتَحَرّف(٢) ـ بحمد الله ـ بعد الهجرة، ولم أنافق بعد النُّصْرة، ولم أكن كحاطِبٍ(٣) حين ألقَى بالمَوَدَّة(٤)، ولا كتَميمٍ يومَ نادَوْا مِن وراء الحُجُرَاتِ(٥)، بل أقمتُ على

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى: « لاَ يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولٰئِكَ أعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الّذِينَ أنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى » والمراد بالفتح فى الآية فتح مكة .

(٢) فى الأصل « المنظوم والمنثور » « أتعرف » وهو تحريف، وتحرف وانحرف واحرورف: مال وعدل .

(٣) هو حاطب بن أبى بلتعة، وكان من خبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أجمع السير إلى مكة افتتحها (سنة ٨ هـ) دعا الله أن يعمى الأخبار على قريش، فكتب إليهم حاطب كتابا يخبرهم بمسير رسول الله إليهم، وبعثه مع امرأة وجعل لها جعلا، فأعلم الله رسوله ذلك، فبعث فى أثرها عليا والزبير والمقداد، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها، فانطلقوا إلى الروضة فوجدوا بها المرأة، فقالوا لها: أخرجى الكتاب، قالت: ما معى كتاب، فقالوا: لتخرجنّ الكتاب أو لنلقينّ الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتوا به رسول الله، فقال: ماهذا يا حاطب؟ قال: لاتعجل علىّ يارسول الله: إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى، ولم أفعله ارتدادا عن دينى، ولا رضا بالكفر بعد الاسلام، فقال عليه السلام: أما إنه قد صدقكم، فقال عمر: دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه قد شهد بدرا، وما يدريك ياعمر! لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم — انظر كتب السيرة — .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى: « يٰأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ » وقد نزلت هذه الآية فى حاطب بن أبى بلتعة للسبب المتقدم ذكره، وفى مفتاح الأفكار والمواهب الفتحية « حين ألقى بالمدة » وقال صاحب المواهب الفتحية فى تفسير تلك الرسالة: « والمدة بضم الميم: اسم ما استمددت به من المداد على القلم، وهى المعروفة عند العوام بالملة، أى حين ألقى بالمداد على تلك الصحيفة » .

وعندى أن ذلك التفسير متكلف، وأن كلمة « بالمدة » محرفة عن « بالمودة » ويؤيد ذلك ماجرت به سنة بهمر البلوى فى الكتابة من اقتباس آى القرآن كما عرفت .

(٥) يشير إلى قوله تعالى: « إنَّ الّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أكْثَرُهُمْ

مكانتى ، واصطبرتُ على عُسْرتى ، لا أرُدُّ الجَوْعةَ إلا بالبُلْغَة[١] أحيانا ، ولا أُوَارى العَوْرَةَ إلا بالغُنْيةِ[٢] زمانا ، حتى جاء الفتحُ مِنْ عند الله[٣] ، وَطَلَعَ الأمير ـ حفظه الله ـ فلما ظهر وتمكَّن ، ورجَوْنا الغِنَى منه حين أيسَرَ وأثْخَنَ[٤] ، والعزَّ « تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ »[٥] ، وأنْ يَشْفِىَ اللَّهُ بِهِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ[٦] ، ويُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ، رَكَن إلى الظالمين ، وأصْغَى إلى المُداهنين ، واستمع من المنافقين ، وعفا عن المُرْجِفين[٧] ، وتجاوز عن المستهزئين ، وخَفَضَ جَناحه للمتكبِّرين ، وصعَّر[٨] خدّه للمستضعَفِين ، وعَبَسَ فى وجوه المُقِلِّين ، وجفا عشيرَتَه الأقرَبِين ، وأقصى شيعتَه الأوَّلين والآخِرين ، وحَرَم إخوانه الأقدَمين ، « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » ثم تأوَّلَ الكتاب ، فتعدَّى

لَا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »
وذلك أنه وفد عليه صلى الله عليه وسلم سنة تسع وفد بنى تميم ، فجلسوا ينتظرونه ، فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء حجراته بصوت جاف: أن يامحمد اخرج إلينا ، فآذى ذلك رسول الله من صياحهم ، فنزلت فيهم الآية .

(١) البلغة : مايتبلغ به من العيش .

(٢) الغنية بالضم والكسر : اسم من الاستغناء .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ »

(٤) أثخنه : غلبه ، أى حين غلب أعداءه وقهرهم .

(٥) أخذه من قوله تعالى . « ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً » .

(٦) اقتبسه من قوله تعالى : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ » :

(٧) أرجف القوم : خاضوا فى أخبار الفتن ونحوها .

(٨) صعر خده : أماله كبرا .

الصوابَ، وقرَّب الأحزابَ ، وآوَى المتخلِّفين(١) من الأعراب ، وآثَرَ بالفَيْء مَن لم يُوجِفْ عليه بخَيْلٍ ولا رِكاب(٢)، فأصبحت أياديه عند المؤلَّفةِ قلوبُهم ، ومَن كان يُسِرُّ النفاقَ فيهم ، ويَلْمِزُه فى الصَّدَقات منهم(٣) ، وصنائِعُه عند المعَذِّرِين من الأعراب(٤) ، والذين جاءوا من بعدهم ، ظاهِرةً فى الآفاق وفى أنفسهم(٥) ، وأصبح نُقَباءُ العَقَبةِ(٦)، وفُقَراء الهِجرة ، ومساكين الصُّفَّة(٧)،

(١) فى مفتاح الأفكار « وأوق الخالفين » .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ » ووجف البعير والفرس وجفا : عدا ، وأوجفته : أعديته .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ » واللمز : العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها ، وفعله كضرب ونصر .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ » والمعذرون : إما من عذّر فى الأمر : إذا قصر فيه موهما أن له عذرا ولا عذر له ، فمعناه : المقصرون الذين لا عذر لهم . وإما من اعتذر ، فأصله المعتذرون ، ألقيت فتحة التاء على العين وأبدل منها ذال وأدغمت فى الذال التى بعدها ، ومعناه : الذين يعتذرون ، كان لهم عذر أو لم يكن ، وقرأ ابن عباس « المعذرون » بسكون العين ، وهم الذين لهم العذر ، وكان يقول : والله لكذا أنزلت ، وقال : لعن الله المعذّرين « بالتشديد » .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فى الآفَاقِ وَفى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »

(٦) العقبة : بين منى ومكة ، بينها وبين مكة نحو ميلين ، ومنها ترمى جمرة العقبة ، ونقباؤها : هم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها ، وذلك أنه كان فى بدء أمره يوافى الموسم ، ويتتبع القبائل فى رحالها يدعوهم إلى أن يمنعوه ليبلغ رسالة ربه ، فلا يجد من ينصره ، حتى كانت سنة إحدى عشرة من النبوة ، لقى ستة نفر من الأوس عند هذه العقبة فدعاهم إلى الاسلام وعرض عليهم أن يمنعوه فقالوا : هذا والله النبى الذى تعدنا به اليهود ، يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة ، فآمنوا به وصدقوه ، ثم انصرفوا إلى المدينة ، وذكروا أمر رسول الله فأجابهم ناس وفشا فيهم الإسلام ، ولما كانت سنة اثنتى عشرة من النبوة وافى الموسم منهم اثناعشررجلا، هؤلاءالستة وستةأخر، فآمنوا وأسلموا، فلما كانت سنة ثلاث عشرة من النبوة أتى منهم سبعون رجلا وامرأتان .

(٧) أهل الصفة : هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، فكانوا يأوون إلى صفة مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهى موضع مظلل من المسجد يبيتون فيه .

تَفِيضُ أَعْيُنُهُم مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ[١]، وأصبح السابقون الأَوَّلُون منا ومن أهل النُّصرة[٢] مُرْجَيْنَ لِأَمْرِ الله[٣]، والتائبون العابدون موقوفين لحكم الله، وأصبح الفقراء المستضعفون محصورين فى سبيل الله، فإنْ رأى الأمير — حفظه الله تعالى — أن يَمِيرَنا فإنا قد سَغِبْنا[٤]، وأن يعطف علينا من قبل أَنْ يَزِيغَ قُلُوبُ فَرِيقٍ[٥] مِنَّا، فَعَلَ، فـ«إِنَّ الْإِنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا[٦]، إِذَا مَسَّه الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا» ولست أدرى ماذا أعتَذِرُ به اليومَ إلى الناس فى أمرى عن الأمير! وهم يعلمون أنى قد رأيتُ فيه ثُلُثَىْ أمَلى، ولم أبلُغْ فى نفسى رُبْعَ رجائى، أم ماذا ينتظر الأمير — حفظه الله — فىَّ؟ بعد أن آتاه الله المُلْكَ، وعلَّمه الحكمة[٧] ومكَّنه من خزائن

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى: «تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ».

(٢) اقتبسه من قوله تعالى: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ».

(٣) اقتبسه من قوله تعالى: «وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ»

(٤) مار أهله كباع: أتاهم بالميرة بكسر الميم وهى الطعام، وسغب كفرح ونصر: جاع، وفى الأصل «المنظوم والمنثور» «فإنا قد استعنا».

(٥) اقتبسه من قوله تعالى: «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ».

(٦) الهلع: أشد الجزع.

(٧) اقتبسه من قوله تعالى: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ»، وقوله تعالى: «وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ».

الأرض[١] ، وجعله في الدنيا وجيهاً[٢] ، وفي الإسلام مكيناً ، وعند الخليفة ـ أبقاه الله تعالى ـ مُطاعاً أميناً[٣] ، فمن يفرُ[٤] الأميرَ بعد هذه النعمة ؟ أم من يَعْذِره مع هذه الكرامة ؟ ومَن يرضى منه بأقلّ من جَبْره[٥] ، إلا مَن سَفِه[٦] نَفسَه ، ولستُ آمَنُ أن يتطاول علينا الجَزَع ، ويتمادى به منا المَنْعُ ، أن يجتمع منا أئمةٌ صابرة ، وفرقةٌ خاشعة ، وَطائفة ممنوعة ، وأخرى مدفوعة ، فيدعوا ربَّهم تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إنه لا يحبُّ المعتدين[٧] والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٤ ، ومفتاح الأفكار ص ٢٧٣ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤٤)

١٤٣ — كتابه إلى الحجبي

وكتب إليه أيضاً ـ وكان نهى بشرا عن التمرّض للوزراء ولأهل العراق ـ :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : أما بعدُ ، فإنك كتبتَ إليَّ تنهاني عن

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى في قصة يوسف : « قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ . وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ » .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ » .

(٤) أي يحفظ عرضه من النقد .

(٥) في الأصل « جبرانه » والذي في كتب اللغة : « جبر العظم والفقير واليتيم كنصر جبرا بالفتح وجبورا بالضم ، وجبارة بالكسر » .

(٦) أخذه من قوله تعالى : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » .

(٧) اقتبسه من قوله تعالى : « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »

السلطان وعن قُرْبه ، ولستُ أعتذرُ إليك فى ذلك ، إن دعانى السلطانُ سارعتُ ، وإن أبطأني تعرَّضْتُ ، فإن كان الله تبارك وتعالى أحلَّ لك خِدْمة أمير المؤمنين ، ومنادمةَ الفضل ، ومُسامرةَ جعفر[1] ، وأباح لك أن تأخذ من أموالهم القناطيرَ المُقَنْطَرَة من الذهب والفضة[2] ، وحرَّم علىَّ مكاتبة الشُّرَط ، ومراسلة البُرُد[3] ، والتخدُّمَ للحُضَّان[4] والتعرّضَ للدَّايات ، وَحَظَرَ علىَّ من أموالهم ماأسُدُّ به الفَوْرَة[5] ، وأُوَارِي به العَوْرَة ، فأنا الهالك وأنت الناجى ، وَإن لم يكن الأمر على ذلك ، وكان لكلِّ امْرِئٍ مِنَّا ما اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ، فأنت الذى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهم[6] ، وَضَرَبَ لنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ[7] والسلام » . (مفتاح الأفكار ص ٢٧٥)

---

(١) يعنى الفضل بن يحيي البرمكي ، وجعفرا أخاه .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . . . . الآية » .

(٣) البرد جمع بريد : وهو الرسول .

(٤) تخدّم خادما : اتخذه ، والحضان جمع حاضن ، والحاضن والحاضنة : الموكلان بالصبي يحفظانه ويربيانه ، لأن المربى والكافل يضم الطفل إلى حضنه (بالكسر) ، وكما تسمى المرأة التى تربى الطفل « الحاضنة » تسمى فى العربية أيضا « الداية » — وحرفت فى لغتنا العامية فقيل « الدادة » — والداية عربية فصيحة ، قال الفرزدق :

ربيبة دايات ثلاث ربينها ... يلقمنها من كل سخن ومبرد

(وربّ الصبي رباه حتى أدرك) ويرادفها أيضا « الظئر » بالكسر — العاطفة على ولد غيرها المرضعة له ، فى الناس وغيرهم — وقد توسعوا فى كلمة الداية فاستعملت بمعنى القابلة .

(٥) فورة الحر : شدته ، يعنى بذلك فوران النفس وجيشانها من شدة الجوع ، أى ماأقضى به حاجتى

(٦) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ » — كبره : معظمه —

(٧) قال تعالى : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ »

١٤٤ — كتابه إلى يحيى بن خالد البرمكى

وكتب إلى يحيى بن خالد البرمكى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فإنى كتبتُ إليك كتباً لم أرَ لشىء منها جوابا ، ولستُ - أمتع الله بك - أتكبَّر عن مُوَاتَرَة[1] الكتب إليك ، ولا أستنكِفُ من[2] تَرْكِكَ الكتابَ إلىّ ، لأن مِثلك لا يكتب إلى ضعيفٍ مِثلى إلا بعون الله وتأييده ، ولا يلقِّ الحكمةَ كتابه إلا بتوفيق الله عز وجل وإحسانه ، ولعلك - أمتع الله بك - لم يوافق نزول ذلك من ربك ، فإنه تبارك وتعالى يقدِّر مايشاء ، إنه بعباده خبير بصير[3] » .

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٥)

١٤٥ — كتابه إلى يحيى بن خالد البرمكى

« وكتب بشر البلوى إلى يحيى بن خالد أيضاً يستمتع[4] بالحَجَبى المذكور :

« أما بعد : حفِظَ الله أبا على ، وحفِظلك ما استحفَظَك[5] من دينك

---

(١) أى متابعة .

(٢) فى الأصل « ولا أستنكف على » والذى فى كتب اللغه تعديته بمن .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ » .

(٤) أى يطلب إبقاءه للانتفاع به ، يقال : متعه الله وأمتعه بفلان : أى أبقاه ليستمتع به فيا يحب من الانتفاع به والسرور بمكانه .

(٥) أى ماجعلك حافظا عليه من الدين والأمانة ، وخواتيم العمل ، أى العمل الصالح الذى هو آخر عمل عمله ، وأصل ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء رجل يودعه لسفر ، فقال له رسول الله : « أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » أى الصالح الذى جعلته آخر عملك فى الإقامة . فإن المسافر يسن له ختم إقامته بعمل صالح ، فيندب لكل من ودع أحدا من المسلمين أن يقول له ذلك وأن يكرره .

وأمانتك، وخَواتِيم عَمَلك، أمَّا ماتُحب أن ينتهيَ إليك علمُه من قدوم الحَجَبيّ علينا، وما عمِلَ به فينا، وَعلى ماأصبح المسلمون معه قبلَنا، فكلُّ ذلك بحمد الله تعالى ونِعَمهِ على أفضل سرُورك، وأعظم رجائك، ومنتهى أمَلِك، من سكون الدَّهْماء (١) ، وأمانِ السُّبُل، وحُسن الحال، وتتابع الأمطار، وقد أصبح الناس بحمدِ الله رُحماءَ (٢) بينهم، لا يُسْمَع إلا سَلاماً سَلاماً (٣)، وَذلك أن الحجبيّ لمَّا قدِم علينا، فزِعَ إلى خيار الناس وَأهلِ الصلاح منهم، فقرَّبهم وأدناهم، وغلُظ على أهل الفجور والرِّيبة، وأبعدهم وأقصاهم، وبعث لحملة القرآن، فلما اجتمعوا إليه من أطراف البلاد تخيَّر الفقهاء وذوى الرأى منهم، فجعلهم بطانتَه، وأهلَ مشاورته، وبعث أكثرهم عُمَّالا على كثير من نواحى عمله، وعَهِد إليهم ماعهد إليه أمير المؤمنين، فى أَخْذ الصَّدَقات والزكاة على وجوهها، وقَسْمِ السُّهْمان (٤) الخمسة مُوفَّرةً بين أهلها، وأعلَمَهم أن أمير المؤمنين لم يأمره ولا مَن قَبْلَه من وُلاة اليمن وغيرها إلا بالعدل والإحسان، وأن أمير المؤمنين يبرأ

---

(١) الدهماء : جماعة الناس .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى: «لاَيَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيماً إلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا» وسلاما سلاما فى قول بشر نائب فاعل على الحكاية، ويجوز أن يكون الأصل « لاتسمع إلا سلاما سلاما »

(٤) السهمان : جمع سهم، وهو النصيب، والسهمان الخمسة ومصرفها مبين فى قوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » وذكر الله تعالى فى الآية للتعظيم، والمراد قسم الخمس على الخمسة المعطوفين، فكأنه قال : فأن لله خمسه يصرف إلى هؤلاء، لكل منهم خمس الخمس، والأخماس الأربعة الباقية للفاتحين .

إلى الله مِن ظُلم كلِّ ظالم ، وَجَوْرِ كلِّ جائر ، وأنه قد خلع ما يثقِّل به عن رقبته ، وجعله فى دِين الحَجَبِىِّ وأمانته ، فلم يبق عند ذلك فِرقةٌ من فرق المسلمين ، ولا جماعةٌ من الصالحين ، ولا أحدٌ من الفقراء المساكين ، إلاّ دعا لأمير المؤمنين بطول البقاء ، ثم دَعَوا لك ياأبا على بأفضل الدعاء ، ونَشَروا عنك أحسنَ الثناء ، لِمَا ساقه الله إليهم بسببك ، وجعله بِيُمْنِ(١) مُوازَرتك ، وأجْراه لهم على لسانك ويدك ، ولِمَا أخَذَ الحجبىُّ فيهم من ورائك ، فإنا قد عرَفناه بالرِّفق الذى ليس معه ضعف ، وبالشدة التى ليس معها عُنْف ، وبالجِدِّ الذى لا يخالطه هَزْلٌ ، ثم هو مع ذلك قليلُ الغفلة ، شديد التُّهَمَة ، لا يتَّكل على كُتَّابه ، ولا يفوِّض أمره إلى أمَنائه ، ولا يطمئنّ إلى جلسائه ، حتى يتفقّد الأشياء بنفسه ، فيُورد ما حَضَر منها على عَيْنه ، ويُصْدِر ما غاب عنه منها على علمه ، لا يمنعه من مُطالبة الصغير مُزاولةُ الكبير ، قد أحكم السياسة ، وَرَسَخ فى التدبير ، فأشدُّ الناس خوفا لِغَضَبه أرجاهم جميعاً لِمَثُوبته ، وَأقلُّهم أمانا لعقوبته أطولهم لُزُوما لمجالسته ، قد شَغَلَ كُلاًّ بنفسه ، فأقبلَ كلٌّ على شأنه ، فليس أحد يُجاوز حَدَّه ، ولا يعدُو قدرَه ، ولا يتكلم إلا فيما يَعْنِيه ، ولسنا نراه بحمد الله يزداد فى كل يوم إلا شِدَّةً ، ولا تزداد الأمور معه إلا إحكاما ، فليس لمغتابٍ إليه سبيلٌ ، ولا لمتنقِّصٍ معه مطمعٌ ، والسلام » .

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٥ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤٧)

---

(١) اليمن : البركة ، والموازرة : المعاونة والمساعدة .

١٤٦ — كتابه إلى بشار بن رضابة

وكتب ينصح بَشّار بن رُضَابة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ فإنى رأيتك فى أول زمانك تَغْدُو على العلماء وتَرُوحُ عنهم[١] ، وتحدِّث عن الله وعن ملائكته ورسله ، وقد أصبحتَ تحدِّث عن مَعْنٍ[٢] وعن عُمّاله ، وعن أبى مُسْلِمٍ[٣] وعن أصحابه ، فبئسَ للظالمين بَدلاً[٤] ، فمَنْ خَلَّفْتَ على أهلك ، أم على من تتّكِل فى هَوْل سَفَرِكَ ، أم بمن تثِقُ فى حال غُربتك ؟ أبالله أم عليه ؟ وكيف ؟ ولستُ أخشى عليك إلا مِن قِبَله ، لأنه قد أعذَرَ إليك وأنذَرَ ، فعصَيتَ أمره ، وأطعت أعداءه ، وخرجتَ مُغاضِباً تظنُّ أنْ لَنْ يقدِرَ عليك[٥] ، فاتَّقِ على نفسك الزَّلَلَ ، وانزِلْ من دابّتك فى كل جَبَل[٦] ، فإذا استويْتَ أنْتَ وَمَنْ مَعَكَ

---

(١) غدا يغدو غدوّا : ذهب غدوة بالضم : وهى مابين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، وراح يروح رواحا : سار بالعشىّ ، هذا هو الأصل فى الغدو والرواح ، وقد استعملتهما العرب فى الذهاب فى أى وقت كان من ليل أو نهار ، ومنه الحديث : « من راح إلى الجمعة فى الساعة الأولى » أى مشى إليها وذهب إلى الصلاة .

(٢) هو معن بن زائدة الشيبانى ، وكان شجاعا جوادا جزيل العطاء كثير المعروف ، وكان فى أيام بنى أمية متنقلا فى الولايات ، منقطعا إلى ابن هبيرة أمير العراقين ، ثم ولى سجستان فى أواخر أمره فى عهد بنى العباس ، وتوفى سنة ١٥١ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٢ : ١٠٨ — .

(٣) يعنى أبا مسلم الخراسانى ، وقد تقدم .

(٤) أخذه من قوله تعالى فى إبليس : « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً » .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى : « وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » وذو النون : هو يونس ، والنون : الحوت .

(٦) وانزل من دابتك أى مطية غوايتك التى تقتحم بك المهالك ، كنى بها عن كل ما يكون وصلة

عَلَى ظهورها(١) ، فلا تقل : سُبْحَانَ الَّذِى سخّر لنا هذا ، لأن الله تبارك وتعالى قد كَرِه أن يُحْمَد على مانهى عنه ، ولكن قُلْ : رَبَّنَا مَنَ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفاً فِى النَّارِ(٢) »

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٨ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤٢)

١٤٧ — كتاب مطرف بن أبى مطرف إلى أحد إخوانه

قال ابن طيفور :

وكتب إلى مُطَرِّف(٣) بن أبى مُطَرِّف الليثى رجل من إخوانه يسأله عن عبد الله بن مُصْعَب الزبيرى ، فكتب إليه :

« أما بعد ، فإنك كتبتَ إلىّ تسألنى عن عبد الله بن مُصْعب ، كأنك

للشر من المال أو الجاه أو الصحة أو الفراغ ، فى كل جبل : أى عقبة من العقبات اللاتى تحول دون الخير ، والمعنى : إذا جمحت بك تلك المطية فى عقبة من تلك العقبات فبادر بالنزول لئلا تتوغل بك فيها فتهلك .

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » . وقوله تعالى : « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » — أى مطيقين — .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّارِ » .

(٣) ذكره ابن النديم فى الفهرست فى عداد البلغاء — انظر ص ١٨٢ ، وأورد صاحب مفتاح الأفكار هذا الكتاب ، معزوًّا إلى بشر البلوى ، فقال : « وكتب بشر البلوى إلى الشافعىّ يهجو عبد الله بن مصعب ... » .

هَمَمْتَ به أو تريد[١] القدوم عليه ، فلا تفعَلْ ـ أمتَعَ الله بك[٢] ـ فإن حُسْنَ الظنّ به لا يقع فى الفَهْم إلا بخِذْلان الله ، وإن الطمع فيما عنده لا يخطُر على القلب إلا من سوء التوكل على الله عز وجل ، وإن الرجاء لما فى يده لا ينبغى[٣] إلا بعد اليأس من رَوْح الله ، لأنه يَرَى أن الإقتارَ الذى نهى الله عز وجل عنه هو التبذير الذى يعاقِب الله فيه ، وأن الاقتصاد الذى أمر الله به هو الإسراف الذى يعذِّب الله عليه ، وأن بنى إسرائيل لم يستبدلوا العَدَسَ بالمَنّ[٤] ، والبصلَ بالسَّلْوَى ، إلا لفُضولِ أحلامهم ، وقديم علمٍ توارثوه عن آبائهم ، وأن الضيافة مرفوعة ، وأن الصلة موضوعة ، وأن الهبَة مكروهة ، وأن الصَّدَقة منسوخة ، وأن السَّلَف[٥] بدعة ، وأن التوسُّع ضلالة ، وأن الجُود فُسُوق ، وأن السخاء من هَمَزات الشياطين ، وأن مواساةَ الرجل أخاه من العظائم المُوبقة[٦] ، وأن إفضاله عليه إحدى الكبائر الموجبةِ الهَلَكَة ، وأن الله لا يغفِر أن يُؤْثِرَ المرء فى الخَصَاصَة على نفسه[٧] ، فقد ضلّ عند أبى بكر

(١) فى مفتاح الأفكار « إذ سرّك القدوم عليه » .

(٢) فيه « يرحمك الله » .

(٣) فيه « لا يكون » والروح : الرحمة ، وأقتر : ضيق فى النفقة .

(٤) المن : طل ينزل من السماء على الشجر ويحلو وينعقد عسلا ويجف جفاف الصمغ ، وكان ينزل عليهم مثل الثلج من الفجر إلى طلوع الشمس ، والسلوى : السمانى ـ بضم السين وتخفيف الميم والقصر ـ وكانت ريح الجنوب تبعثه عليهم وفى ذلك يقول الله تعالى : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ » .

(٥) السلف : القرض الذى لا منفعة للمقرض فيه غير الأجر والشكر ، وعلى المقترض رده كما أخذه .

(٦) أى المهلكة .

(٧) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ

ضلالا بعيداً ، كأنْ لم يسمع بالمعروف إلا فى الجاهلية الأُولَى الذين قطع الله دَابرهم ، ونهى المسلمين عن اتِّباع آثارهم، وكأنْ لم تأخذ الرَّجفةُ آلَ مَدْيَنَ[١] عنده إلا لسخاءٍ كان فيهم ، ولم تُهلِكِ الرِّيحُ العَقِيم عاداً[٢] إلا لتوسُّعٍ ذُكِرَ عنهم ، فهو يخشى العقاب على الإنفاق ، ويرجو الثوابَ على الإقتار ، ويَعِدُ نفسَه الفقرَ ، ويأمرها بالبخل ، خيفةَ أنْ تنزل به قوارِعُ[٣] الظالمين ، أو أن يصيبه ما أَصاب القرونَ الأولين[٤] ، فأقِمْ - يرحمك الله - على مكانتك، واصطبر على عُسْرتك، وتربَّصْ به الدوائرَ[٥] عسى اللهُ أنْ يُبْدِلَنا

ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء » . وقوله : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » . والخصاصة : الفقر .

(١) مدين : بلد شعيب عليه السلام ، بلد بجزيرة العرب على بحر القلزم (كقنفذ وهو البحر الأحمر) محاذ لتبوك على نحو من ست مراحل ، بناه مدين بن إبراهيم عليه السلام فسمى باسمه ، وعليه قوله تعالى : « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ » . ويطلق أيضاً على القبيلة ، وعليه قوله تعالى : « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ » . والرجفة : الزلزلة الشديدة ، قال تعالى فيهم : « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ » .

(٢) عاد : هم قوم هود عليه السلام وكانوا يسكنون الأحقاف - رمل فيما بين عمان إلى حضرموت - قال تعالى فيهم : « وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، مَاتَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ » والريح العقيم : هى الدبور ، وسماها عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم ، أو لأنها لاخير فيها ولا منفعة ، لأنها لاتحمل المطر ولا تلقح الشجر .

(٣) القوارع : جمع قارعة ، وهى الداهية الفاجئة .

(٤) وفى مفتاح الأفكار « ماأصاب القوم المجرمين » .

(٥) الدوائر : جمع دائرة ، وهى الهزيمة ، وتربص به : انتظر به شرا (أو خيرا) يحل به .

خيْرًا مِنْهُ زكاةً وأقْربَ رُحْمًا[1]» . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٢ ومفتاح الأفكار ٢٧٨)

١٤٨ - كتاب آخر له

وكتب إلى ذلك الرجل الذى يصف له عبد الله بن مُصْعَب :

« أما بعد ، فإنكَ كتبت إلىّ تسألنى عن عبد الله بن مصعب ، فكان وَالله غثًّا[2] فى دينه ، قَذِراً فى دنياه ، رَثًّا فى مُرُوءته ، سَمِجا فى هيئته ، مسكينا فى علمه ، منقطِعا إلى نفسه ، راضيا عن عقله ، بخيلا بما وَسَّع الله عليه من رزقه ، كَتُوماً لِما آتاه الله من فضله ، حَلَّافا لَجُوجاً لا يُطْمَع فيما عنده حتى يحلِف ألا يفعل ، ولا يُرَجّى منه أحد ما يُعطى حتى يُقْسِم بالله ألاَّ يقبَلَ ، فإذا ألحّ فى ذلك وأكثرَ حَنِثَ متعمِّدا ، وأتى الذى ذكره من ذلك متطوّعا ، لو أنفقَ ما فى الأرض جميعا لم يكن ذلك قدرَ حِنْثه فى هَزْله ، فكيف ظنُّك بكفَّارة حلِفه فى جِدِّه ؟ ولو سكَن الفالِجُ[3] فى لسانه لم ينقُصْ ذلك حرفا واحدا من إيمانه ، أشدُّ الناس إكراماً لأبْعدِهم من ذلك استحقاقا ، وأقلّ الناس إحسانا إلىّ أشدهم لذلك استيجابا ، كأنّ البخل والشؤم صارا جميعا فى سَهْمه ، وكانا قبل ذلك حَظّا[4] فى قَسْمِه ، فاستَجْمَعَهما من الورَثة ، واستحقّ ما استهلك منهما بالشُّفْعَة ، واستولاهما من كلٍّ بالقيمة ،

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا » أى رحمة .

(٢) الغث : ضد السمين ، أى رقيق الدين مهزوله .

(٣) الفالج : مرض يحدث فى أحد شق البدن طولا فيبطل إحساسه وحركته ، وربما كان فى الشقين . (٤) فى الأصل « خطا » وهو تحريف .

وَأشهدَ على حِيازتهما أهلَ الدين والأمانة ، حتى خَلَصا له من كل بائع ، وَسَلِما من تَبِعة كل منازع ، فلا يُصيب إلا مخطئا ، وَلا يُحْسِن إلا ناسيا ، ولا يُنفق إلا كارها ، ولا يُنْصِف إلا صاغرا ، ولا يَعْدِل إلا راهِبا[1] ولا يرفع نفسه عن[2] منزلة إلا ذَلَّ بعد تعزُّزه فيها ، ولا يَكْرَه خُطَّةَ سُوءٍ إلاَّ أصابه ماهو شَرٌّ منها ، لا تُرَدُّ أعناقُ أموره إلا على تعسُّف وَجَهالة ، ولا تَصْدُر أعقابُ رأيه إلاَّ عن حُرْقة وندامة ، برَأْيِ جَدِّه[3] خرجَتْ أُمُّنا[4] ، وشُؤْمِ والده[5] هُدِمَتْ قِبْلَتنا ، وعلى يديه ظهر الدجّالُ فينا ، فمن يَهْدِه الله يَوْمَئذٍ فهُو المُهْتَدِ ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً[6] » .

(المنظوم والمنثور ١٢ : ٤١٣)

١٤٩ كتاب آخر

وكتب إليه :

« أما بعد ، فإنك كتبتَ إلَيّ تسألني عن عبد الله بن مُصْعَب ، فكان واللهِ قويّا على أهل الضعف والمَسْكَنة ، ذليلا عند أهل الجَلد والقوة ، بليغا فيما استحَى الحكماء من ذكره ، وصَّافا لما لا يُنتَفَع به ، كَليلاً عما لا يُسْتَغنَى

---

(١) أي خائفا ، وفي الأصل « راغبا » وهو تحريف .

(٢) الظاهر أن صوابه « إلى » .

(٣) يعني الزبير بن العوام . (٤) يعني أم المؤمنين السيدة عائشة .

(٥) يعني عبد الله بن الزبير . وقد عاذ بالكعبة وقاتله الحجاج ورمى الكعبة بالمنجنيق كما قدمنا في الجزء الثاني .

(٦) الآية الكريمة : « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ » .

عنه ، قد غلبَتْ عليه الدَّعابَة واستَهْوَته[1] ، فلا يُحسِن إلا تُرَّهاتِ[2] الأمور ، ولا يحفظ إلا سَفْسَافَ[3] الأحاديث ، ولا يَرْوِى إلا خُرافاتِ الأباطيل ، فأمّا البصيرةُ النافعة ، والحكمة البالغةُ ، فقد أصبح منها أبو بكر[4] غُفْلاً ، وفى المعرفة بها طِفْلا ، ولو لبِث أربعين سنة لم يَفْهَم أُولاها ، ولم يعرِف أُخراها ، إلا نظرَ المَغْشِىِّ عليه من الموت[5] » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٣)

١٥٠ — كتاب آخر

وله أيضاً فيه[6] :

أما بَعدُ : فَإِنَّ مِن النَّاسِ مَنْ تَحَمُّلُ حاجَتِهِ أَهْوَنُ مِن فُحشِ طَلَبه ، ومنهم من حِمْلُ عداوته أخفُّ من ثِقْل صداقته ، ومنهم من إفراط لائمته أحسنُ مِن قَذْر مِدْحته[7] ، وإن الله خلق أبا بكر لِيَغُمَّ به الدنيا ، ويقذِّر به أهلَها ، فهو على قَذَره فيها مِن حُجَج الله على أهلها ، فأسألُ الذى فتَنَ الأرض بحياته ، وغَمَّ أهلها بطول بقائه ، أَن يُديلَ بَطْنَها مِن ظهرها[8] ، والسلام » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٣ ومفتاح الأفكار ص ٢٨٠)

(١) أى استمالته . (٢) الترهات جمع تُرَّهة : وهى الباطل .
(٣) السفساف : الردىء من كل شىء . (٤) كنية عبد الله بن مصعب .
(٥) أخذه من قوله تعالى : « يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » .
(٦) ورد هذا الكتاب فى مفتاح الأفكار منسوبا إلى بشر البلوى أيضا .
(٧) القذر : التضييق ، وفى المنظوم والمنثور « ومنهم من فرط لائمته أخف من قدر صداقته » .
(٨) أداله الله من عدوه : نصره عليه ، والمعنى : أن ينصر الله بطن الأرض على ظهرها ، فيظفر منه ابنذلك المهجو ويضمه إليه : أى أن يميته الله ويهلكه .

١٥١ — كتاب آخر

وكتب إليه :

« أما بعد ، فإني قد ظننتُ أنه لم يَدْعُك إلى خلاف أمير المؤمنين في عهده ووصيه ، وتَرْكِ ما أمرك به من القسم في رعيته ، مع البغض لأهل بيته والفرية على قرابته ، إلا أنك لم تَرَ أن تَمَسَّك النارُ إلا أيامًا معْدُودةً[١] ، وأنك فكَّرتَ في ذلك وقدَّرْتَ[٢] ، فقلتَ : نصيحةٌ ظاهرةٌ ، وفِرْيةٌ غائبةٌ ، ومُتْعة عاجلة ، ومواعيد آجلة ، وتهاونْتَ بعذاب الآخرة ، ولو قد لقِيتَ أبا مُسْلِم وأتيتَ الحَجّاج ، وجُمع بينك وبين أخوَيْك : مروان بن الحكم ، ومُسْرِف[٣] بن عُقْبة ، لقد أعلمَك القومُ جميعاً أنهم وجدوا مثقال الذرّة مكتوبًا ، ووزنَ الحَبّة محسوبًا ، وأنهم قد أُخِذُوا بأَيْسَرَ من ذَنْبك ، وعُذِّبوا بأصغَرَ من جُرْمك ، وأن الأيام ليست كما عَدَدْتَ ، وأن المُدة على غير ما كنتَ حَسَبْتَ ، وأنك قد أوهمتَ[٤] حين فكَّرت ، وأسأتَ حين قدَّرت ، وأنهم كانوا ظنوا كما ظننتَ ، فَأَرْدَاكُمْ ظَنُّكُم الَّذِي ظَنَنْتُمْ بربكم فأصْبَحْتُمْ مِنَ الخاسرين . فإن تَصْبِرُوا فالنَّارُ مَثْوًا كم وَإنْ تَسْتَعْتِبُوا فَما أَنْتُمْ مِنَ المُعْتَبِينَ[٥] » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٤)

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً » .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ » .

(٣) هو مسلم بن عقبة المرى صاحب يوم الحرة — انظر الجزء الثاني ص ٩٧ — وقد سمى مسرفا ، والمراد هنا أنهما أخواه في الفعل .

(٤) وهم كوعد وورث وأوهم بمعنى .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى : « وَلَـكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا

١٥٢ ــ كتاب آخر

وكتب إليه أيضاً :

« أما بعد ، فإن الله قد وعدك وَعْداً حَسَناً (١) ، فلستُ أدرى أطال عليك العهدُ فقَسَا قلبُك ، أم أردتَ أن يحلّ عليك غضبٌ من ربك ، فأخلفتَ مَوْعِدَه الذى وعدْتَه ، ونقضتَ عهدَه الذى عاهدتَه ، وصحبْتَ أعداءه ، وهو يدعوك من أخراك فيدْفعك عن أولاك ، فلا دعاؤه نفعكَ ، ولا دفْعُه منَعَك ، حتى نفَرت على وَجْهك « كالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فى الأَرْضِ حَيْرَانَ » وقد ألقيتَ حِمْلَكَ من كتاب الله ، ونَزَعْتَ حَبْلَك من عُرْوَة الله ، فما أدْرى أيها الرجل : مَن استخلفْتَ على أهلك ، أم بمن تثقُ فى حال غربتك ، أم على مَن تتكل فى هَوْلِ سَفَرك ؟ أبالله أم عليه (٢) ؟ وكيف ولست أخاف عليك أحداً غيره (٣) ؟ والسلام » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٥)

تَعْمَلُونَ وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » واستعتب : طلب العتبى بالضم أى الرضا ، وأعتبه : أرضاه .

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى » .

(٢) فى الأصل « عليه » . وهو تحريف .

(٣) انظر كتاب بشر البلوى إلى بشار بن رضابة ص ٢٠٤ .

١٥٣ — كتاب آخر

وكتب أيضا :

« أما بعد فإن أبا نَهِيك خبّرنى أنك اختضبْتَ بالوَسْمَة [1]، فعلمتُ أنك أردت بذلك ابتغاء الزينة عند أهل الدنيا ، لِمَا عرَفْتَ من قبح وَجهك عند أهل الآخرة ، لِتركِك الصلوات ، ومَنْعِك الصَّدَقاتِ ، واستحلالِك الحُرُمات ، وكلما ازددتَ من ذلك إكثارا ، كنتَ عند نفسك من المقصِّرين ، وعند أهل السماء من الممقوتين ، وفى أهل الأرض من المترَضين ، فالحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به ، فإنك من الذين قال الله عز وَجل فيهم فى كتابه : « وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٦)

١٥٤ — كتاب آخر

وكتب أيضاً :

« أما بعد ، فإن الله حبَّبَ إلى كل مسلم شُعْبةً من دينه ، فمنهم من حَبَّب إليه الصلاةَ ، فهو قانِتٌ آناءَ الليل ساجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ [2] ، ومنهم من حَبَّب إليه الزكاةَ ، فهو يُنْفِقُ ماله بالليل

---

(١) الوسمة : نبات يخضب بورقه .

(٢) الآية الكريمة : « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ... ... » والقنوت : الدعاء ، والقيام فى الصلاة والطاعة .

والنهار سِرًّا وعَلانيةً ، ابتغاءَ مَرْضاةِ الله وتَثْبيتاً مِنْ أنْفُسِهِم[١] ، ومنهم من حُبِّب إليه الجهاد ، فهو بين المسلمين وبين عدوهم ، يَذُبُّ عن حريمهم ، ويقاتل مِنْ دُونِهم ، وفاءً بعهد الله ، وتسليما لبيعة الله. فأمّا الراسخون فى العلم ممن قد عَرَف سيرتك ، وما أبْدَى لهم الله من سريرتك ، فقد اقتصروا على بغضك ، ثقةً والله بعداوتك ، فهـم لا يُوتِرون[٢] إلا بك وبأشباهك ، ولا يَرَوْن القُنُوتَ اليوم واجبا إلاَّ مِن أجْلِكَ وأجل أضرابك[٣] ، ولا يعتمدون بالدعاء فيه إلا عليك وعلى أمثالك ، حِفْظاً على صلواتهم ، ورعايةً لِما ائتُمِنُوا عليه من دينهم[٤] ، ووفاءً بعهد الميثاق الذى أُخِذَ عليهم : أن يُصَلُّوا مع الله وملائكته على رسوله[٥] ، وأن يلعنوا مع الله مَنْ لَعَنَ من

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » . وقوله : « وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ٱللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

(٢) أوتر : صلى الوتر ، وأقنت : دعا على عدوه ، وجاء فى لسان العرب « وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قنت شهرا فى صلاة الصبح بعد الركوع يدعو على رعل (بكسر الراء) وذكوان (بفتح الذال) وجاء فى تاريخ الطبرى ٦ : ٤٠ « وكان علىّ إذا صلى الغداة يقنت فيقول : اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الأعور السلمى وحبيبا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد ، فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت لعن عليا وابن عباس والأشتر وحسنا وحسينا » .

(٣) الأضراب جمع ضرب بالفتح : وهو المثل .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى فى صفة المؤمنين : « وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » .

(٥) قال تعالى : « إِنَّ ٱللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

أعدائه وأهل معصيته[١] ، فهم يعرِضونك على الله فى أدبار السجود وعند إدبار النجوم[٢] ، ويسألونه بآلائه[٣] مخلِصين ، وبأسمائه مُلحِفين[٤] ، أن يُصيبَك بعذابٍ من عنده أو بأيديهم[٥] ، لِمَا استحلَّتْ جنودك مِن سَفْك الدماء ، وأباحت رُسُلك من حُرَم النساء ، ولِظُلْمِكَ اليتامى ، وافترائك على ذى القربى ، وتعريضك إياهم فى فتوحِك للعقاب والهلَكة والخلاف والمعصية ، فويلٌ لك ولكُتّابك مما كَتَبَتْ أيْدِيكم وَوَيْلٌ لَكُمْ مِمّا تَكْسِبُونَ[٦] ، وقد وردتْ كتُبُك بحمد الله من أمير المؤمنين ـ حفِظه الله ـ على حِلْمٍ لا يُوهنه الغضب ، وعلى عمل لا يغيِّره الكذب ، وعلى إيمان لا يستخفُّه الذين لا يُوقِنُون[٧] ، حفِظ الله أمير المؤمنين حِفْظاً يكون له حِصْناً من عذابه ، وحِرْزاً من غضبه ، وحاجزا من معصيته ، ونورا يستضىء به يوم لِقائه فى خَلْقه ، ويهتدى به إلى جنته » (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٧)

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّٰهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ » .

(٢) قال تعالى : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ » . وقال : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ » وأدبار جمع دبر كعنق ، وإدبار مصدر أدبر .

(٣) الآلاء : النعم .

(٤) فى الأصل « مختلفين » وهو تحريف .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى : « وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ ٱللّٰهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا » .

(٦) اقتبسه من قوله تعالى : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » .

(٧) اقتبسه من قوله تعالى : « وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لاَيُوقِنُونَ » .

١٥٥ ـ كتاب آخر

وكتب إليه (١) :

« أما بعدُ ، فإني رأيتك في أمر دينك مُنْتَقَصا (٢) مخذولا ، وفي أمر دنياك فاجرا مثبورا (٣) ، وفيما بين ذلك مُبْغَضا ممقوتا ، وَتلكَ خِصال لا تجتمع في مسلم إلا بسُوء سَريرة ، أو إصرارٍ (٤) على كبيرة ، أو إضمارٍ لعظيمة يَعُمُّ بها عباد الله ، ويَخُصّ بها أولياء الله (٥) ، ومِن آية ذلك أنه تشمئزّ قلوبُ أهلِ الحَرَمين إذا ذُكِرْتَ ، وَتقشَعِرُّ جُلود أهل المِصْرَين إذا مُدِحْت ، وأنهم لا يزدادون لك إلا بُغْضا ، ولا في الشهادة عليك إلا قَطْعا ، لمعرفتهم بك قديما وحديثا ، وعِلمهم بحالَيْك صغيراً وكبيراً ، فلعمري لئن كنتَ إلى يومك هذا كما ذكروا ، إنك إذَنْ لمن المستهزئين ، ولئن كنت قد نَزَعْتَ (٦) عما عَهِدُوا ، ما خَلَصَتْ لله إذن نيتُك ، ولا صَدَقَتْ توبتُك ، وإن في إعانك لضَعفاً ، وإن في نفسك لوَهْنا ، وإن في صدرك لـكِبْرا ما أنت ببالغِه (٧)

---

(١) نقل صاحب مفتاح الأفكار هذا الكتاب والكتاب الذي يليه ، كتابا واحدا معزوّا إلى بشر البلوى .

(٢) في مفتاح الأفكار « متصنعا » . (٣) أي هالكا أو مصروفا عن الخير .

(٤) في مفتاح الأفكار « أو مقارفة كبيرة » .

(٥) فيه « يعم بها أولياء الله ، ويخص بها ولد رسول الله » .

(٦) نزع عن الشيء كضرب : كف عنه .

(٧) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ » .

وإن فى قلبك لَقَساوة[١] ، وإن فى معيشتك لإسرافا[٢] ، فاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٦ ومفتاح الأفكار ٢٧٩)

١٥٦ — كتاب آخر

وكتب إليه :

« أما بعد ، فإنى نظرت فى قول الله عزّ وجل فى كتابه : « يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » فعلمتُ أنه يريد الطيّباتِ من المكاسب ، وأنه لا يَعْنِى بها الحُلو والحامض ، ولا الحارّ والبارد من الطعام ، وقد زعم أهلُ المعرفة بك أنه لم يقع فى يدك من زِينَةِ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ[٣] ، وأرزاقه الطيبة التى بَسَطها على خلقه ، ماتردّ به جوعةً ، ولا توارى به عورةً ، وإن ذلك لم يصل إليك إلا ببَغْيِ المسلمين ، وبطانة المستهزئين ، وإفْكِ المُفْتَرِين ، ولا أحسبك - إذا كانت بهذا وأشباهه مكاسِبُك - تَبْرَأ من كَسْبِك مِن شىء من دَيْنِك إلى أحد من غُرَمائك إلا صرتَ بها تَبْرَأ من ذلك إلى أهل الأرض ، رهينةً عند أهل السماء ، ولا تصل بشىء من

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » .

(٢) ورد عقب ذلك فى مفتاح الأفكار : « وما أحسبه صح فى يدك من زينة الله التى أخرج لعباده ، وأرزاقه الطيبة التى بسطها على خلقه ، ماتبلغ به لذة ، ولا تقضى به ذمة ، لأن ذلك لم يصل إليك إلا ببغى المسلمين .... إلى آخر ماورد فى الكتاب التالى » .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » . .

جمعك أحداً من ذوى قرابتك إلا كانت مسألة الله إياك عن قطيعتهم أهوَنَ عليك من محاسبته إياك بالذى وصل إليهم منك ، ولا تُنْفِق نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً(١) إلا وُقِّعَتْ لك فى سِجِّين(٢) ، ولا تُرْفَع منزلةً إلا هبطَتْ بك أسفلَ سافِلين(٣) ، وما سَلِمَ — مع ما تعرِف فى نفسك — قلبُك ، حتى عَرَفْتَ به المشرِقَ والمغرِبَ إلا من ضَعفِ قلبك ، ولا فُتِح عليك حتى رجَعْتَ إلى أهلك إلاّ من قلة عقلك ، ولو نَفَرْتَ فى الأرض حَيْرانَ على وَجْهك(٤) ، ورَكِبْتَ الفُلْك أنَفاً من حَدَثك ، أو سرت إلى الجبال هَرَباً من خطيئتك ، أو تَرَمَّمْتَ(٥) العظامَ مع الكلاب ، أو وَلَغْتَ(٦) فضولَ الماء مع السباع ، لَما كان ذلك بقدر جُرمك خَفضا ودَعةً فى حياتك ، وبقدر عملك رَغَدا من

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « وَلاَ يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ » .

(٢) قال تعالى : « كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ » .

(٣) قال تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا » .

(٥) ترمم : تعرّق ، وتعرق العظم : أكل ماعليه من اللحم .

(٦) ولغ الكلب فى الإناء وفى الشراب ومنه وبه يلغ كيهب : شرب مافيه بأطراف أسنانه ، أو أدخل لسانه فيه فحركه .

معيشتك ، ولو ابيضَّتْ عيناك من الحُزْنِ [١] ، أو عَضَضْتَ على يديك [٢] فأَبَنْتَهما من الغَبْنِ، أو تقطَّع قلبك من الهم ، أو ذهبَتْ نفسُك حَسَرَاتٍ [٣] ، لَمَا كان ذلك أَرْشَ [٤] ما خرجْتَ به من دينك ، ولا نَذْرَ ما لَوَيْتَ [٥] به من أمانتك ، ولا قيمة ما فاتك من ربك ، فإذا بلغْتَ من نفسك المسكينة ما بلغْتَ ، ورضيَتْ عنك نفسك الضعيفة بما صنَعْتَ ، فلاَ تَجْعَلْ معَ اللهِ إلٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٥ ومفتاح الأفكار ص ٢٧٩)

١٥٧ — كتاب يحي بن خالد إلى ابنه جعفر

وذكروا أن جعفر بن يحي كان يدخل فى منادمة الرشيد حتى كان أبوه ينهاه عن منادمته ، ويأمره بترك الأنس به ، فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعوه إليه .

وكتب يحي إلى ابنه جعفر حين أعيَتْه حيلتُه فيه :

« إنى إنما أهملتك ليَعْثُرَ الزمان بك عثرة تعرفُ بها أمْرَك ، وإن

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى « وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ » .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً » وأبانه : قطعه .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » .

(٤) الأرش : الدية .

(٥) لوى به : ذهب ، ولوى بحقه : جحده إياه .

كنتُ لَأَخشَى أن تكون التي لا شَوَى[1] لها » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٨٣)

١٥٨ — كتاب يحيى بن خالد إلى أيوب بن هرون بن سليمان

ثم تغيّر الرشيد على البرامكة ، فأوقع[2] بهم (سنة ١٨٧) وقتل جعفرا ، وحبس يحيى والفضلَ وسائر البرامكة فى سجن الزّنادقة إلى أن ماتوا فيه ، واستصفى أموالهم وضياعهم .

ووافى أيوبَ بن هرون بن سليمان بن على خبرُ مَقْتَلِ جعفر وزوال أمرهم ، فكتب إلى يحيى يعزّيه ، فكتب إليه :

« أنَا بقضاء الله راضٍ ، وبالخِيار منهُ عالِم ، ولا يؤاخِذُ الله العبادَ إلا بذنوبهم ، وما ربُّك بِظَلَّامٍ لِلعَبِيد ، وما يعفو الله أكثرُ ، ولله الحمدُ »

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٨٧)

١٥٩ — كتاب يحيى بن خالد إلى الرشيد

وكتب يحيى بن خالد من الحبْس، إلى الرشيد :

« يا أمير المؤمنين إن كان الذنب خاصًّا فلا تعُمَّنّ بالعقوبة ، فإن الله عز وجل يقول : « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٦)

---

(١) لاشوى لها : أى لا برء لها أو لا إبقاء لها ، أشوى من الشىء : أبقى ، والاسم الشوى ، قال الهذلى :

فإن من القول التى لاشوى لها إذا زلّ عن ظهر اللسان انفلاتها

(٢) كان البرامكة قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها . وغلبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى ملكه ، ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها وصورتها — وحديثهم فى ذلك طويل ليس هاهنا موضعه — فعزم على نكبتهم ، حتى انتهز فرصة رجوعه معهم من الحج سنة ١٨٧ هـ ، فقتل جعفرا ليلا فى طريقه ، وقبض على سائر البرامكة وسجنهم .

١٦٠ — بين يحيى بن خالد والرشيد

وكتب يحيى بن خالد وهو فى الحبس إلى هرون الرشيد :

« لِأَمير المؤمنين ، وخليفةِ المهديِّين ، وَإِمامِ المسلمين ، وخليفةِ رب العالمين ، مِن عبدٍ أسلمَتَه[١] ذنوبُه ، وَأَوْبَقَتْه عيوبُه ، وخَذَله شقيقُه ، وَرَفَضه صديقُه . ومالَ به الزمان ، ونزل به الحَدَثان[٢] . فحَلَّ فى الضيق بعد السَّعة ، وعالَجَ البؤسَ بعد الدَّعة ، وافترَشَ السُّخْط بعد الرِّضا ، واكتَحَلَ السُّهاد بعد الهُجُود ، ساعتُه شهر ، وليلتُه دَهْر ، قد عايَنَ الموتَ ، وشارَف الفَوتَ ، جَزَعا لِمَوْجِدتك[٣] ياأمير المؤمنين ، وأسَفًا على مافات من قربك ، لا على شىء من المواهب ، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك ، وكانا فى يدىّ عاريَّةً[٤] ، والعاريةُ مردودَة ، وأما ما أُصِبْتُ به من ولدى فبِذَنبه ، ولا أخشى عليك الخطأ فى أمره ، ولا أن تكون تجاوزتَ به فوق حَدِّه ، فتذكَّرْ يا أمير المؤمنين كِبَرَ سِنِّى ، وَضعف قوّتى ، وارحَم شيبتى ، وهب لى رضاك ، بالعفو عن ذنب

(١) أسلمته : خذلته ، فأسقطته من عليا مرتبته . أو أسلمته إلى السجن والعذاب ، وأوبقته : أهلكته .

(٢) حدثان الدهر بالتحريك : حوادثه ونوبه ، وربما أنثه العرب ، يذهبون به إلى الحوادث كما فى قوله :

ألا هلك الشهاب المستنير ومدرهنا الكمى إذا نغير
ووهاب المئين إذا ألمت بنا الحدثان والحامى النصور

وأما حدثان الأمر (بكسر فسكون) فهو أوله وابتداؤه ، يقال : أتيته فى حدثان شبابه ، ووقع هنا خطأ لصاحب القاموس نشأ من الاختصار قال : « وحدثان الأمر بالكسر : أوله وابتداؤه كحداثته ، ومن الدهر : نوبه كحوادثه وأحداثه » والصواب : والحدثان بفتحات من الدهر نوبه . . . الخ والدعة : الراحة وخفض العيش .

(٣) الموجدة : الغضب .

(٤) العارية مشددة وقد تخفف : مايستعار .

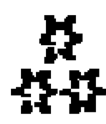
إن كان[1] ، فمِنْ مثلى الزَّلَلُ ، ومن مثلك الإقالة ، وإنما أعتذر إليك بإقرار ما يجب به الإقرار حتى ترضَى عنى ، فإذا رضيتَ رجوتُ إن شاء الله أن يتبين لك من أمرى وبراءة ساحتى ما لا يتعاظمك[2] بعدهُ ذنبٌ أنْ تَغْفِرَه ، مَدّ الله لى فى عمرك ، وجعل يومى قبل يومك ، وكتب إليه بهذه الأبيات :

قل للخليفة ذى الصَّنيـعة والعطايا الفاشيَهْ
وابنِ الخلائف من قُريشٍ والملوك العاليَهْ
إن البرامكةَ الذينَ رُمُوا لديك بداهيه
صُفْرُ الوجوه عليهمُ خِلَعُ المَذَلة بادِيَه
فكأنَّهم مما بهمْ أعجازُ نخلٍ خاوِيَه
عمَّتْهمُ لك سَخْطَةٌ لم تُبْقِ منهم باقِيَه
بعد الإمارة والوزا رة والأمور الساميه
ومنازلٍ كانت لهم فوق المنازل عاليه
أضْحَوا وجُلُّ مُناهمُ منك الرضا والعافيه
يا من يودُّ لىَ الرَّدَى يكفيك منى ما بِيَه
يكفيك ما أبصرتَ من ذُلِّى وذلِّ مكانِيَه
وبكاءُ فاطمةَ الكئيبة والمدامعُ جاريه[3]
ومقالُها بتوجُّعٍ ياسَوْءَتى وشقائِيَه !

(١) وفى العقد « ففكر فى أمرى — جعلنى الله فداك — وليمل هواك بالعفو عن ذنب ... » .
(٢) تعاظمه : عظم عليه .
(٣) هى زوجه فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة بن شبيب .

مَن لِى وقد غضِبَ الزما ن على جميع رجالِيَه ؟
يا لَهْفَ نفسى لَهْفَها ما لِلزمان ومالِيَه ؟
يا عَطْفَةَ الملك الرِّضا عُودِى علينا ثانيهْ

فلم يكن له جواب من الرشيد .



وَفى رواية أن الرشيد ردَّ عليه من كتاب :

« إن أمير المؤمنين لم يأتِ على ولدك اللَّعين ، ومِنْ رأيه تَرْكُ الباقين ، ولم يأمر بحبسك ، وهو يريد بقاء نفسِك ، إنما أخّرك وإياهم لتعالجَ البؤس بعد النعيم ، ثم تصير إلى العذاب الأليم ، فأَبشِر أيها المخادع الزِّنْديق ، والمخالف الفِسِّيق [1] ، بما أعدَّ لك أمير المؤمنين من تبديد شملك ، وخمول ذكرك ، وإطفاء أمرك ، فتوقَّعْه صباحا ومساء » ووقَّع الرشيد عليه : « وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ »

واعتل يحيى فى الحبس ، فلما أشفى [2] دعا برقعة ، فكتب فى عنوانها : يُنفَّذ أمير المؤمنين أبقاه الله عهدَ مَولاه يحيى بن خالد ، وفيها مكتوب .

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : قد تَقدَّم الخَصم إلى مَوْقِف الفَصْل ، وأنت على الأَثَر ، والله حَكَمٌ عَدْل . وستَقْدَم فتَعْلَمَ » فلما ثَقِل [3] قال للسَّجان :

---

(١) رجل فاسق وفسيق كسكير ، وفسق كزحل : دائم الفسق .

(٢) أى أشفى على الموت : أى أشرف .

(٣) ثقل كفرح فهو ثقيل وثاقل : اشتد مرضه .

هذاعهدى تُوصله إلىأمير المؤمنين ، فإنه ولىّ نعمتى ، وَأحقُّ من نفَّذ وصيتى ، فلما مات يحي أوصل السجان عهده إلى الرشيد .

قال سهل بن هرون : وأنا عند الرشيد إذ وصلت الرقعة إليه . فلما قرأها جعل يكتب فى أسفلها ، ولا أدرى لِمَن الرقعة ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، ألاَ أ كفيك ؟ قال : كلا ، إنى أخاف عادة الراحة أن يتقوى سلطانُ العجز ، فيحكم بالغَفلة ، ويقضى بالبلادة ، ووقَّع فيها : « الحَكَمَ الذى رضيتَ به فى الآخرة لك ، هو أعْدَى الخصوم عليك ، وهو من لا يُنْقَض حكمه ، ولا يُرَدُّ قضاؤه » قال : ثم رمى الصكّ إلىّ ، فلما رأيته علمت أنه ليحي ، وأن الرشيد أراد أن يُؤْثِر الجواب عنه

« العقد الفريد ٣ : ٢٢٥ » وغرر الخصائص الواضحة ص ٤٠٦ والإمامة والسياسة ٢ : ١٣٨

١٦١ — عهد الأمين على نفسه للرشيد

وحجَّ الرشيد ومعه ابناه محمد الأمين[١] وعبد الله المأمون[٢] وقُوّادُه ووزراؤه وقضاته سنة ١٨٦ هـ ، فلما قضى مَناسِكه استكتب ولدَيْه الأمين والمأمونَ بخط يدهما عهدين ، عَهِد فيهما بالخلافة من بعده للأمين، ثم من بعد الأمين للمأمون ، وأشهَدَ فيهما ، وأمر بتعليقهما فى داخل الكعبة ، وتقدَّم إلى حَجَبتها فى حفظهما ومَنْع من أرادَ إخراجهما والذهاب بهما .

ونسخة عهد الأمين ـ كما رواه الطبرى ـ :

(١) وأمه زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور .
(٢) وأمه أم ولد يقال لها مراجل .

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتابٌ لعبد الله هرون أمير المؤمنين، كتَبَه محمد بن هرون أميرِ المؤمنين فى صحّة من عقله، وجَوازٍ من أمره، طائعاً غيرَ مُكْرَه : إن أمير المؤمنين ولاّنى العهدَ من بعده، وصيّر البَيعةَ لى فى رقاب المسلمين جميعا، وَوَلَّى عبد الله بن هرون أميرِ المؤمنين العهدَ والخلافةَ وجميعَ أمور المسلمين بعدى، بِرِضاً منى وتسليم، طائعا غيرَ مُكْرَه، وولاّه خراسان وثغورها وكُوَرَها وحَرْبها وَجُندها وخَراجها وَطِرازها[1] وبَريدها وبيوتَ أموالها وَصدقاتِها وعُشْرها وعشورها وجميع أعمالها فى حياته وبعده.

وشَرَطْتُ لعبد الله هرون أمير المؤمنين، بِرِضاً منى وطيبِ نفسى، أنّ لأخى عبد الله بن هرون علىَّ الوفاءَ بما عَقَد له هرون أمير المؤمنين، من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعا بعدى، وتسليمَ ذلك له، وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلِّها وما أقطعَه أمير المؤمنين من قَطيعة، أو جَعَلَ له مِن عُقْدة[2] أو ضَيْعة من ضِياعه، أو ابتاعَ من الضِّياع والعُقَد، وما أعطاه فى حياته وصحته، من مال أو حُلِيٍّ أو جوهر أو مَتاع أو كُسوة أو منزل أو دوابّ أو قليل أو كثير، فهو لعبد الله بن هرون أمير المؤمنين مُوَفَّرا مُسَلَّما إليه، وقد عَرَفت ذلك كله شيئا شيئا.

فإن حَدَث بأمير المؤمنين حَدَثُ الموت، وأفْضَتِ الخلافة إلى محمد

---

(١) الطراز : ماينسج من الثياب للسلطان، والموضع الذى تنسج فيه الثياب الجياد، فارسى معرب، وقد جاء فى تاريخ الطبرى (١٠ : ١٣٩) أنه كان للطراز دور كدور ضرب النقود .

(٢) العقدة : الضيعة والعقار الذى اعتقده صاحبه ملكا (واعتقد الضيعة والمال : اقتناهما) .

ابن أمير المؤمنين ، فعلى محمدٍ إنفاذُ ما أمَرَه به هٰرون أمير المؤمنين ، فى تولية عبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين خراسان وثغورَها ، وَمَن ضَمَّ إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقَرْماسِين[1]، وأن يُمْضِىَ عبدَ الله ابن أمير المؤمنين إلى خراسان والرَّىّ والكُوَر التى سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين و غيره من سلطان أمير المؤمنين ، وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحبَّ من لَدُن الرَّى إلى أقصى عمل خراسان ، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوّل عنه قائداً ولا مَقُوداً ولا رجلا واحداً ممن ضُمَّ إليه من أصحابه الذين ضَمَّهم إليه أمير المؤمنين ، ولا يحوِّل عبدَالله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التى ولّاه إياها هٰرون أمير المؤمنين من ثُغور خراسان وأعمالها كلِّها ، ما بين عَمَل الرَّىّ مما يلى هَمَذَان إلى أقصى خراسان وثغورها و بلادها وما هو منسوب إليها ، ولا يُشْخِصه[2] إليه ، ولا يفرِّق أحداً من أصحابه وقوّاده عنه ، ولا يُوَلِّى عليه أحداً ، ولا يَبْعث عليه ولا على أحد من عمّاله ووُلاة أموره بُنْداراً[3] ولا محاسِباً ولا عاملا ، ولا يُدْخِل عليه فى صغير من أمره ولا كبيرٍ ضرراً ، ولا يَحُول بينه وبين العمل فى ذلك كله برأيه وتدبيره ، ولا يَعرِض لأحد ممن ضَمَّ إليه أميرُ المؤمنين ، من أهل بيته وصَحابته وقُضاته وعمّاله وكتّابه وقوّاده وخَدَمه ومَواليه وجُنده ، بما يلتمس إدخالَ الضرر والمكروه عليهم ، فى أنفسهم ولا

(١) قرماسين : موضع ، قال ياقوت : أظنه فى طريق مكة .

(٢) أى ولا يقدمه إليه ، وفى الأصل « ولا شخصه إليه » وهو تحريف .

(٣) البندار : التاجر الذى يخزن البضائع للغلاء وجمعه بنادرة ، دخيل .

قَراباتهم ولامَواليهم ، ولا أحدٍ ينْسَلَ[1] منهم ، ولا فى دمائهم ولافى أموالهم ، ولا فى ضِياعهم ودُورهم ورِبَاعهم[2] وأمتعتهم ورقيقهم ودوابِّهم ، شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً ، ولاَ أحد من الناس بأمْره ورأيه وهواه ، وبترخيص له فى ذلك ، وإدهانٍ[3] منه فيه ، لأَحَد من ولد آدم ، ولا يَحْكُمُ فى أمرهم ولا أحدٌ من قضاته ومن عماله وممن كان بسبَبٍ منه ، بغير حُكْمِ عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قضاته .

وإن نزَعَ[4] إليه أحدممن ضَمَّ أميرالمؤمنين إلى عبدالله ابن أميرالمؤمنين ، من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقواده وعماله وكتابه وخدمه ومواليه وجنده ، ورفَض اسْمَه ومَكْتَبَه ومكانَه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين ، عاصياً له أومُخالِفاً عليه ، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين ردُّه إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين بصِغَرَ[5] له وقَماء ، حتى يُنفِذ فيه رأيه وأمْرَه .

فإن أراد محمد ابن أميرالمؤمنين خَلْعَ عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده ، أو عَزْلَ عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورِها وأعمالِها ، والذى مِنْ حَدِّ عملها مما يلى هَمَذانَ ، والكُوَرِ التى سماها أمير المؤمنين فى كتابه هذا ، أو صَرْفَ أحدٍ من قُوّاده الذين ضمَّهم أمير المؤمنين إليه ممن قَدِم قَرْماسِين ، أو أن ينتقِصه قليلا أو كثيرا مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بحيلة من الحيل ، صَغُرت أو كَبُرت ،

---

(١) أى يولد ، نسل كنصر وأنسل : ولد ، وفى الأصل «يتنسل» وهو تحريف .
(٢) الرباع : جمع ربع بالفتح ، وهو المنزل.
(٣) الإدهان : إظهار خلاف مايضمر والغش .
(٤) أى مال . (٥) الصغر : كعنب ، والصغار بالفتح : الذل ، وكذا القماء والقماءة .

فلعبد الله ابن هٰرون أمير المؤمنين الخلافةُ بعد أمير المؤمنين ، وهو المقدَّم على محمد ابن أمير المؤمنين ، وهو وليُّ الأمر من بعد أمير المؤمنين ، والطاعةُ من جميع قواد أمير المؤمنين هٰرون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار، لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، والقيامُ معه والمجاهدةُ لمن خالفَه ، والنصرُ له ، والذَّبُّ عنه ، ما كانت الحياةُ في أبدانهم ، وليس لأحد منهم جميعاً مَن كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ، ولا يَعْصِيَه ، ولا يخرج من طاعته ، ولا يُطيع محمد ابن أمير المؤمنين في خَلْع عبد الله ابن هٰرون أمير المؤمنين ، وصَرْف العهدِ عنه من بعده إلى غيره ، أو ينتقصه شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هٰرون في حياته وصحته ، واشترط في كتابه الذي كتبَه عليه في البيت الحرام في هذا الكتاب ، وعبدُ الله ابن أمير المؤمنين المصدَّقُ في قوله ، وأنتم في حِلٍّ من البَيْعة التي في أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين هٰرون إن نَقَص شيئا مما جَعَله له أمير المؤمنين هٰرون ، وعلى محمد بن هٰرون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله بن أمير المؤمنين هٰرون ، ويسلِّم له الخلافة ، وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين هٰرون ، ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، أن يخلعا القاسم[1] ابن أمير المؤمنين هٰرون ولا يقدِّما عليه أحدا من أولادهما وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البريَّة ، فإذا أفضتِ الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، فالأمرُ إليه في إمضاء ما جَعَله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صَرْفِ ذلك عنه إلى مَن رَأَى من ولده وإخوته ،

(١) وكان يلقب بالمؤتمن ، وأمه أم ولد يقال لها قصف (والمعتصم بن الرشيد أمه أم ولد أيضا يقال لها ماردة) .

وتقديم من أراد أن يقدمٍّ قَبْله ، وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعدَ مَن يقدم قبله ، يَحكُمُ فى ذلك بما أحبَّ ورأى .

فعليكم معشرَ المسلمين إنفاذ ما كتَبَ به أمير المؤمنين فى كتابه هذا ، وشَرَط عليهم ، وأمَرَ به ، وعليكم السمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجَبَ عليكم لعبد الله ابن أمير المؤمنين، وعهد الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وَسلم وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التى أخَذَ الله على الملائكة المقرَّبين والنبيين والمرسلين ، ووكَّدها فى أعناق المؤمنين والمسلمين : لَتَفُنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمَّى ، ولمحمد وعبد الله والقاسم بَنى أمير المؤمنين بما سَمَّى وكَتب فى كتابه هذا واشترط عليكم وأقررتم به على أنفسكم، فإن أنتم بَدَّلتم من ذلك شيئا أو غيرتم أو نكَثْتم أو خالفتم ما أمَركم به أمير المؤمنين واشترط عليكم فى كتابه هذا ، فبرِئت منكم ذمَّةُ الله وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وذمم المؤمنين والمسلمين، وكل مالٍ هو اليوم لكل رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنةً فهو صَدقة على المساكين ، وعلى كل رجل منكم المشىُ إلى بيت الله الحرام الذى بمكة خمسين حِجَّةً نَذْرا واجباً لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك ، وكل مملوك لأحد منكم أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنةً حُرٌّ ، وكل امرأة له فهى طالق ثلاثا ألبتَّةَ طلاقَ الحَرَج [1] لا مَثْنَوِيَّةَ فيها ، والله عليكم بذلك كفيلٌ وراعٍ وكفى بالله حَسيبا » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٢)

---

(١) انظر ص ١٦١ ، ويقال : حلف يمينا لامثنوية فيها : أى لا استثناء فيها .

١٦٢ — صورة أخرى

وروى صاحب صبح الأعشى عهد الأمين بصورة أخرى . وهى :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : هذا كتابٌ لعبد الله هٰرون أمير المؤمنين ، كَتَبَه له محمد ابن أمير المؤمنين ، فى صِحّة من بدنه وعقله ، وجوازٍ من أمره ، طائعاً غيرَ مُكْرَهٍ .

إن أمير المؤمنين هٰرون ولاَّنى العهدَ من بعده ، وجعل لى البَيْعةَ فى رِقاب المسلمين جميعاً ، ووَلَّى أخى عبد الله ابن أمير المؤمنين هٰرون العهدَ والخلافة وجميعَ أمور المسلمين من بعدى ، برِضاً منى وتسليم ، طائعاً غيرَ مُكْرَه ، ووَلّاه خُراسان بثُغورها وكُوَرها وجنودها وخَراجها وطِرازها وبَريدها وبيوت أموالها وصَدقاتها وعُشْرها وعُشورها ، وجميع أعمالها ، فى حياته وبعد وفاته ، فشرطْتُ لعبد الله ابن أمير المؤمنين علىّ الوفاء بما جَعَله له أميرُ المؤمنين هٰرون ، من البيعة والعهد وولاية الخلافة وأمور المسلمين بعدى ، وتسليم ذلك له ، وما جَعَل له من ولاية خُراسان وأعمالها ، وما أَقْطَعَه أمير المؤمنين هٰرون مِن قَطِيعةٍ ، وجعل له من عُقْدة أو ضَيْعة من ضِياعه وعُقَده ، أو ابتاع له من الضِّياع والعُقَد ، وما أعطاه فى حياته وصحّته : من مال أو حُلِيٍّ أو جوهر أو متاع أو كِسْوة أو رقيق أو منزِل أو دوابٍّ ، قليلا أو كثيراً ، فهو لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، مُوفَّرا عليه مُسَلَّماً له ، وقد عرَفتُ ذلك كله شيئاً فشيئا باسمه وأصنافه ومواضعه ، أنا وعبد الله بن هٰرون

أمير المؤمنين ، فإن اختلفْنا في شيء منه ، فالقولُ فيه قولُ عبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين ، لا أَتْبَعه بشيء من ذلك ، ولا آخُذه منه ، ولا أنتقِصُه صغيراً ولا كبيراً من ماله ، ولا من ولاية خراسان ولا غيرها ، مما ولّاه أميرُ المؤمنين من الأعمال ، ولا أَعزِله عن شيء منها ، ولا أخلَعه ولا أستبدِل به غيرَه ، ولا أُقدِّم عليه في العهد والخلافة أحداً من الناس جميعاً ، ولا أُدخِل عليه مكروهاً في نفسه ولا دمه ولا شَعْره ولا بَشَره[1] ، ولا خاصٍّ ولا عامٍّ من أموره وولايته ، ولا أمواله ولا قطائعه ولا عُقَده ، ولا أُغيِّر عليه شيئاً لسبب من الأسباب ، ولا آخُذه ولا أحدا من عُمّاله وكُتّابه ووُلاةِ أمره ممّن صَحِبه وأقام معه بمحاسبة ، ولا أَتَتَبَّع شيئاً جَرَى على يديه وأيديهم في ولاية خراسان وأعمالها وغيرها ، مما ولّاه أميرُ المؤمنين في حياته وصحّته ، من الجِباية والأموال والطِّراز والبَريد والصَّدَقات والعُشْر والعُشور وغير ذلك ، ولا آمُر بذلك أحداً من الناس ولا أُرخِّص فيه لغيرى ، ولا أُحدِّث نفسي فيه بشيء أُمضيه عليه ، ولا ألتمِسُ قطيعةً له ، ولا أَنقُص شيئاً مما جعله له هٰرون أمير المؤمنين وأعطاهُ في حياتِه وخلافتِه وسلطانه ، من جميع ما سمَّيتُ في كتابي هذا ، وآخُذ له عليّ وعلى جميع الناس البيعةَ ، ولا أُرخِّص لأحد — من جميع الناس كلّهم في جميع ما ولّاه — في خَلعه ولا مخالفته ، ولا أسمع من أحد — من البريّة في ذلك قولاً ، ولا أَرضَى بذلك في سرٍّ ولا علانية ، ولا أُغمِض عليه ، ولا أتغافل عنه ، ولا أَقبَلُ من بَرٍّ من العباد ولا فاجر ، ولا صادقٍ ولا كاذب ، ولا ناصحٍ ولا غاشٍّ ، ولا قريب ولا بعيد ، ولا أحدٍ

---

(١) البشر : ظاهر جلد الإنسان ، جمع بشرة .

من ولد آدم عليه السلام ، من ذَكَر ولا أُنثى ، مَشُورةً ولا حِيلةً ولا مكيدةً في شيء من الأمور : سِرِّها وعلانيتها ، وحَقِّها وباطِلِها ، وظاهِرِها وباطِنِها ، ولا سببٍ من الأسباب ، أُرِيدُ بذلك إفسادَ شيء مما أَعطيتُ عبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين من نفسي ، وأَوجبتُ له عَلَيَّ ، وشرَطْتُ وسمَّيتُ في كتابي هذا .

وإن أراد به أحدٌ من الناس أجمعين سوءًا أو مكروها ، أو أراد خَلْعَه أو محاربَتَه ، أوالوصولَ إلى نفسه ودمه أوحُرَمه أوماله أوسلطانه أو ولايته ، جميعا أوفُرَادَى ، مُسِرِّين أو مظهرين له ، فإني أنْصُره وأَحُوطه[1] وأدفع عنه ، كما أدفع عن نفسي ومُهْجَتِي ودمي وشَعْري وبَشَري وحُرَمي وسلطاني ، وَأُجهِّز الجنودَ إليه ، وأُعِينه على كل من غَشَّه وخالَفَه ، ولا أُسْلِمُه[2] ولا أَخْذُلهُ ولا أَتخلَّى عنه ، ويكون أمري وأمْرُه في ذلك وَاحِدا أبدا ما كنت حيّا .

وإن حَدَث بأمير المؤمنين هٰرون حَدَثُ الموت ، وأنا وعبد الله ابن أمير المؤمنين بحَضْرة أمير المؤمنين ، أو أَحَدُنا ، أو كنا غائبَيْن عنه جميعا ، مجتمعَيْن كنا أو متفرقَيْن ، وليس عبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين في ولايته بخراسان ، فعليَّ لعبد الله ابن أمير المؤمنين أنْ أُمْضِيَه إلى خراسان ، وأن أُسَلِّم له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها ، ولا أُعَوِّقه عنها ، ولا أحبِسه قِبَلي ، ولا في شيء من البُلدان دون خراسان ، وأُعجِّل إشخاصَه إلى خراسان ، وَالِيًا عليها

---

(١) حاطه : صانه وحفظه (٢) أسلمه : خذله

مُفْرَداً بها ، مُفَوَّضاً إليه جميعُ أعمالها كلها ، وأُشْخِص معه مَن ضَمَّ إليه أمير المؤمنين من قوَّاده وجنوده وأصحابه وكُتَّابه وعُمَّاله ومَواليه وخَدَمه ، وَمن تَبِعه من صنوف الناس بأهليهم وأموالهم ، وَلا أَحبِس عنه أحدا ، وَلا أُشْرِكُ معه فى شىء منها أحدا ، ولا أُرسل أمينا وَلا كاتبا ولا بُنْدارا ، ولا أَضْرِب على يديه فى قليل وَلا كثير .

وَأعطيت هٰرونَ أمير المؤمنين وعبد الله بن هٰرون على ما شرطتُ لهما على نفسى ، من جميع ماسمَّيتُ وكتبت فى كتابى هذا عَهْدَ الله وميثاقَه ، وذمَّةَ أمير المؤمنين وذمَّتى وذمة آبائى وذِمَم المؤمنين ، وأشَدَّ ما أَخَذَ اللهُ تعالى على النبيِّين والمرسلين وخَلْقه أجمعين ، من عهوده ومواثيقه ، والأَيمانَ المؤكَّدة التى أمَرَ الله عز وجل بالوفاء بها ، ونَهَى عن نَقْضِها وتبديلها .

فإن أنا نقضْتُ شيئا مما شَرَطْتُ لهٰرون أمير المؤمنين ولعبدِ الله ابن هٰرون أمير المؤمنين ، وسمَّيْتُ فى كتابى هذا ، أوحَدَّثتُ نفسى أن أنقُضَ شيئا مما أنا عليه ، أوغيَّرتُ أو بَدَّلت ، أو حُلْت أو غَدَرْتُ ، أو قبِلتُ ذلك من أحد من الناس : صغيرا أو كبيرا ، بَرًّا أو فاجرا ، ذَكَرا أو أنثى ، وجماعةً أو فُرَادَى ، فبرِئتُ من الله عز وجل ومن ولايته ومن دينه ومن محمد صلى الله عليه وسلم ، ولَقِيت الله عزَّ وَجل يوم القيامة كافرا مشركا ، وكلُّ امرأة هى اليوم لى أو أتزوجها إلى ثلاثين سنةً طالقٌ ثلاثا ألبتةَ طلاقَ الحَرَج ، وعَلَىَّ المشىُ إلى بيت الله الحرام ثلاثين حِجَّة : نَذْرًا واجبا لله تعالى فى عُنقى ، حافيا راجِلا ، لا يقبل الله منى إلا الوفاءَ بذلك ، وَكلُّ مالٍ هو لى

اليومَ ، أو أملِكه إلى ثلاثين سنةً هَدْيٌ[1] بالغُ الكعبة الحَرَام ، وكلُّ مملوكٍ هو لى اليومَ أو أملِكه إلى ثلاثين سنةً أحرارٌ لوجه الله عز وجل .

وكلّ ما جعلت لأمير المؤمنين ولعبد الله بن هٰرون أميرِ المؤمنين وكَتَبْتُه وشرطتُه لهما ، وحلَفْتُ عليه ، وسمَّيتُ فى كتابى هذا ، لازِمٌ لى الوفاءِ به ، لا أُضمِر غيرَه ، ولا أنوِى إلاَّ إياه ، فإن أضمَرْتُ أو نويتُ غيره ، فهذه العقودُ والمواثيق والأيمان كلُّها لازمة لى ، واجبةٌ علىَّ ، وقُوّاد أمير المؤمنين وجنودُه وأهل الآفاق والأمصار ، فى حِلٍّ من خَلْعى وإخراجى من ولايتى عليهم ، حتى أكون سُوقَةً من السُّوق ، وكَرجل من عُرْض[2] المسلمين ، لا حقَّ لى عليهم ، ولا ولاَية ، ولا تَبِعَة لى قبلَهم ، ولا بَيْعةَ لى فى أعناقهم ، وهم فى حِلٍّ من الأيمان التى أعطَوْنى ، بَرَاءٌ مِن تَبِعتها وَوِزْرها فى الدنيا والآخرة » .

شهد سليمان ابن أمير المؤمنين المنصورِ . وعيسى بن جعفر ، وجعفر ابن جعفر ، وعبد الله بن المهدىّ ، وَجعفر بن موسى أمير المؤمنين، وَإسحٰق ابن موسى أمير المؤمنين ، وَاسحٰق بن عيسى بن على ، وأحمد بن إسماعيل ابن على ، وسليمان بن جعفر بن سليمان ، وَعيسى بن صالح بن على ، وداود ابن عيسى بن موسى ، وَيحْيى بن عيسى بن موسى ، ودَاود بن سليمان ابن جعفر ، وخُزَيمة بن خازم ، وَهَرْثَمَة بن أَعْيَن ، وَيحيى بن خالد ، والفضل ابن يحيى ، وَجعفر بن يحيى ، وَالفضل بن الربيع مَوْلَى أمير المؤمنين ، وَالقاسم ابن الرَّبيع مولى أمير المؤمنين ، ودمانة بن عبد العزيز العَبْسى ، وسليمان

---

(١) الهدى : مايهدى إلى الحرم . (٢) عرض الشيء بالضم : وسطه وناحيته .

ابن عبد الله الأصمّ، والربيع بن عبد الله الحارثى، وَعبد الرحمٰن بن أبى الشمْر الغسَّانى، وَمحمد بن عبد الرحمٰن قاضِى مكَّة، وعبد الكريم بن شُعَيب الحَجَبىّ، وإبراهيم بن عبد الله الحجبى، وَعبد الله بن شعيب الحجبى، وَمحمد ابن عبد الله بن عثمان الحجبى، وَإبراهيم بن عبد الرحمٰن بن نَبيه الحجبىّ، وعبد الواحد بن عبد الله الحجبىّ، وَإسمٰعيل بن عبد الرحمٰن بن نبيه الحجبى، وَأَبَانٌ مَوْلَى أمير المؤمنين، ومحمد بن منصور، واسمٰعيل بن صُبَيح، والحارث مولى أمير المؤمنين، وخالد مولى أمير المؤمنين.

وكتب فى ذى الحجة سنة ست وثمانين وَمائة.

(صبح الأعشى ١٤ : ٨٥)

١٦٣ عهد المامون على نفسه للرشيد

ونسخة عهد المأمون:

«هذا كتاب لعبد الله هٰرون أمير المؤمنين، كتَبَه له عبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين فى صحَّة من عقله، وجَوازٍ من أمره، وصِدْقِ نيَّة فيما كتب فى كتابه هذا، ومعرفةٍ بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين، إن أمير المؤمنين هٰرون ولاّنى العهدَ والخلافة وجميعَ أمور المسلمين فى سلطانه، بعد أخى محمد بن هٰرون، ووَلاَّنى فى حياته وبعده ثغورَ خراسان وكُوَرَها وجميع أعمالها: من الصَّدقات والعُشْر والبَريد والطِّراز وغير ذلك، وشَرَطَ لى على محمد بن هٰرون الوفاء بما عَقَدَ لى من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده، وولاية خراسان وجميع أعمالها، ولا يَعرِض

لى فى شىء مما أقطعنى أمير المؤمنين ، أو ابتاع لى من الضِّياع والعُقد والدور والرِّباع ، أو ابتعتُ منه لنفسى من ذلك ، وما أعطانى أميرُ المؤمنين من الأموال والجوهر والكُسا والمتاع والدوابِّ والرَّقيق وغير ذلك ، ولا يعرِض لى ولا لأحد من عمالى وكتّابى بسبب محاسبة ، ولا يتتبّع لى فى ذلك ولا لأحد منهم أثَرا ، ولا يُدْخِلُ علىّ ولا عليهم ولا على من كان معى ، ومن استعنتُ به من جميع الناس ، مكروهاً فى نفس ولا دم ولا شعر ولا بَشَرٍ ولا مال ولا صغير من الأمور ولا كبير ، فأجابه إلى ذلك وأقرّ به ، وكتب له كتابا أكَّدَ فيه على نفسه ، ورَضِىَ به أمير المؤمنين هٰرون وقبِلَه ، وعَرَف صِدْق نيّته فيه ، فشَرَطْتُ لأمير المؤمنين وجعلْتُ له على نفسى أنْ أسمعَ لمحمد وأُطيعَه ولا أَعصِيَه ، وأنْصَحَه ولا أغُشَّه ، وأوفِّ ببيعته وولايته ، ولا أغْدِر ولا أنكُث ، وأُنفِّذ كُتُبه وأموره ، وأحْسِن مُوازرَته ومكانفَته،[1] وأجاهد عدوَّه فى ناحيتى بأحسن جهاد ، ماوَفَى لى بما شَرَط لى ولأمير المؤمنين فى أمرى ، وسَمَّى فى الكتاب الذى كتبه لأمير المؤمنين ، ورضِىَ به أمير المؤمنين ، ولم ينقص شيئاً من ذلك ، ولم ينقُض أمرا من الأمور التى شَرَطها أمير المؤمنين لى عليه .

فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جُند ، وكتَبَ إلىّ يأمرنى بإشخاصه إليه ، أو إلى ناحية من النواحى ، أو إلى عدو من أعدائه ؛ خالَفَه أو أراد نَقْصَ شىء من سلطانه أو سلطانى ، الذى أسنده أمير المؤمنين إلينا وَوَلّانا إياه ، فعلىّ أن أُنفّذ أمْرَه ولا أخالفه وَلا أُقصّر فى شىء كتب به إلىّ .

(١) المكانفة : الموازرة والمعاونة .

وإن أراد محمد أن يولِّيَ رجلا من ولده العهدَ والخلافةَ من بعدى ، فذلك له ، ما وَفَّى لى بما جعله أميرُ المؤمنين إلىّ ، واشترطه لى عليه ، وَشَرَط على نفسه فى أمرى ، وَعلىّ إنفاذُ ذلك والوفاء له به ، ولا أنقُص من ذلك ولا اغيّره ولا أبدِّله ، ولا أقدِّم قبْله أحدا من ولدى ، وَلا قريبا وَلا بعيدا من الناس أجمعين ، إلاَّ أنْ يُولِّيَ أمير المؤمنين هٰرون أحدا من ولده العهدَ من بعدى ، فَيَلْزَمُنى ومحمداً الوفاء له .

وجعلت لأمير المؤمنين ومحمدٍ علىّ الوفاء بما شَرَطْتُ وسَمَّيْتُ فى كتابى هذا ، ما وَفَّى لى محمد بجميع ما اشترط لى أمير المؤمنين عليه فى نفسى ، وما أعطانى أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسَّماة فى هذا الكتاب الذى كتبه لى ، وعلىّ عهدُ الله وميثاقُه وذمَّة أمير المؤمنين وذمتى وذِمَم آبائى وذمم المؤمنين ، وأشدّ ما أَخذَ الله على النبيين والمرسلين من خَلقه أجمعين ، من عهوده وَمواثيقه والأيمان المُؤَكَّدة التى أمر الله بالوفاء بها ، وَنهى عن نقضها وتبديلها ، فإن أنا نقَضْت شيئا مما شرَطْتُ وسَمَّيْتُ فى كتابى هذا ، أوغيَّرت أو بدّلت أو نكَثْتُ أوغدَرْتُ ، فبرِئتُ من الله عز وَجل ومن ولايته ودينه ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقِيتُ الله يوم القيامة كافرا مشركا ، وكلُّ امرأة هى لى اليومَ أو أتزوجها إلى ثلاثين سنةً طالقٌ ثلاثا أَلْبَتَّةَ طلاقَ الحَرَج ، وكلُّ مملوك هو لى اليومَ أوأملكه إلى ثلاثين سنةً أحرارٌ لوجه الله ، وعلىّ المشىُ إلى بيت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين حِجَّة نَذْراً واجباً علىّ فى عنقى ، حافيا راجلا ، لا يقبل الله منى إلا الوفاء بذلك ، وكل مالٍ هو لى اليومَ أو أملِكه إلى ثلاثين سنةً هَدْىٌ بالغُ الكعبة ،

وكلّ ما جعلتُ لأمير المؤمنين وشرطْتُ فى كتابى هذا لازمٌ لى ؛ لا أُضْمِر غيره ، ولا أنوِى سواه » .

وشهد سليمان ابن أمير المؤمنين ، وفلان ، وفلان

وكتب فى ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائة [1]

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٦ ، وصبح الأعشى ١٤ : ٨٩)

١٦٤ — كتاب الرشيد إلى عماله

وكتب الرشيد إلى عُمَّاله فى هذا الشأن :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بَعدُ فإن الله وَلِىُّ أمير المؤمنين وَوَلِىُّ ما ولاَّه ، والحافِظُ لما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه ، والصانِعُ لَه فيما قَدَّم وأخَّر من أموره ، وَالمُنْعِم عليه بالنصر والتأييد فى مَشارق الأرض ومَغاربها ، وَالكالِئُ [2] والحافظ والكافى من جميع خلْقه ، وَهو المحمود على جميع آلائه [3] ، المسئولُ تمامَ حُسْنِ ما أمْضَى من قضائه لأمير المؤمنين ، وعادتِه الجميلةِ عنده ، وَإلهامَ ما يَرْضَى به ، وَيُوجِبُ لَه عليه أحسنَ المَزِيد من فضله .

وقد كَانَ مِن نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعندعَوامِّ المسلمين ، ما تولَّى اللهُ من محمد وعبد الله ابنَىْ أمير المؤمنين ، مِن تبليغه بهما أحسنَ ما أمَّلَتِ الأمةُ ، ومَدَّت إليه أعناقَها ، وقَذَفَ اللهُ لهما فى قلوب

---

(١) ولم يزل هذان الشرطان معلقين فى جوف الكعبة حتى مات الرشيد ، فلما انقضت سنتان من خلافة الأمين كلم الفضل بن الربيع وزيره محمد بن عبد الله الحجبى فى إتيانه بهما ، فنزعهما من الكعبة وذهب بهما إلى بغداد ، فأخذها الفضل فخرقهما وأحرقهما بالنار .

(٢) أى الحارس والحافظ .

(٣) الآلاء : النعم ، واحدها إلى كحمل ، وألو وألى كشمس وألى كفتى وإلى كغنى .

العامّة من المحبة والمودّة والسكون إليهما والثقةِ بهما ، لِعمادِ دينهم ، وقِوام أمورهم ، وجَمْعِ أُلْفتهم ، وصلاح دَهْمَائهم[1] ، ودفْعِ المحذور والمكروه من الشّتاتِ والفُرقةِ عنهم ، حتى أَلْقَوا إليهما أزِمَّتَهم ، وأعطوهما بيعَتَهم ، وصَفَقَاتِ أيمانهم بالعهود والمواثيق ووَكِيدِ الأَيمان المغلَّظة عليهم ، أراد اللهُ فلم يكن له مَرَدّ ، وأمْضَاه فلم يقدِر أحدٌ من العباد على نقْضِه ولا إزالته ، ولا صَرْفٍ لَهُ عن محبته ومشيئته ، وما سَبَقَ فى علمه منه ، وأمير المؤمنين يَرْجُو تمامَ النعمة عليه وعليهما فى ذلك وعلى الأمة كافةً ، لاعاقِبَ لأمْر الله ، ولا رَادَّ لقضائه ، ولا مُعَقِّبَ لِحُكمِه .

ولم يزَل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عَقد العَهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين ، وعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين ، يُعْمِل فِكْرَه ورَأْيَه ونظره ورَويته فيما فيه الصلاحُ لهما ولجميع الرعية ، والجَمْعُ للكلمة ، واللَّمُّ للشَّعَثِ ، والدَّفعُ للشَّتات والفُرقة ، والحَسْمُ لكيد أعداء النِّعم ، مِنْ أهل الكفرِ والنفاقِ ، والغِلِّ والشقاق ، والقَطْعُ لآمالهم من كل فُرْصة يرجون إدراكها وانتهازها منهما بانتقاص حقهما ، ويستخير اللهَ أميرُ المؤمنين فى ذلك ، ويسأله العزيمةَ له على ما فيه الخِيَرةُ لهما ولجميع الأمة ، والقوةُ فى أمر الله وحقِّه ، وائتلافُ أهوائهما ، وصلاحُ ذاتِ بينهما ، وتحصينُهما من كيد أعداء النعم ، وردُّ حَسَدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما ، فعزَم اللهُ

---

(١) الدهماء : جماعة الناس .

لأمير المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت الله وَأَخْذِ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسمع وَالطاعة وَالإنفاذ لأمره ، وا كتتاب الشرط على كل وَاحد منهما ، لأمير المؤمنين وَلهما ، بأشدّ المواثيق وَالعهود وأغلظِ الأيمان وَالتوكيد، والأخذِ لكل واحد منهما على صاحبه ، بما التمس به أمير المؤمنين اجتماعَ أُلفتهما وَمَودّتهما وَتواصُلهما وَمُوازَرَتهما ومكاتفتهما على حُسن النظر لأنفسهما،ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاهما، وَالجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسُنَن نبيه صلى الله عليه وسلم ، والجهاد لعدوّ المسلمين من كانوا وحيث كانوا ، وقَطْعِ طمع كل عدوّ مُظْهِرٍ للعداوة ومُسِرٍّ لها ، وَكل منافق مارِقٍ وأهل الأهواء الضَّالَّة المُضِلَّة من فرقة تَكيد بكَيْدِ تُوقِعُه بينهما ، وبدَحْس تَدْحَسُ[١] به لهما ، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه ، من الضرب بين الأمة ، والسعي بالفساد في الأرض ، والدعاء إلى البدَع والضلالة ، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته وأمة نبيه محمد صلى الله عليه وَسلم ، ومناصحةً لله ولجميع المسلمين، وذَبًّا عن سلطان الله الذى قدَّره وَتوحّد فيه للذى حمّله إياه ، والاجتهادَ في كل ما فيه قُرْبَةٌ إلى الله ، وما ينال به رضوانهُ والوسيلةَ عنده .

فلمَّا قدِم مكَّةَ أظهر لمحمد وعبد الله رأيه في ذلك ، وما نَظَر فيه لهما ، فقَبِلا كل مادَعاهما إليه من التوكيد على أنفسهما بقبولِه وَكتبا لأمير المؤمنين في بَطْن بيت الله الحرام ، بخُطوط أيديهما ، بِمَحْضَر ممن شهِد المَوْسمَ من أهل

---

(١) دحس بينهم كمنع دحسا : أفسد ، ودحس بالشر : دسه من حيث لا يعلم .

بيت أمير المؤمنين وقوّاده وصحابته وقُضاته وحَجَبة الكعبة وشهاداتهم عليهما كتابين ، استودَعهما أمير المؤمنين الحَجَبة ، وأمرَ بتعليقهما فى داخل الكعبة .

فلما فَرَغ أمير المؤمنين من ذلك كله فى دَاخل بيت الله الحرام وبَطْن الكعبة أمر قُضاتَه الذين شَهدوا عليهما ، وحَضَروا كتابهما ، أن يُعْلِموا جميعَ مَن حَضر الموسمَ من الحاجّ والعُمّارِ[1] ووفود الأمصار ماشهدوا عليه مِن شرطهما وكتابهما ، وقراءة ذلك عليهم ، ليفهموه وَيَعُوه[1] ويعرفوه ويحفظوه ، وَيؤدُّوه إلى إخوانهم وأهلِ بلدانهم وأمصارهم ، ففعلوا ذلك ، وقُرِئَ عليهم الشرطان جميعا فى المسجد الحرام ، فانصرفوا وقد اشتهر ذلك عندهم وأثبتوا الشهادة عليه ، وعَرَفوا نظرَ أمير المؤمنين وعِنايتَه بصلاحهم ، وحَقْن دمائهم ، ولَمّ شَعثهم ، وإطفاء جَمْرة أعداء الله وأعداء دِينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم ، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه فى ذلك .

وقد نَسَخ لك أمير المؤمنين ذَيْنك الشرطين اللَّذين كتبهما لأمير المؤمنين ابناه محمد وعبد الله فى بطن الكعبة فى أسفل كتابه هذا ، فاحْمَدِ الله عز وجل على ما صَنَع لمحمد وعبد الله وَلِيَّيْ عهدِ المسلمين حَمْداً كثيرا ، واشكره بِبلائه عند أمير المؤمنين وعند وليَّيْ عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمّة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا ، واقرأ كتاب أمير المؤمنين على مَن قبَلك من المسلمين ، وَأَفهِمْهم إياه ، وقم به بينهم وأثبتْه فى الديوان قبلِك وقبَل قُوّاد أمير المؤمنين

(١) العمار : المعتمرون — والفرق بين الحج والعمرة : أن العمرة تكون للإنسان فى السنة كلها ، والحج وقت واحد فى السنة . (٢) وعاه يعيه : حفظه .

وَرعيته قِبلك ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله ، وحَسبنا الله ونِعْمَ الوكيل ، وبه الحَوْل والقوة والطَّوْلُ » .

وكتب إسمعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرم سنة ست وثمانين ومائة . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٧)

١٦٥ — رسالة يحي بن زياد الحارثى
فى تقريظ الرشيد

« أما بعدُ : فإنى أسألُ اللهَ لأمير المؤمنين فى غابرِ أموره ، أحسنَ ما عَوَّده فى سالِفِها ، من السلامةِ التى حَرَسَه بها من المكارِه ، والعِزِّ الذى قَهَرَ له به الأعداء ، والنصرِ الذى مكَّن له فى البلاد ، والهُدَى الذى وهب له به المحبَّةَ ، والرِّفْقِ الذى أدَرَّ له به الحَلَبَ[١] ، والاستصلاحِ الذى اتَّسَقَتْ له به الرعيةُ ، حتى يكون ـ بما أعطاه من ذلك ، وما هو مُستقْبَلٌ به منه ـ أبعدَ خُلَفائه فى الخير ذِكراه ذكرا ، وأبقاهم فى العَدْل أثَراً ، وأطولَهم فى العمر مدةً ، وأحسنَهم فى المَعاد مُنقَلَباً .

ثم نحمَدُ اللهَ الذى جعل نِعمتَه على أمير المؤمنين شواهِدَ منه على منزلته منه ، ومكانِه عنده ، لايحتاجُ معها إلى شَهادات المُثْنِينَ ، ولا صفاتِ المقرِّظين ، ثم جعل ذِكرَ نعمتِه على أمير المؤمنين ومُناصَحتَها والمجاهدةَ لمن كادَها ، فريضةً أوجبَها على العباد ، ومِحْنةً امتحنهم بها ، وفُرْقانا ميَّز به بينهم ، فمن أصبح من

---

(١) الحلب بالتحريك : اللبن المحلوب .

رعيته أكثرُ شُغْله أن يستعمِلَ لسانَه فى صِفته، وذِكْرِ محاسنه وفضائله، ووجُوبِ حقه وطاعته، فقد أصبح آثِرًا أَوْلَى الأمور وأحسَنَها مَغَبّةً فى دنياه ودِينه، ومن بَدّل ذلك عن قدرة عليه، ودفَعَه بعد معرفة، فلم يَدَعْه إلا عن خِذلانٍ حاقَ به، أو بِدْعةٍ استمالَتْه، وكانت حُجّةُ الله لأمير المؤمنين عليه هى الكافية لِمَئُونته، وقد كان علماء الناس وجُهّالُهم يُسَوُّون فى عامّ المعرفةِ بفضل أمير المؤمنين، فأما الخاصُّ فلأهل الفضل فيه فضلُهم، غيرَ أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على منازِلَ ثلاثٍ: حاسِدٌ حَجَبَ الحسدُ بَصَرَه عن مَواقع الصواب أن يراه، والنِّعْمةِ أن يشكرَها، والحقِّ أن يؤدِّيَه، وكانت معرفته عليه وَبَالاً، وحَسَدُه إلى الغِيَرِ به قائداً، وذو هوًى قادَه الهوَى إلى البِدعة، وأخرجَتْه الضلالةُ من الجماعة، فهو عُرْضَةٌ لسُوء الأدَب أو سَيْفِ النَّكال، لم يُوحِشِ الله أحداً بفقْده[1]، ولم يعزِّز[2] أحدا بموالاته، ومُوَثَّق معصومٌ[3] استنقذه اللهُ بموالاة أمير المؤمنين من غِلِّ الحَسَد، وبِدَع الآراء، وجَبَله على صحّة الهوى، فهو إن نَظَر فبعَينه يَنْظُر، وإن قال فبلسانه يقول، لا يأمَن حتى يعلَمَ أن أمير المؤمنين قد استوطأ مِهَادَ الخَفْضِ، ولا يزال له طليعةُ رأيٍ تُوفِى على خُطّة حَزْمٍ، وغامِض فِطْنَةٍ تَغَلْغَلُ إلى لطيف منفعة، وسهم مَكِيدة نحو عَورة[4]، قد علِم أن يومَ أمير المؤمنين يومُه، وأن غدَه غدُه، فهو إن تعرَّض لأداء الحقِّ فى

---

(١) فى الأصل «لمن يوحش الله أخذه بفقده».
(٢) عزّره: فخمه وعظمه ــ أو صوابه «ولم يعزز» أى لم يجعله عزيزا، والمعنى واحد.
(٣) فى الأصل: «وموثق معصوم ثم استنقذه بموالاة ...».
(٤) العورة: الخلل فى الثغر ونحوه.

نصيحته ، ينظر لنفسه نَظَرَ من لا يأمُلُ السلامةَ إلا بسلامته ، ولا البقاء إلا ببقائه ، وقد رجوتُ بالقرابة التي جعلها اللهُ لى به ، والواجبِ الذى عرَفتُه من حقه ، والعظيمِ الذى حَمَلتُه من معروفه ، ألاَّ يكون أحدٌ ينظر إليه بعين الإشفاق أقومَ ما جعله الله أهلَه منى ، فإن أبلغِ الذى أردتُ فبتوفيق الله ، وإن أقصِّر فعَن مِثل ماحاولتُ قصَّر المجتهد .

فأولُ ما أنا ذاكرُه من فضله : أن الله قدَّم له الصُّنْعَ فى سابقِ علمه ، فجعل مَحْتِده[1] خيرَ المَحاتِدِ عُنْصرا ، ثم اختار له أبًا فأبًا ، لا ينقُلُه من أب إلى أب إلا نَقَلَ معه وَإليه فضيلةَ العُنْصُر الذى هو منهُ ، حتى صَيَّره بعد فضائل أبيه إلى أفضل بَدَنه[2] ، فكان خيرَ خَلَفٍ مِن خيرِ سلَفٍ ، وأفضلَ ولدٍ من أفضلِ أبُوَّة ، وأرضى إمامٍ من أزكَى أئمةٍ ، ثم اختار لَهُ مكارم الأخلاق ، وألبسَهُ جمالَ الصورة ، فلا نعلم نحن ولا آباؤنا خليفةً أبعدَ فى حِلْمه من ذُلٍّ ، ولا فى هَيْبته من تجبُّر ، ولا فى شِدّته من عُنْف ، ولا فى لينه من وَهْن ، ولا فى أَناتِه من غفْلة ، وَلا فى اقتصاده من بُخْل ، ولا فى بَذْله من إضاعة ، وَلا أرقَّ وجهاً عند لِقاءٍ ، ولا أحسن بِشْرا عند تحيةٍ ، ولا أغزرَ دَمْعا عند مَوْعظة ، ولا ألينَ قِيادا عند تذكيرٍ بالله ، منه .

ثم أفضت إليه الخلافةُ ، وَفى المال ما فيه من القِلَّة ، وفى الناس ما فيهم من الاستجراح[3] ، فما دَفع عن مال يُعطيه عن قلَّة ، ولا قطَع مادَةَ تَوْسِعةٍ

---

(١) المحتد : الأصل . (٢) بدن الرجل ، نسبه وحسبه .

(٣) الاستجراح : النقصان والعيب والفساد .

على رعيته، ثم استدرَّ الحَلَب برِفْقه، فكلما درَّ له منه شُخْبٌ[1] فوَّقه طائفةً من جنده، حتى سقاهم بعد التفويق ريًّا، وبعد النَّهَل عَلَلاً[2]، ثم ساسَ رعيته بألْيَن السياسة، فعفا عن مُذْنبها ولو شاء لعاقَبَ، وآمَنَ خائفَها ولو طلب لأدرك، ودَفَع بالحسنة السيئةَ ولو كافأ لقَدَر، فما برِح صُنْعُ الله له يَفُضُّ جموع الضَّلالةِ بلا قتال، ويُعزّ له النصرَ بلا مكاثرة، حتى فَرَغ - بشُغله - مَنْ كان لا يَفْرُغُ من الوزراء، ونام - بسَهَره - مَنْ كان لا ينام من العامَّة، واطمأنت - بِفَاءاته[3] للأسفار - دارُ من كان لا ينال الخَفْضَ من الجنود، حتى استوطَئُوا مَرْكب الأمن، فكلهم ضَنينٌ بمفارقته.

أمَّا ذو النيّة فركَنَ إلى الخَفْض[4]، وأمَّا مَن لا يَدَ له[5] ففعلَ ما كان يُؤْخَذ به من الاستكراه، وأما الحَشْوُ من الجند والرَّعاع فغلَبَتْ عليهم عادةُ الهُوَيْني، حتى لقد رأيناه يَحْزُبه[6] الأمرُ، فما يجد له الأمرُ غَناء عنده إن وَكَله إلى قوَّته، ولا نشاطا ولا جِدًّا، ولا قوَّةً بماله[7]، فلما رَأى ما رَأى مِن تخاذُلِ العامَّة، وتوَاكُلِ الجنود، ونُزُور[8] الفَيْء، وجُمُود الحَلَب، واستكلابِ[9]

(١) الشخب بالفتح والضم: ماخرج من الضرع من اللبن إذا احتلب، وفوّقه إياه: أعطاه إياه قليلا قليلا. (٢) النهل: الشرب الأول، والعلل: الشرب الثانى.

(٣) جمع مفاءة، من فاء: إذا رجع.

(٤) الخفض: الدعة، وفى الأصل «النفض».

(٥) اليد: القوة، وفى الأصل «لاسدله».

(٦) حزبه الأمر كنصر: اشتد عليه، وفى الأصل «حتى لو» وهو تحريف، والغناء: الكفاية.

(٧) فى الأصل، «وقواه بماله» يشير بذلك إلى ما كان من البرامكة من استئثارهم بأمور الدولة وتصريف أحوال السلطان واحتجان الأموال.

(٨) النزور: القلة.

(٩) استكلب الكلب، ضرى وتعوّد أكل الناس (واستكلب الرجل: نبح فى قفر لتسمعه الكلاب فتنبح فيستدل بها عليه) ويقال أيضا: تكالبوا عليه: أى تواثبوا وحرصوا عليه حتى كأنهم كلاب

العُمّال على الخيانة ، وجُرْأةِ الرعية على منع الحق ، ومالَ الفراغُ بكثير من الناس عن القَصْد(١)، فتحركَت الأهواء، وَاستَعرَتْ نيرانُ العصبيّة، وَجاشت صدورُ الحَسَدةِ وأشياعِهم بالأمانى ، وظنوا أن لا شِدَّةَ معه ، وأن عفْوَه لا نكيرَ بعده ، وأميرُ المؤمنين يَرْمُقُهم بعين بصيرة ، وأُذُنٍ مُصيخة(٢) ، وقلبٍ يقظان ، وقد وَفَّر الحِلمَ أن يخِفّ لأول بَوادر السفهاء ، فهو ينتظر بالمُدْبِر أن يُقْبِل ، وبالمائدِ(٣) أن يعتدل ، وبالمغلوب على رأيه أن يتذكّر فيُبْصر ، شمّر فى إثرهم تشميرَ مَن قدَّم الرويةَ قبل العجَلة ، والعفوَ قبل العقوبة ، والتثبُّتَ قبل الإقدام ، فاتخذ رَوابطَ(٤) أنتَجبها(٥) على الجلدِ والنشاطِ ، ليست لهم سوابقُ تدعوهم إلى الإدلال ، وتسمو بهم إلى كثيرٍ لم ينالوه ، إنما همُّهم أن يتفاضلوا فى النَّجدة ، ويستوجبوا بالغَناء ، ثم فرّقهم على خواصِّ خَدَمه ، فإذا أراد أن يتناول بهم فُرْصَةً مُمْكِنة ، أو عدوا غارًّا(٦)، أو رَتْقَ فتقٍ قبل اتّساعه(٧) ، يغمِسُ يديه إلى أيِّهم أراده ، فينفُذُ لأمره ، ولم يَشْرَكه فيه مُشيرٌ، ولم يخرج به توقيع، ولم يُحْصَ فيه عامة، ولم يُطَّلَعْ منه على مكيدة ، فلم نعلم أننا رأينا جندا أسرع نهضةً إذا أُمِرُوا ، وأحسنَ إجابة إذا دُعُوا ، وأفضل غَناءٍ إذا استُكْفُوا من جنده ، ثم قَصَد بنفسهُ حتى مَثَل بين النواحى إلى أهمّها له فَسادًا فى البَيْضة(٨)، وانتقاصا من الأطراف ، فأتى ناحية الشأم

(١) القصد : الاستقامة . (٢) من أصاخ له : أى استمع .
(٣) من ماد يميد : أى تحرك واضطرب .
(٤) أى جنودا مرابطة . (٥) أى اختارها .
(٦) الغارّ : الغافل . (٧) فى الأصل « قبل الساعة » وهو تحريف .
(٨) البيضة : الحوزة والساحة .

فَوطِئَها وَطأةً جمع الله بها منهم شَتاتَ الفُرْقة ، وأخْمَدَ بها بينهم نارَ الفتنة .

وَأما الجزيرة فإنه ألفاها وهى كالجُرْح النَّغِل[1]، فاستأصَلَ الله به منها شأفةَ الداء ، وأطفأ به عنها نوائرَ[2] السفهاء ، وخُيِّر أميرُ المؤمنين من منزله الذى هو به مَنزِلا ، جمَعَ مِن بَسْطةٍ فى الموضع ، ورفاغيةٍ[3] فى المعاش ، أنه حامِلٌ للجنود ، جامعٌ للمَرافق ، فباشرَ أمْرَه أمْراً أمْرا ، حتى إذا استُدْبِرَ[4] له منها مُبرَمٌ ، استُقْبِلَ بعده جُسامٌ[5] مُنتَقِضٌ ، وإذا أُثْخِنَ[6] من ثغوره ثغرٌ لم يَرْضَ حتى يفتتحَ من حُصُون أعدائِه حِصنا ، وإذا قَضى الله عنه حُجَّةً ، وَصَلَ خَطْوَه منها عزّا ، ثم رأينا ما عزَم الله به عليه من تركِ الصوائف[7] ، مراقباً للذى كان من غُمُوط[8] أهل الشام لما كانوا فيه من النعمة ، فلم نشكُكْ فى أنه توفيق من الله له وافقَ سُخْطاً عليهم ، حتى استباحوا الحُرَم ، وتسافكوا الدماء ، ونقَضُوا ما بينهم من مُبرَمِ حَبْلِ الإسلام .

ومن ذلك أن أرْمِينِيَةَ كانت فيها جنود تُخْرَج عليهم أطْماع[9]، وتُحْمَل إليهم ـ بعد اعترافهم خراجَهم ـ الأموالُ من كُوَر الشام ، فلما رأى ذلك فعلَ كذا وكذا ،فلم يتوكَّلْ على الله فى أمرٍ فوَكَلَه إلى نفسه ، ولم يكتفِ به فى

---

(١) من نغل الأديم كفرح : إذا فسد فى الدباغ ، والشأفة : قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب ، والأصل ، واستأصل الله شأفته : أذهبه كما تذهب تلك القرحة ، أو معناه : أزاله من أصله.

(٢) نوائر : جمع نائرة ، وهى العداوة والشحناء ، وفى الأصل « بوائر » .

(٣) الرفاغية : الرفاهية ، سعة العيش والخصب .

(٤) فى الأصل « استدمج » . (٥) شىء جسيم وجسام : عظيم .

(٦) أثخنه : غلبه وأوهنه ، وفى الأصل « وإذا أشحن من ثغوره ثغرا » وهو تحريف .

(٧) الصوائف : جمع صائفة ، وهى غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفا لمكان البرد والثلج .

(٨) غمط النعمة كضرب وسمع : بطرها وحقرها ولم يشكرها (غير أن الوارد فى كتب اللغة أن مصدره غمط كشمس لا غموط) .

(٩) أطماع : جمع طمع بالتحريك ، وهو رزق الجند .

حِفْظ طَرَف أو قاصِيَةِ ثَغْرٍ إلاّ كفاه مَئُونَتَه ، وعَلِم أن ما يَدخل مُنَنَ[(١)] أضعافِ العافيةِ من عوَارِضِ العِلَل ، إنما هو تقديرٌ من الله لا يمتنعُ بعُذْر ، ولا يُسْتطاعُ دفْعُه بحِيلة ، يُصيبُ فيه أقوامًا بالبلايَا والتمحيص ، ويَقْسِم فيه لأقوام الأجرَ والجِهادَ والسعادةَ ، فرأى أنّ في عاجِل ما يَرْفَع عن أهل أرمينيةَ من ضرر مَئونتهم وحَمْطهم[(٢)] ، نَفْعًا للرعية ، وإجمالا للفَيْء ، ورِفْقًا بالعامة ، مع اقتصاره[(٣)] في « الأبواب » على أكنافِ سَجِيّتها ، وفي سائر أرمينيةَ على المُقَاتِلَة من أهلها ، ولم يَزَل منذُ أراه الله ذلك ، يَكفِيه مَئُونةَ ذاك الثَّغر ، ويكُفُّ عنه بوائقه[(٤)] حتى كأنه — في هُدُوء الأحداثِ عنه ، وسكونِ الأفئدة من رَوْعاته — مِصْرٌ من الأمصار ، واسِطُ المَحَلّةِ ، مأمونُ النَّأْرة ، فلما اغتنم خاقانُ[(٥)] ما اغتنم ، انتهز الفُرْصةَ مُبادِراً لِمَا قد أيقَن من مُعاجلة أمير المؤمنين إياه ، فكأنه — حين بلَغه ذلك في إعظامه إياه بسببه له ، وما أَنْصب فيه من بدنه ، وأسهرَ فيه من ليله ، وأنصَب[(٦)] فيه من نهاره — لم يعلم الذي كان يكون من أشباهه[(٧)] في الأزمنة الماضية قَبْلَه — وإنه بذلك لجِدُّ عالِمٍ — غير أن حَمِيَّته للإسلام ، وشَفَقَتَه عليه ، وامتعاضَه من أن يُتناول شيءٌ من أطرافه ، قد زاد ذلك عنده قَدْراً في العِظَم ، وتفاقُما[(٨)] في الخَطْب ،

---

(١) المنن : جمع منة بالضم ، وهي : القوّة .

(٢) حمطه كضربه : قشره ، وحمطه كضربه أيضا : شواه .

(٣) في الأصل «مع اقتصاده» وهو تحريف ، وباب الأبواب : مدينة على بحر الخزر (بحر قزوين) من غربيه ، والأكناف : النواحي ، والسجية : الطبيعة .

(٤) البوائق : جمع بائقة ، وهي : الداهية .

(٥) لقب ملك الترك . (٦) أي أتعب .

(٧) في الأصل « من اشتباهه » . (٨) أي شدة .

حتى أكمل البعثَ بأكثر العدد وأكمل العُدَّة ، واستقلَّ[1] أهلَ الكُوَرِ والأمصار ، ونَدَب له من أهل بيته مَن لم يترك بعده نهايةً فى التخيُّر ، وكان قد صرف باله إلى هذين الثغرَيْن من الخزَر والروم ، وإلى هذين العدوَّين المحارِبَيْنِ له من المارقة المتعصِّبة .

فلما بلغ الله فى إحكام أمرهما ما بَلَغ ، لم يستغنِ عن إعادة النظر فى أمر غيرهما من نواحيه ، ليَستبرِئَ[2] به إرادته فى أقوام يدافِع ظنونَهم به فى أخرى ، وعلِم أن لما شمِلَ مَنْ بمدينة السلام من الأمْن والفراغ نتيجةً مكروهة ، فشَخَصَ عنها عند تحقيق ذلك ، مُؤْثِرا لِإبغَضِ وَطَنَيه على أحبِّهما ، وأخشَن عَيْشَيه على أليَنهما ، فلما ظهرت له العَوْرَةُ أقدَمَ إقدام ذى الحُجَّة ، فلم يرَ مثلها ناراً خبَت[3] ، وسحابةً أقشَعَت ، لم يسفِك بها دمَ امرئٍ مسلم صَبْرًا ، ولم ينتهك فيها حُرْمَةَ مُحَرَّمٍ إباحةً ، وذلك أنه بَسَطَ يده بَسْطَ مَن يُريد الاستصلاحَ لامن يريد الانتقامَ ، فلم يلبث الظالِعُ[4] أنْ رَجَع عن ظَلْعه ، والناطقُ أَنْ صَمَتَ عن بِدْعته ، والناكِثُ أَنْ رَجَع إلى قَصْده ، وازداد البرىء على البراءة فَرَحا ، والسَّالم بالسلامة اغتباطا .

ولم نَرَ مثله فيما أفضَى الله به إليه من خلافته ، وحمَّله من أمور عباده ، أمَّا ليلهُ بمُناجاة ربِّه فيها واستعانتِه إياه عليها فَسَاهِرٌ ، وأمَّا نهارُه فى جَلْبِ فيئها وإحكام أمورها فتَعِبٌ ، وأما صَدَقاتُه على فقرائها وأهلِ الحاجة فجارِيَةٌ ،

---

(١) أى حل . (٢) استبرأه : استقصاه .

(٣) خبت : انطفأت ، وأقشع السحاب واقشع وتقشع : انكشف .

(٤) من ظلع كمنع : إذا غمز فى مشيه ، والمراد المنحرف الزائغ .

وأما مجلسُه من فقهائها وصُلَحائها فغاصٌّ[1]، وأما غِلْظَتُه على ظالمها فعَتِيدة[2]، وأما إفضاله لِمَظلومها فمَبْسُوط ، ولئن كان الحق لزم أقواما استوجبوا فى أنفسهم وأموالهم ، إنّا لنَعلم أنّ ما ترك أكثر ، وأنه لولا ما خَفَّف من الوَطْأة على أقوام لحَمَّل الواحدَ منهم مثلَ الذى حَمَّله للجميع ، ولكنه رَضِيَ بالعفو ، وسَخَا نفسًا عن الاستقصاء ، فأوجبَ أن يبْسُطَ يداً بغِلْظة ، ويُتْبِعَها أخرى بلِينٍ ، فكان من ذلك نظرُه فى هذه البقايا التى هى فَىْءُ المسلمين ومالُ الله ، غير أن الله جعَلَه قَيِّمَه فيه ، وفى أخذِه وصَرْفه فى وجوهه ، فلما رأى ضَرَاوَةَ[3] العُمّال بها ، ومُصانعتَهم دونَها ، وأَنْ قد صارت كالسُّنَّة اللازمة ، لا يَدَعُها عَفِيفُهم تورُّعا ، ولا شريفهم تنزُّها ، أحَبَّ مع توفيره للمسلمين فَيْئَهم أن يُحْدِث لهم أدَبًا يَفْطِم به عنهم أهلَ الضَّراوة ، ويعرف به ذوو الاستخفافِ بالأمانة والأَمْنِ[4] للتَّبِعة ، أن لهم من تفقُّده وأَدَبه عَيْنًا تَرْمُقُ ، ويَدًا تَقْبِض ، ولو أنه حين هَمَّ بأخذ تلك البقايا حَمَلَ على المُوسر بقدر يَساره، وأَخذَ المُعْسِرَ بطاعته، كان قد أنصفَ ، كَلا ! ولكنه أحب أن يستبقِىَ قوةً ، ولا يبلغَ من المُكْثِر جَهْدًا ، واقتصر بهم على العُشر من ذلك ، كَرَماً فى القدرة حين رأى موضعَ الرِّفق ، وتجافَى عن العِلّة حين عَرَف مكان العُذْر ، فأىُّ نعمة أعظم ، وأىُّ بلاء أحسن من هذه البقايا ؟ كانت فى أيديهم جُمَامًا[5] فلما اطَّلَع طِلْعَها[6] أخذ ما أخذ ، وتَرَكَ ما ترك ، مُحلِّلا مع

(١) منزل غاص بالقوم : أى ممتلئ . (٢) أى حاضرة مهيأة .
(٣) ضرى به كرضى ضراوة : لهج به وأغرى ، والمصانعة ، الرشوة والمداهنة .
(٤) فى الأصل « والأمر » وهو تحريف .
(٥) الجمام بالضم والكسر ، أصله مااجتمع من ماء الفرس . (٦) يقال، اطلع طلعه ، إذا علم أمره

ما جعل الله فى ذلك من [كلمات[1]] المقصِّر من العُمَّال المؤذية التى لم تكن تعدُو أفواههم ، فليس منهم أحدٌ إلا كان منهُ لهُ وَاعظ ألاَّ يَكسِرَ شيئاً من الخراج تضييعا ، أو يأخذه غُلُولا[2] ، أو يُنفقه إسرافاً ، أو يتركه إرهابا .

فلما فرَّغ من علاج الداء المخُوف فاستأصَلَه ، وَمن الفَيْء المتفرق فجَمَعَه ، ومن الأمور المعطَّلة فأحكمها ، استخلَفَ على القيام بذلك من لا يُجْزِئُه[3] عقله عن حَذَر ، ولا إضاعةٌ عن حِفْظ ، ولا لينٌ عن تشدُّد ، ولا يستحل الأكف عن نقضِ ما أبرَم ، ولا مزاولة ما أحكم ، ولا فَتْح ما أغلق ، ولا إغلاق ما فتح ، «فلان» : خِيرة أبوَيه ، وَمُحُّ[4] بيْضته ، وجَوهر أُرومَته ، الفائت سبقا ، البيِّن عَنَقاً[5] ، الراسخ عِرقا ، المتفجر بَحْرا ، المحمود أمْرا ، القائل فَصْلا ، الحاكم عَدْلا ، ثم انصرفَ بما أفاده الله من الأجر إلى جَناحه الذى كَانَ مَدَّه على مَن خَلَّف من الأهل والأموال والرعايا والجنود ، «فلان» : سليل صُلبه ، وثمرة قلبه ، المُحْتَنِك[6] مَع فَتَاء سِنِّه عقلا ، والمأمون مَع شدة شكيمته حَمْلا ، والمُحْصَد[7] مَع لينه وتعطُّفه أمرا ، الشبيه بأمير المؤمنين إن نطَقَ لفظا ، وَإن نظر لحْظا ، وإن سُئِل جودا ، وَإن اهتصر[8] عُودا ، وَإن ساس رفقا ، وإن غَضِب حِلْما ، وَإن وصف علما ، وإن كُلِّم فهما ، وَإن قَدَر عَفْوا ، وإن لقِيَ بِشْرا ، وإنْ نازع

(١) محل هذه الكلمة بياض بالأصل ، وهى المناسبة للمقام .
(٢) الغلول بالضم ، الخيانة .
(٣) أى لايغنيه ، وفى الأصل « يحويه » وأراه محرفا .
(٤) المح ، صفرة البيض أو ماقى البيض كله .
(٥) العنق ، ضرب من السير فسيح سريع .
(٦) المحتنك ، الذى أحكمته التجارب ، والفتاء : الشباب .
(٧) المحصد ، المحكم أيضا .
(٨) اهتصره ، كسره .

فَلْجا(١)، وَإن قارَع ظَفَرًا ، فكان عند ظنه به ، رعايةً للحُرْمة ، وحَزْما فى المكيدة ، وجَلْبا للفَيْء ، وحِياطةً للغائب ، ومباشرةً للشاهد .

هذا قليل من كثير ، مما جعلك الله أهلَه ، وإنما اقتصرتُ عليه لأنى رأيت المتكلمين من الخطباء تركوه ، وأن ماسمعتُ من الكتب المقروءة لم تنتظمه ، فأحببْتُ أن يعلم أمير المؤمنين أن له فى كل أمر عَمِل به فى رعيته حُجةً واضحة ، وعُذْرا معروفا ، إن قام به متكلمٌ فى خاصّةٍ حَسُن مَوْقِعُه ، وإن قرئَ به كتابٌ فى عامّة قوِيت به حُجَّتُه .

والحمد لله الذى جعله وذُرّيته أولياءَ هذه النعم ، والمخصوصين بهذه الفضائل ، ونسأله أن يُبْقيَه وَإياهم للدّين الذى سدَّ بهم عَوْرته ، والحقِّ الذى أقرَّ بهم جادَّتَه ، والعدل الذى أوضح بهم أعلامه . حتى يكونوا وَرَثة هذه الأمة وخلفاءها فى غابر الدهر ، وباقيات الأيام ، مستقلّين(٢) بالعدل ، موفَّقين للسَّداد ، معصومين من الشُّبُهات ، مستوجبين مع فضائل الدنيا لأفضل كراماتِ المعاد ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢: ١٩٢)

١٦٦ — رسالة أبى الربيع محمد بن الليث التى كتبها للرشيد إلى قسطنطين(٣) ملك الروم

« من عبد الله هٰرون أمير المؤمنين إلى قُسْطَنْطِينَ عظيم الروم

(١) الفلج ، الفوز والظفر . (٢) أى ناهضين به رافعين له .

(٣) هو قسطنطين السادس، ولى ملك الروم سنة ٧٨٠م (وقد ولى الرشيد الخلافة من سنة ٧٨٦ إلى سنة ٨٩٠ م = سنة ١٧٠ إلى سنة ١٩٣ هـ) .

سلام على من اتبع الهدى ، فإنى أحمدُ اللهَ الذى لا شريك معه ، وَلا وَلَدَ له ، وَلا إله غيرُه ، الذى تعالَى عن شَبَه المحدودين بعظمته ، واحتجبَ دون المخلوقين بعزّته ، فليست الأبصار بمُدْرِكة له ، ولا الأوْهام بواقعةٍ عليه ، انفرادًا عن الأشياء أن يُشْبهها ، وتعالياً أن يُشْبهه شيء منها ، وهو الواحد القهّار ، الذى ارتفع عن مَبَالغ صفات القائلين ، ومذاهب لُغات العالَمين ، وفِكَر الملائكة المقرّبين ، فليس كمثْله شيء ، وَله كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

أما بعدُ ، فإن الله جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل من آيات الوحى إليه : « أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » فرأى أميرُ المؤمنين من أحسنِ قوله ، وأفضلِ فعله ، أن يكون إلى سبيل ربه داعياً ، وبرسوله صلى الله عليه وسلم متأسِّيًا ، ولقوله : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ » مُوافِقاً ، وكنتَ ـ مِن كُتُبِ اللهِ المنزّلة ، وآياتِه المفسّرة ، وخلْقِه الكثير ـ بحيثُ رجا أميرُ المؤمنين استماعَك لموعظته ، وانتفاعُك بمجادلته انتفاعُ بَشَرٍ كثير وخلقٍ عظيم ، قد بُؤْتَ بأوزارهم مع وِزْرك ، واحتملتَ من آثامهم إلى إثمك ، فأحبَّ أن يدعُوَك ومَن رجا أن ينتفع بدعوته معك ، إلى كَلِمةٍ سَواءٍ بيننا وبينكم أَلاَّ نَعْبُدَ إلا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بعضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ، فإن تولَّيتم عن ذلك رغبةً

عنه ، أو تركتموه زهادةً فيه ، فاشهَدوا بأنّا مُسلِمون ، واستمِعوا ما أمير المؤمنين واصِفٌ لكم ، ومحتجٌّ به إن شاء الله عليكم ، بقلوب شاهِدة ، وآذانٍ واعيةٍ ، ثم اتّبعوا أحسن ما تستمعون ، ولا قوةَ إلا بالله .

فإن الله عزّ وجل يقول فيما أنزل من كتابه ، واقتصّ على عباده : «فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ » إن الله تبارك اسمُه ، وتعالَى جَدُّه ، وصف فيما أنزل من آياته ، وشَرَحَ من بيِّناته ، الأممَ الماضية ، والقرونَ الخالية ، والمِلَلَ المتفرقة ، الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى لا برهانَ لَهُمْ بها ، ولا حُجةَ لهم فيها ، فقال : « يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ ، انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ . إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ . لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً. لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ » .

قالت العرب الذين يعبدون الملائكة ، وأهل الكتاب الذين يقولون ثالثُ ثلاثةٍ : بأيَّتِما آيةٍ يا محمد تزعم أن الله إله واحد ! فأنزل الله عز وجل فى ذلك آية تَشهدُ لها العقول ، وتؤمن بها القلوبُ ، وتعرِفها الألباب ، فلا تستطيع لها رَدًّا ، ولا تُطيق لها جَحْدا ، ذَكَر فيها اتصال خَلْقِه ، واتّفاق صُنعه ، ليوقِنَ الجاهلون من العرب ، والضالّون من أهل الكتاب ، أنّ إله

السماء والأرض وما بينهما من الهواء والخلق واحدٌ لا شريك له ، خالق لا شىءَ معه ، فقال : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » فَتَفَكَّرْ فى تفسير هذه الآية من كلام الرَّبّ عز وجل ، وما أَوضَحَ فيها من بيان الخلق ، فإنه ما من مُفكِّرٍ ينظر فيما ذكر اللّٰهُ فيها مما بين السماء والأرض ، إلاَّ رَأَى من اتصال بعض ذلك ببعض ، مِثْلَ ما رأى فى تدبيره نفسه ، وعَرَفَ من اتصال خلْقه فيما بين ذَوائب[1] شُئُونِ رَأْسِه ، إلى أطراف أناملِ قَدَمه ، وفى ذلك أوضحُ آيةٍ ، وأَبْيَنُ دلالةٍ ، على أن الذى خلقه وصَنَعه إلٰه واحد لا إلٰه مَعه ، ولا من شىءٍ ابتدعه ، ولا على مثالٍ صَنَعه ، قد تَرَوْن بعيونكم وتعلمون بعقولكم ، أن اللّٰه عز وجل خَلَق للأنام الأرضَ ، وجعلها موصولة بالخلق ، فليس يَدْحُوها[2] إلا لهم ، ولا يُديمها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلق متصلا بالنّبْت ، لا يقوم إلا به ، ولا يَصْلُحُ إلا عليه ، وجعل ذلك النبتَ الذى جعلَه متاعاً لكم ، ومعاشاً لأنعامكم متَّصِلا بالماء الذى ينزل من السماء بقَدَرٍ معلوم لمعاش مقسوم ، فليس يَنْجُم[3] النبتُ إلا به ، ولا يحيا إلا عنه ، وجعل السحابَ الذى يبسُطُه كيف يشاء ، متصلا بالريح المسَخَّرة فى جوِّ السماء

---

(١) الذوائب : جمع ذؤابة بالضم ، وذؤابة كل شىء ، أعلاه : والشئون ، مواصل قبائل الرأس (وهى القطع المشعوب بعضها إلى بعض) .

(٢) دحاها يدحوها : بسطها . (٣) نجم كنصر : طلع وظهر .

تُثيره من حيث لا تعلمون ، وتسوقه وأنتم تنظرون كما قال عز وجل « وَاللهُ الذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذٰلِكَ النُّشُورُ » ووصلَ الرياح التى يصرِّفها فى جوِّ السماء ، بما يؤثِّر فى خلق الهواء ، من الأزمنة التى لاتثبُت الهَواجرُ[1] إلا بثَباتها ، ولا يزول عنه بَرْدٌ إلا بزوالها ، ولولا ذلك لظَلَّ راكداً بالحَرِّ المُميت ، أو مائلا[2] بالبَرْد القاتل ، ووصَلَ الأزمنة التى جعلها متصرِّفةً متلوِّنةً ، بمَسير الشمس والقمر الدائبَيْن لكم ، المختلِفَيْن بالليل والنهار عليكم ، وجعل مسيرهما الذى لا تعرفون عدد السنينَ إلا به ، ولا مواقعَ الحساب إلا مِن قِبَله ، متصلا بدوَران الفلَك الذى فيه يَسْبَحان ، وبه يأفُلان ، ووصَلَ مَسير الفلك بالسماء للناظرين سواء ، فهذا خلق الله عز وجل ، مافيه تَبايُن ولا تَزايُلٌ ولا تفاوت ، كما قال سبحانه وتعالى : « مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ » ولو كان لله شريك أو معه ظَهير[3] عليه ، يُمْسك منه ما يُرْسِل ، ويرسل منه ما يمسك ، أو يؤخِّر شيئاً من ذلك عن وقت زمانه ، أو يعجِّله قبل مجىء إبّانه ، لَتفاوَتَ الخَلْقُ ، ولَتَبايَنَ الصنع ، ولفَسدت السمٰوات والأرض ، ولذهب كل إلٰه بما خلق كما قال عز وجل — وكذَّب المُبْطلين — بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ »

---

(١) الهواجر : جمع هاجرة ، وهى شدة الحر .

(٢) فى الأصل « مايلا » ، أو صوابه « مائلا » .

(٣) الظهير : المعين .

والعجبُ: كيف يصف مخلوق ربَّه، أو يجعل معهُ إلهًا غيره! وهو يرى فيما ذكر اللهُ من هذه الأشياء، صنْعةً ظاهرةً، وحكمةً بالغةً، وتأليفا متَّفقا، وتدبيراً متصلا، من السماء والأرض، لايقوم بعضُهُ إلا ببعض، مُتَجَلِّيا بين يديه، ماثِلا نُصْبَ عينيه، يناديه إلى صانعه، ويدلُّه على خالقه، ويشهد له على على وَحْدانيته، ويَهْديه إلى رُبُوبيَّته «فَتَعَالَى اللهُ عمَّا يُشْرِكُونَ، أَيُشْرِكُونَ مالاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ»؟ حقا ما كرّر هؤلاء الجاهلون بربهم، الضالُّون عن أَنفسهم، فى خلق الله النظرَ، وَلا رَجَعوا ـ كما قال الله عز وجل ـ الفكرَ، ولو أعملوا فكرهم، وأجهدوا نظرهم، فيما تسمع آذانُهم، وترى أبصارُهم، من حوادث حالات الخلق، وعجائبِ طبقات الصُّنع، لوجدوا فى أقربِ ما يَرَون بأعينهم: من التأليف لتركيب خلقهم، والأثرِ فى التدبير بصُنعهم، ما يدلُّهم على توحيد ربهم، ويقِف بهم على انفراده بخلقهم، فإنهم يَرَون فى أنفسهم بأعينهم، ويجدون بقلوبهم، أنها مخلوقة صَنعةً بعد صنعةٍ، ومحوَّلةٌ طبقةً عن طبقة، ومنقولة حالا إلى حال: سُلاَلَةً من طين، ثم نُطْفَةً من ماء مَهين[1]، ثم عَلَقَةً، ثم مُضْغَةً، ثم عظماً، كساه الله عز وجل لحماً، ونفخَ فيه رُوحاً فإذا هو خَلْقٌ آخرُ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِين، الذى خلق فى قَرَارٍ مَكين، من ماء قليل ضعيف ذليل، خَلْقا صوَّره بتخطيط، وقدّره بتركيب، وألّفه بأجزاء متَّفِقة، وأعضاءٍ متَّصلة، من قَدَم إلى ساقٍ إلى فخذ إلى ما فوق ذلك، من مَفاصِلِ ما يُعْلِن، أو عجائب ما يُبْطِن، ليعلم

(١) المهين، الحقير.

الجاهلون، ويوقن الجاحدون، أن الذي صنع ذلك وخَلَقه، ودبّره وقدّره، وهيّأ ظاهره وباطنه، إله واحد لا شريك معه، فلا يذهَبَنَّ ذِكْر هذا صَفْحاً عنكم، ولا تسقُط حِكمته جهلا به عليكم، وفكّروا فى آيات الرسل وبيّنات النُّذُر، فإن فى ذلك فكرا للمُبْصرين، وبصرا للمعتبِرين، وذِكْرَى للعابدين، والحمد لله رب العالمين.

وأميرُ المؤمنين واصِفٌ لكم، ومقتَصٌّ من ذلك إن شاء الله عليكم، مافيه شهاداتٌ واضحات، وعلامات بيّنات، ومبتدئٌ بذكر آيات نبينا صلى الله عليه وسلم فيما أنزل الله منها فى الوَحْى إليه، فإنه ما أحدٌ يقرَعُ بآيات النبوّة قلبَه، ويحصِّن ببيّنات الهدى عقلَه، إلا قادَتْه حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، لا يجد إلى إنكارِ ما جاء به من الحق سبيلا، فأردتُ أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وحقّه وما أنزل إليه من ربه عز وجل، فأحضِرْ كتابَ أمير المؤمنين فهمَك، وألقِ إلى ما هو واصف إن شاء الله سمعَك.

إن الله عز وجل اصطفى الإسلام لنفسه، واختار له رُسُلا من خلقه، وابتعث كل رسول بلسان قومه، ليبيّن لهم ما يتّبعون، ويعلّمهم ما يجهلون، من توحيد الرب، وشرائع الحق «لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل، وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً» فلم تزَل رسل الله قائمةً بأمره، متواليةً على حقه، فى مَواضى الدهور، وخَوالى القرون، وطَبقات الزمان، يصدّق آخِرُهم بنبوّة أوّلهم، ويصدّق أولهم قولَ آخرِهم، ومَفاتِحُ دعوتهم واحدة

لاتختلف ، ومَجامع مِلَّتهم ملتئِمة لاتفترق ، حتى تناهَتِ الولايةُ والوراثة التى بنَى عيسى عليه السلام عليها وَبشَّر بها ، إلى النبى الأُمِّىّ الذى انتخبه الله لوحيه ، وَاختاره بعلمه ، فلم يزل ينقله بالآباء الأخيارِ ، والأمَّهات الطواهرِ ، أمةً فأمةً ، وقَرْنا فقرنا ، حتى استخرجه الله فى خير أوَانٍ ، وأفضل زمان ، من أثبَتِ محاتِدِ[1] أَرُومات البريَّة أصْلا ، وَأعلى ذَوَائب نَبعاتِ[2] العرب فَرْعا ، وأطيَب منَابِتِ أعياصِ[3] قريش مَغْرِسا ، وَأرفع ذُرَى مجْدِ بنى هاشم سَمْكا[4] ، محمدٍ صلى الله عليه وسلم خيرِها عند الله وخلقه نَفْسا ، على حينَ أوحشتِ الأرض من أهل الإسلام والإيمان ، وَامتلأت الآفاق من عَبدة الأصنام والأوثان ، واشتملتِ البِدَعُ فى الدين ، وَأطبقَتِ الظُّلْمُ على الناس أجمعين ، وَصار الحق رَسْما عافِياً[5] ، خلَقا بالياً ، ميّتاً وَسْط[6] أموات ، ما إن يُحِسّون للهدى صوتا يسمعونه ، ولا للدِّين أثراً يتَّبعونه ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائمًا بأمرالله الذى أنزل إليه ، يدعوهم إلى توحيد الرب عز وجل ، ويحذِّرهم عقوباتِ الشِّرْك ، ويجادلهم بنور البرهان ، وآياتِ القرآن ، وعلاماتِ الإسلام ، صابراً على الأذى ، محتمِلاً للمكروه ، قد ألهمه الله عز وجل أنه مُظْهِر دِينِه ،

(١) محاتد : جمع محتد كمجلس ، وهو الأصل ، والأرومة بالفتح وتضم : الأصل أيضا .
(٢) نبعات : جمع نبعة كوردة ، والنبع ، شجر يتخذ منه القسىّ والسهام ، ومعناها هنا الأصول .
(٣) الأعياص : جمع عيص بالكسر ، وهو الأصل ، ومنبت خيار الشجر .
(٤) سمكه سمكا : رفعه ، والسمك أيضا ، السقف .
(٥) أى ممحوا دارسا .
(٦) جاء فى كتب اللغة : « تقول جلست وسط القوم بالتسكين لأنه ظرف ، وجلست فى وسط الدار بالتحريك لأنه اسم ، وكل موضع يصلح فيه بين فهو وسط بالتسكين ، وإن لم يصلح فيه بين فهو وسط بالتحريك ، وربما سكن ، وليس بالوجه » .

ومُعِزُّ تمكينه ، وعاصِمُه ومستخلِفُه فى الأرض ، فليس يَثْنِيه رَيْب ، ولا يَلْوِيه هَيْب ، ولا يُعَنِّيه أذًى ، حتى إذا قَهَرت البينات ألبابَهم ، وبَهَرت الآياتُ أبصارهم ، وخَصَم نور الحق حُجتهم ، فلم تمتنع القلوب من المعرفة بدون صدقه ، ولم تجد العقول سبيلا إلى دَفْع حقه ، وهم على ذلك مكذِّبون بأفواههم ، وجاحدون بأقوالهم ، كما قال الله عز وجل العليمُ بما يُسِرُّون ، الخابِرُ بما يُعْلِنُونَ : « فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » بَغْياً وعداوةً ، وحسدا ولَجاجـــةً ، افترض الله عليه قتالهم ، وأمَرَه أن يجرِّد السيف لهم ، وهم فى عِصابة يسيرة ، وعِدّة قليلة ، مستضعَفين مستَذَلّين ، يخافون أن يتخطَّفهم العرب ، وتَدَاعَى عليهم الأممُ ، وتَستَحْمِلَهُم (١) الحروبُ ، فآواهم فى كَنَفه ، وأيّدهم بنصره ، وأنذرهم بمَقْدَمة من الرعب ، ومَشْغَلة من الحق ، وجنود من الملائكة ، حتى هزم كثيراً من المشركين بِقلَّتهم ، وغلب قوة الجنود بضعفِهم ، إنجازاً لوعده ، وتصديقاً لقوله : « وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » فأَحْسِنِ النظرَ وقلّب الفكر فى حالات النبى صلى الله عليه وسلم من الوحى قائما لله ، لِتَجدَ لِمذاهب فكرك ، وتصاريفِ نظرك ، مضطرَبًا واسعاً ، ومعتَمَدًا نافعاً ، وشُعوبًا جمة ، كلها خيرٌ يدعوك إلى نفسه ، وبيانٌ يكشف لك عن مَحْضه ، وأخبِرْ أميرَ المؤمنين ما كنتَ قائلا لو لم تكن البعثة للنبىِّ صلى الله عليه وسلم بلغَتْك ، ولم تكن الأنباء بأموره تقرَّرتْ قِبَلك ، ثم قامت الحجة بالاجتماع عندك ، وقالت

(١) استحمله نفسه : حمله حوائجه وأموره .

الجماعة المختلفة لك : إنه نَجَم بين ظَهْرَانَىْ[1] مثل هذه الضلالات المستأصِلة ، والجماعات المستأسِدة[2] ، التى ذكَرَ أميرُ المؤمنين ، من قبائل العرب ، وجَماهير الأمم ، وصَنَادِيد الملوك ، ناجمٌ قد نصَبَ لها ، وغَرِىَ[3] بها ، يجهِّل أحلامَها[4] ، ويكفِّر أسلافها ، ويفرِّق أُلَّافها ، ويلعن آباءها ، ويضلِّل أديانها ، وينادى بشِهاب[5] الحق بينها ، ويَجهَر بكلمة الإخلاص إلى مَنْ تراخَى عنها ، حتى حَمِيتِ العرب ، وأنِفَت العجَم ، وغضِبَت الملوك ، وهو على حال ندائِه بالحق ودعائه إليه ، وحيداً فريداً لا يَحفِل بهم غضَباً ، ولا يَرْهَب عَنَتاً[6] ، يقول الله عزَّ وجل : « يٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » أكنتَ تقول فيما تجْرى الأقاويل به ، وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين : إما كاذب يجهل ما يفعل ، ويعمَى عما يقول ، وقد دعا الحتفَ[7] إلى نفسه ، وأذِن الله لقومه فى قتله ، فليست الأيام بمادَّةٍ له ، ولا الحالُ بثابتةٍ له ، إلاَّ رَيْثَما تستلْحِمه[8] أسبابُهم ، وينهض به حلماؤهم ، غضباً لربهم ، وأَنَفَةً لدينهم ، وحَمِيّة لأصنامهم ، وحسداً من عند أنفسهم ، وإما صادق بَصِير بموضع قَدَمه ، ومَرْمَى نَبْله ، قد تكفَّل الله عز وجل بحفظه ، وصَحِبَه بعِزِّه ، وجعله فى حِرْزه ، وعَصَمه من

---

(١) يقال : هو بين ظهريهم وظهرانيهم — ولا تكسر النون — وبين أظهرهم : أى وسطهم .

(٢) أى القوية .

(٣) يقال : غرى به كفرح وأغرى به وغرى مبنيين للمجهول : أى أولع .

(٤) الأحلام : جمع حلم بالكسر ، وهو العقل .

(٥) الشهاب : شعلة من نار ساطعة .

(٦) العنت : دخول المشقة على الإنسان . (٧) الحتف : الهلاك .

(٨) استلحم (مبنيا للمجهول) إذا نشب فى الحرب فلم يجد مخلصاً .

الخلق ، فليست الوحشة بواصلة ــ مع صُحْبة الله ــ إليه ، ولا الهيْبَةُ بداخلة ــ مع عصمة الله ــ عليه ؛ ولا سيوف الأعداء بمأذونٍ لها فيه ، ثم ما رأيُكم[١] يأهل الكتابِ لو قيل لكم : إن الرجل الذى يدعى العِصْمة ، وينتحِل المَنَعة ، قد نَجَحت الأمورُ به على ما قال ، وسَلِمَت الحال له فيما ادّعى ، حتى نَصَب لِعَمارات[٢] العرب ، وجماعات الأمم ، يقاتل بمن طاوعه مَن خالفه ، وبمن تابَعَه مَن عانَده ، جادًّا مُشمِّرًا ، محتسِبا واثقا بموعود الله ونَصْره ، لا تأخذه لَوْمَةُ لائمٍ فى رَبِّه ، ولا يوجد لديه غَمِيزة[٣] فى دينه ، ولا يَلْفِتِه خِذْلانُ خاذلٍ عن حقه ، حتى أعزّ الله دينَه ، وأظهر تمكينَه ، وانقادت الأهواء له ، واجتمعت الفِرَق عليه ، ألم يكن ذلك يزيد حقَّه يقينا عندكم ، ودعوتَه ثبوتا فيكم ، حتى تقول الجماعة من حُلَمائكم ، وأهلُ الحُنْكة من ذوى آرائكم : ما كان الرجل ــ إذ كان وحيدا فريدا قليلا ، ضعيفا ذليلا ، معروفا بالعقل ، منسوبا إلى الفضل ــ ليجترئَ أن يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يَعْصِمه من العرب جميعا ، ويمنعه من الأمم طُرًّا[٤] ، حتى يبلِّغ رسالاتِ ربه ، ويُظهرَه على الدين كُلِّه ، ويَدْخُل الناس أفواجاً فى دينه ، إلا وهو على ثقةٍ من أمره ، وَيقين من حاله .

فسبحانَ اللهِ يأهل الكتاب ! ما أبيَنَ حقّ النبي صلى الله عليه وسلم لمن طَلَبه ، وأسهلَه لمن قَصَد له ؛ واستعمِلوا فى طلبه ألبابَكم ، وارفعوا [إليه[٥]]

---

(١) فى الأصل « ثم إن آيتكم » وهو تحريف لا يستقيم عليه المعنى ، وقد أصلحته كما ترى .
(٢) العمارة بالفتح والكسر : الحى العظيم .
(٣) يقال : فيه مغمز وغميزة : أى مطعن . (٤) أى جميعا .
(٥) فى الأصل بياض محل هذه الكلمة .

أبصاركم ، تنظروا بعون الله إليه ، وتقفوا إن شاء الله عليه ، فإن علاماتِ نبوَّته ، وآياتِ رسالته ، ظاهرة لا تخفى على من طلبها ، جَمَّةٌ لا يُحْصَى عددها ، منها خواصُّ تعرفها العرب ، وعوامُّ لا تَدْفَعها الأمم ، فأما الخواصُّ المعروفة لدينا ، المعلومة عندنا ، التى أخذتها الأبناء عن الآباء ، وقَبِلها الأتباعُ عن الأسلاف ، فأمور قد كثُرت البيِّناتُ فيها ، وتداوَلت الشَّهادات عليها ، وثبتَتِ الحججُ بها ، وتراخَت الأيام ببعضها ، حتى رأيناه عِياناً ، وقبلناه إيقاناً ، فهى أظهر فينا من الشمس ، وأبيَنُ لدينا من النهار ، ولكن غيَّبَت الأزمان عنكم أمرَها ، ولم ينقل الآباء إليكم عِلْمَها ، وما لا يُدْرَك إلا بالسمع موضوعُ الحجةِ عن العقل ، فليس أميرالمؤمنين بمُحَاجٍّ لكم ، ولا قاصدٍ إليكم من قِبَلها . وأما الآيات العوامُّ والدَّلالاتُ الظاهرة فى آفاق الأرضِين ، القاطعةُ لحُجَجِ المُبطلين ، التى لا تُنكر عقولُ الأمم وجوبَ حقها ، ولا تدفع ألبابُ الأعداء صحةَ أمرها ، فسيُولجُها أميرُ المؤمنين مسالكَ أسماعكم ، ويُعيد بها حُجَّةَ الله فى أعناقكم ، من وجوه جَمَّة وأبواب كثيرة إن شاء الله ، منها : أنه لم تزل الشياطين فيما خلا من فَتَرات الرسل ، ونَدَرات[1] النُّذُر ، تصعد إلى سماء الدنيا ، وتُنْصِت لِلملأ الأعلى ، فتسترِق السَّمع ، وتختطف العلمَ ، وتنزل به إلى كل أفَّاك[2] أثيم ، يَبْنون أكاذيبهم على واضِح صدقه ، ويُنَفِّقون[3] أباطيلهم بحسب حقه ، خلطاً للباطل فيه ، وسوها[4] للعباد عليه ،

(١) أى فترات أيضا ، يقال : لقيته ندرة وفى الندرة : أى بين الأيام .

(٢) الأفاك : الكذاب .

(٣) ينفقون : أى يروّجون ، مضعف من نفق البيع : أى راج .

(٤) كذا فى الأصل .

فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأنزل آياتِ القرآن إليه ، حُرِست السماء بالنجوم، ورُميت الشياطين بالشُّهُب، وانقطعت الأباطيلُ ، واضمحلتِ الأكاذيب ، وخَلَص الوحيُ ، فبطَلتِ الكهَّان ، وضَلّت السُّحَّار ، وكذبت الأحلام ، وتحيَّرت الشياطين ، فكانت آيةً بيِّنة ، وعلامةً واضحةً ، وحجَّةً بالغةً ، تَبهَر قرائحَ العقول ، وتخرِق حُجُب الغيوب ، فلا يقوم مع ضيائها ظُلمة ، ولا يثبت عند مُحْكَمِها شبهةٌ ، ولا يُقيم معها فى محمد صلى الله عليه وسلم شكٌّ ، لا من أصحابه خاصَّةً ، ولا ممّن جاء بعده عامَّةً ، وإنما جعلها الله عز وجل آيةً باقيةً فى الغابرين ، وحِراسَةً ثابتةً من الشياطين ، لان الله جلَّ وَعلا جعل نبيَّنا صلى الله عليه وسلم آخِرَ النبيين ، فليس باعثا بعده نبيا يكذِّب أقاويلَ الكَهَنَة ، ويقطع أخابير(١) الجِنَّة

وستقول ـ فيما يذهبُ إليه الظنُّ ، ويقع عليه الرأىُ ـ أنت وَمَن عَقَل من أمتك وأهل ملتك : هذه آيةٌ حاسمة ، وحجة قاطعة بَيِّنَةٌ قائمة ، مستمِلية لأمرها ، مستغنية بنفسها لا تحتاج إلى ما قبلها ، ولا يُتَّكل على ما بعدها ، إن أقرَّت العقول بما تقول ، أو قامت البينة على ما تدَّعى ، بَلَى ، ثم تقول : وأنَّى لك بالبَيِّنة ؟ ولسنا نُقِرُّ بكتابك ، ولا نؤمن برسولك ، ولا نقبل قولك فيما قد سبَقَنا وإياكَ زمانُه ، وحَجَبتِ الغُيوبُ عنا وعنك عِلْمَه ، فأرجِعُ إليكم إن قلتم ذلك ، فإن وِجْدانَ القُضاة قبل طلب البيِّنات .

وليس يحمل أميرُ المؤمنين فيما ينازعك ويُحاجُّك فيه حا كما غيرَ عقلك ،

---

(١) أخابير : جمع الجمع لخبر .

ولا قاضياً سوى نفسك ، ولكنه يذكرك الله الذى إليه مَعادُك ، وعليه حِسابُك، لَمَّا[1] جعلتَ التفهم لمسألته من بالك ، وركبْتَ حدودها فى جوابك، عادلاً بالقِسْط . قاضياً بالحق ، قائلا بالصدق ولو على نفسك ، ناظراً بالأَثَرة لدينك ، فلقد وفق الله لك آيةً ، وأهدى إليك بيِّنةً ، لا تستطيع دَفْعَها لحَجْبها عن عقلك ، ولا حِجابا لنورها دون بصرك ، فلا تدفع الآية بقولك ، والبيِّنة بلسانك ، جَحْدًا يقطع وصول الحجج إليك ، ولا تُغْلِق[2] أبواب الفهم عنك ، فإن اللسان لك مُداوَلٌ حيثُ شئت ، ومنقادٌ تُصَرِّفه فيما هَوِيت ، ولكن انصِبْ نفسك للفهم وأنت شهيد ، وأَرِدِ الحق وقبوله فيما تُريد ، فإذا تصوَّرْتَ البيِّناتِ مجسَّدةً فى قلبك ، وتبيَّنْتَ الحجج مُمَثَّلةً لنظرك ، قد أضاء صوابُها لك ، وقَرَع حقُّها قلبَك ، فاجعل القول بها شِعاراً لِلِّسان به متصلا ، وافهم المسألةَ ، فهَّمك اللهُ الحقَّ ؛ وجنَّبك الجَحْدَ ، ماتقول أنت ومَن قِبلَك فى رجل كان يتيما ضعيفاً أجيراً ساهياً لاهياً عائلا[3] خاملا ، لم يَتْلُ كتابا ، ولم يتعلم خطًّا ، ولم يَكُ فى مَحَلّة علم ، ولا إرْثِ ملك ، ولا معدِن أَدَب ، ولا بيتِ نبوّة ، فتراقتِ الأيام به ، واتصلت الحال بأمره ، حتى خرج إلى العرب عامّةً ، والقبائِل كافّةً ، وحيداً طريداً شريداً ، مخذولا مجهولا ، مجفُوّا مَرْمِيًّا بالعقوق لآلهتهم ، مقذوفا بالكذب على أصنامهم ، منسوبا إلى الهَجْر لأديانهم ، وهم مُجْمِعون على دَعْوة العَصَبيّة ، وحَمِيَّة الجاهلية ،

---

(١) أى إلا . (٢) فى الأصل « ويد تغلق » وهو تحريف .

(٣) عائلا : فقيرا .

مُتعادُون متباغُون، مختلفةٌ أهواؤهم،مُتفرّقةٌ أمْلاؤهم[1]،يتسافكون الدماءَ ، ويتناوحون[2] النساء ، ويستحِلُّونَ الحُرَم، لا تَمنَعُهم أُلفةٌ ، ولا تعْصِمهم دعوة ، ولا يحجزهم بِرّ، فألَّف قلوبَها ، وجمع شَتِيتَها ، حتى تناصرتِ القلوب ، وتواصلت النفوس ، وترافَدَتِ[3] الأيدى ، ثم اجتمعت الكلمة ، واتفقت الأفئدة ، حتى صار غايةً لِمُلْتَقَى رِحالهم ، ونهايةً لمُنْتَجَع أسفارهم ، وصاروا له حِزبًا متفقين ، وجنداً مطيعين ، بلا دُنْيا بَسَطَها لهم ، ولا أموالٍ أفاضها بينهم ، ولا سلطان له عليهم ، ولا مُلْكٍ سَلَف لآبائه فيهم ، ولا نباهةٍ كانت له بين ظَهْرانَيهم ، أتقولُ : إنه ما قال ذلك كله إلا بوحى عظيم ، وتنزيل كريم ، وحكمة بالغة ؟ فإن قلت ذلك فقد أقررتَ أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول، وتركت ما كنت تقول إنه لم يُدْركه ولم يَبْلُغه إلا بعقل سديد ، وَنظرٍ بعيد، ورفق لطيف ، وَرأيٍ وَثيق ، استَبَى به عقولَ الرجال ، واستمال عليه أفئدةَ العوامّ ، فإن قلتم ذلك ، فأنا سائِلكم بإلهكم الذى تعبدون ، ودينكم الذى تنتَحِلون ، لَمَّا صدقتم أنفسكم ، وتجنَّبتم الهَوَى عنكم : أتؤمِنُ قلوبكم ، وَتُقِرّ عقولكم ، ويحتمل نظركم أن محمداً صلى الله عليه وسلم الذى وصفتموه بكمال العقل ، وبيان الفضل ، ورِفقِ التدبير ، كان يقول لرِجالاتِ العرب ، وجماعات الأمم ، ودُهاةِ قريْش : إن من آياتِ نبوّتى ، ودلالاتِ رسالتى ، وعلامات زمانى ، أن الشياطين تُرْمَى بنجوم السماء ، ولم تَكُ تُرْمَى بها فيما

---

(١) الأملاء : جمع ملأ كسبب ، وهو الجماعة .

(٢) تناوح النساء : أن يقابل بعضهن بعضا إذا نحن ، وكذا تناوح الرياح : إذا تقابلت فى المهب لأن بعضها يناوح بعضا .

(٣) ترافدت : تعاونت .

خَلاَ، ثم يجعل ذلك كتابا يُقْرَأُ، وقرآنا يُتْلَى ؛ وهو كاذب فيما تلا، ومُبْطِل فيما ادّعى، إبطالاً تُدْرِكه عيون الناظرين، وكذباً يظهر لجميع العالمين، فسبحان الله ! أرأيتم أن لو كان فيما قال من الكاذبين، وعلى ما ادّعى من الآثمين، ثم حاول إبعادَ القلوب، وإنْغالَ(١) الصدور، وإنفارَ النفوس، وتفريق الجموع، أكان يَزيد على ذلك ؟.

فيأَهْلَ الكتاب، لايَحْمِلَنَّكُمُ الإلفُ لدينكم على اللّعب بتوحيدكم، فلَعَمْرُ الله لئن تداركتم أنفسكم، وناصحتم نظركم، لَتَعلَمُنَّ أن محمدا صلى الله عليه وسلم لو حاول الكذب، أو رام الإفك، لَما كان يترك جميع الأرض، وما يَغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض، ويقصِد للسماء المتصلة بالبَصر، البارزة للنظر، التى لا تخْفَى على بَشَر، ولا تَغيب عن أحد، فيدَّعى فيها كَذِبا ظاهرا، وإفكاً بارزا مكشوفا، لايبقَى صغير ولا كبير، ولا ذكر ولا أنثى، إلاعَرَف أنه إفك وزُور، وكذب وغُرور، ولا سيّما إذا كان يُلْقِى ذلك إلى أقوام أكثرُهم أعرابٌ، ليس بينهم وبين السماء حِجابٌ، إنما يراعُون الكواكب، ويتفقّدون الغيوم، فأَبعَدُ عَهدِ آخِرِهم بها تفقّدُه لها، ونظرُه إليها ساعةً أو ساعتين، أو ليلة أو ليلتين، لَعَمْرُ الله لو عَثَرَتِ العرب من أمر النبي صلى الله عليه وسلم على كذب، لكان أولَ من يُؤَانبه به ويجادله فيه، أعداؤه من قريش عامّةً، وحُسّادُه من جيرته خاصّةً، ونظراؤه من أهل بيته دِنْيةً(٢)

---

(١) الإنغال : الإفساد، وأصله من نغل الأديم كفرح : إذا فسد فى الدباغ . وأنغله : أفسده .

(٢) يقال : هو ابن عمى دنية بالكسر ودنيا بالكسر والضم : أى لحاً .

الذين كانوا يستغرونه[1] بكل طريق، ويقعدون له على كل سبيل، ويتساءلون من أمره عن كل ذى حادث، فيتعلقون بالحروف المُشْكِلة، والآيات المشتبهة، جَدَلاً وخصومة بها، وطَعْنا وإلحادا ومنازعةً فيها، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم، وأخبر عن ذلك من أمرهم، فقال عز وجل: « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ[2] » وما كان الله عز وجل ليقول ذلك ولا لأحدٍ أن يقوله على الله فى أمرهم، إلا عن خصومة شديدة، ومنازَعة بليغة، ومجادلة معروفة، فأحسِن النظرَ لنفسك، ولا تَهْلِكَنّ شفقةً على ملكك، فأيمُ الله لئن قلت: إن النجوم شىء كانت العرب تراه بعيونها، وتعرِفه بقلوبها، فما كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو عارف بها غيرُ جاهل لها، لِيقولَ فيها إلا حقًّا، وينتحِلَ فيها إلا صِدقا، لقد ثبَّتَّ فروعَ كلامك فيها على أُسّه، ووصلتَ آخِرَ قولك له بأوله، ثبوتا على ما ذكرت من عَقْده، ولزوما لما فرَّطتَ من نظره، ولكنك لا تجد مع الإقرار بذلك بُدًّا من التصديق برسالته، ولا مَذْهَبا عن الإيمان بنبوّته.

ولئن زعمت أنه ادّعى أمر النجوم كَذِبا، وانتحلها باطلا، عارفا كان بها أم جاهلا، لقد نسبتَه من الخطأ الذى لا يَعْمَى عن بصره إلى ما يخطئ فيه بشرٌ، فأكذبْتَ نفسك، وتركت قولك، إنه لم يكن التأليف لقلوب العرب، والجمعُ لشَتِيت القبائل، إلا برأى سديد، وعقل أصيل، ورِفْق بالغ، إلى أحد أمرين، لا تجد لكلامك وَجْهاً تذهب إليه غيرها، ولا

---

(١) فى الأصل « يستعيرونه بكل طريق » وهو تحريف، وقد أصلحته كما ترى، واستغر فلانا: أتاه على غفلة، والمراد: يتعرضون له بكل طريق ويؤذونه على غرّة.

(٢) الخصم: المجادل.

مَحِلا تضعه عليه سواهما : إما أن تقول : إنه ألَّف قلوبَ العرب ، وفرَّق جموع الأمم ، بتنزيل الوحى ، فتؤمنَ أنه نبىّ ، وإما أن تقول : فَعَل ذلك بجهل ، وهذا قول لا يُقْبل ، كيف يَصِفه أحد من الجاحدين به المكذبين له بغباوة ، أو يرمُونه بجهالة ، وهم يجُوزُون به حدودَ الأنبياء ، ويرفعونه فوق أمور العلماء ، ويتخطَّون به مراتبَ الحكماء ومنازلَ الناس ، تكثيرا لعلمه ، وتسديداً لعقله ، وتثبيتاً لفضله ، فيما لا يقدرُ الخلق عليه ، ولا تهتدى الألسن إليه ، حتى لقد نَحَلوه[1] فِعلَ الرَّبِّ الذى لا يقدر عليه الخلق فى وجوه كثيرة ، وأنحاء جمة .

من ذلك أنه إذا قالت البقايا من أمتنا: كان محمد صلى الله عليه وسلم يُخبرنا بالغيُوب قبل ظهورها ، ويصف الأمور قبل حلولها ، ويتجاوز ما يكون فى زمانه من ذلك إلى ما يكون فى زماننا ، غَيْباً أطلعه الله عزّ وجل عليه ، أضافوا ذلك علما إليه ، فقالوا : كان أعلمَ الناس بمواقعِ النجوم ، وأبصَرَهم بمنازل البُرُوج ، وأنظَرَهم فى دقائق الحساب ، كيف ولم يكن الحِجاز دار نجوم ، ولا محلّ حساب ، ولا معدِن أدب ، بل كيف والمنجِّم يَقيسُ ويُخْطئ ، ويشُكّ فيما يدّعى ، وهو أخو صواب لاشكَّ فيه ، وفارسُ صدق لا قياسَ معه .

ومن ذلك أنه إذا قالت العلماء من المسلمين : كَان نبينا صلى الله عليه وسلم عليما بباطن أخبار النبيين ، وخَفِىِّ قِصَصِ القُرون الأوَّلين ، قالوا : كَان أحْيا الناس قلباً ، وأوسعَهم سِرْبا[2] ، وأسرَعَهم أخذاً ، يتتبَّع ذلك ويحبه ، وقدرواه

---

(١) نحلوه : أى نسبوا إليه . (٢) السرب : البال، والقلب والنفس .

وعُلَّمه ، سبحان الله ! أَوَلا يعلمون أن المتعلِّم معروفُ المعلِّم ، متفاوتُ الحالاتِ، متنقِّلُ الطَّبَقات ؟ وأنه ما أحدٌ يؤدَّب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً ، إلا وله درجاتٌ فى علمه ، وتاراتٌ فى أخذه ، ومنازلُ فى تعلُّمه ، تارةً تلميذ ، وتارة مقاربٌ، وأخرى حاذِق ، وبكل ذلك موصوف من أهله ، معروف عند قومه ، ظاهرٌ لجيرَته ، مستفيضٌ فى عشيرته، لايُجْهَل أمره ، ولا يَخْفَى ذكره، ولا يُنْسَى عند مواضع الحاجة إليه ، وتاراتِ الاحتجاج به عليه ، ولو كَان ذلك معروفا فيهم ، أو موجودا لديهم ، أو ظاهرا عندهم ، لَمَا أمَرَه الله عزّ وجل أن يَحْتَجَّ عليهم ، ويقول فى ذلك لهم : لقد لبِثْتُ فيكم عُمُرًا من قبله ، لا أتلو قرآنا ، ولا أدّعِي وحياً ، أفلا تعقلون !

وَايمُ اللهِ لو كَانوا يعقلون أو ينظرون ، لَعَلِموا أن معلِّمَه على غير المِلَّة التى يعرِفون ، لأنه لهم من المخالفين ، وعليهم من الطاعنين ، يذكُر فضائحَ قولهم، ومعايبَ أمرهم ، ومخازِىَ أسلافهم ، وعوائرَ[1] أديانهم ، وأنه لو كان معلِّمه نصرانيا لدعاه إلى النَّصرانية ، أو يهوديا لدعاه إلى اليهودية ، أو مَجُوسِيًا لدعاه إلى المجوسية ، ولو لم يكن له معلِّم لَمَا وقع على الحقيقة ، هدايةً من تِلقاء نفسه ، ومعرفةً بقوة عقله ، ولو كَان معلِّمه الشيطان لَمَا دعاه إلى عبادة الرحمن ، ولا أمَرَه بهَجْر الأوثان، وكَسْر الأصنام ، وصِلَة الأرحام ، والإصلاح فى الأرض، كيف وكان الشيطان يصُدُّ الناس عن سبيله ، ويُزَهِّدهم فى دينه ،

---

(١) أراد بها مثالبها ومخازيها ، وفى كتب اللغة : العوراء : الفعلة القبيحة (غير أن فعلاء لا يجمع على فواعل) وفيها : العوائر جمع عائر ، والعائر من السهام والحجارة : الذى لايدرى من رماه ، أصابه سهم عائر فقتله : أى لايدرى من رماه .

وينهاهم عن طاعته ، ويُخرجهم من عبادته ، ويُدخلهم فى مَسَاخِطه ، ويحملهم على مَعاصِيه ؟ إنه إذن لرحيم بهم ، ناظر لهم ، شفيق عليهم ، كأنه هو المبعوث إليهم ، كلا ، ما كَانَ ليُنقِذهم من حبائله ، ويخلّصهم من مَصايده ، ويُخْرجهم من ولايته وطاعته وسلطانه وخُدعَه وفِتنته وحزبه ، إلى غير ذلك من أمره ، وما كان لينْهِيَ العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناوحوا حُرَمهم ، ويُؤذوا ذريتهم ، ولا ليقول لهم : لم تعبُدُون نَحِيتَ الحجارة التى جعلها الله لكم عاراً ، وتَذَرُون عبادة الربِّ الذى خلقكم أطْوارا ! هيهاتَ ! لقد ذهبتم بالشيطان الرجيم إلى صِراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولا تُنكره العقول ، وتدفعه القلوب ، وتستوحِشُ منه النفوسُ ، ألا تسمعون إلى قول الله عزّ وجل : « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ، أولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهم وَأَعْمَى أَبْصَارَهم » فما كان الشيطان لِيَرْضَى للعرب باللَّعنة وَالبَكَم ، والعَمَى والصَّمَم ، فاتّقِ الله ولا تكن من الجاحدين .

ومنها : أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء : أتانا محمد صلى الله عليه وسلم بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوبُ على لُغته ، له رَوْنَق كَحَباب[1] الماء ، وزِبْرِج[2] يعلو ولا يُعْلَى ، وعجائبُ لا تَبْلَى ولا تَفْنَى ، وجِدَّة لا تتغير ، قالوا : كان محمد صلى الله عليه وسلم أبلغهم قولا ، وأحسنهم وصفا ، فياسبحان الله ! ألاَ يعلمون أن لو كَانَ القرآن كلاما للعباد ، لَمَا أقرّت الأعداء من

---

(١) حباب الماء : فقاقيعه التى تطفو كأنها القوارير .

(٢) الزبرج : الزينة من وشى أو جوهر .

[العرب [1]] بفضله ، ولا تحزّت القبائل طُرًّا عن مثله ، وهو ينادبهم فى الكتاب ، ويتحدّاهم فى الوحى ، بصوتٍ رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : « هاتُوا بُرْهَانَكم إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ » وهم فُرسان الكلام ، وَإِخوان البلاغة ، وأبناء الخُطَب ، وأهلُ عداوة له وَبَغْيٍ عليه ، فَتَسْتَحْسِر [2] الأبصارُ، وتثقُل الأسماعُ ، وتنعقِد الألسُنُ، وتَخْرَس الخطباء ، وتَعْجَز البلغاء ، وتحارُ الشعراء ، وتستسلِم الكُهَّان ، ثم لقد قايستِ البُصراء بالكلام والعلماء بالمنطق بين ما بأيدينا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به من كلام الوحْى ، فإذا بينهما بَوْن [3] بعيد ، وتفاوُتٌ شديد ، ليس بشبهٍ له ولا مُدانٍ ولا قريب ، وكذلك ينبغى لكلام الرب عز وجل أن يعلوَ كلام الخلق ، وألاَّ يُشْبِه قولَ العباد فى تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه؛ لأن الله عز وجل لا يُشْبِهه شىء من ذلك ، إنه إذا قال المسلمون : كان محمد صلى الله عليه وسلم يُرِى ماضِيَ أسلافنا ، وصُلَّح آبائنا ، من العجائب العظام ، والآيات الكبار ، ماهو جديد عندنا ، بيِّن قِبَلنا ، فلم يَعْفُ أَثَرُه ، ولم يَدْرُس خبره ، ولم يتقادَمْ عهدُه : من شجرة ناداها فأقبلَتْ ، ثم أَمرَها فرجَعتْ ، ومن نحو بعير تظلَّم ، وذئب تكلَّم ، وأشباه لذلك كثيرة ، ونظائرَ له عجيبة ، قالوا : كان محمد صلى الله عليه وسلم كاهنًا حاذقا ، وساحرًا ماهرًا ، يشبِّه بالخيال ، ويأخذ بالأبصار ، كيف والجموعُ الكثيرة تَصْدُر عن الأَطعمة اليسيرة ، والمياه القليلة ، شِبَاعًا رِوَاءً

(١) فى الأصل بياض محل هذه الكلمة .

(٢) استحسر : أعيا . (٣) البون : الفضل والمزية .

أيكون ذلك والسحر سواء؟ والأخذ بالعيون لا يجرى فى البطون، ولو كانوا ينظرون لدينهم ويُنْصفون من أنفسهم، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفْك وغرور، وأن لمحمد صلى الله عليه وسلم آثارا قائمة، ومنافع دائمة، ثم لو كانت الكِهانة والسحر يبلُغان مثل هذا من الأمر، لبَطَلَت آيات الكتب، وعلامات الرسل، ولعَلَت الشُبهةُ، وسقَطت الحجةُ، وكَذَبتِ النبوة، ولبطَل ما كان يفعله عيسى عليه السلام: من إبرائِه الأَكْمَهَ[1] والأَبْرَصَ وإحيائه الموتى، فلا يكونَنّ التقليدُ للرجال مبلغَ عِلمك، ولا القبولُ لدعواهم بلا بينة.

ومن ذلك أنه إذا قالت البُصَراء من أمتنا والعلماء بِلَّتنا: كان النبي صلى الله عليه وَسلم أمّيا لا يُحْسِن الكتاب، وحافظا لا ينسى القرآن، وقلما يجتمع العقلُ السديد والحفظُ السريع والنسيانُ البطىء، قالوا: كان أخطَّ الناس يدا، وأذكاهم حفظا، كان يكتب بالنهار، ويَدرُس بالليل.

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون، والأمر كما يصفون، لما خَفيتِ الصُحُف له، ولا اكتُتِمت الدراسةُ عليه، ولَمَا كان يُطيق سَتْرَها عن أهله، ولا حجابَها دون قومه، وكيف تؤمن القلوب، وتقِرّ العقول، أن رجلا كبيرا حَمَل عِلْما كثيرا، وحِكما جَمَّاء: من آياتٍ متشابهة، وسُوَر متوالية، وهو صاحب أسْفار مترامِية[2]، وأخو حَرْب دائمة، لا يُعْطِئ

---

(١) من ولد أعمى.

(٢) فى الأصل «متراخية».

لفظه ، ولا يسقُط حفظه ؛ لولا[1] أن الله عز وجل كفاه أن يُحَرِّكَ به لسانَه ، وضَمِن له جمْعَه وقرآنَه ، فقال عز وجل « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » فلم يكن يُسقط واوا ولا ألفا ، ولا ينسَى كلمة ولا حَرْفا ، ما أبيَنَ هذا وأعجبه ! وأعجب منهُ المنكِرُ له !

وأما قولهم فى الخَطِّ وإكثارُهم فى الكتاب، فإن الله عز وجل جعله أُمِّيًّا ليُثْبت حجتَه ، ويصدّق مقالته ، ولِئلا يشُكَّ المُبْطلون فى أمره ، ويقولون : تعلَّمَه من غيره . فإنه قد قال ذلك بطائنُ من مُنافِقة العرب ، وطوائِفُ من كَفَرة العجم ، فنطقَتْ به الأعداء من جِيرته ، والحَسَدة من عشيرته ، الذين بلغوا [ما بلغوا[2]] من مُجادلة حقه ، ومخاصَمة ربه ، كُفاةً لمن قَرُب ، ووكَلاءَ لمن بَعُد ، فيما لم تكن العرب واقعةً عليه ، ولا الأمم مهتديةً إليه ، لأنهم[3] قد أحاطوا من عِلْم خَبَره وخفِيِّ أثره ، بما كان عن غيرهم محتجِبا ، ومن سواهم مكتَتِما ، وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلم من بشر ، أو يختلف إلى أحد ، لما خفِيَ عنا ، ولسَقَط علينا[4] ، وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلِف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلم من بشر كبيرا ، لعَرَف ذلك أترابُه المختلِفون معهُ ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك مَن حوله مِن جيرته نُصرة ، ولا من معه من أهل بيته دِنيةً ، الذين عليهم يُورِد ومِن قِبَلهم يُصْدِر ، ولكان شائعا عند حَشَم معلِّمه وجِيرةِ موضعه الذين كان يختلف إليهم ، ويتأدَّب بين

(١) فى الأصل « ولا يسقط حقه ، ولولا أن الله » .

(٢) زيادة يقتضيها السياق . (٣) فى الأصل « إلا أنهم » .

(٤) فى الأصل « ولا سقط » .

ظهرانيهم ، ولو كانوا بذلك عالمين، أو فيه من أمره شاكين، ثم بلغهم وتقرّر قبلهم أنه يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » لخاصمه منهم من كفر ، ولكفر به منهم من آمن ، ثم يدّعي ذلك قرآنا ، وينتحله وحيا . أما كان يرهب أن ينتشر في الأقربين ، ويخرج إلى الأبعدين ، فتبطل حجته ، وتنتقض دعوته ، وتسقط نبوته ، وينفر أصحابه الذين لم يصبروا[1] معه في المجاهدة أنفسهم ، ويبذلوا عند الشدائد مهجهم ، وينفقوا فيه — على الحاجة — أموالهم ، مناصبين[2] لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مستضعفون عائلون جائعون ، لا طلبا لدنيا ، ولا طمعا في منال ، إلا لما تعقبوا من قوله ، وعرفوا من صدقه ، ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقيصر لهم ، فصدّقوا بقوله وآمنوا بوعده ، حتى قويت البصائر ، وصرمت[3] العزائم ، وقويت النيات ، فنشطت النفوس ، وشجعت القلوب ، وحمّلت الأبدان ، لما وقع لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وهل[4] إليه ، فكن من ذلك على يقين لا يخلجه[5] شك ، ومعرفة لا يخلطها ريب إن شاء الله .

ومن ذلك : أنه إذا قال المسلمون : مامن فعال محمود ، ولا مقال معروف ،

(١) صبر نفسه : حبسها . (٢) أى معادين .

(٣) عزمة صارمة : أى ماضية .

(٤) وهل إلى الشيء يوهل بفتحهما ويهل بالكسر وهلا بالسكون : ذهب وهمه إليه .

(٥) خلجه كضربه : حركه وجذبه وانتزعه .

ولا خُلُقٍ كريم ، ولا أدب فاضلٍ ، إلا وقد أدّب الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأنزله فى الكتاب إليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحُضُّ على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التى ليس فيها مَدْخَل لشُبهةِ طاعنٍ ، ولا مَتْلَق لحُجّة قائل ، ولا مَغْمَزٌ لبصيرة عائب ، ولا موضع لخُصُومة بشر ، فى وعد أو عهد ، أو حَلٍّ أو عقد ، أو مقال أو فِعال ، أو غير ذلك من الأمور ، قالوا : أمورٌ حَمَلَ عليها نفسَه ، ودعاه إليها عقلُه ، وصَبَرَ عليها ، لِما أمَّل ورجا فيها ، سبحانَ الله ! وما أمَّل بها وارتجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد أكذبهم إدبارُه عنها ، حيث أمكَنَتْه القدرةُ منها ، وأعثَرَتْه الحالُ عليها ، وإن قالوا : حبّ الأثَرة ، فقد جعل نفسه للمسلمين أُسْوَةً : فى سِهامهم[1] وقِصاصِهم[2] ، وحدودِهم وحقوقهم ، وغير ذلك من أمورهم ، وَإن قالوا المُلك ، فلقد كان أشدَّ الناس لربه تواضعا ، وأعظَمَهم فى جنبه تصاغُراً ، ما إنْ أكل متكِئاً قطُّ إلا مرّةً ، ثم قعد كهيئة الفَزِع لها النادم عليها ، فقال : « اللَّهُمَّ إنِّى عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ » ، وإن قالوا : النعيم ، فمن كان أيبَسَ منه مَعاشاً ، وأخْشنَ رِياشاً[3] ، وأغلظَ مأكَلاً ؟ وكيف يذوقُ العيشَ ، أو يجد لذيذ النعيم ، مَن حَرَّم السُّكرَ والخمر ، ونهى عن الدِّيباج والقزِّ ، وكان أكثرَ دهرِه صائما ، وأطولَ ليلِه قائما ؟ فإن قالوا : طلب الصَّوْت[4] ورَغِب فى الدين ، فذلك مالم

---

(١) جمع سهم بالفتح : وهو الحظ والنصيب .

(٢) وفى الحديث « وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

(٣) أى لباسا ، وأصل الرياش : اللباس الفاخر .

(٤) الصوت والصيت : الذكر الحسن .

يطلبه أحدٌ فى حب الصوت ، والتماس الحمد ، لِمَا صَبَرَ على مَغاضِب قومه ، ومَلاوِم أهله ، وشتائم العرب ، وتوعُّد العَجَم ، واستهزاء قريش : يرمونه بالعُقوق ، ويقذِفونه بالجُنون ، ويَبْهَتونه[١] بالسحر ، وليس يدرى مايَهْجُم[٢] به الأمرُ .

أم يقولون : طلَبَ تأثيلَ[٣] الملكِ لقومه ، وأراد توطئَة الولاية لأقاربه ، فكيف يطلب لقومه ما قد زَهِد فيه لنفسه ؟ أم كيف يطلب لهم عِزَّ الملك ، وقد أوطأهم الذلَّ ثم القتلَ ؟ لعمرُ الله أنْ لو أراد المُلْكَ لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لِذوى رَحِمه ، لوَكَّد لهم عَقْدًا لا يُحَلّ ، ولأَبْرَمَ لهم أمرا لا يُنْقَض ، ولأَثَّل لهم فى عُنْفوان[٤] أمره ملكا لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح[٥] أبداً فيهم ، امتثالا لصَنيعكم ، واحتذاء على مِثالكم ، مع أقاويلَ جمة ، ونظائرَ كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمداً صلى الله عليه وسلم غلب العرب وقهرَ العجم ، أو قال فى أمر السلطان والنجوم بِكَذب .

فإن قلتم إن محمدا صلى الله عليه وسلم ، كان فى قوة عقله ، وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم ، وصَدَّقْنا به نحن وأنتم ، ولكن هَفَتِ العلماء ، وزلَّت الحكماء ، وأخطأت القلوب ، فقد يعلم أمير المؤمنين — وأنتم بذلك من العالمين — أنَّ خطأ قلوب العلماء كخطأ دائرة الرَّحَى : ليست العلماء بمُخْطئة إلا المرةَ والثِّنْتين ، كما لا تُخطِئ الرحى إلا الحَبَّةَ والحبتين ، ومِثْلُ الذى

---

(١) بهته كبهته : قال عليه مالم يفعل .
(٢) أى ماينجلى عنه الأمر ، من نجاح وفوز ، أو خذلان وفشل .
(٣) أى تأصيله وتعظيمه . (٤) أى فى أوله وحداثته .
(٥) فى الأصل « ولاينوح » وهو تحريف .

نسبتم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم ، والجهل فى أنفسكم ، كثيرٌ لا يُحْصِيه أحد ، ولا يَبْلُغه عددٌ ، وأمير المؤمنين واصِفٌ بعضه لكم ، ومُورِدٌ ما حَضَرَ كتابَه إن شاء الله لكم ، وايمُ الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين : هَبُوا محمداً صلى الله عليه وسلم كان فى أمر النجوم من المخطئين ، فكيف أخطأتِ العرب، وهَفَتِ الأمم فى تَرْكِ مجادلته ، ورَفْضِ منازعته ؟ وكيف لم تقل العلماء من افتائه[1] والحكماء من حكمائهم، توبيخا منهم له ، وتعييرا لمن آمن معه : هذا أمر من أوضح الأكاذيب ، وأبطلِ الأباطيل، فلا يثبُتُ مع قولهم إيمانٌ ، ولا يُقيم على شرحهم إنسان .فإن قلت : فلعل ذلك قد كان ، ولكنه دَرَجَ[2] على طول الأزمان ، فكيف إذَنْ صدَّقت العرب بنبوّته ، ولم تكفُر القبائل برسالته ، وهم يسمعون كذبا لا ينفع معه صدقٌ كان قبلَه ، وباطلا لا يُعْصَم معه حقٌ حَدَثَ بعده ؟ وإن قلتم : أدخلهم بالقَهْر ، وضَبَطهم بالقتل ، وأكرههم بالسيف ، فما بالُ القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثيرُ من المشركين ، ما بالُهم آمَنوا وَصدَّقوا ، وَصَبرُوا وصابروا ، وجَدُّوا وجاهدوا ، كيف لم تنكسر عزائمهم ، وَتَهِنْ[3] بصائرُهم ، ويرجعوا إلى دينهم ، وَيَهْرُبوا عن توحيدهم ؟ كلا ، لو كان الأمر على ما تقول لأَرْفَضَّ[4] القوم عن الرسول ، ولكان صلى الله عليه وسلم أولَ مقتول أو مخذول ، فأَحْسِنِ النظر فيما تذهب الأهواء برأيك إليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن جمحَتِ الدَّعوى بكم، فقائل ــ قد مالت به الأهواء

(١) هكذا فى الأصل . (٢) أى انقرض وفنى .
(٣) أى تضعف . (٤) أى تفرقوا عنه وذهبوا .

فى الباطل – فقال : إنه إلاَّ يكن الأنبياء ذكرت النجومَ فى صحفها ، بيَّنت الحكماء منها ذكراً فى كتبها ، فجعلت المنقضَّ من الكواكب بين الأعوام ، دليلا على أمرٍ يَحْدُث تلك الأيامَ ، ولا ما هذا الاختلاق ، يَلِطُ به الجاهلُ للفُسَّاق[1] ، ما إِن وَضَعَتِ الحكماءُ ذلك فى الكتب إلا لَيَالِىَ مُلِئَتِ السماء من الشُّهُب ، وبالله لو ادّعيتم غير ذلك فكان حقا ، وكانت القالةُ منكم صِدقا ، لَما كانت الدعوى بناقِضَةٍ لآية النجوم حُجَّةً ، ولا مُدْخِلَةٍ على أحد فيها شُبهةً ، لأن رَمْيا يقع فَرْطَ السنين من الكواكب ، لا يُبْطِلُ رَجما قد مَلَأَ السماء من كل جانب ، ثم لو لم تكن النجوم آية دامِغةً[2] ، وحجةً بالغةً ، ودلالة قاهرة ، وعلامة باهرة ، وأمارة ظاهرة ، وشهادة قاطعة ، وبيِّنة عادلة ، وداعية قائمة ، تُبْطِل أظانينَ المشركين ، وتَرْدَع أقاويل المنافقين ، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم ، ليُعظِّم أمرها ، ولا ليكرِّر فى آيِ القرآن ذكرُها ، رهبةً لمناهضة أحياء العرب ، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وجدوا فيما كتب به إليك أمير المؤمنين من أمر النجوم ، واحتجَّ به عليك من ذكر الرُّجوم ، مَوْقِعاً لِظَنٍّ ، أو مَعْلَما بطعنٍ ، أو مَغْمَزا لقول ، لَنَاصَبوه إذن بالمجادلة ، وكاشَفوه بالمنازَعة ، وجاهروه بالقول الذى لا يستطيع له رَدّا ، ولا يُطيق له جَحْدا ، ولكنها آياتٌ ملأَت الأقطار كثرةً ، وحَسَرت الأبصار قوةً ، قد وجَّلتِ العقولَ ، وولَّهتِ القلوب ، وملأت النفوس جَزَعا ووجما ، وفزَعا شغلهم عن الأولاد ، وأذهَلهم عن البلاد ، حتى بلغ

(١) هكذا فى الأصل ، ولط بالأمر كضرب : لزمه .
(٢) فى الأصل « دافعة » والمعنى عليها صحيح ، ولكن يظهر أنها « دامغة » .

أميرَ المؤمنين ، وتقرَّر عند فقهاءِ المسلمين أن الله عز وجل لما ملأ السماء حَرَسا ، وأحدث لها رَصَدا ، وَخَلَق فيها شُهبًا ، ذكرت العقلاء من العرب وَقَعاتِ الله عز وجلّ فى الكتب بقوم نوح وَعاد وثمود وأشباههم من مؤلّفى تلك الجنود ، الذين كانوا أشدَّ بطشا ، وأكثر جَمْعا ، فانفرجت أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسُهم مَتَائنَ عُقَدهم ، وإن أهل الطائف لمَّا فعلوا ذلك بأموالهم ، وأجمعوا فيه الخروجَ إلى قفرائهم ،قام فيهم رجل منهم ذو سِنٍّ وعقل فقال : يا معشر العرب ، لا تُهْلِكوا أنفسكم قبل أن تَهلِكوا ، وَلا تَخْرُجوا من أموالكم قبل أن تُخْرَجوا ، تفقَّدوا مواقعَ نجوم السماء ، وكواكبَ بدورِ الدُّجَى ، فإن كانت النجوم التى حدث الرمىُ بها ، والنجوم التى أخليتُم الأموال لها ، هِيَ لِبُرُوج الشمس والقمر ، ومَسَالِ[1] الحيوان والشجر ، فهى جوائحُ الاستئصال ، المُتْلِفة الأنفس والأموال ، وإن كانت النجوم التى حَدَث القذفُ بها إنما هي نجوم خُلِقت اليومَ ، فليست المعرفةُ بواقعة على مُبتداها ، ولا الأبصار بلاحِقةٍ مُنْتَهاها ، فأمْسِكوا العُقَد[2] عليكم وَالأموال ، فإنه أمر يَحدُث فى إحدى هذه الليال .

فإن قلت : كيف وقعت الأمور فى هذا الرجل كالعِيان ، وصارت المقالة منه كوَعْيِ الآذان ؟ أنبأك أميرُ المؤمنين أن أوعيةَ الفِقْه من المسلمين ، الذين حَمَلوا إلينا سُنَنَ الدين ، هم أدوا ذلك إلينا ، وأبقوه ذخراً ....[3] علينا ، فما إن

(١) مصدر أريد به المكان ، والمعنى ومرعى الحيوان ومنبت الشجر .
(٢) العقد : جمع عقدة بالضم ، وهى الضيعة والعقار الذى اعتقده صاحبه ملكا .
(٣) بياض بالأصل بمقدار كلمة

ينفَكُّ منهم مفتخِر يقول : أبونا الذى حَبَس على العرب الأموالَ والعُقَدَ ، فما إن يدفع القولَ فى ذلك منا أحد ، هيهات ! ما كانت العرب لِتُقِرّ عند الفَخار ، إلا بطَوْلٍ هو أبينُ فيها من ضوء النهار ، فافهَمْ ما كتب به أمير المؤمنين فى هذا إليك ، ولا يكن التعلُّل فيها بالشُّبُهات أوثَقَ ما لديك ، فانه قلّ حجةٌ إلا وإلى جَنْبها شُبهةٌ تَخَيَّلُ للعقول ، وتعَرَّضُ للقلوب ، وتَجَلْجَلُ[1] فى الصدور ، فلا يثبُتُ مع تخيُّلها ، ولا يُقيم لتعرُّضها بَشَرٌ ، إلا مَن وَزنَ الحقّ والباطل بميزان عادل ، لا يميل إلى تفريط ، وَلا يحَطُّ فى تقصير ، وقد جعلَ الله عز وجلّ العقولَ موازينَ لِلأُمور ، فَزِنُوا ما سمعتم من حُجج كلام الرب عز وَجَلّ بما تَنفُون به الشبهةَ عن الحق ، ولا تُميلوا اللسانَ، فتخسروا الميزان .

وسيعلِّل أمير المؤمنين إن شاء الله ماجاء عن ذكر ما كتب به إليكم من أمر النجوم والرُّجوم والشُّهُب فى القرآن والرواية والكتب ، فألطِفُوا النظرَ فى صحة معانيه ، ونَحُّوا الهوَى عن شُبهةٍ[2] ما وَقَعتْ فيه ، قال الله عزّ وجل : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ» وقال: « وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » وقال : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ » وإن شَطَبَ[3] عن الحق شاطبٌ ، أو ذهب إلى الباطل ذاهبٌ ، لا يعرف مذاهبَ كلام العرب ، ولا وجوهَ معانى

---

(١) أى تحرك . (٢) فى الأصل « عن شبهة إنما » .

(٣) شطب عن الشئ : عدل عنه وبعد .

الكتب ، ولا تفسيرَ آيِ القرآن ، فقال : إنما جُعلت الكواكبُ والمصابيحُ حِفظاً من الله عز وجل للسماء ، ورُجُومًا للشياطين من قبل أن يبعثَ الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالدِّين ، فإن فى آيات القرآن ما فيه بيانٌ مما يُبْطِل دعواه التى لا بيِّنةَ عليها ، ويكذِّبُ مقالته التى لا شهودَ لها ، فقالت الجن ـ فجعل الله تبارك وتعالى قولَها وَحْياً ، وبه منها صِدْقًا ـ : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً » أَلاَ تَرَوْن أنها كانت الجن لَمسَت السماءَ فلم تجدها مُلِئت حَرَسا شديداً وشُهُباً ، وقعدتِ الشياطينُ منها مَقَاعِدَ للسمع فلم تجد شُهُباً ولا رَصَداً ، أَوَ لا تسمعون إلى ما يحقِّق ذلك ويسدِّده ويصدِّقه ويشهد له من قول الله تعالى : « هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ » مع قول الجن أيام حُرست السماء ، ورُميت الشياطينُ : « وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » فإذا أعملتم فى ذلك فِكركم ، وقلّبتم فيه نظركم ، فكنتم على برهان يقين ، ونور مستبين ، من استطاعة الجنِّ للاستماع ، وقدرة الشياطين على الاستراقِ ، وإمكانِ السماءِ للقعود فى تلك الحال الأولى ، ففكِّروا فى الحال الأُخرى حيث حُرست الآياتُ أن تعارِض باطِلا بحق ، ومُنعت الشياطينُ أن تَنْزِل بصدق ، وامتنعت السماء أن يصعَد إليها شيطانٌ ، فقال الله عزّ وجل . « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » قالت الجن . « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ

يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » إنَّ فى قولهم الآن لأعظم نور وبيان ، وأبينُ من ذلك لكم ، وأصحُّ لمن عَقَل إن شاء الله منكم ، إخبارُ الله عزّ وجل حين جُعلت الكواكب حِفْظاً من كل شيطان مارد ، أنهم « لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا[1] وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » مع إخباره فى الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون وينزلون ويستطيعون وَيتْلُون عَلَى ملك سليمان ، فكن لهذا من الحافظين ، وفيه من المفكِّرين .

وَمن آيات النبى صلى الله عليه وسلم أنه لما نَفَرتَ القبائلُ من أعلام الشرك بجموعها ، وتَدَاعتِ القادةُ من صناديد الكفر بأتباعها ، حَذَراً على عِير[2] لها أقبلت من الشام ، بصنوف رَغائبِ أموالٍ عظام ، فكانت العِيرُ والنَّفير طائفتين : طائفةً ذات عُدَّة كثيرة ، وشَوْكة شديدة ، وطائفة ذات أموال رَغيبة ، ورجال قليلة ، وفُرصة مُمْكنة ، أخرج الله عز وجل نبيَّه صلى الله عليه وسلم وَوَعَدَه ومَن معه من المسلمين إحداهما ، فكَرِه المؤمنون جموع المشركين ، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابرَ الكافرين ، ويُشيِّد بذلك أركانَ الدين ، فلما تَرَاءتِ الفِئتان ، وتَنَاوَشَتِ الفُرْسان ، وتلاقى الناسُ ، وقَبْلَ ذلك

---

(١) الدحور : الطرد والإبعاد والدفع ، واصب : شديد .

(٢) العير القافلة ، أو الإبل تحمل الميرة ، بلا واحد من لفظها ، يشير إلى عير قريش التى أقبل بها أبو سفيان بن حرب من الشأم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو بالمدينة) قد تحين رجوعها من الشأم ، إلى مكة ، فندب المسلمين للخروج معه بغية الظفر بها . ولما علم أبو سفيان أن أصحاب رسول الله معترضون له ساحل بالعير ، وبعث إلى قريش أن محمدا وأصحابه معترضون لكم فأجيروا تجارتكم ، فأدركتهم حميتهم ونفروا سراعا ، وكان من وراء ذلك غزوة بدر الكبرى كما هو مشهور ، والنفير : القوم يستنفرون للحرب ، وهم هنا معسكر قريش الذين خرجوا يستنقذون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة .

ما قال الله عز وجل : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » قبض النبي صلى الله عليه وسلم قَبْضَةً من تراب ، حَثَاها فى وجوههم ، فلم يتَنَاهَ دون مَنَاخِرهم وعيونهم ، فانصرفوا منهزمين بلا كثير قتالٍ من المسلمين ، يأهل الكتاب فأَيَّتُما آيةٍ أعظمُ حجةً ، وأوضحُ بينةً ، وأقهر غَلبةً ، من هذه التى لو صَدَرت الأمورُ بلا تحقيق لها ، لانفضّت الجموعُ من المسلمين كُفَّاراً بها ، أبشارةُ اللهِ المسلمينَ بأمْدادِ الملائكة المقرَّبين ، وهزيمةِ نفيرِ المشركين ، التى نَجَمت الأمورُ عليها ، وتناهَت الحال بهم إليها ، أم قَبْضةٌ من تراب يسير ، ماملا المَنَاخِرَ من عدد كثير ؟

فلئن قلتم : إن هذه آيات بيّنات ، وعلاماتٌ واضحات ، ولكنا لا نُقِرُّ لكم بها ، ولا نؤمن بقولكم فيها ، أفتؤمنون أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، مع ما نسبتموه من الفضل إليه ، كان يختِلقها كذبا من تِلْقاء نفسه ، ثم يدّعيها وَحْياً مِن عندِ ربِّه ، وهو لا يدرى لَعَلَّ الأمور تقع بخلاف مايقول ، فيظْهَرُ كذبُه ، وَيرْفَضُ تبعُه .

ويزعم أن أصحابه كانوا كثيراً أقوياء ، نِشَاطاً جُلَداء ، فكان على معرفة بقوّتهم ، ويقين من غَلَبتهم ، فقد قال الله عزّ وجل : « وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ، يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » ولم يكن الرسول ولا غيره ليُخبرَ أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدّعى ذلك تنزيلا من ربهم ! هذا لا تقبَلُه الآراء ، ولا تُقِرُّ به الحكماء ، ولا يَحُدُّه النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم ببشارته لهم ، وإخباره ما أخبرهم من هزيمة أعداء الله عدوَّهم ، أن يشجِّع جُبْنَهُمْ ، ويقوِّىَ ضعفَهم ، فكيف إذن لم يتق[1] — لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وضعف المسلمين وقِلَّتهم — بظهور الأنباء على خلاف قوله ، وأن يحال[2] الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفرٌ يُكَذِّب نبوَّته ، ويقطعُ حُجَّته ، وَيكون له ما بعده ؟ وكيف إذن لم ينسُب الأمرَ إلى نفسه ، ويُنَحِّى الخبر عن ربه ، ليكونَ الخطرُ أصغر ، والشأنُ أَيْسَرَ ، إن جَرَتِ الأقدارُ بما يَحْذَر ، أووقعت الأمور على ما يكْرَه ؟ ولكنه أثبته فى كتاب مسطور ، ورقٍّ[3] منشور ، فِعْلٌ لَعمرُ الله يدل على النبوة التى كان بها واثقا ، وَيَهْدِى إلى الوَحْى الذى كان إليه ساكنا .

وَإن عَرض لنظرك ، أو وقع فى خَلَدِك ، أن الله عز وجل عوَّد محمدا صلى الله عليه وسلم الغَلَبَة ، وأجراه على المَنَعة ، فكان يَجْرِى على عادَة قد عَرَفها ، وَيسلُك جادَّةً قد خَبَرها ، فلقد كانت الهزيمة فى أولَ وقْعةٍ أوقعها الله ، ثم لقد دَالتِ الحرب فيما بعد سِجالاً[4] فيما بينه وبينهم ، تارةً عليه لهم ، وأخرى له عليهم ، فناصِحُوا الله عز وجل فى نظركم ، وقلِّبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكركم ، فَلَعَمْرُ الله ما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليقول لملوك المشركين : إن الله هزمكم برَمْيَةٍ من تراب ، وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين ، فأحضِرْ

---

(١) فى الأصل « يبق » وأراه مصحفا .
(٢) هكذا فى الأصل ولعله « يجىء » . (٣) الرق : جلد رقيق يكتب فيه .
(٤) فى الأصل « فيها بعد » وسجال جمع سجل بالفتح : وهو الدلو العظيمة مملوءة ، ويقال : الحرب بينهم سجال : أى سجل منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء .

كتابى هذا فهمك ، واصبر له ، وإن خصمك ، فإن هذه آية عظيمة ، وحجة بليغة ، وبينة عجيبة ، فى غلبة العرب .

وأعجبُ من هذه وألطفُ ، وأكثر منها وأعظم ، الآية فى غلبة العجم ، واستمعْ : أمرَ الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقولَ للمؤمنين ـ وكانوا كما قال الله عز وجل قليلاً مُستضعفين ـ : إن قبائل العرب ستتحزَّبُ عليكم ، وإن الله سيهزمُهم لكم ، وَحْياً أنزله فى الكتاب ، فقال : « جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ » فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل هذا القول عليه بدُهُورٍ طويلة ، وَسنينَ كثيرة ، محبوسين محصورين فى حَوْمة الموت ، وعسكر الخوفِ ، وخَنْدَق القهر ، وذلِّ الحَصْر ، سَوادُهم الأعمُّ ، وجُلُّهم الأعظَم : حُفاةٌ عُرَاةٌ عالة[1] ، إخوانُ دَبَر[2] ، وأصحاب وَبَرَ ، لا قوةَ بهم ، ولا مَنَعةَ لهم ، ولا أسلحةَ عندهم ، ولا عُدَّة معهم ، قد أحدقت العربُ بعسكرهم ، وأحاطت القبائل بخَنْدقهم ، وسالت الأحزابُ تصديقاً لِحَتْم الله عليهم ، تُريد أن تُزَلزِل أقدامهم ، وتُهَريق دماءهم ، فكان المؤمنون كما وصَفَ الله عز وجل من سوءِ الحال ، وضِيق المآل ، وشدة الكِظاظ[3] ، فإن الله قد وصف لهم حالهم ، وأذكَرهم فِعْلَهم ، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهلون ، ولا ليذكِّرهم من أمره ما لا يعرفون ، حِذاراً أن تنكسِرَ عزائمهم ، وتتغيَّر بصائرهم ، فتنهزِمَ أفئدة ، وتموتَ

---

(١) عالة جمع عائل : وهو الفقير .

(٢) الدبر : قرحة الدابة ، والمعنى أنهم مجهودون كالبعير الدبر .

(٣) الكظاظ : الشدة والتعب والممارسة الشديدة فى الحرب .

نَجْدَتَهُم ، وتختلف كلمتهم ، فقال الله عزّ وجل : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً » حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : « يَأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا » وقالت طائفةٌ أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عَوْرة[1] فأْذنْ لنا ، يقول الله تعالى : « وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا » فبينا هم على تلك الحال قد أجمعت العربُ تفريقهم فى الجبال ، وتقسيمَهم بالقِدَاح[2] ، وأَخْذَهم بالأيدى ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يُنبئهم به من عِلْم الغيوب ، ويبشّرهم به من أمر الفتوح ، « إن الله سينصركم على جمع الروم ، ويغلِبُ لكم جموع فارس ، فيهزم لكم جنودهم ، ويُورِثكم قصورَهم ، ويستخلفكم فى الأرض من بعدهم ، ويبدلكم من بعد خوفكم أمْنا » وَعْداً صدَّقه الكتابُ ، وبشارةً نَطَقَ بِهَا الْوَحْيُ ، فقال : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً » فقال أقوام وأناس ارتابوا حين تضايقت الحالُ ، وتزلزلت الأقدامُ ، وطارت القلوبُ ، ودَارَتِ العيون ، وأشرف الموتُ : « مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً » أيَعِدُنا هزيمةَ جموع الأحزاب ، وفتْحَ قصورِ الشام ، وغَلَبة جنودِ

---

(١) أي يخشى عليها لأنها غير حصينة .

(٢) القداح : قداح الميسر ، والمعنى : يتقامرون (أو يتآمرون) على تشتيتهم وتمزيقهم .

كسرى ، وقد سالت القبائل علينا من كل جانب ، وأحدق الموت بنا من كل مكان ، فبقينا فى مَسْغَبة[1] من الجوع ، ومَجْهَدَة من الخوف ، وضَنْك من الحال ، مقهورين مقموعين[2] ، وقالت الخاصة من المؤمنين حين عاينوا الجموعَ من المشركين ، وذَكَروا ما خبَّرهم الله من تحزُّبهم عليهم ، ومَسيرهم إليهم : « هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا » فبينا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى مَضايق تلك الحال ، وشدة ذلك الخِصَال[3] ، وعموم تلك البلايا الباهظة ، والأمور الفادِحَة ، التي قد أخذ بأنفاسهم غَمُّها ، وبلغ مجهودَهم كَرْبُها ، رافعين إلى الله عز وجل أيديهم ، يقلِّبون فى السماء أعينَهم ، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة ، والجموع العظيمة ، والأحزاب المقتدِرة ، ريحًا من الأرض ، وجنودا من السماء ، فقطعت الأبنية ، وطيَّرت الأمتعة ، وسَفَتِ الترابَ فى العيون ، وقَذَفت الرعب فى القلوب ، فولَّوا مُدْبِرين ، وخرجوا منهزمين ، لا يَلْوى[4] والد على ولد ، ولا مولود على أحد ، أمرٌ صدق اللهُ فيه قوله ، وأنجَزَ به وعدَه ، وهزَم الأحزاب وحْدَه ، وذكَّر المؤمنين نعمته فيهم ، وعرَّفهم منَّته بهم ، فقال . « اذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ، إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ

---

(١) المسغبة : المجاعة . (٢) أى مقهورين مذلولين .

(٣) خصل القوم خصلاً وخصالا : نضلهم . (٤) أى لا يقف ولا ينتظر .

الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » وقال عز وجل : « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » ما كان الله عز وجل ليقتصَّ على المسلمين فى أنفسهم إلا ما قد رأوه بأعينهم.

لولا أن هذا مالا يُنكره عقلُك ، ولا يَدْفَعه نظرُك ، لَما جادلتُك بالكتاب ، ولا نازعتك بالتنزيل ، وإنى لأَترك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحْى ، ما هو أعظمُ من هذا وأبينُ ، وأجلُّ وأوضح ، ولكن ليس لى أن أحاجَّك من آيات القرآن ، إلا بما عليه شاهِدٌ من بُرهان ، ومُخْبِر من بيان ، لا يستطيع عقلُك رَدًّا له ، ولا قلبك جَحْدا له ، وكيف ينبسط لسانُك ، أو يجترئُ قلبُك ، أن يقول : إن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون ، فاقتصَّ عليهم من أمورهم مالا يعرِفون ! لا ، مايَسُوغُ لك ولا يَجْمُل بك ، ولا يُقْبَل منك أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه ، كيف ! أَمَا كان يَخاف أن يكذِّبه أصحابُه ، وتنتقل أحوالُه ، وتنتقِضَ أموره ! لعمرُ اللهِ لو وصفتَ بهذا من لا يُعْرَف بفضل ، ولا يُنْسَب إلى عقل لَما كان سائغا لك ، ولا جائزا منك ، فكيف تصفُ به مَن يُرْفَعُ عن الناس قدرُه ، ويفضُلُ عليهم عَقْلُه ، وتُقِرُّ أنك لم تر فى الدنيا أحدا صَنَع ماصنع ، وبلَغَ ما بلَغَ ، فأيَّتُما آيةٍ فيما اقتصَّ عليك أمير المؤمنين أعظمُ ، أو بينةٍ أعجبُ : أَمَا كان يُتْلَى على المؤمنين فى الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم بسنينَ كثيرة ، أم ما كان[1] ينادِى به القرآنُ من

(١) فى الأصل « أما كان » .

المزِعة لهم ، وينطِق به الوحىُ من الفتح عليهم ، أم قول النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه « إن الله عز وجل يُؤَمِّن خوفكم ، ويُعِزّ نصركم على الأمم » وهو على تلك الحال ، ثم نَجَمت الأمور على ماقال ، أم عسكران متطابقان ، وجيشان متقابلان ، باتت الريح تَحُوش[1] أحدهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها فى عافية وغَفْلة حتى أصبحوا ، فأحْسِنِ النظرَ فى أمرك ، والتثبتَ فى دينك إن شاء الله .

واعلم أن من أعظم الآيات ، وأبيَن الدّلالاتِ ، على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وَحَقِّه ، وأنْ ليس يتقوّل شيئاً من تلقاء نفسه ، أنه قال فى عُنْفُوان أمره : « إن الله عز وجل سيُظْهر دينى على الدين كله » وجاء مع ذلك بأَثَرة عن ربه ، فى كتاب مخطوط ، وتنزيل محفوظ ، فأىّ أمْرَيْهِ[2] لك أدلُّ ، أو أيهما عندك أعجب ؟ إذ كنت بنبوته مصدِّقا ، ولرسالته محقِّقا : الخبرُ الذى أخبره ، أم الفعلُ الذى صدَّقه ؟ لئن نظرتَ بعقلك ، وقلت فى نفسك : كيف ترَقَّت إلى هذا نيتُه ، وارتفعت نحوَه هِمّتُه ، أم كيف امتدت إليه فِطنتُه ، وقَوِيت عليه رَوِيّته ؟ بل كيف دعَتْه إليه نفسُه ، وشجَّعه عليه قلبُه ، ودخل فيه طمعُه ، وطاوعه فيه لسانُه ، وهو بذكُر جنودَ كسرى ، وجموعَ الروم ، وملوكَ التُّرك ، وملوكَ الشِّرك ، وقُيُولَ[3] اليمن ، وصناديدَ الأمم ؟ إن هذا لعجَب ، ولاسيما إذا لم يكن فى إرْث مُلْك قاهر ، ولا كَنَفِ عِزّ غالب ، ولا مَعْدِن علم سالف .

---

(١) حاش الصيد : جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة ، وحاش الإبل : جمعها وساقها .

(٢) فى الأصل « فأى أمر بنلك » .

(٣) القيول : جمع قيل بالفتح ، وهو : الملك من ملوك حمير .

ولئن أعدْتَ النظر وكرَّرت، فقلت: كيف وافق خبرُه أثَره، وكيف صدَّق فعلُه قولَه، حتى غلبَ الشرقَ والغربَ؟ إن هذا لعجَب! وأعجب من هذا أمرٌ يدُلّك أميرُ المؤمنين عليه، ويَهْديك إن شاء الله إليه، لو قلتَ لأهل مماكتك ومَن قِبَلك من أمتك: هل بلغكم أو تقرَّر قِبَلكم، أنه كان فى الدهر الأول، والعصر الخالى، أحدٌ مثل محمد صلى الله عليه وسلم: بدأتِ الأمورُ به مثل حاله، من الوَحْدة والضعف والذِّلَّة والقِلَّة، وصَدَرَتِ الحال به كذماله، فى الغَلَبة والمَنَعة والقهر والظهور، وغير ذلك؟ لقالوا: لا.

ثم أنت لا تؤمن بمقالته، ولا تُقِرّ برسالته، إلفاً لدينك، وضَنًّا بملكك، وطمعا فى قليل من الدنيا قد نَعاه الله إليك، ورغبةً فى صُبابة عيشٍ غير باقية فى يديك، فهذا عجبٌ، وأعجبُ من هذا أمر يَقِفُك أمير المؤمنين على نور حقه، ويُوضّح لك إن شاء الله بيانَ أمره: أصبحتِ العربُ طُرًّا والأمم جميعا فى محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا رابعَ لهم، ولا مخرَجَ للحق من بينهم: رَجُلٌ مصدِّقٌ به من المؤمنين، ورَجُلٌ مُكَذِّب به من الكافرين، ورجل شاكٌّ فيه من المنافقين.

فأما الشاكُّ فلمّا قيل له: أخرجتَ نفسَك من الحق، وأبرأتَها من الصواب، وأقررتَ عليها بالخطأ، لقولك: لابدّ أن يكون الحق فى التصديق أو التكذيب، ولستَ على واحدٍ منهما، اعتزل عنهما.

وأما المكذِّبُ فلمّا قيل له: أنت منكِر، والمنكِرُ ليس بمُدَّعٍ، ومن لم يَدَّع لم يَلْزَمه بينةٌ، ولا يُسأل عن حُجة، اتبع صاحبه وايمُ الله على

ذلك ؛ لو سئل هذا المدعى عن بينته ، وكَشْفِ حجته ، فقيل له : من أين عَرَف قلبك ، وأيقنَتْ نفسُك إيقاناً لا يُخالجُه شكٌّ ، ومعرِفةً لا يشوبُها رَيْب ، ولا ينازِعها شبهةٌ ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس برسول ؟ لَمَا درَى ما يقول ، لأنه لا يستطيع أن يتقوَّل على الرسل ، ولا أن يتكذَّب على الكتب ، فيقول : قد أخبر الله فيها أنه لا يبعث نبيا ، ولا يُنْزِل وحْياً في كتاب مسطور ، بعد التوراة والإنجيل والزَّبور ، بل قد يجد أهل الكتاب في أقاويل رسلهم ، وأخابير كتبهم ، أن الله تبارك وتعالى يُنْزِلُ كتابا جديداً أو كلامًا حديثاً ، بعد خراب بيت المقدِس في آخر الزمان ، ولم يُنْزِلْ بعد ذلك كتابا إلا القرآن .

وأما الرجلُ المصدِّق بمحمد صلى الله عليه وسلم فقيل له : أمّا أنت فقد ادَّعيتَ ، والمدَّعى يُسْأَل عن الحجة ، وتُقبَل منه البينةُ ، فما بيِّنتُك ، ومن يشهد لك ؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحق لايخرج من بيننا ، ولا بُدَّ أن يكون مع بعضنا ؟ قالوا : بلى ! قال : فأية بينةٍ أحقُّ وأعدلُ ، وأى شهود أزكى وأفضل ، من شهادتكم بسقوط صاحِبِيَّ ، وثبوتِ الحق مِن بعدهما في يدىَّ؟ قالوا : إن الأمر لكَما تقول ، ولكن البينة أشْفَى للصدور ، فأقام بيِّنةً من الكتاب ، وشهودا من الوحى ، وآياتٍ سوى ذلك عِظامًا ، وبيِّناتٍ عوامَّ ، من كلام لا يقدر عليه الخلقُ ، وصِدق لا يكون إلا مِن قِبَل الربِّ ، شبيها بما أورده أمير المؤمنين عليكم ، وكتب به في صَدْر كتابه هذا إليكم ، مما قد تشهد له قلوبُ الأمم ، ويزَكِّيه فِعالُ العرب .

فلما أقام بيِّنَته، وثبتَتْ حجته، وَوَجب حقه، وقُضِيَ به له، قيل له: وكيف توسَّعتِ الأمور عليك، وضاقت المقالة لك، أن تقول: إن الله لا يبعث نبياً بعد محمد صلى الله عليه وسلم، ولا وَحْياً ينزِل غير القرآن، فأبطلتَ الكتب المحدَثَة، وأكذبتَ الوثيقةَ، ولم تترك وحياً غير القرآن، وَلَمْ يَجُز للنصارى أن تقول: لا نبيَّ بعد عيسى عليه السلام، ولا كتابَ خَلْفَ الإنجيل، وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا: كل متنبِّيءٍ بعد بيننا كذاب، فشاعت وجازت الحجةُ، ووضَح العُذْر. وأما النصارى فيجدون فى أواخر كتبهم، وأقاويل رسلهم، أن الله عز وجل يبعث نبيًا حديثًا، ويُنْزِلُ كتابا جديداً، فليس لهم أن يكذِّبوا نبينا صلى الله عليه وسلم، ولا أن يردُّوا كتابنا.

فهؤلاء الثلاثة: أما الشاكُّ فسقَطَ، وأما المنكر فَبطَل، وأما المصدِّق فثبتَ ثُبُوتًا ليس فيه مَدْخَل شُبهة، ولا مَوْضعُ لحُجّة، ولا مَعْلَق لمنازعة، وذلك أن المنكر لوجوب حقه، والشاكَّ فى ثبوت صدقه، لايجد بُدًّا من أن يُنَحى الصدق عن الخلق، وَيُخْلِيَ الدنيا من الحق، وهذا قول المكَذبين بِرَبهم، الشاكِّين فى بعثهم، فأحسِنِ النَّظر فى معانيه، ينكشِفْ لك عما فيه ان شاء الله.

ومن أبين آياته وأدلّ علاماته صلى الله عليه وسلم، ووسع له فيما صَدَر إليه، أنه لما أخبرت النصارى واليهود أنهم لم يجدوا محمدا صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل موصوفا مكتوبا، تجمَّعت العلماء منهم، وتدارسَتِ

الـكتبَ فيما بينهم ، فلما نظروا إلى اسمه ، وعاينوه بنَعْته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويستفتِحون بذكره على من سواهم ، كفَرت طائفةٌ حَسَدًا من عند أنفسها ، وجَحْدا من بعدما تبيَّن لها ، وآمنت طائفة ، تصديقا بكتابها ، وخوفا من ربها .

فلعمرُ الله لولا أن الذين آمنوا بحقه ، وصدَّقوا بأمره ، رأَوا صِفتَه عِيانًا ، وقَبِلوا نَعْته إيقانا ، لَمـا فارقوا أديانهم ، ولا جادلوا إخوانهم ، حتى وقفوهم على اسمه ونسبه ، وصفته وعلامته ، وهم علماء بنى اسرائيل ، وحَمَلَةُ الإِنجيل : من أهل الـكتاب الذين احتج الله عز وجل بهم على العرب فقال عز وجل : « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ولعمر الله إنها لآية عظيمة ، وحجة بليغة ، ذكرها الله فى كتابه ، وجعلها على العرب من بيِّناته ، فقال لهم : « قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْلاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً » يقولون : وَعَدَنا أن يُرْسل رسولا ، فقد أرسله ، وحقَّق قوله ، وصدَّق وعدَه ، واحتجَّ النبى صلى الله عليه وسلم بذلك وذكرَه ، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ليجادلَ ويحتجَّ فى أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه فى التوراة والإِنجيل مكتوب موجود ، إلا وهو من ذلك على حق يقين ، ونور مستبين ، وكيف كان يستشهد من التوراة والإِنجيل بكَذِب ، ويتقوَّل عليهم الباطلَ ، مع حِرْصه على تصديق أهل الـكتاب ، ليستدعِيَ به إيمانَ أحياء العرب ،

أمَا كَان يعلم أنه إذا قال لهم : إنه موجود فى مَثانِى كتبهم ، وسُمِّى على أفواه رسلهم ، فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وَصْفَه مستبينا ، أنهم سيُدْبِرون عنه إدبارا ، تزداد به العرب نِفارًا ، إلا أن يقولوا خَطأً من عامه ؛ وهواءٍ من خَبره ، فكيف لم يخطّ إذن فى كتبهم حرفا غيره ، ولم يخالف منها شيئا سواه؟ سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجبَ من ذهاب الأساقِفة بكم ، فأنتم إن تُنْكِر مايقولون لكم ، مما ليس لِذى لُبٍّ أن يأذن له أن يؤمن به ، ولا أن ينبِذَ[1] إليه سمعَه ، يقولون : إن أنبياء الله ورسله ، المبعوثين بالرحمة إلى خَلقه ، لطُفَت النبوة منهم ، ووقعت الأخبار المُنَزَّلة عليهم ، على صغائر الأمور ، وغوامض الخطوب ، فسار الناس عليها ، وأشاروا لهم إلى طلبها ، فهى مكرَّرة فى مَثانِى كتبهم ، وبُطُون صحفهم ، وأقاويل رسلهم ، وتركوا من كلام الله النبأ العظيمَ والأمرَ الكبير ، والذكر الحكيم ، الذى مَلَك آفاق الأرَضِين ، واستفاض على جميع العالمين ، لم يذكروه بخير يأتمرون به ، ولا بشرٍّ ينتهون عنه ، كلا ! ما ترك الله على هذا خَلْقَه ، ولا بهذا وَصَف تبارك وتعالى نفسَه ، إنه لأرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين .

ولئن رجعتَ إلى قلبك ، لَتقولَنّ فى نفسك : لعمرُ اللهِ لو كان هذا الأمر الذى طلع طلوعَ الشمس ، وامتدّ امتدادَ النهار ، فبَلَغ مَشارِقَ الأرض ومغارِبَها ، وسُهولَ الآفاق وحُزونَها[2]، حقا وصدقا وعدلاً ، لبشَّرتِ الكتب به ، وتنبَّأتِ الرسلُ عليه ، ودَعَتِ النُّذُرُ إليه ، تزيينا له ، وترغيبا فيه ،

---

(١) أى يلقى .

(٢) الحزون : جمع حزن بالفتح ، وهو ماغلظ من الأرض .

وأمْراً به، ولو كان ضَلالة وجَهالة وعَماية ، لتقدَّموا فى التحْذِير منه، والتزهيد فيه، والتَّثْبيط عنهُ ، فيدعو ذلك إلى أن يَنظروا فى كتب الأنبياء ، وأقاويل الرسل ، فأيم الله لئن طلبتَ لتَجِدَنَّ ، ولئن اجتهدت لتُوَفَّقَنَّ ، وما الصواب بممنوع ، ولا الخيرُ بمحظور ، ولقد كانت العلماء بالكتب والبُصَراء بالتأويل تجده ، ولكنها كانت تكتُمه ، بتحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرْفِ تأويل الْحُكم إلى أشباهه ، حَسَدا من عند أنفسهم ، وبَغْيا بعدما تبيَّنَ لهم ، ثم لقد اقتديتم بهم، وجَرَيتم معهم، وأخذتم عنهم، بلا حجة لكم ولا قوة معكم ، إلا الاقتداء بالآباء ، والاتِّباعَ للآثار ، فاتّقِ الله فى نفسك ، واتَّهِم الرجال على دينك ، ولا تجعل النظرَ إلى غيرك من ذوى الشك فى القلوب ، والفسخ فى .. .[1] والتُّهَم فى التعطيل ، الذين لعلَّهم يَعرِض لآرائهم ، وَيقع فى أوهامهم أن يقولوا : فلعل ما يتلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرَع لكم من حُجَج الوحى ، شىء زِيد فى المصاحف بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا مالا يحتمله عقلٌ صحيح ، ولا نظر قوىّ ، وذاك الشاكّ فى شهاداتِ الرجالِ — متفقةً من بُلدان وأمصار مختلفة ، وشعوبٍ وقبائلَ متفرِّقة ، ليس يدعوهم إلى ما شَهِدوا دِين ، ولا يَحمِلُهم على ما اتفقوا عليه دنيا — لايستقيم له أن يُؤْمِن[2] بما لم تُدْرِكْه جَوارِحُه ، وتُحيط به حواسُّه ، لإسقاطه حُجَّةَ الإجماع ، وإبطالِه شهادةَ العوامِّ ، واتفاقُ المختلِفين دلالةٌ واضحة ، فهو سائِلُكم عن الحجة فى الإنجيل ، والبيِّنةِ على التوراة ، شَكّاً فى الرب ،

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل « أن يؤمن له » بزيادة له بعد يؤمن ، ولاحاجة إليها بل هى قلقة فى الجملة

وتكذيباً بالرسل ، فما كنتَ قائِلَه له ، أو مُجيبَه به فى كتابكم ، فأجِبْه بمثله فى كتابنا ، وإن كانت الأحوال منها غيرَ معتدلة ولا مؤتلفة ولا مُرْتَفِقة ولا واحدة تعتدِلُ حالاها ، ويتّفق أمرها من كتابكم ، مالم تنزل به الملائكة وَحْيا كالقرآن ، ولم يُشافِهِ المسيح به أصحابَه باللسان ، إنما كان فعلا أُثْبِت من بعده ، ولم يكن الفعال موضوعًا بعده ، وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا إليكم شكّافيه ، ولا يورده عليكم مِرْيَةً به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كُتُب الله عز وجل محفوظة ، وأن حُجَجه مخزونة ، لا يُزاد فيها على تقادُم عَهْدٍ ، ولا ينتقص منها على تقارُب دهر ، وأن ذلك ثَبَت فى الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن اجتمع إليه من الحواريِّين : « بالوَحْيِ أُكلِّمكم ، والأمثالَ أضرِبُ لكم » فأمثالُه المضروبة كلام ، وكلامُه الرائع وَحْيٌ ، ولكن ما بالُ الشكُّ يُنْفَى عن كتابكم بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهو على ما وصَفَ أمير المؤمنين لكم ، وسِيَّانِ فى تنزيل كتابنا ، وقد أُدرك شهادة دينه ، إما ما قربا[1] من عهده ، ومعاينة وحْيه ، واجتماع على حفظه ، هذا حكم مختلف .

فقل للذين يَشُكُّونَ فيه ويرتابون به : أوقِعُوا أوهامكم على حالات الأوقات التى تعرفون ، وقومها[2] بطبقات الرجال الذين يتهمون .

فإن قالوا : أمّا طبقاتُ الرجال التابعين ، وحالاتُ أزمان أمير المؤمنين ،

---

(١) هكذا فى الأصل ، والعبارة كما ترى مضطربة .

(٢) هكذا فى الأصل .

فذلك مالا يسُوغُ الأقاويلُ فيه ، ولا تدخُل الشبهة عليه ، لانتشارِ القرآن وامتدادِ الزمان ، وكثرة الحَمَلَة لآياته فيهم ، والحَفظَةِ لِلِسانه منهم ، ولكن الدين الذى نزل به القرآن ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرِهم ، وكيف بوقوع تُهَمَة ، أو دخولِ شُبهة ، على أقوام لَبث النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حِجَّةً فيهم ، يتلو كتاب الله عز وجل فى كل عام عليهم ، حتى حَمَلوه فى صدورهم ، وحَفِظوه فى قلوبهم ، وكرِّر فى آذانهم مسموعا ، وأُمِرَّ على أبصارهم مكتوبًا ، وجرى على ألسنتهم مَتْلُوًّا ، وجمعه كثير منهم محفوظًا ، ثم توارثوه فيهم ، وتداولوه فيما بينهم ، حتى أدَّوه إلينا ، وأوفَوا به عندنا ، من مواضعَ متفاوتة ، وأصناف وأجناس متباينة ، على كلمة واحدة.

فإن قالوا : اتفقت الرجال على الزيادة فيه ، وأمكنت الحالُ من الحَمْل عليه ، فليَعْلَموا أن المؤمنين المخلِصين ليسوا فى الزيادة متَّهَمين ، وأن المنافقين المُلْحدين ليسوا على ذلك بقادرين ، وكيف يَقدِر القليل من المنافقين على مخالفة الجَمعِ من المؤمنين ، بعد ما حَفِظَتْه قلوبهم ؟ وَوعَتْه أسماعهم ، ثم تُكْتَم القدرة لهم ، وتَستَتِر الزيادة منهمْ ؟ هذا مالا يقدر عليه منافق ، ولا يُطِيقه مشرك ولا فاسق ، وايمُ اللهِ أَنْ لو قَدَرتِ اليهود على الزيادة فى الإنجيل لأفسَدُوا كتابكم ، وغيّروا دينكم ، ولو جعل الله المنافقين على الزيادة فى كتابه قادرين ، لبَدَّلوا ديننا ، وغيّروا حالنا ، ولو كانوا لذلك مُقْرِنين [1] ، وعلى ذلك مقتدرين ، لكان الذى كتب به أمير المؤمنين إليكم ، وأورده من حُجَج الله

---

(١) أقرن للأمر : أطاقه وقوى عليه .

عليكم ، أوَّل ماتَلْقَوْن ، ورأسَ ما تقترفون ، فلا تُلْقِينّ إلى ما قاله المُضِلُّ تَمْعَك، ولا تُنْصِتِ الدّهرَ إليه ذهنك ؛ فإنه اتخذ الشَّكَّ فى كتابنا ذَريعةً إلى الإخلال بكتابك ، وسُلَّما إلى الشك فى دينك[1] ، وعِلّةً فى الطعن على مِلَّتك ، ولكن قل : ياوَلِىَّ الشيطان : أنَّى وقع لك إيمانٌ بأنك من ولد فلان ؟ أتقول شَهِدَت الجِيرةُ ، واجتمعت العشيرةُ ، واتفق المختلفون ، فذهب الشكُّ ، وزال الرَّيْب ، ووقع الإيقان من غير العِيان ؟ صدقتَ ، فما بالُ الشك فيما اجتمعت العامّة على القول به ، واتفقت الجماعة فى الشهادة عليه ، من آيات الكتب وبيِّنات الرسل ! وإن ذهب بهذا عن أمره ، وباعده عن شبهه ، فتؤمن أنه من نُطْفة خُلِق ، ومن رَحِم خَرَج ، فإن جَحَد وأَبَى ألاَّ يؤمن بما لا يرى فقل : أرأيتَ لو كنت سميعا أعمى ، أكنتَ تُؤمن بشىء مما فى الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سَبُع ، أو أرض أو جبل ، أو شبه ذلك ، مما لم يدركه العِيانُ ، ولم يقبله إلا عن الناس؟ فان قال نعم ، فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفرُ بالرب ؟ وما لدائه دَواءٌ غير الصَّلْب ؟ فاُتق الله إذ كنت إمامًا وقائداً لأهل مُلْكك ، لا تَقْدُمهم إلى النار ، فتحملَ أوزاراً مع وِزْرك .

فإن من أبين آيات الوحى ، وأدلِّ علامات النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يبتدع فى الدين أمرا من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم فى الأمور بين يدىْ ربه، والله أظهرَ فيما أنزل من الكتاب أمورا كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستورةً ، فقال تأديبا له ، وإخبارا لمن آمنَ من بعده : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ

---

(١) فى الأصل « فى دينه » .

عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » وقال : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ، كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ » وقال تعالى : « وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ، إِذَنْ لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا » وقال له حين صرفَ قلبَه عن بيت المقدس إلى البلد الحرام ، حين سكنت القلوب إليها ، وأنِسَت النفوس بها : « وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ولَا نَصِيرٍ » وكانت القِبلة التي صرفه الله إليها وأمَرَه بها ، عظيمةً على المنافقين ، واقعة بخلاف الكافرين ، كبيرةً[1] إلاَّ على الَّذينَ هَدَى الله من المؤمنين ، فإنهم قالوا : إذا اختلفت القِبْلتان ، وافترقت الجهتان ، كانت الطاعةُ فيهما واحدة ، لا اختلافَ فيها ولا افتراقَ عليها ، وكيف تختلف الطاعةُ من رجل بَنَى بأمرِ الله عز وجل ، ثم هدَمَ بوحى الله ؟

فإن قلت : إن الله حوَّله عن أفضل القِبْلتين ، وأقومِ الجهتين ، فلا سواءٌ في الفضل البيِّن والخير السِّرِّ : قِبلة سلَّط الله عليها الكافرين ، ولم يمنعها من الظالمين ، وقِبْلة منَعها بجنودٍ من عنده ، وعَصَمها بغير ما حَوْلٍ من خلقه ، ولا حُرْمة يدعيها أحد ممن فيها ، فأرسل طيراً أبابيلَ[2] تَرْمِي الأعداء بحجارة

---

(١) في الأصل « كثيرة » وهو تصحيف .

(٢) أبابيل : جماعات ، والسجيل : الطين المتحجر ، كعصف مأكول : أي كزرع أكل حبه وبقى تبنه ، وقصة أصحاب الفيل مشهورة .

بمن سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ، فإن تقل : هذا خبر نُنكِره ، وقول لا نَعرفه ، فبأىِّ حديث بعد هذا تُؤْمِن به ، وتشهد لله عزّ وجل أنه من قِبَله ؟ وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عزّ وجل سورة الفيل على قوم أدركه منهم بَشَر كثير .

فإن قلت : إن محمداً صلى الله عليه وسلم خبَّرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه ، نقلْ : إنه أراد أن يفرِّقهم عنه ، ويُوحِشهم منه ، وأحب أن يرمُوه بالكذب ، ويَقذِفوه بالحمق ، ويَصِمُوه بالجنون ، ويظنُّوا به الظنونَ ، كلا ! ما كان نبيٌّ ولا غيرُ نبيّ لِيجاهِرَ[1] أقواما بخلاف ما رأتْ أبصارُهم ، وشاهَدتْ آباؤهم ، فيُخْبِرَهم بخلاف ما شَهِدوا ، وتكذيبِ ما عايَنوا ، فلا تكونَنَّ فى هذا من المُمْتَرِين ، ولا بأمر الفِيل من المكذِّبين .

فلعمرُ اللّهِ لو كان مِن أمْر النبي صلى الله عليه وسلم ما تُلْحِد أنت وقومك إليه ، لَمَا قام معه رجلان ، ولا اختلف فيه سَيْفان ، وإن فيما صَنَعَ الله عزّ وجل بالفِيل وأتْباعِه ، دلالةً على قِبلة الله وأنبيائه ، فاُتَّقِ الله ! فقد شرح أمير المؤمنين علاماتِ النبي صلى الله عليه وسلم ، وكَشَفَ الأَغْطِيَةَ لك عن النور بآيات الوحى . فإن مالت الأهواء بك ، وغَلَبت الأساقفةُ عليك ، وحَضَرك الرؤساء الذين يجعلون مع اللّهِ آلِهَةً أخرى بلا حُجَّةٍ عندهم ، ولا سلطانٍ أتاهم ، فقل : أنْبِئُونى عما اجتمعت عليه النصرانيةُ ، وذهبت إليه بهم المعانى ، من تشقيق[2] الكلام ، وتصريفِ الكتب : أحُروفٌ تتعسَّفُونها ، أم لغة تعرِفونها ؟

---

(١) فى الأصل « ليجاهد » وهو تحريف .

(٢) شقق الكلام : أخرجه أحسن مخرج .

فإن قالوا : إنهم بغير لغة يتكلمون ، فهم إذَنْ قوم يلعبون ، وإن قالوا : إنهم يتكلمون بلغةٍ معروفة ، ومعانٍ معلومة ، فقل : أخبِرُونى عن قولكم : أب وابن ، أهما ما تعترِف العقولُ من المنطق ، ويقع فى القلوب من المعنى ، أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذى تذهَب أوهامُ العباد إليه ، ولا بالذى تَقَعُ الحقائق فى الآباء والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراة لإسرائيل : « بِكْرِى » لا يَعْنِى ولادةَ الرَّحِم ، وكقول المسيح عليه السلام للحواريِّين : « أنتم إخوتى » لا يعنى أُخُوَّةَ النَّسَب ، فذلك قول لا يجدون معه بُدًّا من أن ينسُبوا عيسى عليه السلام عَبْدا ، وإن قالوا : بل هو ما تجرِى به ألسُنُ العباد ، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعروفة ، والأُبوَّة المعلومة ، فليُخْبرونا متى كان الأبُ والدا ، والابن مولودا ، أقَبْلَ الولادة أم بعدها ؟ فإن قالوا : قبْلَها ، رَجَعوا عن القول الأول بتثبيت الأُبوَّة ، إلا أن ذلك ليس بالشيء الذى تذهب إليه الأوهام ، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأنام .

ولا بُدَّ إذا سقطت الولادةُ المعروفة ، وبَطَلت الأُبُوَّة الموجودة ، أن يقولوا : إن الأب والابن اسمان عُلِّقا على غير معنى ، ونسَبان أُضيفا إلى غير حق ، فيُقرّون أن عيسى عليه السلام خُلِقَ مثلَهم ، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحد منهم .

وإن قالوا : إنما كان الإبن مولوداً والأب والداً بعد الولادة ، فقد أقرّوا بأن الإبن حَدَثٌ مخلوق ، وعَبْد مَرْبُوب ، لقولهم : إنه لم يكن حتى وُلِدَ ، ولم يُولَد حتى خُلِقَ ، وقل لمن يقول الزُّور العظيم ، ويقذِفُ بالإِفك

المبين ، أليس الأبُ أبًا على حِياله ولم يَزَلْ ، والإبنُ ابْنًا نَجلَ[1] ، ورُوح القُدُسِ كذلك ؟ فإن قالوا : نعم ، فقد أقرُّوا بأنهم ثلاثة متباينة ، وَقعَت عليهم ثلاثةُ أسماءٍ متفاوِتة ، وتَرَكُوا قولهم : إنهم ثلاثةٌ أصلُهم واحِدٌ .

وإن قالوا : الأب والابن ورُوحُ القُدُس واحد ، ولكنّ بعضَه أبٌ ، وبعضه ابن ، وبعضه روح القدس ، فقد دَخلوا فى التحديد الذى هو عَيبٌ عندهم ، وقالوا فى التبعيض بما هو كُفْر قِبَلَهم ، وَإن قالوا : ليس مُبَعَّضا ولا مُجزَّأً ولا محدودا ، ولا ثلاثة متباينين ، فإذَنْ هم قوم يلعبون : يقولون : الأب ابن ، والابن أب ، والوالد مولود ، والمولُود والد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، والقليل كثير ، والكثير قليل ! وهذا من أبْيَنِ المحال ، وأَخْلَفِ المقال ، وليس من المنطق ما لا يوجد فى لغة عَرَب ولا عَجَم ، ولا لسانِ أمة من الأمم ، وإنما أرسل الله عز وجل كلّ نبي بلسان قومه ليُبَيِّن لهم ، فيُضِلّ الله الظالمين ، ولولا ذلك لَما فهمتِ الأمم مذاهِبَ أقاويل الرُسُلِ ، ولا معانِىَ أحاديث الكتب ، فلا تُطِعِ الذين يلعبون بأنفسهم ، ويتكلمون بغير لغتهم ، ويقولون : الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، وهذا محال فى مَجَارِى المقال ، ومَعَانِى الفِعال .

لعمرُ الله لئن اتَّهمتَ عقولَ الأساقفة على دينك ، واهتممت بالنظر فى توحيدك ، لتَعْلَمَنَّ أن الواحد لا يكون ثلاثة ، وأن الثلاثة لا تكون واحداً ، إلا على وجهٍ مالَه ثانٍ تقولُ به ، ولا منه مَخْرَج تستريح إليه ، فألْقِ نحوَه

(١) نجل : أى ولد .

سَمْعك ، وأنصِتْ إليه فهْمَك ، فإن أمير المؤمنين واصِفُه لك ، وليس واقعاً إلا على المخلوقين : ولا لازما غيرَ المحدودين ، ولا داخلا على ربِّ العالمين : وهو أن يكون الشيء أصلُه واحدٌ وأجزاؤه كثيرة ، من نحو الإنسان ، وهو أصل يجمعه اسم ، وله أجزاء تَلْزَمُها أسماء ، فليس الجزء بالأصل ، ولا الأصل بالجزء ، ولكن الجزء بعض الأصل ، فإذا أردت الجزء قلت : يد الإنسان ، وسمع الإنسان ، ولولا أنه محدود مخلوق مُجَزَّأ مُبَعَّض ، لَمَا جاز هذا القول فيه ، ولا دَخَلَ هذا المثل عليه ، وكذلك الشمس : الأصل واحد ، وهي شمس ، والأجزاء كثيرة : وهي عين الشمس ، وضوء الشمس ، وشُعاع الشمس ، ودقيقها ، وغليظها ، وحَرورُها[1] ، وأعلاها ، وأسفلها ، وأشباه ذلك .

فلئن قلتَ : سَمَّيت كل جزء من الأجزاء على حِياله إنسانا ، وكلَّ جزء من الشمس دون أصله شمسا ، ونَسَبْتَ فِعْلَ الأصل الى بعض أجزائه ، وتركت أن تنسُب الأصل فاعلا ببعض الأجزاء ، كما تقول : بَسَط الإنسانُ يده ، ومشى برجله ، ونظر بعينه ، ثم ضربت ذلك لله عز وجل مَثلا ، وجعلتَ الله له قياسا ، فقلت : الأصل واحد ، وهو الله عز وجل ، والأجزاء كثيرة ، وهي أب وابن ورُوحُ القُدُس ، وكل جزء منها إله على حِياله ، ورَبٌّ دون غيره ، لم تجد بُدّاً أن تُلحِق اليدَ والعينَ والنفس بالأب والابن وروح القدس ، فتُكثِّرَ آلهتك ، وتحدِّدَ ربك ، وتترك قولك : إن الله ليس محدودا ولا مُجَزَّأ ولا مُبَعَّضا ، إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماء أب وابن وروح القدس ، فإن كنت

---

(١) الحرور : الحر .

تقول هـــذا وكنت إنما تعبُد أسماء ، فما تجد بُدًّا من أن تعبُدَ الأسماء كلَّها ، وتقول : إنها آلهة على حيالها ، حتى تقول باسمٍ : ارحمْنى ، وبثانٍ : اغفِر لى ، فاتَّقوا الله يأهل الكتاب ، فإن الله عزّ وجل ليس بأب ولا ابن ولا اسم ، ولكن له الأسماء الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فإن أشارت الأساقفة إلى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك ، وقالوا : ليس إنسانًا ، فقل : لا ، ولكنه للإنسان ، وقل : هو إنسان بكماله ، وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس ، فقالوا : أليس هذا الشمس طالعًا ؟ فقل : لا ، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماء التى تقع أبصارُكم عليها ، وتُشِير أيديكم إليها من الشمس والسماء والهواء شمسًا وهواء وسماء ، لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يَبْلُغه الإحصاء ، ولو قصدتَ بالإجابة لِمَسَالِكِ هذه الأودية ، لبطَلَتِ الحُجَج الدَّاحِضَة ، وانقطعت الأقاويل المتناقضة ، وسَلْ مِن قبلك من أساقِفِ أمتك ، وشَمَامِسَة أهل ملَّتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ، ويرفعونه أن يكون عَبْدا : على أى شىء وقع اسم المسيح من عيسى : عَلَى الرُّوح ، أم الجسد ، أم على كِلَيْهما ؟ فإن قالوا : وَقَعَ على الروح نفسِه ، لأن الرُّوح إله دون غيره ، فقد أقروا بأن إلهَهُم يأكل ويشرب ، وَيمشى وَيَرْكب ، لأنهم يجدون ذلك من فعل عيسى مبيَّنًا قِبَلهم ، موصوفا عندهم ، فإن قالوا : وَقَع اسم المسيح على الجسَد بعينه ، فكان الجسد هو المسيح إذن دون غيره ، والمسيح إذن مخلوق عندهم ، والإله إنسان إذن مثلهم ، فلِمَ يعبدون

المخلوق ، ويدعون مَن خَلَقَه وَبَرَأَه ؟ وإن قالوا : وَقَعَ الاسم عَلَى الروح والجسد جميعا ، فلن يجدوا مَخْرجا ولا بُدًّا ولا مَحِيصا ـ إذا أوقعوا الاسم عليهما ـ من أن يُضيفوا الأعمالَ إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خَلَقهم ، و إن الروح الخالقة قد ماتت قبلهم ، وذلك لِمَا يجدون من ذكر موتِ عيسى عليه السلام فى الكتب عندهم ، وفى الإنجيل الذى قِبَلهم ، وسَلْ مَن قِبَلك عن الأب والابن ، فقل : أيُّهما أعظم ، وأيهما أصغر ؟ فإن قالوا : الأبُ أعظمُ والابن أصغر ، فقد جعلوهما متباينَيْن ، وإن قالوا : هما واحد وكلاهما عظيم ، وليس الأبُ بأعظمَ من الابن ، ولا الابنُ بأصغرَ من الأب ، فقد نُقِض حينئذ جوابُهم ، وأكذبَ المسيحُ عليه السلام كلامَهم ، حيث يقول : « لو كنتم تحبُّونى لفرِحتم حيث أذهبُ إلى إلٰهى ، فإن إلٰهى أعظم منى[1] » فلم يقل : « أعظم منى » إلا وهو مُقِرٌّ بأنه أصغر منه ، وسَلْهم عن قول المسيح : « أنا أذهب إلى إلٰهى وإلٰهِكم[2] » فقل : مَن هذا الإلٰه الذى ذهب عيسى إليه صلى الله عليه وسلم : إلٰهٌ فى السماء ، متباينٌ منه ، منقطعٌ عنه ؟ فهما إذن اثنان متباينان ، أم إلٰهٌ كان به متصلا ، وكانا جميعاً واحداً ؟ فكيف إذنْ يجوز له أن يقول : « أذهبُ إليه » ؟ إلا أن يقولوا : إنّ بعضَه ذهَبَ إلى بعض ! وهذا مما لا يجوز عندهم فى صفة الربِّ عزّ وجل.

---

(١) ورد فى إنجيل يوحنا (الإصحاح ١٤ آية ٢٨) من الكتاب المقدس طبع بيروت سنة ١٩٠٩ « لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى إلى الأب ، لأن أبى أعظم منى » .

(٢) ورد فى إنجيل يوحنا (الإصحاح ٢٠ آية ١٧) من الكتاب المقدس : « إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم » .

وسَلْ مَن قِبَلك : أَخَرَجَ المسيحُ من بطن أمه مريمَ بكماله ، حتى كان البطنُ منه فارغا ، وكان هو منه بكماله خارجا ؟ فإن قالوا : نعم ، فقد انكسر قولهم : إن الله بكل مكان ، وإن قالوا : لم يخرج المسيح ، ولم يخلُ البطنُ ، فقد كَذَبوا إذن فى قولهم : إنه قد خرج ، وأقرّوا أنه قد وُلِدَ ، فتعالَى اللهُ عما يَصفون ، وتنزّه عما يشركون ، وسَلْهم : لِمَ هبط عيسى إلى بطن مريم ، وتجسّد باللحم والدم ؟ فإن قالوا : لِيَمْحَقَ الخطايا من الأرض ، ويربُطُ الشيطانَ عن الخلق ، فقل : كيف إذن لم يربطهُ عن نفسه ؟ وكيف جلاباه[1] من اليهود بصَلْبه ؟ ولِمَ سُلِّط على أهل دينه يُتَبَّعُونَ فى كل شِعْب[2] ، ويُقْتَلون بكل وادٍ ؟

وقل للذين يقولون : إن الخالق فى كل مكان من السماء والأرض وغير ذلك: أيهما أعظم : المحيطُ المشتمِل أم المحاط المُشتَمَلُ عليه كما يقولون ؟ تعالى الله عما يشركون ، فإن قالوا : إنما التحَمَ بعضُه دون بعض ، فقد حَدُّوا وبعَّضُوا وتَقَصوا ، وإمّا قالوا ، فلن يجدوا بُدًّا من أن يقولوا : إن بعض المسيح الذى جعلوه ربَّهم ، وهو إله عندهم ، ميت بعضه جيفة ، وإن بعضه حيّ طيب ، لأنهم زعموا أنه التحم بجسد حيٍ فيه رُوحٌ ، فلا بُدَّ إذن أن يدخل عليه ما يَدْخُل على الأجسام الحيّة من الخوف والفزَع والفرَح والعطشِ وأشباهِ ذلك ، وهو عندهم كفر عظيم ، وإفكٌ مُبين ، فاتّقِ عقوبة اللهِ ربِّك ، ولا تَمْشِ مُكِبًّا على وجهك ، ولكن اطلب والتمِسْ وابْحَثْ ، فقد قال عيسى عليه السلام

(١) كذا بالأصل . (٢) الشعب : الطريق فى الجبل .

فى الإنجيل : « من سأل أُعْطِيَ ، ومن طَلَبَ وَجَدَ ، ومن استفتح فُتِحَ له »(١) .

اجْمع العلماءَ والبُصَراء الذين عندك ، والأساقفةَ والرُّهْبان الذين قِبَلك ، فقل : لأى شىء نسبتم المسيح إلهاً ، وجعلتموه ربًّا ؟ ونجد الله سمّاه فى الكتاب ابناً ، وقد تجدونه قال : « إنى أذهَبُ إلى أبى وأبيكم ، وإلٰهى وإلٰهكم أيضاً » وهذا كلام يحتمل وجهين : أحدهما أولى به ، وقولٌ لا يحتملُ إلا وجهاً وهو الرُّبُوبية ، أم كيف تنظرون إلى كلامه : « أذهب إلى أبى وأبيكم » فتُفْرِدونها فى نفسه وقد قالها فيه وفى غيره ؟

فاتّقِ الله وكن من القائمين بالحق ، الموحِّدين للرب ، إنَّ أمير المؤمنين قد ضرب لك أمثالا جمّةً ، وصَرَفَ إليك مسائلَ كثيرة ، وبيَّن لك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلاماتِ الوحى قليلاً من كثير ، واضحًا من تفسير ، لا تمتنع العقولُ من التصديق به ، ولا القلوبُ من الإقرار به .

وسيذكر لك أمير المؤمنين من علامات النبي صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل ما يُكْتَفَى به ، إن شاء الله ، وباليسير منه ، لأن كتُبَ الله عز وجل محفوظة ، وحُجَجه محروسةٌ ، لا يُزَاد فيها ولا يُنْقَص منها ، وَإذا وجدت فيها كلمة تدلُّك عَلَى حق ، وتَهْديك إلى رشد ، فلستَ واجِداً أخرى تصُدُّك عنه ، وتُشَكِّكُك فيه ، إذا تُلِيَ ذلك بالحق ، ووُضِع على الصدق ،

(١) ورد فى إنجيل متى (الإصحاح ٥ آية ٤٢) من الكتاب المقدس : « من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده » وورد فى إنجيل لوقا (الإصحاح ١١ آية ١٠ من الكتاب المقدس) « من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له » .

ولكن ضَلَّتِ اليهود والنصارى بتحريفِ تأويل الكلام ، وتصريف تفسير الكتُب، وأمير المؤمنين يسأل الله العِصْمة والتوفيق .

من ذلك ما قد شهِدَ به عيسى عليه السلام عندكم ، وَبيَّنَه فى الإنجيل لكم ، إذ قال للحَوارِيِّين : « أنا أذهبُ وسيأتيكم البارقليط رُوحُ الحقِّ الذى لايتكلم من قِبَل نفسِهِ ، إنما يقُول كما يقال له ، وَهو يشْهد علىَّ وَأنتم تَشهدون ، لأنكم معى من قبل الناس بالخطيئة ، وَكل شىء أعَدَّ اللهُ لكم يخبركم به [(١)] » وترجمة البارقليط : أحمد ، هذا مالاشَكَّ وَلا مِرْيةَ فيه ، وهو الذى يخبر بما وَعد الله المؤمنينَ وَصَالِحى الْحَوارِيِّين فى القرآن ، ولستم تَجدون ذلك فى التوراة ولا فى الإنجيل .

ومن ذلك قول أشْعَيَا النبى عليه السلام : « قيل لى : أقم بطارا ماترى يخبرى [(٢)] ؟ قال : أرَى را كبَين مُقْبِلَين أحدهما يقول لصاحبه : سقطَتْ بابِل وأصنامها المنحوتة » ولسنا نعلم نبيًّا رَكِب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا .

---

(١) ورد فى إنجيل يوحنا (الإصحاح ١٤ آية ٢٦) من الكتاب المقدس : « وأما المعزى الروح القدس الذى سيرساله الأب باسمى فهو يعلمكم كل شىء ، ويذكركم بكل ماقلته لكم » وفيه أيضا (الإصحاح ١٥ آية ٢٦) : « ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذى من عند الأب ينبثق ، فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء » وفيه (الإصحاح ١٦ آية ١٣) « وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لايتكلم من نفسه ، بل كل مايسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية » .

(٢) كذا بالأصل وهو تحريف ، وورد فى نبوءة أشعيا (الإصحاح ٢١ آية ٩٦) من الكتاب المقدس : « لأنه هكذا قال لى السيد ، اذهب أقم الحارس ليخبر بما يرى ، فرأى ركابا ، أزواج فرسان ، ركاب حمير ، ركاب جمال ، فأصغى إصغاء شديدا ، ثم صرخ كأسد : أيها السيد . أنا قائم على المرصد دائما فى النهار ، وأنا واقف على المحرس كل الليالى ، وهو ذا ركاب من الرجال ، أزواج من الفرسان ، فأجاب وقال : سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض ... » .

ومن ذلك قول داود عليه السلام : « اللهم ابعث جاعِل السُّنَّة كى يعلم الناس أنهم بَشَر[١] » يقول : كى يتبيَّن الناس أن عيسى عليه السلام إنسان ، ولسنا نعلم نبيًّا وضع سُنَّةً تُنْسَب إليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم ، أما عيسى فإنه نَصَب سُنَّةَ موسى عليه السلام .

ومن ذلك قولُ حَبَقُّوق المتنبي فى زمان دانيال : « جاء الله من السماء ، والقِدِّيس من جبال فاران ، وامتلأت السَّماء من تحميد أحمدَ وتقديسه ، وَمَسَح الأرضَ بيمينه ، ومَلَك رقابَ الأمم[٢] » وقال أيضا : « تُضىء لنوره الأرضُ ، وتُحمَل خَيْلُه فى البحر[٣] » فإلى مَن يحو هذا القولَ ، وإلى أين يُذْهَب بهذا المعنى ؟ لئن ذُهِب به إلى غير الذى تُحمَل خَيلُه فى البحر ، وبدأ من جبال فاران أمرُه ، وغَلَب على الأرض ومَسَحها[٤] ، ومَلَكَ رقاب الأمم كلها ، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى الزَّبور : « صدِّقوا وسبِّحوا الربَّ تسبيحا حديثا ، سبِّحوا الذى هلَّله[٥] الصالحون ، لِيفرَحْ إسرائيلُ بخالقه ، ويتوب صِهيَوْنُ من أجل أن الله اصطفى له أمته ، وأعطاه النصر ، وسدَّد

---

(١) ورد فى سفر الزامير (مزمور ٩ آية ٢٠) من الكتاب المقدس : « يارب اجعل عليهم رعبا ، ليعلم الأمم أنهم بشر ، سلاه » .

(٢) ورد فى نبوءة حبقوق (الإصحاح ٣ آية ٣) من الكتاب المقدس : « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران ، سلاه » وجاء فى معجم ياقوت : « فاران : كلمة عبرانية معربة ، وهى من أسماء مكة ، ذكرها فى التوراة ، وقيل : هى اسم لجبال مكة ... » .

وفى آية ٦ : « وقف وقاس الأرض ، نظر فرجفت الأمم ، ودكت الجبال الدهرية ، وخسفت آكام القدم ، مسالك الأزل له » .

(٣) وجاء فى آية ١٥ من نبوءة حبقوق ، « سلكت البحر بخيلك كوم المياه الكثيرة » .

(٤) « فى الأصل » ومتحها (٥) فى الأصل « هلكه » .

الصالحين بالكرامة ، يسبّحونه على مضاجعهم ، ويكبّرون الله بأصوات عالية ، بأيديهم سيوفٌ ذات شفرَتين، لينتقمَ الله من الأمم الذين لا يعبُدونه ، ثم يقيّد ملوكهم بالقيود ، وأشرافَهم بالأغلال[1] » فأيّتُما أمّةٍ يكبّرون الله بأصوات وأذانِ الصلوات الدائمة ، وعلى كلّ شَرَف[2] ، وعند كل حرب ، وأيتما أمةٍ كانت سيوفها ذات شَفْرَتين إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

ومن ذلك قول أَشْعَيَا : « سبِّحوا الرَّب تسبيحاً حديثا ، وَيسبِّحه من آفاق الأرض فَوج[3] يكون فى بنى فيار[4] » وبنو فيار قريش أهل فاران الذى نزل فيه القرآن ، وأيّتُما أمّةٍ تُسبِّح من آفاق الأرض ، إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، عندى أ كدى[5] .

ومن ذلك قول أشعَيَا « عبدى الذى وَجَب به حبى الذى بَشَّرْتُ به نفسى ، أُفيض عليه رُوحى ، يُوصى الأمم بالوصايا ، لا يضحَك ولا يُسْمَع صوتُه فى الأسواق ، ويفتح العيونَ العُور ، ويُسْمِع الآذان الصُّم ، ويُحْيي القلوبَ

---

(١) ورد فى سفر المزامير (مزمور ١٤٩ آية ١ — ٩) من الكتاب المقدس : « هللوا » غنوا للرب ترنيمة جديدة : تسبيحه فى جماعة الأتقياء ، ليفرح إسرائيل بخالقه ، ليبتهج بنو صهيون بملكهم ، ليسبحوا اسمه برقص ، بدف وعود ، ليرنموا له ، لأنّ الرب راض عن شعبه ، يجمل الودعاء بالخلاص ، ليبتهج الأتقياء بمجد ، ليرنموا على مضاجعهم ، تنويهات الله فى أفواههم ، وسيف ذو حدين فى يدهم ، ليصنعوا نقمة فى الأمم ، وتأديبات فى الشعوب ، لأسر ملوكهم بقيود ، وشرفائهم بكبول من حديد ، ليجروا بهم الحكم المكتوب ، كرامة هذا لجميع أتقيائه ، هللويا » .

(٢) الشرف : المكان العالى .

(٣) فى الأصل « فرح » والظاهر أنه محرف عن « فوج » وهو الجماعة من الناس .

(٤) ورد فى نبوءة أشعيا (الإصحاح ٤٢ آية ١٠ — ١٢) من الكتاب المقدس : « غنوا للرب أغنية جديدة ، تسبيحه من أقصى الأرض ، أيها المنحدرون فى البحر وملؤه والجزائر وسكانها ، لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار ، لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال ، ليهتفوا ، ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر » .

(٥) هكذا فى الأصل .

الغلفَ(١)، وما أُعطيه لا أُعطي غيرَه ، أحمد يحمَد الله حَمْدا حديثا ، تهليله يأتى من أقصى الأرض ، يجوز الماء بشدة أمواجه ، ويعرح وكورها(٢) سكانها يحمَدون الله على كل شَرَف ، وَيكبِّرونه على كل رابية(٣) » .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى المزمور الخامس والأربعين(٤)، يقول الله عز وجل لمحمد فى الزَّبور : « انصبَّتْ رحمتى على شَفَتيك من أجل ذلك بارَكَل الدهرَ تقلَّدِ السيف على الأمم أيها الجبارعلى الأمم بالقتل والأشر والسبَّاء بهاك وحمدك أحمد بعلى البر منك كلمة الحق ، وذللت لك الأشياء سيفك يحسمه يمينك ونبالك مسمومة وبسقط عند الأمم(٥) » فأىُّ نبى كان على الأمم جبارا ، ولهم بإذن الله قتَّالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم ؟

ومن ذلك فى آخر التوراة : « جاء الله تبارك وتعالى من سِيناء ، وأشرَق من ساعير ، واستبان واستعلَنَ من جبال فاران ، وجاء عن يمينه رَبَوَاتُ القدِّيسين(٦) » وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزَل التوراة على موسى فى

(١) الغلف جمع أغلف ، وقلب أغلف : كأنما غشى غلافا فهو لا يعى .

(٢) هكذا فى الأصل .

(٣) ورد فى نبوءة أشعيا (الإصحاح ٤٢ آية ١ — ٤) من الكتاب المقدس : « هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى ، وضعت روحى عليه ، فيخرج الحق للأمم ، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع فى الشارع صوته ، قصبة مرضوضة لا يقصف ، وفتيلة خامدة لا يطفأ ، إلى الأمان يخرج الحق ، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض ، وتنتظر الجزائر شريعته » .

(٤) فى الأصل : « فى خمسة وأربعين مزمورا » .

(٥) هكذا وردت العبارة فى الأصل وهى مليئة بالتحريف ويتضح لك تصحيحها إذا رجعت إلى سفر المزامير ، جاء فى المزمور ٤٥ آية ٢ — ٥ من الكتاب المقدس : « انسكبت النعمة على شفتيك ، لذلك باركك الله إلى الأبد ، تقلد سيفك على فخذك ، أيها الجبار جلالك وبهاءك ، وبجلالك اقتحم ، اركب من أجل الحق والدعة والبر ، فتريك يمينك مخاوف ، نبلك المسنونة فى قلب أعداء الملك ، شعوب تحتك يسقطون » .

(٦) ورد فى سفر التثنية (الإصحاح ٣٣ آية ١) من الكتاب المقدس : « جاء الرب من سيناء

طور سيناء ، وَأنزل الإِنجيل على عيسى عليه السلام فى جبل ساعير ، وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فى جبال فاران ، وهى بلاد مكة ، وأنتم تجدون ذلك فى كتبكم مكَرَّراً ، وتعرِفونه جميعا بلغتكم .

ومن ذلك قول الله عز وجَل لموسى عليه السلام : « سأقيم لهم من إخوتهم مثلَك أجْعَل كلامى على فمه ، ولا يتكلم إلا بما آمُره به[1] » فَمَن إِخْوَةُ بنى إسرائيل إلا بنو إسمعيل ؟ أَمَا تعلم أن لو كان الله عز وجل يَعنى أحدا منهم لقال لهم : أقيم لكم نبيا منكم !

فإن قلتم : إنما قال من إخوتكم ، وهو يُريد من أنفسكم ، فهَبْ أمير المؤمنين قبِلَ هذا الخُلْف منكم ، وَوَسَّع فى هذا المجال لكم ، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل فى التوراة : « مثل موسى فى بنى إسرائيل لا يقوم » فهل تجدون من هذا مَخْرَجا ، ومن الإيمان أنَّ المعنى وَقَع عَلَى محمد صلى الله عليه وسلم بُدًّا ؟ ألا تسمع قول الله عز وجل ؟ « أجعل كلامى على فَمه كى يُعْنَى به ، أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب » .

أوَ ليس قد أمر عيسى عليه السلام حَوارِيِّيه أن يقولوا فى صلواتهم : « يا أبانا الذى فى السموات تقدَّس اسمك[2] » كيف صار عيسى دونهم ابنا ،

وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس ، وعن يمينه نار شريعة لهم » .

(١) ورد فى سفر التثنية (الإصحاح ١٨ آية ١٥) من الكتاب المقدس : « يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون » .

(٢) ورد فى إنجيل متى (الإصحاح ٦ آية ٩) من الكتاب المقدس : « فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك » .

وصار دونه أبا وهم يقولون : « يا أبانا » ؟أم كيف لم يجعل سليمان بن داود إلهًا ، وقد قال الله عز وجل لداود : « يولد لك غلام يُسَمَّى لى وأُسَمَّى له » ؟و لم لا يجعلون إسرائيل إلهًا وقد قال الله عز وجَلَّ له : « أنت بِكْرِى » بل لِمَ لا يُسَمُّون المؤمنين عامةً والحَوارِيِّين خاصّةً آلهةً ، وقد قال المسيح للحواريِّين: «أنتم إخوَتى » وقد قالَ فى الإِنجيل : « أَعطِ كل من آمن بى سلطانا يُدْعَى له » وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوة ، أَفَلاَ تجعلونهم كلَّهم آلهةً ؟ وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله وهو يقول فى مواضع جمة ، وأماكن كثيرة ، إنه ابن الإنسان ؟ فكيف يكون ابنُ الإِنسان ابنَ الله ؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إن عيسى لم يزل ابن الإِنسان ، لقد جعلوا مع الله إنسانًا قديمًا ، وجعلوا الله إنسانا حديثا ، وجعلوا المسيح ابن الله لم يَزَل ، وابن الإِنسان فيما حَدَث ! وهذه أمور متناقضة ، وحجج دَاحِضة ، وأقاويل فاحشة .

فإن قالوا : إنما نعبد المسيح لأنه رُفِع إلى السماء ، فليَعْبدوا الملائكة ، فإنهم فى السماء قبله ، وإدريسَ ، فقد رفعه الله وغيره ، وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يُخْلَقْ من ذَكَر . فآدمُ وحوّاء لم يُخْلَقَا من ذكر ولا أنثى ، ولم يقعا من غَمِّ[1] الرحم، وضِيقِ البطن، وحال الصِّبا ، فيما وقع فيه المسيح ، وإن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى فما أحيا حِزْقيل[2] أكثر ، وما كان

(١) أى ستره . (٢) جاء فى كتب التفسير عند تفسير قوله تعالى فى القرآن الكريم :
« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ »

من اليَسَع تلميذ إلياس أعجَبُ ، لأنه أحيا الموتى بعد مِئِينَ من السِّنين ، وإن طلبتم ذلك فى سِيَرِالملوك عند قصة اليسع أصبتموه إن شاء الله ، وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأَسْقَام التى أبرأ ، والعجائب التى أرَى ، فعجائب موسى أعجبُ ، وآياتُهُ أعظمُ ، أين ما ذكرتُ لك من عجائب عيسى ، من من عجائب موسى : من انقلاب البحر له ، وسلوكِ الجيش معه ؟ أم أين ذلك من حَجَر يَضْرِبه فيتفجَّر بعيُون الماء ، ويحمِلُه معه حيث شاء ؟ بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حَبْس يُوشَعَ الشمسَ[1] ثلاثَ ساعات ! وكل ما صنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمْره وقَدَره وقضائه ، فاتق اللهَ وكن من القائلين بالحق ، الموحّدين الرب ، ولا تقل على عيسى مالم يقل ، فإنكم لا تجدونه قال لكم فى شيء من كتبكم : اعبُدونى فإنى ربكم ، تعالَى الله عما يقول الظالمونَ ، ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحبَّ أن يَنْصَح لك ، فى أوْلَى داريك بك ، وأهمِّ شأْنَيْك لك ، فدعاك إلى الإسلام ، وأمرك بالإيمان الذى به تدخل الجنة وتنجو من النار ، فإن قبِلتَ فحظَّك أصبْتَ ، ونفسَك أحرزتَ ، ولك ما للمسلمين

قيل : هم قوم من بنى إسرائيل وهم أهل داوردان — قرية قبل واسط — وكان وقع فيها طاعون فخرجوا هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم ، ليعتبروا ويتيقنوا أن لا مفر من قضاء الله تعالى وقدره ، مر عليهم حزقيل عليه السلام — أحد أنبياء بنى إسرائيل — وقد عريت عظامهم ، وتفرقت أوصالهم ، فتعجب من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : ناد فيهم أن قوموا بإذن الله تعالى ، فنادى ، فقاموا يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت ، وقيل : هم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ، ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم .

(١) هو يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام ، روى أنه قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه ، ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ، فدعا الله تعالى ، فردّ له الشمس حتى فرغ من قتالهم .

وعليك ما عليهم ، وإن رددت نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظُّ فى آخرتك ، فإن أمير المؤمنين ينصَح لك فيما فيه الصلاحُ فى عاجلتك : من إعطاء الجزْية التى يَحْقِن الله بها دماءكم ، ويحرِّم بها سِباءكم ، ويَجعلها قِواما لِمَعاشكم ، وصلاحا لبلادكم ، وتوفيرا لأموالكم ، وأمْنا لجَنابكم ، وسَعة لسربكم [١] ، وَبَرَكة عَلَى فقرائكم ، وغِنًى لأَهل الحاجة والفاقة وَالمَسْكَنَة منكم

ولن يذكُر أمير المؤمنين فى الجزية لكم : من حُلول الأمن فيكم ، وعُموم العافية إياكم ، واستقامةِ البَرَكة عليكم ، وكفٌّ أَيدى المسلمين عنكم وبَسْطِها على الأعداء منكم ، شيئاً إلاّ وفى قليل ما كان من أشباهِ ذلك أيامَ تلك الفِدْية ، التى كان الله أَجْرَى نعْمتَها لكم على يده ، وفتَح برَكَتَها عليكم من قِبَله ، مايدلّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويَشْهد له على حقه فيما يقول إن شاء الله ، فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طَرَف من أطرافكم ، وصِنف من أصنافكم ، بتلك الفدية ، أموراً عظيمةَ البركة ، واسعةَ المنفعة ، فى أمورٍ غير واحدة :

منها أن قادَةَ جنودكم وساسَةَ ـ ربكم ، كانوا بعد وقوع أمرها واستحكام عَقْدها ، فِراغًا لمحاربة أعدائكم ، ومُناصَبة من نَاوَأكم [٢] ، بين أن يستعجموهم [٣] فى بلادهم ، ويَنْزِلوا عليهم فى ديارهم ، ولا يرهبون تَعَقُّبَ بشرٍ إن ساروا فى أرضهم ، ولا يتخوّفون طِرادًا إن اجتمعوا لقتالهم : أن يُقيموا فى خَفْضٍ ودعَة ، وأمْنٍ وسَعة ، مع الأزواج والأولاد والعِيال والأوطان والرِّباع والمَحالِّ ،

---

(١) السرب بالفتح : الطريق ، وبالكسر : النفس .

(٢) ناوأه : عاداه . (٣) كذا فى الأصل .

وهم اليوم يترقّبون الجيوش من كل شِعْب ، ويتخوّفون الحُتوفَ فى كل وقت ، لا يهدأ لهم جَأْشٌ[1] ، ولا يَسْكُن لهم فزَع ، ولا ينام لهم ليل ، ولا يأمن فيهم حال ، قد قطعت الهموم دابِرَهم ، وأضمَرَتِ المخاوفُ جُنُوبَهم ، واستأصلتِ الجنودُ أموالَهم .

ومنها : أن أهل الحِراثة وإخوانَ العِمارة فى بلادك وأطرافِ أرضك ، كانوا سِراعًا إلى عِمارة أرضهم ، وإصلاح ما تحت أيديهم ، فيما لا قوامَ لهم ولا لمعاشهم إلا به ، ولا بقاءَ لدينهم إلا معه ، قد أمِنوا الجيوش ومَعَرَّتَها ، والجنودَ وبادِرَتَها[2] ، وانتشروا للعمارة ، وابتكروا فى الزراعة ، فارقوا رءوسَ الجبال وأقحامَ الغِياض[3] ، وراحُوا فى أوساط أوطانهم ، وظِلال مَحالِّهم ، يشقّقون الأنهار ، ويغرِسُون الأشجار ، ويفجِّرون العيون ، حتى نَمَتِ الأموال ، واُخْضَرَّت الحال ، وأخصَبَ الجَنابُ ، وأصبحوا اليوم عن الزراعة مُمْسِكين ، وللحِراثة تاركين ، وبغيرها مشتغِلين فى إصلاح آلات الهَرَب ، وإحراز العيال فى الحُصُون ، ورمِّ القلاع للجَلاَء ، وتحريش الحصون للبلاء ، قد انتقلوا عن منابتِ البَرِّ ، وكرائم الأرض ، ومجارى المياه ، إلى أوشال[4] الجبال ، وأشجارِ الغياض . وبُطون الأودية ، فليس يبلغون من عمارة بلادهم ، ولزوم أوطانهم ، ومن تناوُلِ ثمارهم وقِوام معاشهم ، مِثلَ ما كانوا يبلغون ،

---

(١) الجأش : النفس ، ورواع القلب إذا اضطرب عند الفزع ، وفى الأصل « لا سكن لهم جأش »

(٢) البادرة : ما يبدر من حدتك فى الغضب من قول أو فعل .

(٣) الغياض : جمع غيضة بالفتح ، وهى الأجمة ومجتمع الشجر فى مغيض ماء .

(٤) الأوشال : جمع وشل بالتحريك ، وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة .

ولا ينالون من خَفض العيش وطِيب الأمن ، ولذّة الدَّعة ، قريباً مما كانوا ينالون .

ومنها : أن إخوان التجارات وأصحابَ الأَموال وأهل الظِّلْفِ والحافِرِ[1] ، كانوا يتناولون ما شَارَفَهم من بلادنا ، وما قارَبَهم من أسواقنا ، فينفِّقون تجاراتهم ، ويُغْلُونَ بضائعهم ، فتعظمُ الأرباحُ وتضَعّفُ الأثمان ، وكانت الباعةُ من تجار المسلمين وغيرهم من الذّمّيين يتناولونهم للبيع لهم ، ويتناولونهم للشراء منهم ، فعَمَّت البركة ، وسَهُلت المنفعة ، حتى نالتِ الرِّعاء فى جبالها واموالها[2] ، والنساء فى غُزُولهنّ وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومَنْ قِبَلَك من ذوى العبادة والزَّهادة والتألّه والنُّسك والنِّيَات ، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب ، وسلامةٍ من أوزار الحضّ على قتال الخوف ، قد نجوتم من معصية المسيح فى الدنيا التى نهاكم عنها ، والأمور التى أمركم بها ، من نحو قوله : « مَنْ لَطَم خَدَّك الأيمن فأمْكِنْه من الأيسر ، ومن انتزع قميصَك فأعطِه كِساءك ، ومن لطمك فاغفِر له ، ومن شَتَمك فأعرِضْ عنه »[3] .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحى حَوْزَتك ، قد ذاقوا تلك الأيام

(١) الظلف للبقرة والشاة : بمنزلة القدم لنا .

(٢) كذا بالأصل .

(٣) ورد فى إنجيل متى (الإصحاح ٥ آية ٣٩ — ٤١) من الكتاب المقدس : « وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك معه ميلا واحدا فاذهب معه اثنين » .

من لذة الخَفْض ، ودَعَة الحال ، وحلاوة الأَمْن ، ورفاهِيَة العيش ، وسَعَة العافية ، من سِباء أزواجهم ، وهَيْض[1] أولادهم ، وحَطْمِ معاشهم ، وأَسْرِ رجالهم ، وغنيمة بَقَرِهم وغنمهم ، وإفساد شَجَرهم وثِمارهم ، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم ، مالم يكن لهم رأىٌ يعرفه ، ولا ظنٌّ يَبلُغُه ، ولا طمعٌ يقارِبُه ، ولا أَمَلٌ يذهب إليه ، وما قد عَرَفَت الخاصّة من بطارقتكم ، والعامة من أهل ملتكم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتِكم لهم ، وشفقتِكم عليهم ، وأَثَرتِكم إياهم ، وبَرَكَةِ ولايتكم مُلكَهم ، ومنفعةِ سياستكم أَمْرَهم ، ماقد ازدادوا لكم به محبَّةً ، وفى بقائكم رغبةً ، ولأمركم طاعةً ، وعلى ملككم شفقةً ، وفيما نابكم نصيحةً ، مع ما قد ازددتم بذلك من الهَيْبَة فى صدور الأعداء ، والشَّرَفِ فى قلوب النُّظَراء ، والعِظَم فى عيون الأمم ، حتى أَقَرُّوا لكم بقُوَّة عزائم العقول ، وفضل سياسةِ الأمور ، وصِحَّة تدبير المُلك ، وصدقِ النية ، ولُطْف الحيلة التى جعلوا نسبة عملكم بها ، ومحلّ رأيكم فيها ، على أنكم نظرتم لضعفائكم حتى قَوُوا ، ولفقرائكم حتى استغْنَوا ، ولقرّائكم حتى يبنوا وحيو وحووا المسلمين[2] من أيام الحروب ، وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأَبعدين ، وجيرتكم الأقربين ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، واشتغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر بحر[3] القتل ، وذُلّ الأسر ،

(١) من هاض العظم يهيضه : إذا كسره بعد الجبور ، والحطم : الكسر .

(٢) كذا بالأصل . (٣) كذا بالأصل .

وغَلَبة القهر، والإذعان والاستسلام، وإمّا كفيتموهم بالصلح، واستوثقتم منهم بالرهن .

فإذا ذكرتَ ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله فى الفِدية، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مُقيم معكم فى الجِزْية، فلا يكونَنَّ لك رأىٌ غيرها، ولا أمير سواها، فلقد أكثر أمير المؤمنين العَجَب من أمركم، وأطال تقليبَ الفِكرة فى بعضكم، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه إلى خلافه، مما أصبحتم عليه من انتظار وَقَعات الحروب، وصَوْلات الجنود، وأكل الحدود، وتوقُّع الجَلاء والسِّباء والقتل، والأسر والحَصْر، شيئًا اختدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم، وكيداً استدرككم به لِما عَلِم من قلوبكم .

ألاَ إنّ أعجبَ عذركم وأفظَعَه كان عند أمير المؤمنين، إذ بلغه جُرْأتكم على الله عز وجل فى نقضِ عهده، واستخفافكم بحقِّه فى خَفْر[١] ذمته، وتَهاوُنكم بما كان منكم، وأنتم تعلمُون أن مواثيق العهود ونُذُورَ الأَيمان الذى وضعه الله عزّ وجل حَرَمًا بين ظهرانَىْ خَلْقه، وأمانا أفاضه فى عباده، لِتَسْكُن إليه نفوسهم، وتطمئن به قلوبهم، وليتعاملوا به فيما بينهم، وَيقيموا به من دنياهم ودينهم، فما مِن مَلِك من الملوك، وَلا أمة من الأمم، تُبيح حِمَى الله عز وجل، تهاوُنا به وجُرْأةً عليه، إلا أجرى الله عليهم دائرةً[٢] من دُوَل الأعداء، وأنزل عليهم عذاباً من السماء، وقد رجا أمير المؤمنين أن يُجْرِىَ الله نِقْمته منكم بأيدى المسلمين، بعد إذ كان اعتقد عَهْدَكم وَأخذ ميثاقكم

---

(١) أى نقض . (٢) الدائرة : الهزيمة .

بالأيمان المغلّظة ، والعهود المؤكدة ، التى قد اعتَقَدها فى رقابكم ، وحَملها على ظهوركم ، فأشهَدْتم الله بها على أنفسكم ، وتسامعَ بها مَن حَولكم ، وحَكم بها بطارِقتكُم وأساقفتكم ، فلا الله اتّقيتم ، ولا من الناس استحييتم ، نكْثاً للعهد ، وبُغضًا للمسلمين ، وخَتْرا[1] بالأمانة ، وإباحة للحِمَى ، فتوقّعوا العقوبةَ ، وانتظِرُوا الغِيَبَ ، فلقد وثقَ أميرِ المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حالٌّ إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يُريد الله من الانتقام منكم ، ما قد أزمَع أمير المؤمنين وعَزَم عليه ، وقَذَف الله فى قلبه : من الإرادة والنية والرغبة فى إيطاء الجيوشِ بلادَكم ، واستباء المقاتِلَة أرضَكم ، والتفرّغ لكم من كل شغل ، والإيثارِ لجهادكم على كل عمل ، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون ، وتؤدُّوا الجزية عن يدٍ[2] وأنتم صاغرون ، فكونوا على عُدّة من الجزية ، ويقين من الأتباع الذى لا طاقةَ لكم إن شاء الله به ، ولا صَبْرَ لكم بإذن الله عليه ، فإن جنود أمير المؤمنين فارغَة كثيرة ، وخزائنه عامرة وافرة ، ونفسه سخِيّة بالإنفاق ، ويده مُطْلَقة بالبذل ، والمسلمون نِشَاطٌ إليكم ، منقلبون عليكم ، قد عوّدهم الله فى لقائكم عادةً يرجون انتظار مثلها ، وأَبْلاهم فى قتالكم بلاء من أمثالها ، إن شاء الله .

وكتابُ أمير المؤمنين نَذِيرُه بين يَدَىْ جنوده ، ومُقَدّمه إن شاء الله من

---

(١) الختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر . (٢) انظر الجزء الأول ص ٣٥

جيوشه ، إلا أن تؤدُّوا الجِزية عن التى دعاك أمير المؤمنين إليها ، وحَدَاك[1] ومَن قِبلك عليها ، رحمةً للضعفاء الذين لاترحمهم ، وتوجُّعاً للمساكين مما لا تَوَجَّع منه لهم من الجَلاء والسِّباء والقتل والأسر والقهر ، وقساوةً من قلوبكم ، وأَثَرَةً لأنفسكم ، واعتصامًا بخواصِّكم ، وإجلاء لعوامِّكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لاتمنعونهم بقوة ،ولاتدفعون عنهم بحيلة ، ولاتراقبون فى الرحمة لهم والتعطف عليهم ، أدبَ المسيح إياكم ، وقولَه فى الكتاب لكم : « طُوبَى للذين يرحمون الناس ، فإن أولئك أصفياء الله ونور بنى آدم[2] » .

وأيمُ اللهِ لو يعلم مَن قِبلك من المساكين والزراعين والفقراء والضعفاء والعَمَلة بأيديهم ، مالهم عند أمير المؤمنين ، لتَحَدَّروا عليه ، وأقبلوا إليه ، : من إيوائهم ، وإنزالهم الأرضَ الواسعةَ ، وإمكانهم من مَسَايِل المياه السائحة ، والعدل عليهم بما لا تبلغه أنت ولا تقاربُه ، رِفقًا بهم ونظراً لهم ، وإحسانًا إليهم ، مع تخْلِيته إياهم وأديانَهم ، لا يُكْرِههم على خلافها ، ولا يَجْبُرهم على غيرها ، لاختاروا قُرْبَ أمير المؤمنين على قربك ، وجواره على جوارك ، ولأنقذُوا[3] أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يحُلُّ بهم فى كل عام ، ويلقَوْن من كل غَزَاةٍ ، فاتق الله واقبَلْ ما عُرِض عليك من

---

(١) من حدا الإبل وبها : إذا ساقها .

(٢) ورد فى إنجيل متى (الإصحاح ٥ آية ٧ — ٩) من الكتاب المقدس « طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون » .

(٣) فى الأصل « ولا ابتذلوا » .

الجزية ، ولا يمنعنَّك ما فيه[1] الحظُّ لك ولأهل مملكتك ، ونحن على رجاء أن الله لا يؤخِّر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوَّة والرحمة ، ولأهل الوراثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخُل عليكم فى الإذعان لهم ، وأداء الجزية إليهم ، حَمِيَّةٌ ولا نقيصةٌ ولا عار ، والذين يفُون لكم بما يَعْقِدُون ، ويُتْبِعون فعلَهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصَّةٍ ، لما جعل الله عليه رأيَه ، وفيه نظرَه ، من البرِّ والرحمة والإقْسَاط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظرا لدينه ، وخوفا من ربه ، ولِمَا قَذَف الله فى قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأَثَرة ، ولِمَا جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، واتفاق الأفئدة ، والنصائح فى السر والعلانية ، وما عوَّده الله ممن نَصَب له بمجاذبة ، ورماه بمكايَدة ، وعَرَاه بحِيلةٍ : من النصر العزيز ، والفتح الغريب ، والظفر المبين ، فابذُلْ من الجِزية ماشئت ، وسَمٍّ منها ما هوَيت ، واعلم أن أمير المؤمنين ليس يَحْدُوك عليها الحاجةٍ به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعةً لربه ، وأثرةً لحقه ، وليَجعَلَها سبباً لِمَا يُريد أن يجرى فيما بينه وبينكم ، وإنه إنما كان قبولُ المهدىِّ - رحمه الله - الفديةَ منكم ، بطِلْبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه[2] ، ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظامٍ لها ، ولقد كان يُعْطِى فى المجلس الواحد مِراراً أمثالَها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين

---

(١) فاعل يمنع غير موجود فى الجملة ، والظاهر أن الأصل « ولا يمنعك العناد أو الشيطان مثلا » .

(٢) كذا بالأصل .

يومئذ فيكم ، فأما اليوم إذ استبان له غدرُكم ونقضكم ونَكْثُكم ، واستخفافكم بدينكم ، وجُرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم إلا الإسلامُ ، أو الحرب المُجْلِية إن شاء الله ، ولا حولَ بأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ، عليه يتوكَّل ، وبه يثق ، وإياه يستعين ، والسلام على من اتبع الهدى » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٢٦)

١٦٧ — كتاب نقفور ملك الروم إلى الرشيد

وجرى الصلح بين الرشيد وبين إيرِيني[١] ملكة الروم بعد حروب دارت بينهما ، فمادت الروم على إيريني فخلعتها ، وملَّكت عليها نِقْفُور[٢] ، فلما استوثقت له الرومُ بالطاعة كتب إلى الرشيد :

« من نقفور ملك الروم إلى هٰرون ملك العرب .

أما بعدُ ، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مَقامَ الرُّخّ[٣] ، وأقامت نفسها مقام البَيْدق ، فحملَتْ إليك من أموالها ما كنتَ حقيقا بحمل أمثالها إليها ، لكن ذاك لضعف النساء وحُمْقِهن ، فإذا قرأت كتابي فارْدُدْ ما حصل قِبَلك من أموالها ، وافتَدِ نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وَإلاَّ فالسيفُ بيني وَبينك »

---

(١) وليت ملك الروم سنة ٧٩٢ . (٢) ولي ملك الروم سنة ٨٠٢ م .

(٣) الرخ والبيدق : من أدوات الشطرنج .

١٦٨ — رد الرشيد عليه

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب وكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم .

قد قرأتُ كتابك يابن الكافرة ، والجواب ماتراه دون ما تسمعه ، والسلام » .

ثم شَخَص إليه من يومه ففتح وغنِم ، فطلب نقفور الموادعة على خَراجٍ يؤديه فى كل سنة ، فأجابه إلى ذلك وكان ذلك سنة ١٨٧ هـ

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٩٢)

١٦٩ — رواية أخرى

وفى رواية صبح الأعشى أن نقفور كتب إلى الرشيد :

« أما بعدُ ، فإن هذه المرأة وضعتك موضِعَ الشاه ، ووضعت نفسها موضع الرُّخ ، وينبغى أن تعلم أنى أنا الشاه ، وأنت الرُّخ ، فأدِّ إلىَّ ما كانت المرأة تؤدى إليك »

فلما قرأ الكتاب ، قال لكتّابه : أجيبوا عنه ، فكتبوا مالم يَرتَضِه ، فكتب هو إليه :

« من عبد الله هرون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم ، أما بعد فقد فهمت كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعهُ ، والسلام على من اتبع الهدى »

وَيقال : إنه كَتب : « الجواب ما تراه لاما تسمعه ، وَسَيَعْلَمُ الـكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّار » (صبح الأعشى ١ : ١٩٢ ، ٦ : ٤٥٧)



وفى رواية الأغانى أن نقفور كتب إلى الرشيد :

« أما بعد ، فإن هذه المرأة كانت وضعتك وأباكَ وَأخاكَ موضع الملوك ، ووضعَتْ نفسها موضعَ السُّوَق[1] ، وَإِنى وَاضِعُكَ بغير ذلك الموضع ، وَعَامِلٌ على طَرْق بلادك ، والهجوم على أمصارك ، أو تؤدِّىَ إلىَّ ما كانت المرأة تؤدِّى إليك ، والسلام » . (الأغانى ١٧ : ٤٤)

١٧٠ — كتاب الرشيد إلى على بن عيسى بن ماهان

وَوَلَّى الرشيد على بن عيسى بن ماهانَ خراسانَ (سنة ١٨٣) فعاثَ فيها فسادًا ، وظَلَمَ أهلها ، وَوتَرَ أشرافها ، وأخَذَ أموالهم ، واستخفَّ برجالهم ، فـكتب رجال من وجوهها إلى الرشيد ، وكتبت جماعة من كُوَرها إلى قراباتها وأصحابها تشكو سوءَ سيرته ، وخُبْث طُعْمته ، ورداءة مذهبه ، وتسأل أمير المؤمنين أن يُبْدلهـا منه مَن أَحَبَّ من كُفَاته وأنصاره ، فدعا الرشيد هَرْثَمة بن أعْيَن وقال له : لقد أنكر أهل خراسان أمْرَ علىّ بن عيسى ، إذ خالف عهدى ونَبَذَه وراء ظهره ، وقد كتب يستمِدُّ ويستجيش[2] ، وأنا كاتب إليه أخبره أنى أُمِدُّه بك ، وأوجّه إليه معك من الأموال والسلاح والعُدَّة

(١) السوقة بالضم : الرعية للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وقد يجمع على سوق بضم ففتح .
(٢) وذلك لقتال رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وكان قد خرج على الرشيد بسمرقند كما سيجىء

ما يطمئن إليه قلبه ، وتتطلّع إليه نفسُه ، وأُكتب معك كتابا بخطّي فلا تَفُضَّنَّه ولا تطّلِعنّ فيه حتى تصل إلى نيسابور، فإذا نزلتها فاعمل بما فيه وامتثِله ولا تجاوِزْه إن شاء الله ، وأنا مُوَجِّه معك « رَجاء » الخادم بكتاب أكتبه إلى على بن عيسى بخطى ، فلا تُظهِرنه عليه ولا تعلمنّه ماعزمت عليه، وتأهَّبْ للمسير ، وأظهِر لخاصّتك وعامّتك أنى أوجهك مَدَدا لعلى بن عيسى وعونا له .

ثم كتب إلى على بن عيسى كتابا بخطه ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يابن الزانية ، رفعتُ من قدرك ، ونوّهتُ باسمك ، وأوطأتُ سادةَ العرب عَقِبَك ، وجعلتُ أبناء ملوك العجم خَوَلَك[1] وأتباعك ، فكان جزائى أنْ خالفتَ عهدى ، ونبذتَ وراء ظهرك أمرى ، حتى عِثْتَ فى الأرض ، وظلمتَ الرعية ، وأسخطتَ الله وخليفته بسوء سيرتك ، ورداءة طُعمتك[2] ، وظاهِرِ خيانتك ، وقد ولّيتُ هَرْثَمَةَ ابن أَعْيَن مولاىَ ثغرَ خُراسان ، وأمرته أن يشُدَّ وَطْأتَه عليك وعلى ولدك وكُتّابك وعُمّالك ، ولا يترك وراء ظهوركم دِرهما ولا حقًّا لِمسلم ولا مُعاهَد إلاَّ أخذَكم به ، حتى تردّه إلى أهله ، فإن أبَيْتَ ذلك وأباه ولدُك وعُمّالك ، فله أن يبسُط عليكم العذابَ ، ويصُبَّ عليكم السِّياطَ ، ويُحِلَّ بكم ما يَحِلُّ بمن نكَثَ وغيّر وبدّل وخالَف وظلَم وتعدّى وغشَم[3] ، انتقاماً لله عزّ وجل

---

(١) الخول : الحاشية والحشم . (٢) الطعمة : المأكلة ووجه المكسب .
(٣) غشمه كضربه : ظلمه .

بادئاً ، ولخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهَدين ثالثاً ، فلا تعرِّضْ نفسك للتى لا شَوَى[1] لهـا ، وأُخرجْ مما يلزمُك طائعاً أو مكرَهاً » .

وكان ذلك سنة ١٩١ . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٠٢)

١٧١ — عهد الرشيد لهرثمة بن أعين وقد ولاه خراسان

وكتب عهْد هرْثمة بخطه :

« هذا ما عَهِد هٰرون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرْثمة بن أعْيَن ، حين وَلَّاه ثَغْرْ[2] خراسان وأعماله وخراجَه : أَمَرَه بتقوى الله وطاعته ، ورعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله إماماً فى جميع ما هو بسبيله ، فيُحِلّ حلالَه ، ويُحرِّم حرامه ، ويقِفَ عند متشابهه ، ويسأل عنه أُولِى الفِقه فى دين الله ، وأولى العلم بكتاب الله ، أو يردَّه إلى إمامه ، ليُرِيه الله عز وجل فيه رأيَه ، ويعزِمَ له على رشده .

وأَمَره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه ، وأن يشُدّعليهم وَطْأته ، ويُحِل بهم سَطْوتَه ، ويستخرج منهم كل مال يصحُّ عليهم ، من خَراج أمير المؤمنين ، وفَىْء المسلمين ، فإذا استنظَفَ[3] ما عندهم وقبَلهم من ذلك ، نظر فى حقوق المسلمين ، والمعاهَدين ، وأَخَذَهم بحقٍّ كلِّ

(١) أشوى من الشيء : أبقى منه بعضا ، والاسم الشوى ، ولا شوى لهـا : أى لا إبقاء لهـا ، أو لابرء لهـا .

(٢) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .

(٣) استنظف الوالى ماعليه من الخراج : استوفاه .

ذى حق حتى يردوه إليهم ، فإن ثبتَتْ قِبَلهم حقوق لأمير المؤمنين، وحقوق للمسلمين ، فدافَعوا بها وجحدوها ، أن يَصُبَّ عليهم سَوْط عذاب الله ، وأليم نقمته ، حتى يبلغ بهم الحالَ التى إن تخطاها بأدنى أَدَب[1] ، تَلِفَتْ أنفسُهم وبَطَلت أرواحهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذى حق أشخَصهم كما تُشْخَص العُصاة ــ من خشونة الوِطاء ، وخُشونة المطعم والمشرب ، وغِلَظ المَلْبَس ــ مع الثِّقات من أصحابه ، إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله .

فاعمَلْ يا أبا حاتم بما عَهِدتُ إليك ، فإنى آثرتُ الله ودينى على هواى وإرادتى ، فكذلك فليكن عملك ، وعليه فليكن أمرك ، ودبِّر فى عُمّال الكُوَر الذين تمر بهم فى صُعُودك مالا يستوحشون معه إلى أمر يَريبهم ، وظنٍّ يُرعبهم ، وابسُطْ من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يَرْضى الله منك وخليفته ومَن ولاّك الله أمره إن شاء الله .

هذا عهدى وكتابى بخطى ، وأنا أُشْهِد الله وملائكته وحَمَلَة عرشه وسكان سمٰواته ، وكفى بالله شهيداً » .

وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضُره إلا اللهُ وملائكته .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٠٢)

---

(١) أى تأديب .

١٧٢ - كتاب هرثمة بن أعين إلى الرشيد

وسار هرثمة إلى خراسان ، وأنفذ ماعَهِد به إليه الرشيد ، فلما حمل عليّ ابن عيسى إلى الرشيد ، كتب إليه كتابا يخبره ماصنع ، ونسخته :

« بسم ٱللّٰه الرحمٰن الرحيم : أما بعد ، فإن الله عزّ وجل لم يزل يُبْلِى[(1)] أميرَ المؤمنين فى كل ما قلّده من خلافته ، واسترعاه من أمور عباده وبلاده ، أجملَ البلاء وأكملَهُ ، ويعرّفه فى كل ما حَضَره ونأى عنه ، من خاصّ أموره وعامّها ، ولَطيفِها[(2)] وجليلِها ، أتمَّ الكفاية ، وأحسنَ الولاية ، ويُعطيه فى ذلك كلِّه أفضَلَ الأُمْنية ، ويُبْلِغه فيه أقصَى غايةِ الهِمة ، امتنانًا منه عليه ، وحِفظا لِمَا جَعَلَ إليه ، ممـا تكفَّلَ بإعزازه وإعزاز أوليائه وأهل حقه وطاعته، فنستَتِمُّ ٱللّٰهَ أحسنَ ماعوّده وعوّدَنا ، من الكِفاية فى كل مايؤدِّينا إليه ، ونسأله توفيقا لِمَا نقضِى به المُفْتَرَضَ مِن حَقّهِ فى الوقوف عند أمره ، والاقتصار على رأيهِ .

ولم أزَلْ - أعزّ ٱللّٰهُ أميرَ المؤمنين - مُذْ فَصَلْتُ[(3)] عن معسكَر أمير المؤمنين ، ممتَثِلا ما أَمَرَنى به فيما أَنْهَضَنِي له ، لاَ أُجاوز ذلك ولا أَتعدّاه إلى غيره ، ولا أتعرّفُ اليُمْنَ والبَرَكَةَ إلاَّ فى امتثاله ، إلى أن حَلَلْتُ أوائلَ خُراسان ، صائنا للأمر ٱلذى أمَرَنى أميرُ المؤمنين بصيانتِهِ وسَتْرِه ، لاأُفضِي

---

(١) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، يقال : أبلاه الله بلاء حسنا ، وأبليته معروفا ، قال زهير :

جزى الله بالإحسان مافعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

(٢) لطف الشىء لطفا ولطافة ككرم : صغر ودق فهو لطيف .

(٢) فصل من البلد فصولا : خرج منه .

ذلك إلى خاصّىّ ولا إلى عامّىّ ، ودبَّرْتُ فى مكاتبة أهل : « الشاش وفَرْغانَة[1] » . وخَزْلِهما عن الخائن ، وقَطْعِ طَمَعِه وطَمَعِ مَنْ قبَله عنهما ، ومكاتبةِ مَن « ببَلْخ » بما كنت كتبتُ به إلى أمير المؤمنين وفسَّرتُ له ، فلما نزلتُ نيسابورَ عمِلتُ فى أمر الكُوَرِ التى اجتزْتُ عليها ، بتولية مَن وَلَّيت عليها قبل مجاوزتى إياها ، كجُرْجان ونَيْسابور ونَسَا وسَرْخَس[2] ، ولم آلُ الاحتياطَ فى ذلك ، واختيارَ الكُفاَة وأهل الأمانة والصِّحَّة من ثِقاتِ أصحابى ، وتقدمتُ إليهم فى سَتْر الأمر وكِتمانه ، وأَخذتُ عليهم بذلك أيمانَ البَيْعة ، ودفعتُ إلى كل رجل منهم عَهْدَه بولايته ، وأَمَرْتهم بالمسير إلى كُوَر أعمالهم ، على أَخْفَى الحالات وأسْتَرِها ، والتشبُّه بالمجتازين فى وُرودهم الكُورَ ومُقامِهم بها ، إلى الوقت الذى سمَّيتُ لهم ، وهو اليوم الّذى قدَّرتُ فيه دخولى إلى « مَرْو » ، والْتِقَائى وعلىَّ بن عيسى ، وعملتُ فى استكفائى إسمٰعيلَ بن حَفْص بن مُصْعَب أمرَ جُرْجان بما كنت كتبت به إلى أمير المؤمنين ، فنفَذَ أولئك العمالُ لأمرى ، وقام كلُّ رجل منهم فى الوقت الّذى وُقِّتَ له بضَبْط عمله : وإحكام ناحيته ، وكفَى اللّهُ أمير المؤمنين المئُونةَ فى ذلك بلطيف صُنعه .

ولما صِرتُ من مدينة « مَرْو » على مِنزِل ، اخترتُ عِدَّةً من ثِقات أصحابى ، وكتبتُ بتسمية ولد على بن عيسى وكُتَّابه وأهل بيته وغيرهم رِقاعا ، ودفعْتُ إلى كل رجل منهم رُقْعةً بأسم مَن وكّلْتُه بحفظه فى دخولى ،

(١) الشاش وفرغانة : كورتان وراء نهر سيحون متاخمتان للصين ، وخزله كضربه : قطعه .
(٢) هكذا ضبطه ياقوت فى معجم البلدان ، ثم قال : « ويقال سرخس بالتحريك ، والأول أكثر »

ولم آمَنْ لو قصَّرتُ فى ذلك وأخَّرتُه ، أن يصيروا عند ظهور الخبر وانتشاره ، الى التغيب والانتشار، فعملوا بذلك ، ورَحَلْت عن موضعى نحو مدينة «مرو» ، فلما صرت منها على ميلين تلقّانى علىُّ بن عيسى فى ولده وأهل بيته وقوّاده ، فلَقِيتُه بأحسنِ لقاء وآنَسْتُه ، وبلَغْتُ من توقيره وتعظيمه والتماسِ النزول إليه أوّلَ ما بَصُرْتُ به ، ما ازداد به أُنْساً وثِقةً ، إلى ما كان رَكَنَ إليه قبل ذلك مما كان يأتيه من كُتُبى ، فإنها لم تنقطع عنه بالتعظيم والإجلال منى له والالتماس ، لِأُلْقِىَ سُوءَ الظن عنـــه ، لئلا يَسبِق إلى قلبه أمرٌ ينتقِضُ به ما دبَّرَ أميرُ المؤمنين فى أمره ، وأمَرَنى به فى ذلك ، وكان الله تبارك وتعالى هو المنفرد بكِفاية أميرِ المؤمنين الأمرَ فيه، إلى أن ضَمَّنى وإياه مجلِسُه،وصرت إلى الأكل معه ، فلما فرَغْنا من ذلك بَدَأنى يسألنى المصيرَ إلى منزِل كان ارتاده لى ، فأعلمتُه ما معى من الأمور التى لا تحتمل تأخيرَ المُناظرة فيها ، ثم دَفَع إليه «رَجاء» الخادِمُ كتابَ أميرِ المؤمنين ، وأبلغَه رسالته ، فعلم عند ذلك أنْ قد حَلَّ به الأمرُ الّذى جناه على نفسه ، وكَسَبَتْه يداه ، من سُخْط أمير المؤمنين ، وتغيُّر رأيه ، بخلافِه أمْرَه ، وتَعدِّيه سيرتَه .

ثم صرت إلى التوكيل به ، ومضيت إلى المسجد الجامع ، فبسطْتُ آمال الناس ممَّن حَضَر ، وافتتحتُ القول بما حَمَّلنى أميرِ المؤمنين إليهم ، وأعلمتهم إعظامَ أميرِ المؤمنين ما أتاه ووضَحَ عنده من سوء سيرة علىّ ، وما أمرنى به فيه وفى عُمّاله وأعوانه ، وأنى بالغٌ مِنْ ذلك ، ومن إنصاف العامة والخاصّة ، والأخذِ لهم بحقوقهم أقصى غايتهم ، وأمرتُ بقراءة عهدى عليهم ، وأعلمتُهم أن ذلك مِثالى وإمامى ، وأنّى به أَقْتَدِى ، وعليه أَحْتذى ، فمتى

زُلْتُ عن باب واحد من أبوابه فقد ظلمتُ نفسى ، وَأَحْلَلْتُ بها ما يَحِلُّ بمن خالفَ رَأْىَ أمير المؤمنين وأمْرَه ، فأظهروا السرورَ بذلك والاستبشارَ ، وعَلَتْ بالتكبير والتهليلِ أصواتُهم ، وكثُر دعاؤهم لأمير المؤمنين بالبقاء ، وحسن الجزاء .

ثم انكفأتُ إلى المجلس الذى كان علىُّ بن عيسى فيه ، فصرت إلى تقييده وتقييد ولده وأهل بيته وكتَّابه وعمَّاله ، والاستيثاق منهم جميعا ، وأمرتُهم بالخروج إلىّ من الأموال التى احتجنُوها(١) من أموال أمير المؤمنين وَفَىْءِ المسلمين ، وإعفائى بذلك من الإقدام عليهم بالمكروه والضرب ، وناديتُ فى أصحاب ودائعهم بإخراج ما كان عندهم ، فحَمَلُوا إلىَّ - إلى أن كتبتُ إلى أمير المؤمنين - صَدْراً صالحا من الوَرِق والعَيْن(٢) ، وأرجو أن يُعين اللهُ على استيفاء ماقبلهم ، واستنظافِ ماوراء ظهورهم ، ويسهِّلَ اللهُ من ذلك أفضلَ مالم يَزَل يعوِّدُه أميرَ المؤمنين من الصُّنع فى مثله ، من الأمور التى يُعْنَى بها إن شاء الله تعالى .

ولم أَدَعْ عند قدومى « مَرْو » التقدمَ فى توجيه الرسل وإنفاذِ الكتب البالغة فى الإعذار والإنذار ، والتبصير والإرشاد ، إلى « رافِع(٣) » ومَن قبَله

---

(١) احتجن المال : ضمه واحتواه .

(٢) الورق : الدراهم المضروبة . والعين : الدينار .

(٣) هو رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وكان من خبره أنه ظهر بسمرقند مخالفا للرشيد وخلعه ونزع يده من طاعته (سنة ١٩٠) وذلك أن يحيى بن الأشعث الطائى كان تزوج ابنة لعمه أبى النعمان ، وكانت ذات يسار ولسان ، فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند ، فلما طال مقامه بها وبلغها أنه قد اتخذ أمهات أولاد ، التمست سببا للتخلص منه ، فعىّ عليها ، وبلغ رافعا خبرها فطمع فيها وفى مالها ، فدس إليها من قال لها : إنه لاسبيل لها إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك بالله وتحضر

من أهل سَمَرْقَنْد ، وإلى مَن ببَلْخ[١] ، على حُسْن ظنّي بهم في الإجابة ولزوم الطاعة والاستقامة ، ومهما تنصرفْ به رُسُلي إليّ يا أمير المؤمنين من أخبار القوم في إجابتهم وامتناعهم ، أعْمَلْ على حسَبه مِن أمرهم ، وأكتب بذلك إلى أمير المؤمنين على حَقّه وصِدْقِه ، وأرجو أن يعرف اللهُ أمير المؤمنين في ذلك من جميل صنعه ، ولطيف كفايته ، ما لم تَزَل مادتُه جاريةً به عنده بمَنّه وَطَوْله وقُوّته ، والسلام » .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٠٥)

لذلك قوما عدولا وتكشف شعرها بين أيديهم ، ثم تتوب فتحل للأزواج ، ففعلت ذلك وتزوجها رافع ، وبلغ الخبر يحيي بن الأشعث ، فرفع ذلك إلى الرشيد ، فكتب إلى على بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما ، وأن يعاقب رافعا ويجلده الحد ويقيده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة لغيره ، فدرأ سليمان بن حميد الأزدى — عامل على بن عيسى على سمرقند — عنه الحد ، وحمله على حمار مقيدا حتى طلقها ثم حبسه في سجن سمرقند ، فهرب من الحبس ليلا فلحق بعليّ بن عيسى ببلخ فطلب الأمان ، فلم يجبه على إليه ، وهم بضرب عنقه ، فكلمه فيه ابنه عيسى بن على ، وجدد طلاق المرأة وأذن له في الانصراف إلى سمرقند ، فانصرف إليها فوثب بسليمان بن حميد فقتله ، فوجه على بن عيسى إليه ابنه ، فمال الناس إلى سباع بن مسعدة فرأسوه عليهم فوثب على رافع فقيده فوثبوا على سباع فقيدوه ورأسوا رافعا وبايعوه وطابقه من وراء النهر ، ووافاه عيسى بن على فلقيه رافع فهزمه ، ثم غلظ أمر رافع بسمرقند سنة ١٩١ ، وكتب أهل نسف إليه يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن على ، فوجه صاحب الشاش في أتراكه وقائدا من قواده فأتوا عيسى بن على فأحدقوا به وقتلوه ، فخرج على بن عيسى عن بلخ إلى مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولى عليها .

(٤) كان عيسى بن على قبل قتله دفن في بستان داره ببلخ أموالا عظيمة — قيل إنها كانت ثلاثين ألف ألف ، ولم يعلم بها أباه ولا أطلع على ذلك إلا جارية كانت له ، فلما شخص على بن عيسى عن بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس ، فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة .

١٧٣ — رد الرشيد عليه

فأجابه الرشيد :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : أما بعدُ ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك بقدومك «مَرْوَ» فى اليوم الذى سَمَّيْتَ ، وعلى الحال التى وصفتَ ، وما فسَّرتَ ، وما كنت قدَّمْتَ من الحِيَل قبل ورُودك إياها ، وعمِلْتَ به فى أمر الكُور التى سمَّيْتَ ، وتولية مَن ولَّيتَ عليها قبل نفوذك عنها ، ولطَفتَ له من الأمر الذى استجمع لك به ما أردتَ من أمر الخائن على بن عيسى وولده وأهل بيته ، ومن صار فى يدك من عمَّاله ، وأصحاب عمَّاله ، واحتذائك فى ذلك كلِّه ما كان أميرُ المؤمنين مَثَّلَ لك وَوَقَفَك عليه ، وفهِم أميرُ المؤمنين كلَّ ما كتبتَ به ، وحمِدَ اللهَ على ذلك كثيرا ، وعلى تسديده إياك ، وما أعانك به من توفيقه ، حتى بلغت إرادةَ أمير المؤمنين ، وأدركتَ طلِبَتَه ، وأحسنتَ ما كان يحبُّ بك وعلى يديك إحكامَه ، مما كان اشتد به اعتناؤه ، ولجَّ به اهتمامُه ، وجزاك الخير على نصيحتك وكفايتك ، فلا أعدم اللهُ أميرَ المؤمنين أحسنَ ما عَرَفه منك ، فى كل ما أهاب[1] بك إليه ، واعتمد بك عليه .

وأميرُ المؤمنين يأمرك أن تزداد جِدّا واجتهادا فيما أمرك به ، من تتبُّع أموالِ الخائن على بن عيسى وولده وكتَّابه وعمَّاله ووكلائه وجَهَابذته[2] ،

---

(١) أهاب به : دعاه .

(٢) الجهابذة جمع جهبذ بكسر الجيم والباء : وهو النقاد الخبير .

والنظرِ فيما اختانوا[1] به أمير المؤمنين في أمواله، وَظَلموا به الرعيةَ في أموالهم، وتتبّع ذلك واستخراجه من مَظَانّه ومواضِعِه التي صارت إليه، ومن أيدي أصحاب الودائع التي استودَعوها إياهم، واستعمال اللين والشدة في ذلك كله، حتى تصير إلى استنظافِ ما وراء ظهورهم، ولا تبقي من نفسك في ذلك بقيَّة، وفي إنصاف الناس منهم في حقوقهم ومظالمهم حتى لا تَبْقَى لمتظلّمٍ منهم قِبَلهم ظُلامةٌ إلا استقضيتَ ذلك له، وحملته وإياهم على الحق والعدل فيها، فإذا بلغتَ أقصى غاية الإحكام والمبالغة في ذلك، فأَشْخِصِ الخائنَ وولدَه وأهل بيته وكتَّابه وعمَّاله إلى أمير المؤمنين في وَثاق[2]، وعلى الحال التي استحقُّوها من التغيير والتنكيل بما كَسَبَتْ أيديهم، وما اللهُ بِظَلَّامٍ للعبيد.

ثم اعمَلْ بما أمَرَك به أمير المؤمنين، من الشُّخوص إلى سَمَرقند، ومحاولة ما قبل «خامِل[3]» ومن كان على رأيه، ممن أظهر خِلافا وامتناعا من أهل كُوَر ما وراء النهر وَطخارستان[4] بالدُّعاء إلى الفَيْئة[5] والمراجعة، وبسْطِ أمانات أمير المؤمنين التي حمَّلَكها إليهم، فإن قبِلوا وأنابوا وراجَعوا ما هو أمْلَكُ بهم، وفرّقوا جموعهم، فهو ما يحبُّ أمير المؤمنين أن يعاملهم به، من العفو عنهم والإقالة لهم، إذ كانوا رَعِيَّتَهُ، وهو الواجب عَلَى أمير المؤمنين

---

(١) خانه واختانه: بمعنى.

(٢) الوثاق بالفتح ويكسر: مايشد به.

(٣) يعني رافع بن ليث، وسماه بضد اسمه تحقيرا له وتهوينا لشأنه.

(٤) ضبطه ياقوت في معجم البلدان بفتح الطاء، وضبطه ابن خلكان في وفيات الأعيان (في ترجمة بشار بن برد ١ : ٩٠) فقال: بضم الطاء وضم الراء، وهي ولاية واسعة كبيرة من نواحي خراسان وراء نهر بلخ على جيحون.

(٥) الفيئة بالفتح والكسر: الرجوع.

لهم إذا أجابهم إلى طلبتهم، وآمَنَ رَوْعَهم، وكفاهم ولايةَ مَن كرهوا ولايتَه، وأمرَ بإنصافهم فى حقوقهم وظُلاماتهم، وإن خالفوا ما ظنَّ أميرِ المؤمنين، فحاكمهم إلى الله إذ طَغَوا وبَغَوا وكرهوا العافيةَ وردُّوها، فإن أمير المؤمنين قد قضَى ما عليه، فغيَّر ونكَّل وعزل واستبدل وعفا عمن أحدث، وصفَح عمن اجترَم[1]، وهو يُشْهِد الله عليهم بعد ذلك فى خِلاف إن آثَرُوه، وعُنُودٍ[2] إن أظهروه، وكفى بالله شهيداً، ولا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، عليه يتوكل وإليه يُنيب؛ والسلام».

وكتب إسماعيل بن صُبَيْح بين يدى أمير المؤمنين.

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٠٧)

١٧٤ — كتاب لهرثمة بن أعين

وكتب هرثمة بن أعْيَن:

«ليس يكون منك شىء وإن حَسُنَ، إلاَّ وحُسْنُ ظنّى بك يَبلغُه، فاستَتِمَّ أحسَنَ ما كان منك، يتمَّ لك أحسنُ ما تُحِبُّ منى، ولا يَمنعنَّك الاكتفاء بحالك اليومَ، مِن طَلَب الزيادة فى غد، فإنه لَقَلَّ شىء لا يزيد إلا نقَصَ، والزمانُ يَمْحَق الكثيرَ، كما يربو على الزيادة القليلُ».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

---

(١) أجرم واجترم: بمعنى.
(٢) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا: مال.

١٧٥ — كتاب لقمامة بن زيد فى السلامة الى الخليفة

وكتب قُمامة[١] بن زيد فى السلامة إلى الخليفة .

« كلُّ ما قِبَلنا وما يتناهى إلينا عن ثغور أمير المؤمنين وأطرافه وبلاده أقصاها وأدناها ، فى صلاح ذلك كلِّه واستقامته وهدوئه ، على أفضلِ ما عوَّد اللهُ أميرَ المؤمنين فيه العلوَّ والعافية ، وأنا أحتذى[٢] فيه من أمير المؤمنين أمرين . إمَّا تقدِمَةٌ عرَّفنى فيها رأيَه ، فأنا ألزمُها ولا أعدِلُ عنها ، وإمَّا أثرٌ قد نَهَجه أمير المؤمنين فأنا أركَبُه وأتَّبعه ولا أفارقه ، فعلى هذا بحَول الله وقوته مُعتَمَدى ، قد كفَى الله به فى الهداية ، وأعطى فيه الخيرَ واليُمنَ والسعادة ، فله الحمد والشكر » (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٨)

١٧٦ — كتاب آخر

« كتبت إليك وقد استقام كلُّ ما قِبَلى واعتدل ، وجمَعَ الله أيدى أهله وقلوبَهم على إمامهم ، وأراهم من تباشير الخير وأمارات البركة ، ما أرجو أن يُديمَه الله ، ويتابع المَزيدَ فيه ، والحمد لله الذى قذَفَ فى قلوب رعيته من الإذعان بحقه ، والبُخُوع[٣] بطاعته ، والخروج من ضِيق ما كانوا فيه إلى

---

(١) كاتب عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان بليغا فصيحا — انظر الفهرست ص ١٧٣ ، ص١٨٢ (وقد ولى عبد الملك للرشيد بلاد الجزيرة والشام ثم وليهما من بعده لابنه الأمين)

(٢) فى الأصل « والا عندى » وهو تحريف ، وقد أصلحته كما ترى .

(٣) بخع بالحق كمنع بخوعا : أقرّ به وخضع له .

سَعَةٍ ممـا كانوا عليه ، والذى ولاَّك ذلك منا ومنهم بذاتِك[1] وباسْمِك ، وجَعَلَك الحاملَ له عنا ، والقائمَ به لنا ، واللسانَ فيه دونَنا ، وأحسن اللهُ جَزاءك على ما حُطْتَ من هذه الدولة ، وتلافيتَ ما كان قد رثَّ من حبْلها ، وَوهَى مِن قُوَّتها » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٤)

١٧٧ — كتاب إسحق بن الخطاب إلى الهزبر بن صبيح

ولإسحٰق[2] بن الخطاب إلى الهِزَبْرِ[3] بن صُبَيح يعزيه عن أبيه :

«فإنَّ أَوْلَى مَن حسُن عَزاؤُه مَن كان بمعرفته مكتفيا ، وعن غيره فيما أنعم الله عليه معزِّيا ، وأنت لسانٌ منصوبٌ لذلك ، بفضل ماعندك فيما بلغَه منطِقُك ، وَأَتَى عليه بيانُك ، وهذا أوانُ اختبار الله إياك بشكر ذلك ، وَإقرارك بالحجة عليه فيما كنت به محتجا عَلَى غيرك ، ودليلا عليه ممـا ذَخَر الله لأهل الفضل ، وَوَعَدهم إياه عَلَى ما رضى من القول عند وقوع قضائه وقَدَره ، وما أخبَرَ به خلقَه وبلاهم بحَسَنه وسَيِّئه ، وحُلْوه ومُرِّه ، والموتَ قد رأيتَ ورأينا خَطَراتِه بين أظهُرنا ، يخترِمُ[4] الأبعدَ فلا يَحْفِل ، ويترك الأقربَ يجزَع له ، وتتقلبُ قلوبنا فى ذلك مع أهوائنا دون الرضا به ، أسأل الله توفيقك وتوفيقنا بحظٍّ العاجل ، وسعادة الآجل .

---

(١) فى الأصل « بدلك » وهو تحريف ، والظاهر أن هذا الكتاب كتبه قمامة عن عبد الملك ابن صالح إلى الرشيد بعد نكبة البرامكة .

(٢) كاتب قمامة بن زيد — انظر الفهرست ص ١٨٢ .

(٣) هكذا فى المنظوم والمنثور ، وفى الفهرست « الهرير بن الصريع » كاتب قمامة بن زيد ، وكان فصيحا مترسلا — انظر الفهرست ص ١٧٣ ، ص ١٨٢ .

(٤) اخترمته المنية : أخذته .

وقد كان أبو الهزبر مخلوقا لما صار إليه ، لا يؤمَن منه الشفقةُ عليه ، حتى أتاه ما كان يتوقَّع ، ونزَل به ما لم ينكَر ، فأعاذك الله أن تكون لمحنة الله كارهاً ، ولقدَره منكِراً ، بطرْفٍ أو وَجْدِ قلب أو بأدنَى جزَع ، وإن خلَصَتْ فى التسليم لذلك نيَّتُك دون تحقيقه بقولك ، وتصديقه بفعلك ، فإن الله لم يَرْضَ من طيِّب[1] خلقه ومَن أثْنَى عليه بصالح عمله ، إلا بباطنٍ مع ظاهر ، وظاهرٍ مع باطن ، ولم يَحْمِل كُلاًّ إلا على قدر طاقته ، ومَبْلَغ عمله ، فيما قرَّب من طاعته ، وجانَبَ معصيته ، ولم يجعل لك عذراً فى تقصيرٍ عن شكر نعمه عليك ، وإحسانه فى كل الحالات إليك ، ورَحِم الله أبا الهزبر ، وجعل ما نقَلَه إليه خيراً ثَوَابًا وأَمَلاً ، وخيراً عُقْباً ومَرَدًّا ، وأرجو أن يفعل الله ذلك به ، لِمَا كان عليه فى دينه ونفسه وكريم خُلُقِه ، وما متَّعه الله به من لسان الناس فيه ، وأصحبَه إياه من حسن الثناء عليه ، وعوَّضك الله من فقده وما عَدِمْتَ من الأُنس به السعادةَ فى دنياك ودينك ، حتى تلقاه على أفضل حالات أمَلِك ، وَأوفاها له فيما تُؤْثِر من طاعته ، وأبلَغِها فى شكر نعمته ، وما قدَّمك به على كثير من خلقه فيما تراه ويرى بك من فضله ، جَعلَنا الله وإياك من الموفَّقين بالعصمة ، والآمنين من عذاب يوم القيامة ، ولا أعدَمَنا الأنسَ بك ، والمتاع بطول بقائك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٣)

---

(١) فى الأصل « طـه » .

١٧٨ — كتاب إسحق بن الخطاب إلى زيد بن الفرج

وكتب إسحٰق بن الخَطَّاب إلى زيد بن الفرج يعزّيه عن أمه :

« أسأل الله أن يَعْصِمك بعِصْمة التقوى ، وَيوَفِّقك من العمل لما يُحِبُّ وَيَرْضَى ، وَإنا وخلقَ الله كلَّهم إليه راجعون ، إن الإكثار من العِظَة لا يُغْنِي عن ذى الجهالة ، والاقتصار على الكفاية لا يُخِلُّ بذى المعرفة ، وعندك مما كنت تَعِظُ به غيرَك ما قد احتجنا إلى الانتفاع به فى نفسك ، وكفَى بالله واعظا ، وبما وعَدَ من ثَوَابه معزِّيا ، ولست أصغِّر مصيبتَك بوالدتك ، ولا أهوِّن ما نزل بك فيها ، بل أعظِّمها وأُجِلُّها لِمَا كنت ترجو من الله على برِّك بها ، وتتقرَّب من زيادته إياك بدعائها ، غيرَ أنَّ أمْلَكَ الأمرين بك فى حق الله عليك : التسليمُ لأمره ، والرضا بما وَقَع مِن قَدَره ، والأخذُ من نفسك بكل ما دعاك إليه بيتك من بُعْدِ صلاحه وحُسْنِ عمله[1] ، فإنك ومِثْلَك مِن حَمَلة النِّعَم ، وذوى التقلُّب من الله فى البلاء الحَسَنِ ، لستم كمن يَدعُ ما يَلْزَم ، ويجهَلُ ما ينبغى له أن يَعْلَمَهُ ، ولولا ما فى الكتاب من قضاء حق الله ، ومِن جَرِّ[2] ثوابٍ وتذكُّرٍ ، لرَضِيتُ بمعرفتك . دون تعزيتك ، فأعظَمَ اللهُ أجْرَك ، ولا أَفقَدك ما يعودك ببقائها من نافلة[3] وزيادةٍ فى حَظٍّ ، وجعلك

---

(١) وردت هذه العبارة فى الأصل هكذا : « والأخذ من نفسك بكل مادعتك إليه سك من بعد سلحه وعمل حسنه » وقد أصلحتها كما ترى (ومع هذا فإنى لست بمستريح إلى هذا التخريج ، وأغلب الظن أنه قد سقط من الناسخ هنا كلام) .

(٢) فى الأصل « حر » .

(٣) النافلة : العطية .

وإيانا من الشاكرين الراضين بمَجَارِى أقضِيَته ، وَوَلِىَ لك أمورَكَ وإخوانك بتعميرك » (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٤)

١٧٩ — كتاب للهزبر فى التنصل

« قد فتحتَ علىَّ — منع الله فقدك — باب العتِبَة ، وأحوجْتَنى إلى أن أُغْلِقَه عنى بالمعذِرة والحُجَّة ، وكلَّفتنى من ذلك ما لم يكن لى خُلُقا ولا عادة ، وَرأيتك عجِلْتَ فقبِلْتَ صناعة لسان كاذب ، واستعذبت رأىَ فاجر ، فاسْمَع وَأنْصِف ، ولا يذهبَنَّ بك هوًى مُشْرِفٌ ، ولا يغلِبَنَّ عليك شىء سَبَق إلى أُذُن أو قَلب ، فَليس لك أَن تغفُلَ ولا تَغافَلَ [1] ، ولا تجعل تَوَهُّماً كحقٍ ، ولا يقيناً كشَكٍ » (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

١٨٠ كتاب محمد بن كثير إلى الرشيد

وكتب محمد بن كُثَيِّر إلى هٰرون الرشيد :

« يا أمير المؤمنين ، لولا حظُّ كرم الفعل فى مطالع السؤال ، لَأَلْهَى المَطْلُ قلوبَ الشاكرين ، ولَصَرَف عيونَ الناظرين إلى حسن المحبة ، فأى الحالين يبعد قولك عن مَجاز فعلك ؟ »

فقال هٰرون الرشيد : هذا الكلام لا يحتمل الجواب ، إذ كان الإقرار به يمنع من الاحتجاج عليه » (زهر الآداب ٢ : ٣٥٦)

---

(١) فى الأصل « أن تفعل ولا تعامل » وهو تحريف .

١٨١ — كتاب أبي هرون العبدى إلى زبيدة بنت جعفر

ولما مات قرد زُبَيدة[1] بنت جعفر، ساءها ذلك ونالها من الغم ما عرَفهُ الصغير والكبير من خاصَّتها، فكتب إليها أبو هٰرون العبْدى:

« أيتها السيدة الخَطِيرة، إن مَوْقِع الخطب بذهاب الصغير المُعْجِب، كموقع السرور بنَيْل الكثير المُفْرِح، ومَن جَهِل قدر التعزية عن التافه الخفىّ، عَمِىَ عن التهنئة بالجليل السَّنِىّ[2]، فلا نَقَصَكِ اللهُ الزَّائدَ فى سرورك، ولا حرَمَك أجْرَ الذاهب مِن صغيرك »

فأمرت له بجائزة (زهر الآداب ٣ : ٢٩٧)

١٨٢ — كتاب الأمين إلى أخيه المأمون

ووافتِ الرشيدَ منيَّتُه وهو بطُوسَ إحدى مدن خُراسان فى جمادى الآخرة سنة ١٩٣، وكان معه ابنه صالح[3]، والمأمونُ يومئذ بمَرْو، والأمين ببَغْداد، فبويع له بالخلافة.

وكان الأمين لَمَّا بلغه أن أباه قد اشتدت علَّته، وأنَّه لِمَابه، بعث بكر بن المُعْتمِر، وكتب معه كتبا: منها كتاب إلى أخيه المأمون، وكتاب إلى أخيه صالح، وأمره بإخفائها حتى يموت أمير المؤمنين، فإذا مات دفعَ

---

(١) هى زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، زوج الرشيد، وأم الأمين، توفيت ببغداد سنة ٢١٦ هـ — تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢١.

(٢) السنىّ: الرفيع.

(٣) أمه أم ولد يقال لها رئم.

إلى كلٍّ كتابَه ، فلما قضى الرشيدُ دفع ابن المعتمر إلى صالح كتابه ، وبعث إلى المأمون بكتابه .

وكانت نسخة كتاب الأمين إلى أخيه المأمون :

« إذا وَرَد عليك كتاب أخيك ـ أعاذه الله من فقْدك ـ عند حُلول مالا مَرَدَّ له ولا مَدْفعَ ، مما قد أخفتْ(١) وتناسخَ الأُمَمَ الخالية ، والقرونَ الماضية ، بما عزَّاك الله به ، واعلَمْ أن الله جلَّ ثناؤه ، قد اختار لأمير المؤمنين أفضلَ الدارَيْن ، وأجزلَ الحظَّين ، فقبَضَهُ اللهُ طاهراً زاكيا قد شَكَرسَعْيَه ، وغفر ذنْبَه إن شاء الله ، فقُمْ فى أمرك قيامَ ذى الحزم والعزم ، والناظرِ لأخيه ونفْسِه وسُلطانه وعامّة المسلمين ، وإياك أن يغلِبَ عليك الجَزَعُ ، فإنه يُحْبِط(٢) الأجْرَ ، ويُعقِب الوِزْرَ ، وصلواتُ الله على أمير المؤمنين حيًّا وميتا ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وخذ البَيعة على مَن قِبَلَك مِن قُوَّادك وجندك وخاصّتك وعامتك لأخيك ، ثم لنفسك ، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين على الشَّريطة التى جعلها لك أمير المؤمنين من نَسْخِها(٣) له أو إثباتها ، فإنك مُقلَّد من ذاك ما قلَّدك اللهُ وخليفتُه ، وأَعلِمْ مَن قِبَلك رأيِى فى صلاحهم وسَدِّ خَلَّتهم(٤) والتوسِعَة عَلَيْهِمْ ، فمن أنكرْتَه عند بيعته ، أو اتهمتَه على طاعته ، فابعث إلىَّ برأسه مع

(١) من خفَّ القوم عن منزلهم خفوفا : أى ارتحلوا مسرعين ، وخف القوم خفوفا أيضا : قلوا .
(٢) أى يفسد .
(٣) أى من فسخها وإبطالها ، وقد تقدم لك فى عهد الأمين : « فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، فالأمر إليه فى إمضاء ماجعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته ... الخ » .
(٤) الخلة : الحاجة والفقر .

خبره ، وإياك وإقالته ، فإن النار أولى به ، واكتب إلى عمال ثغورك وأمراء أجنادك ، بما طرقك من المصيبة بأمير المؤمنين ، وأعلمهم أن الله لم يرض الدنيا له ثوابا حتى قبضه إلى رَوحه[1] وراحته وجنته مغبوطاً محموداً ، قائداً لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله ، ومُرهم أن يأخذوا البيعة على أجنادهم وخواصهم وعوامهم على مثل ما أمرتك به من أخذها على من قبلك ، وأوعز إليهم فى ضبط ثغورهم ، والقوة على عدوهم ، إنى متفقد حالاتهم ، ولامٌّ شعثهم ، وموسع عليهم ، ولا آنٍ[2] فى تقوية أجنادى وأنصارى ، ولتكن كتبك إليهم كتباً عامة لتقرأ عليهم ، فإن ذلك ما يسكنهم ويبسط أملهم ، واعمل بما نأمر به لمن حضرك أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترى وتشاهد ، فإن أخاك يعرف حسن اختيارك ، وصحة رأيك ، وبعد نظرك ، وهو يستحفظ اللهَ لك ، ويسأله أن يشد بك عضده ، ويجمع بك أمره ، إنه لطيف لما يشاء »

وكتب بكر بن المعتمر بين يدىَّ وإملائى فى شوال سنة ١٩٢ .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢٥)

---

(١) أى رحمته . (٢) أى ولا مبطئ ولا متأخر .

١٨٣ — كتاب الأمين إلى أخيه صالح

ونسخة كتابه إلى أخيه صالح :

« بسم الله الرحمن الرحيم : إذا وَرَد عليك كتابى هذا عند وقوع ما قد سَبَقَ فى عِلْمِ الله ، وتَقَدمِن قضائه فى خُلَفائه وأوليائه ، وجَرَتْ به سُنَّته فى الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرَّبين ـ فقال : « كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ـ فاحمَدوا الله على ما صار إليه أميرُ المؤمنين من عظيم ثوَابه ، ومُرَافَقَةِ أنبيائه صلوات الله عليهم ، إنا إليه راجعون ، وإياه نسألُ أن يُحْسِنَ الخلافةَ على أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان لهم عِصْمةً وكَهْفاً[١] ، وبهم رءوفا رحيما .

فشَمِّرْ فى أمرك ، وإياك أن تُلْقِىَ بيديك ، فإن أخاك قد اختارك لما استنهضَك له ، وهو متفقِّد مواقِعَ فِقْدانك[٢] ، فحقِّق ظنَّه ، ونسأل الله التوفيق .

وخذ البيعة على مَن قِبلَك من ولد أمير المؤمنين وأهل بيته ومَواليه وخاصَّته وعامَّته ، لمحمد أمير المؤمنين ، ثم لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين ، على الشَّريطة التى جعلها أميرُ المؤمنين صلوات الله عليه مِن فَسْخها على القاسم أو إثباتها ، فإن السعادة واليُمْن فى الأخذ بعَهْده والمُضِىِّ عَلَى مَناهِجِه ، وأعْلِم مَن قِبلَك من الخاصَّة والعامَّة رأيى

(١) الكهف : الوزر والملجأ .

(٢) يريد بالفقدان الغياب ، والمعنى : أن أخاك يرقبك فى المواقف التى استنهضك لها ، ولا يحب أن يراك غائبا فى موقف منها .

فى استصلاحهم ، وَرَدِّ مظالمهم، وتفقُّد حالاتهم ، وأداء أرزاقهم وأَعْطِيَاتِهم[١] عليهم ، فإن شَغَبَ[٢] شاغب ، أو نَعَرَ ناعِر ، فاسْطُ به سَطوةً تجعله نَكالاً لما بين يديها وما خَلْفها ومَوْعِظةً للمتقين .

واضمُم إلى الميمون ابن الميمون الفضلِ[٣] بن الربيع وَلَدَ أمير المؤمنين وخَدَمه وأهْلَه ، ومُرْه بالمسير معهم فيمن معهُ وجنده ورابِطته[٤] ، وصيِّر إلى عبد الله بن مالك أَمْرَ العسكر وأحداثه ، فإنه ثقةٌ على ما يَلِى ، مقبول عند العامّة ، واضمم إليه جميع جند الشُّرَط من الروابطْ وغيرهم إلى من معه من جنده ، ومره بالجِدِّ والتيقظ وتقديم الحزم فى أمره كله ليلَه ونهارَه ، فإن أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يغتنمون مثلَ حُلول هذه المصيبة .

وأَقِرَّ حاتم بن هرْثَمة على ما هو عليه ، ومُره بحِراسة ما يحفظ به قُصُورَ أمير المؤمنين ، فإنه ممن لا يُعْرَف إلا بالطاعة ، ولا يَدين إلا بها ، بِمَاَقِدَ من الله ، مما قدَّم له من حال أبيه[٥] المحمود عند الخلفاء .

ومُر الخدم بإحضار رَوَابطهم مَن يُسَدّ بهم وبأجنادهم مواضعُ الخَلَل مْن عسكرك ، فإنهم حدٌّ من حدودك .

---

(١) أعطيات : جمع أعطية ، وأعطية جمع عطاء .

(٢) شغبهم وبهم وعليهم كمنع وفرح : هيج الشر عليهم ، ونعر كمنع وضرب نعيرا ونعارا: صاح، والمعنى ثار ودعا إلى الفتنة .

(٣) هو الفضل بن الربيع بن يونس ، استوزره الرشيد بعد أن نكب البرامكة ، ثم ابنه الأمين من بعده ، وهو الذى زين للأمين خلع المأمون من البيعة كما سيأتى ، وتوفى سنة ٢٠٨ هـ ـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٢ : ٤١٢ والفخرى ص ١٩٢ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢ : ٣٤٣ .

(٤) الرباط (بالكسر) والمرابطة : ملازمة ثغر العدو ، فالرابطة هى الجند المرابطون .

(٥) يعنى هرثمة بن أعين ، وقد تقدم ذكره .

وصيِّرِ مقدِّمتك إلى أَسَد بن يزيد بن مَزْيد ، وساقَتَك[1] إلى يحيى ابن مُعاذ فيمن معه من الجنود ، ومُرهما بمُناوَبتك فى كل ليلة ، والزَمِ الطريقَ الأعظم، ولا تَعدُوَنَّ المَراحِلَ ، فإن ذلك أرفَقُ بك ، ومُر أسد بن يزيد أن يتخيَّر رجلا من أهل بيته أو قواده فيصير إلى مقدِّمته ، ثم يصير أمامه لتهيئة المنازل أو بعض الطريق ، فإن لم يَحْضُرك فى عسكرك بعضُ من سَمَّيْتُ فاُختَرْ لمواضعهم مَن تثِق بطاعته و نصيحته وهيبته عند العوامّ ، فإن ذلك لن يُعْوِزَك من قُوادك وأنصارك إن شاء الله .

وإياكَ أن تُنفِذَ رأيًا أو تُبرِم أمرًا إلاّ برأى شيخك وبقيّة آبائك الفضل ابن الربيع ، وأَقرِرْ جميع الخدم على ما فى أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ، ولا تُخرجَنَّ أحدًا منهم من ضِمْن ما يلى إلى أن تَقْدَم علَىَّ .

وقد أوصيتُ بكر بن المعتمر بما سيُبْلِغكه ، واعمَل فى ذلك بقدر ما تشاهد وترى ، وإن أمرتَ لأهل العسكر بعطاء أو رزق ، فليكن الفضل ابن الربيع المتولِّىَ لإعطائهم على دوَاوينَ[2] يتخذها لنفسه ، بمَحْضَر من أصحاب

(١) الساقة : مؤخرة الجيش .

(٢) الديوان : الكتاب الذى يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء ، وهو فارسى معرب . قال القلقشندى فى صبح الأعشى ١ : ٩٠ « وقد حكى الماوردى فى الأحكام السلطانية » فى سبب تسميته بذلك وجهين : أحدهما : أن كسرى ذات يوم اطلع على كتاب ديوانه فى مكان لهم ، وهم يحسبون مع أنفسهم ، فقال « ديوانه » أى مجانين . فسمى موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ، ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان . والثانى : أن الديوان بالفارسية اسم للشياطين ، وسمى الكتاب بذلك لحذقهم بالأمور، ووقوفهم على الجلىّ منها والخفى » اهـ ومنه ترى أن الديوان كان يطلق فى الفارسية على موضع الكتاب الحاسبين ، وعلى جماعة الكتاب ، وقد أطلق فى العربية على جريدة الحساب ، ثم أطلق على الحساب ، ثم على موضع الحساب ، ثم على طائفة الكتاب ، وكان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أول من دوّن الدواوين فى العرب سنة ٢٣ هـ أى رتب الجرائد للعمال ورجال الجيش فيها أسماؤهم ومراتبهم فى النسب وأرزاقهم — انظر تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣ .

الدواوين ، فإن الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمُهِمَّات الأمور .

وأَنفذْ إلىَّ عند وصول كتابى هـذا إليك إسماعيل بن صبيح وبكر ابن المعتمر على مَرْكَبَيهِمَا من البَرِيد[1] ، ولا يكون لك عُرْجة[2] ولا مُهْلة بموضعك الذى أنت فيه ، حتى توجِّه إلىَّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله . أخوك يستدفع الله عنك ، ويسأله لك حُسْنَ التأييد برحمته » .

وكتب بكر بن المعتمر بين يدى وإملائى فى شوال سنة ١٩٢ .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢٦)

١٨٤ — كتاب عيسى بن واضح إلى الفضل بن الربيع

وكتب عيسى بن واضح إلى الفضل بن الربيع :

« قد أكَّد الله من حُرْمتى بك ، ووصل من الشُّعَب بينى وبينك ، ما جعله ذَخيرةً ليوم الحاجة ، وعُدَّةً عند مُلِمِّ النازلة » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٣)

(١) البريد : البغلة المرتبة فى الرباط ، كلمة فارسية تعريب بريده دم : أى محذوف الذنب ، لأن بغال البريد كانت محذوفة الأذناب كالعلامة لها فأعربت وخففت ، ثم سمى به الرسول المحمول عليها ، وفى قول بعض العرب « الحمى بريد الموت » أى أنها رسوله المنذر به ، ثم سميت به المسافة التى يقطعها .

(٢) عرّج تعريجا : مِل وأقام وحبس المطية على النزل ، والعرجة مثلثة العين والعرجة بالتحريك : التعريج .

١٨٥ — كتاب موسى بن عيسى إلى الأمين

وكتب موسى بن عيسى فى سلامة المَوْسِم إلى الأمين :

« أما بعدُ ، فإن الله بحَمْدِه ومَنّه هو ولىّ أمير المؤمنين وولىّ النعمة عليه فيما حمّله اللهُ واستحفَظَه ، وجَعَله القائم به والمحافظَ عليه ، من ولاية دينه ، ورعاية أهله ، والمرجوّ لإتمام[1] ذلك بمَنّه ورحمته .

وإنى كتبتُ إلى أمير المؤمنين يوم النَّفْر[2] الأول ، وقد قضى الله مَنَاسِكَنا ، وتمّم حَجَّنا ، وأرانا فى مواقِفِنا وإفاضتِنا ومَن حَضَر الموسمَ معنا من رعية أمير المؤمنين ، أفضلَ مالم يَزل يُبْلِي[3] اللهُ أميرَ المؤمنين ويعوّده ، ويُبْلِي الرعيةَ فى خلافته ، من السلامة والعافية ، والتوفيق والكفاية ، والله محمود .

ولم أر مَوْسِما كان أعمّ عافيةً وسلامةً ، وأحسن هَدْيا ودَعَةً ، وأكثرَ داعياً لأمير المؤمنين وولىّ عهده بطول البقاء ، من موسِم الناس فى عامِهم هذا ، بنعمةِ الله وفضلِه .

أحببتُ الكتابَ إلى أمير المؤمنين ، لمعرفتى بعنايته وتطلّعه إلى عمله ، ليُسَرَّ به ، ويَحمَد الله عليه ويشكره ، فإنه شاكر يحبّ الشاكرين » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧١)

---

(١) فى الأصل « لإلمام » وأرى أنه « لإتمام » .

(٢) نفر الحاجّ من منى كضرب نفرا ونفورا ، ويوم النفر الأول : هو الثانى من أيام التشريق (وأيام التشريق ثلاثة ، وهى بعد يوم النحر ، قيل سميت بذلك لأن لحوم الأضاحى تشرّق فيها : أى تقدّد فى الشرقة بالفتح وهى الشمس) .

(٣) أبلاه : أنعم عليه وأحسن إليه .

١٨٦ - كتاب المأمون إلى الأمين

واستوزر الأمينُ الفضلَ بن الربيع، فما لَبث أن سعَى فى إغرائه بأخيهِ المأمون، وحثّه على خَلْعه، وَصَرْفِ ولاية العهد من بعده إلى ابنهِ موسى، ولم يزل به يزيّن له خلْعَه حتى جَنَح إلى رأيه[١].

وكتب الأمين إلى المأمون يسأله أن يتجافَى له عن كُوَرٍ من كُوَر خراسان سمّاها، وأنْ يوجّه العمال إليها من قِبَل الأمين، وأن يحتمل توجيه رجل من قبَله يولّيه البريدَ عليه ليكتب إليه بخبره، فكبُر ذلك على المأمون واشتد، وأحضر خاصّته من الرؤساء والأعلام، وقرأ عليهم الكتاب، واستشارهم فى الأمر فأشار عليه كلٌّ بما يرى، فقال المأمون لوزيره الفضل[٢] بن سَهْل ذى الرياستين: اكتب يا فضلُ إليه، فكتب:

(١) وذلك أن الفضل بن الربيع كان مع الرشيد بطوس، فلما مات الرشيد أمر الفضل الناس بالرحيل. ففعلوا ذلك محبة منهم للحاق بأهلهم ومنازلهم ببغداد، وتركوا العهود التى كانت أخذت عليهم للمأمون، وجمع الفضل جميع ما كان فى عسكر الرشيد وحمله إلى الأمين، وكان الرشيد قد أشهد به للمأمون، ثم فكر الفضل بعد مقدمه العراق، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون وهو حى لم يبق عليه، فزين للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى - ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه - واتفق مع الفضل جماعة على ذلك فمال الأمين إلى أقوالهم، ثم استشار عقلاء أصحابه فنهوه عن ذلك وحذروه عاقبة البغى ونكث العهود والمواثيق، وقالوا له: لا تجرئ القواد على النكث للأيمان وعلى الخلع فيخلعوك، فلم يلتفت إليهم ومال إلى رأى الفضل بن الربيع.

(٢) هو الفضل بن سهل بن عبدالله السرخسى وزير المأمون، ويلقب بذى الرياستين لأنه تقلد الوزارة والسيف، وقد جاء فى رسالة الشكر - وسترد عليك بعد -: «فأية نعمة أجلّ قدرا وأسنى أمرا معشر الشيعة، من نعمة أمير المؤمنين أيده الله عند الأمير ذى الرياستين، ومراتبه التى رتبه بها، فإنه أعطاه رياسة الحرب ورياسة التدبير ... الخ» وكذلك ذكر الجهشيارى فى كتابه الوزراء والكتاب ص ٣٨٧ قال: «ولقب المأمون الفضل بن سهل ذا الرياستين، ومعنى ذلك رياسة الحرب ورياسة التدبير». وهو من أبناء الفرس، وكان بنو سهل صنائع البرامكة. وكان أبوه سهل مجوسيا فأسلم على يد المهدى، وأسلم الفضل على يد المأمون سنة ١٩٠، وقتله المأمون سنة ٢٠٢ كما سيأتى،

«وقد بلغني كتابُ أمير المؤمنين ، يسأل التَّجافِيَ عن مَواضعَ سمَّاها ، مما أثبتَه الرشيد في العَقْدِ ، وجَعلَ أمرَه إليَّ ، وما أمْرٌ رآه أميرُ المؤمنين أحدٌ يجاوِزُ أكثرَه ، غير أن الذي[1] جعل إليَّ الطَّرْف الذي أنابه لا ظَنِينٌ في النظر لعامَّته ، ولا جاهِلٌ بما أسْنَدَ إليَّ من أمره ، ولولم يكن ذلك مُثْبَتاً بالعهود والمَواثيق المأخوذة ، ثم كنتُ على الحال التي أنا عليها : مِنْ إشراف عدوٍّ مَخُوف الشَّوكة ، وعامَّةٍ لا تُتألَّفُ عن هَضْمِها[2] ، وأجنادٍ لا تُستَتْبَع طاعتُها إلا بالأموال وطَرَفٍ[3] من الإفضال ، لكان في نظر أمير المؤمنين لعامَّته ، وما يُحِبُّ من لَمِّ أطرافه ، ما يوجب عليه أن يَقسم له كثيراً من عنايته ، وأن يستصلِحَه ببَذْلِ كثيرٍ من ماله ، فكيف بمسألةِ ما أوجَبَه الحقُّ ، ووكَّدَتْه مأخوذةُ العهد ؟ وإني لأَعلَمُ أن أمير المؤمنين لو عَلِم من الحال ما عامتُ ، لم يُطْلِع ما كتَبَ بمسألته إليَّ ، ثم أنا على ثِقةٍ من القَبول بعد البيان إن شاء الله» .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٢٠)

١٨٧ — رد الأمين على المأمون

فكتب إليه الأمين :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين الرشيد ، وَإن كانَ أَفْرَدَك بالطَّرْف ، وَضَمَّ ماضمَّ إليك من كُوَر الجَبَل ، تأييداً لأمرك ، وتحصيناً لطَرْفك ، فإن

انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١ : ٤١٣ والفخري ص ٢٠٢ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢ : ٢٣٩ .

(١) هو الرشيد ، والطرف : منتهى كل شيء ، وهو هنا خراسان لأنها منتهى الدولة ، والظنين : المتهم .

(٢) أي عن طريق ظلمها ونقص حقوقها .

(٣) الطرف بالتحريك : الطائفة من الشيء .

ذلك لا يُوجِب لك فَضْلة المال عن كفايتك ، وقد كان هذا الطرفُ وخَراجُه كافيا لِحَدَثه ، ثم تجاوز بعد الكفاية إلى ما يَفْضُل مِن رَدِّه ، وقد ضمَّ لك إلى الطرف كُوَرا من أمَّهات كُوَر الأموال لا حاجَةَ لك فيها ، فالحقُّ فيها أن تكون مردودة فى أهلها ومواضِع حقها .

فكتبتُ إليك أسألك رَدَّ تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها ، ليكون فُضولُ رَدِّها مصروفةً إلى مواضعها ، وأَنْ تأذَن لقائمٍ بالخبَرِ يكون بحَضْرَتك يؤدِّى إلينا عِلْمَ ما نُعْنَى به من خَبَر طَرْفك ، فكتبتَ تَلِطُّ[1] دون ذلك بما إنْ تَمَّ أمْرُك عليه صيَّرنا الحقُّ إلى مطالبتك ، فاثْنِ عن همِّك أثْنِ عن مطالبتك إن شاء الله » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٣)

١٨٨ — رد المأمون على الأمين

فلما قرأ المأمون الكتاب كَتَب مجيبا له :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كِتاب أمير المؤمنين ، ولِمَ يكتب فيما جَهِل فأكشف له عن وجهه ؟ ولِمَ يسأل مَا لا يُوجبه حق فيُلزمَنى الحُجَّةَ بترك إجابته ؟ وإنما يتجاوز المُناظِران مَنزِلةَ النَّصَفةِ[2] مَاضاقت النَّصَفةُ عن أهلها ، فتى تجاوَز متجاوِزٌ ـ وهِى موجودةُ ـ الوُسْعَ ، ولم يكن تجاوُزُها إلا عن نَقْضها واحتمالِ مَا فى تركها ؟ فلا تبعَثْنى يابن أبى على مخالفتك وأنا مُذْعِنٌ بطاعتك ،

---

(١) لط حقه وعنه كضرب وألط : جحده .

(٢) النصفة : الإنصاف والعدل .

ولا على قطيعتِك وأنا على إيثارِ[1] ما تحبُّ من صِلتك ، وارضَ مما حَكَم به الحقُّ في أمرك ، أكُنْ بالمكان الذي أنزلني به الحقُّ فيما بيني وبينك والسلام»

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٣٤)

١٨٩ — رد الأمين على المأمون

فلما وصل كتاب المأمون إلى الأمين غضب وتغيظ وأمر بالإمساك عن الدعاء له على المنابر ، وكتب إليه :

« أما بعد : فقد بلغني كتابك غامِطاً[2] لنعمة الله عليك فيما مكّن لك من ظِلّها[3] ، متعرّضاً لحِرَاقِ نارٍ[4] لا قِبَل لك بها ، ولَحَظُّك عن الطاعة[5] كان أوْدَع ، وإن كان قد تقدَّم مني متقدِّمٌ[6] فليس بخارج من مواضع نَفْعِك ، إذ كان راجعا على العامة من رعيّتك ، وأكثرُ من ذلك ما يمكِّنُ لك من منزلة السلامة ، ويُثْبِت لك من حال الهُدْنَة[7] ، فأعْلِمْني رأيك أعمَلْ عليه إن شاء الله » (تاريخ الطبري ١٠ : ١٣٤)

---

(١) أي تقديم وتفضيل .

(٢) غمط نعمة الله وغمطها كضرب وسمع فيهما : بطرها وكفرها ولم يشكرها .

(٣) الظل : معروف ، والعز والمنعة .

(٤) نار حراق : لا تبقي شيئا . (٥) أي ولنزولك على إرادتي طيعا لأمري . . . .

(٦) أي طلب متقدم ، وهو سؤاله إياه أن يتجافى له عن بعض كور خراسان .

(٧) الهدنة : المصالحة والدعة والسكون .

١٩٠ — كتاب المأمون إلى الأمين

وقال المأمون لذى الرياستين : إن ولدى وأهلى ومالى الذى أفرَدَه الرشيد لى بحضرة الأمين ، وهو مائة ألف ألف ، وأنا إليها محتاج ، وهِى قبله ، فما ترَى فى ذلك ؟ فكتب عنه إلى الأمين :

«أما بعد : فإن نظرَ أمير المؤمنين للعامَّة نَظرُ من لا يقتصر عنه على إعطاء النَّصَفَة من نفسه حتى يَتجاوزَها إليهم ببرِّه وصِلَته ، وإذ كان ذلك رأيَه فى عَامَّته فأَحْرِ[1] بأن يكون على مجاوزة ذلك بصِنْوِه[2] وقَسِيم نَسَبه ، فقد تعْلَم يا أمير المؤمنين حالاً أنا عليها : مِنْ ثغورٍ حَلَلْتُ بين لَهَواتها[3] ، وأجنادٍ لا تزال مُوقِنةً بنشْر غَيِّها ، وبنَكْثِ آرائها ، وقلة الخَرْج[4] قِبَلى ، والأهلُ والولدُ والمالُ قِبَل أمير المؤمنين ، وما لِلأهل — وإن كانوا فى كِفاية من برِّ أمير المؤمنين ، فكان لهم والداً — بُدٌّ من الإشراف ، والنُّزوع[5] إلى كَنَفى ، ومالى بالمال من القوة والظَّهير[6] على لَمِّ الشَّعَث بحَضْرتى ، وقد وجَّهتُ لحمل العِيال وحمل ذلك المال ، فرأيُ أمير المؤمنين فى إجازة فلان إلى « الرَّقَّة[7] » فى حمل ذلك المال ، والأمرِ بمعونته عليه ، غيرَ مُحرِّجٍ[8] له فيه إلى ضَيقة تقع

---

(١) أى فأجدر وأخلق .

(٢) إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو ، والاثنان صنوان ، والجمع صنوان برفع النون ، والمراد بالصنو هنا أخوه المأمون .

(٣) اللهوات جمع لهاة بالفتح ، وهى فى الأصل : اللحمة المشرفة على الحلق .

(٤) الخرج والخراج واحد .

(٥) نزع إلى أهله كضرب : اشتاق .

(٦) الظهير : المعين . (٧) الرقة : بلد على الفرات .

(٨) حرّج عليه : ضيّق عليه .

بمخالفته ، أو حاملٍ له على رأيٍ يكون على غير موافقته والسلام » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٤)

١٩١ — رد أحد أعيان أهل العسكر

فوافَقَ قدومَ الرسولِ بغدادَ ما أمَرَ به الأمينُ من الكفِّ عن الدعاء للمأمون فى الخُطبة يوم الجمعة ، فدفع الكتب إلى كلِّ مَن كُتِبَ إليه معه ، فمنهم من أمسك عن الجواب وأعْرَبَ للرسول عما فى نفسه ، ومنهم من أجاب عن كتابه ، وكتب أحدهم :

« أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابُك ، ولِلْحَقِّ بُرْهانٌ يَدُلُّ على نفسه تَثبُت به الحُجَّة على كل مَن صار إلى مُفارقته ، فكفى غَبْناً بإضاعة حظٍّ مِن حظ العاقبة ، لِمأْمُولٍ مِن حَظٍّ عاجلةٍ ، وأبْيَنُ فى الغَبن إضاعةُ حَظ عاقبةٍ فى التعرُّض للنَّكبة والوقائع ، ولى من العلم بمواضِع خَطَرِ ما أرجو أن يَحْسُنَ معه النظرُ منى لنفسى ، ويَضَع عنى مُؤْنةَ استزادتى إن شاء الله » :

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٦)

١٩٢ — كتاب رسول المأمون إليه

وكتب الرسول الموجه إلى بغداد ، إلى المأمون :

« أما بعدُ : فإنى وافيتُ البلدَة وقد أعلَنَ خَلِيطُك[1] بتنكُّره ، وقدَّم عَلَماً من اعتراضه ومفارقته بحَضْرته ، ودفعتُ كتبك فوجدت أكثر الناس

(١) الخليط : المشارك فى حقوق الملك ، يعنى الأمين .

وُلاةَ السَّرِيرة ، ونُفاةَ العلانيَة ، ووجدتُ المستمالين بالرغبة لا يَحُوطُونَ إلا عنها ، ولا ينالون ما احتملوا فيها ، والمنازِعُ مختلج[1] الرأيِ لا يجد دافعاً منه عن همِّه ، ولا راغباً فى عامِّه ، والمُحلِّون بأنفسهم يُحلُّون تَمامَ الحَدَث ، ليسلموا من مُنهزِم حَدَثهم ، والقومُ على جِدٍّ ، فلا تميلوا للتوانى[2] إن شاء الله والسلام » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢٦)

١٩٣ — رد الأمين على المأمون

فكتب إليه الأمين :

« أما بعد : فقد بلغنى كتابك بما ذكرتَ : مما عليه رأىُ أمير المؤمنين فى عامَّته ، فضلا عما يجب مِن حَقٍّ لذى حُرْمته وخليط[3] نفسه ، ومَحَلِّك بين لَهَواتِ ثغورٍ ، وحاجتِك لِمَحَلِّكَ بينها إلى فَضْلة من المال لتأييد أمرك ، والمالِ الذى سُمِّيَ لك من مال الله ، وتوجيهك مَنْ وجَّهْتَ فى حمله وحَمْلِ أهلك من قبَل أمير المؤمنين .

ولَعَمْرِى ما يُنْكِر أمير المؤمنين رأيا هو عليه مما ذكرتَ لعامَّته ، وما يوجب عليه من لُحُوق أقرَبيه وعامَّته ، وبه إلى ذلك المال الذى ذكرتَ حاجةٌ فى تحصين أمور المسلمين ، فكان أولَى به إجراؤه منه على فرائضه ، وردُّه على مواضع حقه ، وليس بخارج مِنْ نَفْعك ما عاد بِنَفْع العامة من

---

(١) أى مضطرب .

(٢) فى الأصل « ولا تجعلوا للتوادى » وأراه محرفا .

(٣) الخليط : الشريك .

رعيتك ، وأمّا ما ذكرتَ من حَمْل أهلك ، فإنَّ رأىَ أمير المؤمنين توَلِّى أمرهم ، وإن كنت بالمكان الذى أنت به من حق القرابة ، ولم أرَ من حملهم على سفرهم مثل الذى رأيت من تعريضهم بالسفر للتشتّت ، وإنْ رَأَى ذلك مَنْ قِبَلى أوَجِّهْهم إليك مع الثِّقة من رُسُلى إن شاء الله والسلام » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٥)

١٩٤ — كتاب المأمون إلى اعيان أهل العسكر ببغداد

ورأى المأمون أن يختار ثِقَةً من أصحابه ، يكتب معه كتباً إلى أعيان أهل العسكر من بغداد، فإنْ أحدَثَ الأمينُ خَلْعاً للمأمون صار إلى ذويها ، وتلطَّفَ لعلم حالات أهلها ، وإلاّ أمسَكَ عن إيصالها ، وكان كتابه مع الرسول الذى وجّهه لعلم الخبر :

« أما بعدُ : فإن أمْرَ[1] المؤمنين كأعضاء البَدَن : تَحْدُثُ العِلّة فى بعضها فيكون كُرْهُ ذلك مؤلِماً لجميعها ، وكذلك الحَدَثُ فى المسلمين ، يكون فى بعضهم فيصِلُ كُرْهُ ذلك إلى سائرهم ، لِلّذى يَجْمَعهم من شريعة دينهم ، ويَلْزَمُهم من حُرْمة آخرتهم ، ثم ذلك من الأئمة أعظمُ ، لِلمكان الذى به الأئمةُ من سائر أممهم ، وقد كان من الخبَر مالاَ أحسبُه إلا سيَعُود عن مجيئه ، ويَسْفِر[2] عما سُتِر ، وما اختلف مختلفان فكان أحدهما أزمَعَ[3] على الغدر إلاَّ كان أولُ مَعُونة المسلمين ومُوالاتهم فى ذات الله ، وأنت — يَرْحَمُك الله —

---

(١) فى الأصل « أمير المؤمنين » وهو تحريف .

(٢) من سفرت المرأة كضرب : كشفت عن وجهها .

(٣) أزمع الأمر وعليه : أجمع وثبت عليه .

من الأمر بمرأى ومَسْمَع، وبحيثُ إن قلتَ آذَنْ[1] لقولك، وإن لم تجد القول مَسَاغا فأمْسَكتَ عن مَخُوف، أقْتَدِ فيه بك، ولن يضيعَ على[2] الله ثَوَابُ الإحسان، مع ما يجب علينا بالإحسان مِن حقِّك، ولَحظٌّ حازلك النصيبَيْن أو أحَدَهما أمثلُ من الإشراف لأحَد الحظَّيْن مع التعرُّض لِعَدَمهما[3]، فاكتب إلىَّ برأيك، وأعلِمْ ذلك لرسولى، ليؤَدِّيَه إلىَّ عنك إن شاء الله».

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٥)

١٩٥ — كتاب المأمون إلى على بن عيسى بن ماهان

وكان علىّ بن عيسى بن ماهانَ ممن مَالأ على خلع المأمون من البيعة، فكتب إليه المأمون لما بلغهُ ما عزم عليه:

«أما بعدُ: فإنك فى ظِلِّ دَعْوةٍ لم تَزَلْ أنت وسَلَفُك بمكانِ ذَبٍّ[4] عن حَرِيمها، وعلى عِنايةٍ بحفظها، ورِعَايةٍ لحقِّها، تُوجِبُون ذلك لأئمتكم، وتعتصِمُون بحَبْل جماعتكم، وتُعطون بالطاعة من أنفسكم، وتكونون يدًا على أهل مخالفتكم، وحِزبا وإخوانا لأهل موافقتكم، تُؤثِرُونهم على الآباء والأبناء، وتتصرَّفون فيما تصرَّفوا فيه من منزلة شديدة ورَخاء، لا تَرَوْن شيئا أبلغَ فى صلاحكم من الأمر الجامع لألْفَتِكم، ولا أجْرَى لِبَوَارِكم[5]

(١) أذن إليه وله كفرح: استمع. (٢) أى عند الله.

(٣) معنى ذلك أن من نهض لنصرتنا حظى بالنصيبين: ثواب الله ومكافأتنا له، أو بالنصيب الأول على الأقل إن لم يقدر لنا النجاح والظفر لأنه يدفع عن الحق ويعين فى ذات الله، وذلك أفضل له وأولى به من الميل مع الأمين، فإنه حينئذ يستشرف مكافأة الأمين له فحسب — ويفوته ثواب الله — وقد تكون الدبرة على الأمين، فيفقد ناصره الحظين جميعا (ذلك إلى أنه يفقد مكافأة المأمون أيضا لانحرافه عنه وقعوده عن نصرته، بل ويتعرض لعقوبته ونكاله).

(٤) الذب: الدفع. والحريم: ما تحميه وتقاتل عنه. (٥) البوار: الهلاك.

مما دعا بشَتَاتِ كلتكم ، تَرَون مَن رغِب عن ذلك جائرًا عن القَصْد[1] ، وعن أمّه على مِنْهاج الحق ، ثم كنتم عَلَى منهاج الحق ، ثم كنتم على أولئك سيوفًا من سيوف نِقَمِ الله ، فكم من أولئك قد صاروا ودِيعة مَسْبَعَةٍ[2] ، وَجَزَرًا جامِدة ، قد سفَتِ الرِّياحُ فى وجهه ، وتَداعتِ السِّباعُ إلى مَصْرَعه ، غير مُمهَّد ولا مُوَسَّد ، قد صار إلى أُمَّة ...... [3] وغير عَاجل حظّه ممن كانت الأئمة تُنْزِلكم لذلك بحيثُ أنزلتم أنفسكم ، من الثِّقة بكم فى أمورها ، والتقْدِمة فى آثارها ، وأنت مُستشعَر[4] دون كثير من ثقاتها وخاصّتها ، حتى بلغ اللهُ بكَ فى نفسك أنْ كنت قَريعَ[5] أهلِ دعوتك ، والعَلَمَ القائم بمُعظم أمْرِ أمتك ، إنْ قلتَ ادْنُوا دَنَوْا ، وإن أشَرتَ أقبِلوا أقْبلوا ، وإن أمسكتَ وقَفُوا وقرُّوا ، ووِئاما[6] لك واستنصاحًا ، وتزداد نِعمةً مع الزيادة فى نفسك ، ويزدادون نعمةً مع الزيادة لك بطاعتك ، حتى حَلَلتَ المحَلَّ الذى قَرُبْتَ به من يومك ، واقترضَ فيما دونه أكثرُ مدتك ، لا تنتظر بعدها إلاّ ما يكون خِتامَ عملك : من خيرٍ فيُرْضَى ما تقَدَّم من صالح فِعلك ، أو خلافٍ فيضِلّ له متقدِّمُ سَعْيِك ، وقد تَرَى يا أبا يحيى حالاً عليها جَلَوْتَ[7] أهلَ نعمتك والوُلاةَ القائمةَ بحق إمامتك ، مِنْ طَعْنٍ فى عُقْدَةٍ كنتَ القائمَ بشَدِّها ،

---

(١) القصد : استقامة الطريق . وأمه : قصده . والمنهاج : الطريق الواضح .

(٢) أرض مسبعة : كثيرة السباع . وتركوهم جزرا للسباع : أى قطعا . وجامدة : أى ليس بها حركة ولا حياة . (٣) بياض بالأصل ، ولعله « إلى أمة الكفر » .

(٤) استشعر الشعار : لبسه (والشعار ككتاب : الثوب الذى يلى شعر الجسد) والمعنى : وأنت مقرّب مؤثر لدى الأئمة .

(٥) القريع : السيد . (٦) الوئام والمواءمة : الموافقة .

(٧) أى كشفت .

وبعهودٍ توليتَ مَعَاقِدَ أخْذِها ، يُبْدَأ فيها بالأَخَصِّين ، حتى أفضى الأمرُ إلى العامَّة من المسلمين ، بالأَيْمان المُحَرَّجة[1] ، والمواثيق المؤكَّدة ؛ وما طَلَعَ مما يدعو إلى نَشْرِ كلمةٍ ، وتفريق أمَّةٍ ، وشَتِّ جماعةٍ ، وتعرُّض به لتبديل نعمة ، وزوالِ ما وطَّأتِ الأسلافُ من الأئمة ، ومتى زالت نعمةٌ مِن وُلاة أمْركم وَصَلَ زوالُها إليكم فى خواصِّ أنفسكم ، ولن يغيِّرَ اللهُ ما بِقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ، وليس الساعِى فى نَشْرِها بساعٍ فيها على نفسه ، دون السعي على حَمَلتها القائمين بحُرْمتها ، قد عرَّضوهم أنْ يكونوا جَزَرًا لأعدائهم ، وطُعْمَةَ قوم تَتَظفرُ مخالبُهم فى دمائهم ، ومكانُك المكانُ الذى إن قلتَ رُجِع إلى قولك ، وإن أشرتَ لم تُتَّهم فى نصيحتك ، ولك مع إيثار الحقِّ الحُظْوةُ عند أهل الحقِّ ، ولا سواءٌ مَن حَظِىَ بعاجلٍ مع فِراق الحق فأَوْبَقَ[2] نفسَه فى عاقبته ، ومن أعان الحقَّ فأدرَكَ به صلاحَ العاقبةِ مع وفور الحظ فى عاجلته .

وليس لك ما تُسْتَدْعَى ، ولا عليه ما تُسْتعطَفُ ، ولكنه حق من حقِّ أحسابك ، يجب ثوابُه على ربك ، ثم على من قمتَ بالحق فيه من أهل إمامتك ، فإن أعْجَزَكَ قولٌ أو فِعلٌ فصِرْ إلى الدار التى تأمن فيها على نفسك ، وتحكُم فيها برأيك ، وتجاوَزْ إلى مَن يُحْسِن تقبُّلا لصالِح فِعلك ، ويكون مَرْجِعك إلى عُقَدك وأموالك ، ولك بذلك اللهُ ، وكفى بالله وكيلا ، وإن تعذَّرَ ذلك

---

(١) من التحريج وهو التضييق : أى التى لا يجد فيها من أخذت عليه سبيلا إلى النكث .

(٢) أى أهلك .

بَقِيةً على نفسك، فإينساً كأ بيدك ، وقولا بحقٍ مالم نَخَفْ وقوعَه بكُرْهك ، فلعلَّ مُقتدِيا بك ومغتَبطاً بنهيك ، ثم أَعْلِمْنى رأيك أعرِفْه إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٣)

فأبى علىّ بالكتاب إلى الأمين .

١٩٦ كتاب المأمون إلى الأمين

ولما بعث الأمين إلى المأمون فى البيعة لابنه موسى ، وَوَجَّه الرسل إليه فى ذلك ، كتب المأمون جواب كتابه :

« أما بعدُ ، فقد انتهى إلىّ كتابُ أمير المؤمنين مُنْكِرا لإبائى مَنْزِلةً تَهَضَّمَنى[1] بها ، وأرادنى على خِلافِ ما يَعْلَم من الحق فيها ، ولَعَمْرى إن أوْرَدَ أمير المؤمنين مَوارِدَ النَّصَفة ، فلم يطالِبْ إلا بها ، ولم يوجِبْ نكِرَةَ تركِها ، لانبَسَطَتْ بالحُجَّة مَطالعُ مقالته ، ولكنتُ مَحْجُوجا بمفارقةِ مايُوجِب من طاعته ، فأمّا وأنا مُذعِنٌ بها ، وهو على ترك إعمالها ، فأوْلى به أن يُدِير الحقَّ فى أمره ، ثم يأخذ به ويُعْطِى من نفسه ، فإن صرتُ إلى الحق فرَّغتُ عن قلبه ، وإن أبيتُ الحقَّ قام بمَعْذِرته ، وأمّا ما وَعَدَ من برِّ طاعته ، وأَوْعَد من الْوَطْأة بمخالفته ، فهل أحدٌ فارَقَ الحقَّ فى فِعله فأَبْقَى للمتبيِّن موضعَ ثقةٍ بقوله ؟ والسلام » (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٣)

---

(١) هضمه واهتضمه وتهضمه : ظلمه وغصبه .

١٩٧ - كتاب الأمين إلى المأمون

ولما عزم الأمين على خلع المأمون، أشار عليه إسمٰعيلُ بن صُبَيْح الكاتب أن يكتب إليه يُعلِمه حاجَتَه إليه وما يُحبُّ من قُرْبه، والاستعانة برأيه، ويسأله القدومَ إليه، فقال الفضل بن الربيع: القولُ ما قال يا أمير المؤمنين، قال، فليكتب بما رأى، فكتب إليه:

«من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين.

«أما بعد، فإن أمير المؤمنين رَوَّى[1] فى أمرك، والموضع الذى أنت فيه مِن ثَغْرك، ومَا يُؤَمَّل فى قُرْبك من المُعاونة والمكانفة على مَا حَمَّله اللهُ وقَلَّده من أمور عبادِه وبلاده؛ وفكّر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجَبَ لك من الولاية، وأمرَ به من إفرادك على ما تصيَّر إليك منها، فرَجَا أميرُ المؤمنين أن لا يدخل عليهِ وَكَفٌ[2] فى دينه، ولا نَكْثٌ فى يمينه، إذ كان إشخاصُه إياك فيما يعود على المسلمين نَفْعُه، ويصلُ إلى عامَّتهم صلاحُه وفضلُه، وعَلِم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أَسَدُّ للثغور، وأَصْلَح للجنود، وآكَدُ للفَىْء، وأَرَدُّ على العامّة، من مُقامِك ببلاد خُراسان، منقطِعاً عن أهل بيتك، متغيِّباً عن أمير المؤمنين، وما يحبُّ الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك.

وقد رَأَى أمير المؤمنين أن يولِّيَ موسى ابن أمير المؤمنين فيما يقلِّده

(١) روّى فى الأمر: نظر وفكر.

(٢) الوكف: العيب والإثم والفساد والضعف.

من خلافتك ما يحدث إليه من أمرك ونهيك ، فاُقْدَم على أمير المؤمنين على بركة الله وعَوْنه ، بأبْسَطِ أمَل ، وأفْسَحِ رَجاء ، وأحمَدِ عاقبةٍ ، وأنفَذِ بصيرة ، فإنك أوْلَى من استعان به أمير المؤمنين على أموره ، واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه صلاحُ أهل بيته وذمّته ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٦)

١٩٨ — رد المأمون على الأمين

فكتب إليه المأمون .

« لعبد الله محمد أمير المؤمنين من عبد الله بن هرون :

أما بعدُ : فقد وصل إلىَّ كتابُ أمير المؤمنين ، وإنما أنا عاملٌ من عُمَّاله ، وعَوْنٌ من أعوانه ، أمَرَ الرشيدُ صلوات الله عليه بلزوم هذا الثَّغر ومُكايَدَة مَن كايَدَ أهلَه من عدوٍّ أمير المؤمنين ، ولَعمرى إن مُقامى به أرَدُّ على أميرِ المؤمنين ، وأعظَمُ غَناء[1] على المسلمين ، من الشُّخوص إلى أمير المؤمنين ، وإن كنتُ مُغْتَبِطاً بقُربه ، مسروراً بمشاهدة نعمة الله عنده ، فإن رَأى أن يُقِرَّنى على عملى ، ويُعْفِيَنى من الشخوص إليه فعل إن شاء الله ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٩)

---

(١) الغناء : الكفاية والمنفعة .

١٩٩ — كتاب طاهر بن الحسين إلى المأمون

ونمى الشرُّ بين الأخوين واستطار شرَرُه، وبعث الأمين جيشاً كثيفا بقيادة على بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون، وأعدَّ المأمون للقائه جيشا بقيادة طاهر بن الحسين، ونشِبَ القتال بين الفريقين، ودارت الدائرة على جيش الأمين وقُتل ابن ماهان (سنة ١٩٥)

وكتب طاهر[١] إلى المأمون:

« أطال الله بقاءك، وكَبَت[٢] أعداءك، وجعل مَن يَشْنَؤك[٣] فداءك، كتابي إليك ورأسُ على بن عيسى بين يديَّ، وخاتَمُه فى إصبعى، وجُندُه مُصَرَّف تحت أمرى، والحمد لله رب العالمين ».

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢ : ٤ : ١٥٥، ١ ومروج الذهب ٢ : ٣٠٠ والفخرى ص ١٩٥ والمثل السائر ص ٣٣٩)

٢٠٠ — كتاب الأمين إلى طاهر بن الحسين

وحدث بعد ذلك حروب ووقائع وشَغَب كثير، حتى سار طاهر ومعه هرثمة بن أعيَن إلى بغداد وحاصراها — وقد نزل طاهر بالجانب الغربى، وهرثمة بالجانب الشرقى — وكتب الأمين إلى طاهر بخطه:

« بسم الله الرحمن الرحيم : اعلم أنه ماقام لنا مُذ قُمْنا قائمٌ بحقّنا، وكان جزاؤه إلا السيفَ، فانظر لنفسك أودَعْ ». (مروج الذهب ٢ : ٣٠٣)

---

(١) توفى سنة ٢٠٧ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٣٥، وله أخبار فى كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٠٧ وفى الطبرى.

(٢) كبته كضربه : صرعه وأخزاه وكسره ورده بغيظه وأذله.

(٣) شنأه كمنعه وسمعه : أبغضه.

٢٠١ — كتاب طاهر بن الحسين إلى المأمون

وكانت الغَلَبَة لطاهر بن الحسين، وقتل الأمين وحُمِل رأسُه إلى المأمون بخراسان (سنة ١٩٨) وكتب طاهر إلى المأمون بالفتح:

« أما بعدُ فالحمدُ لله المتعالي ذى العِزَّة والجَلال والمُلْك والسلطان، الذى إذا أراد أمراً فإنما يقولُ له كُنْ فيكون، لاَ إلٰهَ إلا هو الرحمن الرحيم.

كان فيما قَدَّر اللهُ فأَحْكَمَ، ودبَّرَ فأَبْرَمَ، انتكاثُ المخلوع ببَيْعته، وانتقاضُه بعَهْده، وارتكاسُه[1] فى فِتْنته، وقضاؤه عليه القتلَ بما كسَبَت يداه، وما اللهُ بظَلَّام للعبيد، وقد كتبتُ إلى أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — فى إحاطة جُنْدِ الله بالمدينة والخُلْدِ[2]، وأخْذِهم بأفواهها وطُرُقها ومَسالِكها فى دِجْلَة، نَوَاحِي أزِقَّة مدينة السَّلام، وانتظام المَسالِح[3] حَوالَيها، وحَدْرِى السُّفُنَ والزَّوَاريقَ بالعَرَّادَاتِ[4] والمُقاتِلَة إلى ما وَاجَهَ الخُلْدَ وباب خراسَان، تحفُّظًا بالمخلوع، وتخوُّفا من أن يرُوغَ[5] مَرَاغًا، ويَسْلُك مَسْلَكا يجد به السبيلَ إلى إثارة فتنة، وإحياء نائرة[6]، أو يُهايِج قتالا، بعد أن حَصَرَه الله عزّ وجل وخَذَلَه، ومتابعةِ الرُّسُل بما يَعْرِض عليه هَرْثَمَةُ بن أعيَن مَوْلى

---

(١) ارتكس: انتكس ووقع.

(٢) المدينة: أى بغداد، وتسمى أيضا مدينة السلام. والخلد: قصر بناه المنصور بها (ثم بنيت حواليه منازل فصارت محلة كبيرة عرفت بالخلد، والأصل فيها القصر المذكور) وقد هرب الأمين من قصر الخلد. مما كان يصل إليه من حجارة المنجنيق — وهو آلة ترمى بها الحجارة — وصار إلى مدينة السلام

(٣) المسالح جمع مسلحة بالفتح: وهى القوم ذو وسلاح.

(٤) العرادة: أصغر من المنجنيق. (٥) راغ: مال وحاد.

(٦) النائرة: العداوة والشحناء.

أمير المؤمنين ويسألنى من تخْلِيةِ الطريق له فى الخروج إليه ، واجتماعى وهرثمةَ بن أعيَن لِنتناظَرَ فى ذلك[١] ، وكراهتى ما أحدَثَ ورَاءه من أمره بعد إرهاق[٢] الله إياه ، وقَطْعِه رجاءه من كل حيلة ومُتَعَلَّق ، وانقطاعِ المنافِع عنه ، وحيلَ بينه وبين الماء فضلا عن غيره ، حتى هَمَّ به خَدَمُه وأشياعُه من أهل المدينة ومن نجا مَعه إليها ، وتحزَّبوا على الوثوب به للدَّفْع عن أنفسهم والنجاةِ بها ، وغير ذلك مما فسَّرتُ لأمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ مما أرجو أن يكون قد أتاه .

وإنى أخبِر أمير المؤمنين أنى رَوَّيتُ فيما دبَّر هرثمةُ بن أعين مَوْلى أمير المؤمنين فى المخلوع ، وما عَرَض عليه وأجابه إليه ، فوجدتُ الفتنةَ ، فى تخلُّصه من موضعه الذى قد أنزلَه الله فيه بالذِّلة والصَّغار ، وصيّره فيه إلى الضِّيق والحِصار ، تزداد ، ولا يزيد أهلُ التربُّص فى الأطراف إلا طمَعا وانتشاراً ،

---

(١) وذلك أنه لما اشتد الحصار على الأمين ، شاور خواصه فى النجاة بنفسه ، فكل أدلى برأى وأشار بوجه . وكان الأمين يستوحش من طاهر ، ويأمن بهرثمة ويثق بناحيته ، فراسله فى ذلك ، فأجابه هرثمة إلى ما أراد ووعده بكل ما أحب وأنه يمنعه ممن يريد قتله ؛ وبلغ ذلك طاهرا فاشتد عليه وزاد غيظه وحنقه وأبى أن يرفه عنه ويدعه يخرج ، وقال : هو فى حيزى والجانب الذى أنا فيه ، وأنا أحرجته بالحصار والحرب حتى صار إلى طلب الأمان ، ولا أرضى أن يخرج إلى هرثمة دونى فيكون الفتح له ، ولما رأى هرثمة والقواد ذلك اجتمعوا وصار إليهم طاهر وخاصة قواده ، وأداروا الرأى بينهم وأخبروا طاهرا أنه لا يخرج إليه أبدا ، وقالوا له : يخرج ببدنه إلى هرثمة ، ويدفع إليك الخاتم والقضيب والبردة ـ وذلك الخلافة ـ ولا تفسد هذا الأمر واغتنمه إذ يسره الله ، فأجاب إلى ذلك ورضى به ، ولما علم بعض ذوى الأهواء بالخبر أراد التقرب إلى طاهر فخبره أن الذى جرى بينهم وبينه مكر ، وأن الخاتم والبردة والقضيب تحمل مع الأمين إلى هرثمة ، فاغتاظ وأكمن له كمناء بالسلاح . ووعد هرثمة الأمين أن يأتيه فى حراقة إلى مشرعة باب خراسان فيصير به إلى عسكره ، فلما صار إلى الحراقة خرج طاهر وأصحابه فرموها بالسهام والحجارة فانكفأت ، فغرق الأمين وهرثمة ومن كان فيها ، فلم يكن لهرثمة شاغل إلا نفسه فتعلق بزورق ومضى إلى عسكره بالجانب الشرقى ، وسبح الأمين حتى عبر دجلة فقبض عليه أصحاب طاهر وقتلوه .

(٢) أرهقه : حمله على ما لا يطيقه .

وأعلمتُ ذلك هرثمةَ بن أعين وكراهتى ما أطمعَه فيه وأجابه إليه ، فذكر أنه لا يرَى الرجوعَ عما أعطاه ، فصادَرْتُه — بعد يأسٍ من انصرافه عن رأيه — على أن يقدِّمَ المخلوعُ رداءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيفَه وقضيبَه قبل خروجه ، ثم أُخْلِى له طريقَ الخروج إليه . كراهةَ أن يكون بينى وبينه اختلافٌ نَصِيرُ منه إلى أمرٍ يُطمع الأعداءَ فينا ، أوفِراقُ القلوب بخلاف ما نحن عليه من الائتلاف والاتفاق على ذلك ، وعلى أن نجتمع لميعادنا عَشِيَّةَ السبت .

فتوجَّهْتُ فى خاصَّة ثِقاتى الذين اعتمدتُ عليهم ، وأثِق بهم برَبْطِ الجَأْشِ [1] ، وصدق البأس ، وصحة المناصحة ، حتى طالعتُ جميعَ أمرِ كلٍّ من كنتُ وكَّلتُ بالمدينة والخُلْد برًّا وبحرا ، والتقدِمَة إليهم فى التحفّظ والتيقّظ ، والحِراسة والحَذَر ، ثم انكفأتُ إلى باب خُراسان ، وكنتُ أعَدَدْتُ حَرَّاقاتٍ [2] وسُفُنا سوى العُدّة التى كانت لأَرْكَبَها بنفسى لوقتِ ميعادى بينى وبين هرثمة ، فنزلتُها فى عِدَّة ممن كان رِكبَ معى مِن خاصَّة ثِقاتى وشاكِريَّتى [3] ، وصيَّرت عِدّةً منهم فُرْسانا ورَجَّالةً بين باب خراسان والمَشْرَعَة [4] وعلى الشَّطِّ .

وأقبلَ هرثمةُ بين أَعْيَن حتى صار بقُرب باب خراسان مُعِدا مُسْتَمِدًّا ، وقد خاتَلَنى [5] بالرسالة إلى المخلوع إلى أن يخرُج إليه إذا وافى المَشْرَعةَ ليَحْمِلَه

---

(١) الجأش : النفس ، وربط جأشه : اشتد قلبه .

(٢) الحراقات : سفن فيها مرامى نيران يرمى بها العدو .

(٣) الشاكرىّ : الأجير والمستخدم ، معرب جاكر .

(٤) المشرعة : مورد الشاربة . (٥) ختله : خادعه .

قبل أن أعلَم ، أو يبعث إليَّ بالرِّداء والسيف والقضيب ، على ما كان فارقني عليه من ذلك . فلما وَافى خروجُ المخلوع على مَن وكَّلتُ بباب خُراسان ، نهضوا عند طلوعه عليهم ، ليعرفوا الطابَع لأمْرى كان أتاهم ، وتقدَّمى إليهم ألاَّ يَدَعوا أَحدا يجوزُهم إلا بأمرى ، فبادرَهم نحوَ المشرعةِ وقرَّبَ هرثمةُ إليه الحرَّاقَةَ ، فسبَقَ النا كِثُ أصحابى إليها ، وَتأخر « كَوْثر[1] » فظفِرَ به « قُرَيْشٌ » مولاىَ ، ومعهُ الرِّداء والقضيبُ والسيف ، فأَخَذَه ومامعه ، فَنَفَر أصحابُ المخلوع عند ما رَأَوا من إرادة أصحَابى منْعَ مخلوعهم من الخرُوج ، فبادَرَ بعضُهم حرَّاقَةَ هرثمة ، فتكفَّأَتْ بهم حتى أُغْرِقت فى الماء وَرَسَبَتْ ، فانصرف بعضُهم إلى المدينة ، ورَمى المخلوعُ عند ذلك بنفسه من الحرَّاقة فى دجلة متخلِّصا إلى الشَّطّ ، نادماً على ما كان من خروجه ، ناقضاً للعهد ، داعيا بشِعاره[2] ، فابتَدَره[3] عِدَّةٌ من أوليائى الذين كنت وكَّلتُهم بما بين مَشْرَعة باب خراسان ورُكْن الصَّراة ، فأخذوه عَنْوَةً[4] قهرا بلا عَهْد ولا عَقْد ، فدعا بشِعاره وعاد فى نَكْثه ، فعَرَضَ عليهم مائة حَبَّة : ذَكَرَ أن قيمة كل حبة مائة ألفِ دِرهم ، فأَبَوا إلا الوفاء لخليفتهم أبقاه الله ، وصيانةً لدينهم ، وَإيثاراً للحق الواجب عليهم ، فتعلَّقوا به ، قد أسلَمَه[5] الله وأفْرَدَه ، كلٌّ يَرْغبه ويريد أن يَفوزَ بالحُظوة عندى دون صاحبه ، حتى اضطربوا فيما بينهم ،

---

(١) كان خادما خصيا للأمين وكان يحبه .

(٢) لما أخذت السيوف الأمين جعل يصيح : ويحكم ! إنى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا ابن هرون ، أنا أخو المأمون ، الله الله فى دمى .

(٣) ابتدره : عاجله .

(٤) أى قهرا . (٥) أى خذله .

وتناولُوه بأسيافهم ، مُنازَعةً فيه ، وتَشَاحًّا[1] عليه ، إلى أن أُتيحَ له مَغِيظٌ لله ودينِه ورسوله وخليفته ، فأتَى عليه ، وأتانى الخبرُ بذلك ، فأمرتُ بحَمْل رأسِه إلىَّ ، فلما أُتيتُ به تقدَّمتُ إلى مَن كنتُ وكَّلْتُ بالمدينة والخُلْدوما حَوالَيها وسائرِ مَن فى المَسَالِح ، فى لُزُوم مواضعهم والاحتفاظِ بما يَليهم إلى أن يأتيَهم أمرى ، ثم انصرفتُ ، فأعظَمَ اللهُ لأميرِالمؤمنين الصُّنعَ والفتحَ عليه ، وعلى الإسلام به وفيه .

فلمَّا أصبحتُ هاج الناس واختلفوا فى المخلوع : فمُصَدِّق بقتله ومكذِّبٌ، وشاكٌّ ومُوقِن ، فرأيتُ أن أُطرَحَ عنهم الشُّبْهَةَ فى أمره ، فمضيتُ برأسه لينظرُوا إليه ، فيَصِحَّ بعينِهم ، وينقطعَ بذلك بَعَلُ[2] قلوبِهم ، ودَخْلُ[3] الْتِياثِ المُسْتَشْرِفين للفساد ، والمُسْتَوفِزِين للفتنةِ ، وغدَوْتُ نحوَ المدينة فاستَسْلَم من فيها ، وأعطَى أهلُها الطاعة ، واستقامَ لأمير المؤمنين شرقُ ما يلِى مدينة السلام وغربيُّه وأرباعُه[4] وأرْباضُه ونواحيه ، وَقد وضَعتِ الحربُ أوزارَها ، وتلافى بالسلام والإسلام أهله ، وبَعَّدَاللهُ الدَّغَلَ[5] عنهم ،

---

(١) تشاحا على الأمر : لايريدان أن يفوتهما .

(٢) بعل بأمره كفرح : دهش وفرق وبرم فلم يدر مايصنع .

(٣) الدخل : ماداخل المرء من فساد فى عقل أو جسم ، والالتياث : الاختلاط والالتفاف ، واستشرف الشىء : رفع بصره إليه وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس ، واستوفز : تحفز وتهيأ للوثوب .

(٤) كانت المدينة قديما تقسم أرباعا (ولا يزال ذلك التقسيم إلى اليوم فى بعض بلاد القطر المصرى ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام ، كل قسم ثمن وحرفته العامة فقالوا تمن) والأرباض جمع ربض بالتحريك ، وربض المدينة : ماحولها ، والأوزار : الأثقال ، جمع وزر بالكسر .

(٥) الدغل : الفساد .

وأصارَهم بِبَركةِ أمير المؤمنين إلى الأمْنِ والسكون والدَّعَة والاُستقامة والاُغتباط والصُّنع من الله جل وعز والخِيَرة والحمدُ لله على ذلك.

فكتبتُ إلى أمير المؤمنين — حفظه الله — وليس قِبَلى داعٍ إلى فتنة، ولا متحركٌ ولا ساعٍ فى فساد، ولا أحَدَ إلاسامعٌ مطيع باخع[1] حاضِر، قد أذاقه الله حلاوةَ أميرِ المؤمنين، ودَعَةَ ولايته، فهو يتقلَّب فى ظلِّها، يغدو فى مَتْجَره ويَرُوح فى مَعايشه، واللهُ ولىُّ ماصَنَع من ذلك، والمتمِّم له، والمانُّ بالزيادة فيه برحمته.

وأنا أسأل الله أن يَهْنِئَ[2] أمير المؤمنين نعمتَه، ويتابِعَ له فيها مَزِيده، ويُوزِعَه[3] عليها شكرَه، وأن يجعل مَنَّه لديه متواليا دائما متواصلا، حتى يَجْمَعَ الله له خيرَ الدنيا والآخرة ولأوليائِه وأنصارِ حقِّه ولجماعة المسلمين، ببركته وبركة ولايته ويُمْنِ خلافتـه، إنه ولىُّ ذلك منهم وفيه، إنه سميع لطيف لما يشاء».

وكتب يوم الأحد لأربع بقين من المحرم سنة ١٩٨ هـ

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٠٣)

٢٠٢ — كتاب طاهر بن الحسين إلى أبى عيسى بن الرشيد

وروى الصُّولى فى أدب الكتاب قال:

وقال طاهر بن الحسين — وهو يحارب الأمين، وكان أبو عيسى

---

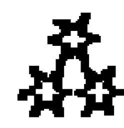
(١) بخع بالحق كنع: أقرّ به وخضع له، كبخع بالكسر.

(٢) يقال هنأنا الله الطعام: أى جعله هنيئا.

(٣) أوزعه الله: ألهمه.

ابن الرشيد معه ـ لكتابه : اكتبوا إلى أبى عيسى كتابا تتقربون به إليه وتتباعدون ، ولا تُطْمِعوه ولا تُؤْيسوه ، فقالوا : إنْ رأى الأمير أن يُعْلِمنا كيف ذلك ويَحُدَّه لنا ، فقال اكتبوا :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حَفظك الله وأبقاك وأمتَعَ بك ، وعزيزٌ علىَّ أن أكتبَ إلى صغير منكم أو كبير ، بغير التأمير ، وقد بلغنى عنك مُمالأةٌ[1] المخلوع ، فإن كان ذلك منك مَيْلا على أمير المؤمنين ، فقليلُ ما أُكاتبك به كثيرٌ ، وإن كنت كما قال الله : «إلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» فالسلامُ عليك أيها الأميرُ ورحمة الله وبركاته » . (أدب الكتاب ص ١٥١)



وروى ابن عبد ربه فى العقد الفريد قال :

وكتب طاهر بن الحسين حين أخذ بغداد إلى ابراهيم بن المهدى :

« أما بعد ، فإنه عزيزٌ علىَّ أن أكتب إلى أحد من بيت الخلافة بغير كلام الإمرة وسلامِها ، غير أنه بلغنى عنك أنك مائِلُ الهَوَى والرأى للناكث المخلوع ، فإن كان كما بلغنى فقليلُ ما كتبتُ به كثير لك ، وإن يكن غير ذلك فالسلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، وقد كتبتُ فى أسفل كتابى أبياتا فتدَبَّرها :

رُكوبُك الهَوْلَ مالم تَلْقَ فُرْصَتَه   جَهْلٌ رَمَى بك بالإقحامِ تَغْرِيرُ
أَهوِنْ بدنيا يُصيبُ المخطِئون بها   حظَّ المُصيبين ، والمغرورُ مغرورُ

---

(١) مالأه : ساعده على الأمر وشايعه .

فازْرَعْ صوابا وخذ بالحزم حَيطتَه ... فلن يُذَمَّ لِأهل الحزمِ تدبيرُ
فإن ظفِرتَ مُصيباً أو هلكتَ به ... فأنت عند ذوى الألباب معذورُ
وإن ظفِرتَ على جهلٍ ففُزتَ به ... قالوا جَهُولٌ أعانته المقاديرُ

(العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

٢٠٣ — كتاب السيدة زبيدة إلى المأمون

ولما قُتِل الأمين كتبت أمّه السيدة زُبَيْدة[١] إلى المأمون :

لِخير إمامٍ قامَ من خيرِ عُنْصُرٍ ... وأفضلِ راقٍ فوقَ أعوادِ مِنْبَرِ
ووارثِ عِلْمِ الأوَّلين وفَخْرِهم ... ولِلْملِكِ المأمونِ من أمِّ جعفرِ
كتبتُ ، وعينى تَسْتهِلُّ دموعُها ... إليكَ ابنَ عمى من جُفونى ومَحْجِرى[٢]
وقد مسَّنى ضُرٌّ وذُلٌّ كآبةٍ ... وأرَّقَ عينى يا بنَ عمى تفكُّرى
أُصِبْتُ بأدْنَى الناس منك قرابةً ... ومَن زالَ عن كَبْدى فَقَلَّ تصبُّرى
وَهمْتُ لِمَا لاقيتُ بعد مُصابه ... فأمْرِى عظيمٌ مُنكَرٌ جِدُّ منكرِ
سأشكو الذى لاقيتُه بعد فَقْدِه ... إليك شَكاةَ المُستَهامِ المقهَّرِ[٣]
وأرجو لِمَا قَدْ مرَّ بى مُذْ فقدْتُه ... فأنت لِبَثِّى خيرُ رَبٍّ مُغَيِّرِ[٤]
أتى طاهرٌ (لاطهَّرَ اللّهُ طاهراً) ... فما طاهرٌ فيما أتى بمطهَّرِ
فأبْرَزَنى مكشوفةَ الوجه حاسراً ... وأَنْهَبَ أموالى وأخْرَبَ[٥] آدُرى

---

(١) جاء فى تاريخ الطبرى : وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر : ثم أورد الأبيات .
(٢) استهل المطر : اشتد انصبابه ، ومحجر العين كمجلس ومنبر : مادار بها .
(٣) الشكاة : الشكوى ، والمستهام : الهائم .
(٤) البث : أشد الحزن .
(٥) امرأة حاسر : حسرت عنها درعها وكشفته ، وكل مكشوفة الرأس والذراعين حاسر ، وأنهب ماله : جعله نهبا يغار عليه ، ومن جموع دار : آدر وأدؤر ، وقد روى بالوجهين .

يَعِزُّ على هٰرونَ ما قد لقِيتُه ... وما نالنى من ناقِصِ الخَلْقِ أعوَرِ
فإن كان ما أسْدَى بأمرٍ أمَرْتَهُ ... صَبَرْتُ لأمرٍ من قديرٍ مُقَدَّرِ
تَذَكَّرْ أميرَ المؤمنين قرابتى ... فَدَيْتُك من ذى حُرْمةٍ متذكِّرِ

فلما قرأ المأمون شعرها بكى ثم قال : اللهم إنى أقولُ كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه لمَّا بلغه قتل عثمانُ « واللهِ ما أمرتُ ولا رضيتُ » اللهم جَلِّلْ قلب طاهر حزنا .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢١٣ ومروج الذهب ٢ : ٣١٦)

٢٠٤ — كتاب السيدة زبيدة إلى المأمون

وكتبت إلى المأمون أيضاً تستعطفه :

« كلُّ ذنب ياأمير المؤمنين — وإن عَظُم — صغيرٌ فى جَنْب عفوك ، وكل زَلَلٍ — وإن جَلَّ — حقير عند صَفْحِك ، وذلك الذى عوَّدَك الله ، فأطال مُدَّتك ، وتَمَّم نعمتك ، وأدام بك الخيرَ ، ورفعَ بك الشرَّ .

هذه رُقْعة الوالِهِ[1] التى ترجوكَ فى الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذِّكر ، فإن رأيتَ أن ترحَم ضعفى واستكانتى[2] ، وقِلَّةَ حيلتى ، وأن تصِلَ رَحِمى ، وتحتسِبَ[3] فيما جعلك الله طالبا ، وفيه راغباً ، فافْعَلْ ، وتذكَّرْ[4] من لو كان حَيًّا لكان شفيعى إليك » .

---

(١) الوله بالتحريك : الحزن أو ذهاب العقل حزنا ، وهو ولهان وواله وآله ، وهى ولهى وواهلة وواله وميلاه (بكسر الميم) : شديدة الحزن والجزع على ولدها .
(٢) الاستكانة : الخضوع والذل .
(٣) احتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ينوى به وجه الله .
(٤) تعنى أباه الرشيد .

٢٠٥ — رد المأمون عليها

فكتب إليها المأمون :

« وصَلَتْ رُقعتك يا أُمَّاه ، حاطكِ[1] الله وتَوَلَّاكِ بالرِّعاية ، ووقفتُ عليها وساءنى — شَهِد الله — جميعُ ما أوضَحْتِ فيها ، لكنَّ الأقدارَ نافِذة ، والأحكامَ جارية ، والأمور متصرِّفة ، والمخلوقون فى قَبْضتها لا يقدِرون على دِفاعها ، والدنيا كلُّها إلى شَتات[2] وكل حيٍّ إلى ممات ، والغَدرُ والبَغيُ حَتْفُ الإنسان ، والمكر راجع إلى صاحبه[3] ، وقد أمرتُ بردِّ جميع ما أُخِذ لك ، ولم تَفْقِدى ممَّن مَضَى إلى رحمة الله إلا وجهَه ، وأنا بعد ذلك على أكثَرَ مما تختارين ، والسلام » .

٢٠٦ — كتاب أحمد بن يوسف فى قتل الأمين

وكان أول ما ارتفع به أحمد[4] بن يوسف الكاتب ، أنه لما قُتل الأمين أمر طاهر بن الحسين الكُتَّابَ أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أخصَرَ من هذا ، فوُصِف له أحمد بن يوسف وموضِعُه من البلاغة فأحضَرَه لذلك[5] فكتب :

---

(١) حاطه : حفظه وصانه . (٢) الشتات : التفرق . (٣) يعرض بالأمين .

(٤) هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى بنى عجل بن لجيم بالكوفة ، استوزره المأمون بعد أحمد بن أبى خالد الأحول وتوفى سنة ٢١٣ — انظر ترجمته فى الفخرى ص٢٠٦ والأغانى ج ٢٠ : ص ٥٦ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٥ : ٢١٦ وغرر الخصائص الواضحة ص ١٠٩ ومعجم الأدباء ٥ : ١٦١ وكتاب الأوراق لأبى بكر الصولى ١ : ١٤٣ وكتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٢٣٤

(٥) هذه رواية زهر الآداب ، ومنها ترى أن هذا الكتاب كتب فى بغداد ، وروى أنه كتب

« أما بعد : فإن المخلوع وَإن كان قَسِيمَ أمير المؤمنين فى النَّسب واللُّحْمَة [١] ، فقد فرَّق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه فى الولاية والحُرْمة ، بمُفَارَقته عِصْمَةَ الدين ، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين ، يقول الله عز وجل فيما اقتصَّ علينا من نبإِ نوح وابنه « يا نُوحُ إنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » ولا صلةَ لأحدٍ فى معصية الله ، ولا قطيعةَ ما كانت القطيعة فى ذات الله .

وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وقد قَتَل الله المخلوعَ ورَدَّاه رِداءَ نَكْثِه [٢] ، وَأَحْصَدَ [٣] لأمير المؤمنين أمرَه ، وأنجَزَ له ما كان ينتظر من سابق وعده ، فالأرْضُ بأكنافِها [٤] أوْطأُ مِهادٍ لطاعتِهِ ، وأتبعُ شىء لمشيئتِهِ ، وقد

بمرو ، روى الطبرى قال : « لما بعث طاهر برأس محمد إلى المأمون ، بكى ذو الرياستين وقال : سلّ علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيرا ، فبعث به عقيرا ، فقال له المأمون : قد مضى مامضى ، فاحتل فى الاعتذار منه ، فكتب الناس فأطالوا ، وجاء أحمد بن يوسف بشبر من قرطاس فيه « أما بعد ... » وكذلك روى الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب قال : « ولما قتل طاهر محمدا المخلوع أنفذ رأسه إلى المأمون، فقال الفضل بن سهل : مافعل بنا طاهر سل علينا سيوف الناس ... الخ ثم قال : وأمر المأمون الفضل أن ينشئ كتابا عن طاهر بخبره ليقرأ على الناس ، فكتبت عدة كتب لم يرضها واستطالها ، فكتب أحمد بن يوسف ...

وروى ياقوت فى معجم الأدباء الخبرين ، قال بعد أن أورد الأول : فرضى طاهر ذلك وأنفذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقدمه ، ثم أورد الثانى فقال : « وقيل إن المأمون لما حمل رأس المخلوع إليه وهو بمرو ، أمر بانشاء كتاب عن طاهر بن الحسين ، ليقرأ على الناس ، فكتبت عدة كتب لم يرضها المأمون ولا الفضل بن سهل ، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عرضت النسخة على ذى الرياستين رجع نظره فيها ثم قال لأحمد بن يوسف : ماأنصفناك ، ودعا بقهرمانه وأخذ القلم والقرطاس وأقبل يكتب بما يفرغ له من المنازل ، ويعد له فيها من الفرش والآلات والكسوة والكراع وغير ذلك ، ثم طرح الرقعة إلى أحمد بن يوسف وقال له : إذا كان فى غد فاقعد فى الديوان وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتب إلى الآفاق » .

(١) اللحمة : القرابة . (٢) نكث العهد : نقضه .

(٣) من أحصد الحبل : إذا أحكم فتله .

(٤) الأكناف : جمع كنف بالتحريك وهو ، الناحية .

وجِئْتُ إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأسُ المخلوع ، وبالآخرة وهي البُرْدَة والقَضِيب .

وَالحمد للهِ الراجِعِ إلى أمير المؤمنين معلومَ حقه[1] والكائدِ له مَنْ خَتَرَ[2] عهدَه ، ونَقَضَ عَقْدَه ، حتى رَدّ به الأُلفةَ بعد فُرْقتها ، وجَمَعَ به الأمة بعد شَتَاتِها ، وأحيا به أعلامَ الدين بعد دُرُوسِها[3] ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

(زهر الآداب ٢ : ٣٨ وتاريخ الطبري ١٠ : ٢١٤ ومعجم الأدباء ٥ : ١٦٧ وكتاب الوزراء والكتاب ص ٣٨٥)

٢٠٧ — رسالة الخميس لأحمد بن يوسف

ومن رسائل أحمد بن يوسف رسالة الخميس[4] التي كتبها للمأمون وكانت تقرأ بخُراسان على شِيعة بني العباس، وهي :

---

(١) الراجع هنا من رجع المتعدى ومفعوله « معلوم » .

(٢) الختر : الغدر والخديعة أو أقبح الغدر ، وفعله كضرب ونصر ، وفى المنظوم والمنثور « والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه ، والكائد له من خان عهده ونكث عقده ... » .

(٣) أى امحائها ، وفى زهر الآداب تكرير الحمد فى آخر الكتاب ، قال « والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين حقه ، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين » .

(٤) رسالة الخميس : هى رسالة كان يكتبها أبلغ كاتب فى الدولة ، فى عهد كل خليفة من أوائل الخلفاء العباسيين ، فى تأييد الدعوة العباسية عامة ، وأن أولى الناس بولاية خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو العباس عمه ووارثه من بعده ، وفى تأييد الخليفة الحاضر خاصة ، والإشادة بذكره ، وتعداد مناقبه ومآثره وأنه أولى أهل بيته بالخلافة ، وكانوا يبعثون بهذه الرسالة إلى خراسان فتتلى على أهلها ، ويحشدونهم لسماعها ، تفخيما لشأن الخليفة لديهم ، وتجديدا لولائهم لبنى العباس واستدامتهم على التشيع لهم ، وقد ذكر ابن النديم فى الفهرست ص ١٧١ « أن لعمارة بن حمزة كاتب المنصور ومولاه رسائل مجموعة من جملتها رسالة الخميس التى تقرأ لبنى العباس » والظاهر أن رسالة عمارة هى أولى رسائل الخميس ، حتى كانت الفتنة بين الأمين والمأمون ، وكان أحمد بن يوسف فى خراسان فى ديوان الفضل بن سهل ، فعمل رسالة الخميس للدعاية للدولة العباسية وللمأمون ، وللاحتجاج له عن قتل أخيه ، وقد جاء فى الفهرست لابن النديم ص ١٨٣ : « الكتب المجمع على جودتها : عهد

« من عبد الله الإمام[١] المأمونِ أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق ، والناصِرِين للدين ، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام :

سلامٌ عليكم ، فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، وَيسأَله أن يصلِّىَ على محمد عبدِه وَرسولِه ، أما بعدُ : فالحمد لله القادر القاهر ، الباعثِ الوَارث ، ذى العزّ والسلطان ، والنور والبُرْهان ، فاطرِ[٢] السمٰوَات وَالأرضِ وما بينهما ، والمتقدِّم بالمَنِّ والطَّوْل على أهلهما ، قبل استحقاقهم لمَثُوبَته بالمحافظة على شرَائع طاعته ، الذى جعل ما أودَعَ عبادَه من نعمته ، دليلا هاديا لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب التى يفهمون بها فَصْلَ الخطاب ، حتى أُقيموا على مواردالاختبار ، وتعقَّبُوامصادِرَ الاعتبار ، وحَكَموا على ما بَطَنَ بما ظهر ، وعلى ماغاب بما حَضَر ، واستدلُّوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومُتْقَن صَنعته ، وحاجةِ مُتَزايِلِ[٣] خَلْقِه ومُتَواصِله إلى القَوْم[٤] بما يَلُمُّه ويُصْلِحه ، على أن له بارئاً هو أنشأه وابتدأه وَيَسَّرَ بعضَه لبعض ، فكان

أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » ولما ثار العباسيون ببغداد على المأمون ، ونصبوا عمه إبرهيم بن المهدى خليفة مكانه — كما سيأتى — عمل إبرهيم لنفسه رسالة خميس — وكان غزير الأدب وافر الفضل ، لم ير فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لسانا ولا أحسن منه شعرا — إلى أن كانت خلافة المتوكل فعمل له إبرهيم بن العباس رسالة الخميس ، وقد ذكر ابن طيفور فى المنظوم والمنثور صدر رسالتى إبرهيم بن المهدى وإبرهيم بن العباس ، وسيردان عليك بعد ، ولم يحدثنا التاريخ أنه عملت رسائل للخميس بعد ذلك ، وسبب انقطاعها ما كان من غلبة الترك على الخلفاء ، ثم استيلاء الديلم على بغداد ، وانهيار بنيان وحدة الدولة وتشعبها إلى دول مستقلة فى المشرق والمغرب .

(١) كان الأمين قد نهى عن الدعاء على المنابر فى عمله كله للمأمون ، وأمر بالدعاء له عليها ، ثم من بعده لابنه موسى ، وهو يومئذ طفل صغير وسماه الناطق بالحق ، وذلك سنة ١٩٥ ، فبلغ ذلك المأمون فتسمى بإمام الهدى وكوتب بذلك — انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٩ .

(٢) فاطر : خالق . (٣) المتزايل : المتفرق .

(٤) القوم : القيام .

أقرب وجودهم ما يُباشِرُون مِن أنفسهم فى تصرُّف أحوالهم ، وفُنون انتقالهم ، وما تَظْهرون عليه من العَجْز عن التأتّى[1] لِمَا تكامَلَت به قُواهم ، وتَمَّتْ به أدواتُهم ، مع أثَر تدبير الله عز وجلّ وتقديره فيهم ، حتى صاروا إلى الخِلقة المحْكَمة ، والصورة المُعْجِبة ، ليس لهم فى شىء منها تلطُّفٌ يتيمَّمونه ، ولا مقصِدٌ يعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى ذِكْره « يَأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ » ثم ما يتفكَّرون فيه مِن خَلْق السموات ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخَّراتٍ ، على مَسيرٍ [لاَيثبُتُ العالَمُ إلا به] : من تصاريف الأزمنة التى بها صلاحُ الحَرْث والنَّسْل ، وإحياء الأرض ، ولِقاحُ النبات والأشجار ، وتعاوُرُ[2] الليل والنهار ، ومَرُّ الأيام والشهور والسنين التى تُحْصَى بها الأوقاتُ ، ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طَبَقات السَّقْف المرفوع ، والمِهادِ الموضوع ، [باختلاف] أجزائه والتئامها ، وخَرْقِ الأنهار ، وإرْساء الجبال ، ومن البيان الشاهِدِ على ما أخبر اللهُ عزّ وجل به من إنشائه الخلقَ ، وحدوثه بعد أن لم يكن ، مترَقِّيا فى النَّماء ، وثباتِهِ إلى أجَله فى البقاء ، ثم مَحَارِه[3] مُنقضِياً إلى غاية الفناء ، ولو لم يكن له مُفتتَحُ عَدَد ، ولا مُنقطع أَمَد ، ماازداد بِنُشوء ، ولا تَحَيُّفَه[4] [نُقْصانٌ] ولا تفاوُتٌ على الأزمان ، ثم ما يوجد عليه منفعتُه من ثبات بعضِه لبعض ، وقِوَامِ كل شىء منه بما

---

(١) تأتى للأمر : ترفق وأتاه من وجهه .

(٢) التعاور : التداول . (٣) المحار : الرجوع وفى الأصل « بحاره » .

(٤) تحيفه : تنقصه من حيفه ، والحيف ، كعنب جمع حيفة بالكسر : وهى الناحية .

يُسِّرَ له ، فى بدء استمداده ، إلى منتهى نَفادِه ، كما احتج الله عز وجل على خلقه فقال : « أَوَلاَ يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا » وقال عزّ وجلّ : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وكلُّ ما تقدَّم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته فى سَمواته التى بَنَى ، وأطباقِ الأرض التى دَحا[١] ، وآثار صُنعه فيما بَرَأَ وذَرأ[٢] ثابتٌ فى فِطَر العقول ، حتى يَسْتَجِرَّ أُولِى الزَّيْغ ما يُدْخِلُون على أنفسهم من الشُّبْهة فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد ، جَلَّ عما يُشْرِكون، ولولا توحُّدُه بالتدبير ، عن كل مُعِين وظَهِير[٣] ، لكان الشركاء جُدَرَاءَ أن تختَلِفَ بهم إرادتُهم [فيما يخلُقون] ولم يكن التخلُّف فيه من إثباته وإزالته ليخلوَ من أحد وجهيه ، وأيُّهما كان فيه فالعجزُ والنقصُ مما أتاهُ وَبَرَأه ، جَلَّ البديعُ خالقُ الخلقِ ومالكُ الأمر عن ذلك ، وتعالَى عُلُوًّا كبيرا ، كما قال سبحانه : « مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » ثم مِن عظيم نعمة الله عزّ وجل على خلقه افتقادُه[٤] إياهم ، ثم يسدِّدهم وَيدُلُّهم على منافعهم، ويجنِّبُهم مضارَّهم ، وَيَهديهم لما فيه صلاحهم ، ويرغِّبهم فى المحافظة على التمسُّك بدين الله عزّ وجل الذى جعله عِصْمَةً لهم ، وحاجزاً بينهم .

ولولا ما تقدَّم به من تلافِيهم[٥] واستدراكهم بفضل رحمته

---

(١) دحا الله الأرض يدحوها ويدحاها دحوا : بسطها .

(٢) برأ الله الخلق وذرأهم (كجعل فيهما) : خلقهم . (٣) الظهير : المعين .

(٤) أى تفقده ، وفى الأصل « بعاوه » . (٥) فى الأصل «تلافهم » .

لأُجْتاحهم[1] التَّلَفُ ، لِقُصُور معرفتهم عن التأتِّى لأقواتهم ومَعايشهم ، ولم يكونوا ليقتصروا على حظوظهم وأقسامهم عما بُنُوا عليه من الجَمْع والرغبة ، ولَتَهالَكُوا ببَغْىِ بعضهم على بعض ، وعُدْوان قويِّهم على ضعيفهم ، ولكنه بعد تعريفه إياهم مُلْكَ قدرته ، وجلالَةَ عِزَّته ، بعث إليهم أنبياءه ورسُلَه مبشِّرين ومنذرين بالآيات التى لاتنالها أيدى المخلوقين ، فرَضُوا بما قَسَطَ بينهم ، وارتدعوا عن التباغِى والتظالُم ، لِمَا وُعدوا من الثواب الجسيم ، وخُوِّفوا من العقاب الأليم ، ولم يكونوا لِيُطِيعوا أمراً لِآمِرٍ ، ولا نَهْياً لِناهٍ ، إلاّ بحُجَّة يتبيَّن بها [الحقُّ] لمَن خالفَه من المُبْطلين ، وتخويفٍ يتَّقُون به مُقارَفةَ[2] ما حُرِّ[م عليهم] ، ورجاءٍ يتجشمون له مَئونةَ ما تَعبَّدُوا به ، فافتتح الله عزّ وجل بأبيهم آدمَ عليه السلام ، فعلَّمه الأسماءَ كلَّها ، وأمر الملائكة بالسجود له كما اقتص فى وَحْيه المنزَل ـ وكرَّم ولده وفضَّلهم ، فقال جلَّ وعزّ : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً » وجعل ما فَطَرهم عليه من العطف على ذَرَارِيِّهم وأبنائهم سبباً لِمَا أراد من بقائهم وتناسُلهم ، وما اختصَّهم به من العلم والفهم حُجَّةً عليهم ، ليمتحنَ طاعتهم ، ويَبْلُوَهم[3] أيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .

ولم تَزَلْ رسُل الله عز وجل إلى خلقه تَتْرَى[4] بالنور الساطع ، والبرهان القاطع ، لا يجدون لما يُوردون عليهم من الحق القاهر مَرَدًّا ولا مَدْفعا ، لقول

---

(١) أى أهلكهم واستأصلهم .

(٢) قارف الذنب : اقترفه وأتاه . (٣) أى يختبرهم .

(٤) يقال : جاءوا تترى وبتون ، وأصله وترى : أى متواترين متتابعين .

الله عزّ وجل : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » فلم يجد المكذّبون مَسَاغًا[1] إلى دفع ما أقيم عليهم من لازِم الحجة إلا المعاندةَ والمجاحَدةَ ، وكان أنبياء الله صلوات الله عليهم يُبعثون فى أعصار الحِقَب[2] نُذُرًا للأمم ، حتّى ختَمَهُم الله عز وجل بالنبيّ الأُمّيّ محمد صلى الله عليه وسلم ، فبعثه فَرْدًا وحيدًا لا عاضِدَ له ولا رافِدَ[3] ، إلى قوم يعبدون أصنامًا بُكمًا ، وحِجارةً صُمًّا ، فكذّب به القومُ الذين بُعِث فيهم أولَ ما دعاهم ، ورامَهُ ملوكُ أقطار البلاد بتوجيه الأجناد ، ومُرافَدة القوة والعَتاد[4] ، وبغْيِ الغوائلَ ، ونُصبت له الحبائِلُ ، وهو يدعو إلى سبيل ربه بما أمره به إذ يقول تعالى : « أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ثم جاهَدَ بمن أطاعه مَن عصاه ، وبمن اتّبعه مَن خالَفه ، حتى أعزّ الله كلمتَه ، وأظهر دعوتَه ، وأكملَ لعباده دينَهم الذى ارتضى لهم ، فلما اختار الله له ما لديه ، واختصّه بما عنده ، من النعيم المقيم ، والجزاء الكريم ، بعد استقامة الدين ودخول الناس فيه أفواجا[5] ، خَلَفَه — إذ خَتَم به الأنبياء — بالبَرَرَة النجباء من أدانيه ولحمته[6] ، لإقامة الشرائع المفترَضة ، وإنفاذ حُكم الله المنزّل ، واقتفاء السُّنّة المأثورة ، وحِفظا له فى قرابته ومُجيبي دعوته ، وإتماما لِمَا أوجب له من

(١) أى مدخلا وطريقا .

(٢) الحقب جمع حقبة بالكسر، والحقبة من الدهر : مدة لاوقت لها .

(٣) الرافد : المعين الواصل . (٤) العتاد : العدة .

(٥) الأفواج جمع فوج بالفتح : وهو الجماعة . (٦) اللحمة : القرابة .

الفضيلة ، وقريب الوسيلة ، وإنجازاً لِما وعده من إظهار ما بعَثَه به ، من دينه الذي اصطفاه وارتضاه .

وكان اختيارُ أولى الفضل من لحمته وَعَصَبَته لإرْثِ خِلافته ، من عظيم الزُّلَف[1] التي رَغِب إلى الله فيها أنبياؤه ، فيما اقتَصَّ فى مُنْزَل وَحْيه[2] ، واختصَّ تبارك وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بما أمَرَه به من مسألةِ أمتِه تصييرَ مَوَدَّتِه فى القُرْبى ، جَزاءه مِمَّن تَبِعهُ على الرسالة ، وهَداه من الضلالة ، فكانت فضيلتهم عزيمة من الله عز وَجل ، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألزمَه تأديتَه إلى خلقه . وألزمهم أداءهُ ، فقال عز وجل : « قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى » ، ودلَّ بما أخبَرَ به وأظهرَه من تطهيره إياهم ، وإذهابه الرِّجْسَ[3] عنهم ، على اصطفائه لهم ، فقال تعالى : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » وكان مما أوجب لهم به حقَّ الوراثة فى مُحْكَم تنزيله قولُه تعالى « وأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ » ثم قَرَن طاعتَهم بطاعته فقال : « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » ، وأحَلَّهُمْ من النَّباهة والصِّيت ، بالمحلِّ الذى أعْلَى به أمْرَهم ، ورَفَعَ به ذِكْرَهم ، لِما أحبَّ من التبيين فى الدلالة عليهم ، والهداية إليهم ، فإنه يقول عزَّ وجل : « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » ، ولو كان الأئمةُ المقلَّدون أمرَ عبادِه

---

(١) الزلف جمع زلفة بالضم : وهى القربة ، وفى الأصل « ومن عظيم الزلف » وفيه أيضا « وبما اقتصّ » وهو تحريف .

(٢) يشير إلى قول زكريا عليه السلام « فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » .   (٣) الرجس : القذر ، والمأثم .

خاملةً أنسابُهم ، متقطعةً أسبابُهم ، غيرَ مخصوصين بفضيلةٍ يَرَونهم بها دُون غيرهِمْ ، لم تَعْدُ طَلِبتُهم وعَقْدُ الخلافةِ لهم ، أن تكون من مفتَرَضاته على كافّة الأمة ، أو على بعض دون بعض ، فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوى النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم ، فليس فى اجتماع آرائهم مع تفرُّقهم واختلافِهم طمعٌ آخِرَ أيامِ الدهر ، وَإن كان إلى خاصّة دون عامّة ، فستحتاجُ العامّةُ مِنْ طَلَبِ معرفةِ تلك الحال ، إلى مِثلِ مَا احتاجوا إليه فى أئمّتهم إذ لم يكن أهلُ الارتياب والطلب من أعلام الآفاق ، ليتواطئُوا على اتفاق ، لِنفادِ آجالهم قبل بلوغهم غايةَ الاجتهاد فى الفَحْص والتكشيف ، وحاجتهم إلى اختيار البُلْدان ، وتمحيصِ أُولى الفضائل بالامتحان ، وَمَا [هو] خافٍ عليهم من الشُّبَه فى اختيارهم ، والاختلافِ فيمن عَسَوا أن يَجْتبُوه[1] ويقدِّموه ، حتى تتهالَكَ الرعيةُ ، بتَظالُمِها بينها ، وَبطَرْقِ مَن يَليها من الأمم إياها إذ لا ذائدَ عنها ولا مُحَامِيَ ، فإذا ألزمَتِ الأمةَ الحاجةُ إلى نَصْبِ الحُكّام لإقامة الدين ، وتقسيطِ الحقوق بين المسلمين ، وَمجاهدةِ عدوِّهم من المشركين ، لم يكُن لهم فى الإمامة عليهم مجازٌ إلى التخلص إليهم ، ولا ريبَ عند المعرفة برأفة الله ورحمته ، ولُطفه وحكمه ، فى دَفْعِهِ عن عباده مالم يجعل فى حيلتهم له وُسْعا ، ولا فى حِيلتهم له دَرْكا ، وكِفايته إياهم مايُعْجِزُهم منَ البحثِ والتنقيب عن ولاة أمرهم ، بنَصْبِه إياهم ، وما رَفعهم إليه من الدرجة التى أَعلاها وأسناها[2] ، إذ وَصَل نسَبَهُم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافترَضَ مودَّتهم على خَلْقه ،

---

(١) اجتباه : اختاره . (٢) أى رفعها وأعلاها .

ولم يَشْنَهُم[1] جهلُهم للغرض الذى ألزمَهم له ، ولم يجب عليهم فرضٌ فى معرفة مَن سواهم ، ولم يزلْ سِياقُ أئمةِ الهدى مُطَّرِدا ، ونظامُهم متَّصلا ، يتلقاه كابِرٌ عن كابر ، وَيؤدِّيه أوّلٌ إلى آخرٍ ، حتى تناهَى إلى أمير المؤمنين ، وهو حالٌّ دارَ دَعْوتِه ، وَبين أنصاره مِن أهل خُراسان ، فنظرَ به خيرَهم ، وعرَفوا ما تصرَّفَتْ به أحوالُهم ، وَظهر لهم مِن بيان حُجَّته على مَن نازَعهُ فى الأمر ، وشاهَدوا من إبلاغه فى العُذْر ، واستظهارِه بالتأنِّى والصبر ، ما أزاحَ عنهم الشُّبْهةَ ، وكَشَط[2] الحَيْرَةَ ، حتى استراثوا[3] نهوضَه بحقه ، وخافوا الزَّيغَ على أديانِهم فيما أعطوه من صَفْقَةِ أيمانهم ، وهو ماضٍ على عادته ، مستديمٌ للمُوادَعة ، متلوِّمٌ[4] على المراجَعَة ، بالغٌ غايةَ ما وَسِعَه من الرُّخْصة فى دفع الولاية التى نَهْنَهَ[5] بها الرعيةَ ، حتى ضاق عليه فى دينه تركُ القيامِ بما أنهضه اللهُ به من ثِقْلها ، وقلّدَه مِن حِمْلها ، وخان المخلوعُ فابتغاه بالشِّرَّة والعِزَّة ، فتناول أولياءُ الحق باغياً طاغِياً ، لِما أراد الله من تأييدهم[6] عليه بالبيان والحُجَّة التى وجبَ[7] لها قلبُه ، وفُتَّ بها فى عَضُده[8] وقَبِل الله ما أيّدكم به[9] من النصر والغَلَبة فيه التى جعلها الله للمتقين ، فاجتمعَ لكم معشرَ أهلِ

---

(١) فى الأصل « يسفهم » وربما كان « يسفههم » .

(٢) أى كشف ، وبابه ضرب .

(٣) استراثه : استبطأه ، وفى الأصل « استرالوا » وهو تحريف .

(٤) تلوّم فى الأمر : تمكث وانتظر .

(٥) نهنه : كفه وزجره .

(٦) فى الأصل « مادبهم » .

(٧) أى اضطرب وخفق .

(٨) فتّ فى عضده : أضعفه .

(٩) فى الأصل « وقبل ما أر .... كم به من النصر » وقد أصلحته كما ترى .

خراسان فى دولة أمير المؤمنين ثلاثُ خِلال اختصّكم الله بفضيلتها ، وسَنِيّ[1] مراتبها ، دون ثلاثٍ شمِلَتْكم وغيرَكم : أمّا الأُولى من اللواتى خصّكم الله بهن ، فما تقدَّم لأسلافكم من نصرة أهل بيت [النبى] وخاتم ميراثه من آباء أمير المؤمنين . وأمّا الثانيةُ فما آثرَكم الله به من نُصْرَته فى دعوته الثانية . وأما الثالثة فما تقدَّمتم به من صحة ضمائركم ، ومَحْضِ[2] مناصحتكم . وأما الثلاث اللواتى هن لكم ولغيركم :

فمنهن : ما أكَّد الله لأمير المؤمنين فى أعناق المسلمين ، من العهد الذى أخذ إصْرَه[3] ، وألهمَهم الوفاء به ، والتمسُّكَ بوثائق عِصْمته ، عند محاولة المخلوع ما حاول من الإعلان بالرِّدَّة ، والتَمَسَ من تبديل مَعَالِم الدين وتعفيةِ آثاره ، فلم يُلْفِ الرَّعيةَ سُدًى مهملين ، لاجامعَ لأمرهم ، ولا ضَامَّ لنَشْرِهم.

ومنهُن : ما أفادكم الله وإياهم من العِبَر ، عند حلول الغِيَر[4] ، بمن غَدَر وخَتَر[5] ، تذكِرَةً لأُولِى النُّهى ، وحُجَّةً بالغةً على مَن أدْبَر وتَولَّى ، لِيَهتدىَ مُتحيّرٌ ، وَيتّعظ مُزْدجِر « وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ » .

ومنهن : اجتماعُ أهل الفضل من المسلمين مِمَّن لم يكن له نصرٌ وَلا أزْر[6] فى الدعوة الأولى ، على المشايَعة فى الدعوة الثانية ، فأصبح دُعاةُ أمير المؤمنين من أهل الحَرَمَيْن وَالمِصْرَيْن[7] وَمدينة السلام وَالمَشرقِ وَالمَغرب ،

(١) أى رفيع . (٢) أى خالص . (٣) الإصر : العهد .
(٤) غير الدهر : أحداثه المغيرة .
(٥) الختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر ، وفعله كضرب ونصر .
(٦) الأزر . التقوية .
(٧) الحرمان : مكة والمدينة ، والمصران : الكوفة والبصرة .

ممّن غَار وأنجَدَ(١) من المتمسّكين بذمّهم ، الموفين بنُذورهم ، من إخوانكم ، وَإن كَانَ الله قد قدّمكم فى الأمْرَين جميعا بتفوّق حالكم على غيركم ـ يعتدُّون من مُعاضَدَتكم وَمكانَفتكم(٢) بما جعله الله عز وَجَل أُلفةً لكم ، وَمَودّةً بينكم ، يُبيدُ بها ما كان الشيطان ينْزَغ(٣) به بيْن أهل التباعُدِ فى الأنساب ، وَالتنائى فى الأوطان ، مِن إيقاعِ العَداوَة وَالبَغْضاء ، والانطواء عَلَى الأحقاد وَالدِّمَن(٤) ، وَطَلب تقديم الإحَن(٥) ، وَصار أهل السموّ إلى الدرجة العليا ، وَالاُعتصام بالعُرْوَة الوُثقَى ، من أولياء أمير المؤمنين وشيعَتِه ، مُنشرحةً صدورهم بمكَانفَته ، مُنبسِطة أيديهم بمعاوَنَته على حقه ، منفسِحَةً آمَالُهم فى إذكاء(٦) ناره على عدوه والإثخانِ فى بلاده وافتتاح مُمتنِع حُصُونه ، بما جَمعهُم الله عليه من الأُلفة ، وَرَفَع عنهم من الحَمِيَّة(٧) والعَصبيَّة ، راجين عودتَهم إلى أحسن مَا مَضى عليه سَلَفُهم ، فى عهد نبيه صلى الله عليه وسلم ، من سَلاَمَة الصدور ، وصلاَحِ ذات البَيْن ، وَاجتماعِ القُوى على مجاهدة من شَاقَّهم(٨) ، قد أفرخ الله عنهم نَغَر(٩) التجارُب والتجاذُب ، وجعل ما كَان يسعَى به بعضُهم من الإعداد لبعض ،

---

(١) غار : أتى الغور بالفتح ، وهو المنخفض من الأرض ، وأنجد : أتى النجد ، وهو المرتفع منها .

(٢) المكانفة : المعاونة والمؤازرة .

(٣) نزغ الشيطان بينهم كمع : أفسد وأغرى ووسوس .

(٤) الدمن جمع دمنة بالكسر : وهى الحقد القديم .

(٥) الإحن : جمع إحنة بالكسر ، وهى الحقد أيضا .

(٦) أذكى النار : أشعلها ، وأثخن فى العدوّ : بالغ الجراحة فيهم .

(٧) الحمية : الأنفة . (٨) شاقه : خالفه وعاداه .

(٩) أفرخ : أى سكن وهدأ ، ونغر عليه كفرح وضرب ومنع نغرا ونغرانا محركتين : غلى جوفه من الغضب والغيظ ، وهو من نغرت القدر . إذا غات وفارت ، وفى الأصل الأول « قد أفرد الله عنهم نفرة التحارب » والمعنى عليه صحيح .

زِيادةً فى رِيحهم [١] ، وَحَدًّا فى شوكتهم ، لائتلافهم فى دولة أمير المؤمنين المجدودة [٢] المؤيَّدَة بصدق الضمائر ، ونَفاذ البصائر ، وَإلى الله يرغبُ أمير المؤمنين فى إعانته على صَالِح نيته ، وتبليغِه مُنتهى سُؤْلِه ، وغايةَ همته ، فى إعزاز دينه ، وإذلالِ من صَدَّ عن سبيله ، إنه سميع قريب .

وَمن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تذكُّرُ ما كانت عليه الحالُ قبلَها ، فاستديموا الإفاضةَ فيما رَفَعَ اللهُ من خَساستكم ، وأعلَى من أقداركم ، بنُصْرَة أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وما أبْلاكم اللهُ فى الدعوة الأولى . ممَّا لا يؤدَّى حقُّه إلا بعَوْن الله وتوفيقه ، فإنه ارتاح لهم [٣] بلطفه وتوْفيقه ، فأنالَهم رَغائِبَ الأقسام ، وَسَنِيَّ الحُظُوَات ، ورَفَعَ دَرَجَهم وَدَرَج خُلُوفِهم وأعقابِهم من بعدهم ، بعد إذ هم مُستَضْعَفون يخافون أن يتخطَّفهم الناس ، مُذْعِنُون بقَهْر عدوهم واستِئثارِه عليهم ، ثم لم يلبَثوا أنْ صاروا إلى الحال التى يَرَوْنهم بها من الغِبْطَة والبَهْجة ، إلا أنهم أخذوها بحقِّها ، وكانت فى أيدى الظَّلَمَة من أهل بيت اللَّعْنةِ وأتباعهم ، بخُلْسَة الباطل ، وَمِحْنة الابتلاء « وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إنَّ اللهَ قَوِىٌّ عزِيزٌ » .

وليس أحدٌ منكم بخارج من المِحْنة بما أُلْبِس من النعمة ، وإن كنتم أهلَها الآخِذين لها بحقها ، بل الذى يلزمُكمْ استدامتُها والقيامُ بحِفظها ، على حَسَب ما أولاكم اللهُ منها ، فربما كان الذى يُعْقِبُ أهلَها من الغَفلةِ

---

(١) الريح : القوة . (٢) المجدود : العظيم الجد بالفتح ، وهو الحظ .
(٣) أى لأهل بيت نبيه ، وارتاح الله له برحمته : أنقذه من البلية .

والأغترار ، ويُلهيهم بها من حُبُورها[١] وسرورها ، أعظمَ إثماً وحُوباً[٢] مما يُخافُ على أهلِ البَطالة والضُرّ ، مِن ضعف العزم ، وقلة الصبر ، لِما يستولى عليهم من استكانة الذِّلَّة ، والاعتراف بالتقصير ، والفزَع إلى ربهم فى تنفيس كُرَبهم ، فإنه تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : « وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » فحاجتُكم — إذ أنجحَ اللهُ سَعْيَكم ، وأظفرَكم بطَلِبتكم — إلى حِياطة ما أودعَكم اللهُ من مِننه ، وحِراسةِ ما آتاكم من فضله بالشكر المُمْتَرِى[٣] للمَزيد .

فتعهّدوا — معشرَ شيعة أمير المؤمنين — أنفسَكم بتذكُّر ما سهَّل اللهُ لكم من الحُزُونة[٤] ، وذلَّلَ لكم من الصُّعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مُرّاق[٥] المِلّة ، ومُخالِفى أهل القِبلة ، وأباحكم من ديارهم وأموالهم ، فأصبحتم — بمَنِّ الله عليكم — حُماةَ الدين ، وأنصارَ الأئمة الراشدين ، وحُصُونَ كافّةِ المسلمين ، بعدما اجتثَّ[٦] اللهُ بكم قُرونَ النفاق ، وأبارَ بكم صَنادِيدَ الضَّلالة ، وشرَّد بمَن لم تستحِلْه سيُوفكم ، وأضرَع[٧] إليكم مَن أذعَنَ واستسلمَ ، وقد استشرفَكم[٨] — معشرَ شيعةِ أمير المؤمنين — أهلُ الشَّنَآن ، ولاحظُوكم بأعيُن الحَسَد والمنافسة ، فبَيْنَ ذلك مُجْهِر مُعالِن[٩] ، ومُسْتَسِرٌّ مُداهِن ،

(١) الحبور : السرور . (٢) الحوب : الإثم .
(٣) أى المستوجب . يقال : امترى الشىء : أى استخرجه ، والريح تمترى السحاب : أى تستخرجه وتستدرّه . (٤) حزن المكان ككرم حزونة : غلظ ، فهو حزن كضخم .
(٥) مرّاق الملة : الخارجون عنها ، جمع مارق .
(٦) اجتثه : قطعه . (٧) أضرع : أذل .
(٨) استشرفه : رفع بصره إليه ، والشنآن : البغض والكراهية .
(٩) جهر الكلام كمنع ، وبه ، وأجهر : أعلن به ، وأعلن الأمر ، وبه : أظهره ، وعالنه : أعلن إليه الأمر ، واستسرّ : استتر .

وداخِلٌ فى عِدادكم ، ووالِجٌ فى سَوادِكم[1] ، يرى أمْنَه بين ظهوركم ، فَطَعْنُه عليكم فى دولتكم بريبة التمويه ، وخُدَع التشبيه ، أيسرُ عليه كُلْفَةً ، وأعظمُ فيكم جَرْحاً ونِكايةً ، فتوقَّوْا هذه الطبقةَ أشدَّ التوقِّى ، فإن أكثَرَ مَن يلجأ إلى استباحة الحِيلة ، مَن عَجَزَ عن المُباداةِ[2] والإصحار ، وعند ظهور الحازم وغَلَبَتِه يحترز من لطيف الخُدَع ، وَخَفِىِّ الاستدراج .

واحذَروا — معشَرَ شيعة أمير المؤمنين — من استمهال الطَّاءة[3] ، والركونِ إلى رَاحَةِ الدَّعة ، ما قد رأيتم وبَالَه عادَ على أهله ، وأورثتْهم عواقِبُه طولَ الندم والحَسْرة ، فإنكم قد كنتم فى حال المراقبة لِعدوِّكم ، والخوف لِبائقتِه[4] ، متيقِّظين مُتَحَفِّظين لما كان يرومُكم به مِن خَتْله[5] وحِيله ، ثم أفضيتم إلى الحجِّ ، وقد جَهَدَكم السعىُ ، ومسَّكم النَّصَبُ ، وسيُلْقِى الشيطانُ فى أمانيِّكم أنْ قد اكتفيتم بسالِفِ ما قاسيتم ، ويَجِد من ضعف العزائم مُعِيناً داعياً إلى اغتنام الخَفْضِ ، والإخلادِ إلى الأرض ، مالم تعتصموا بما عاينتم من الاعتبار ، وتمثِلوا مواضِىَ الآثار فيمن سَلَف من القرون الخالية ، وما أفضَتْ به إليه الغِرَّةُ من زوال النعم ، ووقوع الغِيَر ، فإن جميع ما خوَّلكم اللهُ وأفادكم مُرتَهَنٌ بما ألزمكم من حِياطته واستنمائه ، فقد وجَبَتْ عليكم الحُجَّةُ بما حضَّكم الله عليه ، وعظُمَت عليكم المِنَّةُ بما هداكم إليه ، وأراكم من آياته

---

(١) الوالج . الداخل ، وسواد الأمة : عامتها .

(٢) بادى بالعداوة : جاهر بها ، وأصحر : برز وانكشف — وأصله : خرج إلى الصحراء .

(٣) الطاءة : الإبعاد فى المرعى .

(٤) البائقة : الداهية . (٥) الختل : الخداع .

ومَثُلاته[1] فيمن خَلاَ قبلكم ، ما فيه أبلغُ الإعذار والإنذار لكم ، ومن اجتمع له اقتناء صواب مَن تقدّمه ، إلى ما ينبعِثُ مِن نفسِه ، فكأنّه قد اختبَرَ بالتجربة ، مع استمداده بما يستفيد ويستزيد ما يفتح لُبَّه ورأيَه ، وأيْقِنوا أنكم لن تصلوا إلى مَن سِواكم ، ممن هو أعسَرُ طاعةً عليكم ، وأعذرُ بمعصيتكم ، حتى تبدءوا باستصلاح أنفُسِكم . وأنه لن يُرْجَى لكم القوةُ على مجاهدة عدوكم ، حتى تقوَوْا على مجاهدة أهوائكم ، فإن على كل امرئٍ ريبةً من أمره ، وغِطاءً من غَيْبه ، لا يَكشِفُه إلا صحةُ المعرفة ، والإذعانُ بالنَّصَفَة[2] ، فهناك يؤمَن عليه الجهلُ والمعانَدةُ ، وإذا أُمِنَت هاتان الخَلّتان أُنْسِدَّت بإذن الله ثُلَمُ الآفاتِ ، وفُتُوقُ المكارِه ، فإنه لا يُخاف الضلال على مَن اهتدى . ولا اعتمادُ الجَوْرِ على مَن انتصف مِن هوًى .

وليكن أولَ ما تتعهَّدون به أنفسَكم ، وتثابرون عليه من صالح أدبكم ، تناصُفُ الحقِّ بينكم ، بتقديم أهلِ الفضائل والآثار المحمودة منكم ، وتفخيم أمرهم ، فقد علِمْتم أن منكم المبرِّز[3] الفائتَ الذى لا يُدْرَك شأْوُه ، ولا يُوازَى بلاؤُه ، حين كَشفَ الإبلاءُ ضمائرَ القلوب ، وجَلاَ مُشْتَبِهاتِ الظّنون ، فصَرَّح بالمحاربة بعد التقدُّم فى الحجّة ، ووفاءٍ بمؤَكَّد العهد ، وركوبًا منه لِهائلِ الخَطَر ، غيرَ هائبٍ مع صحبة الحق ، ما بَرَقَ لديه الناكثُ المخلوعُ وَرَعَدَ ، ولا مُسْتَوْحِشٍ فيما تفرَّد به إلى مَن تولّى وأدبَر ، حتى أتى الغايةَ

---

(١) العرب تقول للعقوبة مثلة بفتح فضم ، ومثلة بضم فسكون ، فمن قال الأولى جمعها على مثلات بفتح فضم أيضا ، ومن قال الثانية جمعها على مثلات بضم الأول وضم الثانى وفتحه وسكونه ، قال تعالى : « وقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلَاتُ »

(٢) النصفة : الإنصاف . (٣) برّز : فاق أصحابه ، والشأو : الغاية .

التى أُجْرِىَ إليها فى الله عزّ وجل ، وخليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المشايعة والمكاتفة والنُّصْرة والحظّ الجزيل والأثر المبين ، ثوابهم واجبٌ ، وحقهم لازمٌ ، ثم منكم مَن يُحْفَظ لِسَلَفِهِ وأوّلِه من الآباء الذين يحفظون ولايتهم ، فإن الله عز وجل يقول فى ذكر اليتيمين : « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » وقال على لسان يعقوب لابنه يوسف « وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

وأميرُ المؤمنين يرى توريثَ الحِكمة والذِّمام[1] سُنَّةً عليه فى أخلاقه التى يَرْعاها ويحافظ عليها ، كما أنه يرى وِراثةَ التَّرِكة فريضةً واجبة ، فيَخْلُفُ السَّلَفَ الصالح عنده فى المزيّة والفضل مَن يَتْلُوْن به من أهل الغَناء[2] بأنفسهم ، ثم يتلوهم مَنِ اقتدَى بهم واهتدى بهديهم ، والسابقُ المتقدِّمُ مَن اعتدَّ ببلاء نفسه إلى بلاء سَلَفِهِ ، ثم يتبعه بعدُ المُبْلِي بنفسه ، ثم يتلوهما المتوسّلُ بآبائِه ، ثم الصاعِدُ به هواه ورأيُه ، طبقةً فطبقةً ، فليَقْصُرْ كلُّ امرئٍ منكم على المرتبة التى أحلَّه بها سعيُه ، وليَسْلُكْ إلى الازدياد فيها

(١) الذمام : الحق والحرمة . (٢) الغناء : الكفاية ، وفى الأصل « فيخاف السلف الصالح عنده من المزية والفضل مايتلون به أهل الغناء بأنفسهم » وأراه محرفا .

بالزيادة من نفسه ، فإن من الفُتُوق العظيمة عَلَى أهل الدول ما يَنزغُ به الشيطانُ بينهم ، ويكثُر عندهم ما يكون منه ، فيوافقُ من الحَيْف للأنفس ما يجد به مَسَاغا إلى ما يَرُوم من إيقاع الشَّحناء بينهم ، وتثبيتِ الإِحَنِ فى صدورهم ، بعد التآزُر والتناصُر ، ومتى يَجمع المرءُ لمَزيَّةِ مَن فوقَه واغتباطِ من دُونَه ، كُفِيَ ما تَرَك ، ولن تخلُصَ نيَّاتكم ، وتسلَمَ ضمائرُكم حتى تَمْحَضُوا(١) شكرَ ما أُوليه إخوانُكم ، وتعتدُّوا ما نالهم شامِلا لكم ، وتُجانبوا طَريقةَ مَن اقتصر بأُمْنِيَّته عَلَى خاصَّته ، وتَعتَّبَ فيما أُوثِرَ به أهلُ الفضل دُونه ، وكَفَى عِظَةً فيما نهاكم الله عنه من ذلك ، يقول الله عز وجل : « وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا ٱللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً » ولا يلتمسَنَّ أحدٌ مودَّتَه عَنْ سُوء نيَّة بحُسْن مُدَاراةٍ فى ظاهرٍ ، فإنَّ الله مقلِّدٌ كلَّ امرِئٍ رِبْقَةَ(٢) عمله ، وَمُطوِّقُه طوقَ سريرته ، ولا يغدِرَنَّ فيما يَلْزمه لإمامه ، فإنه إنما يَغدِرُ فى حَظِّه ، وَيَبْخَسُ قَسْمَه ، وَيَنْحَسُ(٣) نفسَه ، ثم لا يقتصرَنَّ عَلَى استصلاحها حتى يتناولَ مَن كانت مِنَّتُه عليه من أقرَبيه وحَشْويَّه(٤) ، فإنَّ يَسيرَ ما هو مُعانٍ من تأدِيتهم ، لا ينشَبُ أن يتجاوز

(١) محضه كنع وأمحضه : أخلصه .

(٢) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرى يشدّ به البهم ، كل عروة ربقة .

(٣) نحسها (كنع) : عناها وأشقاها .

(٤) نسبة إلى حشو، ومعناها الحاشية والأتباع، وقد تقدم فى رسالة يحيى بن زياد الحارثى ص ٢٤٥ « وأما الحشو من الجند والرعاع .... » وجاء أيضا فى رسالة الجاحظ فى مدح التجارة وذم عمل السلطان فى كتاب الفصول المختارة من كتب الجاحظ (هامش الكامل للمبرد ٢ : ٢٤٧) : « وهذا الكلام

أدْنى المراتب إلى أقاصيها ، وقريبَها إلى مُتناهِيها ، حتى يستفيضَ شامِلا عامًّا ، بعد أن بدا مَحَلَّلاً[١] خاصًّا

واعلموا أن أمير المؤمنين متفقّدٌ من تثقيفكم وتقويمكم على صالِح الأدب، ومحمودِ السِّيرة ، ما لا يَتفقّد به من سِواكم ؛ فإنه إن كان يوجِبُ على نفسه استصلاحَ الرعية ، وحَمْلَهم على ما فيه رُشْدُهم وقِوامُهم ، لِما يلزَمُهُ من فضل العناية بالأخصِّ والأوْلَى فالأوْلى ، فإن فى إخلائكم من التقديم فى التأديب والتعهُّدِ وُجوها من الضرر ، منها : أنكم أوْلى بحسن الطاعة وسرعة الإجابة ، لِلُطْف محلِّكُم ، وقُرْبِ مكانكُم عند أمير المؤمنين ، ومنها : أنكم يأنَسُ بكم المُؤْتَمّون ، ويقتدى بكم التابعون ، فمتى قصَّرتم وأَخْلَلْتم ، اقتفَى أثرَكم مَن نُصِبْتُم له أعلاما ، ثم لم يكن لكم أن تَزْرُوا[٢] عليه ، ولا أن تأخذوا فوق يده ، بل كان قَمِينًا[٣] أن يكون يَسُومكم الرِّضا بمثل ما سُمْتُموه ، ثم تجرى هذه العادة فى الطَّبَقات ، حتى يطَّرِدَ السِّيَاقُ ، إلى أن يستفيض الفسادُ فى حَشْو الناس وعامّتهم ، فلا تُغْنِى قوةٌ ولا حزْمٌ ولا شِدَّة إلا العجزَ والإضاعة ، ثم يجد الأعداء مَساغا إلى الطعن والعيب ، فلا يملكون أن يُرْهِقوكم[٤] ، ويستولى عليكم الفشلُ ، فإن الأيدى إنما تُبْسَط بنَفاذ العزائم ، والعزائم إنما تَنْفُذ بثبات الحجَّة ، والحجة إنما تثبت إذا كانت عن الحق ،

لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان ، فأما عليتهم ومصاصهم وذوو البصائر والتمييز منهم ...»

(١) أى ذا محل محدود خاص .

(٢) زرى عليه كرمى : عابه ، كأزرى ، لكنه قليل .

(٣) أى جديرا وخليقا، وسامه الأمر : كلفه إياه ، وفى الأصل « بمثل ماسمتموه» وهو تحريف

(٤) أرهقه : حمله على ما لا يطيق .

وإذا أُضيع أوَّلُ هذه الرسوم التى رَسَم لـكُم أميرُ المؤمنين تَبِعَتْه توَالِيه ، وشفَعَتْه لوَاحِقُه ، ووجَد العدوُّ الملاحِظُ مكانَ العَوْرَةِ ، مَطْمَعاً فى إهمال ما كان يُعِدُّ له من الغِرّة ، ويتوفّق به من مُناهَزَةِ الفُرْصة .

وليكن ما تُفِيضون فيه وتَعُدُّونه ظهيرًا على طاعنٍ إن طعَنَ فى دولتكم ، ما ألهَم اللهُ أميرَ المؤمنين من شمولِ رعيّته بالعدل ، وفَرْشِ[1] الأمرِ فى مُضْمَراتها ومُنقلَبِها ، ورفَع به عنهم من سَيْرِ الجود[2] ، وبسَطَ به يده من إثابة أهل البلاء ، وتَغَمُّد[3] الجرائم لأُولى الزَّلَل ، والإبلاغ فى دعاء من عانَدَ وشاقَّ إلى التوبة والإنابة ، وإقالةِ العَثْرَة بعد القدرة ، والحَقْن لمُباح الدماء ، فلم تعلموه صَبَرَ مُحِلًّا[4] ، ولا هتَكَ لأحدٍ ممن أظفره الله به سِترًا ، ولا وَقَفَه على عَوْرة ، ثم تولّى اللهُ أميرَ المؤمنين فى حروبه شرقا وغربا ، التى أغناه الله عن الإطناب فى وصف صُنْع الله لـكم فيها : لاستفاضةِ أخبارِها فى دَهْمائكم[5] ، مع ما أحبّ من مطالعته إياكم ببالغ أدَبه ، وشافِى عَطفِه ، أن يتنكّب[6] عن الإسهاب ، فى غير ما صَمَد[7] له ، ورأى من تقريعِ أسماعِكم وأذهانكم ، لوعَىِ ما التمس أن تعوه ، من تبصيركم حظَّكم ، وتنبيهكم على رشدكم ، وحَسْبُ أميرِ المؤمنين فى نفسه وفيكم اللهُ ، وكفى به مُبينًا .

(١) فرشه أمرا : أوسعه إياه .
(٢) أى من الجود السائر الشامل . (٣) تغمده : ستره .
(٤) صبر الإنسان على القتل : أن يحبس ويرمى حتى يموت ، وقد قتله صبرا وصبره عليه ، والمحل الخارج من الميثاق والبيعة — انظر شرحه بتوسع فى الجزء الأول ص ٤٥٧ — وفى الأصل « مخلا » وهو تحريف .
(٥) الدهماء : جماعة الناس . (٦) تنكب عنه : عدل .
(٧) صمد كنصر : قصد .

وإن أمير المؤمنين ـ مع ما تقدَّم به إليكم ـ لَعَلَى ثقةٍ من حِياطة الله خِلافَتَه التى جعَلَها عِزّا لدينه ، وقِوامًا لخَلْقه ، وأنه ليس بها ممن أدبَرَ عن حقها اختلالٌ ، بل مَن خلَعَ رِبقَتَها وأضاعَ حظَّه منها ، جَلَبَ الخَلّة[1] والحاجة وخُسرانَ الدنيا والآخرة ، وإنما أُتِىَ المقصِّرون فى إعظام حقها ، من ضعف الرويَّة عن بلوغ ما تُفْضِى بهم إليه مصادرُ العواقب ، وتؤدِّيهم إليه رواجِعُ ماقدَّموا ، فلا يكونون بعملهم مُتجاوزين لهِمَمِهم ـ وفيهم الذى هم فيه ـ إلى ما يمنعهم[2] .

واستدِيموا مَعشَرَ المسلمينَ سابغَ النعمة ، بحَمْدِ مُوليها والمتطوِّلِ بها ، وقد تَرَون ما كنتم فيه قبلها ، وما آلَتْ إليه حالُ مَن سُلِبَهَا ، ثم يُعْقِبُ الندامةَ حين لامُسْتَعْتَب[3] ولا نَظِرَة يُمكن فيها استقالةُ الفارِط بتقصيرٍ ولا هفوة زلل ، وثِقوا من رعاية أمير المؤمنين محمودَ آثاركم ، وما مضى مِنْ بلاء كلِّ امرئ منكم ، بما تطمئنون إليه ، وتتوقعون عادته ، بأسْنَى ماترتفع إليه آمالُكم ، وتسمُو إليه هِمَمُكم ، إلى مايدَّخِر الله لمن تمسَّك بهداه ، واعتصَم بتقواه ، وجاهَد عن حقه ، وافيا بأمر عهده ، مِن جزيلِ ثوابه ، وكريم مآبه ، إلى الدار التى هى أكبرُ درَجاتٍ وأكبرُ تَفْضِيلاً .

أحَبَّ أمير المؤمنين أن يتعهَّد كم بعِظة تنبِّهكم على حظِّكم ، وتُثَبِّتُ من بصائركم ، وتقطَع من طمع الشيطان وحِزْبِهِ فيكم ، لِما يجب عليه

---

(١) الخلة : الفاقة والحاجة .

(٢) فى الأصل « فلا يكون عملهم غير متجاوزين بهممهم وفيهم الذى هم فيه إلى مايمنعه » والعبارة كما ترى مضطربة .

(٣) أى استعتاب ، واستعتبه : طلب اليه العتبى، وهى الصفح والرضا . والنظرة : التأخير .

إرشادكم، ويرجو من تأدية حق من الله عز وجل فيكم ، ولِما يَرَى من اتصالكم بِحَبْله ، ومايشمَله من الصنيع فيما ولاَّكم الله به ، وتولاه لكم .

وأميرُ المؤمنين يسأل اللهَ الذى دَلَّ على الدعاء تَطَوُّلا ، وتكفلَ بالإجابة حَتْماً ، فقال عزوجل: «ادْعُونِى أسْتَجِبْ لَكُمْ» أن يجمع على رضاه أُلْفَتَكم ، وأن يصلَ على الطاعة حبلَكم ، وأن يَمتِّعكم بأحْسَنِ ما أودَعَكُم من مِنَنه ، وَيُوزِعَكُمْ[1] عليها من شكره ، مايواصل لكم مَزيدَه ، وأن يكفيَكم كيدَ الكافرين ، وَحَسَدَ الباغين ، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم بأفضل ماحُفِظ به « إمامُ هُدًى » فى أوليائه وشيعته ، ويَحمِل عنه ثِقْلَ ماحُمِّلَه منكم .

وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوِى من جزائكم بالحُسْنى ، وحَمْلِكم على الطريقة المُثْلى ، وبه يرضى ناصرا ووَليًّا ، وكفى بالله وليا ، وكفى بالله نصيرا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

(المنظوم والمنثور ١٢ : ١٧٣)

٢٠٨ — تحميد لأحمد بن يوسف إلى الولاة عن الخليفة

« أما بعد ، فالحمدُ لله ذى المِنَن الظاهرة والحُجَج القاهرة ، الذى قَطَعَ بينه وبين عباده المَعْذِرَةَ ، وَرادَف عليهم البيِّنة ، وَمُهْلَةَ النَّظِرة[2] ، وجعل ما آتاهم من حظوظ الدنيا بالقَسْم والمكتوب ، وما ذَخَرَ لهم من ثواب الآخرة بالنُّجح المطلوب ، فهم فى العاجلة شُركاء فى النعمة ، وفى الآجلة

---

(١) أى يلهمكم .
(٢) النظرة : التأخير.

شتَّى فى الرحمة يختص بها أهلَها المنتفعين بما ضَرَبَ لهم من الأمثال ، وتصريفِ الحال بعد الحال ، المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مُدَدِ آجالهم ، قبل حلول ما يُتَوَقَّع ، وفوْتِ مالا يُرْتَجَع » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٩)

٢٠٩ — تحميد لأحمد بن يوسف

ولأحمد بن يوسف عن ذى الرياستين إلى إبراهيم بن إسمٰعيل بن داود صَدْرَ فتح :

« أما بعدُ ، فالحمد لله الذى حفِظ من دينه ما ضَيَّع المُلْحِدون ، وَرَأَبَ[1] منهُ ما [ثلَمَتْه] الصَّدَعَةُ ، وأعاد من حَبْله[2] ماحاولوا نَقْضَه ، حتى أعاد لعباده أحْسَنَ أُلْفَتِهم ، وَردَّ إليهم أجمَلَ عَوْدِهم ، من الاستِشْلاء[3] بعد التردِّى فى قُحَم المَعاطِب . والاستنقاذِ بعد التوريط فى المَهالِك ، وبلَّغ خليفتَه القائمَ بحقّه ، المُؤتَمَّ بكتابه ، الذائدَ[4] عن حَرِيم الدين ، ومِيراثِ النبيين ، أجزَلَ مَا بلَّغ الخلفاءَ الراشدين المَهديِّين ، من إعلاء الكَلمة ، وغلَبة الأعداء ، والفوز بالعاقبة التى وَعَدَها المتقين ، وفرَّغه لما أُشْعِرَ قلبَه ، وشَرَح له صدرَه ، من إمضاء حُكم الفرائض الموجَبة ، واقتفاء السُّنَن الهادية ، حيث سلَك به من المناهج ، حَمْدا يُوَازى نعَمهُ ، ويَبلغ أداءَ شكره ، وَيُوجِبُ مزيدَه .

---

(١) رأبه : أصلحه ، وما بين القوسين بياض بالأصل ولعله ثلمته كما أثبتنا ، والصدعة جمع صادع ، من صدعه: إذا شقه .

(٢) المراد به الدين .

(٣) استشلاه : استنقذه من الهلكة ، والقحم جمع قحمة بالضم : وهى الاقتحام فى الشىء والمهلكة

(٤) أى الدافع .

والحمد لله على ما خصّنا به من إعلاء الدرجة ، وإسناء[1] الرّتبة ، فى مشايعة أمير المؤمنين ـ أيّده الله ـ والمجاهدة عن حقه ، والوفاء لله بما عقَدهُ له ، لا نُريد بما كان منا إلاّ وجهه ، ولا نسعَى فيه إلا لرضاه ، حمداً لا يُحْصَى عددُه ، ولا ينْقطِع أمَدُه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٤)

٢١٠ — تحميد لأحمد بن يوسف فى فتح السند

« الحمد لله ولىّ الحمدِ ، وأهلِ الثناء والمجد ، خالقِ الخلق ومُدبّرِ الأمر ، المُسْبِغ[2] على عباده ، والموجب عليهم حُجّته ، فليسوا يرجُون إلاّ سَعةَ فضلِه ، ولا يحذَرون إلا ما اجترَحُوا[3] من معصيته ، لِمَا سَبَق من جزيل إحسانه ، وتَظاهَر[4] من امتنانه ، وتقدّم به الإعذارُ والإنذارُ اللذان لا يستخِفُّ بما عظُمَ منهما إلاّ مَن استَحْوَذ[5] عليه الشيطانُ ، واستولى عليه الخِذْلانُ ، وقاده الحَيْنُ[6] إلى موَارِدِ الهَلَكَةِ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٣)

٢١١ — تحميد لكاتب خزيمة بن خازم فى فتح الصنارية[7]

« أما بعد ، فالحمدُ لله ذى المَلَكُوتِ والقدرة ، والجَبَرُوتِ والعِزّة ،

---

(١) أسناه : أعلاه ورفعه .
(٢) أى المسبغ عليهم نعمه ، وأسبغ الله النعمة : أتمها . (٣) أى اكتسبوا واقترفوا .
(٤) أى تضاعف . (٥) أى استولى .
(٦) الحين : المحنة والهلاك .
(٧) خزيمة بن خازم : هو أحد قواد الدولة العباسية ، وقد جاء فى تاريخ الطبرى (١٠ : ١٩٢)

والسلطان والقوة ، أهلِ المحامِدِ كلِّها ، ومدبِّرِ الأمور ووليِّها ، وخالقِ الخلائق وبارِئها ، ومُميتها ومُحْيِيها ، وباعِثِها ووارِثها ، الذى أوجب على نفسه بمـا نفَذَ من مشيئته ،وسبَقَ من عِلْمه ، وثبَّت فى اللوح المحفوظ عنده إعزازَ دينه ، وإظهارَ حقه ، وإعلاءَ كلمته ، وإبلاجَ[1] حُجّته ، وإزهاقَ باطل أعدائه ، الصادفين[2] عن طاعته ، والجاحدين لربوبيَّته ، المكذِّبين بكتبه ورسله ، بلَغَ بذلك أمرُه ، ونطقَ به كتابُه ، فإنه يقول تبارك اسمُه فى المُنْزَل من فُرْقانه : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَـكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٩)

٢١٢ — كتاب للفضل بن سهل

ووجَّه الفضل بن سهل إلى رجل بجائزة ، وكتب إليه :

« قد وجَّهتُ إليك بجائزة ، لا أُعْظِمها تكثُّرا ، ولا أُقلِّلها تجبُّرا ، ولا أقطعُ لك بعدها رجاء ، ولا أَستَثيبك عليها ثناء ، والسلام » .

(تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢ : ٣٤٢)

أنه لما حاصر طاهر بن الحسين بغداد استأمن اليه خزيمة وفارق الأمين وخلعه ودعا إلى المأمون سنة ١٩٨ ، وقد توفى سنة ٢٠٣ — انظر ترجمته فى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٨ : ٣٤١ ، ولم يذكر ياقوت « الصارية » فى معجمه .

(١) أبلجه : أوضحه .

(٢) صدف عنه كضرب : أعرض .

٢١٣ — كتاب إبراهيم بن إسماعيل بن داود إلى ذى الرياستين

وكتب إبراهيم[1] بن إسماعيل بن داود إلى ذى الرِّياستين :

« وصل إلىَّ كتابُك بخطٍّ يدك المبارَكة ، فلم أر قليلا أجمَعَ ، ولا إيجازاً أكْفأ من إطناب ، ولا اختصارا أبلغَ فى معرفةٍ وفهمٍ منه ، وما رأيتُ كتابا على وَجازَتِه أحاطَ بما أحاط ، وضربتُ ظَنِّى فى فلان فعظَّم ذلك سرورى ، وقد يُستعطَفُ الظالمُ ، ويُستعتَبُ المتجَنِّى[2] ، وفى رِفْقك وعلمك بالأمور ما يُصْلح الفاسدَ ، ويُذَلِّلُ الصعبَ ، ويُقْبِلُ المُدْبِرَ ، ولا يمنعنَّك جَوْرُ مَن جار عليك ، من الاعتقاد فى الحُجَّة عليه ، والأخذِ بالثِّقة فى أمره ، فان الله عز وجل لم يجعل عليك فى ذلك مَنقَصَةً ولا غضاضة ، بل فيه الإعذارُ والإنذارُ والاِستبصارُ وقضاء حاجة النفس ، مع التأدية إلى السلامة ، والأمنِ من الندامة » .   (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٢)

٢١٤ — كتاب إبراهيم بن إسمعيل إلى على بن الهيثم

وكتب إبرهيم بن إسمعيل إلى على بن الهيثم :

« بلغنى ما أظهرتَ من الوعيد والحِمِيَّة ، فحملتُ ذلك منك على شَرَف

---

(١) ذكره ابن النديم فى الفهرست ص ١٧٩ قال « إبراهيم بن إسمعيل بن داود الكاتب ، وله تقدم فى البراعة والبلاغة » .

(٢) استعتبه : طلب إليه العتبى (بالضم) وهى الرضا والصفح ، وتجنى عليه : ادعى ذنبا لم يفعله .

الحَسَب ، وكرم النسب ، فإن لأشرافِ العرب سَطَوَاتٍ لا يملكونها ، وَكلُّ ما أَتيتَ فشبيهٌ بك وبموضعك ، وقد قيل : « احذَرْ صولةَ اللئيم إذا شَبِع » وأنت أبا حسن — مَدَّ الله فى عمرك — منهم ، ولك فى معاداة الرجال لذَّةٌ أرجو أن يجعلها الله سبيلا لهلاكك ، وقد ينبغِى أن تعلم أن الذى أنت فيه لم يُحْدِث لك نَفْسًا غيرَ نفسك ، ولا أبًا غيرَ أبيك ، وقد تَجْرِى المقاديرُ لكثيرٍ من السِّفْلة بوجوهٍ من الحظ ، يَجعلها الله عليهم وَبالاً ، ولهم فى الدنيا والآخرة نَكالا ، يَهْتِك بها أستارهم ، ويُخْرِج بها أضغانهم ، إذا ضمَّتهم مضامن النعم ، وهم مع ذلك يَرَون أنه لا يُلْحِقهم بأهل الفضل غيرُ التجبُّر والفخر ، ووالله ما دعانى إلى هذا أنى أَرَى الانتقامَ منك حظّا ، ولكنى أَحببتُ أن أعرِّفك من نفسك ما أصبحتَ به جاهلا ، وأصبحَ للناس باديا ، ولئن أنكرتَ نصيحتى[1] لقد وضعتُها فى غير موضعها ، وبالله نستعين على ابتلائه الدنيا ، وتدنيسِه النعمةَ ، وحَطِّه المراتبَ والأقدارَ بك ، أعاذنا مما ابتلاك به » (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٢)

٢١٥ — رد ابن الهيثم عليه

فأجابه على بن الهيثم :

« قرأتُ كتابك الذى به تتظرَّف ، وبجوابك عنه تتشرَّف ، ولولا ما نسبْتنى إليه من الكِبْر ما كان له مَعْنى ، إن الله جعلنى فى أصلٍ حرَمك

(١) فى الأصل « فضيحتى » وهو تحريف .

نيلَه ، ولم يُلْبِسك فضلَه ، فلزِمْتُ الموضعَ الذي وضعني الله به ، جَهِلَه مَن جَهِلَهُ وَعَلِمَهُ مَنْ عَلِمَه ، إذ أنت تنتقل من نسب إلى نسب ، ومن أب إلى أب ، بلا أصل ثابت ، وما مَثَلُك إلا مثل إبليس لمّا أذَلَّه الله لآدم عليه السلام ، فأسجده وأبان فضلَه عليه ، أحْقَدَه تخسيرَ دنياه وآخرته ، إذ كاده وكاد ولده ، فلم يَبْلُغ له من كيادته [1] أكثرَ من قيادته ، والكَسْبِ اللُّومِ ، والفعلِ المأثومِ ، وماتُغْني أساطيرُك وأقاويلُك ، فلو كنت بأصول أبيك وأمك تَلفظ ، أو عنها تنطِق ، لَطال عليك أن تتكلم أو تعلَمَ ، فاشكرِ اللهَ واشكرِ اللسانَ الذي انتحلْتَه ، ونَبَتَّ به ولستَ من أهله ، أمّا أنا فلم أَعْدُ ما كان عليه أبي من قوله في نفسه ، وشرفِه في رُتَبه ، وأنا بموضع من الكتابة وفي الشرف من العِمالة ، وبمكانٍ مِن أولاد الخلافة ، أحْلُو في قلوبهم ، وأعذُبُ في ألسنتهم ، وَأتولَّى الدواوين ، وأخالط السلاطين ، وأحْكُم في أمرِ الدنيا والدين ، وأنت لا تصلُح لمعاشٍ ، ولا تُرْجَى في مَعادٍ ، دنَس ٍفِعْلَك لئيمُ أصلِك ، تهجو العرب بلسانهم ، وتفتخر عليهم بكلامهم ، فإذا أخَذَك عقابُ الله بأيديهم ، ووجب عليك حقُّه فيهم ، [اتخذت الإيمان ، وابتذاله دينه [2]] فحسْبُك ما أحببتَ من ذهاب آخرتك ، ولؤمِ طبعك ، ولو أردتُ قَتْلَك لم أقتلك ، أو أصل إلى قتلك ، بأكرمَ من لؤم فعلك وأصلِك ؛ فافخَرْ بهذا جوابًا ، على أني لا أُريك له أسبابا ، والسلام على كل عاقل كريم سليم الأصل ، ولرسول الله صلى الله عليه ، والإسلامِ وأهلِه » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٢)

---

(١) الذي في كتب اللغة أن مصدر كاد كيد لا كيادة .

(٢) هكذا في الأصل ، والمعنى غير متسق ، وأغلب الظن أنه قد سقط من الناسخ هنا كلام .

٢١٦ — كتاب الحسن بن سهل إلى أخيه الفضل

وكتب الحسن بن سهل إلى أخيه ذى الرياستين فى تهنئة بمولود:

« إنه ليس من نعم الله وفوائد قِسَمه ـ وَإنْ خُصَّ مَوقِعُها ، وَوَجَب شكرُها ـ نعمةٌ تَعْدِل النعمةَ فى الولد ، لِنَمَائِها فى العدد ، وَزيادتها فى قوة العَضُد ، وَما يُتَعَجَّل به من عظيم بهجتها ، ويُرْجَى من باقى ذِكْرها فى الخُلُوفِ والأعقاب ، ولاحِقِ بركتها فى الدعاء والاستغفار ، وإن الله قد أفادك وأنالك غلامًا سَرِيًّا سَمَّيته فلانا ، فكَان ميلادُه عند فَتْحِ الله على أمير المؤمنين ، فرجوتُ أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهَرَنا اللهُ به على عدوِّ الدين والمسلمين ، من دلائل بَرَكته وَيُمْنه ، وشواهِدِ سعادته والسعادة به ، فبارَكَ الله لأمير المؤمنين فى طارِف نعمته وتالِدِها ، وشفَعَ له قَديمَ مِنَنِه بحادِثِها ، ورزَقه ذكورا طيِّبين مهذَّبين يأنَس بهم رَبْعُه[1] ، وَيتصل بهم نجاحُه ، وَيجعلهم ذُرِّية زاكية ، وبقيةً صالحة »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

٢١٧ — كتاب الفضل بن سهل إلى أخيه الحسن

وكتب الفضل بن سهل إلى أخيه الحسن بن سَهل فقال :

« إن الله قد جعل جَدَّك عاليا ، وجعلك فى كل خير مُقَدَّما ، وَإلى غاية كل فضلٍ سابقا ، وصَيَّرك ـ وَإن نأتْ بك الدارُ ـ من أمير المؤمنين

---

(١) الربع : المنزل .

وكَرامته قريبا ، وقد جَدَّد لك من البرِّ كَيْتَ وكيتَ ، وكذا يحوزُ الله لك من الدين والدنيا والعز والشرف ، أكثرَه وأشرَفَه ، إن شاء الله » .

(عيون الأخبار ١ : ٩٤)

٢١٨ — عهد المأمون لعلى بن موسى الرضىّ

وفى سنة ٢٠١ هـ جعل المأمونُ ـ وهو بخُراسان ـ علىَّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وَلىَّ عهد المسلمين والخليفةَ من بعده وسمَّاه الرِّضِىَّ من آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتب له كتابا بخطه ، وذلك أنه نظر فى بنى العباس وبنى علىّ ، فلم يجد أَحدا هو أفضلُ ولا أَوْرَعُ ولا أعلم منه ، وأَمَرَ الناس بطَرْح السَّواد وَلُبْسِ ثيابِ الخضرة ،وَكتب بذلك إلى الآفاق .

وَهذه نسخة عهده لعلى بن موسى :

« هذا كتابٌ كتبَه عبد الله بن هرون الرشيد أمير المؤمنين بيده لِعلىٍّ ابن موسى بن جعفر وَلىٍّ عهده.

أما بعدُ : فإن الله عزَّ وجلّ اصطفى الإسلام دينا ، واصطفى له من عباده رُسُلا دَالِّينَ عليـه ، وهادِينَ إليه ، يُبَشِّر أولُهم بآخِرِهم ، ويُصدِّق تالِيهم ماضِيَهم ، حتى انتهت نُبُوَّةُ الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، على فَتْرَة من الرُّسُل ، ودُرُوسٍ[1] من العِلم ، وانقطاعٍ من الوَحْى ، واقترابٍ من الساعة ، ختَمَ الله به النبيين ، وجعله شاهِدًا لهم ومُهَيْمِنًا[2] عليهم ، وأنزلَ عليه كتابَه

(١) أى امحاء . (٢) أى شاهدا .

العزيزَ الذى « لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » فأَحَلَّ وَحَرَّمَ ، ووَعَد وَأَوْعَدَ ، وحَذَّر وأنذَر ، وأَمَرَ وَنَهَى ، لتكونَ له الحُجَّةُ البالغة على خَلْقِه ، و « لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » فبلَّغَ عن الله رسالتَه ، ودعا إلى سبيله بما أَمَرَه به من الحِكْمة والمَوْعِظة الحَسَنة ، والمجادَلة بالتى هى أحسنُ ، ثم بالجهاد والغِلْظة حتى قَبَضَه اللهُ إليه ، واختار له ما عنده صلى الله عليه .

فلما انقضَتِ النُّبوّة وختَمَ اللهُ بمحمد صلى الله عليه وسلم الوحيَ والرسالة، جعل قِوَامَ الدين ، ونِظامَ أمرِ المسلمين ، بالخلافةِ وإتمامها وعِزّها والقيامِ بحق الله فيها ، بالطاعةِ التى تُقامُ بها فرائضُ الله وحُدودُه ، وشرائعُ الإسلام وسُنَنُه ، ويُجاهَد بها عدوُّه ، فعلى خُلَفاءِ اللهِ طاعتُه فيما استحفَظهم واسترعاهم من دينه وعباده ، وعلى المسلمين طاعةُ خُلفائهم ومعاوَنتُهم على إقامة حَقِّ الله وعَدْله ، وأَمْنِ السُّبُل ، وحَقْنِ الدّماء ، وصَلاحِ ذاتِ البَيْنِ ، وجَمْع الأُلْفة ، وفى إخلال ذلك اضطرابُ حَبْلِ المسلمين واختلالُهم ، واختلافُ ملَّتهم ، وقَهْر دينهم ، واستعلاء عدوّهم ، وتفرُّق الكَلمة ، وخُسْران الدنيا والآخرة . فحقٌّ على مَن استخلَفه اللهُ فى أرضه ، وأْتمَنَه على خَلْقه ، أن يُؤْثِر ما فيه رضا اللهِ وطاعتُه ، ويَعْدِلَ فيما اللهُ واقِفُه عليه ، وسائِله عنه ، ويحكُم بالحق ويعمل بالعدل فيما حمّله اللهُ وقلّده ، فإن الله عز وجل يقول لنبيه داود عليه السلام :

« يادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» وقال عز وجل «فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» وبلغنا أن عمر بن الخطاب قال : «لو ضاعت سَخْلَة[1] بجانب الفرات لتخوّفتُ أن يسألني اللهُ عنها» وايمُ اللهِ إن المسئول عن خاصّةِ نفسه، الموقوفَ على عمله، فيما بين الله وبينه، لمتعرِّض لأمرٍ كبير، وعلى خَطَرٍ عظيم. فكيف بالمسئول عن رعاية الأمة؟ وبالله الثقةُ، وإليه المَفْزَعُ والرغبة فى التوفيق مع العِصْمة، والتسديد والهداية إلى ما فيه ثبوتُ الحُجَّة، والفوزُ من الله بالرضوان والرحمة.

وأنظَرُ[2] الأئمة لنفسه، وأنصحُهم فى دينه وعباده وخلافته فى أرضه، مَن عَمِلَ بطاعة الله وكتابه وسُنَّة نبيه عليه السلام فى مُدَّةِ أيامه، واجتهد وأجْهَدَ رأيَه ونَظَرَه فيمن يوليه عَهْدَه، ويختاره لإمامة المسلمين ورعايتهم بعدَه، وينصبه عَلَماً لهم، ومَفْزَعا فى جَمْع أُلفتهم، ولَمّ شَعَثهم، وحَقْن دمائهم، والأمنِ بإذن الله من فُرقتهم، وفساد ذات بينهم واختلافهم، ورَفْع نَزْغ[3] الشيطان وكَيدِه عنهم، فإن الله عز وجل جعل العهدَ بالخلافة من تمام أمر الإسلام وكماله وعِزّه وصلاح أهله، وألْهَمَ خلفاءه من توسيده لمن يختارونه له من بعدهم، ما عظُمَت به النِّعمةُ، وشمِلَتْ منه العافيةُ، ونقَضَ اللهُ بذلك مَرّ[4] أهل الشقاق والعداوة، والسعْيِ فى الفُرقة والرَّفْض[5] للفتنة.

(١) السخلة : ولد الشاة ما كان .

(٢) أى أحسنهم نظرا .

(٣) نزغ الشيطان بينهم كنع : أفسد وأغرى ووسوس . (٤) المر : الحبل .

(٥) رفض الرجل غنمه وإبله كضرب ونصر رفضا : تركها تبدد فى مراعيها ترعى حيث شاءت ولا يثنيها عن وجه تريده ، والمعنى هنا : وترك الفتنة تسير فى الناس فى كل وجه .

ولم يَزَل (١) أمير المؤمنين منذُ أفْضَتْ إليه الخلافة فاختبر بَشاعَةَ مَذاقتها، وثِقَل مَحمِلها، (٢) وشدة مَئُونتها، ومايجب على مَن تقلَّدها من ارتباط طاعة الله ومراقبته فيما حمَّله منها، فأَنْصَبَ بَدَنَه، وأَسهرَ عينَه، وَأطال فكره فيما فيه عِزُّ الدين، وقَمْعُ المشركين، وصَلاحُ الأمة، ونَشْرُ العدل، وإقامةُ الكتاب والسنة، ومنَعه ذلك من الخَفْضِ والدَّعة بِهَنِيِّ العيش: عِلْما بما اللهُ سائِلُهُ عنه، وَمحَبَّةً أن يلْقَى اللهَ مُناصِحَهُ فى دينه وعباده، ومختاراً لولاية عهده، ورعاية الأمة من بعده أفْضَلَ مَن يقدِرُ عليه فى دينه وَوَرَعه وَعِلمِه وأرجاهم للقيام بأمر الله وحقه، مُناجياً لله بالاستخارة فى ذلك، ويسأله إلهامَه ما فيه رضَاه وطاعَتُه فى ليله ونهاره، ومُعْمِلاً فى طَلبه والتماسه من أهل بيتِهِ من ولد عبد الله بن العباس وعلى بن أبى طالب فكْرَه ونَظَرَه، ومقتصراً فيمن عَلِم حاله ومَذْهَبه منهم على علمه، وبالغاً فى المسألة عمَّن خَفِيَ عليه أمْرُه جُهْدَه وطاقَتَه، حتى استقصَى أمورهم بمعرفته، وابْتَلَى (٣) أخبارَهم مشاهدَةً، وكَشَفَ ما عندهم مُساءلَةً، فكانت خِيرَتُه بعد استخارته لله وَإجهادِه نفْسَه فى قضاء حقه وبلاده، من البيتين جميعا: علِيَّ بن موسَى ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب لِما رَأى من فضلِه البارع، وعلمه الناصِع، (٤) وورَعِه الظاهر، وزُهْده الخالص، وتَخَلِّيه من الدنيا، وتَسَلُّمِه من الناس، وقد استبانَ له ما لم تَزَلِ الأخبارُ عليه متواطِئَةً،

---

(١) لم يرد الخبر فى الكلام، ولعله محذوف لأنه مفهوم من السياق.

(٢) المحمل كمجلس: شقان على البعير يحمل فيهما العديلان، والمعنى: وثقل عبئها وحملها، والمئونة: الثقل والحمل.

(٣) أى اختبر. (٤) الناصع: الخالص من كل شىء.

والألسُنُ عليه متفقةً ، والكلمة فيه جامعةً ، وَلِمَا لم يزل يَعْرفه به من الفضل يافِعاً [١] وناشئاً وحَدَثاً ومُكْتَهِلا ، فَعقَد له بالعَقْد والخلافة إيثاراً لله والدين ، ونظراً للمسلمين ، وطَلَبا للسلامة وثبات الحُجّة والنجاة فى اليوم الذى يقوم الناسُ فيه لربِّ العالمين .

ودعا أميرُ المؤمنين وَلَدَه وأهلَ بيته وخاصّتَه وقُوّادَه وخَدَمه ، فبايعوه مُسْرِعين مسرورين ، عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعةَ الله على الهَوَى فى ولده وغيرهم ، مِمَّنْ هو أشْبَكُ به رَحِمًا ، وأقربُ قرابةً ، ، وسمّاه « الرِّضِيَّ » إذ كان رَضِيًّا عند أمير المؤمنين .

فبايِعُوا مَعْشَرَ بيت أمير المؤمنين ومَن بالمدينة المحروسة من قُوّاده وجنده وعامّة المسلمين « الرِّضِيَّ » من بعده ، على اسمِ الله وبَرَكته وحُسْن قضائه لدينه وعباده ، بَيْعةً مبسوطةً إليها أيديكم ، منشرِحةً لها صدورُكم ، عالمين بما أراد أمير المؤمنين بها ، وآثَرَ طاعةَ الله والنظرَ لنفسه ولكم فيها ، شاكرين لله على ما أَلْهمَ أميرَ المؤمنين من نَصاحته فى رعايتكم ، وحِرصه على رُشْدكم وصلاحكم ، راجين عائِدَهُ فى ذلك فى جَمْع أُلْفتكم ، وحَقْنِ دمائكم ، ولَمِّ شَعَثكم ، وسَدِّ ثغوركم ، وقُوّة دينكم ، ورَغْم عدوكم ، واستقامة أموركم ، وسارِعوا إلى طاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، فإنه الأمرُ إن سارعتم إليه ، وحَمِدْتم الله عليه ، عَرَفتم الحظَّ فيه إن شاء الله تعالى » .

(صبح الأعشى ٩ : ٣٦٢)

---

(١) يفع الغلام يفع كمنع وأيفع فهو يافع : شب . واكتهل : صار كهلا ، وهو من جاوز الثلاثين أو أربعا وثلاثين إلى إحدى وخمسين .

٢١٩ — صدر رسالة لإبراهيم بن المهدى فى الخميس

فلما علم العباسيون ببغداد بما فعل المأمون، من نَقْلِ الخلافة من البيت العَبَّاسِىِّ إلَى البَيْتِ العلوىِّ، وتغيير لباس آبائه وأجداده بلباس الخُضْرة، أنكروا عليه ذلك، وخلعوه من الخلافة، وبايعوا عمه إبراهيم[1] بن المهدى، وقد أنشأ إبراهيم لنفسه رسالة للخميس، صَدْرُها:

«الحمد لله الذى اختار الإسلام دينا لنفسه، ورَضِىَ أن يعبده مَن فى سَمواته من الملائكة المقرَّبين، ومَن فى أرضه من النبيين والمرسلين، ومن آمَن بالنور الذى هداهم له من الثَّقَلَيْن[2]، واختار لرسالته فى سابِقِ علمه، والذِّكْر الحكيم عنده، محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه كتابه، وجَعَلَ طاعَتَه وطاعَةَ نَبيِّهِ صَلَّى اللّهُ عَليه وسلم مَوْصُولَةً (بكذا) فقال: «أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٩)

---

(١) توفى سنة ٢٢٤ هـ فى خلافة المعتصم — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٨.

(٢) الإنس والجن.

٢٢٠ — رسالة الشكر لأحمد بن يوسف

ولما قُتِل الفضل[1] بن سَهل (سنة ٢٠٢) ، استوزر المأمون بعده أخاه الحسنَ[2] بن سهل جَبْرًا لمُصابه بقتل أخيه ، فأمر الحسنُ أحمدَ بن يوسف فكتب عن لسانه رسالةً يشكر فيها للمأمون صُنْعَه ، وهي :

« أما بعدُ ، فالحمد لله القاهرِ القادر الخالقِ الرازق ، فاطرِ السموات والأرض ، الذى أحاط بكل شىء عِلْماً ، ونطَقَ به خُبْرا ، وأتقَنه حِكمةً وعلْماً ، وألَّف بين مُختلفِه ومتَّفِقه ، لِيدُلَّ بِقوام بعضه على بعض على اتِّصال

(١) وذلك أنه لما ثارت الفتنة ببغداد كما قدمنا ، كتم الفضل بن سهل عن المأمون أخبارها مدة ، وكان متى علم أن أحدا قد دخل عليه أو أعلمه بخبر سعى في مكروهه وعاقبه ، فامتنع الناس من كلام المأمون ، وانطوت عنه الأخبار ، فدخل عليه على بن موسى الرضىّ وقال له : يا أمير المؤمنين ، إن الناس ببغداد قد أنكروا عليك مبايعتى بولاية العهد وتغيير لباس السواد ، وقد خلعوك وبايعوا عمك إبراهيم بن المهدى ، وأحضر إليه جماعة من القواد ليخبروه بذلك ، فلما سألهم المأمون أمسكوا ، وقالوا : نخاف من الفضل ، فإن أمنتنا شره أخبرناك ، فأمنهم وكتب لهم خطه ، فأخبروه بحقيقة الحال وعرّفوه خيانة الفضل وتعميته الأمور عليه ، وستره الأخبار عنه وقالوا له : الرأى أن تسير بنفسك إلى بغداد ، وتستدرك أمرك ، وإلا خرجت الخلافة من يدك ، فشخص من مرو إلى العراق ، فلما كان بسرخس دس على الفضل جماعة فقتلوه فى الحمام ، ثم أخذهم وقدمهم ليضرب أعناقهم ، فقالوا له : أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا ! فقال لهم : أنا أقتلكم بإقراركم، وأما ما ادعيتموه علىّ فدعوى ليس لها بينة ، ثم ضرب أعناقهم وحمل رءوسهم إلى أخيه الحسن بن سهل بواسط وكتب يعزيه ويوليه مكانه . وتزوج ابنته بوران بنت الحسن ، ودس إلى على بن موسى سما فى عنب — وكان يحب العنب — فأكل منه واستكثر فمات من ساعته ، وكتب إلى بنى العباس ببغداد يقول لهم : إن الذى أنكرتموه من أمر على ابن موسى قد زال ، وإن الرجل قد مات ، فأجابوه أغلظ جواب ، وجدّ المأمون فى المسير إلى بغداد فبلغها ، وقد هرب إبراهيم بن المهدى والفضل بن الربيع ، فلما دخل المدينة (سنة ٢٠٤) تلقاه العباسيون وكلموه فى ترك لباس الخضرة والعود إلى السواد ، فأجاب إلى ذلك وأمر الناس بالعود إلى لباس السواد ، ثم إنه عفا عن عمه إبراهيم وأحسن إليه وكذلك فعل مع الفضل بن الربيع .

(٢) توفى الحسن سنة ٢٣٦ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ١٤١ والفخرى ص ٢٠٣ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٧ : ٣١٩ .

تدبير مشيئته ومبتَدَعِه ، وأنه أحَدٌ صَمَدٌ[1] ، لا ضِدٌّ له ولا نِدٌّ ، إذ قدَّر له حاجَته ، ثم شدَّها ببلاغها إلى الغاية التي جعلها ، فقال الله عز وجل « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ » وحكى عن نجيِّه موسى عليه السلام : « قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وقال الله تعالى : « وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً » ثم لم يكلِّف العِباد من شكره كِفاءَ نِعمته ، بل رضِيَ منهم باليسير ، وقبِلَ منهم العفْوَ ، وجعل طاعتَهم إياه عائدةً عليهم بجزيل الحظّ في دينهم ودُنياهم ، لِغناه عن عبادَتهم ، واتّساع قدرته بالتطوُّل عليهم ، مفتتِحًا وخاتِما ، وبادِئا وعائدا .

والحمد لله الذي اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم ، نبيًّا لرسالته ، وأْتَمَنَه على وَحيه ، وأنزل عليه كتابه العزيز ، الذي لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنَ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . فأدَّى إلى خَلْقه الرسالةَ ، واستنقَذَهم من الضلالة ، وصَدَع بأمر ربِّه ، وجاهَدَ في سبيله ، ونَصَح لأمته ، حتى أتاه اليقين من ربِّه ، بعد استنارة الحقّ ، وظهور الحُجَّة ، فصلَّى الله عليه بشِيراً وَنَذِيراً ، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيراً ، قَدْ تلاَفَى مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَجَمَعَ الأُلفة بعد الفُرقة ، وأوضح الهُدَى بعد الدُّروس[2] ، ومعالِمَ الرُّشْدِ بعد الطُّمُوس ، وكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا .

والحمدُ لله الذي قفَّى على آثار المرسلين ، والأئمةِ الراشدين ، الهادِيَ التقيَّ ، الطاهرَ الزكيَّ ، الإمامَ المأمونَ أمير المؤمنين ـ أعزّ الله نَصْرَه ـ فسَدَّ

---

(١) الصمد : السيد الذى يقصد فى قضاء الحوائج .

(٢) الدروس : الامحاء .

ثُلْمتَهم ، وَرَأَبَ صَدْعَهم[1] ، وقلّده خِلافتهم ، وجعله لكافّة المسلمين غِيَاثا ورحمةً ، وجعل ما أَلْهَمه من العدل والإحسان إليهم ، مِنّةً عليه ورحمةً ذَخَرها له دون الخلفاء قبله ، فيما أظهر من فَضْلِ زمانه على الأزمنة ، وسياسةِ مَن تقدّمَه ، ومَنَح الرعية من عطفه ونظره ما لا يَحْمِلُ عنهم أَوْبَه[2] ، ولا يؤدِّى عنهم شكرَه ، إلا هو لا شريك له ، وأحسن الله جزاءَ أميرِ المؤمنين ومثُوبَتَه ، على صِلة رَحِم رسول الله صلى الله عليه وسلم التى هى رَحِمُه وقرابتُه ، واختياره لولاية عهده الأميرَ الرضىّ علىَّ بن موسى — حفظه الله — حين أَحْمَدَ سيرَتَه[3] ، ورضِىَ محبَّتَه ، وعرَف استقْلاله[4] بما قلّده فى هَدْيه ودينه ، ووفاءه بما أكّد الله به عليه من عهد أمير المؤمنين — أيّده الله — فى اعتيامه[5] من آزَرَه وآساه بما شفَع رأيه ، وأنفذ تدبيره حين همَّ لاستصلاح ما استرعاه الله من أمور عِباده ، لمّا انتضى[6] القائمَ بدعوته ، ورئيسَ شريعته ، الأميرَ ذا الرياستين — رحمه الله — فاتّخذه مكانِفا ظهيراً ووزيرا دون مَنْ سواه ، فاتّبع مِنْهاجَ أمير المؤمنين — أيده الله — وسار بسيرته شرقا وغربا ، وغوْرا ونَجْدا ، مُوفيا بعهده ، قائما بدعوته ، مقتفِيا لأثره وسُنّته ، فحسَمَ الله به الأدواء ، وقمع به الأعداء : من عُتاةِ الأُمَمِ ، وطَواغيتِ[7] الشِّرك ، وأبار[8] على يده أهلَ الشقاق والنفاق ، فى كل أُفُقٍ وطَرَف ، بجَدِّ أمير المؤمنين

---

(١) الصدع : الشق ، ورأبه كنعه : أصلحه . (٢) أى ترجيعه وترديده .

(٣) أحمد أمره : صار عنده محمودا . (٤) أى نهوضه .

(٥) اعتام الشىء : اختاره .

(٦) من انتضى السيف : إذا استله ، وربما كان «انتقى» .

(٧) الطواغيت جمع طاغوت : وهو كل رأس ضلال . (٨) أباره : أهلكه .

ـ أعزّه الله ـ وبَركةِ سياسته ودولته ، ونُجْح سَعْىِ مَن قامَ بنُصرة من قام بحقه وأنار برهانه ، حتى توفّاه الله عز وجل ، حين بلغ هِمّته وغَايتَه ، وحُمّ[1] أجَلُه وانقطعت مُدّته ، سعيدا حميدا ، شهيدا فقيدا ، عند إمامه ـ أكرمه الله ـ وعند الخاصّة والعامة .

وكان من إجلال أمير المؤمنين الحادثُ الذى نزلَ به ، فأحيا آثارَه ، بوصف محاسنه فى مَشَاهِدِه ومجامِعه ، وترحُّمِه عليه عند ذِكره ، وحِفْظِه فى لُحْمته[2] وأهل حُرْمته ، وفيمن كان بحمْدالله على طاعته ونصيحته ، ما أتمّ به نعمتَه عندنا وعندكم معشرَ الشيعة ، فقد أصبح أمْرُه بكم متّصِلا ، ومَوْقِعُه من جماعتكم [متمكّنًا] ، يقبِضكم ما قَبَضَه ، ويبسُطكم ما بَسَطه من لَوْعة المصيبة ، وحُسْن العُقبى ، وقد علمتم ـ معشرَ أهل الحِجا والنُّهى والطاعةِ لله عز وَجل وخليفتِه ، وذوى الغَناء[3] والبَلاء فى دعوته ، من أهل خُراسان وغيرهم ممن حَضَر ، ممن امتحن الله قلبَه بوفاء العَهْد ، والاستبصارِ فى حق أمير المؤمنين أبقاه الله ، والمجاهدةِ دونه ، والصبر على مَواطن الصدق واللأْواء[4] ، والذبِّ عن البَيْضَة والحَرِيم ، والمتحمّلين للنَّصَب وَالمصائب التى انجلَتْ حتى كأنْ لم تكن ، وبقِىَ أجْرُها على الله عز وجل ، ومحمودُ ذِكرها شائعا فى الناس ـ أنَّ نِعَم الله قد جَلَّت ولَطُفَت ، وخصّت وعمّت ، وعَلَت وسَمَقَتْ[5] ، وتمّتْ ودامت ، حتى قصَّرْنا عن موازينها ، والإحاطة بأدائها ،

(١) حمّ : قدّر . (٢) اللحمة : القرابة .
(٣) الغناء : الكفاية . (٤) اللأواء : الشدة .
(٥) سمق كنصر سموقا : علا وطال .

فإذا لم يكن لنا معشرَ إخواننا سببٌ إلى مكافأة بَلائه بالعمل ، فنحن جُدَرَاء أن نجتهد فى القول ، ونُطْنِبَ فى الوصف إن شاء الله جل وعز ، فقد جعل ذِكرَ النِّعَم من أسباب الشكر .

وقد جدَّد لنا أميرُ المؤمنين ـ أيَّده الله ـ من الحِباء[1] والكرامة وجزيل الْحِيطة وسَنِيِّ الرُّتبة التى قُرِئَ بها عليكم كتابُه ، ما يستغرقُ جُهدَنا ، ويستفرِغُ وُسْعَنا ، فنرغب إلى الله عزّ وجل وَلِيِّ الرغبة ، ومُؤْتِى السُّؤْل والطَّلِبة ، فى إعانتنا على تأدية ما وَجَبَ له ، فيما منَحَنا من فوائده ونِحَلِه[2] ، ثم نَسْتَرفِدكم[3] ونستعينكم على شكره ، وإمدادنا بما بلغَتْه طاقتكم فى السعى له ، فقد آدَنَا[4] ثِقْلُ مَا حَمَّلَنا ، وثِقْلُ مَا طوَّقَنَا ، وعظُمَت فاقتُنا إلى استعمال القوىِّ من الأنفُس والحامَّة[5] ، والخاصَّة والعامَّة ، فى جزاء ما جَلَّل[6] أميرُ المؤمنين فينا من سُنَنه ، وشمِلَنا من تالِدِ أياديه وطَارفها ،[7] وقديمها وحديثها ، وكيف يوجد إلى مُوازاة أمير المؤمنين سبيلٌ ببَذْل جهْدٍ ، أو بلوغ حَشْد ، فإنما نقتدى بهُداه ، ونَعْشُو[8] بنوره فى ديننا ، وليس عَجْزُنا عن أن نجزِىَ حقَّه[9] ، بواضعٍ عنا مُؤْنَة الدُّءوب فى التحرِّى لتأديته ، فإن الله عز وجل قد أخبر بفضائل الشكر ومناقبه ، وجعله من أسمائه « وَمَنْ

(١) العطاء بلا منّ ، أو عامّ .

(٢) النحل جمع نحلة بالكسر : وهى العطية . (٣) استرفده : استعانه .

(٤) آده الأمر يئوده : بلغ منه المجهود . (٥) الحامة : خاصة الرجل من أهله وولده .

(٦) جلله : غطاه . (٧) أى من قديمها وحديثها .

(٨) عشا النار وإليها : رآها ليلا من بعيد فقصدها مستضيئا ، كاعتشاها ، وبها .

(٩) فى الأصل « وليس علينا بأنا لن نجزى حقه » .

تطوّعَ خيرًا فإنّ اللهَ شاكرٌ عليمٌ » وقد قال تعالى « ما يفعلُ اللهُ بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكانَ اللهُ شاكرًا عليمًا » وقال تعالى : « إن تقرضوا اللهَ قرضًا حسنًا يضاعفهُ لكم ويغفرْ لكم واللهُ شكورٌ حليمٌ » ولولا أنَّ الله عزّ وجل رضيَه لنفسه لأجللناه عن التسمية ، إذ كان أكثرَ ما نستعمله ونعرفه فى مكافأةِ مَن مَنَّ وتطوّل ، ثم ثنّى بذكر فضله فى العباد، فإن الله تبارك وتعالى افتتح أولَ ما علَّم خلقَه بالحمد ، وجعله بدءَ كتابه وخاتمةَ دعوةِ أهل جنّته ، فقال عزّ وجل : « وآخرُ دعواهُمْ أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ » وخلق الله السموات والأرض ومن برأ وذرأ فى الحياة ليبلوَ عبادَه بشكره ، وأعدَّ الجنة فى الآخرة لمن شكرَه ، والنارَ لمن كفرَه ، وقال الله تعالى : « وإذ تأذّنَ ربُّكم لئنْ شكرتمْ لأزيدنَّكمْ ولئنْ كفرتمْ إنَّ عذابي لشديدٌ » ، وقال الله تعالى « ولقدْ نصرَكُمُ اللهُ ببدرٍ وأنتمْ أذلَّةٌ فاتَّقوا اللهَ لعلَّكمْ تشكرُونَ » فجعَلَ التّقوى واقعةً[1]، والشكرَ مرجوًّا، ليَدلَّ على ارتفاع رتبته ، وعلوّ درجته عنده ، وقال لنجيِّه موسى عليه السلام : « إنِّى اصطفيتُكَ علَى النَّاسِ برسالاتِي وبكلامِي فخُذْ ما آتيتُكَ وكُنْ مِنَ الشَّاكرِينَ » فلم يكلِّفه إلا أخْذَ ما أعطاه ، والشكرَ على ما أتاه ، وأخبرَ بعزّته فى العباد فقال تعالى : « وقليلٌ مِنْ عبادِيَ الشَّكُورُ » .

فأيّةُ نعمةٍ أجلُّ قدرا ، وأسنَى أمْرا ـ معشر الشيعة ـ من نعمة أمير المؤمنين ـ أيّده الله ـ عند الأمير ذى الرياستين ، ومراتبه التى رتّبهُ بها ، فإنه أعطاه

(١) أى واجبة .

رياسةَ الحربِ وَرياسَة التدبير ، وعقَدَ له على رأسِهما عَلَماً فى راية دَعوته ، وقلّده سَيفهما ، وختَمه بخاتَم الخلافة وخاتم الدولة ، وجعل صلاته بين صاحب حَرَسه وصاحب شُرْطته ، ومسيرَه بين أمير المؤمنين وبينهما أمامه وخَلْفَه ، وصيَّر له الجلوسَ على الكرسيّ بحَضرته فى صدر كل مجلسٍ جَلَسَهُ — إلا أن يُؤْثِر به مَن أحبَّ مِن أبناء الخلفاء — وقدَّمه فى دخول داره[1] راكباً إلى أقصى مَكانٍ ينتهى إليه أحدٌ من بنى هاشم ، لأنه منهم ، وأعظمُهم غَنَاءً عنهم ، فسمَّاه صاحبَ دعوته ، وسيفَه على عدوه ، وبابه الذى يُدْخَل إليه منه ، وولاَّه خُيُولَه فى أقطار الأرض ، ومقدِّمَتَه بحضرته ، وقلّده من الثغور ماقد علمتم ، بما أفرَدَه فى عهده ، إلى ما أنْفَذَه من أمره ، فى جميع سلطانه ومُلكه ، من مَشَارِقِ الأرض ومَغاربِها ، وأين يأتى الوصفُ على ما فضَّله به وقَدَّمه وشرَّفه على الناس كافة ؟ ولكنا نُخْطِر بذِكره ثم نَكِلُ السامعين إلى مايرجِعون إليه من المعرِفة التى لا تبلُغُها الصِّفةُ .

ثم لم يكن ما أكرمه به فى حياته ، بأعلَى مما أكرَمَه به فى وفاته : تَوَلِّى غُسْلَه وتكفينه ومباشرتَه لجهازه إلى حُفْرته بيده ، وقاسَى من الغُصَص ، وبُرَحاء[2] الحزن ، وإذراء[3] العَبْرة ، وإراقةِ الدَّمْعة ، ما حال بينه وبين الكلام ، وكاد يمنعُه من القول ، والدعاء فى صلاته عليه ، مِن الحكم وحِفظِ أهلِ الحُرْمة به ، رعايةً له فيهم ، ووفاءً بعهده من بعده ، وأقرَّ خاصَّته

---

(١) فى الأصل « دار الأمير » . (٢) برحاء الحمى وغيرها : شدة الأذى .

(٣) أذرت العين الدمع : صبته .

وقوادَه وعُمّاله وكُتّابه على مراتبهم ، وحَمِد بحَمْدِه ، وذَمَّ بذمِّه ، وجَدَّد لجنده وشاكريّته[١] نظرًا وعَطْفاً ، فلم يبقَ عليه فى إحياء ذكره ، وبلوغ كل ما يحبّه فى حياته ، [غايةٌ] إلا أَتَى مِن ورائها ، وأمَرَ بقراءة فُتُوحه ، كما كانت تُقْرَأ على عهده ، وأضاف كل ما حَدَث من بعده ، إلى ما تقدّم مِن سَعْيه ، وأخبَرَ أنه كان سبَبَه ، والمفتَتَح به ، وولّى محمدَ بن الحسن خلافتَه ، ونَصَبَه مَنْصِبَه ، وأقامَه مُقامَه إلى أن جَدَّد العهدَ لى ، فاستخلفتُه على ما وَلِيَ بحَضرته ، ثم تتابعَتْ كتبُ أمير المؤمنين — أكرمه الله — بعد مُصاب الأمير ذى الرِّياستين ، بما[٢] لا يُقارَبُ من التفضيل والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبلَغكم ، فلم يكن يَرَى وراءه مجازاةً[٣] ، ولا فوقه مَصْعَداً ، حتى جدَّد لنا من كرامته ، ما قد قُرِئَ عليكم فى كتابه ، فبلَغَ بنا ما لم تكن الهِمَم لتبلُغَه ، والأمانىُّ لتُحيطَ به ، لولا ما مَنحَنا الله عزّ وجل من الترقّى فى الفضل إلى ما تحسِر[٤] من دونه الأبصارُ ، وتنقطع دونه الآمالُ ، وإنما اقتصصنا وذكرنا ما أبلانا واصطنَعَ عندنا من بلائه ، بدعائنا إلى الله عزّ وجل ، وإلى طاعته بالعدل والإحسان إلى رعيته والنظرِ بالصفح ، والأخذ بالفضل ، والأمرِ بالمعروف ، وصِلَة المُروءة بالوفاء بالعهد ، والشكر للمِنَن ، ورعاية الأخلاق المحمودة ، وإحْظاء[٥] أهلها ، وإقامةِ سُوقها ، حتى تنافَسُوها

---

(١) فى الأصل « وشل كريته » وهو تحريف ، وأرى أن صوابه « وشاكريته » والشاكرية جمع شاكرىّ : وهو الأجير والمستخدم معرب چاكر — انظر القاموس المحيط — والمعنى : وأتباعه ورجاله
(٢) فى الأصل « كما » وهو تحريف . (٣) فى الأصل « مجاراة » وهو تصحيف .
(٤) أى تكلّ وتنقطع . (٥) فى الأصل « وإخطاء » وهو تصحيف .

وتشاحُوا[1] فيها ، وصارت هي الذرائع إليه ، والوسائل عنده ، فلو تأمَّلَ متأمِّلٌ أهلَ الزُّلفةِ والأُثْرةَ لديه ، لَوَجَد الأخصَّ فالأخصَّ ، والأَعْلَى قدرا عنده ، الأفضلَ دينًا ومُروءةً ، فلولم يكن في الحُظْوة عنده إلا إيجابُها لصاحبها صِحَّةَ المحبة ، والنزاهةَ عن كل ظِنَّة[2] ، لكان فيها أعظمُ الغِبطة ، وأعدلُ الشهادة والدلالة .

وسنقُصُّ عليكم بما خبَّرنا كم عنه مالا سبيلَ إلى جَحْده وإنكاره ، لوضوح معالِمِه ومَنَارِه ، أَو ليسَ المجاهدَ عن دين الله ، والمُحامِيَ عن بَيْضةِ المسلمين ، والمُؤاتِيَ[3] لأغلَظِ عدوِّهم شَوكةً ، وأخوفِهم عداوةً ، والمُبَحْبِحَ[4] من بلادهم فيما كان لا يُرام ولا يُحاوَلُ ، لاستصعابِه وشدةِ مُقاساتِه ، حتى أذعن « جيغويه » بالعُبُوديَّة له ، ثم أباح حريمَه حين تمرَّد عليه ، حتى بلغ السَّبْيُ إلى ولده وحابوناته[5] ، وتوغَّلت خيولُه حتى توصلت إلى قُبَّته ومنتهَى عِزِّه ؟ أَوَلَيْسَ مُسَكِّنَ الهَيْج بالمشرق ، حتى خَبَتِ[6] النيرانُ فيه ، وأذعنَ رؤساؤها وقادتُها ؟ أَوَليس غازِيَ بلاد بابِل حين طغَى [مَلِكها] وَبدَّل ونكَثَ ونَقَض ، حتى اجتَثَّ أُرُومتَه[7] ، وأباحَ حَريمَه ، وأراح المسلمين من معرَّته ؟ أَوَليس سادَّ الثغور ، ومُحصِّنَ عَوْراتها ، والمُباشِرَ لتدبيرها ، والمُسْعَدَ

---

(١) في الأصل « وشاحوا » . (٢) الظنة : التهمة .

(٣) آتى فلانا : جازاه .

(٤) في الأصل هكذا « والمحبح » وتبحبح الدار ، وفي الدار ، وبحبح : إذا توسطها وتمكن من الحلول والمقام فيها ، وربما كان « والجتاح » من اجتاحه : إذا أهلكه واستأصله .

(٥) كذا في الأصل ، وقد يكون « وجواريه » .

(٦) خبت النار تخبو : سكنت وطفئت .

(٧) في الأصل « لدومته » وهو تحريف . الأرومة بالفتح وتضم : الأصل.

المكايدةِ المُنْجِح فيمن أرادها ، وفَاكَّ العُناةِ[1] من رِقِّ الإسار ، وناشِرَ الرَّحمةِ على فقراء المسلمين وضعفائهم وأهلِ المَسْكَنة والخَلَّة منهم ، وقاسِمَ الصَّدَقات فى أهلها ، وعامِرَ المَوْسمِ ومُحصِّنَه من الآفات ، حِياطةً للمسلمين فى حجِّهم وما يتقربون به إلى ربهم ؟

وهل اقترنَ لأحد من الأئمة ما اقتَرَن له فى الملك والدين والعز والتواضع والسَّعَة والبَذْل والقدرة والعفو والغِلْظة واللِّيان فى مواضعها ، والنُّسْكِ مع الهِمَّة ، والسَّطوة مع الإقالة ؟ وهل ترك معشرَ الأولياء والإخوان فى الدين غايةً لم يسْمُ بنا إلى شرفها ، وعلىٍّ مَراتبها ، ومُستَزَادِ الحظِّ فى عاجلٍ وآجلٍ لم يُبْلِغْناه ؟ احتاز لنا خاصَّ مَكرُمته ، ومُدَّخَرَ عاقبته ، أرشَدَنا إلى الدين ، وسلَك بنا سُبُلَ الجنة ، حازَ لنا المُلْكَ ، فلم يبق وراءما مَلَكْنا غايةٌ ، ووَرَدَ بنا الحروبَ وساسَها لنا ، فلم يَدَعْ غايةً فى التعلم والدِّراية ، والتقلد والفِقه ، إلا سلَّطنا عليها بسُلطان الله[2] الذى آتاه ، علَّمنا الفضائل ، ثم فضَّلَنابها ! غلَبَ لنا الأمم ، ثم خوَّلَنَاها[3] ، علَّمَنا طرائقَ الشرف ، ثم شرَّفنا بها ، أخبرَنا عن الأنْباء فكفانا مُؤْنَةَ التماسها ، وأغنانا بما عنده فيها ، أخَذَ على أيدينا الخيرَ للرعية فوهب لنا شُكرَها ، وَصدَّق مقالتَنا عند الشُّبْهة ، وَأنفَذَ أمرَنا فى التدبير .

فيأيُّها الإمامُ المنصورُ المهدىُّ الرشيدُ : حُزْتَ فضائلَ الآباء ،

---

(١) العناة : جمع عان ، وهو الأسير .

(٢) فى الأصل « فلم يدع غاية التعليم والدراية سلطانا بسلطان الله الذى آتاه فلم يدع غاية فى التقلد والفقه ، علمنا الفضائل ... » .

(٣) خوله الله المال : أعطاه إياه متفضلا .

واهتديتَ بهُدَى الأنبياء، أنشكُرُكَ عن الإسلام؟ فأنت القائمُ به، الداعى له، والناصِرُ لحقه، أم نشكرك عن الأمصار؟ فأنت المفتتِح لمتنِعها عَنْوَةً[1]، والمتطوِّلُ على أهلها بالرحمة، والمنعطِفُ عليهم بحسن الفائدة، بعد ما هيَّجت منك سَوْرَةُ[2] الغضب، فأطفأتَ نارَها، وأخمدْتَ لهبَها، وعُدْتَ على مَن سَفِه وأضاع حظَّه، أم نشكرك على المساجد؟ فأنت الذى أسَّسْتَها على التقوى، وعَمَرتها بتلاوة القرآن، وطهَّرْتَ المنابرَ وركبتها، تعلوها صائمًا، وتنطق عليها صادقا، وتدعو إلى الرُّشد عليها ناصحا، وتختِم القرآن قبل أن تَبْدَأها مُحسِنا، وتتلومِن قوَارعه[3] ما تُصيخُ لهُ الأسماعُ، وتَلين به القلوبُ، أم نشكرك على البيت العتيق، والرُّكن والمَقام والحَجَر وزَمْزَم، وَمشاعِر الحج[4]؟ وأنت ذَبَبْتَ عنها، وأعدتَ إليها عهدها فى مَبْعَث نبيها صلى الله عليه وسلم، فأمَّنْتَ النازِع[5] إليها من كل فجٍّ عميق، والحالِّين بها من الرُّكع السُّجود، أم نشكرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما حفظتَ فيه من عِتْرَته[6]؟ بعفوك عن مُجْرِمهم، ومضاعفَتِك ثوابَ مُحْسِنهم، وإحيائك من أمرهم ما كان قد اندَرَسَ وانطمس، مُعِدًّا للقاء نبي الله صلى الله عليه وسلم، وقد رعيتَ منهُ فى قرابته وقرابتك وذوى رَحِمه ورَحِمك ماضيَّع الناسُ، ووصلتَ منهم ما كان وَصَلَه، إذ كان الله عز وَجل قد

(١) العنوة: القهر. (٢) أى حدته.
(٣) أى من آياته الشديدة القرع، وأصاخ له: استمع.
(٤) مشاعر الحج: معالمه التى ندب الله إليها وأمر بالقيام بها، جمع مشعر كمذهب.
(٥) نزع إليه كضرب: اشتاق، والفج: الطريق الواسع.
(٦) العترة: نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون.

فَرَضَ صِلةَ الأرحام ، فكان أطوع خلْقِ الله عز وجل فيما فَرَضَ عليه ، أم نشكرك عن العوامّ ؟ فقد ألبستَ المسلمين ثوبَ الأمْن ، وَأذقتهم طعم السَّعة والرَّفاغة [١] ، وَعَدَلْتَ بينهم بالإنصاف ، وتوَلَّيْتَ دونهم النَّصَبَ ، وَآثرْتَهم بالرَّاحة ، أم نشكرك عن الملوك وَالقواد والأجناد ؟ فأنت الذى رفعتَ منازلهم، ووفَّرتَ عددهم، فلم يكونوا فى دهرِ أحدٍ من الخلفاء أسعدَ ولا أحظى منهم فى سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المَعاوِن، وَولَّيتَهم من الثغور وَالأمصار، وَأَدْرَرْتَ عليهم من الأرزاق وَالخواصّ ، أم نشكرك عن الأحكام والسنَن ؟ فأنت الذى أنهجتَ [٢] سبيلها ، فأوجبتَ فَرْضها ، ونافستَ فى أهلها ، أم نشكرك عن الأعداء ؟ فأنت الذى بدأتهم بالحجَّة ، وَدعوتهم إلى الفَيْئة [٣] والإنابة، ثم ثنَّيْتَ مُعَقِّبا بالعفو ، وَنَعشتهم بعد البؤس ، وَآنَسْتَهم من الوحشة، أم نشكرك على مكارم الأخلاق ؟ فأنت الذى ثَبَّتَّ وِطاءها [٤] ، ونفَيتَ عنها أضدادَها ، ولو نطقتْ بالفضل لنطقَتْ بشكرك فى إزَالتك إياها عن اللئام ، وإخطائك مَن اعتزَى [٥] (منهم) إليها ، أم نشكرك عن الثغور ؟ فأنت الذى تمَّمتها وحصَّنْتَ عوراتِها [٦] ، أم نشكرك عن السَّلَف ؟ فأنت الذى أشدْتَ بفعالهم ، وحَفِظتَهم فى أبنائهم ، أم نشكرك عن بُرْد رسول الله صلى الله عليه وَسلم وعن القضيب الذى (كَان) يَتخصَّر [٧] ، حتى جعلتهما زينتك ،

---

(١) الرفاغة : الرفاهية .

(٢) أى أوضحت . (٣) الفيئة : الرجوع .

(٤) فى الأصل « وطأتها » .

(٥) أى انتسب . (٦) فى الأصل « عنراتها » .

(٧) أى يمسكه بيده .

وسَمَوْتَ بهما فى أعيادك عند حَشْدك على الطُّهر والزكاة والنُّسك والتقوى ؟ أم نشكرك عن المسلمين ؟ فى رعايتك إياهم ، وما تُرْعيهم من جَنابك ، وتَنفِي عنهم من الآفات ، وتفُلّ[1] عنهم مِن جَبابرة الكفر ، وتَفُضّ من جيوش الشرك والنَّكْث ، وتفتح من الحصون المستصعَبة ، وتسهّل من الطرق الوَعْرة : أم نشكرك عن تواضعك لله عز وجل ولِصالِح المسلمين طلباً للرِّفعة عند الله ؟ أم نشكرك عن الدين ؟ وقد جعلتَ السلطان عَبْدًا وقائدا ومنفِّذا ، وكان مأمورا فجعلتَه آمِراً ، وآلةً للقوة فجعلت القوةَ له آلةً .

فيامَن اتصلَ شكرُه بشكر الله عز وجل ، ونعمتُه بنعمة الله تعالى ، وطاعتُه بطاعة الله ، فوهَبَ اللهُ لك شَرَفَ المنازل ، ورقّاك دَرَج الفضائل ، وجزاك الله عنا وعن غيرنا ، مما شكرَ مِن ناطقٍ أوصامِت ، جزيل الثواب ، ورفيعَ الدرجات ، وأمْتَعَك ما آتاك ، وأمتع الأمةَ ما آتاهم منك ، والحمد لله ذى الرَّغبات ، ومتمِّم الصالحات ، شكراً لربِّ العالمين ، فإنه مَبْلغُ طاقتنا ، ومنتَهى جَهْدِنا ، وبه نستعين على تأدية فرائضه ، إنه لا يُعين على ذلك إلا هو .

أحببتُ أن أشكرَ إليكم أميرَ المؤمنين ـ أيَّده الله ـ إذ ورد علىَّ من إنعامه وإفضاله مالا أبْلُغه بالفعل ، وأن يكون ما اقتصَصْنا عليكم داعيا لكم إلى أن تشكروه عنا وعن أنفسكم وعن الإسلام والمسلمين ، وَرجوتُ بما وَفّقنا الله له فيما شرَحْنا وأوضحْنا من الدلالة والبيان ، أن يكون مجتمِعاً ينتفع

(١) فلّ القوم كنصر : هزمهم .

به مَن حَضَرَنا ، ومَن عسى أن يُؤدَّى إليه الخبرُ عنا ، أو حُدث بعدنا ، وَضَنَنْتُ بهذه المكرُمة الرائعة والمأثُرَة البارعة التى ادّخرها الله لأمير المؤمنين ـ أعز الله نصره ـ وأفرَدَه بها دون الأئمة والخلفاء ، أن تَمُرَّ بالأسماع صَفْحا ، وتجتازَ على القلوب سَهْوا ، حتى تؤكّد بالشواهد والبرهان ، ليبقَى ذِكرُها ونفعُها فى الخُلوف والأعقاب .

ونحن نسأل الله عز وجل الذى جمع بأمير المؤمنين ـ مَدَّ الله فى عمره ـ أُلفتَنا ، وعلى طاعته أهواءنا وضمائرنا ، وأنالنا من الغِبْطة فى دولته وسلطانه مالم تَحْوِه شيعةُ إمام ولا أنصار خليفة ، أن يُتمَّ نورَ أمير المؤمنين ، وَيُعلِيَ كعْبَه ، وَيمتّعَنا ببقائه حتى يبلغه سُؤله وهمَّته فى الاستكثار من البرِّ ، وادّخار الأجر ، واستيجاب الحمد والشكر ، وأن يَلُمَّ به الشَّعَثَ ، ويَرْأَبَ به الصَّدْع ، ويُصْلح على يديه الفساد ، ويرتُق به فُتوقَ هذه الأمة ، وَيُثْخِن[1] بسياسته ونِكايته فى عدوها ، وَيتابعَ الفتوحَ فى بُلدانهم حتى يُؤْتيَهُ من نُجح السّعى ، وَرَغائب الحظّ فى الدنيا ما يُجْزِل عليه ثوابه فى الآخرة ، وأرشَدَ نُجَباءه وأصفياءه الذين يقول لهم : « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٦٦)

(١) أثخن فى العدو : بالغ الجراحة فيهم .

٢٢١ — كتاب المأمون إلى الحسن بن سهل يعزيه بأخيه

فصل من كتاب المأمون إلى الحسن بن سهل يعزيه بذى الرياستين :

« وقد أبقَى اللهُ لأمير المؤمنين خَلَفًا مِن خيرِ سَلَف ، افتقاداً منك لأثَرِ ذى الرياستين ـ نضَّرَ اللهُ وجهَه ورَحِمَه ـ وسلوكا منك لمذهبه وكفايتِه لأمير المؤمنين ، وعائدتِه(١) عنه ، واجتهادِه فى طاعته ، ومعاونتِه على نيّته ، وابتذالك نفسَك فى إعزاز دولته ، وجهادِ عدوه ، والمحاماةِ عن سلطانه ، وحلولاً من قلب أمير المؤمنين محلَّه فى علوه وارتفاعِ مكانه ، إذ كنت شقيقَه وشبيهه ، والجاريَ عند أمير المؤمنين فى الأُنس والثِّقَة والتقديم مَجْرَاه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٥)

٢٢٢ — كتاب المأمون إليه يعزيه بأبيه

وفصل من كتاب المأمون إليه بالتعزية بأبيه سهل :

« وقد جَرَى من قضاء الله عزَّ وجل على أبى الفضل رَحِمه الله ، بعَقِب المصيبة بذى الرياستين رَحِمه الله ، ما عظُمَ مَبْلَغُه من أمير المؤمنين ، ووصل إليه من مَضَضٍ وألمٍ هَدَّه ، لِأُنسِه كان بمكانه ، ومَحِلِّه كان من قلبه ، ولمعرفته بمَوْقِع ذلك عندك ، وما تجدَّد لك من الوَحْشة والوَجد واللَّوْعة لوفاته ، لأن المصائب لو تأخرتْ عن أمير المؤمنين وعنك بعد المصيبة بذى الرياستين رضى الله عنه عِدَّةَ سنين ، لَمَا عَفَا أثَرُها ، ولا اندمَلَ كَلْمُها(٢) ، ولا سَكَن

---

(١) العائدة : المنفعة . (٢) الكلم : الجرح .

رَوْعُها ولا موقِعُها مِن فِكره ، فأعظمَ الله لأمير المؤمنين الأجْرَ فيه على عظم الرزية ، وأحسنَ عُقباه وعُقْباك منه ، وَرَبَطَ(١) على قلبه وقلبك ، وعزَم لك من الصبر على ما يُرضيه عنك، وسَدَّ الله كل ثُلْمة انثلمَتْ عليك ، ورَحِم الله أبا الفضل رحمةً تأتى من وراء زَلَلِه ، وتعَفَّى على فَرَطات لسانه ويده ، آنسَ الله أمير المؤمنين ببقائك ، ودفع الأسواءَ والمكارهَ عنك بقدرته » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٥)

٢٢٣ — كتاب المأمون إليه

ومن كتاب المأمون إلى الحسن بن سهل بالإحماد له على كفايته :

« أما بعد . فإن أمير المؤمنين إذا فكَّر فى نعمة الله عليه منذ استخلفه فى أرضه ، واستحفظه دِينَه(٢) وعبادَه ، وألهمه من طاعته ، وجعل عليه رأيه وهمته ونيّته فى إقامة حقه ، وبَسْطِ عدله ، والعمل بفرائضه وأحكامه ، وعَضَدَه به منك ، وجعل عندك من النية فى مساعدته ومعاونته على مافيه القُرْبة إلى الله عزّ وجل ، وَدَرْكُ رضوانه والقيام بما استكفاه من أمور ، ونُجْح السعى فى إعزاز الدين وتأييده . ووَقْمِ(٣) الشركِ وتدويخه ، وتابَعَ له من الفتوح على يدك فى صنوف أعدائه ، من شرق الأرض وغربها ، وسَهْلها وجبلها ، وسَهَّل له البُلدانَ المستصعَبَة على غيره ، حتى دَانَ له عظماؤها ، وانقادت له رؤساؤها ، وقِيدَت إليه أشرافُها ، وحُمِلت إليه أربابُها ، رَأى أنه

---

(١) ربط الله على قلبه : ألهمه الصبر وقواه .

(٢) فى الأصل « منه » . (٣) وقمه : قهره وأذله .

قد عَضَده منك بما لا تبلُغُ الأوهامُ وَصْفَه، ولا العقولُ كُنْهَه، فالحمد لله رب العالمين على ذلك حمداً كثيراً، وشكراً دائماً».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٢)

٢٢٤ — كتاب الحسن بن سهل إلى المأمون

وتزوج المأمونُ بُوران بنت الحسن بن سهل، فكتب إليه الحسن بعد أن زُفَّتْ إليهُ بورانُ، وتوَهَّمَ القُوَّادُ أنْ هذا التزويج قد أنْسَى الحسنَ حاله قبل ذلك:

«قد تولَّى أميرُ المؤمنين مِن تعظيم عَبْدِه، فى قبول أَمَتِه، شيئا لا يتَّسع له الشكرُ عنهُ إلا بمعونة المِحَن[1] لأمير المؤمنين — أدام الله عزه — فى إخراج توقيعِهِ بتزيين حالى فى العامَّة والخاصَّة بما يراه فيهِ صوابا إن شاء الله».

فخرج التوقيع:

«الحسنُ بن سَهل زمامٌ على ما جمَعَ أمورَ الخاصَّة، وكَنَفَ[2] أسبابَ العامَّة، وَأحاط بالنفقات، وَنفَذَ بالْولاة، وَإليه الْخَراجُ وَالبَريد وَاختيار القضاة، جزاءً بمَعْرفته بالحال التى قرَّبَتْهُ منا، وَإثابةً لشكره إيانا على ما أولينا».

(زهر الآداب ٢ : ٣٠)

---

(١) محنه كنعه: اختبره، والاسم المحنة بالكسر والجمع محن.

(٢) كنفه كنصره: صانه وحفظه وحاطه.

٢٢٥ — كتاب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضى

وَكتب الحسن بن سَهْل إلى محمد[1] بن سَماعة القاضى :

« أما بعدُ : فإنى احتجتُ لبعض أمورى إلى رجل جَامعٍ لخصال الخير، ذى عِفَّةٍ وَنَزاهةِ طُعْمةٍ[2] ، قد هذَّبتْه الآداب ، وَأحكمتْه التجاربُ ، ليس بظَنِين[3] فى رأيه ، وَلا بمطعونٍ فى حَسَبِهِ ، إن اؤْتُمِن على الأسْرار قام بها ، وَإن قُلِّد مُهمًّا من الأمورِ أَجْزَأَ فيهِ[4] ، له سِنٌّ مع أدبٍ ولسانٍ ، تُقْعِده الرَّزانةُ ، وَيسكِّنهُ الحِلْمُ ، قد فُرَّعن ذكاء وفِطنة ، وعَضَّ على قارِحِه[5] من الكمال ، تَكفِيه اللَّحْظَةُ ، وتُرْشِده السَّكْتة ، قد أبصر خِدْمة الملوك وأحكَمَها ، وقام فى أمورهم فحُمِد فيها ، له أَناةُ الوزراء ، وصَولة الأمراء ، وتواضُعُ العلماء ، وَفَهْم الفقهاء ، وَجوابُ الحكماء ، لا يبيع نصِيبَ يومه بحِرْمان غده ، يكاد يسترِقُ قلوبَ الرجال بحلاوَة لسانه ، وحُسْن بيانه ، دَلائلُ الفضل عليهِ لائحةٌ ، وَأماراتُ العلم له شاهدة ، مُضْطلعا[6] بما استُنهِض،

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سماعة التميمى ، كان فقيها ، وولى القضاء ببغداد بالجانب الغربى ، وتوفى سنة ٢٣٣ — انظر الفهرست ص ٢٨٩ .

(٢) الطعمة : وجه المكسب . (٣) الظنين : المتهم .

(٤) أجزأ : أغنى وكفى .

(٥) فرّ : أى فتش وجرّب . وأصله من فرّ الدابة : إذا فتح حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها ، وقرح الفرس قروحا : إذا ألقى أقصى أسنانه ، وله أربع أسنان يتحول من بعضها إلى بعض ، يكون جذعا (بالتحريك) وذلك إذا كان فى السنة الثانية ، ثم ثنيا (بفتح فكسر مع تشديد الياء) فى السنة الثالثة ، ثم رباعيا (بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء) إذا سقطت رباعيته ونبت مكانها سن ، وذلك إذا استتم الرابعة ، ثم قارحا إذا سقطت السن التى تلى رباعيته ونبت مكانها نابه ، وهو قارحه الذى صار به قارحا ، وليس بعد القروح سقوط سن ولا نبات سن ، وذلك إذا استتم الخامسة ودخل فى السادسة ، والمعنى هنا : تامّ التجربة .

(٦) اضطلع به : قوى على حمله ، واستقله : حمله ورفعه .

مستقلا بما حُمِّلَ ، وقد آثَرْتُك بطلبه ، وحَبوْتُك[1] بارتيادِه ، ثِقَةً بفضل اختيارك ، ومعرفةً بحسن تأتِّيك[2] » .

٢٢٦ — رد ابن سماعة عليه

فكتب إليه :

« إنى عازمٌ أن أرْغَبَ إلى الله جل وعز حَوْلا كاملا فى ارتياد مِثْل هذه الصفة ، وأفرِّق الرُّسُلَ الثِّقاتِ فى الآفاق لالتماسه ، وأرجو أن يَمُنَّ الله بالإجابة ، فأفوزَ لديك بقضاء حاجتك والسلام » (الأمالى ١ : ٢٥٣)

٢٢٧ — كتاب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب

وكتب الحسن بن سهْل إلى الحسن بن وَهْب[3] وقد اصطَبَح[4] فى يوم دَجْنٍ لم يُمْطِر :

(١) حباه : أعطاه ، والمعنى هنا : وخصصتك ، والارتياد : الطلب .

(٢) تأتى للأمر : ترفق وأتاه من وجهه .

(٣) هو الحسن بن وهب بن سعيد . كان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات (وزير المعتصم والواثق والمتوكل ، وسيأتى) وقد ولى ديوان الرسائل ، وكان شاعرا بليغا مترسلا فصيحا ، وأحد ظرفاء الكتاب ، وكان هو وأخوه سليمان بن وهب (الذى وزر للمهتدى بالله ، والمعتمد على الله ، وتوفى سنة ٢٧٢) من أعيان عصرهم . وكان جده سعيد فى خدمة آل برمك ، وتحوّل ولده وهب ابن سعيد إلى جعفر بن يحيى، ثم صار بعده فى جملة ذى الرياستين الفضل بن سهل، وآل وهب من قرية من أعمال واسط وكانوا نصارى ثم أسلموا ، وخدموا فى الدواوين حتى آلت بهم الحال إلى ما آلت ، وكانوا من رؤساء الناس وحذاقهم وفضلائهم وكرمائهم » انظر الفهرست لابن النديم ص ١٧٧ ووفيات الأعيان ١ : ٢١٦ (فى ترجمة سليمان بن وهب) والفخرى ص ٢٢٣ و ص ٢٢٦ .

(٤) اصطبح : شرب الصبوح ، والصبوح بالفتح : شرب الغداة (أول النهار) — والغبوق بالفتح أيضا : شرب العشى — والدجن . إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء .

« أَمَا تَرَى تَكافُؤَ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بِقُرْب المطر وَبُعْدِه كأنه قول كُثَيِّرٍ (١) :

وإني وَتَهْيامِي بعَزَّةَ بعدما ... تخلَّيتُ مما بيننا وتخلَّتِ (٢)

لَكَالمُرْتَجِي ظِلَّ الغَمامةِ ، كلما ... تبوَّأَ منها لِلمَقِيل اضمَحلَّتِ (٣)

وما أصبحَتْ أُمْنِيَتِي إلا في لقائك ، فليت حِجابَ النأْي هُتِكَ بيني وبينك ، ورُقعتي هذه وقد دارت زجاجاتٌ أوقعَتْ بعقلي ولم تَحيَّفْه (٤) ، وَبعثَتْ نشاط حركتي للكِتاب (٥) ، فرأيك في إمطاري سروراً بسارٍّ خَبرِك ، إذ حُرِمْتُ السرُور بمطر هذا اليوم موفَّقا إن شاء الله » . (زهر الآداب ٢ : ٥٨)

٢٢٨ — رد الحسن بن وهب عليه

فكتب الحسن بن وهب :

« وصل كتابُ الأمير — أيَّده الله — وَفِي طاعِمٌ ، وَيدى عامِلة ، ولذلك تأخَّرَ الجواب قليلا ، وقد رأيتُ تَكافُؤَ إحسانِ هذا اليوم وَإساءتِه ، وما استوجَبَ ذنبا استحقَّ به ذما ، لأنه إذا أشمَسَ حَكَى حُسنَك وضِياءك ، وإن أمطر حَكَى جُودَك وسَخاءك ، وَإن غامَ أشْبَه ظِلَّك وفِناءك ، وسؤالُ الأمير

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمن ، شاعر أمويّ مشهور ، والبيتان من تائيته المعروفة التي مطلعها :

خليليّ هــذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم انظرا حيث حلت

(٢) الهيام بالضم : كالجنون ، من العشق . والتهيام : بناء موضوع للتكثير .

(٣) قال يقيل مقيلا : نام في القائلة (نصف النهار) .

(٤) تحيفه : تنقصه من حيفه أي نواحيه . والحيف كعنب ، جمع حيفة بالكسر ، وهي الناحية .

(٥) مصدر كتب كالكتابة .

عنى نعمةٌ من نعم الله عز وَجل علىَّ ، أُعَفِّى(١) بها آثارَ الزمَان السيِّئ عندى ، وأنا كما يُحِبّ الأمير ، صَرَف الله الحوادِثَ عنه وعن حظِّى منه » .

(زهر الآداب ٢ : ٥٩)

٢٢٩ — كتاب المطلب بن عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل

وكتب المطلب بن عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل فى رجل توسَّلَ به :

«طلبُ العافينَ(٢) الوسائِلَ إلى الأمير ـ أعزّه الله ـ يُنْبِئُ عن شُرُوع(٣) موارِدِ إحسانه ، ويدعو إلى معرفة فضله ، وما أَنْصَفَه ـ أعزّه الله تعالى ـ مَن توسَّلَ إلى معروفه بغَيْره ، ورَأْىُ الأميرِ فى التطوُّل(٤) على مَن قصُرَتْ معرفتُه عن ذلك ما يريد الله تعالى فيه مُوَفَّقاً » .

٢٣٠ — رد الحسن بن سهل عليه

فكتب إليه الحسن :

« وصَلَك اللهُ فيما وصلْتَنى فى صاحبك من الأَجْر والشكر ، وأراكَ الإحسانَ فى قَصْدِكَ إلىَّ بأمتثاله برضاً يُفيدكَ شُكْرُه ، ويُعقبُك أجْره ، ورأيُك فى إتمام ما ابتدأت به ، وإعلامى ذلك مشكورًا » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٨٧)

---

(١) أى أزيل وأمحو . (٢) العافى : كل طالب فضل أو رزق .

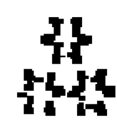
(٣) شرعت الدواب فى الماء كمنع شرعا وشروعا : دخلت . (٤) التطول : التفضل .

٢٣١ — ومن فصول الحسن بن سهل

فصل له :

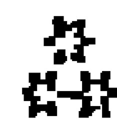
« فلان قد استغنى باصطناعك إيّاه عن تحريكي إياك في أمره ، فإن الصنيعة حُرْمةٌ للمصنوع إليه ، ووسيلة إلى مُصْطَنِعه ، فبَسطَ اللهُ يدَكَ بالخيرات ، وجَعَلَك من أهلها ، ووصَلَ بك أسبابَها » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٣)



وفصل له :

« موصِّل كتابي إليك أنا ، فكن له أنا ، وتأمَّلْه بعين مشاهدتي وخُلَّتي[1] ، فبلسانِه أشكرُ ما أتيتَ اليه ، وأذُمُّ ما قصَّرتَ فيه »



وكتب يصف عقل المأمون .

« وقد أصبح أمير المؤمنين محمودَ السِّيرة ، عفيف الطُّعْمَة[2] ، كريم الشِّيمة ، مُبارَك الضَّريبة[3] ، محمود النَّقيبة[4] ، مُوفيًا بما أخذ اللهُ عليه ، مطَّلِعًا[5] بما حمَّلَه منه ، مؤدِّيا إلى الله حقَّه ، مُقرًّا له بنعمته ، شاكرًا

(١) الخلة : الصداقة المختصة لاخلل فيها . (٢) الطعمة : وجه المكسب ، والمأكل .

(٣) الضريبة : الطبيعة .

(٤) النقيبة : النفس ، والظاهر أنه « ميمون النقيبة » لتقدم كلمة محمود .

(٥) يقال : هو بهذا الأمر مضطلع ومطلع ، فالاضطلاع من الضلاعة وهي القوة ، والاطلاع من العلوّ من قولهم : اطلعت الثنية، أي علوتها ، أي هو عال لذلك الأمر مالك له .

لآلائه(١) ، لا يأمر إلا عَدْلا ، ولا ينطق إلا فَصْلا ، عِبْئاً لدينه وأمانته ، كافًّا ليده ولسانه » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

٢٣٢ — كتاب الفضل بن الربيع إلى المأمون

وروى صاحب زهر الآداب قال :

ولما أمر المأمون أن يُحْجَب عنه الفضلُ بن الربيع لسببٍ تألم قلبه منه كتب إليه :

« يا أمير المؤمنين ، لم يُنْسِنِي التقريبُ حالِي أيامَ التبعيد ، ولا أغْفَلتْنى المؤانسةُ عن شكر الابتداء ، فعَلَى أيِّ الحالين أُبْعَدُ من أمير المؤمنين ، ويَلْحَقنى ذمُّ التقصير فى واجب خدمته ؟ وأميرُ المؤمنين أعدَلُ شُهودى على الصدق فيما وصفتُ ، فإنْ رَأَى أمير المؤمنين أن لا يكتُم شهادتى فَعَلَ إن شاء الله » . (زهر الآداب ١ : ٣٤٣)

٢٣٣ — كتاب أحمد بن يوسف إلى المأمون

وكتب أحمد بن يوسف إلى المأمون حين كثُر الطُّلاب للصِّلات ببابه :

« إنَّ داعِيَ نَدَاك ، ومُنادِيَ جَدَاك(٢) ، جَمَعا ببابك الوُفودَ ، يرجُون

(١) الآلاء : النعم .

(٢) وفى رواية نهاية الأرب « جدواك » . والجدا والجدوى : العطية.

نائِلَك العَتِيدَ(١). فمنهم مَن يَمُتُّ(٢) بحُرْمة، ومنهم من يُدْلِي بسالِفِ خِدْمة، وقد أَجْحفَ بهم المُقامُ، وطالت عليهم الأيامُ، فإنْ رَأى أميرُ المؤمنين أن يَنْعِشهُم بسَيْبِه(٣)، ويحقّق(٤) حسن ظنهم بطَوْله، فعلَ، إن شاء الله تعالى».

فوقع المأمون فى كتابه:

الخير مُتَّبَعٌ، وأبوابُ الملوك مَغانٍ(٥) لطالبي الحاجات، ومواطِنُ لهم، ولذلك قال الشاعر:

يَسْقُطُ الطيرُ حيثُ يلتقِطُ الحَبَّـ * ـبَ وتُغْشَى منازِلُ الكُرماء

فاكتب أسماء من ببابنا منهم، وَاحْكِ مراتبَهم ليصيرَ إلى كل امرئ منهم قَدْرُ استحقاقِه، ولا تكدِّرنَّ معروفنا عندهم بطول الحِجاب، وتأخير الثَّوَاب(٦)، فقد قال الشاعر:

فإنك لَن تَرَى طَرْدًا لِحُرٍّ كإلْصاقٍ به طَرَفَ الهوانِ
ولم تَجْلِبْ مودةَ ذى وفاءٍ بمثلِ الودِّ أو بَذْلِ اللسانِ

(زهر الآداب ٢: ٣٩، ومعجم الأدباء ٥: ١٦٩، ونهاية الأرب ٧: ٢٦٠)

---

(١) النائل: العطاء. والعتيد: الحاضر المهيأ، وفى رواية معجم الأدباء «المعهود».

(٢) يمتّ: يتوسل، وأدلى برحمه: مت بها، وأدلى بحجته: احتج بها.

(٣) السيب: العطاء، ونعشه كمنعه وأنعشه ونعّشه: جبره بعد فقر.

(٤) وفى نهاية الأرب «ويحتوش»، واحتوش القوم فلانا: جعلوه وسطهم. والمعنى: ويحرز حسن ظنهم» والطول: الفضل.

(٥) المغانى: جمع مغنى كمرمى، وهو المنزل، وفى نهاية الأرب «وأبواب الملوك مواطن لذوى الحاجات» وفى زهر الآداب «وأموال الملوك مظان لطلاب الحاجات».

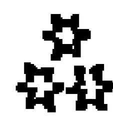
(٦) وفى زهر الآداب ونهاية الأرب «بالمطل والحجاب».

٢٣٤ — كتابه إلى المأمون

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يوم نَوْرُوز [1] طَبَقَ جَزْعٍ [2] ، عليه مِيلٌ من ذهب ، فيه اسمه منقوشا ، وَكتب إليه :

« هذا يومٌ جَرَتْ فيه العادةُ ، بإِلْطَافِ [3] العبيدِ السَّادَةَ ، وقد بعثتُ إلى أمير المؤمنين طَبَقَ جَزْعٍ فيه مِيلٌ » .

فلما قرأ المأمون الرُّقعة قال : جاءت هدية أحمد بن يوسف ؟ قالوا : نعم ، قال : هى فى دارى ، أم دارى فيها ؟ فلما رفع المِنديل استظرف الهديةَ ، واسترجَحَ مُهدِيها . (زهر الآداب ٢ : ٤٠)



وفى رواية أخرى :

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يوم نوروز سَفَطَ ذهبٍ فيه قطعةُ عُودٍ هندى فى طُوله وعَرْضه [4] ، وكتب معهُ :

« هذا يوم جَرَتْ فيه العادةُ ، بإتحاف العبيد السادةَ ، وقد قلتُ :

على العبدِ حقٌّ فهْوَ لا شكَّ فاعِلُهْ ... وَإن عَظُم المولَى وجَلَّتْ فواضِلُهْ [5]

---

(١) النيروز والنوروز . أول يوم من السنة ، فارسى معرب ، وهو عند القبط أول توت .

(٢) الجزع بالفتح ويكسر : الخرز اليمانى فيه سواد وبياض ، تشبه به الأعين . والميل بالكسر (والململ كعصفور) : المكحال الذى تكحل به العين — ويقال أيضا للحديدة التى يكتب بها فى ألواح الدفتر ململ .

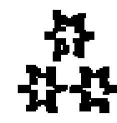
(٣) ألطفه : أتحفه ، واللطفة بالتحريك . الهدية .

(٤) وفى الفخرى والأوراق : « هدية قيمتها ألف ألف درهم » .

(٥) وفى الفخرى « فهو لابد » والفواضل : الأيادى الجسيمة أو الجميلة .

ألم تَرَنا نُهْدِى إلى اللهِ مَالَهُ ... وإن كان عنه ذا غِنًى فهو قابِلُهْ
فلو كان يُهْدَى للجليل بقَدْرِه ... لقصَّرَ عنهُ البحرُ يوما وساحِلُهْ
ولكننا نُهْدِى إلى مَن نُجِلُّه ... وإن لم يكن فى وُسْعِنا ما يشا كِلُهْ

(صبح الأعشى ٢ : ٤٢٠ ، ومعجم الأدباء ٥ : ١٧٢ ، والفخرى ص ٢٠٦ ،
والأوراق لأبى بكر الصولى ١ : ٢١٢)



وفى رواية أخرى للصولى :

وأهدى أحمد بن يوسف هدية إلى المأمون فى عيد وكتب إليه :

« هذا يوم جرت فيه العادة ، بإهداء العبيد للسادة ، وقد أهديتُ لأمير المؤمنين قليلاً من كثيره عندى ، وقلتُ :

أهدَى إلى سيِّده العبدُ ... ما ناله الإمكانُ وَالجَهْدُ (١)
وإنما أهدَى له مالَه ... يَبْدَأُ هذا ، ولِذَا رَدُّ

فقال المأمون : ماقل أهدَى حَسَنا . (الأوراق لأبى بكر الصولى ١ : ٢١٦)

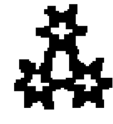
٢٣٥ — كتابه إلى إبراهيم بن المهدى

وأهدى أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى مِلْحا مُطيَّبا وكتب إليه :

« الثقةُ بك قد سهلَت السبيلَ إليك ، فأهديتُ هدية مَن لا يحتشمُ ، إلى من لا يغتَنِمُ » . (زهر الآداب ٢ : ٤٠ ، والعقد الفريد ٣ : ٣٠٨)

---

(١) الجهد بالفتح ويضم : الطاقة .



وقال ابن طيفور :

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى فى هدية استقلَّها :

« بلغنى استقلالُك لما ألطفتُك ، والذى نحن عليه من الأُنْس سَهَّل علينا قلةَ الحَشْدِ لك فى البرّ ، فأهدينا هديةَ مَن لا يحتشم إلى مَن لا يغتنم » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠)

٢٣٦ — كتاب له عن المأمون

وقال أحمد بن يوسف :

أمرنى المأمون أن أكتب إلى النواحِي فى الاستكثار من القناديل فى المساجد فى شهر رمضان ، فأعيا علىّ ولم أجد مثالا أحتذِى عليه ، فبتُّ مغموما[١] ، فأتانى آتٍ فى منامى فقال : اكتب :

« فإن فى ذلك عمارةً للمساجد ، وإضاءةً للمتهجِّدين[٢] وأُنْسا للسَّابلة[٣] ، ونفيْاً لمَكامِنِ[٤] الرِّيَب ، وتنزيها لبيوت الله جل وعز عن وَحْشَة الظُّلَم » :

فانتبهت وقد انفتح لى ما أريد فابتدأت بهذا وأتممت عليه[٥] .

(كتاب بغداد ٦ : ٢٣٧ ، وزهر الآداب ٢ : ٤٠ ، وكتاب الصناعتين ٢٢ ، والأوراق للصولى ١ : ٢٣١)

---

(١) فى الأوراق « فبت لا أدرى كيف أفتتح الكلام ولا كيف أحتذيه » وفى الصناعتين « فبت لا أدرى كيف أحتذى » .

(٢) المتهجد : المصلى بالليل .

(٣) السابلة : الجماعة المختلفة فى الطرقات فى حوائجهم .

(٤) وفى كتاب بغداد « لمظانّ » .

(٥) وفى زهر الآداب « فأخبرت بذلك المأمون فاستظرفه وأمر أن تمضى الكتب عليه » .

٢٣٧ — كتابه إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له

وكتب أحمد بن يوسف إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

« بَارَكَ اللهُ في مولودك الذى أتاك ، وهَنَأَكَ نِعْمَتَه بعطيَّته ، ومَلاَّكَ[1] كرامَتَه بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله بارًّا تقيًّا ، مَيْمونًا مباركا زَكِيًّا ، مَمْدودًا له فى البقاء ، مُبَلَّغًا غايةَ الأمل ، مشدوداً به عَضُدُك ، مُكَثَّرا به ولدُك ، مُدامًا به سُرورُك ، مدفوعا به الآفاتُ عنك ، مشفوعا بأكثر العَدَد ، من طيِّب الولد » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٠٣)

٢٣٨ — كتاب آخر

وكتب إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود أيضاً :

« أَمَّا بَعْدُ فقد بَلَغَنِى مِن مُتَجَدِّدِ نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلّ عَلَيْكَ ، وَإِحسانِهِ إليك ، فيما رزقك من الهِبَة ، ما اشتد جَذَلِى[2] به ، وسألتُ اللهَ أن يَشْفَعه بأمثاله ، ولذلك أقول :

قد شُفِع الواحدُ بالوافِدِ ... وأرْغِمَ الأنفُ من الحاسِدِ

أبا حُسينٍ : قَرَّ عَيْنًا بما ... أُعْطِيتَه من هِبَةِ الماجدِ[3]

وأكْثِرِ الشكرَ [جَزِيلاً] فقد ... نِلْتَ حِبَا الرِّفدِ من الرافِدِ[4]

---

(١) ملاّه الله حبيبه : متعه به وأعاشه معه طويلا .

(٢) الجذل : الفرح والسرور .

(٣) قرت عينه : رأت ما كانت متشوفة إليه .

(٤) حبا : مقصور حباء ، والحباء : العطاء بلا منّ (أو عامّ) والرفد: العطاء ، وما بين القوسين مفقود فى الأصل ، وقد زدته ليستقيم وزن البيت .

قد قلتُ لمّا بشّرونى به ... بُورِكَ فى المولود للوالِدِ
إنّا لَنَرْجو وافِدًا مثلَه ... والطائرُ الميمونُ للوافِدِ»

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٤)

٢٣٩ — كتاب آخر

وكتب إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

« أما بعد ، فإنه ليس من أمرٍ يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنتُ به بَهِجًا ، أعتدُّ فيه بالنعمة من الله الذى أوجَبَ علىَّ من حقك ، وعرَّفنى من جميل رأيك ، فزادك الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك

وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سَرِيًا[1] ، أجمَلَ لك صورته ، وأتمَّ خَلْقه ، وأحسن البَلاء[2] فيه عندك ، فاشتَدَّ سرورى بذلك ، وأكثرتُ حَمْدَ الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله بَارًّا تقيًّا ، يشد عَضُدَك ، ويُكثِرُ عددَك ، ويُقِرُّ عينك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٤)

٢٤٠ — كتاب آخر

« هَنَأَكَ اللهُ هذه الفائدةَ التى أفادَكَها ، وبارك الله فى الهِبة التى رَزَقَكَها ، وشَفَعها بإخوة متواتِرين ، يَسُرُّونك فى حياتك ، ويَخلُفونك فى عَقِبك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

---

(١) أى سيدا شريفا ، وصف من السرو : وهو المروءة فى شرف .

(٢) أى النعمة .

٢٤١ — كتابه فى تهنئة بإفراق من مرض

وكتب فى تهنئة بإفراق(١) من مرض .

« قد أذهب الله وَصَبَ(٢) العِلَّة ونَصَبها ، ووفَّر أجْرَها وثوابَها ، وجعل فيها من إرغام العدو بعُقباها ، أضعافَ ما كان عنده من السرور بفَتْح أولاها » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

٢٤٢ — كتاب له

وكتب :

« قد بذلْتَ لنا من نفسك أعزَّ مبذولٍ وأنفَسَه ، والمودةَ التى كل ما يُحْمَد من صاحبها فهو لها نافع ، وثِقتُنا بك واستنامَتُنا(٣) إلى ناحيتك على أحسن ما أكَّد الله بيننا وبينك ، وإن كان مَدَى اللقاء بيننا لم يَطُلْ ، فأثْلُ مِنْهُ(٤) ما يَرْعاه أهلُ الوفاء والمخالصة ، ويُقَصِّر فى المحافظة عليه وعلى أكثر منه مَن دُخِلَتْ نِيَّتُه ، وَضعفَتْ خُلَّته(٥) » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠)

---

(١) أفرق من مرضه : برئ . (٢) الوصب : الوجع .

(٣) استنام اليه : اطمأن وسكن .

(٤) أثله : أصله . (٥) الخلة : الصداقة .

٢٤٣ — كتابه إلى بعض أخلائه

وكتب إلى بعض الأخِلاَّء وقد اعتلّ :

« ورد كتابُ صاحبٍ عليّ ، يَذكُر شكوَى قِبَلَك ، فكرِهَ إلىّ الاستبداد عليك بالصّحة ، وقبّح عندى تركَ مشاركتِك فى العِلّة ، ولم يكن لى حَوْلٌ بتغيير ما قدّر اللهُ فى جسمى ، ولا بنَقْل ما ألمّ بجسمك إلىّ ، فاستقلّ[1] بألمِ قلبى ، وأسكنتُه همّى وكآبتى ، لأكون كأُسْوة المنقطعين إليك ، المنتظمين فى خيطك ، وجعلت ذلك شِعارَه فى علتك ، حتى يأتينى المرجوُّ من سلامتك ، وأخرتُ الكتابَ بالعِيادة ، وإرسالَ مَن يقوم مقامى فيها لديك ، لأنى إذا استقصيت فى الكتاب وَصْفَ ما يُداخِلنى طال ، فمقَقْتُ به من قصدتُ برَّه ، والرسُول فلا يحملُ ما يتضمنه صدرى ، فينثِل[2] كُنْهَ ما عندى ، وَلا يلقاك بسَحْنة[3] مُرْسِله ، التى تترجم عن نيته ، فإنى لكذلك أُمَيِّلُ[4] بين التقرير فى إتيانك قبل استئذانك ، أو تقدمةِ استطلاع رأيك ، إذ جاءنى البشير بإفراقك[5] وإقبالِ العافية إليك ، وظهور تباشيرها عليك ، فانحسَرَ[6] كل هم ، وزال كل غمّ ، ورحُبَ[7] من الأرض ما كان متضايقا علىّ ، واستقبلتُ أملا سرّتنى جِدّته ، وسُرِّىَ[8] عنى ما كنتُ أجده ،

---

(١) فى الأصل « فاستدل » وقد أصلحته « فاستقل » أى استبد واستأثر .

(٢) من نثل الكنانة كضرب : إذا استخرج نبلها فنثرها . والمعنى فيبلغ ويؤدى وربما كان الأصل « فينقل » .

(٣) السحنة . الهيئة .

(٤) ميل بين أمرين : تردد بينهما أيهما يأتى ، وفى الأصل « أمثل » وهو تصحيف .

(٥) أفرق من مرضه : برئ .

(٦) أى انكشف .

(٧) رحب : اتسع .

(٨) أى ذهب وانكشف .

فالحمد للهِ الذى أشجَى[1] عدوّك ، ولم يصدِّق طمعَه ، وأزل غُصَّة وَلِيِّك ، ولم يحقِّق حَذَرَه ، وأنا أسأل الله الذى وهب لنا إقالته[2] ، وساق إليك عافيتَه ، أن يَهَبَ لك عمراً زائداً على أمنيَّتك ، متجاوزا حَدَّ إحسانك ، مُوفِيا[3] على مَبلَغ ظنك ، ويصل العز لك فى أَمَدِه ، بكريم المنقلَبِ من بعده ، ويجعل حُسن بلائه عندك ، كَمَدًا فى صدر حاسدك ، وجمالا فى عين مؤمِّلك ، وسرورا للمتصلين بك إن شاء الله » . (الأوراق للصولى ١ : ٢٣٤)

٢٤٤ — كتاب له

وكتب :

« من قَصُر فى الشغل عمرُه ، قلَّ فى العُطْلة[4] صبرُه ، وما من وِجْهةٍ أؤمِّل فيها سَدَّ اختلالى ، إلا دَهِمتنى فيها خَيبةٌ تكسِفُ بالى ، وأنت مَن لا يتخطَّاه الأملُ فى أوان عُطْلته ، ولا يجاوز رجاءه الحِرمانُ فى حين ولايته ، وليس لذمّ عليك طريق ، ولا إلى مدحك سبيل ، لأنى إذا قلتُ فيك ما لا تُعرَفُ به ، عُورِضتُ بالتكذيب ، وإن أتيتُ بما لم تُولِنى ، طالبَتْ حالى بالتحقيق ، فلا يَرَى الناس فيها أثَرَ تصديق ، وقد صفِرَتْ يدى من فائدتك ، بعد أن كنتُ ملأتُها من عائدتك[5] ، فإن رأيت أن تُجيرَنى من

---

(١) أى أحزن .

(٢) أقال الله عثرته : إذا رفعه من سقوطه ، والمعنى هنا : وهب لنا شفاءه من علته .

(٣) أى زائدا .

(٤) تعطل الرجل : بقى لا عمل له ، والاسم العطلة .

(٥) العائدة : المعروف والصلة .

الحَدَثان[1] ، وتقيلَنى من قَيْد الزمان ، فعلتَ إن شاء الله » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٥)

٢٤٥ – ومن كلامه

« لك جَدٌّ[2] تُنْجِده همّتُك ، وإنعامٌ تَفُوه به نِعمتُك ، فهى تَحسِر[3] الناظِرَ إليها ، وتُحيِّر الواقفَ عليها ، حتى كأنها تناجيه بحُسْن العُقْبَى ، وتوحِى إليه ببُعْدِ المَدَى ، ولله دَرُّ نابغةِ بنى ذُبْيان فى قوله :

مَجَلّتُهم ذاتُ الإله ، ودينُهم   قويمٌ ، فما يَرْجُون غيرَ العواقبِ[4]

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٢)

٢٤٦ – ومن كلامه

« من اتَّسَعَ فى الإفضال ، اتَّسَعَتْ به الأقوالُ ، مِن شاكرٍ مُثْنٍ ، ومادحٍ مُطْرٍ ، ولسنا نَصِفك بما يَعِنُّ لنا ، ويَذِلُّ على ألسُنِنا ، مما يتقرّب به ذو الرغبة ، ويَضْرَعُ إليه ذو الرَّهبة ، لاستنزالِ مرغوب ، أو استنجاز مطلوب ، ولكننا نَنطق عن سِيرتك بإفصاح ، ونُبين عنها بإيضاح ، فنكُفُّ شَغَبَ الكائد ، ونُطيل نفَسَ الحاسد » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٣)

---

(١) حدثان الدهر بالتحريك : حوادثه ونوبه .

(٢) الجد : الحظ والحظوة والعظمة . (٣) أى تقطع بصره وتكله .

(٤) هذا البيت من قصيدة للنابغة الذبيانى يمدح عمرو بن الحارث الأصغر الغسانى ، ومطلعها :

كلينى لهمّ ياأميمة ناصب   وليل أقاسيه بطىء الكواكب

وجاء فى لسان العرب : « والمجلة : الصحيفة فيها الحكمة ، كذلك روى بيت النابغة بالجيم ، « مجلتهم ذات الإله ... » يريد الصحيفة ، لأنهم كانوا نصارى ، فعنى الإنجيل ، ومن روى

٢٤٧ — ومن كلامه

« كَفَى عاراً على راغب أن يَعْدِل برغبته عن الأمير ، إذ كانت عائدتُه تُشير إليها ، وتقِفُ راجيةً إليها ، فالقصدُ بها حيثُ يُومِى لها ، من مَنْبتٍ رافع ، ومَسْرَح واسع ، أولَى براجِى نجاحِها ، وتصديقِ الأمل فيها ، من إيقافها على حَيْرَة ، وإقحامِها فى شُبهة لم يضِحْ نَهْجُ السبيل إليها ، ولا نُصِبَتْ أعلامُ جُودٍ عليها ، فأقلُّ ما فى الأمير من كرم الخِلال ، يُرْبى[1] على كثيرٍ من فنون المقال ، فجَهْدُ المادح له أن يبلغَ أدنى فضلِه ، كما أن غاية الشاكر[2] أن يَجْزِىَ أيسَرَ نعمِه ، فأطال الله مدته ، وأدام له دولته ، وتمّم عليه نعمته » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٢٣)

٢٤٨ — كتاب له فى الاعتذار

ومن كلامه يعتذر إلى بعض الأخِلاَّء :

« لى ذنوبٌ إن عدَدْتُها جَلّتْ ، وإن ضممْتُها إلى فضلك حَسُنَت ، وقد راجعتُ إنابتى ، وسلكتُ طريق استقامتى ، وعلمتُ أن توبتى فى حُجَّتى ، وإقرارى أبلغُ فى معذِرتى ، فهذا مقامُ التائب من جُرْمه ، المتضمِّن حسنَ الفَيئة[3] على نفسه ، فقد كان عقابُك بالحلم عنى ، أبلغَ مِن أمرِك

« محلتهم » أراد الأرض المقدسة وناحية الشأم والبيت المقدس ، وهناك كان بنو جفنة ، وقال الجوهرى : معناه أنهم يحجون فيحلون مواضع مقدسة » .

(١) أى يزيد . (٢) فى الأصل « الشكر » .

(٣) الفيئة : الرجوع .

بالانتصاف منى ، فإن رأيتَ أن تهبَ لى ما استحققتُه من العقوبة ، لِمَا ترجوه من المَثُوبة ، فعلتَ إن شاء الله » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٣)

٢٤٩ - ومن كلامه

« قد كان كتابى نفَذَ إليك بما كان غيرُه أولَى بى ، وألْزَمَ لى فى حقّ الحرية والكرم ، اللَّذيْن جُعِلا لك إرثا ، والشرفِ والفضلِ اللذين قُسِما لك حَظّا ، ولكنّنى دُفِعْتُ من اتصال الزَّلَل ، والإخلال بالعمل ، إلى ما اضطرَّنى إلى محادثتك ، ودعانى إلى مخالفتك ، لأُجَلِّىَ عنى هَبْوَةَ[1] الأُتّهام ، وأصرفَ عنك عارضَ المَلام ، وقد جَرَى لك المقدارُ بالسُّؤْدُد الذى خصَّك الله بمزيته ، وأفردَك بفضيلته ، فليس يحاول أحدٌ استقصاءً عليك ، إلا عرَض دونه حاجزٌ من واجبك ، يضطرُّه إلى ذِلَّة التنصُّل إليك ، ويحور ذلك عن التعمُّد » . (الأوراق للصولى ١ : ٢٣٤)

٢٥٠ - كتابه إلى بنى سعيد بن مسلم

وكتب إلى بنى سعيد بن مسلم :

« لولا أن الله عز وَجل خَتَمَ نبوّته بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكُتُبَه بالقرآن ، لبَعث لكم نبيَّ نِقْمة ، وأنزل فيكم قرآنَ غَدْر ، وما عَسَيْتُ أن

---

(١) الهبوة : الغبرة .

أقول في قوم: محاسِنُهم مَساوِى السِّفْلة، ومَسَاويهم فضائِحُ الأمم، وألسنتُهم معقولةٌ بالعِيِّ، وأيديهم معقودةٌ بالبخل، وأعراضُهم أغراض للذمّ، وهم كما قال الشاعر:

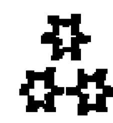
لا يكثُرون وإن طالت حياتُهُمُ ... ولا تَبيدُ مخازيهم وإن بادوا

(زهر الآداب ٢ : ٤٠، واختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٠)

٢٥١ . كتاب له

وروى الصُّولى قال: ومن كلامه:

« لقد أحَلَّك الله من الشرف أعلَى ذِرْوته، وبلَّغك من الفضل أبعدَ غايته، فالآمالُ إليك مصرُوفةٌ، والأعناقُ إليك معطوفةٌ، عندك تنتهى الهِمَمُ السامية، وعليك تقِفُ الظنونُ الحَسَنة، وبك تُثْنَى الخناصِرُ[١]، وتُستفتَح أغْلاقُ[٢] المَطالِب، ولا يَستَرِيث[٣] النُّجْحَ مَن رجاك، ولا تَعْرُوه النوائبُ فى ذَرَاك[٤] ». (كتاب الأوراق للصولى ١ : ٢٢٢)



وفى رواية أخرى للصولى أيضاً قال:

قالوا للقاسم بن يوسف ـ أخى أحمد بن يوسف ـ: أقبلتَ على الشعر

---

(١) كناية عن أنه المعول عليه فى قضاء الحاجات والمآرب، كما يقال: هو مطمح أنظار الآملين ومعقد رجائهم ومحط آمالهم.

(٢) الأغلاق: جمع غلق بالتحريك، وهو القفل. (٣) استراثه: استبطأه.

(٤) أى فى ظلك وكنفك.

وتركت البلاغة ، فقال : امتحنونى ، فقيل له : فاكتب إلى محمد بن منصور فى الرضا عن هذا الرجل ، فقد كان فى ناحيته ثم عَتَب عليه ، فكتب إليه :

« قد أحَلَّك الله من الشرف فى أعلى ذِرْوَته ، وبلَّغك من الفضل أبعدَ غايته ، فالآمالُ إليك عائلة[1] ، والأعناق نحوكَ مائلة ، وإليك تنتهى الهمم السامية ، وعليك تقِفُ الظنون الراجية ، لا يستريثُ نُجْحا مَن رَجاكَ ، ولا تعرُوه النوائبُ فى ذَرَاكَ .

وفلان ممن قَدُمَتْ بك حُرْمَتُه ، وطالت لك خِدمته ، ووجَبتْ لك حقوقٌ عليه ، وهى أوكدُ وسيلة ، وأقصَدُ ذريعة ، وقد فَرَطَ[2] جُرْمٌ ما تعمَّده ، وخطأٌ جَرَى القضاءُ به ، وفى عَتْبك ماقوّمه ، وفى عفوكَ ماتلافَى زَلَّتَه ، إن شاء الله » (كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٩٧)

٢٥٢ — كتاب لأحمد بن يوسف فى العدل والانصاف

« لو لم يكن العدلُ من شيمتك ، والإنصافُ من خَليقتك ، لكان يجب عليك فى قَدرِ نعمةِ الله عندك ، وما رَفَعَ إليه من الفضل غايتَك ، أن تتَّخذهما عَتادا[3] ليومك ، وذُخْراً لِغَدِك ، فكيف وقد جعلهما الله شعاراً باطِناً ، ولِباساً ظاهِراً ؟ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٥٩)

---

(١) أى مائلة . يقال : عالت الفريضة فى الحساب : أى زادت وارتفعت ، والمعنى : قد اتجهت إليك الآمال وتكاثرت حتى جازت الحد .

(٢) أى سبق . (٣) العتاد : العدة.

٢٥٣ — كتابه فى إنصاف قوم تظلموا

« أما بعد ، فإن الله جلّ ثناؤه جَعَلَ عِزّ السلطان فى أرضه مَعاذا يلجأ إليه مَن اضْطُهِد بقوة ، أو عُدِىَ عليه بظَلَمَة ، وحجابا بين الساعين بالفساد وبين ما يتشوّفون إليه ، ويتنازعون نحوه ، من ركوب الكبائر ، وانتهاك المَحَارم[(١)] ، ومَوْئلا لمن استُرِقُّوا[(٢)] من أهل الضعف ، بالعُدْوان والعَسْف ، والولاةُ مسئولون عما خُوِّلوا ، مُرْتَهَنون بما حُمِّلوا ، حتى يكفّهم عدلٌ ، أو يوبقهم[(٣)] جورٌ ، وقليلُ ما يتقحّمُ[(٤)] العُمّالُ من سوء السِّيرة ، أو يرغبون فيه لأتباعهم من الغَميزة[(٥)] ، أشدُّ للقلوب [إفسادًا][(٦)] ، ولكافّة الرعية إجحاما[(٧)] ، مما يتساورون[(٨)] به بينهم ، للمحلّ الذى نُصِبَتْ له الرُّعاةُ من إصراخ[(٩)] الملهوفين ، والأخذِ فوق أيدى المعْتَدين ، وما يسكّن فائرةَ[(١٠)] مَن انتصر بهم ، فلم يدفعوا عن حَوْزته من القُنُوط والإياس .

وقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا وكذا ، فأنكر ذلك إنكارًا لم يرِدْ عليه مِثلُه ، وكان أحقُّ مَن غُلِظ عليه فى التنكيل ، وضوعِفَ له التأديبُ ، مَن

---

(١) فى الأصل « المهارم » وهو تحريف .

(٢) فى الأصل هكذا « وورل من اشتركوا من أهل الضعف بالعدا والعسف » وهو تحريف ، وقد أصلحته كما ترى ، والموئل : الملجأ .

(٣) أوبقه : أهلكه . (٤) اقتحم الأمر العظيم وتقحمه : رمى بنفسه فيه من غير روية .

(٥) الغميزة : المطعن أو المطمع . (٦) مابين القوسين بياض بالأصل .

(٧) أجحمه : دنا أن يهلكه .

(٨) أى يتواثبون ، ساوره : واثبه ، وكذا ثاوره ، وفى الأصل « يتشاورون » وهو تحريف .

(٩) أى إغاثة .

(١٠) فى الأصل « إفادة » وأراه محرفا عن « فائرة » أى ثائرة ، يقال : فارفائرة : أى ثار ثائرة .

كان منْ أعوانِ السلطانِ ، الذين التمسَ بهم إحياءَ العدلِ وَ إماتة الجَور، فانظر نظراً تقضِي به حقّ الله وحقّ الناس ، غيرَ متجانِفٍ(١) بصَغْوٍ إلى أحد ممن مال عن القَصْد ، ثم أنفِذْ بينهم ما ألزَمَهم الحكمُ ، غيرَ متجاوزٍ للحقّ ، ولا معطّلٍ للحكم ، فإن الله تبارك وتعالى يقول : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » وقال . « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢: ٢٥٩)

٢٥٤ — كتاب له في السلامة

« أما بعدُ ، فإن بلاء الله عند أمير المؤمنين ، مع ما يَحُوط له ما استحفَظَه واسترعاه وتولاه من حسن الخلافة فيما قرُبَ منه ونَأَى ، وتعقّبه من الصنْع على من شاقّه(٢) وناوَأه ، البلاء الذى حقّ علينا وعلى عامة رعيته القولُ فيه وإذاعتُه والحديثُ عن النعمة الشاملة والكرامةِ المجلِّلةِ فيه ، والله نسأل كذا .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٨ و ٣٧٨)

---

(١) تجانف : مال ، من الجنف بالتحريك : وهو الميل والجور. والصغو : الميل ، يقال : صغوه بالفتح والكسر وصغاه معك : أي ميله . والقصد : الاستقامة .

(٢) شاقه : خالفه . وناوأه : عاداه أيضا .

٢٥٥ — وله صدر فى السلامة

«إن من أعظم النعم عند الخاصّة والعامّة موقعاً ، وأوجبها عليهم شكراً ، سلامةَ أمير المؤمنين التى جعلها الله عمادَ الدين ، وقِواما للمسلمين ، وجعل بها فواتحَ اليُمْن والبرَكة ، وفوائد السرور والغبطة لكافّة المؤمنين » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٠ : ٣٦٨ و ٣٧٤ و ٣٧٨)

٢٥٦ — فصل له فى السلامة

« وقد أفادنى الله بما ورد علىّ من كتاب أمير المؤمنين سروراً وابتهاجا أيام أظلّ ما أظلّ من بركات اقترابه ، وشارَفَ من اليُمْن والسعادة فى رؤيته ، وامتدت بذلك فيمن قبلى ، فكلٌّ سُرَّ واستبشر ، ودعا وتشكّر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٤)

٢٥٧ — فصل له فى الشكر

« لم يُخطِئنى من النعم ما أصابك ، ولا عدانى منها ما حَلّ بك ، ولا خلوتُ من واجب حقها وما نَفَلَك(١) الله منها إذ قُلِّدتها ، اعتداداً منى بما طُوِّقتَ من المِنَن ، وإيجابا على نفسى لما تَحمّلتُ من الشكر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٠)

---

(١) أى أعطاك .

٢٥٨ — فصل له فى الشكر

« ذَكَرَ أميرُ المؤمنين كذا ، وَليس ما تقدَّم من رأيه فى الاستنامة[١] إلىَّ ، والسكونِ إلى قولى ، حالا يَفِى بها الشكرُ ، وَإن حُظِر عليها ، وَأُفْرِدِ بتأديتها ، فيكون فيه اتساع لِما اتَّصَل بها ، وتظاهَر بعدها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٢)

٢٥٩ — كتاب له فى الشكر

« وقد قدِمَ علىَّ فلانٌ بما حمَّله أميرُ المؤمنين من كتابه وكرامته ، فكفَى صنيعةً من أمير المؤمنين وسعادةً إخلاصُ أمير المؤمنين الدعاءَ له فى كتبه ، وتطلُّعه إلى عِلم خَبَره ، وتوجيهُه ذا الثقة والنصيحة مِن خدمه ليصْدُرَ إليه بسلامته ، فوفَّاك اللهُ يا أمير المؤمنين جَزاءَ هذه الكرامات التى تُظاهِرُ بينها ، وَتَرُبُّ[٢] نِعمَك فيها ، وَتُتْبِع ما قدَّمتَ بما استأنفتَ منها ، وشكَر اللهُ لك ما أصبحتَ مشكورا به من الوفاء على ألسُن البشر ، طيِّبًا عليك النَّشْرُ فى جميع الأمم .

وقد كان كذا ، وحَضرنى فى يوم جلوسى لإظهار[٣] كرامته مَن قبَلِى من قواده ، فكان مِن دعائهم لأمير المؤمنين ، وَتحمُّل كل امرئ منهم بقِسْطه

---

(١) استنام إليه : سكن واطمأن .

(٢) رب النعمة : نماها وزادها وأتمها وأصلحها .

(٣) فى الأصل « طهار » وهو تحريف ، وصوابه « لإظهار » .

من شكره . ما أسأل الله أن يتقبَّل رَغَباتهم إليه ، ويقضىَ عنهم الحقَّ بما عملوا له » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٣)

٢٦٠ - كتاب له فى الاعتذار

« أما بعد ، فإن لكل ذنب عفوا أو عقوبة ، وذنوب الخاصَّة عندك مستورة مغفورة ، فأما مِثلى من العامَّة فذنبهُ لا يُغفَر ، وكسْرُه لا يُجبر ، فعاقِبْنى بإعراضٍ لا يؤدّى إلى مَقْتٍ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٥)

٢٦١ — كتاب آخر

« أتيتُك وَافِدًا بذنوبى على عفوك ، واثقاً لعقوقى ببرّك ، لا مستظهِرا عليك بشفيعٍ قدَّمْتُه ، خلا تطوُّلك بالعفو عن الإخوان ، وتفضُّلك عليهم بالإحسان ، فإن تعاقِبْ فقد حكمْتَ بالمعدَلة بعقوبتك على نفسى ، وَإن تَجافَ عن ذلك فإن الله يعلم أن قلبى لم يُصِرَّ لك على قطيعة ، وكلُّ ذنب كان أصله الاستبطاء ، لدالَّة الحُرْمة ، والاستعطاف بِماتَّةِ الخِدمة ، فهو مما يُعدُّ فى الحسنات لا السيئات » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

٢٦٢ — كتاب آخر

« قد ارتهنتُ لك الشكرَ من نفسى ، معرفةً بالتقصير عن حقك ، واعتقدتُ لك الميثاقَ ، على علمى بجهْدِ الوفاء فى أمرك ، فأنا وكيلُك على

ما أصلحَ اللهُ لك قلبي ، وأمينك فى المناصحة لحجّتك على نفسى ، والله على ذلك شهيد » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

٢٦٣ — كتاب آخر

« قد يَسَع العُذرُ مَن ضاقت عليه الحُجَّةُ ، وحيثُ قَبُحَت الاستكانةُ فهى هاهنا حَسَنة ، ولعلّ الله أن يهَبَ لنا نَفَساً [١] فى المُدَّة نتلافَى به سالِفَ التفريطِ والإضاعة » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

٢٦٤ كتاب له فى حاجة

« قد كان لك فلان على ما بلغك فى الفضل وجميل الأخلاق ، وقد حواهم [٢] الله لك ، وصيَّرهم فى ظِلِّك وتحت جَناحك ، فإن رأيتَ أن تَرْعَى ما تقدَّم لهم عندك من المعروف ، فإن عليك أن تَرُبَّه [٣] كما عليهم أن يشكروه ، ...... [٤] مَن انقبضْتُ عنه فى حوائجى ، فإنى أنبسِطُ إليك وآنَسُ بك فيها ، ومن ادّخرتُه ذات نفسى فإنى أبثُّك إياها ، لخلالٍ كثيرةٍ خارَ الله لك فضلَها ، وقدّمك على غيرك عندى بها : قبلَ اللقاء على حسن الأُحدوثة ، وبعدَه على محمود الخِبرة ، واللهَ أشكُرُ على السبب الذى وصله بيننا شكرا أستثيبُه به إتمامَ ماوصَلَ منه ، وَإعاذَتَه مِن تخوُّنِ [٥] الحوادث إياه .

---

(١) النفس : السعة والفسحة فى الأمر .
(٢) تنبه إلى أنه لم يتقدم لهذا الضمير مرجع .
(٣) رب المعروف كنصر : نماه وزاده وأتمه وأصلحه .
(٤) بياض بالأصل . (٥) تخونه : نقصه .

وكان إتيانى إياك ـ أعزك الله ـ فى حوائجى ، بعد أن طال بغيرك تشاغُلى ، وبعد أن استهلكتْ إضاعتُه الواجبَ فى أمرى ، واتكالُه على لين مطالبتى ، سُلَّما كنتُ أعتمد عليه ، وأترَوَّح إليه ، فأتيتُك حين أنفدَ الصبرُ مدتَه ، وبلغ المكروهُ غايتَه ، ولم يبق من السِّتر إلا ما كاد أن يَشِفَّ عما دونه ، ألْزمُك عِمارةَ حالٍ أبْدى سواها خَلَلَها ، وأُعْجِلُك فى تداركِ أمورٍ تَسَلَّف التفريطُ من غيرك مَهَلَها ، فتلقَّيتَ بالقبول وسائلى ، وبالإنجاز حاجتى ، وأعجلْتَنى عن الشكوى بالعلم بالداء ، وتضمُّنِ الدواء ، ثم لم تجعل جاهَك ، مع كثرته وانبساطه ، مندوحةً[1] عن مالك ، مع قلة مادته ، وضعفه عما تُحمِّله ، بَذْلا قبل المسألة ، وتطوُّعا بعد الفريضة ، ولا والذى جميلُ رأيك مِنْ عظيم نعمِه عندى ، ما أصبحَتْ لى هناك عَرجةٌ إلا عليك ، طالت أم قصُرَتْ ، ولا أنتظر بها فُسْحةً إلا مِن قِبَلك ، تقدَّمَتْ أو تأخرتْ ، ولا أتشبَّثُ فى مقامى إلا بعُلْقة[2] متراخيةٍ عن الوثيقة ، لا فضلَ فيها للأَناة والنظر ، ولا تبلُغُ أن تكون بُلْغةً ، فرأيُك فى الأمر الذى رغبْتُ إليك فيه ، وهو حَسَنٌ موقعُه ، محتَلٌّ إليك موضعُه ، مستكثَرٌ قليلُه ، مقبولٌ عفوُه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩١)

(١) المندوحة : السعة .

(٢) العلقة : كل مايتبلغ به من العيش .

٢٦٥ — كتاب له فى الشوق

وكتب إلى صديق له يشكو شوقه إليه :

« شوقى إليك شديد ، يستوى فى العجز عن صفته الخطيبُ البليغ وَالعَىُّ المُفْحَم(١) ، فدعانى ذلك إلى الخَفْض على نفسى : وتقديم جملة من ذكره إذا عارضْتَ بها ما فى قلبك كانت له موافقةً ، بل كانت عليه مُفْضِلةً(٢) » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٦)

٢٦٦ — فصل له فى الإخاء

« وليس ينبغى لك أن تؤاخِىَ إلا الكريمَ الأُخُوَّة ، الكاملَ المُرُوَّة ، الذى إذا غبْتَ خَلَفَك ، وإذا حضرت كَنَفَك ، إن لَقِىَ صديقك استزاد لك فى مودّته ، وإن لقِىَ عدوكَ كَفَّ عنك من عاديته ، إن رأيته ابتهجتَ ، وإن أتيتهُ استرحتَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٨)

٢٦٧ — كتاب له فى العتاب

وكتب أحمد بن يوسف :

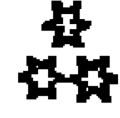
لولا حُسْنُ الظن بك — أعزَّك الله — لكان فى إغضائك عنى ما يَقْبِضُنى عن الطِّلْبة(٣) إليك ، ولكن أمسَكَ بَرَمَقٍ من الرجاء عِلْمى برأيك فى رعاية

---

(١) المفحم : العي . (٢) أفضل عليه : زاد .

(٣) الطلبة : الطلب .

الحق ، وبسْط يدكَ إلى الذى لو قبضْتَها عنه لم يكن له إلاَّ كرمُك مُذكِّرًا ، وسُودَدُكَ شافِعاً » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٣)



وكتب أيضاً :

« لا تجوز قطيعةٌ ، لأنها لا تخلو من أحد وجهين ، إما ضعف فى نفس الاختيار ، وإما مَلَل ، وكلاهما حُجّة فيه » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٣)

٢٦٨ كتاب له فى الذم

وكتب يذم :

« أما بعد ، فإنى لا أعرف للمعروف طريقاً أوعَرَ من طريقه إليك ، فالمعروفُ لديك ضائع ، والشكرُ عندك مهجور ، وإنما غايتُك فى المعروف أن تَحقِره ، وفى وليِّه أن تَكفُرَه » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٦)

٢٦٩ — كتاب له فى الذم

وله فى الذم إلى وَالٍ :

« أَمَا واللّٰهِ إن كنتَ لَمسيئاً إلى جندك ، مُخطِئاً لحظِّك ، غيرَ نبيل فى عملك ، ولا مُصيب عزَّكَ عن عمل فى حكمك ، تَحيف فى القضاء ، وتتَّبع الهَوَى ، وتقبَل الرِّشا ، لستَ الثابتَ الرزينَ ، ولا الحليمَ الركينَ[1] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٠)

---

(١) الركين : الرزين وفعله كـكرم .

٢٧٠ — كتاب إلى أحمد بن يوسف من صديق له

وكتب إلى أحمد بن يوسف صديق له في يوم دَجْن[١] :

«يومُنا ظريفُ النواحي، رقيقُ الحواشي، قد رَعَدَت سماؤه وبَرَقَت، وحَنَّت وارجَحَنَّت[٢]، وأنت قُطْب السرور، ونِظام[٣] الأمور، فلا تُفْرِدْنا منك،فنَقِلّ، ولا تنفردْ عنا فنَذِلّ، فإن المرء بأخيه كثير، وبمساعدته جدير».

(معجم الأدباء ٥ : ١٧٠)

٢٧١ — كتاب القاسم بن يوسف إلى صديق له

وجازى القاسم بن يوسف صديقا له على مكروه أتاه، فكتب إليه يعذُله في ذلك، وكتب القاسم :

«ظلمتَ — أعزّك الله — وما أنصفتَ، وأسأتَ وما أحسنتَ، تأتي ذلك اختيارا، ولا تُتْبِعه اعتذارا، حتى إذا لُذِعْتَ بلَظَى المكافأة[٤]، وسُلِك بك طريقُ المجازاةِ، جعلتَ ذلك لنا ذنبا، وألزمْتَنا له عَتْبا، ومن لم يعرِف قبيحَ ما يُبْلِي، لم يعرِف حَسَنَ ما يُولِي، ولله در القائل :

إذا ما امرؤٌ لم يحمل الحِقدَ لم يكن   لديه لِذِي نُعمَى جزاءٌ ولا شُكرُ»

(كتاب الأوراق للصولي ١ : ٢٠٦)

---

(١) الدجن : إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء . (٢) ارجحنّ السحاب : مال من ثقله .
(٣) النظام : الخيط ينظم به لؤلؤ ونحوه ، وملاك الأمر .
(٤) المكافأة : المجازاة .

٢٧٢ — كتاب أحد غلمان الديوان إلى آخر منهم

قال أحمد بن يوسف :

كتب غلام من ولد أنُوشِرْوانَ ممن كَان أحدَ غِلْمان الدِّيوان إلى آخرَ منهم ، وكان قد عَلِقَ به وكَان شديد الكَلَف[1] به والمحبة له :

« ليس من قَدْرِي ـ أدام الله سعادتك ـ أن أقول لِمثْلك : جُعِلْتُ فِداك ، لأنى أراك فوق كُلِّ قيمة نَضِيرة ، وَثمنٍ مُعْجِز ، ولأن نفسى لا تساوى نفسَك ، فتقبَّلَ فى فِدْيتك على كل حال ، فجعلنى اللهُ فِداءَ ساعةٍ من أيامك .

اُعلم أيها السيد العَلِيُّ المنزِلةِ ، أنَّه لو كَان لعَبْدِك من شدة الخَطْبِ أمرٌ يقف على حَدِّه النعتُ ، لاجْتَهَد أن يصِفَ من ذلك ما عسى أن يَعْطِفَ به زمامَ قلبك ، ويَحْنُو على الرِّقة والتحفِّي[2] أثناءَ جَوانحِك ، ولـكن الذى أمسيتُ وأصبحتُ مُمْتَحَناً به فيك ، مُنِعَ عن كل بيان ، ونَزَح[3] عن كل لسان .

والحبُّ أيها الملك لم يَشُبْه قَذَى[4] رِيبةٍ ، ولم يختلط به قلبُ مَعابٍ ، فلا ينبغى لمن كَرُمت أخلاقه أن يعافَ[5] مقاربةَ صاحبِه المُدِلِّ بجَزْم نيَّته ، والذى أتمناه أيها المولى اللطيف مجلِسٌ أقِف فيه أمامك ، ثم أبوحُ بما أضْنَى جَسَدى ، وفتَّتَ كبدى ، فإن خَفَّ ذلك عليك ، ورأيتَ نشاطا من نفسك

---

(١) كلف به كفرح : أولع .

(٢) حناه يحنوه عطفه، وتحفى به واحتفى: بالغ فى إكرامه وأظهر السرور والفرح وأكثر السؤال عن حاله . (٣) غاب وبعد .

(٤) القذى : مايقع فى العين والشراب . والمعاب : العيب . (٥) يكره .

إليه ، كنْتَ كمن فكَّ أسيراً ، وأبرأ عليلا ، ومن الخيرِ سَلك سبيلاً يتوعَّرُ سُلوكُها على من كَانَ قبله ويكون بعده ، ثم أضاف إلى ذلك مِنَّةً لا يُطيقها جَبَلٌ راسٍ ، ولا فلَكٌ دائرٌ .

فرأيك أيها السيد المعتمَد فى الإسعاف قبل أن يَبْدُرَ[1] فىّ الموتُ ، فيحُولَ بينى وبين ما نَزَعت[2] إليه النفسُ مواصِلا برًّا إن شاء الله تعالى » .

(زهر الآداب ٣ : ١٤)

٢٧٣ — رده عليه

فأجابه :

« توَلَّى الله تعالى ما جَرى به لسانُك بالمَزِيد ، ولا أوْحَشَ ما بيننا بطائرِ فُرْقَةٍ ، ولا حافرِ[3] تشَتُّت ، وضَمَّنا وإياك فى أوثق حِبال الأُنْس ، وأوْكَدِ أسباب الأُلفة ، وقفتُ على ما لَخَّصْتَه من العجز عن بلوغ ما خامرَ قلبَك ، وانطَوى فى ضميرك ، من الشَّغَف المُقَلْقِل ، والهَوَى المُضْرِع[4] ، ولعمرى لو كُشِف لك عن مِعْشار[5] ما اشتمل عليه مُضْمَرُ صدرى ، لأيقَنْتَ أن الذى عندك إذا نسبتَه إلى ما عندى كالمتلاشِى الزَّائل ، ولكنك بفضل الإنعام سبقْتَنا إلى كشْفِ ما فى الضمير . وأما طاعتى لك وذِمامى[6] إليك ، فطاعةُ العبْد المقتنَى الطائع لما يَحْكُمُ له وعليه مَوْلاه ومَالِكه ، وأنا سائر إليك

---

(١) يسرع ويعجل إلىّ . (٢) اشتاقت .

(٣) حافر الدابة معروف ، والمراد به الدابة : أى ولا كان سبب الوحشة بيننا مطية تقلك إلى مكان ناء عنا . (٤) أضرعه : أذله .

(٥) المعشار والعشير والعشر : جزء من عشرة . (٦) الذمام : الحق والحرمة .

وقت كذا ، فتأهَّبْ لذلك بأجْهَدِ عافيةٍ ، وأتم عاقبَةٍ ، وأسْعَدِ نجْم ، حَرىٍّ بالأُلْفَةِ إن شاء الله تعالى » . (زهر الآداب ٣ : ١٥)

٢٧٤ — رسالة سهل بن هرون فى البخل

وهذه رسالة سهل[1] بن هرون بن راهبُون إلى بنى عمه من آل راهبون، حين ذمُّوا مذهبه فى البخل ، وتتبَّعوا كلامه فى الكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أَصْلَحَ الله أمرَكم ، وجمع شَمْلَكم ، وعلَّمكم الخيرَ ، وجعلكم من أهلِه ، قال الأَحْنَفُ بن قيس : « يا معشر بنى تميم لاتُسْرِعوا إلى الفِتنة ، فإن أسرعَ الناس إلى القتال أقلُّهم حَياءً من الفرار »

---

(١) هو سهل بن هرون بن « راهيون » كما جاء فى كتاب البخلاء وسرح العيون ، وفى حياة الحيوان للدميرى « راهويه » وفى الفهرست لابن النديم « رامنوى الدستميسانى » فارسى الأصل من أهل نيسابور ثم انتقل إلى البصرة ، وكان شعوبيا — والشعوبية بضم الشين : فرقة تبغض العرب وتحتقرها وتتعصب للفرس عليها ، اقرأ البيان والتبيين ٣ : ٥ والعقد الفريد ٢ : ٧٠ — وكان أول أمره خاصا بالفضل بن سهل ، فقدمه إلى المأمون ، فأعجب ببلاغته وعقله ، وجعله صاحب بيت الحكمة. وكان حكيما شاعرا فصيحا ، إلا أنه كان نهاية فى البخل، وله فيه حكايات عجيبة . من ذلك ماحكاه دعبل الخزاعى ، قال: كنا عنده يوما فأطلنا القعود حتى كاد يموت جوعا ، ثم قال: ويحك ياغلام غدِّنا ، فأتاه بصحفة فيها مرق تحته ديك هرم لا تحز فيه السكين ولا يؤثر فيه الضرس ، فتأمله ثم قال : أين الرأس ياغلام ؟ قال : رميت به ، قال : ولم ؟ قال : لم أظنك تأكله ولا تسأل عنه ، قال : ولم ظننت ذلك ؟ إنى والله لأمقت من يرمى برجله ، فكيف من يرمى برأسه ؟ ولولم يكن فيما فعلت إلا الطيرة والفأل لكرهته ، أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ، وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه عرفه الذى يتبرك به ، وعينه التى يضرب بها المثل فى الصفاء ، فيقال : شراب كعين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكليتين ، ولم يرقط عظم أهش تحت الأسنان منه وهب أنك ظننت أنى لا آكله ، أوليس العيال كانوا يأكلونه ؟ فإن كان قد بلغ من جهلك أن لا تأكله فعندنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح ، ومن رأس العنق ؟ انظر لى أين هو؟ فقال والله ما أدرى أين هو ، ولا أين رميت به ، فقال : لكنى والله أدرى ، إنك رميته فى بطنك قاتلك الله ، — انظر أخباره فى سرح العيون ص ١٦٥ والفهرست لابن النديم ص ١٧٤ و ص ١٨٢ والعقد الفريد ٣ : ٢٦٥ وزهر الآداب ٢ : ٢٠١ وحياة الحيوان للدميرى ١ : ٥١٣ .

وقد كانوا يقولون : « إذا أردتَ أن تَرَى العيوبَ جَمَّةً فتأمَّلْ عيَّابًا ، فإنه إنما يَعيبُ الناسَ بفضلِ ما فيه من العَيب» .وأوَّلُ العَيب[1] أن تَعيبَ ما ليس بعَيْبٍ ، وقبيحٌ أن تَنْهَى مُرشِداً ، وأن تُغْرِى بمُشْفِق ، وما أردْنا بما قلنا إلاَّ هدايتكُم وتقويمكم ، وإلاَّ إصلاحَ فسادكم وإبقاءَ النعمةِ عليكم ، ولئن أخطأْنا سبيلَ إرشادكم فما أخطأْنا سبيلَ حُسْنِ النيّة فيما بيننا وبينكم ، ثم قد تعلمون أنّا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم[2] ، وشُهِرْنا به في الآفاق دونكم ، ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : «ومَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى ما أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » ، فما كان أحقَّكم في تقديم حُرْمتنا بكم[3] ، أن تَرْعوا حقَّ قصْدِنا بذلك إليكم، وتنبيهنا على ما أغفلْنا من واجب حقكم ، فلا العذرَ المبسوطَ بلَغتم ، ولا بواجب الحُرْمة قمتم ، ولو كان ذكرُ العيوب بِرًّا وفضلا[4] لرأينا أن في أنفسنا عن ذلك شُغلا .

وإن من أعظم الشِّقوة ، وأبعدَ من السعادة ، ألاَّ يزال يتذكر زَلَلَ المعلِّمين ، ويتناسى سوءَ استماع المتعلمين ، ويستعظِم غِلَظَ العاذلين ، ولا يَحْفِل بتعمُّد المعذُولين .

---

(١) وفى العقد الفريد « ومن أعيب العيب » .

(٢) وفيه « إلا بما اخترناه لكم ولأنفسنا قبلكم » .

(٣) وفيه « فما كان أحقنا منكم فى حرمتنا بكم أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم على مارعيناه من واجب حقكم » .

(٤)وفيه « ولو كان ذكر العيوب يراد به فخر » .

عِبْتموني بقولي لخادمي[1] أجيدي عَجْنَه خَميراً كما أجَدْتِه فَطيراً ،[2] ليكون أطيبَ لطَعْمه ، وأزيدَ في رَيْعه . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورَحِمَه لأهله : « امْلِكوا العجينَ فإنه أريعُ للطَّحين[3] » .

وعِبتم عليَّ قَوْلي : من لم يعرِف مواقعَ السَّرَف في الموجود الرخيص ، لم يعرِف مواقعَ الاقتصاد في الممتنِع الغالي ، فلقد أُتيتُ من ماء الوضوء بِكَيْلة[4] يدل حجمها على مَبْلَغ الكِفاية ، وأشدّ من الكفاية ، فلما صِرْتُ إلى تفريق أجزائه على الأعضاء ، وإلى التوفير عليها من وَظيفة[5] الماء ، وجدتُ في الأعضاء فضلا على الماء ، فعلمتُ أنْ لو كنتُ سَلكْتُ الاقتصادَ في أوائله ، ورَغِبْتُ عن التهاوُن به في ابتدائه ، لخرج آخرُه على كفاية أوّله ، ولكان نصيبُ العُضْو الأوّل كنصيب الآخِر ، فعِبْتموني بذلك وشنَّعْتموه بجُهْدكم وقبَّحتموه ، وقد قال الحسن[6] عند ذكر السَّرف « أمَا إنّه ليكون في الماعُونَيْن[7] : الماء والكَلأ » فلم يرضَ بذكر الماء حتى أرْدَفَه بالكَلأ .

وعبتموني حين ختمتُ على سَدٍّ[8] عظيم ، وفيه شيء ثمين من فاكهة

---

(١) هو خادم وهي خادم وخادمة .

(٢) الفطير : ضد الخمير ، وهو العجين الذي لم يختمر ، وفي العقد « أجيدي العجين فهو أطيب لطعمه ، وأزيد في ريعه . والريع : النماء والزيادة .

(٣) ملك العجين كضرب وأملكه وملكه : أنعم عجنه ، وفي العقد « املكوا العجين فإنه أحد الريعين » .

(٤) المكيلة ما كيل به . وفي الأصل « بكيلة » وهو تحريف ، والكيلة بالكسر : اسم من الكيل .

(٥) الوظيفة : مايقدّر لك من طعام أو رزق ونحوه ، ومعناها هنا : المقدّر من الماء ، وفي العقد « وضيعة » وهو تحريف .

(٦) أي الحسن البصري . (٧) الماعون : كل ما انتفعت به .

(٨) السد : سلة من قضبان ، والجمع سداد ككتاب وسدد كعنق .

نفيسة ، ومن رُطَبة[1] غريبة ، على عبدٍ نهم ، وصبىّ جَشِع ، وأَمَة لَكْعاء ، وزوجة خَرْقاء[2] ، وليس من أصل الأدب ولا فى ترتيب الحِكَم ، ولا فى عادات[3] القادة ، ولا فى تدبير السّادة ، أن يستوىَ فى نفيس المأكول ، وغريب المشروب ، وثمين الملبوس . وخَطير[4] المركوب ، والناعمِ من كل فن ، واللُّبابِ[5] من كل شكل ، التابعُ والمتبوع ، والسيّدُ والمَسُود ، كما لا تستوى مواضعُهم فى المجالس ، ومواقِع أسمائهم فى العُنْوانات . وما يُسْتقبلون به من التحيات ، وكيف وهم لا يَفقِدون من ذلك ما يفقد القادر ، ولا يكترِثون له اكتراثَ العارف ؟ ومن شاء أطعمَ كلبَه الدّجاج المسمَّن ، وعلف حِمارَه السِّمْسمَ المقشّر ، فعِبتمونى بالخَتْم ، وقد ختم بعض الأئمة على مِزْوَد[6] سَوِيق ، وخَتَمَ على كيسٍ فارغ ، وقال : « طِينةٌ[7] خير من طِيَّةٍ » فأمسكتم عمن ختم على لا شئ ، وعبتم من ختم على شئ » .

وعبتمونى حين قلت للغلام إذا زِدْتَ فى المَرَق فَزِدْ فى الإنضاج ، ليجتمع مع التأدّمِ باللحم طِيبُ المَرَق ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا طبختم لحما فزيدوا فى الماء ، فإن لم يُصِبْ أحدكم لحما أصاب مَرَقا » .

---

(١) أى تمر رطب ، ويصح أن يكون « ومن رطبة » بفتح فسكون: أى ومن فاكهة رطبة طرية وفى العقد « من فاكهة رطبة نقية ، ومن رطبة غريبة » .

(٢) نهم : شره ، وجشع: شديد الحرص شره أيضا ، ولكعاء : لئيمة ، وخرقاء : حمقاء ، وفى العقد « وزوجة مضيعة » .

(٣) وفى العقد « عدالة » . (٤) أى عظيم .

(٥) لب كل شيء ولبابه : خالصه وخياره .

(٦) المزود : وعاء الزاد ، والسويق : طعام يعمل من الحنطة والشعير .

(٧) طانه : ختمه بالطين .

وعبتموني بخصْفِ(١) النّعال ، وبتصـــدير القميص ، وحين زعمتُ أنَّ المخصوفة من النعل أبقى وأوطأ وأقوى وأنْفَى للكِبْر، وأشْبَه بالنُّسْك ، وأن الترقيع من الحَزْم ، وأن الاجتماع مع الحفظ ، وأن التفرق مع التضييع(٢)، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخصفُ نعْلَه، ويَرْقَع ثوبه ، ويلعق أصابعه ، ويقول : «لو أُتيتُ بذراع لأكلتُ(٣)، ولو دُعيتُ إلى كُرَاعٍ(٤) لأجبْتُ» ولقد لَفَقتْ(٥) سُعْدَى بنت عوف إزارَ طَلْحة(٦) وهو جوادُ قريش ، وهو

(١) خصف النعل كرقع الثوب ، ويقال : صدّر كتابه إذا جعل له صدرا . وهو مصدّر : أى قويّ الصدر ، والمراد بتصدير القميص : تقوية صدره برقعة أو بطانة ، وأوطأ : ألين .

(٢) وفى العقد «والتفريط من تضييع» .

(٣) وفيه «لو أهدى إليّ ذراع لقبلت» .

(٤) الكراع من البقر والغنم : بمنزلة الوظيف من الفرس . وهو مستدق الساق .

(٥) لفق الثوب كضرب : ضم شقة إلى أخرى فخاطهما .

(٦) هو طلحة بن عبيد الله التيمى القرشى ابن عم أبي بكر الصديق ، خرج مع الزبير وعائشة إلى البصرة للطالب بدم عثمان وقتل يوم الجمل سنة ٣٦ ، وقد قدمنا لك خبره فى الجزء الأول ، وكان من أجواد العرب ، وعنه أنه قال: سمانى النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد : طلحة الخير ، ويوم غزوة ذات العشيرة : طلحة الفياض ، ويوم حنين طلحة الجود ، وقال فيه عمرو بن العاص حين بلغه مقتل عثمان : من يلى هذا الأمر من بعده ؟ إن يله طلحة فهو فتى العرب سيبا (أى عطاء) وحكى عنه أنه فرق فى يوم واحد مائة ألف درهم وقال قبيصة بن جابر : صحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت أعطى لجزيل من غير مسألة منه .

واستتماما للفائدة نقول : هو أحد مشهوري الطلحات الذين يضرب بهم المثل فى الجود ، وكانوا ستة ويسمى هذا طلحة الفياض ، وطلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى أيضا ، ويسمى طلحة الجود ، وطلحة بن عبدالله بن عوف أخى عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، ويسمى طلحة الندى ، وطلحة بن الحسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنه ، ويسمى طلحة الخير ، وطلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق ، ويسمى طلحة الدراهم ، وطلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى البصرى ، ويسمى طلحة الطلحات . سمى بذلك لأنه كان أجودهم ، وقيل : لأنه وهب فى عام واحد ألف جارية ، فكانت كل جارية منهن إذا ولدت غلاما تسميه طلحة على اسم سيدها ، وقيل سمى بذلك بسبب أمه ، وهى صفية بنت الحرث بن طلحة بن أبي طلحة . وأخوها أيضا طلحة بن الحرث ، فقد تكنفه هؤلاء الطلحات كما ترى ، وقد شهد الجمل مع عائشة ، ومات بسجستان سنة ٦٣ ، وفيه يقول عبد الله بن قيس الرقيات :

نضر الله أعظما دفنوها ‏ ‏ بسجستان طلحة الطلحات

انظر أسد الغابة ٣ : ٥٩ وخلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال ص ١٥٢ وتاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٤ ،

طلحة الفيَّاض، وكان فى ثوب عُمَر رِقاعُ أَدَم ، وقال[١]: « من لم يستحْيِ من الحَلال خفَّت مُؤْنَتُه وقلَّ كِبْرُه » وقالت الحكماء : « لاجديدَ لمن لايلبَس الخلَق » وبعث زِياد رجلا يرتاد[٢] له محدِّثا ، واشترط على الرائد أن يكون عاقلا مُسَدَّدا ، فأتاه به موافقا ، فقال : أكنتَ ذا معرفة به ؟ قال : لا ولا رأيته قبل ساعته ، قال : أفناقَلْتَه[٣] الكلامَ ، وفاتحتَه الأمورَ قبل أن توصله إلىَّ ؟ قال : لا ، قال : فلِمَ اخترتَه على جميع مَن رأيتَه ؟ قال : يومنا يومٌ قائظ[٤]، ولم أزَل أتعرَّف عقول الناس بطعامهم ولباسهم فى مثل هذا اليوم ، ورأيتُ ثياب الناس جُدُدا ، وَثيابَه لُبُسا[٥]، فظننتُ به الحزمَ[٦]. وقد علمنا أن الجديد فى موضعِهِ دون الخَلَق[٧] ، وقد جعل الله عز وجل لكل شىء قَدْرا ، وبوّأ له موضعاً ، كما جعل لكل دهر رجالا ، ولكل مَقامٍ مقالا ، وقد أحيا الله بالسّم ، وأمات بالغِذاء ، وأغَصّ بالماء ، وقَتَلَ بالدواء ، فترقيعُ الثوب يجمع مع الإصلاح التواضعَ ، وخلافُ ذلك يجمع مع الإسراف التكبّرَ ، وقد زَعَموا أن الإصلاح أحد الكَسْبَين ، كما زعموا أن قلَّة العيال

وغرر الخصائص الواضحة ص ٢٤٥ ، وخزانة الأدب للبغدادى ٣ : ٣٩٤ ، ولسان العرب ٣ : ٣٦٣ ، ومعجم البلدان ٥ : ٣٩ ، والعقد الفريد ١ : ٨٩) .

(١) وفى العقد « وقال عليه الصلاة والسلام . «من لم يشبع من الحلال...» .

(٢) يرتاد : يطلب . (٣) الناقلة فى المنطق أن تحدثه ويحدثك .

(٤) قائظ يومنا : اشتد حره .

(٥) جمع لبيس : وهو الثوب قد أكثر لبسه فأخلق .

(٦) وفى العقد « فقال له : أكنت به ذا معرفة ؟ قال : لا ولكنى رأيته فى يوم قائظ يلبس خلقا ويلبس الناس جديدا ، فتفرست فيه العقل والأدب » .

(٧) وفيه « وقد علمت أن الخلق فى موضعه مثل الجديد فى موضعه » .

أَحَدُ اليَسَارَيْنِ ، وقد جَبَر الأحنفُ يدَ عَنْزٍ ، وأَمَرَ بذلك النُّعمان[1] ، وقال عمر: « من أكل بيضة فقد أكل دجاجة » ، ولَبِس سالم[2] بن عبد الله جلد أُضْحِيَة ، وقال رجل لبعض السادة : أريد أن أُهدِيَ إليك دَجاجة ، فقال : إن كان لا بدّ فاجعلها بَيُوضاً ، وعدّ أبو الدّرداء العُرَاقَ[3] جَزَرَ البهيمة

وعبتمونى حين قلت : لا يغترّنّ أحدكم بطول عمره ، وتقوّس ظهره ، ورقّةِ عظمه ، وَوهَن قوّته ، وأن يرى نحوَه أكثر ذُريته فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه ، وتحويله إلى مِلْك غيره ، وإلى تحكيم السّرف فيه ، وتسليطِ الشهوات عليه ، فلعلّه أن يكون مُعمَّرا وهو لا يدرى ، وممدودًا له فى السِّنّ وهو لا يشعُر ، ولعلّه أن يُرْزَق الولَد على اليأس ، أو يَحْدُثَ عليه بعضُ مخبَّآت الدهور ، مما لا يَخطُر على البال ولا تُدْركُه العقول ، فيستردّه ممن لا يردُّه ، ويُظهِر الشكوى إلى من لا يرحمه ، أضعفَ ما كان عن الطلب ، وأقبحَ ما يكون به الكَسْب[4] ، فعِبتمونى بذلك ، وقد قال عمرو بن العاص : « اعمَلْ لدنياك عمَلَ من يعيشُ أبداً ، واعمَلْ لآخرتك عمل من يموت غداً »

وعبتمونى حين زعمتُ أن السرف والتبذير : إلى مال القِمار ، ومالِ الميراث ، وإلى مالِ الالتقاط ، وحِباءِ[5] الملوك ، أسرعُ ، وأن الحفظ إلى

---

(١) أى أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، وفى العقد « وأمر مالك بن أنس بفرك النعل » .

(٢) هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

(٣) قدمنا كلمة عن أبى الدرداء فى الجزء الأول ص ٣٢٣ ، والعراق كغراب : العظام إذا جردت من اللحم ، والجزر بالتحريك : الشياه السمينة ، الواحدة جزرة .

(٤) وفى العقد « أصعب ما كان عليه الطلب ، وأقبح ما كان به أن يطلب » .

(٥) الحباء : العطاء .

المـال المـكتسَب ، والغِنى المجتلَب ، وإلى ما لا يُعْرَض فيه لذهاب الدين ، واهتضام العِرْض، وَنَصَبِ البَدَن واهتمامِ القلب، أسْرعُ ، وإن من لم يَحسُبْ ذَهابَ نفقتِهِ لم يحسُبْ دَخْلَه ، ومن لم يحسُب الدَّخْلَ فقد أضاع الأصلَ ، وإن من لم يعرف للغِنَى قدرَه ، فقد أُوذِن بالفقر ، وطاب نفساً بالذُّل .

وعبتمونى بأن قلت : إن كَسْبَ الحَلال يضمن الإنفاقَ فى الحلال ، وإن الخبيث ينزِعُ إلى الخبيث ، وَإن الطيِّب يدعو إلى الطيب ، وَإن الإنفاق فى الهَوى حِجابٌ دون الحقوق ، وإن الإنفاق فى الحقوق حجابٌ دون الهوى[١] ، فعبتم علىّ هذا القول ، وقد قال معاوية : « لم أرَ تبذيرا قطُّ إلا وَإلى جانبه حقّ مُضيَّع » وقد قال الحسن : « إذا أردتم أن تَعرِفوا مِن أينَ أصاب الرجل ماله ، فانظروا فى أى شئ يُنفِقه ؟ فإن الخبيث إنما يُنفَقُ فى السَّرَف » .

وقلت لكم : بالشفقة منى عليكم ، وَبحُسْنِ النظر منى لكم ، وَبحفظكم لآبائكم ، وَلما يجب فى جِواركم ، وَفى مُمالَحتكم[٢] ، وَملابَستكم ، وأنتم فى دار الآفات ، والجوائحُ[٣] غيرُ مأمونات ، فإن أحاطت بمال أحدكم آفةٌ لم يرجع إلى بقيّة ، فأحْرِزوا[٤] النعمة باختلاف الأمكنة ، فإن البليَّة لا تجرى فى الجميع إلا بموت الجميع ، وقد قال عمر رضى الله عنه فى العبد والأمَة والشاة والبعير ، وفى الشئ الحقير اليسير : « فرِّقوا بين المنايا ،

---

(١) وفى العقد « وإن الإنفاق فى الهوى حجاب دون الهوى » وعليه فكلمة الهوى الثانية محرفة وصوابها « الهدى » .
(٢) الممالحة : المواكلة .
(٣) الجوائح : جمع جائحة ، وهى الشدة المهلكة . (٤) أى حصنوها .

واجعلوا الرأسَ رأسين[1] » وقال ابن سيرين[2] لبعض البَحْريين : كيف تصنعون بأموالكم ؟ قالوا : نُفَرِّقها فى السفن ، فإنْ عَطِبَ بعضٌ سَلِمَ بعضٌ ،ولولا أن السلامة أكثرُ لَما حَمَلْنا خزائننا فى البحر ، قال ابن سيرين : تحسَبُها خَرْقاءَ وهِى صَناع[3]

وعبتمونى بأن قلت لكم عند إشفاقى عليكم : إن للغِنَى لسُكْرا ، وإن للمال لنَزْوَةً[4]، فمن لم يحفظ الغِنَى من سُكْر الغِنَى فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المالَ بخوف الفقر فقد أهمَله ، فعبتمونى بذلك ، وقد قال زيد بن جَبَلة : ليس أحد أقصرَ عقلا من غنيٍّ أمِنَ الفقرَ ، وسُكْرُ الغنى أشدّ من سكر الخمر ، وَقلتم : قد لزِمَ الحثَّ على الحقوق ، والتزهيدَ فى الفُضول ، حتى صار يستعمل ذلك فى أشعاره بعد رسائله ، وفى خُطبه بعد سائر كلامه ، وقد قال الشاعر فى يحيى بن خالد بن بَرْمَك :

عدوُّ تِلادِ المال فيما ينوبُه ... مَنُوعٌ إذا ما مَنْعُه كان أحْزَمَا[5]

وقال فى محمد بن زياد :

وخَليقتانِ : تُقًى وفضلُ تحَرُّمٍ ... وإهانَةٌ فى حقِّــــــه للمال

---

(١) أى فرقوا غنمكم فى أماكن مختلفة حتى إذا اخترمت المنية بعضها لسبب ما كان الباقى بمعزل ومنجاة ، أو معناه اعملوا على تنميتها حتى يتضاعف عددها.

(٢) هو محمد بن سيرين أحد فقهاء أهل البصرة ، وكان معروفا بالورع ، وهو صاحب الحسن البصرى ، وتوفى سنة ١١٠ هـ .

(٣) خرقاء : وصف من الخرق بالتحريك ، وهو أن لا يحسن المرء العمل والتصرف فى الأمور ، وامرأة صناع حاذقة بالعمل ماهرة ، ويقال أيضا امرأة صناع اليدين : أى حاذقة ماهرة بعمل اليدين ، وهو مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وهو فطن يقظ .

(٤) النزوة : الوثبة والثورة .

(٥) وفى العقد « وهوب تلاد المال ... » والتلاد : المال القديم الذى ولد عندك .

وعبتمونى حين زعمت أنى أقدِّم المال عَلَى العلم ، لأن المال به يُفادُ العلم[1] ، وبه تَقُومُ النفوسُ قبل أن تعرفَ فضْلَ العلم ، فهو أصل ، والأصلُ أحقُّ بالتفضيل من الفرع ، وأنى قلت : إن كنا نستبينُ الأمورَ بالنفوس ، فإنا بالكفاية نستبين ، وَبالخَلَّة نعْمَى[2] ، وقلتم كيف تقول هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء ، ومُقدَّم الأدباء : العلماء أفضلُ أم الأغنياء ؟ قال : بل العلماء ، قيل : فما بال العلماء يأتون بابَ الأغنياء أكثَرَ مما يأتى الأغنياءُ أبوابَ العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفَضْل الغنى ، ولجهل الأغنياء بفضل العلم ، فقلتُ : حالُهما هِى القاضِيَةُ بينهما ، وكيف يستوى شىء تُرَى حَاجةُ الجميع إليه ، وشىءٌ يُغْنِى بعضهم فيه عن بعض ؟ .

وعبتمونى حين قلت : إن فضل الغِنَى على القُوتِ إنما هو كفضل الآلة تكون فى الدار : إن احتيجَ إليها استُعْمِلَت ، وإن استُغْنِيَ عنها كانت عدَّةً ، وقد قال الحُضَين[3] بن المنذِر : وَدِدْتُ أنَّ لى مِثلَ أُحُدٍ[4] ذَهَبًا لا أنتفع منه بشىء ، قيل : فما ينفعُك من ذلك ؟ قال : لكثرة من كان يَخدُمُنى عليه ، لأن المال مخدوم. وقد قال بعض الحكماء : «عليك بطلب الغنَى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عِزٌّ فى قلبك ، وذُلٌّ فى قلب عدوّك ، لكان الحَظُّ فيه جسيما ، والنفع فيه عظيما» وَلسنا نَدَعُ سيرة الأنبياء ، وتعليمَ الخلفاء ، وتأديبَ الحكماء ،

---

(١) وفى البخلاء «به يقات العالم» . (٢) الخلة : الفقر ، ونعمى : نضل .

(٣) بالضاد المعجمة ، هو صاحب راية الإمام على كرم الله وجهه بصفين ، وفيه يقول الإمام :

لمن راية حمراء يخفق ظلها إذا قلت قدمها حضين تقدما
فيوردها فى الصف حتى يزيرها حياض المنايا تقطر الموت والدما

انظر العمدة لابن رشيق ١ : ١٤ ، ولسان العرب ١٦ : ٢٨٠ .

(٤) أحد : جبل بالمدينة .

لأصحاب الأهْواء[1]. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغَنَم، والفقراء باتخاذ الدَّجاج، وقال «دِرْهمك لِمعاشِك، ودينُك لِمَادك» فقسَّموا الأمورَ كلها على الدين والدنيا، ثم جعلوا أحد قِسْمَي الجميع الدرهمَ. وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: «إنى لأبغِض أهل بيت ينفقون نفقة الأيام فى اليوم الواحد» وكانوا يُبْغِضون أهل البيت اللَّحِمِين[2]، وكان هِشام[3] يقول: «ضَعِ الدرهم على الدّرهم يكون مالا» ونهى أبو الأسود الدُّؤَلى[4] وكان حكيما أديبا، وداهيا أَرِيبا[5] عن جودكم هذا المُولَّد، وعن كرمكم هذا المستحدَث، فقال لابنه: «إذا بَسَط الله لك فى الرزق فابسُطْ، وإذا قَبَض فاقْبِض، ولا تُجاوِدِ[6] اللهَ فإن الله أجود منك» وقال: «درهم من حِلٍّ يخرج فى حق، خيرٌ من عشرة آلاف قَبْضًا» وتلقَّط عُرُنْدًا من بَرِيم[7] فقال: تُضَيِّعون مثلَ هذا وهو قوتُ امرئ مُسْلِم يَوْما إلى الليل! وتلقَّط أبو الدَّرْداء حَبَّاتِ حِنْطة، فنهاه بعض المُسْرِفين، فقال: «لِيَهْنِ ابنَ العَبْسِية أن مَرْفَقة المرء رِفْقُه فى معيشته» فلستم علىَّ تَرُدُّون، ولا رأيى تُفَنِّدُون[8]، فقدِّموا النظر قبل العزم، وتذكَّروا ما عليكم قبل أن تذكروا مالكم[9]، والسلام عليكم». (كتاب البخلاء ص ٨، والعقد الفريد ٣: ٢٧٤)

---

(١) وفى العقد «لأصحاب اللهو».
(٢) اللحم ككتف: الأكول اللحم القرم إليه.
(٣) هو هشام بن عبد الملك، وكان معروفا بالبخل. (٤) وكان معروفا بالبخل أيضا.
(٥) أى عاقلا. (٦) أى لا تباله ولا تباره فى الجود.
(٧) العرند: الصلب. والبريم: الكبد والسنام، يقدان طولا ويلفان بخيط أو غيره.
(٨) فند رأيه: خطأه.
(٩) وفى العقد «وأدركوا مالكم قبل أن تدركوا ما لكم».

٢٧٥ — كتاب سهل بن هرون إلى صديق له

وكتب سهل بن هرون إلى صديق له أَبلَّ[1] من ضعف :

« بلغنى خبرُ الفَتْرة[2] فى إلمامها وانحسارها ، والشَّكاةِ فى حُلولها وارتحالها . فكاد يَشْغَل القَلَقُ بأوَّله ، عن السكون لآخِره ، وتُذْهِل الحَيْرةُ فى ابتدائه، عن المسرَّة فى انتهائه ،وكان تغيُّرى فى الحالين بقَدْرِها ، ارتياعًا[3] لِلأُولى ، وارتياحًا للأُخرى » . (سرح العيون ص ١٦٨)

٢٧٦ — كتابه إلى صديق له

وكتب لآخر :

« أما بعدُ ، فالسلامُ على عهدك ، وَداعَ ذى وُدٍّ ضنين بك ، فى غير مَقْلِيَة[4] لك ، ولا سَلْوَةٍ عنك ، بل استسلامٍ للبَلْوَى فى أمرك ، وإقرارٍ بالعجز عن استعطافك إلى أوانِ فَيْئَتك[5] ، أو يجعل الله لنا دولة من رَمْقِك[6] » . (سرح العيون ص ١٦٨)

---

(١) أبلّ من مرضه : حسنت حاله بعد الهزال .

(٢) الفترة : الضعف ، يقال : أجد فى نفسى فترة ، وهى كالضعفة بالفتح ، ويقال للشيخ : قد علته كبرة وعرته فترة ، بفتح الكاف والفاء ، والفتر بالتحريك : الضعف أيضا ، فتر جسمه فتورا : لانت مفاصله وضعف .

(٣) ألمّ به : نزل ، وانحسر : انكشف ، والشكاة : الشكوى ، والارتياع : الفزع .

(٤) قلاه كرماه ورضيه قلى بالكسر وقلاء بالفتح ومقلية : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه .

(٥) الفيئة بالفتح والكسر : الرجوع .

(٦) رمقه كنصر : نظر إليه ولحظه .

٢٧٧ — ومن رسالة له يفضل الزجاج على الذهب

وقال يفضل الزجاج على الذهب فى رسالة :

« الزجاج مَجْلُوٌّ نُورِىٌّ ، والذهب متاع سائر ، والشَّرابُ فى الزجاج أحسنُ منه فى كل مَعْدِن ، ولا يُفقَدُ معه وجهُ النديم ، ولا يُثْقِلُ اليدَ ، ولا يرتفع فى السَّوْم[1] ، واسمُ الذهب يُتطيَّر منه ، ومن لؤمه سرعتُه إلى اللئام ، وهو فاتنٌ فانك[2] لِمَن صانه ، وهو أيضاً من مصايد إبليس ، ولذلك قالوا : أهلَكَ الرجالَ الأحمران[3] ، والزجاج لايحمل الوَضَر[4] ، ولا يُداخِله الغمر ، ومتى غُسِل بالماء وحْدَه عاد جديداً ، وهو أشبه شىء بالماء ، وصفته عجيبة ، وصناعته أعجب . . » من رسالة طويلة[5] . (سرح العيون ص ١٦٨)

---

(١) السوم فى المبايعة : المساومة (٢) أى غالب ، من الفنك بالفتح . وهو الغلبة .

(٣) جاء فى اللسان « أهلك النساء الأحمران : يعنون الذهب والزعفران : أى أهلكهن حب الحلى والطيب ، وأهلك الرجال الأحمران : اللحم والخمر » . وأقول : والمناسب للمقام هنا أن يكون المراد بالأحمرين : الذهب والخمر ، أو الذهب والفضة على أن التثنية من باب التغليب .

(٤) الوضر : وسخ الدسم واللبن ، أو غسالة السقاء والقصعة ونحوهما ، والمراد الوسخ مطلقا ، والغمر : زنخ اللحم وما يعلق باليد من دسمه .

(٥) قال ابن نباتة : « وكان سبب قوله لها أن شدادا الحارثى كان قد وصف الذهب فأطنب ، وكان النظام قد ذم الزجاج » .

وروى أنه ألف كتابًا سماه « عَفْراء وثُعْلة » على مِثال كتاب كَليلة ودِمْنة لابن المقفع ، ومن قوله فيه :

« اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدّما قبل الذى تجودون به من تفضلكم ، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء فى أداء الفريضة ، شاهدٌ على وهَن العقيدة ، وتقصير الروِيَّة ، ومُضرٌّ بالتدبير ، ومُخِلٌّ بالاختيار ، وليس فى نفعٍ تُحْمَد به ، عِوَضٌ من فساد المُروءة ، ولُزوم النَّقيصة » .

(سرح العيون ص ١٦٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٢)

٢٧٨ — كتاب الحسن بن سهل إلى سهل بن هرون

وقال ابن النديم فى الفهرست :

وعمِلَ سهل بن هٰرون للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ويرغّبه فيه ، ويستميحه(١) فى خِلال ذلك ، فأجابه الحسن على ظهر رسالته :

« وصلَتْ رسالتك ، ووقَفْنا على نصيحتك ، وقد جعَلْنا المكافأةَ عنها القبولَ منك والتصديق لك ، والسلام » .

ولم يصله عنها بشئ .

وجاء فى زهر الآداب وسرح العيون :

وصنّف سهل بن هٰرون كتابا يمدح فيه البخل ويذم الجود، ليظهر قدرته على البلاغة ، ثم أهداه للحسن بن سهل فى وزارته للمأمون واستماحه ، فكتب إليه الحسن :

« لقد مدحْتَ ما ذمّه اللهُ ، وحسّنْتَ ما قبّحه الله ، وما يقومُ صلاحُ لفظك بطَلاَح معناك ، وقدجعلْنا ثوابَ مدحك قبولَ قولك فيه ، فما نُعطيك شيئاً » .

(الفهرست لابن النديم ص ١٧٤ ، وزهر الآداب ٣ : ١٥٠ ، وسرح العيون ص ١٦٦)

---

(١) استماحه : سأله العطاء .

٢٧٩ — كتاب العتابى إلى بعض إخوانه

وكتب كُلثوم بن عمرو العَتَّابى[1] إلى بعض إخوانه :

« لو اعتصَمَ شوقى إليك بمثل سُلُوِّكَ عنى ، لم أُبْذُل وجْهَ الرَّغبة إليك ، ولم أتجشَّم مرارةَ تماديك ، ولكن استخفَّتْنا صَبَابَتُنا ، فاحتملْنا قَسْوتَك ، لِعَظيم قدر مودَّتِك ، وأنت أحقُّ مَن اقتصَّ لصِلَتنا من جَفائه ، ولِشَوْقنا من إبطائه » . (زهر الآداب ٣ : ٣٢٦)

٢٨٠ — كتاب آخر له

وله :

« دُعيتُ إليك ونفسى رهينة بشكرك ، ولسانى عَلِق بالثناء عليك ، والغالبُ على ضميرى لائمةٌ لنفسى فى الإبطاء عنك ، واستقلالٌ لجهدى فى مكافأتك ، وأنت — أعزَّكَ الله — فى عِز الغِنى عَنِّى ، وأنا تحت ذُل الفاقة إلى عَطفك ، وليس من متشابه أخلاقك أن تُولِىَ جانبَ النَّبْوة[2] منك، مَن هو عَانٍ فى الضَّراعة إليك » . (زهر الآداب ٣ : ٣٢٦ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٩)

---

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابى من أهل قنسرين ، كان شاعرا مقدما من شعراء الدولة العباسية ، وكاتبا حسن الترسل ، وكان منقطعا إلى البرامكة ، فوصلوه بالرشيد فبلغ عنده كل مبلغ ، ثم كتب المأمون فى إشخاصه إليه ، ووصله صلات سنية، وبلغ به من التقديم والإكرام أعلى محل — انظر ترجمته فى الأغانى ١٢ : ٢ ، ووفيات الأعيان ١ : ٥١٩ فى ترجمة العتابى النحوى ، والفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ، والشعر والشعراء ص ٣٦٠ ، وتاريخ بغداد ١٢ : ٤٨٨ .

(٢) النبوة : التجافى والتباعد ، والعانى : الأسير ، والضراعة : الذل .

٢٨١ — كتاب آخر له

وكتب العتابي :

« أما بعد ، فإنَّ أحدًا ليس بمستخلِصٍ شيئًا من غَضَارَة[1] عيشٍ إلا من بين خِلال مكارِهَ ، فمن[2] انتظر بعاجل الدَّرْك آجلَ الاستقصاء ، سلبتْه الأيامُ فُرْصتَه ، لأن من صناعتها السَّلْب ، ومن شرط الزمن الإفاقة » .

(زهر الآداب ٢ : ٣٨٦ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٥٩)

٢٨٢ — كتابه إلى بعض أهل السلطان

وكتب العتَّابي إلى بعض أهل السلطان :

« أما بعدُ ، فإن سحاب وعدك قد أبْرَقَتْ ، فليكن وَبْلُها[3] سالمًا من عِلَل المَطْلِ ، والسلام » . (العقد الفريد ١ : ٧٥)

٢٨٣ — كتابه إلى صديق له

وكتب إلى صديق له :

أما بعدُ ، أطال الله بقاءك ، وجعله يمتدُّ بك إلى رِضوانه والجَنَّة ، فإنك كنتَ عندنا روْضةً من رياض الكرم ، تبتهجُ النفوسُ بها ، وتستريح

---

(١) الغضارة : النعمة والسعة والخصب .

(٢) فى زهر الآداب « ومن انتصر بمعاجلة الدول ومؤاجلة الاستقصاء ، فسكينة الأيام ترمقه » وهو تحريف .

(٣) الوبل : المطر الشديد .

القلوبُ إليها ، وكنا نُعفيها من النُّجْعة(١) استتماما لزهرتها ، وشفقةً على خُضْرتها ، وادِّخارا لثَمَرتها ، حتى أصابتْنا سَنة كانت عندى قطعةً من سِنِي يوسف ، واشتد علينا كَلَبُها(٢) ، وغابت قِطَّتُها(٣) ، وكَذَبتْنا غُيومُها ، وأخلفَتْنا بُروقُها ، وفقَدْنا صالحَ الإخوان فيها ، فانتجعْتُك(٤) وأنا بانتجاعى إياك شديدُ الشفقة عليك ، مع علمى بأنك موضع الرائد(٥) ، وأنك تُغطِّى عينَ الحاسد ، واللهُ يعلمُ أنى ما أَعُدُّك إلا فى حَوْمة الأهل. واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل ، ولم يُمْكِنه الكثير ، لم يُعْرَف جُودُه ، ولم تَظْهر همَّته ، وأنا أقول فى ذلك(٦) :

ظِلُّ اليَسار على العبَّاس ممدودُ ... وقلبُه أبدًا بالبخل معقودُ

إن الكريم ليُخْفِي عنك عُسْرَته ... حتى تراه غنيا وهو مجهودُ

وللبخيل على أمواله عِلَلٌ ... زُرْقُ العُيونِ عليها أوجُهٌ سُودُ(٧)

إذا تكرَّمْتَ عن بذل القليل ولم ... تقدرْ على سَعةٍ لم يَظهر الجُود(٨)

---

(١) النجعة : طلب الكلأ فى موضعه .

(٢) كلب الزمان كفرح كلبا : اشتد وألحّ على أهله بما يسوءهم .

(٣) أى لأنها لا تجد ما تأكله ، كناية عن الجدب والقحط . قال فى اللسان « القط : السنور ، والأنثى قطة ، وقال كراع : لا يقال قطة ، قال ابن دريد : « لا أحسبها عربية » .

(٤) انتجعه : أتاه طالبا معروفه . (٥) الرائد : المرسل فى طلب الكلأ .

(٦) الأبيات لبشار بن برد يهجو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان بشار قد استمنحه فلم يمنحه — انظر الأغانى ٣ : ٤٦ .

(٧) جرى فى التعبير بزرق العيون على طبيعة العرب . فقد كانوا يكرهون الروم — وقد نشبت الحرب بينهم وبين العرب دهورا كثيرة — والروم كما تعلم زرق العيون ، فكانت الزرقة أبغض شىء من ألوان العيون إلى العرب ، ولذا قالوا فى صفة العدو : أزرق العين ، وأضاف إليها بشار أنها فى أوجه سود تعظيما لنكارتها وبشاعتها : أى أن علل البخيل ومعاذيره فى المنع قبيحة منكرة كهذه الهيئة

(٨) وفى رواية الأغانى « إذا تكرهت أن تعطى القليل ... » .

بُثَّ النوالَ ولا تمنَعْك قِلَّتُه   فكلُّ ما سدَّ فقرًا فهو محمودُ »

فشاطَره ماله حتى أعطاه إحدى نعليه ونِصْفَ قيمة خاتَمه .

(الأمالى ٢ : ١٢٧)

٢٨٤ — تعزية له

« إن أشدَّ من المصيبة حِرمان الأجر فيها والحِسْبة ، وقد ذهب منك ما رُزِئت ، فلا يذهبْ منك ما عُوِّضْتَ ، قال الشاعر :

وعُوِّضتَ أجراً مِن فقيد فلا يكن   فقيدُك لا يأتى وأجْرُك يَذْهَبُ »(١)

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١١)

٢٨٥ — كتاب له

« إن أقلَّ من بلائك عندى يستغرقُ ثنائى ، وأقلَّ من تأميلى إياكَ يُعَفِّى على ما كان منى ، وليس لك ـ مع فضلك ورجائى تجاوُزَك ـ سبيلٌ إلى قطيعتى » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٩)

٢٨٦ — فصول للعتابى

فصل له :

« أنت أيها الأمير وارثُ سَلَفِك ، وبقيَّةُ أعلام أهل بيتك ، المسدودُ به ثُلَمُهُم ، المجدَّدُ به قديمُ شرفهم ، المُحْيَا به أيامُ سعيهم ، وإنه لم يَخْمُلْ مَن

(١) انظر الجزء الثانى ص ٣٨٩ (كتاب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز) .

كنتَ وارثه ، ولا دَرَسَتْ آثارُ من كنت سالكَ سبيله ، ولا أُمّحَتْ أعلامُ مَن خلفْتَه فى رتبته » .

وفصل له :

« تأنّيْنا(١) إفاقتَك من سَكْرتك ، وترقّبْنا انتباهَك من رَقْدتك ، وصَبْرَنا عَلَى تجرُّع الغيظ فيك ، حتى بان لنا اليأْسُ مِن خَيْرك ، وكَشَفَ لنا الصبرُ عن وجه الغَلَط فيك ، فهَأَنا قد عرَفْتك حقّ معرفتك ، فى تعدِّيك لطَوْرك ، واطِّراحك حقّ مَن غلِطَ فى اختيارك » .

وفصل له :

« أما بعد ، فإن قريبَك مَن قَرُب منك خيرُه ، وابن عمك من عَمَّك نفعُه ، وعشيرك مَن أحسَنَ عِشْرتَك ، وأهْدَى الناسِ إلى مودتك مَن أهَدَى برَّه إليك » .

وكتب فى وصاة :

« حامِلُ كتابى إليك أنا ، فكُنْ له أنا ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧)

---

(١) أى انتظرنا .

٢٨٧ - كتاب لابن الكلبى

وكتب ابن الكلبى(١):

« كان خبرُ ما أبلاك الله(٢) فى فلان بعد إيتائه(٣) ما عَزمت عليه من الأمان ، خبَرًا عظُم مكانُه من أمير المؤمنين ، وحسُن موقِعُه من الدين ، ثم رَدِفَ(٤) خبرُك بإذعانه ، عندما عضَّه من بأسك ، ومسَّه من مُؤْلم إيقاعك ، للاستسلامِ وطلبِ عقْدِ الأمان ، وأنك بذلتَ له ما طلب لا لرهبةٍ بقيَتْ فى ناحيتك ، إلاَّ الاحتــذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه ، فكان إباؤه ماعَرَضْتَ عليه فى أول أمره ذخيرةَ حظٍّ فيما كشفَتْ عنهُ البَلْوَى من محمود أثرك ، واجتمع لك فى ذلك حظَّان : الظفرُ آخِرا ، والدَّرْكُ لما حَاولتَه أوَّلا ، فلا زلتَ على نصيبك من الحظ ، مؤيَّدًا بالنصر والمعُونة ، والحمدُ لله ما حَقَّق من الظن ، [وآتى](٥) من هذه النعمة على يديك وبِسَعْيك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦١)

---

(١) هو هشام بن محمد بن السائب بن بشر الكلبى الراوية النسابة المشهور المتوفى سنة ٢٠٤ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٢ : ١٩٥ والفهرست لابن النديم ص ١٤٠ ، وترجمة أبيه محمد الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ فى وفيات الأعيان ١ : ٤٩٣ والفهرست ص ١٣٩ .

(٢) الإبلاء : الإنعام والإحسان . (٣) فى الأصل « بعد أمانه » وأراه محرفا .

(٤) ردفه كسمعه ونصره : تبعه .

(٥) بياض بالأصل .

٢٨٨ — كتاب آخر

« أنت مَن أُطُولُ بمكانه ، وأثِقُ بجميل رأيه ، وَأَعتمد على رِفده[١] ، وَأرجو دَرْكَ كل فضيلة به ، ومما أحبُّ علمَه مَقرُّ نِعَم الله عز وجل لديك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

٢٨٩ — كتاب على بن عبيدة إلى ابن الكلبي

وكتب على[٢] بن عبيدة إلى ابن الكلبي :

« وَصَلَ الله أيام عمرى باتّباع مُوافقتك ، ولولا مَوعِدٌ أُخِذ علىَّ لَأَطعتُك فيما أمرتَ به مُتَّبِعا مع إجابتك سرورَ نفسى برؤيتك فى السلامة .

أما بعد ، فإنى أصبحتُ وقد استفرغَ الأميرُ منى كلَّ مودة ونصيحة ، ومبلغ جُهْدٍ وطاقةٍ فيما عَرَفتُ له فيه موافقةً » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

٢٩٠ — كتاب عنبسة بن إسحق إلى المأمون

وكتب عَنْبَسة بن إسحق إلى المأمون ، وهو عامِلُه على الرَّقّة[٣] يصف خروج الأعراب بناحية سِنْجار وَعَيْثهم[٤] بها .

---

(١) الرفد : العطاء والصلة .

(٢) قال ابن النديم فى ترجمته : « هو على بن عبيدة الريحانى ، أحد البلغاء والفصحاء ، له اختصاص بالمأمون ، وكان يسلك فى تصنيفاته وتأليفاته طريقة الحكمة ، وكان يرمى بالزندقة ، وكان كاتبا بارعا ، وله مع المأمون أخبار ... » — انظر الفهرست ص ١٧٣ .

(٣) الرقة : بلد على الفرات . وسنجار ، مدينة بالجزيرة . (٤) العيث : الإفساد .

. يا أمير المؤمنين : قد قطع سُبُلَ المجتازين ، من المسلمين والمعاهَدين ، نفرٌ من شُذَّاذ [1] الأعراب ، الذين لا يَرْقُبون فى مؤمنٍ إلاًّ [2] ولا ذمةً ، ولا يخافون فى الله حدًّا ولا عقوبةً ، ولولا ثِقتى بسيف أمير المؤمنين ، وحصْده هذه الطائفة ، وبلوغه فى أعداء الله ما يَدُعُّ [3] قاصيَهم ودانِيَهم ، لأذنْتُ بالاستنجاد عليهم ، ولأسْعَيْتُ الخيلَ إليهم ، وأمير المؤمنين مُعانٌ فى أمورِه بالتأييد والنصر » .

٢٩١ — رد المأمون عليه

فكتب إليه المأمون .

« أسْمِعْت غيرَ كهامِ السَّمْعِ والبَصرِ لا يقطعُ السيفُ إلا فى يد الحَذِرِ [4]
سَيُصبِحُ القومُ من سيفى وضاربِهِ مثلَ الهَشيم ذَرَتْه الرِّيحُ بالمَطر [5] »

فوجّه عنبسةُ بالبيتين إلى الأعراب ، فما بقِىَ منهم اثنان

(زهر الآداب ٣ : ٣٨٧)

---

(١) الشذاذ : الذين لم يكونوا فى حيهم ومنازلهم .

(٢) الإلّ : العهد . (٣) الدع : الدفع العنيف .

(٤) يقال سيف ، ولسان ، وفرس ، ورجل كهام : أى كليل ، وعىّ ، وبطىء ، ومسن لاغناء عنده

(٥) الهشيم : نبت يابس متكسر ، وذرته الريح : أطارته وأذهبته .

٢٩٢ — كتاب طاهر بن الحسين إلى يحيى بن حماد

وروى ابن طيفور فى كتاب بغداد قال :

وهذا توقيع لِذِى اليمينَيْن طاهر بن الحسين[١] إلى يحيى بن حمّاد الكاتب النَّيْسَابورى :

« قلةُ نظرِك لنفسك حَرَمَتْك سَنِيَّ[٢] المنزلة ، وغَفْلَتُك عن حظّك حَطّتك عن أعلى الدرجة ، وجَهلُك بموضع النعمة أحلّ بك الغِيَرَ[٣] والنَّقْمة ، وعَماك عن سبيل الدَّعة أسْلكَكَ فى طريق المشقَّة ، حتى صرتَ من فوت الأمل ، مُعْتاضاً شدَّةَ الوَجَل ، ومِن رجاءِ الغَدِ ، مُعقَبا يأسَ الأَبد ، وحتى رَكِبْتَ مطيَّةَ المخافة ، بعد مجلس الأَمْنِ والكرامة ، وصرتَ موضعا للرحمة ، بعد أن تكنفَتْك الغِبْطةُ[٤] ، على أنى أرى أمْثَلَ أمْرَيك أدْعاهما للمكروه إليك ، وأنفعَ حالتيك أضيقهما متنفَّسا عليك بقول القائل :

إذا ما بدأتَ امْرَأً جاهِلاً   بِبِرٍّ فقصَّر عن حَمْلِه
ولم تُلفِه قابلا للجميل   ولا عَرَف العِزَّ مِن ذُلِّه

---

(١) وقد روى ابن طيفور نفسه أيضا فى «اختيار المنظوم والمنثور» الشطر الأول من هذا الكتاب « إلى آخر البيت الثالث » وذكر أنه من محمد بن عبد الملك الزيات إلى إبراهيم بن العباس الصولى. وقال ابن خلكان فى ترجمة طاهر بن الحسين فى وفيات الأعيان : « واختلفوا فى تلقيبه بذى اليمينين ، لأى معنى كان ؟ فقيل : لأنه ضرب شخصا فى وقعته مع على بن ماهان فقدّه نصفين ، وكانت الضربة بيساره ، فقال فيه بعض الشعراء : « كلتا يديك يمين حين تضربه » فلقبه المأمون ذا اليمينين ، وقيل غير ذلك » وذكر الطبرى فى تاريخه ١٠ : ١٥٥ أنه سمى بذلك فى سنة ١٩٥ ، وذلك أنه لما هزم جيش على بن عيسى بن ماهان وقتله وكتب إلى الفضل بن سهل بذلك نهض الفضل فسلم على المأمون بأمير المؤمنين ، فأمدّ المأمون طاهرا بالرجال والقواد وسماه ذا اليمينين وصاحب حبل الدين . اﻫ

(٢) السنى : الرفيع ، وفى المنظوم والمنثور « سناء المنزلة » .

(٣) وفيه « البأس » . (٤) الغبطة : حسن الحال والمسرة .

فسُمْه الهوان فإن الهوانَ دواء لذى الجهل مِن جهله[1]

وَقد قرأتُ كتابك ، بإغراقك وإطنابك ، فوجدتُ أرْجاهُ عندك ، آنَسَه لك ، وَأرَقَّه فى نفسك ، أقساه لقلبى عليك ، وَمن صادَفَه[2] ماأذهبتَ ، وخامَرَه ما ذكرت ، خَرِس عن تشقيق[3] الكلام ، وتزويق الكذب والآثام ، ولعمرى لولا تعلقُك منى بحُرْمة المعاينة ، واتّصالُك منى بسبب المفاوضة ، وإنحائى بهما لمن نالهما بَسْطَ المنفعة ، وقبضَ الأذى والمَعرَّة ، مع استدامتى النعمةَ بالعفو عن ذى الجريمة ، واستدعائى الزيادة بالتجاوز عن ذى الهفوة ، واستقالتى العثرةَ بإقالة الزّلة ، لنَالَك من عقوبتى ما يؤذيك ، وَمسَّك من سَطْوَتى ما يَنْهَكُك[4] ، وبحَسْبك ما اجْتَرَمْته لنفسك من العجز ذلاً وجهلا ، وَما أخلَدْتَ إليه من الخمول وَضعا ، وَما حُرِمْتَهُ من الفضل عقوبةً ونقصا ، وفى كفاية الله غِنًى عنك ، وَفى عادته الجميلة عِوَضٌ منك ، وحَسْبُنا اللهُ وَنِعمَ الوكيل ، أقوَى مُعِينٍ وَأهدى دليلٍ » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٢٣ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٠ : ٢٦٣)

٢٩٣ ـ كتاب يحيى بن حماد إلى طاهر

قال ابن طيفور :

وهذه نسخةُ كتاب يحيى بن حَمّاد الذى هذا التوقيعُ جوابٌ عنه لما حبَسَه لِتركه ما أرادأن يقلِّده من كتابته .

---

(١) سامه الأمر : أولاه إياه .

(٢) أى لقيه ، وفى الأصل « صافه » وأراه محرفا ، وأذهبه : طلاه بالذهب ، والمعنى ماموّهت ، أو ما أذهبت:أى ماضيعت من النعمة التى كنت فيها. (٣) شقق الكلام : أخرجه أحسن مخرج.

(٤) نهكه السلطان عقوبة كسمع : بالغ فى عقوبته .

« بسم الله الرحمن الرحيم . تمَّم الله للأمير السلامةَ ، وأدام له الكرامةَ ، وَوَصلَ نِعَمه عليه بالزيادة ، وقوّى إحسانه إليه بالسعادَة ، ضعُفَ صبرى - أعز الله الأمير - عما أقاسى ، من ثِقَل الحديد ، ومكابَدةِ الهمومِ ، ومُصاحَبة الوَحشة فى دَار الغُربة ، من انقِطاع الأهل ، وتعقُّب الوَجَل ، واستخلافِ البلاء من وَثيق الرجاء ، وتذكُّرى ما أفاتنى القضاء الماضى مِن رأْىِ الأمير - أعزه الله - فىَّ ، ومَوْجدته[1] علىّ .

لقد تخوَّفتُ أن يُسْرع لزومُ الفِكرة إياى فى فسادى ، ويصيرَ بى تمكُّن الهَمِّ إلى تغيُّر حالى ، ولولا أنَّ سُخْط الأمير - أيَّده الله - لا يُصْبَر عليه ، وَوَجْده لا يقام له ، لرأيتُ الإمساكَ عن ذكر أمرى ، وشكوَى مابى ، إلى أن يستوى غيرُ ما أنا فيه لسرور ما كنت صرتُ إليه من إكرام الأمير - أيَّده الله - وبرِّه وتشريفه وتقريبه ، ولعمرى إنَّ شديد ما أُقاسى ، - ولو دام حينا من دهرى - ليَصْغُر عند لحظَة لَحَظَها إلىَّ ببرِّه ، فضلا عن رأيه الذى جَلّ عن قدرى . وعَجَزَ عن احتماله شكرى .

وقد تبيَّنَ للأمير - أعزه الله - أمرى ، وتحقيقُ شأنى ، فإن كان ما أنا فيه للهفوة التى كانت منى ، والجناية التى جنيتُها على نفسى بالجهل بصباى ، فقد وضع الله عن الصبيِّ فرائضَه عِلْما بحاله ، وكَانت حالى فى الصِّبا قريبةً من حاله ، والأمير - أعزه الله - أَوْلَى مَن عَطَفَ فى ذات الله عن زَلَّتى ، واحتسَبَ الأجرَ فى إقالة عثرتى وهفوتى ، فإن رأى الأمير أبقاه الله أن يأمر بالدعاء بى ، والاستماع منى ، فَعَلَ مُنْعِما ، إن شاء الله » . (كتاب بغداد ٦ : ١٢٥)

---

(١) الموجدة : الغضب ، وكذا الوجد .

٢٩٤ — عهد طاهر بن الحسين لابنه عبد الله

وكتب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله[١] لما ولاه المأمون الرَّقَّة ومصر وما بينهما (سنة ٢٠٦ هـ).

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيتِهِ ومراقبته ومزايلةِ سُخْطه وحفظِ رعيتك ، والزَم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر إليه ، وموقوف عليه . ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله ، وينجيك يوم القيامة من عذابه ، وأليم عقابه . فإن الله قد أحسن إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرَهم من عباده ، وألزمك العدلَ عليهم ، والقيامَ بحقه وحدوده فيهم ، والذبَّ عنهم[٢] ، والدفع عن حريمهم وبَيْضَتهم[٣] والحقنَ لدمائهم ، والأمن لسبيلهم[٤] ، وإدخال الراحة عليهم فى معايشهم ، ومؤاخذك بما فَرض عليك من ذلك ، وموقِفك عليه ، ومُسائلك عنه ، ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ، ففرِّغ لذلك فِكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك ، ولا يَذْهَلك[٥] عنه ذاهل ، ولا يَشْغلك[٦] عنه شاغل ، فإنه رأس أمرك ، ومِلاك شأنك ، وأول ما يوفقك الله به لرشدك .

وليكن أول ما تُلزِم به نفسك ، وتنسب إليه فعالك ، المواظبة

(١) توفى سنة ٢٣٠ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٦ .
(٢) الدفع . (٣) البيضة : حوزة كل شىء .
(٤) وفى مقدمة ابن خلدون : لسربهم . والسرب : النفس .
(٥) ذهلت عن الشىء (كفتح) : غفلت ، وقد يتعدى بنفسه فيقال ذهلته ، والأكثر أن يتعدى بالهمزة فيقال أذهلنى فلان عن الشىء .
(٦) شغله من باب فتح ، وأشغله لغة جيدة أو قليلة أو رديئة .

على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قِبَلك فى مَواقيتها على سننها فى إسباغ[1] الوضوء لها، وافتتاح ذكر الله فيها، وترتّل[2] فى قراءتك، وتمكّن فى ركوعك وسجودك وتشهدك، ولْتصدُق فيها لربك نيتُك، واحضُض عليها جماعة من معك وتحت يدك. وادأَبْ عليها فإنها كما قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر، ثم أتبع ذلك الأخذَ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرةَ على خلائقه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعِن عليه باستخارة[3] الله وتقواه، ولزوم ما أنزل الله فى كتابه من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قم فيه بما يحق لله عليك، ولا تَمِل عن العدل فيما أحببتَ أو كرهت، لِقَريب من الناس أو بعيد، وآثِر الفقه وأهله، والدينَ وحَمَلته، وكتاب الله والعاملين به، فإن أفضل ما تزيّنَ به المرء الفقه فى دين الله والطلب له والحث عليه، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله، والقائد له، والآمر به، والناهى عن المعاصى والمُوبقات كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفةً بالله عزّ وجل، وإجلالاً له، ودَرْكا للدرجات العُلاَ فى المَعاد، مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك، والهيبة لسلطانك، والأَنَسة بك، والثقة بعدلك.

وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها، فليس شىء أبيَنَ نفعاً، ولا أحضرَ أمناً،

---

(١) أسبغ الوضوء: وفى كل عضو حقه.

(٢) تمهل ولا تعجل.

(٣) استخار الله: طلب منه الخيرة.

ولا أجمعَ فضلا من القصد ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين ، والسنن الهادية بالاقتصاد ، فآثِره فى دنياك كلها ولا تقصِّر فى طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ، ومعالم الرشد ، فلا غاية للاستكثار من البرّ والسعى له ، إذا كان يُطْلب به وجه الله ومَرْضاته ، ومرافقة أوليائه فى دار كرامته . واعلم أن القَصْد فى شأن الدنيا يُورث العِز ، ويحصِّن من الذنوب ، وإنك لن تحُوط[1] نفسك ومن يليك ، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه ، فأْتِه واهتدِ به تتمّ أمورك ، وتزدْ مقدرتك ، وتصلح خاصتك وعامتك . وأحسِن الظن بالله عز وجل تستقمْ لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه فى الأمور كلها تستدِمْ به النعمةَ عليك .

ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشِفَ أمره فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مَأْثم ، واجعل من شأنك حُسْنَ الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم ، يُعنك ذلك على اصطناعهم[2] ورياضتهم ، ولا يجدن عدو الله الشيطانُ فى أمرك مَفْخَراً ، فإنه إنما يكتفى بالقليل من وَهَنك[3] ، فيدخل عليك من الغم فى سوء الظن ما ينغِّصك لَذاذةَ عيشك . واعلم أنك تجد بحُسْنِ الظن قوةً وراحة ، وتُكْفَى به ما أحببتَ كفايته من أمورك ، وتدعو به الناس إلى محبتك ، والاستقامةِ فى الأمور كلها لك ، ولا يمنعك حسنُ الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألةَ ، والبحث عن أمورك ، والمباشرة لأمور

---

(١) تصون . (٢) اصطنعتك لنفسى : اخترتك لخاصة أمر أستكفيك إياه .

(٣) الوهن بسكون الهاء وفتحها : الضعف .

الأولياء ، والحِياطةَ للرعية ، والنظر فيما يُقيمها ويُصْلِحها ، بل لتكن المباشرةُ لأمور الأولياء والحِياطةُ للرعية ، والنظر فى حوائجهم وحَمْلُ مَئوناتهم ، آثرَ عندك مما سوى ذلك ، فإنه أقومُ للدِّين ، وأحيا للسنة ، وأَخلِصْ نيّتك فى جميع هذا ، وتفرَّد بتقويم نفسك تفرُّدَ من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزِىّ بما أحسن ، ومأخوذ بما أساء ، فإن الله جعل الدين حِرْزًا وعزًّا ، ورفع من اتبعه وعزّزه ، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نَهْجَ الدين وطريقة الهدى . وأَقِمْ حدود الله فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطِّل ذلك ولا تَهاوَنْ به ، ولا تؤخِّر عقوبة أهل العقوبة ، فإن فى تفريطك فى ذلك لَمَا يُفْسِد عليك حسنَ ظنك ، واعزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب الشُّبَه والبِدعاتِ يَسْلَمْ لك دينك ، وتقم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهدا ففِ به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها ، وأَغمِضْ عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأبغِض أهله ، وأقْصِ أهلَ النميمة ، فإن أوّل فساد أمرك فى عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجُرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمتها ؛ لأن النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لمطيعها أمر ، وأَحِبَّ أهل الصدق والصلاح ، وأعِزَّ الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء ، وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله وعزةَ أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجَوْر ، واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل

فى سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى ، وأملك نفسك عند الغضب ، وآثر الوقار والحلم ، وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله وإياك أن تقول : إنى مُسَلَّط أفعل ما أشاء ، فإن ذلك سريع بك إلى نقص الرأى ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له ، وأخلِص لله النية فيه واليقين به . واعلم أن المُلْك لله ، يُعطيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء . ولن تجد تغيُّر النعمة وحُلولَ النقمة إلى أحد أسرع منه إلى حَمَلة النعمة من أصحاب السلطان ، والمبسوطِ لهم فى الدولة ، إذ كفروا بنعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شَرَه نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدَّخر وتكنِز البرَّ والتقوى والمعدِلة واستصلاح الرعية وعِمارة بلادهم ، والتفقّد لأمورهم ، والحفظ لدَهْمائهم [(١)] والإغاثة لملهوفهم . واعلم أن الأموال إذا كثرت وذُخرت فى الخزائن لا تُثْمِر ، وإذا كانت فى إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المئونة عنهم ، نمت وربَت وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ، ووفِّر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيتك من ذلك حِصَصهم ، وتعهَّد ما يُصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قرَّت النعمة عليك ، واستوجبت المزيدَ من الله ، وَكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر ، وكان الجمع لما شَمِلهم من عدلك وإحسانك

---

(١) الدهماء : جماعة الناس « وفى المقدمة : والحفظ لدمائهم » .

أساسَ لطاعتهم، وَأطيب نفسا لـكل ما أردت، فاجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب، وَلتعظُم حِسْبتك فيه، فإنما يبقى من المـال ما أُنفق في سبيل حقه، واعرِف للشاكرين شكرهم، وأثِبهم عليه. وإياك أن تُنسيك الدنيا وغرورها هولَ الآخرة، فتتهاونَ بما يَحُق عليك، فإن التهاون يوجب التفريط، والتفريط يورث البَوار، وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى، وارجُ الثواب، فان الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا، وأظهرَ لديك فضله، فاعتصِم بالشكر، وعليه فاعتمد، يَزِدْك الله خيرا وإحسانا، فان الله يُثيب بقدر شكر الشاكرين، وسِيرة المحسنين، وَقضى الحقَّ فيما حُمِّل من النعم، وألبس من العافية والكرامة، وَلا تحقِرن ذنبا، ولا تمالئن حاسدا، ولا ترحمن فاجرا، ولا تَصلنَّ كفورا، ولا تداهِنَنَّ عدوا، ولا تصدِّقَن نَمَّاما، ولا تأمنن غدّارا، وَلا توالين فاسقا، ولا تتبعن غاويا، وَلا تحمَدن مُرَائيا، ولا تحقِرن إنسانا، وَلا تردّن سائلا فقيرا، وَلا تجيبن[1] باطلا، وَلا تلاحظن مضحكا، وَلا تُخلفن وَعدا، وَلا تزهُوَنَّ فخرا، وَلا تُظهِرَن غضبا، وَلا تأتين بَذَخا[2]، وَلا تمشين مَرَحا، وَلا تركبن سَفَها[3]، وَلا تفرِّطن في طلب الآخرة، ولا ترفع للنّمام عينا، ولا تُغْمِضنّ عن الظالم رهبة منهُ أو مخافة، وَلا تطلبن ثواب الآخرة بالدنيا، وَأكْثر مشاوَرة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وَخذ عن أهل التجارب، وَذوى العقل وَالرأى والحكمة، ولا تُدخِلَن في مشورتك أهل الدقة[4] وَالبخل

(١) وفي المقدمة « ولا تحسنن باطلا ». (٢) البذخ: الكبر.

(٣) وفي المقدمة « ولا تركبن سفيها ». (٤) وفي المقدمة « أهل الرِّفه ».

وَلا تسمعن لهم قولا ، فان ضَررهم أكثر من منفعتهم ، وَليس شئ أسرع فسادا لما استقبلت فى أمر رعيتك من الشح . واعلم أنك إذا كنت حريصا كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وَإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلا ، فان رعيتك إنما تعتقد على محبتك ، بالكف عن أموالهم ، وترك الجَور عنهم ، ويدوم صفاء أوليائك لك ، بالإفضال عليهم وَحسن العطية لهم ، فاجتنب الشح ، وَاعلم أنه أوَّل ما عصى به الإنسان ربه ، وَأن المعاصى بمنزلة خزى ، وهو قول الله عز وَجل: «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» فسهّل طريق الجود بالحق ، وَاجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظا ونصيبا ، وَأيقنْ أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعدِدْه لنفسك خُلقا ، وَارضَ به عملا ومذهبا .

وتفقد أمور الجند فى دوَاوينهم وَمكاتبهم ، وأَدْرِر عليهم أرزاقهم ، وَوَسِّع عليهم فى معايشهم ، ليُذْهب بذلك الله فاقتهم ، ويقوّم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا ، وحسبُ ذى سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمةً فى عدله وحَيطته[1] وإنصافه وعنايته وشفقته وبرّه وتوسعته ، فزايل مكروهَ أحد البابين باستشعار تكملة الباب الآخر ولزومِ العمل به ، تلقَ إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحا .

واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذى ليس به شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى يعتدل عليه الأحوال فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتأمن السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ،

---

(١) فى المقدمة « وعطيته » .

وتحسُن المعيشة، ويؤدى حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجرى السنن والشرائع، وعلى مجاريها يتنجّز الحق والعدل فى القضاء. واشتد فى أمر الله، وتورع عن النَّطَف [1]، وامض لإقامة الحدود، وأقلل العجلة، وأبعد من الضجر والقلق، واقنع بالقَسْم، ولتسكُن ريحُك، ويقَرّ حَدك، وانتفع بتجربتك، وانتبه فى صمتك، واسْدِد [2] فى منطقك، وأنصف الخصم، وقف عند الشُّبهة، وأبلغ فى الحجة، ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباةٌ ولا محاماة [3] ولا لوم لائم، وتثبت وتأنّ وراقبْ، وانظر وتدبر، وتفكر واعتبر، وتواضع لربك، وارأف [4] بجميع الرعية، وسلِّط الحق على نفسك، ولا تُسرعن إلى سفك دم - فإن الدماء من الله بمكان عظيم - انتهاكاً لها بغير حقها.

وانظر هذا الخرَاج الذى قد استقامت عليه الرعية، وجعله الله للإسلام عزّاً ورفعة، ولأهله سَعة ومَنَعة، ولعدوّه وعدوهم كَبْتاً [5] وغيظاً، ولأهل الكفر من معاديهم ذلاً وصغاراً، فوزّعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه، ولا ترفعَن منه شيئاً عن شريف لشرفه، ولا عن غنيّ لغناه، ولا عن كاتب لك ولا أحد من خاصتك، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له، ولا تَكلّفن أمراً فيه شَطَط، واحمل الناس كلهم على مُرّ الحق، فإن ذلك أجمع لألفتهم، وألزم لرضا العامة. واعلم أنك جُعلتَ بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً،

---

(١) النطف: العيب والشر والفساد.

(٢) سدّ يسدّ كضرب: صار سديدا. (٣) فى المقدمة «ولا مجاملة».

(٤) من باب كرم وقطع وطرب.

(٥) كبته - صرعه وأخزاه ورد العدو بغيظه وأذله.

وَإنما سُمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيّمهم ، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه فى قِوام أمرهم وَصلاحهم وتقويم أوَدهم، فاستعمل عليهم فى كُوَر عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخِبرَة بالعمل ، والعلم بالسياسة والعفاف ، وَوَسّع عليهم فى الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسْنِد إليك ، وَلا يَشْغَلَنَّك عنهُ شاغل ، وَلا يَصرفنك عنهُ صارف، فإنك متى آثرْته وَقمت فيه بالواجِب، استدعيتَ به زيادةَ النعمة من ربك وَحسن الأُحدوثة فى عملك، وَاحترزت النَّصَحة من رعيتك ، وَأُعِنْت على الصلاح ، فدَرّت الخيراتُ ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وَظهر الخِصب فى كُوَرك ، فكثُر خَراجك ، وَتوفرت أموالك ، وَقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك ، وَكنت محمود السياسَة ، مَرْضىَّ العدل فى ذلك عند عدوك ، وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعُدة ، فنافِس فى هذا ولا تقدّم عليه شيئا ، تُحمَدْ مغبَّة أمرك إن شاء الله ، واجعل فى كل كُورة من عملك أمينا يُخبرك أخبار عُمالك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل فى عمله ، مُعاين لأمره كُله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك ، فان رأيت السلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصُّنع ،فأَمْضِه، وإلاَّ فتوقفْ عنهُ ، وراجعْ أهل البَصَر والعلم ، ثم خذ فيه عُدته ، فانه ربما نظر الرجل فى أمر من أمره قد واتاه على مايهوى، فقوّاه[1] ذلك وأعجبه، وإن لم ينظر

(١) فى المقدمة « وقد أتاه على مايهوى فاغواه ذلك »

فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم فى كل ما أردت ، وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثِر استخارة ربك فى جميع أمورك ، وافرُغ من عمل يومك ، ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغدٍ أمورا وحوادثَ تُلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرتَ عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فشَغَلك ذلك حتى تُعْرِض عنه . فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحتَ نفسك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك .

وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طَويّتهم ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهَدْ أهل البيوتات ممن قد دخلتْ عليهم الحاجة : فاحتمِل مؤنتهم ، وأصلح حالهم . حتى لا يجدوا لخَلَّتهم[1] مسًّا ، وأفرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مَظْلِمته إليك ، والمحتقَر الذى لا علم له بطلب حقه فاسأل عنه أخْفَى مسألة ، ووكِّل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يُصلح اللهُ به أمرَهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقا من بيت المال ، اقتداء بأمير المؤمنين ـ أعزه الله ـ فى العطف عليهم والصلة لهم ، ليُصْلح الله بذلك عيشهم ، وَيرزقك به بركةً وزيادة ، وأجْرِ للأضِرّاء من بيت المال ، وقدِّم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية[2] على غيرهم ، وانصِب لمَرْضى المسلمين دُورًا تُؤْويهم

(١) الخلة : الحاجة . (٢) فى المقدمة « فى الجرائد » .

وقُوّاما يرفُقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسْعِفهم بشهواتهم، مالم يؤدّ ذلك إلى سَرَف في بيت المال. واعلم أن الناس إذا أُعطُوا حقوقهم وأفضلَ أمانيّهم، لم يُرْضهم ذلك، ولم تَطِب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وُلاتهم، طمعاً في نيل الزيادة وفضلِ الرفق منهم. ورُبما بَرِم[1] المتصفح لأمور الناس، لكثرة ما يَرِد عليه، وَيشْغل فكره وَذهنه منها ما يناله به مُؤْنة ومشقة. وليس من يرغب في العدل وَيعرف محاسن أموره في العاجل، وفضلَ ثواب الآجل، كالذي يستقبل ما يقرّ به إلى الله، ويلتمس رحمته به، وأكثر الإذن للناس عليك، وأبرز لهم وجهك، وَسَكّن لهم أحراسك، واخفِض لهم جناحك، وأظهر لهم بِشْرك، ولِنْ لهم في المسألة والمنطق، واعطِف عليهم بجودك وفضلك، وإذا أعطيت فأعط بسماحةٍ وطيب نفس، والتمس الصنيعة والأجر غير مكدِّر ولا منّان، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومَن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية، والأمم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسنته، وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله، واعرف ما تجمع عُمّالُك من الأموال وما ينفقون منها، ولا تجمع حراما، ولا تُنْفق إسرافا، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها، وليكن أكرم دُخلائك وخاصتك عليك، من إذا رأى

---

(١) ضجر وملّ .

عيبا فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك فى سر، وإعلامك ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومُظاهريك لك ، وانظر عُمّالك الذين بحَضرتك وكُتّابك ، فوقِّت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل عليك فيه ، بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عُمّالك ، وأمرَ نورك وَرعيتك ، ثم فرِّغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك، وكرِّر النظر إليه والتدبُّرَ له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فأَمْضِه ، واستخِر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاُصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه ، ولا تمنن على رعيتك ولا عَلَى غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعَن المعروف إلا على ذلك ، وتفهّم كتابى إليك وأَكثِر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك واستخِره ، فإن الله مع الصلاح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ، ما كان لله رضاً ، ولدينه نِظامًا ، ولأهله عزا وتمكيناً ، وللذمة والملة عدلاً وصلاحا . وأنا أسأل الله أن يُصلح عونك وتوفيقك ورُشْدك وكلاءتك ، وأن يُنْزِل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظّا ، وأسناهم ذكراً وأمراً ، وأن يُهلك عدوك ومن ناوأك وبغَى عليك ، ويرزقك من رعيتك العافية ، ويحجُز الشيطان عنك ووساوِسَه ، حتى يستعلى أمرك بالعزّ والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب » .

وذكروا أن طاهرًا لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد ، تنازعه الناس

وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، فقال: ما بقّى أبو الطيب يعنى (طاهراً) شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيْضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم ، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٥٨، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٦ : ١٢٤ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩ ومختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى ص ٤٣ ، وكتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٣٦)

٢٩٥ — كتاب إلى طاهر بن الحسين من بعض عماله

وكتب بعض عمال طاهر بن الحسين إليه كتابا ، وفيه :

« وقد وجّهت إلى الأمير ثوبَ دِيباجٍ أحمر أحمر أحمر » .

٢٩٦ — رد طاهر عليه

فكتب طاهر إليه :

« قد قرأت كتابك ، فعلمتُ أنك أحمق أحمق أحمق ، فاقْدَم اقْدَم اقدَم ، والسلام » . (غرر الخصائص الواضحة ص ١٧٥)

٢٩٧ — كتاب إبراهيم بن المهدى إلى طاهر

وكتب إبراهيم بن المهدى إلى طاهر كتابا، منه :

« زادك اللهُ للحقِّ قضاءً، وللشكر أداءً، أبلغنى رسولى عنك ما لم أزَلْ أعرِفُه منك، واللهُ يمتّعنى بك، ويُحْسِن فى ذلك عنى جزاءك، ومع ذلك فإنى أظن أنى علّمتك الشوقَ، لأنى ذكرته لك، فهيّجته منك، والسلام » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٣٥)

٢٩٨ — كتاب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يعزيه بأبيه

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يعزيه بأبيه :

« أما بعدُ : فإنه قد حدَث من الرُّزْء العظيم — بوفاة ذى اليمينين — ما إلى الله جَلَّ وعزَّ فيه المَفْزَعُ والمرْجِعُ، وفيه عليه المستعانُ، فإنا لله وإنا إليه راجعون، اتّباعا لأمر الله، واعتصاما بطاعته، وتسليما لنازل قضائه، ورجاءً لما وَعَد الصابرين : من صلواته ورحمته وهداه، وعند الله نحتَسِب مصيبتنا به، فقد كان سبق إلى القلوب عند بدَاهة الخبر، من اللَّوعة واطِّلاع[1] الفجيعة، ما كنا نخاف إحباطَه من الأجر، لولا ما تداركَنا الله به من الذِّكر لِما وَعَد أهلَ الصبر، فنسأل الله أن يرْأَب[2] هذه الثُّلْمَة، ويسُدَّ

(١) أى وإشرافها على القلوب وإحراقها إياها، أخذه من قوله تعالى : « نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ » أى يبلغ ألمها الأفئدة، توفى عليها فتحرقها، من اطلع : إذا أشرف .

(٢) رأب الصدع كمنع : أصلحه، والثلمة : الثقبة الصغيرة أو عام .

هذه الخَلّة بأمير المؤمنين أوّلا ، وَبك ثانيا ، وَأن يعظّم مَثوبتك ، وَيُحسن عُقباك ، ويَخلُف بك ذا اليمينين ويَعمُر بك مكانه من أمير المؤمنين ومن كافة المسلمين .

فأما ما تحتاج إليه من التسلية والتعزية ، فإنك فى فضل رأيك ، واتساع لُبّك فى حال العِزّة والنَّماء ، لم تكن تخلو من عوارض الذكر ، وخواطر الفكر ، فيما تعرُو به الأيام من نوَائبها ، وتَبعَث به من حوادثها ، وفى هذا لمن وُفّق له إعدادٌ للنوازل ، وتوطينٌ للأنفس على المكاره ، فلا يكون معه هَلَعٌ ولا إفراطُ جَزَع بإذن الله ، مع أن مَرَدَّ كلِّ ذِى جَزَع إلى سلْوة لا ثبات عليها ، فأوْلَى بالراغب فى ذَاتِ الله أن يَهتبل[1] مَثُوبتَه فى أوانها ، من مَضَض الأسى ، وفجأة النكبة ، وأَوْلَى بذِى اللُّبِّ إذَا علم ما هو لا بدَّ صائرٌ إليه ألاَّ يُبْعِد منهُ إبعاداً يلزمهُ التفاوت عند التأمل واختلاف الحالين فى بعد الأمد بينهما ،

وقد كنتُ أحبُّ ألاَّ أقنَع فى تعزيتك برسول ولا كتاب ، دون الشخوص إليك بنفسى ، لو أمكنني المسيرُ ، إجلالاً للمصيبة ، وتأنُّسا بقربك ، بعد الذى دخلنى من الوَحْشَة ، فقد عَرفتَ ما خصّنى من الرزِئة بذى اليمينين ، لِمَا كنتُ أتعرّف من جميل رأيه ، وعظيم بِرِّه حَاضرًا ، وما كان يَذْكُرنى به غائبا ، ذَكَرَه الله فى الرفيق الأعلى ، وأنت وارثُ حقّه علىَّ ، إلى ما كنتُ لك عليه ، من صدق المودة ، وخالص النصيحة ، وإلى الله أرغب فى تأدية

---

(١) أى يغتنم .

شكرك ، والقيام بما أوجبه لك ، فإن رأيتَ أن تأمر بالكتاب إلىَّ بما أبلاك(١) فى نفسك ، وألهمَك من العَزاء والصبر ، مع ما أحببتَ وَبدَا لك إن شاء الله » . (كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٣٤ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٦)

٢٩٩ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شبث

ولَّى المأمونُ عبدَ الله بن طاهر الرَّقَّةَ كما قدمنا ، وعَهد إليه فى محاربة نصر بن شَبَث — وكان خرج على المأمون بالجزيرة — فلما جادَّه عبد الله بن طاهر القتالَ وحَصَره وبلَغ منهُ ، طلَب الأمانَ فأعطاه وتحوَّل من مُعَسْكَره إلى الرَّقة ، وصار إلى عبد الله بن طاهر .

وكان المأمون قد كَتب إليه قبل ذلك كتابا (كَتبه عمرو بن مَسْعَدة(٢)) يدعوه إلى طاعته ، ومفارقة معصيته ، فلم يقبل ، فكتب عبد الله إليه :

« أما بعدُ : فانك يا نصرُ بنَ شَبث قد عَرَفْتَ الطاعة وعِزَّها وَبَرْدَ ظِلّها ، وطِيب مَرْتَعها ، وَما فى خِلافها من النَّدَم والخسارِ ، وإن طالت مدَّةُ الله بك ، فانه إنما يُمْلِي(٣) لمن يلتمس مُظاهَرةَ الحُجَّةِ عليه لِتَقَع غِيَرُهُ بأَهْلِها على قَدْر إصرارهم واستحقاقهم ، وقد رأيتُ إنكارَك وتبصيرَك لِما رجوتُ أن يكون لِما أكتُبُ به إليك مَوْقِعٌ منك ، فان الصِّدق صِدْق ، والباطل

---

(١) أى أنعم عليك .

(٢) هو عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول ، أحد وزراء المأمون ، وكان كاتبا بليغا جزل العبارة وجيزها ، سديد المقاصد والمعانى ، توفى سنة ٢١٧ هـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٣٩٠ والفهرست لابن النديم ص ١٧٨ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢ : ٢٠٣ ، ومعجم الأدباء ٦ : ٨٨ (طبع مطبعة هندية) .

(٣) يملى : يمهل ، ومظاهرة الحجة : أى مضاعفتها .

باطل ، وإنما القول بمَخَارِجه ، وَ بأهله الذين يُعْنَوْن به ، ولم يعامِلك من عُمَّال أمير المؤمنين أحَدٌ أنفعُ لك فى مالِك ودينك ونفسك ، ولا أحرَص على استنقاذك والانتياش[1] لك من خَطَائك منى .

فبأىٌّ أوَّلٍ أو آخِرٍ أوسِطَةٍ[2] أو إِمْرَةٍ إقدامُك يانصرعلى أمير المؤمنين، تأخذ أمواله وتتولَّى دونه ماولاَّه الله ، وتُريد أن تَبيتَ آمِنًا أو مطمئنا أو وَادِعًا أو ساكنا أو هادئا ؟ فوَعالِمِ السِّرِّ والجَهْرِ : لئن لم تكن للطاعة مُراجعاً ، وَ بها خانِعا[3]، لتَسْتَوْبِلَنَّ[4] وَخيم العاقبة ، ثم لأَبْدَأَنَّ بك قبل كل عمل ، فإنَّ قُرُون الشيطان إذَا لم تُقْطَع كانت فى الأرض فِتنَةٌ وفسادا كبيرا ، وَلأَطَأَنَّ بمن معِى من أنصار الدولةِ كواهِلَ رَعاعِ أصحابك ، وَمَن تأشَّبَ[5] إليك من أدانى البُلدان وأقاصِيها وَطَغَامِها وأوباشها ، وَمَن انْضَوَى[6] إلى حَوْزتك من خُرَّاب[7] الناس، ومَن لَفَظه بلدُه، وَنَفَتْه عشيرتُه لسُوء موضِعِه فيهم ، وَقد أعذَرَ مَن أنذرَ ، والسلام » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٣٧ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦٧)

---

(١) انتاشه : أخرجه . والخطأ والخطاء واحد .
(٢) يقال وسطت القوم أسطهم وسطا وسطة ، كوعد : أى توسطتهم .
(٣) الخنوع : الخضوع والذل .
(٤) المرعى الوبيل : الوخيم الثقيل ، واستوبله : وجده وبيلا غير موافق .
(٥) تأشبوا : اجتمعوا ، والطغام : أوغاد الناس . (٦) انضوى إليه : انضم ومال .
(٧) الخراب : جمع خارب ، وهو اللص ، ولفظه : طرحه ورماه .

٣٠٠ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شبث

وَروَى صاحب زهر الآداب قال :

وكتب عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شَبَث وَقد نزل به ليحاربه فى جنده فوجده مُحَصَّنا منهُ فكتب إليه :

« اعتصامُك بالقِلال[1] ، قَيَّدَ عَزمَك عن القتال ، والتجاؤك إلى الحصون ، ليس يُنْجيك من المَنُون[2] ، ولَستَ بِمُفْلِتٍ من أمير المؤمنين ، فإمَّا فارسٌ مُطاعِنٌ ، أو راجِلٌ مستأمِنٌ » .

فلما قرأه حَصَره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث أن خرج مستأمِنا .

(زهر الآداب ٣ : ٣٣١)

٣٠١ — أمان عبد الله بن طاهر لنصر بن شبث

وكان مقام عبد الله بن طاهر على نصر بن شَبَث محاربا له فيما ذكر خمس سنين حتى طلب الأمان ، فكتب عبد الله إلى المأمون يُعْلمه أنه حَصَره وضَيَّق عليه وقتل رؤساء من معه ، وأنه قد عاذ بالأمان وطَلَبه ، فأمره أن يكتب له كتاب أمان ، فكتب إليه أمانا نسخته :

« أما بعدُ : فإن الإعذارَ بالحق حُجَّةُ اللهِ المقرونُ بها النصرُ ، والاحتجاجَ بالعدل دعوةُ الله الموصولُ بها العِزُّ ، ولا يزال المُعْذِرُ بالحق ، المحتجُّ بالعدل ، فى استفتاح أبواب التأييد ، واستدعاء أسباب التمكين ، حتى يفتح الله وهو

(١) القلال : جمع قلة بالضم : وهى أعلى الجبل . (٢) المنون : الموت .

خير الفاتحين، ويُمكّن وهو خير المكنّين، ولستَ تعدُو أن تكون فيما لَهِجتَ[1] به أحَدَ ثلاثةٍ : طالبَ دِين ، أو ملتمِسَ دنيا ، أو متهوِّراً يطلب الغَلَبة ظُلْماً ، فإن كنتَ للدِّين تسعَى بما تصنع ، فأوضِحْ ذلك لأمير المؤمنين يغتنم قَبوله إن كان حقا ، فلَعَمْرِى ما هِمَّتُه الكبرى ، ولا غايَتُه القُصْوَى ، إلا الميلُ مع الحق حيث مال ، والزوالُ مع العَدْل حيث زال ، وإن كنتَ للدنيا تقصِدُ فأَعْلِم أمير المؤمنين غايَتَك فيها ، والأمرَ الذى تستحقها به ، فإن استحققْتَها وأمْكَنَه ذلك فَعَلَه بك ، فلعمرى مايستجيز مَنْعَ خلقٍ مَايستحقُّه وإن عَظُم ، وإن كنتَ متهوِّراً فسيكفِى اللهُ أميرَ المؤمنين مُؤْنَتَك . ويعجِّل ذلك كما عجَّل كِفايَتَه مُؤَنَ قومٍ سَلكوا مِثْلَ طريقك ، كانوا أقوى يَدًا ، وأكثفَ جنداً ، وأكثر جَمْعاً وعَدَدا ونصرًا منك ، فيما أصارهم إليه من مَصَارِعِ الخاسرين ، وأنزَلَ بهم من جوائح[2] الظالمين .

وأميرُ المؤمنين يختِم كتابَه بشهادة أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحْدَه لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وضَمانِه لك فى دينه وذمَّته الصَّفْحَ عن سوالِف جرائمك ، ومتقدِّمات جرائرك[3] ، وإنزالَك ما تستأهِلُ من منازل العِز والرفعة ، إن أَنَبْتَ وراجعتَ إن شاء الله ، والسلام » .

وخرج نصر إلى عبد الله بن طاهر بالأمان ، فوجَّه به إلى بغداد ، فأنزله المأمون مدينة أبى جعفر ، ووكَّلَ به من يحفظه (سنة ٢١٠ هـ) .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦٨)

---

(١) لهج بالأمر كفرح : أغرى به فثابر عليه .

(٢) الجوائح: جمع جائحة ، وهى الآفة المهلكة . (٣) الجرائر: جمع جريرة ، وهى الجريمة .

٣٠٢ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى عبد الله بن السرى

ولما فَرَغَ عبد الله بن طاهر من نصر بن شَبَث، كتب إليه المأمون يأمره بالمسير إلى مصر — وكان قد خرج بها عُبَيْدُ الله بن السَّرِيّ بن الحَكَم — فسار إليه، فلم تكن من عبد الله إلا حَمْلة واحدة حتى انهزم ابن السرىّ وأصحابه وطلب منه الأمان، وخرج إليه.

وروى أن ابن السرى بعث إلى ابن طاهر لما وَرَدَ مصرَ وصانَعَه من دخولها، بألف وصيف ووصيفة، مع كل وصيف ألفُ دينار فى كيس حرير، وبعث بهم إليه ليلاً، فرد ذلك عليه ابن طاهر وكتب إليه:

«لو قبلْتُ هديتك ليلا لقبلتُها نهاراً[1]»، «بَلْ أَنْتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاقِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ».

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٤٩، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٤)

٣٠٣ — كتاب المأمون إلى عبد الله بن طاهر

وكتب المأمون إلى عبد الله بن طاهر وهو بمصر حين فتحها، فى أسفل كتاب له:

أَخِى أنت ومــولاىَ ... ومن أشكُرُ نُعْماه[2]

فما أحبَبْتَ مِن أمْرٍ ... فإنى الدهرَ أهــواهُ

(١) وفى الطبرى «لو قبلت هديتك نهارا لقبلتها ليلا».
(٢) المولى هنا: النصير والصديق.

وَمَا تَكْرَهُ مِن شيء فإنى لستُ أرضاهُ
لك اللهُ على ذاكَ لك اللهُ لك اللهُ

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٤٩ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٦)

٣٠٤ — كتاب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر عند خروج عُبيد الله ابن السَّرِىِّ إليه يهنئه بذلك الفتح :

« بَلَغنى ـ أعزَّ اللهُ الأميرَ ـ ما فَتَح اللهُ عليك ، وخروجُ ابن السَّرىّ إليك ، فالحمدُ للهِ الناصرِ لدينه ، المُعِزِّ لدولة خليفته على عباده ، المُذِلِّ لمن عَنَدَ[١] عنهُ وعن حقِّه ، وَرَغِبَ عن طاعته ، ونسألُ اللهَ أن يُظاهِرَ له النِّعَمَ ، وَيفتح له بُلْدَانَ الشِّرك ، والحمدُ لله على ما وَلِيَك به مُذْ ظَعَنْتَ[٢] لِوَجْهك ، فإنَّا وَمَن قِبَلَنَا نتذاكَر سِيرَتَك فى حَرْبك وسِلْمك ، ونُكْثِر التعجُّبَ لِما وُفِّقتَ له من الشدة واللِّيان فى مواضعهما ، ولا نَعْلَم سائِسَ جندٍ ورعيةٍ عَدَلَ بينهم عَدْلَك ، ولا عَفَا بعد القدرة عمن آسَفَه[٣] وأَضْغَنَه عَفْوَك ، ولَقَلَّما رأَيْنا ابنَ شَرَفٍ لم يُلْقِ بيده متَّكِلاً على ما قدَّمَتْ له أُبُوَّتُه ، ومن أُوتِىَ حَظًّا وكِفاية وسلطانا وولايةً ، لم يُخْلِد إلى ما عَفَا له[٤] حتى يُخِلَّ بمُساماةِ ما أمامَه ، ثم لا نعلَم سائِسًا استحقَّ النُّجحَ لِحُسْنِ السيرة ، وكفَّ مَعَرَّة الأتْباعِ استحقاقَك ، ومَا يستجيزُ أحدٌ ممن قِبَلَنا أن يقدِّم عليك أحدا يَهْوَى عند

(١) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : مال . (٢) ظعن كمنع : سار .
(٣) آسفه : أغضبه . (٤) عفا الشيء : إذا كثر وزاد.

الحاقَّةِ(١) والنازلة المُعْضِلَة ، فليَهْنِيكَ(٢) مِنَّةُ الله ومَزِيدُه ، ويُسَوِّغك اللهُ هذه النعمةَ التى حواها لك ، بالمحافظة على ما به تمّتْ لك ، من التمسُّك بحَبْلِ إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين ، ومَلّاكَ(٣) وإيانا العيشَ ببقائه ، وأنت تعلم أنّك لم تَزَل عندنا وعند مَن قِبَلَنا مُكَرَّما مُقَدَّما مُعظَّما ، وقد زادك الله فى أعينِ الخاصّة والعامّة جلالةً وَبَجَالة(٤) ، فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ، ويُعِدُّونك لأحداثهم ونوائبهم ، وأرجو أن يوفّقك اللهُ لمحابِّه كما وفّق لك صُنْعَه وتوفيقه ، فقد أحسنتَ جِوارَ النعمة فلم تُطْغِك ، ولم تزدَدْ إلاّ تذلُّلا وتواضُعا ، فالحمدُ لله على ما أنالَك وَأبْلاكَ(٥) وَأوْدَعَ فيك ، والسلام » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٥٠ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٨)

٣٠٥ — كتاب الهزبر بن صبيح إلى عبد الله بن طاهر

وكتب إلى عبد الله بن طاهر الهِزَبْر بن صُبَيح يستمنحه لشاعر مدحه :

« جُعِلْتُ فِداكَ أيها الأمير ، ومَدَّ اللهُ لك فى العمر مُمَتَّعا بالنعم ، مَكْفِيًّا نوائبَ الدهر ، أنت — أيها الأمير — سماء مُمْطِر ، وبحر لا يَكْدُر ، وغيث

---

(١) الحاقة : النازلة .

(٢) فى الأصل « فليهنك » وجاء فى لسان العرب والمصباح « تقول العرب فى الدعاء : ليهنئك الولد ، وليهنئك الفارس ، بجزم الهمزة ، وبإبدالها ياء ساكنة ، ولا يجوز ليهنك بحذف الياء كما تقول العامة » . أقول : والوجه فى إبقاء الياء مراعاة أصلها وهو الهمزة ، وأن ذلك الإبدال عارض للتخفيف لا يعتد به وإلا فالحق حذف الياء لموجب الجزم .

(٣) ملاك الله حبيبك تملية : متعك به وأعاشك معه طويلا .

(٤) بجله تبجيلا : عظمه ، وقد بجل ككرم بجالة وبجولا .

(٥) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، يقال : أبلاه الله بلاء حسنا .

مُمْرِعٌ[1] بِحِبائه الُمجْدِبُ، ومُنتهَى أبصار[2] قوم، ومَثْنَى أعناقهم، أصبحت لهم كالوالد تُكرِمُ زائرهم ، وَتُصْفِد[3] مادحَهم ، وتُصْدِر واردَهم وقد انفرجَتْ عنه الضِّيقةُ ، وانزاحَتْ عنه الكُربةُ ، وكذلك كان آباؤك للمتعلِّقين بهم ، والموجِّهين رغبتَهم نحوهم ، وَإِن كنتَ تمهَّلْتَ وَسبقْتَ سبقًا بَيِّنًا ، وَذهبتَ بحيثُ لا يَشُقُّ أحدٌ غُبارَك ، وَلا يجرِي إلى غايتك ، وَفتحتَ يداً مُخْضَلَّة[4] متدفِّقة بالنَّوَالِ والإفضال ، على الحالِّين بساحتك ، وَالمتَجعين خِصْبَ جَنابِك .

وَأنا أقْدَم عليك أيها الأمير فى أشياء تُشْبه قدْرَك ، وَأُحبُّ أن يكون أكثرُ زَادِك مما أفادك الله صنيعةٌ تصنَعُها ، وَنعمةٌ تشكرها ، وتحوز أجْرَها ، وتصدِّق الظنَّ فيها .

وَفلان فى الصحبة من ذوى البيوتات التى يُرغَب فى الصنائع عندها ، وَالتوسط من الأداة[5] التى توجب احتمال من حَمَلها ، وَقد أهدى إلى الأمير شعرا يتوصَّل به إليهِ ، وَيستهدِى من فضله وكرمِهِ ما أعلَمُ أنه يُعينه فى مِثله ، وَسألنى أن أكون سبب ذلك وَفاتِحَه ، وَأولَى الناسِ بالاعتدادِ بما ذكر وَالتطاوُلِ وَالابتهاجِ به ، رَهْطُ الأمير الأدنَوْن وأسرته الأقربون ، الذين جعله الله سهْمَهم الذى به يقارِعون ، وَعِزّهم الذى به يعتزّون ، وَسَنَدهم الذى به يلْجَئون ، ومَعْقِلَهم الذى به يَئُولون ، فرأىُ أميرالمؤمنين فى هديته ،

---

(١) أمرع الوادى : أخصب ، والحباء : العطاء ، وفى الأصل « بحيائه » .

(٢) فى الأصل « أنصار » .

(٣) أصفده إصفادا : أعطاه ووصله ، والاسم الصفد بالتحريك . (٤) مخضلة : ندية .

(٥) فى الأصل « الاداد » وأرى أن صوابها « الأداة » وهى الوسيلة .

واستماعِها منهُ ، ووضعِه بحيثُ وضعَه أملُه ورجاؤه » .

فدعا عبد الله بن طاهر بالشاعر الذى وجَّهه إليهِ واستمع منهُ ، وأحسن جائزته ، وصَرفهُ إليهِ . (كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٥١)

٣٠٦ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى الحسن بن عمرو

وكتب عبد الله بن طاهر إلى الحسن بن عمرو التَّغْلَبىّ :

« أما بعدُ فقد بلغنى مِنْ قَطْعِ الفَسَقَة الطريقَ ما بَلَغَ ، فلا الطريقَ تَحْمِي ، ولا اللصوصَ تَكْفِي ، ولا الرعيَّةَ تُرْضِي ، وتطمَعُ بعد هذا فى الزيادة ! إنك لَمُنْفَسِحُ الأمل ! وايمُ الله لَتَكْفِيَنَّ مَنْ قبلَك ، أَوْ لأُوَجِّهَنَّ إليك رجالاً ، لا تُعْرَف مُرَّة مِن جَهْم ، ولا عَدِيَ من رُهْم(١) ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله » . (العقد الفريد ١ : ١٧)

٣٠٧ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى المأمون

وأهدى عبد الله بن طاهر إلى المأمون فرساً ، وكتب إليه :

« قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرس ، يَلْحَق الأرانب فى الصَّعْداء(٢) ، ويجاوز الظِّباء فى الاستواء ، ويسبِق فى الحُدُور(٣) جَرْىَ الماء ، فهو كما قال تأبَّطَ شرًّا :

---

(١) كلها أسماء قبائل . (٢) الصعداء : المشقة .

(٣) الحدور : الإسراع .

ويسبِقُ وفْدَ الرِّيحِ من حيث تنْتَحى ... بمُنْخَرِقٍ من شَــدِّه المتدارِكِ[1]

(زهر الآداب ١ : ٣٠٧)

٣٠٨ — كتاب المأمون إلى قثم بن جعفر

ولمـا كانت سنة ٢١٠ هـ أمر المأمون بدَفع « فَدَكَ[2] » إلى وَلد السيدة فاطمة رضى الله عنها ، وكتب بذلك إلى قُثَم بن جعفر عامله على المدينة :

« أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين بمكانه من دين الله ، وخلافةِ رسوله صلى الله عليه وسلم والقرابةِ به ، أَوْلَى مَن استَنَّ بسُنَّته . ونفَّذ أمْرَه ، وسلَّم — لِمَنْ مَنَحه مِنْحَة ، وتصدَّق عليه بصدقةٍ — مِنحتَه وصَدَقَتَه ، وبالله توفيقُ أمير المؤمنين وعِصْمتُه ، وإليه — فى العمل بما يقرِّبه إليه — رَغْبتُه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى فاطمة بنت رسول الله فَدَكَ ، وتصدَّق بها عليها ، وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفا لا اختلاف فيه بين آلِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تزَلْ تدَّعِي منه ماهى أولَى مَن صُدِّق عليه ، فرأى أمير المؤمنين أن يردَّها إلى وَرَثتها ، ويسلِّمها إليهم ، تقرُّبا إلى الله تعالى ، بإقامة حقِّه وعدله ، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتنفيذ أمْرِه وصَدَقته ، فأمر بإثبات ذلك فى دواوينه ، والكتابِ إلى عماله ، فلئن كان يُنادَى فى كل مَوْسِم بعد أن قبض

---

(١) الشد : العدو ، واختراق الرياح وانخراقها : مرورها وهبوبها (ومنخرقها بفتح الراء : مهبها) قال رؤبة : * بكلّ وفد الريح من حيث انخرق *

(٢) فدك : قرية بخيبر بينها وبين المدينة يومان ، وقد قدمنا عنها كلمة مطولة فى الجزء الثانى ص ٢٣١ فارجع اليها .

اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، أن يَذْكُرَ كلُّ من كانت له صدقةٌ أو هبَة أَو عِدَةٌ ذَلك، فيُقْبلَ قولُه، وتنفَّذَ عِدَتُه، إن فاطمة رضى الله عنها لأَولى بأن يصدَّق قولها فيما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لها .

وقد كتب أمير المؤمنين إلى المبارَك الطَّبَرىّ مولى أمير المؤمنين يأمره بردِّ فَدَكَ على ورثة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بِحُدُودها وجميع حقوقها المنسوبة إليها ، وما فيها من الرَّقيق والغَلاَّت وغير ذلك ، وتسليمِها إلى محمد بن يحيي بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومحمد بن عبد الله بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، لِتولية أمير المؤمنين إياهما القيامَ بها لأهلهما .

فاعلَمْ ذلك من رأىِ أمير المؤمنين ، وما أَلْهَمَه الله من طاعته ، ووفَّقه له من التقرُّب إليه وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأَعلِمْه مَن قِبَلك ، وعامِلْ محمد بن يحيي ومحمد بن عبد الله بما كنت تعامِلُ به المبارك الطبرى ، وأَعِنْهما على ما فيه عِمارتُها ومصلحتُها ووُفُور غَلاَّتِها إن شاء الله ، والسلام » .

وكُتِب يوم الأربعاء لليلتين خَلَتا من ذِى القَعدة سنة ٢١٠ هـ

(فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٠ ، ومعجم البلدان ٦ : ٣٤٥)

٣٠٩ — كتاب أبى العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة

وكتب أبو العتاهية إلى الفضل بن معْن بن زائدة :

« أما بعد : فإنى توسَّلْتُ إليك فى طلب نائِلك (١) بأسباب الأمل ،

(١) النائل : العطاء كالنوال والنال .

وذَرائع الحمد ، فِراراً من الفقر ، ورجاءً للغِنى، فازددتُ بهما بُعدا مما فيه تقرَّبْتُ ، وقُرْباً مما فيه تبعَّدْتُ ، وقد قسمتُ اللائمةَ[1] بيني و بينك ، لأني أخطأتُ في سؤالك ، وأخطأتَ في منعِي : أُمِرْتُ باليأس من أهل البخل فسألتُهم ، ونُهيتَ عن منع أهل الرغبة فمنَعْتَهم ، وفي ذلك أقول :

فَرَرْتُ من الفقر الذى هو مُدْرِكى ... إلى بُخلِ محظورِ النَّوالِ مَنُوعِ

فأعْقَبنى الحِرْمانَ غِبُّ مطامِعِى ... كذلك مَن يلقاه غيرَ قَنُوعِ

وغيرُ بديعٍ منعُ ذِى البخل مالَه ... كما بذلُ أهلِ الفضل غيرُ بديع[2]

إذا أنت كشَّفتَ الرجالَ وجدتَهم ... لأعراضهم من حافظٍ ومُذيع

(العقد الفريد ٢ : ١٩٦)

٣١٠ — كتاب عمرو بن مسعدة إلى المأمون

وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون فى رجل من بنى ضَبَّة يستشفِع له بالزيادة فى منزلته ، وجَعَل كتابه تعريضاً :

« أما بعدُ ، فقد استشفعَ بِى فلانٌ يا أمير المؤمنين — لِتَطَوُّلك[3] علىَّ — فى إلحاقِه بنُظَرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمتُه أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مَراتِبِ المستشفِعِين ، وفى ابتدائه بذلك تعَدِّى طاعَتِه ، والسلام ».

---

(١) اللائمة : اللوم . (٢) أى غير مبتدع .

(٣) التطول : التفضل .

٣١١ — رد المأمون عليه

فكتب إليه المأمون :

« قد عَرَفْنا توطئتك له ، وتعريضَك لنفسك ، وأجَبْناك إليهما ، ووافقناك عليهما » . (المثل السائر ص ٣٩١)

٣١٢ — كتاب عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل

وكتب عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل :

« أما بعدُ : فإنك ممن إذا غَرَس سَقَى ، وإذا أَسَّسَ بَنَى ، لِيَستَتِمَّ تشييد أُسِّه ، ويجتنِيَ ثِمار غَرْسِه ، وبناؤك(١) عندى قد شارَفَ الدُّرُوسَ(٢) ، وغَرسُك مُشْفٍ(٣) على اليُبُوس ، فتدارَكْ بناء ما أَسَّسْتَ ، وسَقِّ ما غَرَسْتَ ، إن شاء الله »(٤) (معجم الأدباء ٦ : ٩٠ (طبع هندية)

٣١٣ — كتابه إلى الحسن بن سهل

وكتب إلى الحسن بن سهل عن لسان المأمون يهنئه بمولود :

« أما بعدُ : فإن هِبَةَ الله لك هِبَةٌ لأمير المؤمنين ، وزيادته إياك فى عَدَدك

---

(١) فى الأصل « وثناؤك » وهو تصحيف .

(٢) الدروس : الامحاء والزوال . (٣) أشفى عليه : أشرف .

(٤) وروى ابن خلكان فى وفيات الأعيان (٢ : ٥٥) قال : وحكى أبو عبد الله البيارستانى أن أبا حفص الكرمانى كاتب عمرو بن مسعدة كتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات : « أما بعد فإنك ممن إذا غرس سقى غرسه ، وإذا أسس بنى أسه ... ويجتنى ثمرة غرسه ، وبناؤك فى ودى قد وهى وشارف الدروس ، وغرسك عندى قد عطش وأشفى على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست ، وسقى ماغرست » وسيرد عليك هذا الكتاب بعد بصورة أطول صادرا من الحى ماركا إلى بختيشوع .

زيادةٌ له فى عدده ، لِمَحَلِّك عنده ، ومكانِك من دولته ، وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن الله وهب لك غُلاما سَرِيًّا[1] ، فبارَكَ الله لك فيه ، وجعله بارًّا تقيًّا ، مبارَكًا سعيداً زَكِيًّا » . (ختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٢)

٣١٤ — كتابه إلى المأمون

«وقَدِم على المأمون رجل من أبناء الدَّهاقين[2] وعظمائهم من أهل الشام ، على عِدَة سَلَفَت له من المأمون ، من توليته بلدَه ، وأن يَضمّ إليه مملكتَه ، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمْرِ أمير المؤمنين ، فقصد عمرَو بن مَسْعَدة ، وسأله إيصالَ رُقعة إلى المأمون من ناحيته ، فقال : اكتب بما شئت فإنى مُوصِله ، قال : فتولَّ ذلك عنى حتى تكونَ لك نعمتان ، فكتب عمرو :

« إنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يَفُكّ أسْرَ عِدَته من رِبْقة[3] المَطْلِ ، بقضاء حاجةِ عبده ، والإذن له بالانصراف إلى بلده ، فَعَلَ مُوفَّقا » .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرا وجعل يَعْجَب من حسن لفظها ، وإيجاز المراد فيها ، فقال له عمرو : فما نتيجتُها يا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتابةُ له فى هذا الوقت بما سأل ، لئلا يتأخر فضلُ استحساننا كلامَه ، وبجائزةٍ تفِى دناءةَ المَطْل . (زهر الآداب ٣ : ٣٥٧)

---

(١) سريا : سيدا شريفا ، وصف من السرو : وهو المروءة فى شرف .
(٢) الدهاقين : جمع دهقان بالكسر والضم ، وهو رئيس الإقليم ، وزعيم فلاحى العجم ، معرّب .
(٣) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرى يشد به البهم ، كل عروة ربقة .

٣١٥ — كتابه فى وصاة

وأمره المأمون أن يكتب لشخص كتابا إلى بعض العمّال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فى سطر واحد ، فكتب إليه :

« كتابى إليك كتابُ وَاثقٍ بمن كُتِبَ إليه ، مَعْنِيٍّ بمن كُتِبَ له ، ولن يضيعَ بين الثِّقة والعناية حامِلُه ، والسلام » .

قال ابن خلكان : وقيل إن هذا من كلام الحسن بن وهب ، والأول أصح وأشهر (وفيات الأعيان ١ : ٣٩٠ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٦٠)

٣١٦ — كتابه إلى بعض اصحابه

وكتب عمرو إلى بعض أصحابه فى حق شخص يعزُّ عليه ·

« أما بعدُ . فَوُصِّل كتابى إليك سَالِم ، والسلام » .

أراد قول الشاعر :

يُدِيرُوننى عن سالِمٍ وأُدِيرُهم وجِلْدةُ بين العين والأنف سالِمُ

أى يَحُلُّ منى هذا المحلّ : (وفيات الأعيان ١ : ٣٩٠)

٣١٧ — كتابه إلى المأمون

وقال أحمد بن يوسف : دخلت على المأمون وفى يده كتاب ، وهو يعاود قراءته مرّةً بعد مرةً ، ويصعِّد فيـــه بصره ويصوِّبه ، فالتفت

إلىّ وقد لَحَظنى فى أثناء قراءته للكتاب ، فقال : يا أحمد أراك متفكِرا فيما تراه منى ! قلت : نعم ، وَقَى الله أمير المؤمنين من المكاره، وأعاذه من المخاوف، قال : لا مكروه إن شاء الله ، ولكنى قرأت كتابا وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله فى البلاغة ، فإنى سمعته يقول : « البلاغة التباعد من الإطالة ، والتقرب من البُغْية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة ، حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا ، ورمى به إلىّ فقرأته فإذا فيه :

« كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومَن قِبَلى من قُوَّاده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة ، على أحسنِ ما تكون عليه طاعة جندٍ تأخرَتْ أرزاقهم ، وانقيادُ كُفاةٍ تراخَتْ أَعْطِياتُهم ، واختَلَّتْ لذلك أحوالُهُم ، والْتاثَت[1] معه أمورُهم » .

فلما قرأته ، قال : إن استحسانى إياه بعثنى أن آمرتُ للجند قِبَله بعطائهم لسبعة أشهر[2] ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه مَنْ حَلَّ محلَّه فى صناعته .

(وفيات الأعيان ١ : ٣٩١ ، وزهر الآداب ٣:١٥٥ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٦٠)

---

(١) الالتياث : الاختلاط .

(٢) وفى زهر الآداب « ألا ترى يا أحمد إلى إدماجه فى الأجناد ، وإعفائه سلطانه من الإكثار، ثم أمر لهم برزق ثمانية أشهر».

٣١٨ — كتابه إلى بعض الرؤساء

وكان بعض الرؤساء قد تزوجت أمه فساءه ذلك ، فكتب إليه عمرو ابن مسعدة رسالة بديعة ، فلما قرأها ذلك الرئيس تسلى بها وذهب عنه ما كان يجده ، وهى :

« الحمدُ لله الذى كَشَفَ عنا سِتْرَ الحَيْرَة ، وهدانا لِسَتْرِ العَوْرة ، وجَدَع بما شَرَع من الحَلال أنفَ الغَيرة[1] ، ومَنَع من عَضْلِ الأُمَّهات[2] ، كما مَنَع من وَأْدِ البنات ، استنزالاً للنفوس الأبِيَّة عن الحَمِيَّة حَمِيَّة الجاهلية ، ثم عَرَّض لجزيلِ الأجرِ مَن استسلَمَ لوَاقع قضائه ، وعَوَّض جليلَ الذُّخْر مَن صَبَر على نازِل بلائه ، وهَنَأَك الذى شَرَح للتقوى صَدْرَك ، ووسَّعَ فى البلوَى صَبْرَك ، وألهَمَك مِن التسليم لمشيئته ، والرِّضا بقضيته ، ما وفَّقك له من قضاء الواجبِ فى أَحَد أبويك ، ومَن عظَّمَ حَقَّه عليك ، وجعل اللهُ — تعالى جَدُّه — ما تجرَّعْتَه مِن أنَف ، وكظَمْتَه من أسَف ، معدودًا فيما يُعْظِم به أجرَك ، ويُجْزِل عليه ذُخْرَك ، وقَرَن بالحاضِر من امتعاضك بفعلها ، المنتَظَرَ من ارتماضِك[3] بدَفْنها ، فتستوفِى بها المصيبةَ ، وتستكمِل عنها المَثُوبةَ ، فَوَصَل اللهُ لسيدى ما استشعَرَه من الصبر على عُرْسها ، بما يستكسِبُه من الصَّبر على نفسها[4] ، وعوَّضه من أَسِرَّة فَرْشها ، أعوادَ نَعْشها ، وجعلَ — تعالى جَدُّه —

---

(١) أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم ليلة زفت فاطمة إلى علىّ رضى الله عنهما « جدع الحلال أنف الغيرة » وجدع أنفه كمنع : قطعه .

(٢) عضل المرأة : منعها الزوج ظلما ، ووأد بنته : دفنها حية ، والحمية : الأنفة .

(٣) امتعض من الأمر : شق عليه ، وارتمض منه : اشتد عليه وأقلقه أيضا .

(٤) أى حين موتها .

ما يُنْعِم به عليه بعدها من نِعْمة ، مُعَرًّى من نِقمة ، وما يُولِيه بعد قبضها من مِنْحة، مُبَرًّأ من مِحْنة ، فأحكامُ الله ـ تعالى جدُّه ، وتقدسَتْ أسماؤه ـ جاريةٌ على غير مُرَاد المخلوقين ، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خير لهم فى العَاجلة ، وأبْقَى لهم فى الآجِلة ، اخْتار الله لك فى قَبْضها إليه ، وقدومها عليه ، ما هو أنفعُ لها وأولَى بها ، وجَعل القَبْرَ كُفْئًا لها ، والسلام » .

وقيل إن هذه الرسالة لأبى الفضل بن العميد[1] .

(وفيات الأعيان ١ : ٣٩٠)

٣١٩ — كتاب له

وكتب عمرو بن مسعدة :

وصل إلىّ كتابُك ، على ظَمَأٍ منى إليه ، وتَطَلُّع شديد ، وبعْدَ عهدٍ بعيد ، ولَوْمٍ منى على ما مَسَّنِى به من جَفائك ، على كَثرة ماتابعتُ من الكُتب ، وعدِمْتُ من الجواب ، فكانَ أول ماسَبق إلىّ من كتابك السرور بالنظر إليه ، أُنْسًا بما تجدَّد لى من رأيك ، فى المواصلة بالمكاتبة ، ثم تضاعُف المسَرَّة بخبر السَّلامة ، وعلم الحال فى الهيئة ، ورأيتك بما تظاهَرْتَ من الاحتجاج فى ترْك الكتاب ، سالكا سبيل التخلُّص مما أنا مخلِّصُك منه ، بالإغضاء عن إلزامك الحُجَّةَ فى ترك الابتداء والإجابة ، وذكرتَ شُغْلك بوجوه من

---

(١) وأنت إذا تأملت هذه الرسالة وجدتها بنسج ابن العميد أشبه ، إذ تتجلى فيها الصنعة البديعية من الطباق والجناس الناقص والسجع مما كان عماد طريقته ، ولم يكن فاشيا فى كتابة ابن مسعدة ولا كتاب عصره .

الأشغال كثيرةٍ متظاهِرة مُمِلّة[1] لا أُجَشِّمك متابعةَ الكتب ، ولا أحمِلُ عليك المشاكلة بالجواب ، ويُقْنِعني منك فى كل شهر كتاب ، ولن (تُلْزِم[2]) من نفسك فى البِرّ قليلا إلاَّ ألزمتُ نفسى منه كثيرا ، وَإن كنتُ لأستكثِرُ شيئا منك ، أدام الله مودَّتك ، وثبّت إخاءك ، واستماحَ[3] لى منك ، فرأيك فى متابعة الكُتب ومحادَثتى فيها بخبرك ، مُوفَّقا إن شاء الله» .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٢)

٣٢٠ — كتابه إلى أبى الرازى

وخرج المأمون يوما من باب البستان ببغداد ، فصاح به رجل بَصْرِيٌّ : يا أمير المؤمنين ، إنى تزوجت بامرأة من آل زِياد ، وإن أبا الرازى[4] فرّق بيننا ، وقال : هى امرأة من قريش ، فأمر المأمون عمرو بن مسعدة فكتب إلى أبى الرازى :

« إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كَان من الزِّياديّة وخَلْعِك إياها إذ كانت من قريش ، فمتى تحاكمتْ إليك العربُ — لا أمَّ لك[5] — فى أنسابها ؟ ومتى وَكَّلَتْك قريش يا ابن اللَّخْناء[6] بأن تُلْصِقَ بها من ليس منها ؟ نَخْلٌ بين

---

(١) فى الأصل « ممكنة » وهو تحريف .

(٢) فى هذه الكلمة بياض بالأصل ، والسياق يقتضيها .

(٣) استماحه : سأله أن يشفع له .

(٤) هو محمد بن عبد الحميد المعروف بأبى الرازى ، ولاه المأمون اليمن سنة ٢١٢ هـ — تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٩ .

(٥) انظر الجزء الثانى ص ١٦ .

(٦) اللخن بالتحريك : قبح ريح الفرج ، وامرأة لخناء ، ويقال اللخناء : التى لم تختن ، وهى من شتم العرب ، كأنهم يقولون : يا دنىء الأصل ، أو يا لئيم الأم .

الرجل وامرأته ، فلئن كان زيادٌ من قريش إنه لَابْنُ سُمَيَّةَ ، بَغِيٍّ عاهِرة ، لا يُفْتَخَر بقرابتها ، ولا يُتَطاوَل بولادتها ، ولئن كان ابنَ عُبَيْد لقد باء بأمرٍ عظيم ، إذ ادَّعَى إلى غير أبيه لِحَظٍّ تعجَّلَه ، ومُلْكٍ قهرَه ».

٣٢١ — كتاب إبراهيم بن العباس إلى عمرو بن مسعدة

وكان بين عمرو بن مسعدة وبين إبراهيم بن العباس الصُّولى (ابن عمه) مودة ، فحصل لإبراهيم ضائِقةٌ بسبب البَطالة فى بعض الأوقات ، فبعث له عمرو مالاً ، فكتب إليه إبراهيم :

« سأشكر عَمْراً ما تراخَتْ مَنِيَّتى أيادِىَ لم تُمْنَنْ وإن هِى جَلَّتِ
فتًى غير محجوب الغِنَى عن صديقه ولا مُظْهِرِ الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زلَّت
رأى خَلَّتى من حيثُ يَخْفَى مكانُها فكانت قَذَى عينيه حتى تجلَّتِ »

(وفيات الأعيان ١ : ٣٩١)

٣٢٢ — كتاب أبى جعفر الكرمانى إلى المأمون

ورفع أبو جعفر الكِرْمانى إلى المأمون رقعةً يقول فيها :

« ثِقَتى من أمير المؤمنين باعتنائه ، تمنعنى من استبطائه ، ومعرفتى بأشغاله، تدعونى إلى إذْ كاره، ولا آمَنُ بين منع الثقة ودعاء المعرفة ، اخترامَ(١) قُرْبِ الأَجَلِ بُعْدَ أملى ، إذ كانت الآجال آفاتِ الآمالِ ، نفَّسَ الله لأمير المؤمنين فى أجله ، وبلَّغه منتهى أمله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٢)

---

(١) اخترمته المنية : أخذته .

٣٢٣ — كتابه إلى بختيشوع

وله إلى بَخْتَيْشُوع(١) :

« فإنك ممن إذا أَسَّسَ بَنَى ، وإذا غَرَس سَقَى ، لاستتمام بناء أُسِّه ، واجتناء ثمار غَرْسه ، وأُسُّك قد بَلِيَ(٢) وقارب الدُّروسَ ، وغَرْسُك فى حفظى قد عَطِش وشارَفَ اليُبُوسَ ، فتداركْ بالبناء ما أسَّسْتَ ، وبالسَّقِي ما غَرَسْتَ .

قد جعلك الله ممن يحتمل الدَّالةَ الكبيرة ، لِذِى الحُرْمَة اليسيرة ، ورفَعَك عن أن تتلقَّى استزادةَ المستزيد بعُنْفِ الحَمِيَّة والإعراض والنَّبْوَة ، لأن هذا من أخلاق مَن حَدَثَتْ نعمتُه ، وصَغُرَتْ همتُه ، فأمَّا من انقادت النعمُ له فى أوَّله وآخِره ، وكان له فى تشييد المكارم ، ورَبِّ(٣) الصنائع ، مِثلُ سهمك ، فإنه يُنْصِف من نفسه ، ويَقضِي عن حقه ، ويحتمل دالَّة المتحرِّم(٤) ، ويُجاوز بالمستزيد غايةَ استحقاقه(٥) » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٣)

---

(١) هو بختيشوع بن جبرئيل بن بختيشوع الطبيب المشهور ، وقد رفع المامون منزلته ، وأكرمه غاية الإكرام، وأخرجه معه إلى بلاد الروم حين خرج إليها سنة ٢١٣ هـ ، وكان كذلك عظيم المنزلة عند المتوكل، وتوفى سنة ٢٥٦ هـ انظر أخباره فى طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ١ : ١٣٥ ، وأخبار الحكماء لابن القفطى ص ١٠٢ (طبع أوربة) .

(٢) فى الأصل « ثرى » وأراه محرفا ، وإن صحّ فهو من ثريت الأرض كفرح: إذا نديت وابتلت ومعناه : قد ندى ورطب فتأكل ، — وهو مع ذلك تخريج متكلف — أو هو محرف عن (ثرم) مجازا من ثرمت السنّ كفرح : إذا انكسرت من أصلها .

(٣) رب الصنيعة كنصر : نماها وزادها وأتمها وأصلحها .

(٤) تحرّم منه بحرمة : تمنع وتحمى بذمة .

(٥) قدمنا لك فى ص ٥١٢ أن الشطر الأول من هذا الكتاب رواه ياقوت فى معجم الأدباء صادرا من عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل .

٣٢٤ — كتاب العباس بن الحسن إلى جرير بن يزيد

وكتب العباس بن الحسن بن عُبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب عليه السلام، إلى جرير بن يزيد يعزّيه فى العباس ابنه:

« أما بعد، فإنك لا تُخْبَر عن الله عزّ وجل فيما وَعَد على المصائب، ولا توعَظ فيما حدَثَ من بغَتات الدهور، ومُلِمَّات الأمور، بأَشْفَى مِن علمِك به وأَوْعَظِه، بما لم تَزَلْ له مُعايِنا من مُلِمّات قدره وفضله، وفى الله تبارك وتعالى لِمن اعتصَمَ به كافٍ، وفى ثوابه لِمَن رَغِب عن الأحبّة مُعزٍّ، وليس من أحداث الدهر حادثٌ يُعْنَى به امرؤٌ فى حَمِيم، وإنْ لَطف من القلوب موقعُه، وجَلَّ فى المُصاب رُزْؤه، إلاّ والمرء مرتَهَن فى نفسه بأعظمَ منه، إمّا بفَناء يكون به حظًّا لِحَميمه فى المَعادِ إنْ قصَّر به فى نفسه أملٌ، وإما بقاءٍ يكون به عرَضا لمختلِف الأيام والليالى، حتى يموتَ منه ما لا ينتفع بعده بالبقاء إن عُمِّر، ثم يكون الموت من ورائه لا مَحالةَ، فأينَ المَذْهبُ لمن عرَفَ هذا عن ثواب الله الذى منه الخَلَفُ والعِوض، فى الدار التى لا تفْنَى ولا يَفْنَى ما فيها؟.

وكفى نظراً من الله لك، وإنعامًا عليك، أنْ جعل ابنك لك ولداً، فشرّفك بشرفه على الأبناء، وزيّنك بخصاله الفائتة للوصف فى الفضائل والكمال، وبلغَ به الغايةَ التى بَلَغ فى السِّنِّ والثروة، ثم جعله لك مقدِّمةً إليه، وذخيرةً عنده، وأىُّ الأمرين تراه يا أبا العباس أمْلأَ ليدك: أبَقاؤه لو بقىَ حتى تكونَ له، أم فناؤه إذ فَنِىَ حتى كان لك؟ وما كنتَ تأمُلُ له أكثَر مما

أعطاه الله وأعطاك فيه ؟ فخيرُ ما أخذْتَه تقوى الله فى حُسْن العَزاء ، واستيجاب العِوَض ، والاستعدادِ فيما هو نازلٌ بك فى نفسك ، وإن كان غيرَ ذى أمثالٍ عندنا إن تأَخَّر فى أجَلك ، ونسأل الله أن يُنْسِئَ فيه .

فأما أنا فإنه لمّا بَدَهَنى ما بَدَهَنى من مُصابه ، وتخوَّفْتُ أن يستولىَ الأَسَى على الصبر ، والجزعُ على السُّلُوِّ ، ذكرتُ ما وعَدَ اللهُ الصابرين ، فأشفَقتُ أن يكون حظِّى من الأخ الحبيب القريب الفاجع فقْدَ المرجوِّ ثوابُه ، وإعطاء النفسِ حاجَتَها من الجَزَع والهَلَع ، فلما رُضْتُها على الصبر ، لم أجد عندها مع شدة اللوعة أكثرَ من ظاهر التعزِّى ، وكتبتُ إليك وأكثرُ ما عندى التجمُّلُ ، واللهُ المستعانُ ، وليس لك ولا لنا وإن عظُم الرُّزء عما أمَرَ اللهُ به مَذْهَبٌ ، ولا على غيره مُعَوَّل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وعند الله نحتسبُه لك ولأنفسنا ، ونسأله الثوابَ عليه ، والعفو عنه ، والعُقْبَى منه ، والتجاوُزَ والمغفِرةَ لذنوبه ، ولا تَدَعِ الكتابَ إلىّ ، فإنه قد زادنى تعزِّيًا ، علمى بك فى حُسْن ظنى بالله لك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١١)

٣٢٥ — كتاب العباس بن الحسن إلى المأمون

وكتب العباس بن الحسن الطالبىّ إلى المأمون يهنئه بمولود له :

« قد كان أجْذَلَنى[1] ما أحْدَثَ اللهُ لأمير المؤمنين من المَوْهَبة التى ليس — وإن كان أولَى بها من غيره — بأعظَمَ فيها حَظًّا من رعيته ، فعَمَرَ اللهُ

---

(١) أى سرنى .

لك يا أمير المؤمنين قلوبَهم(١) بنور الحكمة وأبصارَهم، حتى يَشُدَّ بهم عَضُدك ويسُدَّ بهم ثُلْمَتَك، ويبلِّغَهم الغايةَ المأمول لهم بلوغُها بعدك، غيرَ مُقْعَد بك مَهَلٌ، ولا مُحَلٍّ بك أجل، ولا مُكْذِبك أملٌ، ولا منقطعة أيامُك، حتى تُخْتَرَم(٢) أنفسُنا قبلك، وتأتى على تقصيرنا وزَلَلِنا بركاتُك».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣: ٣٠٢)

٣٢٦ — كتاب لجرير بن زيد البجلي

وكتب جرير(٣) بن يزيد البَجَلىّ:

«أما بعد: فإنه لولا (ماله)(٤) الناسُ مِن تقلُّب قلوبهم، وتصرُّف حالاتهم وتبايُنهم، واختلافهم وائتلافهم، لَما تشعَّبوا من أصلهم، ولا ائتلف منهم اثنان بعد تشعُّبهم، فلابدَّ فيما يحدُث بين الناس من عِلَل الوَحشة، وأسباب المداوة والفُرقة، ويجرِى بينهم من المودة وداعِى الصلة، مِن سابق ومسبوق، وداعٍ ومجيبٍ، فسابقٌ إلى قطيعة يجتنِي بها من صاحبه الوحشةَ، ومبتدِئٌ بصلةٍ اجتلب بها من صاحبه الثقةَ، وزرع بها فى قلبه المِقَةَ له.

وقد بلغنى عنك فى وفائك وفضلك ما حرَّكنى لودِّك، ورغَّبنى فى خُلَّتك(٥)، ودعانى إلى طلَب وَصْلك، فأجبتُ دعاءك إلى الصلة والملاطفة بما

(١) أى قلوب أبنائك. (٢) اخترمته المنية: أخذته.

(٣) هو جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القسرى البجلي، وهو أحد الخطباء المعدودين — انظر الفهرست ص ١٨١.

(٤) كذا فى الأصل، فاللام فى «له» بمعنى لأجل، أى لولا ماخلق لأجله الناس.

(٥) الخلة: الصداقة.

أحسَسْتُ لك من الثقة ، وَحَدَث لى فيك من الرغبة ، فاقبلْ ما بَذَلْنا من ودِّنا ، وَأحسِنِ الإجابةَ إلى ما دعوناك إليه من إخائنا ، واتَّبعْنا بإحسان إذ كَانَ الابتداء منا ، فإن المجيبَ إلى الجميل شريكُ الراغبِ فيه ، وَإن المكافِئَ به شَكلٌ[1] لمُسْدِيه ، وَلا تكرَهَنَّ أن تكون لنا إذ دعوناك مجيبا ، وإذ سبقناك بالفضيلة تابعا ، فإنا قد أحسَنَّا إجابةَ فضلك ، وَسَلِسْنا فى اتّباع ماقادنا إليك من محاسنك ، وَاعلم أنك لو كنت سبقْتَنا إلى الصِّلَة ، وتقدمْتَنا بالرغبة ، وَطلبْتَ فضلَنا عليك بالموَدَّة ، كنتَ لذلك فى الفضل أهلا ، وبه جديراً ، لأن مثلك فى فضلك عطَّف على نفسه ، ومِثْلنا رَغِبَ فى صلته ، فقد أهدَينا إليك صفوَ وُدنا ، وَكفيناك ما كنتَ به جديرا مِن طلبنا ودعائنا ، فأحْسِنْ قَبولَ هديتنا ، وَبذْلَ الحقِّ فى مكافأتنا ، ولا يفوتَنَّك السبقُ وَحسنُ الاتباع معا ، والسلام» . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٩)

٣٢٧ — كتاب آخر

« إن القبيح لو كان فَضْلا قلَّ حظُّك منه ، وَكنا أوْلَى به منك ، فأما إذ كَانَ نقصا فأنت أحقُّ به منا ، وَأنت وليُّه دونَنا ، وَقد وَلَّيناك منه ما تولَّيْتَ ، وكرِهْنا منهُ ما ارتضيتَ ، فاجْرِ ما بدا لك فيه ، غيرَ محسود عليه ، والسلام » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٣)

---

(١) الشكل : الشبه والمثل .

٣٢٨ – كتاب آخر

وله أيضا :

« فإن أحقّ مَن زُهِد فى الصنيعة عنده ، مَن بُلِىَ الكفرُ منه ، وأولى مَن يُهوَّنُ مَن لم ينفع فيه الإكرامُ له ، وقد بلَوْناك بإتيان المعروف ، فلم تؤدِّ حفيظةً فى الشكر عليه ، وبلَوْناك بالإكرام لك فلم ينفع ذلك فيك ، فبأىِّ الأمور تستزيدنا فى الصلة ، وتستبطِئُنا فى التكرِمَة ، وتقحَّمُ علينا « أن حرَمْناك » باللائمة ؟ فلُمْ نفسَك فى قلة شكرك واحتمالك ، فإنك بذلك أجْدَرُ ، ومنهُ أعْذَر ، والسلام » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٣)

٣٢٩ — كتاب محمد بن سعيد فى السلامة

وكتب محمد[١] بن سعيد فى السلامة يوم عيد :

« إن الله وهب العِلْمَ لعباده ، هدايةً إلى معرفة نعمه ، وأداء شكرهم ، ثم أمرَهم بالحديث عن نعمه ، و اصُفِ آلائِه ، وإن مِن حقِّ النعمة فيما أكمَلَ اللهُ من هذا العيد الجليل قدرُه ، الشاملِ نفعُه ، أن يجتمع العوامُّ بالقصد لشكره ، والثناء به على الله تبارك وتعالى وعلى خليقته ، فإن لم يجمعها صعيدٌ واحدٌ تفرّدَ أهلُ الفِقه والعلم وذوو الدين والفضل ، للقيام عن أنفسهم وعمن وراءهم بشكر النعمة فيه ، فإنه أعظم عِيدٍ على المسلمين بَرَكةً وعائدةً[٢] بعد

(١) ذكره ابن النديم فى الفهرست فى عداد البلغاء فقال : « محمد بن سعيد زمن المأمون » انظر ص ١٨٢ . (٢) العائدة : الفائدة .

العيد الذى جمعهم فيه نظرُه للإسلام ، إذ عَصَم الله به الدينَ ، ولَامَ به الشَّعَث، وَأطفأ النائرةَ[1]، حَوارىّ[2] الأمة وَإمامُهم، والقائم بحق الله فيهم على مِنبرهم ، يَعِظهم وَيسدِّدهم ، وَيقوم بهم على إخلاص العبادة ،وَفضيلة الطُّهر وَالزكاة .

فالحمد لله على هذه النعمة التى جعلها تذكِرةً لما سبقَ من وَعده ، فى تمكين أوليائه ، وَتصييره العاقبةَ للمتقين من عباده ، وَأسأل الله أن يتقبل منه فَريضةَ العمل ، وَنافلةَ القُربة ، فيما قضى عنه من شهره ، وَأدَّى من الحق فيه عليه ، وَيجعله أعظمَ شهرٍ وَسَنةٍ وَعيدٍ وَتَجْمع يُمْن وَبَرَكةٍ ، مستقبلا وعائدةً ، إنه سميع قريب » . (المنظوم والمنثور ١٣: ٣٧٤)

٣٣٠ — كتاب إلى المأمون من عامل

« قلَّ مَن يسارِعُ فى بَذْلِ الحق مِن نفسه ، إذا كان الحق مُضِرًّا به ، وقلَّ من يَدَعُ الاستعانةَ بالباطل ، إذا كان فيه صلاحُ مَعاشِه ، وسببُ مُكتَسَبِه ، وإذا تفرّق الحق فى أيدى جماعةٍ فطُولِبَتْ به ، تشابَهَتْ فى الكُرْه لِبذْله ، وتعاوَنَت على دَفْعه ومَنْعه ، بالحِيَل وبالشُّبَه ، قولاً وفعلا ، واحتاجَ المبتلَى باستخراج ذلك الحق من أيديها ، إلى استعمال مجاهدتها ، ومصابَرَتِها على الحيلة فى مدافعتها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦١)

---

(١) النائرة : العداوة والشحناء .

(٢) فى الأصل « صوارى الأمة امامهم » وهو تحريف ، وقد أصلحته كما ترى ، والحوارى : الناصر ، أو ناصر الأنبياء .

٣٣١ — كتاب رجل إلى المأمون

وكتب رجل كان فى حبس المأمون إليه لما طال حبسه :

« أغفلتَ يا أمير المؤمنين أمرى ، وتناسيتَ ذِكْرِى ؛ ولم تتأمَّلْ حُجَّتى وعُذرى ، وقد ملّ من صبرى الصبر ، ومسَّنى من حبسك الضُّرّ »

٣٣٢ — رد المأمون عليه

فأجابه المأمون :

« ركوبُك مطيّةَ الجهل ، صيَّرك أهلا للقتل ، وبغيُك علىّ وعلى نفسك ، نقلك عن سَعةِ الدنيا إلى قبر من قبور الأحياء ، ومَن جَهِل الشكر على المِنَنِ ، قلّ صبرُه على المِحَن ، فاصبِر على عواقب هفواتك ، ومُوبقات زَلّاتك ، على قدر صبرك على كثير جناياتك ، فإن حصل فى نفسك كفٌّ عن معصيتى ، وعزمٌ على طاعتى ، وندمٌ على مخالفتى ، فلن تعدَم مع ذلك جميلا من نيَّتى » . (غرر الخصائص الواضحة ص ٤٠٩)

٣٣٣ — كتاب إحدى جوارى المأمون إليه

وأهدتْ جارية من جوارى المأمون تفاحةً له ، وكتبتْ إليه :

« إنى يا أمير المؤمنين لما رأيتُ تنافُس الرّعية فى الهدايا إليك ، وتواتُرَ أَلْطَافِهِم[1] عليك ، فكَّرتُ فى هدية تخِفُّ مُؤْنتها ، وتهون كُلْفتها ،

(١) التواتر : التتابع . واللطفة بالتحريك : الهدية .

ويعظُم خَطَرُها[١] ، ويجِلُّ موقعُها ، فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النَّعْتُ ، ويكمُل فيه هذا الوصفُ ، إلا التفاح ، فأهديتُ إليك منها واحدةً فى العَدَد ، كثيرةً فى التقرُّب ، وأحببتُ يا أمير المؤمنين أن أُعْرِب لك عن فضلها ، وأكشِفَ لك عن محاسنها ، وأشرَحَ لك لطيف معانيها ، وما قالت الأطبّاء فيها ، وتفنّن الشعراء فى أوصافها ، حتى تَرْمُقَها[٢] بعين الجلالة ، وتَلْحَظها بمُقْلة الصِّيانة . فقد قال أبوك الرشيد رضى الله عنه : «أحسنُ الفاكهة التفاح ، اجتمع فيه الصُّفرة الدُّرِّيّة ، والحمرةُ الخَمْرية ، والشُّقْرة الذَّهبية ، وبياضُ الفِضة ولون التِّبر ، يَلَذُّ بها من الحَواسّ : العينُ ببهجتها ، والأنفُ بريحها ، والفم بطعمها » وقال أرسطاطاليس الفيلسوف عند حضوره الوفاة ، واجتمع إليه تلاميذه : « التمِسوا لى تفاحةً أعتصِم بريحها ، وأقضِى وَطَرِى[٣] من النظر إليها » . وقال إبراهيم بن هانئ : «ما عُلِّل المريضُ المبتلَى ، ولا سُكِّنت حرارةُ الثَّكْلَى[٤] ، ولا رُدَّت شهوة الحُبْلَى ، وَلا جُمِعت فِكْرة الحَيْران ، ولا سكنتْ حَنْقةُ الغضبان ، ولا تحبَّبَ[٥] الفِتْيانُ فى بيوت القِيانِ ، بمثل التفاح» والتفاحة يا أمير المؤمنين إن حمَلتَها لم تُؤْذِك ، وإن رميتَ بها لم تُؤْلمك ، وقد اجتمع فيها ألوانُ قوس قُزَح ، من الخُضْرة والحُمْرة والصفرة ، وقال فيها الشاعر :

---

(١) أى قدرها .

(٢) أى تلحظها . (٣) الوطر : الحاجة .

(٤) التى فقدت ولدها .

(٥) فى الأصل « ولا تحثت » وأراه مصحفا، والقيان : جمع قنية بالفتح . وهى الجارية المغنية أو أعم

حُمْرَةُ التفاحِ معْ خُضْرَتِه ... أقربُ الأشياء من قَوْسِ قُزَحْ
فعلَى التفاحِ فاشرَبْ قَهْوَةً ... واسقِنِيها بنشاطٍ وفَرَحْ [١]
ثم غَنِّـــــنى لـكى تُطْرِبَنى ... طَرْفُكَ الفتَّانُ قلبي قد جَرَحْ [٢]

فإذا وَصلَتْ إليك يا أمير المؤمنين فتناوَلْهَا بيمينك ، واصرِف إليها بُغْيَتَك ، وتأمَّلْ حُسْنها بطَرْفِك ، ولا تخدِشْها بظُفرِك ، وَلا تُبْعِدها عن عينك ، ولا تبذُلْها لخَدَمك ، فإذا طال لُبثُها عندك ، ومُقامُها بين يديك ، وخِفْتَ أن يرميها الدهر بسَهْمه ، ويَقصِدَها بصرْفه [٣] ، فتذهبَ بهجتها ، وتَحيلَ [٤] نَضْرتُها ، فكُلْها .

« هَنِيئًا مَرِيئًا غيرَ داءٍ مُخامِرٍ [٥] » والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وَبركاته » . (العقد الفريد ٣ : ٣١٠)

٣٣٤ — الرقعة التى علقت على رأس على بن هشام بعد قتله

وكان المأمون قد ولَّى علىَّ بن هشام كُوَر الجبال وأذْرَبيجان ، وكُوَر أرْمِينية ، ثم غضب عليه لِلذى بَلَغَه من سوء سيرته فى أهل عمله ، وقتْلِه الرجالَ ، وأخْذِه الأموالَ ، فوجَّه إليه عُجَيْفَ بن عَنْبَسة ، فأراد أن يفتِكَ به ، فظفِر به

(١) القهوة : الخمر .
(٢) البيت من بحر الرمل ، وقد دخل الكف فى التفعيلة الأولى منه ، وفى الأصل « ثم غنينى » ويلاحظ أنه أمر معتل فيبنى على حذف الياء ، ولا يضير حذفها وزن الشعر .
(٣) صرف الدهر : نوائبه . (٤) حال يحيل حيولا : تغير .
(٥) هو صدر بيت لكثير عزة من تائيته المشهورة ، وعجزه : « لعزة من أعراضنا ما استحلت » وخامره الداء : خالطه .

عُجَيْفٌ ، فقدِمَ به على المأمون ، فأمر بضرب عنقه (سنة ٢١٧) ثم بعث رأسه فطِيفَ به فى الأقطار ، ثم أُلْقِيَ بعد ذلك فى البحر .

ولما قتله المأمون أمر أن تكتب رُقْعة وتعلَّق على رأسه ليقرأها الناس ، وفيها :

« أما بعدُ : فإن أميرَ المؤمنين كان دعا علىَّ بن هشام فيمن دعا من أهل خراسان أيامَ المخلوع إلى معاوَنته والقيام بحقه ، وكان فيمن أجابَ وأسْرَعَ الإجابة . وعاوَنَ فأحْسَنَ المُعاوَنَةَ ، فرَعَى أميرُ المؤمنين له ذلك ، واصطَنَعه[1] وهو يظنُّ به تَقْوَى الله وطَاعته ، والانتهاء إلى أمْر أمير المؤمنين فى عمل إنْ أُسْنِد إليه فى حسن السِّيرة ، وعَفافِ الطُّعْمَةِ[2] ، وَبدَأه أمير المؤمنين بالإفضال عليه ، فولاَّه الأعمالَ السَّنيَّة ، وَوَصَلَه بالصِّلاَت الجزيلة ، التى أمرَ أميرُ المؤمنين بالنظر فى قدرها ، فوجَدَها أكثرَ من خمسين ألفَ ألفِ دِرهم ، فمدَّ يده إلى الخيانة ، والتضييع لما استرعاه من الأمانة ، فباعَدَه عنه وأقصاه ، ثم استقال أميرَ المؤمنين عَثْرَتَه ، فأقاله إياها ، وولاَّه الجبَلَ وأذْرَبيجان وكُورَ أَرْمِينية ، ومحاربةَ أعداءِ الله الخُرَّمية[3] على أن لا يعود لما كان منهُ ،

---

(١) اصطنعه : اختاره لخاصة أمره . (٢) الطعمة : المأكلة ووجه المكسب .

(٣) الخرَّمية : فرقة إباحية وهم أتباع بابك الخرمىّ ، الذى ظهر فى جبل البذّ (بفتح الباء وتشديد الذال : كورة بين أذربيجان وأرّان) وكثر بها أتباعه ، واستباحوا المحرمات ، وكان للبابكية فى جبلهم ليلة عيد يجتمعون فيها على الخمر والزمر ، وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم ، فاذا أطفئت سرجهم ونيرانهم فجر فيها الرجال بالنساء ، وقد قتلوا كثيرا من المسلمين .

وكان بابك خادما لجاويذان صاحب البذّ ، وكانت امرأة جاويذان تتعشقه وكان يفجر بها ، فلما مات جاويذان أذاعت امرأته على أصحابه أنه عهد إليها قبل موته فقال : « إنى أموت فى ليلتى هذه ، وإن روحى تخرج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى ، وقد رأيت أن أملكه على أصحابى ، فاذا مت فأعلميهم ذلك ، وأنه لادين لمن خالفنى فيه » فقبلوا عهده فيه ، وولوه عليهم وتزوج امرأة جاويذان .

فعاودَ أكثرَ ما كَان ، بتقديمه الدينارَ والدرهمَ على العمل لله ودينِه ، وَأساءَ السيرةَ ، وَعَسَفَ[1] الرعيةَ ، وسَفَكَ الدماء المحرَّمة ، فوجَّه أميرُ المؤمنين عُجَيْفَ بن عَنْبَسَة مباشِراً لأمره ، وداعيا إلى تَلافِى ما كان منه ، فوَثَب بعُجيف ، يُريد قَتْلَه ، فقوَّى الله عجيفا ، بنيَّته الصادقة فى طاعة أمير المؤمنين ، حتى دَفَعه عن نفسه ، ولو تَمَّ ما أراد بعجيف ، لـكان فى ذلك مالا يُسْتَدْرَكُ ولا يستقال ، ولكن الله إذا أراد أمرا كَان مفعولا ، فلما أمضَى أميرُ المؤمنين حُكْمَ الله فى على بن هشام ، رَأى أن لا يؤاخِذَ مَن خَلَفَه بذنْبِه ، فأمرَ أن يُجْرَى لولده ولعياله ، ولمن اتصل بهم ، ومن كان يجرى عليهم ، مثلُ الذى كَان جاريا لهم فى حياته ، ولولا أن على بن هشام أراد العُظْمى بعجيف ، لـكان فى عِداد مَن كَان فى عسكره ممن خالَفَ وَخان ، كعيسى بن منصور ونظرائه والسلام » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٢)

وتحرك بابك فى الجاويدانية (سنة ٢٠١) ، وأخذ فى العيث والفساد ، وفى سنة ٢٠٤ واقعه يحيي ابن معاذ والى الجزيرة فلم يظفر واحد منهما بصاحبه ، وفى سنة ٢٠٥ ولى المأمون عيسى بن محمد ابن أبى خالد أرمينيــة وأذربيجان ومحاربة بابك ، ونكب به بابك سـنة ٢٠٦ ثم ولى صدقة بن على سنة ٢٠٩ وانتدب للقيام بأمر بابك أحمد بن الجنيد ، ورجع ابن الجنيد إلى بغداد ثم رجع إلى الخرمية فأسره بابك ، ثم وجه إليه سنة ٢١٢ محمد بن حميد الطوسى لمحاربته وقد قتله بابك سنة ٢١٤ وفض عسكره وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه ، ورثاه أبو تمام برائيته المشهورة ، كذا فليجل الخطب ... — إلى أن أظفر الله المسلمين بالبابكية فأسر بابك وصلب بسر من رأى سنة ٢٢٣ ، وسيرد عليك بقية خبره فى خلافة المعتصم فى الجزء الرابع إن شاء الله .

والخرّمية نسبة إلى خرّم ، جاء فى معجم البلدان : « خرم : وتفسيره بالفارسية السرور ، وهو رستاق (ناحية) بأرديل (من أشهر مدن أذربيجان) قال نصر : وأظن الخرمية الذين كان منهم بابك الخرمى نسبوا إليه ، وقيل : الخرمية فارسى معناه الذين يتبعون الشهوات ويستبيحونها ، ثم قال وخرّمة : ناحية من نواحى فارس قرب إصطخر » اهـ . وجاء فى القاموس المحيط : « وخرّمة كسكرة : بلدة بفارس منها بابك الخرمى » — انظر أخبار بابك والخرمية فى الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٥١ ، ٢٥٢ و ٢٦٨ . وفى الفهرست لابن النديم ص ٤٨٠ — ٤٨٢ وتاريخ الطبرى ج ١٠ : ص ٢٤٤ و ٢٥٥ و ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٢٦٨ و ٢٧٩ ، ٢٨٠ و ٣٠٧ و ٣٠٩ و ٣١٤ و ٣١٧ و ٣١٨ و ٣٣٢ ، ومعجم البلدان ٢ : ٩٣ و ٣ : ٤٢٤ .

(١) أى ظلمها .

٢٣٥ — كتاب توفيل ملك الروم إلى المأمون

وفى سنة ٢١٥ هـ شَخَصَ المأمون من مدينة السلام لغزو الروم ، واستخلف عليها إسحٰق بن إبراهيم بن مُصْعَب ، ففتَح وقتل وسَبَى .

وفى سنة ٢١٧ هـ كتب توفيل[1] بن ميخائيل ملك الروم إلى المأمون يسأله الصلح :

« أما بعد : فإن اجتماعَ المختلفَيْن عَلَى حظِّهما أوْلَى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما ، ولستَ حَرِيًّا أن تدَعَ — لِحَظٍّ يَصلُ إلى غيرك — حَظًّا تَحُوزه إلى نفسك ، وفى عِلْمك كافٍ عن إخبارك ، وقد كنتُ كتبتُ إليك داعيا إلى المسالمَة ، راغبا فى فَضِيلة المُهادَنة[2] ، لتضَعَ أوْزَارَ الحرب عنا ، وَنكونَ : كلٌّ واحدٍ لِكُلٍّ واحد وَلِيًّا وحِزْبا ، مع اتِّصال المَرَافِق[3] ، والفُسَح فى المتاجر، وفكِّ المستأسِر، وَأَمْنِ الطُّرُق والبَيْضَة ، فَإنْ أبَيْتَ فلا أَدِبُّ لك فى الخَمَرِ[4] ولا أُزخرِفُ لك فى القول ، فإنى لخَائِضٌ إليكَ

---

(١) ولى ملك الروم سنة ٨٢٩ م .

(٢) المهادنة : المصالحة ، والأوزار جمع وزر بالكسر وهو الحمل والثقل .

(٣) المرافق: جمع مرفق ، والمرفق من الأمر : ما ارتفقت به وانتفعت ، فمن قرأ : « وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا » جعله مثل مقطع بكسر الميم ، ومن قرأ : « مَرْفِقًا » جعله مثل مسجد ، والفسح جمع فسحة بالضم وهى السعة ، والبيضة : حوزة كل شىء ، وساحة القوم .

(٤) الخمر ، بالتحريك : كل ماواراك من شجر أو بناء أو غيره ، وخمر كفرح : توارى ، ومن أمثال العرب « يدب له الضراء ويمشى له الخمر » — والضراء كسحاب : الشجر الملتف فى الوادى ، يقال : توارى الصيد منه فى ضراء ، وفلان يمشى الضراء : إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر — وهو مثل يضرب للرجل يختل صاحبه .

غِمارَها ، آخِذٌ عليك أَسْدادَها[1] ، شانٌّ خيلَها ورجالَهَا ، وإن أفعلْ فبعد أن قدَّمتُ المعذِرةَ ، وأقمتُ بيني وبينك علَمَ الحُجَّة ، والسلام » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٢٨٤ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٢)

٣٣٦ — رد المأمون عليه

فكتب إليه المأمون :

« أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابك فيما سألتَ من الهُدْنَة ، ودعوتَ إليه من المُوادَعَة ، وخَلَطتَ فيه من اللِّين والشدة ، مما استعطفتَ به من سَراح[2] المَتاجر ، واتّصال المرافق ، وفكّ الأَسارى ، ورَفْع القتل والقتال ، فلولا ما رجعتُ إليه من إعمال التُّؤَدَة ، والأخذ بالحظّ فى تقليب الفِكْرة ، وألاّ أعتقدَ الرأىَ فى مستقبَلِه ، إلاّ فى استصلاح ما أُوثِرُه فى مُعْتَقَبِه ، لجعلْتُ جوابَ كتابك خَيْلاً تحمِلُ رجالا من أهل البأس والنَّجْدة والبصيرة ، ينازعونكم عن ثُكْلكم[3] ، وَيتقرّبون إلى الله بدمائكم ، ويستقِلّون فى ذات الله ما نالَهم من أَلَم شَوْكتكم ، ثم أُوصِل إليهم من الأمداد ، وأُبْلِغ لهم كافياً من العُدَّة والعَتادِ[4] ، هم أظمأُ إلى موارد المنايا ، منكم إلى السلامة ، من مَخُوفِ مَعَرَّتِهم عليكم ، مَوْعِدُهم إحْدى الحُسْنَيَيْن : عاجِل غَلَبة ، أو كريم مُنْقَلَب ، غير أنى رأيت أن أتقدّم إليك بالموعِظة التى يُثْبت الله بها عليك الحُجَّةَ ، من

(١) الأسداد: جمع سد ، وهو الحاجز ، وشن الغارة عليهم : صبها من كل وجه .

(٢) فى الأصل « شرح » وأراه محرفا والصواب « سراح » وهو التسهيل ، اسم من التسريح .

(٣) الثكل : الموت والهلاك . (٤) العتاد : العدة .

الدعاء لك، ولمن معك إلى الوَحْدانية، والشريعة الحَنِيفيّة(١)، فإن أَبَيْتَ ففِدْية تُوجِب ذمّةً، وتُثْبِت نَظِرة(٢)، وإن تركتَ ذلك ففي يقين المعاينة لنُعُوتنا ما يُغْنى عن الإبلاغ فى القول، والإغراق فى الصفة، والسلام على من اتبع الهدى».

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٢٨٥ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٣)

٣٣٧ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى إسحق بن إبراهيم

وكتب عبد الله(٣) بن طاهر إلى إسحٰق بن إبراهيم من خُراسان إلى بَغداد، يسأله أن يوجّه إليه بأقلام قصبيّة :

«أما بعد، فإنا على طُول الممارَسة لهذه الصناعة، التى غَلَبَتْ على الاسم، ولزِمَتْ لُزومَ الوَسْم(٤)، فحلَّتْ محَلَّ الأنساب، وجرَتْ مجْرَى الألقاب،

---

(١) الحنيفية : ملة الإسلام، وفى الحديث. «أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة» ويوصف به فيقال : ملة حنيفية، والدين الحنيف : الإسلام، والحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام، الثابت عليه، مشتق من الحنف بالتحريك وهو : الاستقامة، والميل، فمناه على الأول : المستقيم الدين، وعلى الثانى المائل إلى الدين المستقيم. (٢) النظرة : التأخير.

(٣) قال الطبرى (١٠ : ٢٨٠) «وفى سنة ٢١٤ خرج عبد الله بن طاهر إلى الدينور، فبعث المأمون إليه إسحق بن إبرهيم ويحيى بن أكثم يخيرانه بين خراسان والجبال وأرمينية وأذربيجان، ومحاربة بابك، فاختار خراسان وشخص إليها» وإسحق بن إبرهيم هو الذى استخلفه المأمون على بغداد كما قدمنا، وهو ابن عم عبد الله بن طاهر، فعبد الله : هو ابن طاهر بن الحسين بن مصعب ابن رزيق بن ماهان، وإسحق : هو ابن إبرهيم بن مصعب ... الخ، وما ذكرنا من أن هذا الكتاب من عبد الله بن طاهر إلى إسحق بن إبرهيم، هو مارواه الصولى فى أدب الكتاب، وجاء فى زهر الآداب أنه من عبيد الله بن طاهر، وهو تحريف، فقد توفى إسحق بن إبرهيم سنة ٢٣٥ وتوفى عبد الله بن طاهر بمرو سنة ٢٣٠، أما ابنه عبيدالله فقد ولد سنة ٢٢٣ وتوفى ببغداد سنة ٣٠٠ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٧٣.

وفى العقد الفريد وصبح الأعشى ونهاية الأرب أنه من على بن الأزهر إلى صديق له، ولم يرد فيها رده.

(٤) الوسم : العلامة. وفى زهر الآداب «الرسم» وفى أدب الكتاب «الوشى» وهو النقش.

وَجدْنا الأقلامَ القصبية[١] أسرعَ[٢] فى الكواغِدِ[٣] ، وأمرّ فى الجلود ، كما أن البحْرية منها أسْلَسُ فى القراطيس ، وألْيَنُ فى المعاطِفِ ، [وأكَلُّ عن تمزيقها ، والتعلُّقِ بما ينْبُو من شظاياها][٤] ونحن فى بلاد قليلة القَصَب ، رديء ما يوجد بها منه .

وقد أحببتُ أن تتقدَّم[٥] فى اختيار أقلام قصبية ، وتتأنّق[٦] فى انتقائها قبلك ، وتطلبها فى مظانّها ومَنابتها[٧] ، من شُطوط الأنهار ، وأرجاء[٨] الكروم ، وأن تتيمَّم[٩] باختيارك منها : الشديدةَ المَجَسِّ ، الصُّلْبةَ المَعَضِّ[١٠]، النقيَّةَ الجُدود[١١] ، القليلة الشحوم[١٢] ، الكثيرة اللحوم ، المكتنزة[١٣] الجوانب ، الضيقة الأجواف ، الرَّزينة الوزن[١٤] ، فإنها أبقى على الكتابة ، وأبعدُ من الحفى[١٥] ، وأن تقصِدَ بانتقائك منها : الرِّقاقَ

(١) وفى النقد والصبح « الصخرية » وفى نهاية الأرب « الصحرية » بالضم ، نسبة إلى الصحرة وهى جوبة تنجاب وسط الحرة ، وتكون أرضا لينة تطيف بها حجارة .

(٢) وفى الصبح ونهاية الأرب « أجرى » .

(٣) الكواغد : جمع كاغد بفتح الغين : وهو القرطاس ، فارسى معرب .

(٤) محل مابين القوسين فى الصبح والنقد « وأشد لتصريف الخط فيها » .

(٥) تقدم إليه فى كذا : أمره وأوصاه به .

(٦) وفى الصبح ونهاية الأرب وأدب الكتاب «وتتنوق» وهما بمعنى ، تأنق فيه وتنوق : عمله بالإتقان والحكمة ، وفى الصبح « فى اقتنائها » .

(٧) وفى أدب الكتاب « وطلبها من مظانها ومرابها » .

(٨) الأرجاء : جمع رجا كعصا ، وهو الناحية .

(٩) تتيمم : تتوخى ، وفى الصبح ونهاية الأرب « تتيمن » وهو تحريف .

(١٠) وفى الصبح « الشديدة الصلبة » . (١١) وفى الصبح وأدب الكتاب « النقية الجلود »

(١٢) وفى زهر الآداب وأدب الكتاب « الغليظة الشحوم » وفى النقد « القليلة الشحوم ، المكتنزة اللحوم » .

(١٣) اكتنز : اجتمع وامتلأ . (١٤) وفى الصبح والنقد ونهاية الأرب « الرزينة المحمل » .

(١٥) أصل الحفى : رقة القدم والحافر ، وفعله كفرح .

القُضْبان ، اللِّطافَ المنظَر ، المقوَّماتِ الْأَوَد[1]، الْمُلْسَ العُقَد ، فلا يكون فيها التواء عِوَج ولا أَمْت[2] ، وضُمَّ الصافيةَ القشور ، الخفيَّة الإِبَر ، الحسَنَة الاستدارة ، الطويلة الأنابيب ، البعيدةَ ما بين الكُعوب ، الكريمةَ الجواهر ، المعتدلةَ القَوَام ، تكاد أسافلها تهتز من أعلاها ، لاستواء أصولها برءوسها ، المستحْكِمةَ يُبْسا ، القائمة عَلَى سُوقها ، قد تشرَّب الماء في لِحائها[3]، وَانتهت في النُّضْج منتهاها ، لم تُعْجَل عن تمام مصلحتها ، وَإِبَّانِ يَنْعِها ، وَلم تؤخَّر إلى الأوقات المَخُوفةِ عاهَاتُها[4]، من خَصَر[5] الشتاء وعَفَن الأنداء ، فإذا استجمعت عندك ، أمرتَ بقطعها ذراعا ذراعا ، قَطْعاً رَفيقا[6] تحرَّز معهُ من أن تتشعَّث[7] رءوسُها ، وتنشَقَّ أطرافُها ، ثم عبِّأْت منها حُزَماً فيما يصونها من الأوعية ، وَعليها الخيوط الوثيقة ، وَوَجِّهْتَهَا مع من يؤدي الأمانة[8] ، في حِراستها وَحفظها وَإيصالها ، إذ كان مثلها يُتوانى فيها لقلة خَطَرِها[9] عند من لا يعرف فضل جَوهرها ، واكتب معهُ بعِدّتها وأصنافها ، وَأجناسها وصفاتها ، على الاستقصاء ، من غير تأخير ولا توان ولا إبطاء ، إن شاء الله تعالى » .

(زهر الآداب ٢ : ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٨٢ ، وصبح الأعشى ٢ : ٤٥١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢١ ، وأدب الكتاب ٦٩)

---

(١) الأود . الاعوجاج ، وفي الصبح والعقد « المقومات المتون ، الملس المعاقد » .
(٢) الأمت : العوج والعيب . (٣) اللحاء : القشر .
(٤) وفي الصبح والعقد « المخوفة عليها » . (٥) الخصر : البرد .
(٦) وفي زهر الآداب والعقد ونهاية الأرب « رقيقا » وفي أدب الكتاب « دقيقا » .
(٧) تتشعث : تتفرق . (٨) وفي أدب الكتاب « مع من يحتاط » .
(٩) أي قدرها .

٣٣٨ — رد إسحق بن إبراهيم عليه

فأجابه ووجّه إليه الأنابيب :

« أتانى كتاب الأمير — أعزه الله تعالى — بما أمرنى به وَلَخَّصَهُ ، من البعث إليه بما شاكَلَ نَعْتَه ، وضاهى صِفَتَه ، من أجناس الأقلام ، فتيمَّمْتُ بُغيتَه قاصدا لها ، وانتهجتُ معالِمَ سؤاله آخذا بها ، فأنفذتُ إليه منها حُزَما : أُنْشِئت بلطيف السُّقْيا ، وحسن التعهد والبُقْيا ، لم تُعجَلْ بإخراجها ، ولا بُودِرَت قبل إدراكها ، فهى مستويةُ الأنابيب معتدلتها . مثقَّفة[1] الكعوب مقوَّمتها ، لا يُرَى فيها أَمْتُ زَوَرٍ[2] ، ولا وَصْمُ صَعَرٍ ، وقد رجوت أن يجدها الأمير عند إرادته وَحَسَبَ بُغْيته ، إن شاء الله » .

(زهر الآداب ٢ : ١٤٨ ، وأدب الكتاب ص ٧١)

٣٣٩ — كتاب ابن الحرون إلى أحد إخوانه

وأهدى ابن الحَرُون[3] إلى رجل من إخوانه من الكتاب أقلاما ، وكتب إليه :

« إنه لما كانت الكتابةُ — أبقاك الله — أعظم الأمور ، وقِوامَ الخلافة ، وعمودَ المملكة ، خصَصْتُك من آلتها بما يخِفُّ مَحْمَلُه ، وتَثْقُل قيمتُه ، ويعظُم

---

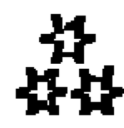
(١) أى مسواة معتدلة .

(٢) الزور : الميل ، والوصم : العيب ، والصعر : الميل .

(٣) قال ابن النديم فى الفهرست (ص ٢١٢) : « هو محمد بن أحمد بن الحسن بن الأصبغ ابن الحرون ، حسن التأليف والتصنيف ، مليح الأدب ، من أهل بغداد من أولاد الكتاب » وفى العقد الفريد « ابن الحرورى » وهو تحريف .

نَفعُه ، ويجِلُّ خَطَره[١] ، وهى أقلام من القصب النابتِ فى الصَّخْر ، الذى نشِفَ[٢] بحَرِّ الهَجير فى قشره ماؤه ، وسَتَرَهُ من تلويحه[٣] غِشاؤه ، فهى كاللآلئ المكنونة فى الصَّدَف ، والأنوار المحجوبة فى السَّدَف[٤] ، تِبْرِيَّة القُشُور ، دُرِّيَّة الظهور ، فِضِّيَّة الكسور ، قد كستْها الطبيعةُ جواهرَ كالوَشْى المحبَّر[٥] ، وفِرِنْدَ الدِّيباجِ المُنيَّر»[٦] .

(العقد الفريد ٢ : ١٨٣ ، وصبح الأعشى ٢ : ٤٥٢ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٢)



وفى رواية أدب الكتاب وزهر الآداب :

أهدى بعض الكتاب إلى أخ له أقلاما ، وكتب إليه :

« إنه ـ أطال الله بقاءك ـ لما كانت الكتابة قِوامَ الخلافة ، وزينَة الرياسة ، وعمودَ المملكة ، وأعظمَ الأمور الجليلة قدراً ، وأعلاها خَطَرا ، أحببتُ أن أتحِفَك من آلتها بما يخف عليك مَحْمَلُه ، وتثقُل[٧] مع ذلك قيمتُه ، ويكثر نفعُه ، ويجِلُّ خَطَره ، فبعثت إليك أقلاما من القصب النابت فى الأَعْذاء[٨] ، المَغذُوِّ بماءِ السماء ، كاللآلئ المكنونة فى الصَّدف ، والأحجار المحجوبة

---

(١) أى قدره .

(٢) يقال : نشف الماء فى الأرض : أى ذهب ، ونشف الثوب العرق : أى شربه ، والفعل كسمع ونصر ، والهجير : شدة الحر ، وفى العقد « الذى نشف فى حر الهجير ماؤه» .

(٣) لوحته الشمس : غيرّته .

(٤) السدف محركة والسدفة بالفتح والضم : الظلمة والوضوء ، ضد ، والمراد هنا الأول .

(٥) الوشى : نقش الثوب ، والتحبير : التحسين والتزيين .

(٦) فرند السيف : وشيه ، وثوب منير : منسوج على نيرين ، وفى الصبح « ورونقا كالديباج المنيرّ » .

(٧) فى الأصل « وتقل » وفيه أيضا « ويصغر خطره » ولعله سهو من الناسخ .

(٨) الأعذاء ، جمع عذى بالكسر : وهو النخل والزرع الذى لا يسقى إلا من ماء المطر لبعده من المياه .

بالسَّدَف ، تنبُو عن تأثير الأسنان ، ولا يَثْنيها غمزُ البَنان ، قد كسَتْها طبائعُها جوهراً كالوشْيِ الخَطِير ، وفِرِنْد الديباج المنير[1] ، فهى كما قال الكُمَيت :

وبِيضٍ رِقاقٍ صِفاحِ المُتُونِ ... تَسَمَّعُ للبيض فيها صريراً[2]

مهنَّدة من عَتَادِ الملوكِ ... يكاد سَنَاهُنَّ يُعْشِي البصيرا

وكقِدَاح النَّبْل فى ثِقَل أوزانها ، وقُضُب الخَيْزُران فى اعتدالها ، ووَشِيج الخَطِّىِّ[3] فى اطِّرادها ، كأنما خُرِطت فى شهر[4] لاستدارتها ، تَمُرّ فى القرطاس كالبَرْق اللائح ، وتجرى فى الصُّحُف كالماء السائح ، أحسن من العِقْيان[5] ، فى نُحُور القِيان » . (أدب الكتاب ص ٧١ وزهر الآداب ٢ : ٢٤٨)

٣٤٠ — كتاب المأمون إلى إسحق بن إبرهيم

وفى سنة ٢١٢ هـ أظهر المأمون القول بخلق القرآن[6] ، وبقى يقدِّم رجلا

(١) وفى زهر الآداب « والفرقد المنير » .

(٢) صفاح المتون : عراضها ، وفى زهر الآداب « صحاح المتون » .

(٣) الخطى : الرمح ، نسبة إلى الخط وهو مرفأ السفن بالبحرين ، وإليه نسبت الرماح لأنها كانت تباع به ، والوشيج : شجر الرماح .

(٤) كذا فى الأصل ، وربما كان الصواب « فى شهرستان » بفتح فسكون ، وهى بفارس .

(٥) العقيان : الذهب ، والقيان جمع قينة بالفتح : وهى الجارية .

(٦) كانت المعتزلة تقول بنفى صفات المعانى عن الله تعالى — ومنها الكلام — لأن إثباتها يؤدى إلى التشبيه وإلى تعدد القديم ، وذلك ينافى التوحيد ، وكان من النتائج اللازمة لذلك أن قالوا : بأن القرآن كلام الله مخلوق ، قال صاحب المواقف (ج ٨ : ص ٩٢) « قالت المعتزلة : كلامه تعالى أصوات وحروف لكنها ليست قائمة بذاته ، بل يخلقها الله فى غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبى ، وهو حادث » .

وليست المعتزلة أول من قال بخلق القرآن — كما أنهم ليسوا أول من أنكر الصفات — بل إن أول من عرف بالقول بخلقه الجعد بن درهم بدمشق ، (وهو مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية) وأخذ عنه ذلك القول جهم بن صفوان الترمذى زعيم فرقة الجهمية الجبرية فقال بخلقه ، إذ أن الجهمية تنكر الصفات ، وذكروا أن بشر بن غياث المريسى — وهو زعيم المريسية من فرق المرجئة —

ويؤخر أخرى فى دعوة الناس إلى مذهبه ، حتى قوِىَ عزمه فى السنة التى مات فيها (سنة ٢١٨هـ) فحمَلهم على القول بخلقه ، وعاقب كلّ من لم يقل به أشدّ عقوبة .

وكتب فى هذه السنة وهو بالرَّقة إلى إسحق بن إبرهيم نائبه ببغداد فى امتحان القضاة والمحدِّثين فى ذلك ، وأمر بإشخاص جماعة منهم إليه بالرَّقة ، وكان ذلك أول كتاب كَتَب فى ذلك ، ونسخةُ كتابه إليه :

« أما بعدُ ، فإنّ حقّ الله على أئمة المسلمين وخلفائهم، الاجتهادُ فى إقامة دين الله الذى استحفظَهم ، ومواريثِ النبُوّةِ التى أورَثهم ، وأثرِ العلم الذى استودَعَهم ، والعملُ بالحق فى رعيّتهم ، والتشميرُ لطاعة الله فيهم ، واللهَ يسألُ أمير المؤمنين أن يوفّقَه لعزيمة الرُّشد وصَريمَتِه[1] ، والإقساطِ فيما ولاّه اللهُ من رعيته برحمته ومِنَّته ، وقد عَرَفَ أميرُ المؤمنين أن الجُمْهور الأعظم ، والسَّواد[2] الأكبر ، من حَشْو الرَّعية ، وسِفْلة العامَّة ، ممن لا نظَرَ له ولا رويّةَ ، ولا استدلالَ له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاءة بنور العلم وبُرهانه فى جميع الأقطار والآفاق ، أهلُ جَهالةٍ بالله ، وعَمًى عنه ، وضلالةٍ عن حقيقة

قال أيضا بخلق القرآن فى عصر الرشيد ، ونهاه أبو يوسف عن ذلك فلم ينته ، فهجره وطرده من مجلسه ، وقال : لاتنتهى أو تفسد خشبة (يريد الصلب) ولما بلغ ذلك الرشيد قال : علىّ إن أظفرنى الله به أن أقتله ، وظل بشر مختفيا طول خلافة الرشيد ولم يظفر به مع شدة طلبه له . وذكروا أيضا أن حفصا الفرد — وهو من أكابر المجبرة — قال بذلك القول . وأن الشافعى ناظره وكفره ، وكان الناس فى تلك المسألة فى عصر الرشيد بين أخذ وترك حتى ولى المأمون فقال بخلقه وكان من أشد نصراء الاعتزال — انظر سرح العيون ص٢٠٣ ، ووفيات الأعيان ١ : ٩١ والفرق بين الفرق ص ١٩٢ وتبيين كذب المفترى ص ٣٣٩ و ٣٤٥ و ٣٤٦ وحياة الحيوان الكبرى للدميرى ١ : ١١٤ و ١١٥ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٩ .

(١) الصريمة : العزيمة وقطع الأمر . والإقساط : العدل .

(٢) السواد : العدد الكثير وعامة الناس .

دينه وتوحيده والإيمان به ، ونُكوبٍ[1] عن واضحاتِ أعلامه ، وواجب سبيله ، وقُصُورٍ أَنْ يَقْدُروا اللهَ حَقَّ قَدْرِه ، ويعرفوه كُنْهَ معرفته ، ويفرِّقوا بينه و بين خَلْقِهِ ، لضعفِ آرائهم ، ونقصِ عقولهم ، وجَفائهم عن التفكُّر والتذكُّر ، وذلك أنهم ساوَوا بين الله تباركَ وتعالى و بين ما أُنْزِل من القرآن، فأَطْبَقوا[2] مجتمعين ، واتفقوا غيرَ متماجِين، على أنه قديمٌ أوّلُ ، لم يخلقه الله ويُحدِثه ويخترعه ، وقد قال الله عزّ وجل فى مُحْكَم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمةً وهدى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » فكلُّ ما جعله اللهُ فقد خلقه ؛ وقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » ، وقال عز وجل: « كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ » فأخبَرَ أنه قَصَصٌ لأُمورٍ أَحْدَثَه بعدها ، وتَلاَ به متقدِّمَها ، وقال : « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » وكل مُحْكَم مُفصَّل ، فله مُحْكِم مُفصِّل ؛ وَاللهُ مُحْكِم كتابه ومُفَصِّله ، فهو خالقُه ومبتدعه .

ثم هم الذين جادَلوا بالباطل ، فدَعَوا إلى قولهم . ونسبوا أنفسهم إلى السُّنّة ، وفى كل فَصْلٍ من كتاب الله قَصَصٌ من تلاوته ، مُبْطِلٌ قولَهُمْ ، ومكذِّبٌ دعواهم ، يَرُدُّ عليهم قولَهم وَنِحْلَتَهم[3] ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحقّ والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهلُ الباطل والكُفر والفُرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغرُّوا به الْجُهّال ، حتى مال قوم من أهل

(١) أى عدول . (٢) أطبق القوم على الأمر : أجمعوا .

(٣) النحلة : الدعوى .

السَّمْتِ[١] الكاذبِ ، والتخشُّع لغير الله ، والتقشُّف لغير الدين ، إلى موافقتهم عليه ، ومُواطَأَتهم على سيِّئ آرائهم ، تزيُّناً بذلك عندهم ، وتصنُّعاً للرِّياسة والعَدالة فيهم ، فتركوا الحقَّ إلى باطلهم ، واتخذوا دُونَ اللهِ وَلِيجةً[٢] إلى ضلالتهم ، فقُبِلَتْ بتزكيتهم لهم شَهادتُهم ، ونفذَتْ أحكامُ الكتاب بهم على دَغَلِ[٣] دينهم ، ونَغَلِ أديمهم ، وفساد نيَّاتهم ويقينهم ، وكان ذلك غايتَهم التى إليها أَجْرَوا ، وإياها طلبوا فى متابعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاقُ الكتابِ : أَلاَّ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، أُولٰئِكَ الَّذِينَ أَصَمَّهُمُ اللهُ وَأَعْمىٰ أَبصَارَهُمْ ، أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟

فرَأَى أميرُ المؤمنين أن أولئك شَرُّ الأُمة ، وَرُءوسُ الضَّلالة ، المنقوصون من التوحيد حظًّا ، والمَخْسُوسُون[٤] من الإيمان نصيبا ، وأَوْعِيةُ الجَهالة ، وَأعلامُ الكذب ، ولسانُ إبليس الناطق فى أوليائِه ، والهائِل على أعدائِه من أهل دين الله ، وَأحقُّ مَن يُتَّهَم فى صدقه ، وَتُطْرَحُ شهادتُه ، وَلا يُوثَق بقوله وَلاعمله ، فإنه لا عَمَلَ إلا بعد يقين ، ولا يقينَ إلا بعد استكمال حقيقةِ الإسلام ، وَإخلاصِ التوحيد ، وَمَن عمِيَ عن رشده وَحَظّه من الإيمان بالله وَ بتوحيده ، كان عما سِوَى ذلك من عمله وَالقَصْدِ فى شهادته ، أعمىٰ وأضلَّ سبيلا ،

---

(١) السمت : هيئة أهل الخير .

(٢) الوليجة : خاصتك ، أو من تتخذه معتمدا عليه من غير أهلك .

(٣) الدغل : الفساد ، ونغل الأديم كفرح : فسد فى الدباغ .

(٤) خس نصيبه : جعله خسيسا دنيئا حقيرا .

وَلَعَمْرُ أمير المؤمنين إن أَحْجَى[1] الناسِ بالكذب فى قوله ، وَتَخَرُّصِ الباطلِ فى شهادته ، مَنْ كَذَبَ على الله وَوَحْيه ، وَلم يعرف الله حقيقةَ معرفته ، وَإن أولاهم بِرَدِّ شهادته فى حكم الله ودينه ، مَن رَدَّ شهادةَ الله على كتابه ، وبَهَتَ[2] حَقَّ الله بباطله .

فاجْمَعْ مَن بِحَضْرَتك من القُضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابْدَأْ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآنَ وإحداثِه ، وأَعْلِمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثقٍ فيما قلَّده الله واستحفَظَه من أمور رعيته ، بمن لا يُوثق بدينه ، وخلوصِ توحيده ويقينه ، فإذا أقرُّوا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهُدَى والنجاة ، فمُرْهم بنَصِّ[3] مَن يَحْضُرُهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ؛ وتركِ إثبات شهادة من لم يُقِرَّ أنه مخلوق مُحْدَث ولم يَرَه ، والامتناعِ من توقيعها عنده ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشْرِف عليهم وتفقَّدْ آثارهم ، حتى لا تنفُذَ أحكامُ الله إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين ، والإخلاصِ للتوحيد ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله » .

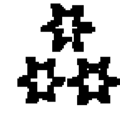
وكُتب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ .

---

(١) أى أجدرهم ، يقال : هو حجىٌّ به كغنى ، وحج كشج ، وحجى كفتى أى جدير ، وتخرص عليه : افترى .

(٢) بهته كنفع : قذفه بالباطل وافترى عليه الكذب .

(٣) نصه : استقصى مسألته عن الشىء .



وكتب المأمون إلى إسحٰق بن إبرهيم فى إشخاص سبعة نَفَر، فأُشْخِصوا إليه، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعا: أن القرآن مخلوق، فأشخَصَهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحٰقُ بن إبراهيم دارَه، فشهَّر أمرَهم وقولَهم، بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فأقرّوا بمثل ما أجابوا به المأمون، فخلَّى سبيلهم، وكان ما فعل من ذلك إسحٰق بن إبراهيم بأمر المأمون. (كتاب بغداد ٦ : ٣٣٨ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٤)

٣٤١ — كتاب المأمون إلى إسحق بن إبرهيم

وكَتب المأمون بعد ذلك إلى إسحٰق بن إبرهيم:

« أما بعد: فإن مِن حَقِّ الله على خلفائِه فى أرضه، وأُمَنائِه على عباده، الذين ارتضاهم لإقامة دينه، وحَمَّلَهُمْ رِعَايةَ خَلْقِه، وإمضاء حُكْمه وسُنَنه، والائتمامَ بعدله فى بريّته، أن يُجْهِدُوا لله أنفسَهم، ويَنْصَحوا له فيما استحفظَهم وَقَلَّدهم، وَيَدُلّوا عليه تبارك اسمُه وتعالى، بفَضْلِ العِلم الذى أوْدَعَهم، والمعرفة التى جعَلَها فيهم، ويَهْدُوا إليه مَن زَاغَ عنهُ، ويرُدّوا مَن أدْبَر عن أمره، ويَنْهَجوا لرعاياهم سَمْتَ[1] نجاتهم، ويَقِفُوهم على حدود إيمانهم، وسبيل فوزهم وعِصْمتهم، ويكْشِفوا لهم عن مُغَطَّياتِ أمورهم ومشتبِهاتها عليهم، بما يدفعون الرَّيْبَ عنهم، ويعود بالضياء والبيِّنة على كافّتهم، وأن يُؤْثِروا

---

(١) السمت: الطريق.

ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذ كان جامعا لفُنُون مَصَانِعهم ، ومنتظماً لُحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكّروا ما اللهُ مُرْصِدٌ[١] من مُساءلتهم عما حُمِّلوه ، ومجازاتِهم بِمَا أسلفوه وقدَّموا عنده ، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله وحْدَه وحَسْبُهُ اللهُ وكفى به .

ومما بيَّنَه أميرُ المؤمنين بَرويَّته ، وطالَعه بفِكره ، فتبَيَّن عظيمَ خَطَرِه وجليلَ مايرجع فى الدين من وَكَفِه[٢] وضَرَره ، ماينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماما لهم ، وأثَرا من رسول الله وصفيِّه محمد صلى الله عليه وسلم باقياً لهم ، واشتباهِه على كثير منهم ، حتى حَسُن عندهم وتزَيَّنَ فى عقولهم ، ألاَّ يكون مخلوقا ، فتعرَّضوا بذلك لدفع خلق الله ، الذى بانَ به عن خَلْقه ، وتفرَّد بجلالته من ابتداع الأشياء كلِّها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدُّم عليها بِأوَّليَّته التى لايُبْلَغ أُولاها ، ولايُدْرَك مَداها ، وكان كلُّ شىء دونه خَلْقا من خلقه ، وحَدَثا هو المُحْدِث له ، وإن كان القرآنُ ناطِقاً به ، ودالاًّ عليه ، وقاطعا للاختلاف فيه ، وضاهَوْا به قولَ النصارى فى ادِّعائهم فى عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمةَ اللهِ ، واللهُ عزوجل يقول : «إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا» وتأويل ذلك «إنا خلقناه» كما قال جل جلاله «وجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إلَيْهَا» وقالَ : «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعَاشاً» «وَجَعَلْنا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىّ» .

---

(٢) أرصد له : أعدّ ، وكافأه بالخير أو بالشر .

(٣) الوكف : العيب والإثم .

فسوّى عزّ وجلّ بين القرآن و بين هذه الخلائق ، التى ذكرها فى شِيَةِ[1] الصَّنْعة، وأخبرَ أنه جاعلُه ، وَحَدَّه فقال : «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يُحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » وقال : «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ » وقال . « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » وأخبرَ عن قوم ذَمَّهم بكذبهم أنهم قالوا : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله : « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى » فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذِكرًا وإيمانا ونُورا وهُدًى ومباركا وعربيًّا وقَصَصا ، فقال: « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ » وقال : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ » وقال : قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » وقال . « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » فجعل له أوّلا وآخرا ، ودل عليه أنه محدود مخلوق .

وقد عظّم هؤلاء الجهَلَةُ بقولهم فى القرآن ، الثَّلْمَ[2] فى دينهم ، والجَرْحَ فى أمانتهم ، وسهّلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم، حتى عرّفوا ووصفوا خَلْقَ الله وفِعْلَه بالصفة التى هى لله وَحْدَه ، وشبّهوه به ، والأَشْباهُ أَوْلَى بخَلْقِهِ ، وليس يَرَى أميرُ المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حَظًّا فى الدين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يَرَى أن يُحِلَّ

(١) أى فى حسنها ، من وشى الثوب كوعد وشيا وشية : أى نقشه وحسنه .
(٢) أى النقص ، من ثلم الإناء إذا كسر حرفه .

أحدا منهم مَحَلَّ الثقة فى أمانة ولا عَدالة ولا شَهادة ، ولا صِدْق فى قول ولا حكاية ، ولا تولِيَةٍ لشىء من أمر الرعية ، وإن ظَهَر قَصْدُ[1] بعضهم ، وعُرِف بالسَّدَاد مُسَدَّدٌ فيهم ، فإن الفروعَ مردودة إلى أصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها ، ومَن كان جاهلا بأمر دينه الذى أَمَرَه الله به من وَحْدَانيَّته فهو بما سواه أعظمُ جهلا ، وعن الرُّشْد فى غيره أعمى وأضل سبيلا ، فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحٰق القاضى كتابَ أمير المؤمنين بما كَتَبَ به إليك ، وانْصُصْهما عن علمهما فى القرآن ، وأَعلِمْهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شىء من أمور المسلمين ، إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيدَ لمن لم يُقِرّ بأن القرآن مخلوق ، فإن قالا بقولِ أميرِ المؤمنين فى ذلك ، فتقدَّمْ إليهما فى امتحان مَن يَحْضُر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ، ونَصِّهم عن قولهم فى القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أَبطَلاَ شهادته ، ولم يقطعا حُكْما بقوله ، وإن ثَبَتَ عَفافُه بالقَصْدِ وَالسَّدَاد فى أمره ، وافْعَلْ ذلك بمن فى سائر عَمَلك من القُضاة ، وأَشْرِف عليهم إشرافا يَزيد اللهُ به ذا البصيرة فى بصيرته ، ويمنع المرتَابَ من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله » .

(كتاب بغداد ٦ : ٣٤٤ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٦)

---

(١) القصد : الاستقامة .

٣٤٢ — كتاب المأمون إلى إسحق بن إبرهيم

فأحضر إسحق بن إبرهيم جماعةً من الفقهاء والحكام والمحدّثين ، وقرأ عليهم كتاب المأمون مرتين ، ثم امتحنهم رجلا رجلا ، فتوقفوا عن الإقرار بخلق القرآن ، وكلُّهم يقول : « القرآن كلام الله » إلا نفراً منهم ، وكتب مقالاتِهم ووجّه بها إلى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيام ، ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المأمون فى أمرهم ، ونسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فقد بلَغَ أميرَ المؤمنين كتابُك ـ جوابُ كتابِه كان إليك ـ فيما ذهب إليه مُتَصنِّعةُ أهلِ القِبلة وملتمسُو الرِّياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل المِلَّة ، من القول فى القرآن ، وأمَرَكَ به أمير المؤمنين من امتحانهم ، وتكشيفِ أحوالهم ، وإحلالهم مَحَالَّهم ، تذكُرُ إحضارَكَ جعفرَ بن عيسى وعبدَ الرحمن بن إسحق عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع مَن أحضَرْتَ ممن كان يُنْسَبُ إلى الفقه ، ويُعْرَف بالجلوس للحديث ، ويَنْصِبُ نفسَه لِلفُتْيا بمدينة السلام ، وقراءتَكَ عليهم جميعاً كتابَ أمير المؤمنين ، ومسألتَك إياهم عن اعتقادهم فى القرآن ، والدّلالة لهم على حظِّهم وإطباقهم على نفى التشبيه ، واختلافهم فى القرآن ، وأمْرَكَ من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفَتْوى فى السِّر والعلانية ، وتقدُّمَك إلى السِّنْدِىِّ وعباس مَوْلى أمير المؤمنين بما تقدّمت به فيهم إلى القاضِيَيْن[1] بمثل ما مَثَّل لك أميرُ المؤمنين مِن امتحان مَن يَحْضُر مجالسَهما من الشهود ،

(١) يعنى جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحق .

وبَثٍّ الكتبِ إلى القُضاة في النواحِي من عملك بالقدوم عليك ، لِتَحمِلَهم وتمتحِنَهم على ما حَدَّه أمير المؤمنين ، وتثبيتَك فى آخر الكتاب أسماءَ مَن حَضَرَ ومقالاتِهم ، وفَهِم أميرُ المؤمنين ما اقتصَصْتَ .

وأمير المؤمنين يحمَدُ الله كثيراً كما هو أهْلُه ، ويسأله أن يصلِّيَ على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويَرْغَب إلى الله فى التوفيق لطاعته ، وحُسْنِ المَعُونة على صالح نيته برحمته ، وقد تدبَّر أمير المؤمنين ما كتبتَ به من أسماء مَن سألْتَ عن القرآن ، وما رجَعَ إليك فيه كلُّ امرئ منهم ، وما شرحتَ من مقالتهم .

فأما ما قال المغرورُ بِشْر بن الوليد فى نفى التشبيه ، وما أمسَكَ عنه من أن القرآن مخلوق ، وادَّعَى من تركه الكلامَ فى ذلك واستعهادِه أميرَ المؤمنين[1] ، فقد كَذَبَ بشرٌ فى ذلك وكَفَر ، وقال الزُّورَ والمنكَر ، ولم يكن جَرَى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ولا فى غيرِه عَهْدٌ ولا نَظَرٌ أكْثَر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقادِه كلمةَ الإخلاص ، والقول بأن القرآن مخلوق ، فادْعُ به إليك ، وأَعْلِمه ما أَعْلَمَك به أمير المؤمنين من ذلك ، وانْصُصْه عن قوله فى القرآن ، واستَتِبْهُ منه ، فإن أمير المؤمنين يرى أن

---

(١) وذلك أنه لما امتحنه إسحق بن إبراهيم قال : ماتقول فى القرآن ؟ فقال : قد عرَّفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجدّد من كتاب أمير المؤمنين ماقد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شىء ، قال : ما القرآن شىء ؟ قال : هو شىء ، قال : فمخلوق ؟ قال : ليس بخالق ، قال : ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : ماأحسن غير ماقلت لك ، وقد استعهدت أمير المؤمنين أن لاأتكلم فيه ، وليس عندى غير ماقلت لك ، فأخذ إسحق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه فقرأها عليه ، ووقفه عليها فقال : « أشهد أن لاإله إلا الله أحدا فردا ، لم يكن قبله شىء ولا بعده شىء ولا يشبهه شىء من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه » قال : نعم وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : اكتب ماقال .

تَسْتَتِيبَ مَن قال بمقالته ، إذ كانت تلك المقالة الكُفْرَ الصُّرَاحَ ، والشِّرْكَ المَحْضَ عند أمير المؤمنين ، فإن تاب منها فأَشْهِرْ أمرَه وأَمْسِكْ عنه ، وإن أصَرَّ على شِركه، ودَفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده، فاضرِبْ عُنُقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وكذلك إبراهيم بن المهدى فامْتَحِنْه بمثل ما تمتحن به بِشراً ، فإنه كان يقول بقوله ، وقد بلغَتْ أميرَ المؤمنين عنه بَوالِغُ، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأَشْهِرْ أمره واكشِفه ، وإلاّ فاضرب عنقه ، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما علىّ بن أبى مُقَاتِل ، فقل له : أَلَسْتَ القائِلَ لأمير المؤمنين إنك تحلِّل وتحرِّم ؟ والمكلِّمَ له بمثل ما كلَّمته به . ممـا لم يذهب عنه ذِكرُه !

وأما الذَّيَّال بن الْهَيْثَم ، فأَعْلِمْه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرِقه فى الأنبار ، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة[1] أمير المؤمنين أبى العباس ما يَشْغَله ، وأنه لو كان مُقْتَفِياً آثارَ سَلَفه ، وسالِكاً مناهِجَهم ، ومحتذِيًا سبيلَهم ، لَمَا خرجَ إلى الشِّرك بعد إيمانه .

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العَوّام وقولُه إنه لا يَحْسن الجوابَ فى القرآن ، فأَعْلِمْه أنه صبىٌّ فى عقله لا فى سِنّه ،جاهل ، وأنه إن كان لا يُحْسِن الجوابَ فى القرآن فسيُحْسِنُه إذا أخذَه التأديبُ ، ثم إنْ لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

---

(١) هى مدينة الهاشمية ، بناها السفاح بالكوفة .

وأما أحمدُ بن حَنْبَل وما تكتُب عنه ، فأَعلِمْه أن أمير المؤمنين قد عرَف فَحْوى[1] تلك المقالة وسَبِيلَه فيها ، واستدلَّ عَلَى جَهْله وآفتِه بها .

وأما الفضلُ بن غانم ، فأَعْلِمه أنه لم يَخْفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال فى أقلّ من سَنَة ، وما شَجَرَ[2] بينه وبين المطَّلِب بن عبدالله فى ذلك ، فإنه من كان شأنُه شأنَه ، وكانت رغبتُه فى الدينار والدرهم رغبتَه ، فليس بمستنكَرٍ أن يبيع إيمانه طَمَعاً فيهما ، وإيثاراً لعاجلِ نفعهما ، وأنه مع ذلك القائلُ لعلىّ بن هشام ماقال ، والمخالِف له فيما خالفه فيه ، فما الذى حَالَ به عن ذلك ، ونَقَله إلى غيره ؟

وأما الزِّيادىّ[3] فأَعلمه أنه كان منتَحِلا أوّلاً أوّلَ دَعِيٍّ كان فى الإسلام خُولِفَ فيه حُكْمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جديراً أن يسلُك مَسْلَكه ، فأنكر أبو حَسّان أن يكون مَولًى لزياد ، أو يكون مولًى لأحد من الناس (وذكر أنه إنما نُسِب إلى زياد لأمر من الأمور) .

وأما المعروف بأبى نصر التَّمَّار ، فإن أمير المؤمنين شَبَّه خَساسَةَ عقله بخساسة مَتْجَره .

وأما الفضل بن الفَرُّخَان ، فأَعْلِمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أَخْذَ الودائع التى أودَعَها إياه عبدُ الرحمن بن إسحق وغيره تربُّصًا[4] بمن

---

(١) فحوى الكلام : معناه .

(٢) شجر الأمر بينهم كنصر : اضطرب وتنازعوا فيه .

(٣) هو أبو حسان الزيادى . وانتحله : ادعاه لنفسه وهو لغيره . والدعىّ : المتهم فى نسبه المنسوب إلى غير أبيه ، والمراد زياد ابن أبيه .

(٤) أى انتظارا .

أُستودَعَه ، وطمعاً فى الاستكثار لِمَا صار فى يده ، ولا سبيلَ عليه عن تقادُم عهده ، وتطاوُلِ الأيام به ، فقُلْ لعبد الرحمن بن إسحق لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مِثل هذا وإعانتك إياه ، وهو معتقِدٌ للشِّرك ، مُنْسَلِخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبى مَعْمَر ، فأَعْلِمهم أنهم مشاغيلُ بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحلّ محاربتَهم فى الله ومجاهَدتَهم إلا لإربائهم وما نزل به كتابُ الله فى أمثالهم ، لاستَحَلَّ ذلك ، فكيف بهم وقد جَمَعوا مع الإرباء شِرْكا ، وصاروا للنصارى مِثْلا ؟

وأما أحمدُ بن شُجاع ، فأَعلِمْه أنك صاحِبُه بالأمس ، والمستخرِجُ منه ما استخرجْتَه من المال الذى كان استحلّه من مال علىّ بن هشام ، وأنه مِمَّنِ الدينارُ والدرهمُ دِينُه .

وأما سَعْدَوَيْهِ الواسِطىّ ، فقل له : قبَّح اللهُ رجلا بلغ به التصنّع للحديث ، والتزيُّن به ، والحِرْص على طلب الرِّياسة فيه ، أن يتمنَّى وقتَ المِحْنة . فيقول بالتقرب بها متى يُمْتَحَن فيجلس للحديث .

وأما المعروف بسَجّادة وإنكارُه أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القولَ بأن القرآن مخلوق ، فأَعْلِمه أنه فى شُغْله بإعدادِ النَّوَى وحَكِّه لإصلاح سجادته ، وبالودائع التى دفعَها إليه علىّ بن يحيى وغيرُه ما أذْهله عن التوحيد وألهاه ، ثم سَلْهُ عما كان يوسف بن أبى يوسف

ومحمد بن الحسن يقولانه إن كان شاهَدَهما وجالسَهما .

وأما القواريرىُّ ، ففيما تكشَّفَ من أحواله وقَبُولِه الرُّشا والمُصانَعاتِ ، ماأبانَ عن مذهبه وسُوءِ طريقته ، وسَخافة عقله ودينه ، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولَّى لجعفر بن عيسى الحَسَنىِّ مسائِلَه ، فتقدَّمْ إلى جعفر ابن عيسى فى رَفْضِهِ وتَرْكِ الثقة به والاستنامَةِ[1] إِلَيْهِ .

وأما يحيي بن عبد الرحمن العُمَرى ، فإن كان من ولد عُمَر بن الخطاب فجوابه معروف .

وأما محمد بن الحسن بن علىّ بن عاصم ، فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى مِن سَلَفه ، لم ينتحِل النِّحْلَة التى حَكَيْتَ عنه ، وإنه بعدُ صبىٌّ يحتاج إلى تعلُّم .

وقد كانَ أمير المؤمنين وجّــه إليك المعروفَ بأبى مُسْهِر بعد أن نَصَّهُ أمير المؤمنين عن مِحْنته فى القرآن ، فجَمْجَم[2] عنها ولَجْلَجَ فيها ، حتى دعا له أميرُ المؤمنين بالسيف ، فأَقَرَّ ذميما ، فانْصُصْهُ عن إقراره ، فإن كان مقيما عليه فَأَشْهِرْ ذلك وأَظْهِرْه إن شاء الله .

ومن لم يرجعْ عن شِرْكه — ممن سَمَّيْتَ لأمير المؤمنين فى كتابك ، وَذَكَرَه أميرالمؤمنين لك ، أو أمسَكَ عن ذكره فى كتابه هذا — ولم يقل إن القرآن مخلوق ، بعد بشر بن الوليد ، وإبرهيم بن المهدى ، فاحمِلْهم أجمعين مُوثَقِينَ إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم فى طريقهم ، حتى يؤدِّيَهم إلى عسكر أمير المؤمنين ويسلمَهم إلى من يُؤْمَن

(١) استنام إليه : سكن واطمأن .

(٢) الجمجمة . أن لايبين كلامه ، كالتجمجم .

بتسليمهم إليه ، ليَنُصَّهم أميرُ المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا ، حَمَلَهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولاقوة إلا بالله .

وقد أنفَذ أميرُ المؤمنين كتابه هذا فى خَريطة بُنْدارِيَّة[1] ، ولم يُنْظِر به اجتماعَ الكتبِ الخرائطيَّة ، مُعَجِّلاً به ، تقرُّباً إلى الله عزّ وجلّ بما أصدر من الحكم ، ورجاءَ ما اعتمَدَ ، وإدراكَ ما أمَّل من جَزيلِ ثوابِ الله عليه ، فأَنفِذْ لما أتاك من أمير المؤمنين وعجِّلْ إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بُنْدارية مُفْرَدة عن سائر الخرائط ، لتُعَرِّف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله[2] » .

وكتب سنة ٢١٨ هـ　　　　(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٩)

---

(١) الخريطة . وعاء من أدم وغيره يشد على ما فيه ، وبندارية نسبة إلى بندار ، وقد تقدم أنه التاجر الذى يخزن البضائع للغلاء — فهو كثير المال — والظاهر أن الخريطة البندارية كانت تمتاز عن سائر الخرائط ، بمتانة صنعها وإحكامها واتساعها لمقدار من النقود كبير ، وأنظره . أخرّه .

(٢) فأجاب القوم كلهم حين أعاد القول عليهم إلى أن القرآن مخلوق إلا أربعة نفر ، وهم : أحمد ابن حنبل وسجادة والقواريرى ومحمد بن نوح ، فأمر بهم إسحق بن إبراهيم فشدوا فى الحديد فلما كان من الغد دعا بهم جميعا يساقون فى الحديد ، فأعاد عليهم المحنة فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله ، وأصر الآخرون على قولهم ، فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضا فأعاد عليهم القول ، فأجاب القواريرى إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله . وأصر أحمد ابن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ولم يرجعا ، فشدا جميعا فى الحديد ، ووجها إلى طرسوس « بفتح الطاء والراء : مدينة ببلاد الروم (الأناضول) بينها وبين أذنة (أطنة) ستة فراسخ ، وكان المأمون قد خرج إليها غازيا فأدركته منيته بها ، وفيها قبره » ومات ابن نوح فى طريقه إليها .

واتفق أن مات المأمون قبل وصول ابن حنبل إليه (سنة ٢١٨ هـ) وعهد إلى أخيه المعتصم بالخلافة وأوصاه أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن ، واستمر الإمام أحمد محبوسا إلى أن امتحنه المعتصم .

واستتماما للفائدة نسوق إليك بقية الخبر فى هذه المسألة فنقول : أحضر المعتصم الإمام أحمد ، وعقد له مجلسا للمناظرة ، وفيه عبد الرحمن بن إسحق والقاضى أحمد بن أبى داود وغيرهما ، فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل معهم فى جدال إلى اليوم الرابع ، فأمر المعتصم بضربه بالسياط ، ولم يحل عن رأيه إلى أن أغمى عليه ، ونخسه عجيف بن عنبسة بالسيف ، ورمى عليه باريّة (وهى الحصير المنسوج) وديس عليه ثم حمل إلى منزله بعد أن ضرب ثمانية وثلاثين سوطا ، وكانت مدة مكثه فى السجن ثمانية وعشرين شهرا .

. . . .

ذكروا أنه لما نوظر فى الأيام الثلاثة كان المعتصم يخلو به ويقول له: ويحك يا أحمد! أنا والله عليك شفيق، وإنى لأشفق عليك مثل شفقتى على ابنى هرون «يعنى الواثق» فأجبنى، فوالله لئن أجبتنى لأطلقنّ غلك بيدى، ولأطأن عتبتك، ولأركبنّ إليك بجندى، فيقول: ياأمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا طال به المجلس ضجر وقام، وردّ أحمد إلى الموضع الذى كان فيه، وتتردد إليه رسل المعتصم يقولون: ياأحمد أمير المؤمنين يقول لك: ماتقول فى القرآن؟ فيرد عليهم كما رد أولا. فلما كان فى اليوم الثالث طاب المناظرة فأدخل على المعتصم وعنده وزيره محمد ابن عبد الملك الزيات والقاضى أحمد بن أبى دؤاد، فقال المعتصم: كلموه وناظروه، فلم يزالوا معه فى جدال إلى أن قالوا: ياأمير المؤمنين اقتله ودمه فى أعناقنا. فرفع المعتصم يده ولطم بها وجه الإمام أحمد فخر مغشيا عليه، فتمعرت وجوه قواد خراسان — وكان عم أحمد فيهم — فخاف الخليفة منهم على نفسه فدعا بماء ورش على وجهه، فلما أفاق من غشيته رفع رأسه إلى عمه. وقال ياعم لعل هذا الماء الذى رش على وجهى غصب عليه صاحبه، فقال المعتصم. ويحكم أما ترون مايتهجم به علىّ هذا وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم! لارفعت السوط عنه حتى يقول القرآن مخلوق، ثم التفت إلى أحمد وأعاد عليه القول، فرد أحمد كالأول، فلم يزل كذلك حتى ضجر وطال المجلس، فعند ذلك قال: عليك لعنة الله، لقد كنت طمعت فيك قبل هذا، خذوه، اخلعوه، اسحبوه، فأخذ وسحب ثم خلع، ثم قال المعتصم: السياط. قال الإمام أحمد: وكان عندى شعرات من شعر النبى صلى الله عليه وسلم قد صررتها فى كمّ قميصى، فجاء بعض القوم إلى قميصى ليحرقه، فقال المعتصم: لاتخرقوه وانزعوه عنه وإنما درئ عن القميص الحرق ببركة شعر النبى صلى الله عليه وسلم، وشدوا يديه فتخلعتا — ولم يزل أحمد يتوجع منهما حتى مات — ثم قال المعتصم للجلادين: تقدموا، ونظر إلى السياط فقال: ايتوا بغيرها، ثم قال لأحدهم: أذمه (أى أسل دمه، من ذم أنفه وذن إذا سال) وأوجع، قطع الله يدك، فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى، ثم قال لآخر: أذمه وشد، قطع الله يدك، فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى، ولم يزل يدعو رجلا رجلا فيضربه كل واحد سوطين ويتنحى، ثم قام المعتصم وجاءه وهم محدقون به، وقال: يا أحمد تقتل نفسك! أجبنى حتى أطلق غلك بيدى، وجعل بعضهم يقول له: يا أحمد، إمامك على رأسك قائم فأجبه، وبجيف ينخسه بالسيف ويقول: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وبعضهم يقول: ياأمير المؤمنين اجعل دمه فى عنقى، فرجع المعتصم إلى الكرسى، ثم قال للجلاد: أذمه، قطع الله يدك، ثم جاء المعتصم إليه ثانيا وقال: ياأحمد أجبنى، فقال كالأول. فرجع المعتصم وجلس على الكرسى، ثم قال للجلاد: شد عليه، قطع الله يدك، قال أحمد: فذهب عقلى، فما عقلت إلا وأنا فى حجرة مطلق عنى، كل ذلك وهو صائم لم يفطر، وكان ذلك فى العشر الأخيرة من رمضان سنة ٢٢٠ هـ، ثم وجه المعتصم رجلا ينظر الضرب والجراحات ويعالجه، فنظر إليه وقال: والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط، فما رأيت أشد ضربا من هذا ثم عالجه، وبقى أثر الضرب بينا فى ظهره إلى أن مات (سنة ٢٤١ هـ) — انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٩٢ وتبيين كذب المفترى ص ٣٤٩، وحياة الحيوان الكبرى للدميرى ١: ١١٥ — ١١٧، ووفيات الأعيان ١: ١٧، ومروج الذهب ٢ : ٣٤٨.

ولم يزل ابن حنبل بعد ضربه يحضر الجمعة والجماعات ويفتى ويحدث إلى أن مات المعتصم (سنة ٢٢٧ هـ)، وولى الواثق فأظهر ماأظهره المأمون والمعتصم من المحنة، وقال للإمام أحمد:

. . . .

لايجمعنّ إليك أحـدا ، ولا تساكنى فى بلد أنا فيه ، فأقام الإمام أحمد مختفيا لايخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق (سنة ٢٣٢ هـ) وولى المتوكل ، فـكتب إلى الآفاق برفع المحنة ، ومنع الناس من المناظرات فى الآراء والمذاهب ، وقرب منه أهل السنة ، وأمر باحضار الإمام أحمد وإكرامه وإعزازه ، وأطلق له مالا كثيرا فلم يقبله ، وفرقه على الفقراء والمساكين ، وأجرى على أهله وولده فى كل شهر أربعة آلاف درهم فلم يرض بذلك ، ولم يحفل المتوكل بالمعتزلة فخمدت نارهم ، وتضاءل أمرهم — انظر حياة الحيوان الـكبرى للدميرى ١ : ١١٥ ، ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٦٩ .

وممن عضته هذه المحنة بأنيابها فى عهد الواثق أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى المصرى صاحب الإمام الشافعى ، دعى إلى القول بخلق القرآن ، فامتنع منه ، فحمل من مصر إلى العراق مقيدا حتى مات فى أقياده محبوسا صابرا على ماأصابه من الأذى ، وكان مقيدا إلى أنصاف ساقيه ، مغلولة يداه إلى عنقه ، قال الربيع بن سليمان : رأيت البويطى على بغل فى عنقه غل وفى رجليه قيد ، وبين الغل والقيد سلسلة من حديد فيها طوبة وزنها أربعون رطلا ، وهو يقول : إنما خلق الله سبحانه وتعالى الخلق « بكن » فإذا كانت «كن» مخلوقة فـكأن مخلوقا خلق مخلوقا ، فوالله لأموتن فى حديدى حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون أنه مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم ، ولئن أدخلت عليه لأصدقنه — يعنى الواثق — وقال الربيع أيضا : كتب إلىّ أبو يعقوب من السجن : إنه ليأتى علىّ أوقات لا أحس بالحديد أنه على بدنى حتى تمسه يدى، وتوفى سنة ٢٣١ هـ فى القيد والسجن ببغداد — انظر تبيين كذب المفترى ص ٣٤٨ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٤٧ .

ومنهم نعيم بن حماد ، وقد مات فى سجن الواثق مقيدا أيضا — انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ٥ : ص ١٧٧ .

ومنهم أحمد بن نصر الخزاعى قتله الواثق وصلبه سنة ٢٣١ هـ ذكروا أن ثمامة بن أشرس سعى به إلى الواثق ، وذكر له أنه يكفر من يقول بخلق القرآن ، ومن ينكر رؤية الله تعالى يوم القيامة فأحضره الواثق وقال له : ماتقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال : أفمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أفترى ربك يوم القيامة ؟ قال : كذا جاءت الرواية ، فقال : ويحك ! يرى كما يرى المحدود المتجسم ، يحويه مكان ، ويحصره الناظر ! أنا أكفر برب هذه صفته ، ماتقولون فيه ؟ فقال عبد الرحمن بن إسحق — وكان قاضيا على الجانب الغربى ببغداد فعزل — هو حلال الدم ، وقال جماعة من الفقهاء كما قال ، فأظهر ابن أبى دواد أنه كاره لقتله . فقال للواثق : ياأمير المؤمنين ، شيخ مختل ، لعل به عاهة أو تغير عقل ، يؤخر أمره ، فقال الواثق : ماأراه إلا مؤديا لـكفره ، ودعا الواثق بالصمصامة ، وقال : إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معى ، فإنى أحتسب خطاى إلى هـذا الـكافر الذى يعبد ربا لا نعبده ، ولا نعرفه بالصفة التى وصفه بها ، ثم أمر بالنطع فأجلس عليه وهو مقيد ، وأمر بشد رأسه بحبل ، وأمرهم أن يمدوه ، ومشى إليه حتى ضرب عنقه ، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد ، فنصب فى الجانب الشرقى أياما ، وفى الجانب الغربى أياما ، وتتبع رؤساء أصحابه فوضعوا فى الحبوس ، ولم يزل رأسه منصوبا ببغداد ، وجسده بسر من رأى ست سنين إلى أن حط وجمع بين رأسه وبدنه — انظر الفرق بين الفرق ص١٥٩ ، وتاريخ بغداد ج ٥ ص ١٧٣ — ١٨٠ ، وحياة الحيوان الـكبرى للدميرى ١ : ١١٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٦٣ .

٣٤٣ – كتاب منصور بن محمد إلى المريسى

وكتب المَريسى(١) إلى أبى يحيى منصور بن محمد، اكتُبْ: القرآنُ خالق أو مخلوق؟ فكتب إليه:

« عافانا اللهُ وإياك من كل فتْنةٍ، وجَعَلنا وإياك من أهل السُّنَّة، وممن لا يَرْغَبُ بنفسه عن الجماعة، فإنه إن يفعل فأعظِمْ بها مِنَّةً، وإن لا يفعل فهى الهَلَكةُ، ونحن نقول:

إن الكلام فى القرآن بِدْعَة، يتكلف المُجِيبُ ما ليس عليه، ويتعاطَى السائلُ ما ليس له، وما نعلَم خالقاً إلا الله، وما سوى الله فمخلوقٌ، والقرآن كلامُ الله، فانْتَهِ بنفسك إلى أسمائه التى سَمَّاهُ الله بها، فتكونَ من المهتدين، ولا تَسِمِ القرآن باسْمٍ من عندك، فتكونَ من الضالِّين، جعَلنا الله وإياك من الذين يخشَوْنَ ربَّهم بالغَيْبِ، وهم من السَّاعَةِ مُشْفِقُون ».

(العقد الفريد ١ : ٢٦٧)

٣٤٤ – كتاب راشد الكاتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات

وحَجّ محمد بن عبد الملك الزيات(٢) فى آخر أيام المأمون، فلما قَدِم كتب إليه راشد الكاتب:

---

(١) هو بشر بن غيات المريسى، وقد تقدم لك ذكره، وتوفى سنة ٢١٨ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٩١.

(٢) وزر للمعتصم والواثق والمتوكل، وتوفى سنة ٢٣٣ هـ — انظر ترجمته فى الأغانى ٢٠ : ٤٦

« لا تَنْسَ عهدى ولا مودَّتِيَهْ وأَشْتَقْ إلى طَلْعَتى ورُؤْيَتِيهْ
فإن تجاوزْتَ ما أقولُ إلى الـــ ـمَصْبِ فذاكَ المأمولُ منك لِيَهْ[1] »
(الأغانى ٢٠ : ٥١)

٣٤٥ — رد ابن الزيات عليه

فأجابه محمد بن عبد الملك :

إنك مِنّى بحيثُ يطْرِدُ النـــاظِرُ من تحت ماء دَمْعَتِيَهْ
ولا ، وَمَنْ زادنى تودُّدُهُ على صِحابى بفَضْل غَيْبَتِيَهْ[2]
ما أحْسَنَ التَّرْكَ والخِلافَ لِمَا تُريدُ منى وما تقولُ لِيَهْ
يا بِأبى أنت ، ما نَسِيتُك فى يوم دُعائى ولا هديَّتِيَهْ
ناجيتُ بالذِّكرِ والدعاء لك اللــــه لكَ اللّهُ رافِعاً يديَهْ
حتى إذا ما ظننتُ بالمَلِكِ الــــقادرِ أنْ قد أجاب دعوتِيه
قمتُ إلى موضِعِ النِّعالِ ، وقد أقمتُ عشرين صاحباً مَعِيَهْ
وقلت : لى صاحِبٌ أُريدُ له نَعْلا ، ولو من جُلود راحَتِيَهْ
فانقطع القولُ عند واحدةٍ قال الذى اختارها : بِشارتِيَهْ
فقلت: عندى لك البشارةُ والشــــكرُ وقُلٌّ فى جَنْبِ حاجتِيَهْ[3]

ووفيات الأعيان ٢ : ٥٤ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢ : ٣٤٢ ، والفخرى ص٢١٣ ، والفهرست لابن النديم ص ١٧٧ ، وتاريخ الطبرى ١١ : ٢٧ ، وغرر الخصائص الواضحة ١٤٣ و ص ٤١١ .

(١) العصب : ضرب من برود اليمن .

(٢) الواو فى « ومن » للقسم .

(٣) القل : القليل .

ثم تخيَّرتُ بعد ذاك من الـــمَصْب اليمانى بفَضْلِ خِبْرَتِيَهْ
مَوْشِـيَّةً ، لم أزَل يبائِعها أُرْغِبُ حتى زها علىَّ بِيَهْ[١]
يرفَعُ فى سَـوْمه وأُرْغِبُه حتى التَّقى زَهْوُه ورغبتيه[٢]
وقد أتاك الذى أَمَرْتَ به فاعذِرْ بكُثْرِ الإنعام قُنْيَتيهْ[٣]

(الأغانى ٢٠ : ٥١)

٣٤٦ — كتاب المأمون إلى عماله

وفى سنة ٢١٨ هـ نَفَذَت كتب المأمون إلى عُمّاله فى البلدان :

« من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين ، وأخيه الخليفة من بعده أبى إسحٰق[٤] ابن أمير المؤمنين الرشيد » .

فورد كتاب إلى إسحٰق بن يحيى بن مُعاذ عامله على جُند دمشق عنوانه:

« من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين ، والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبى إسحٰق ابن أمير المؤمنين الرشيد .

أما بعدُ فإن أمير المؤمنين أَمَر بالكتاب إليك فى التقدُّم إلى عُمَّالك : فى حُسْن السِّيرة ، وتخفيف المُؤْنة ، وكفِّ الأذى عن أهل عَمَلك ، فتقدَّمْ إلى عمالك فى ذلك أَشَدَّ التقدِمَة ، واكتب إلى عُمَّال الخَراج بمثل ذلك » .

وكتب إلى جميع عماله فى أجناد الشـــأم ، جند حِمْص والأُرْدُنّ وفِلَسْطين بمثل ذلك . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٩٣)

---

(١) وشى الثوب كوشى : نمنمه ونقشه وحسنه ، والزهو : الكبر والتيه .
(٢) فى الأصل « زهده » وهو تحريف . (٣) القنية بالكسر والضم : ما اكتسب .
(٤) هو الملقب بالمعتصم .

استدراك

سقطت الرسالة التالية من ص ٢ فهاكها :

كتاب المنصور إلى ابن هبيرة

وروى أن يزيد بن عمر بن هُبَيرة أرسل إلى المنصور وهو محصور بواسط والمنصور بإزائه : إنى خارج يوم كذا وكذا وداعيك إلى المبارزة فقد بلغنى تجبينُك إياى ، فكتب إليه :

« يابن هبيرة ، إنك أمرؤ متعدّ طَوْرَك ، جارٍ فى عِنان غَيِّك ، يَعِدُك اللهُ ما هو مصدِّقُه ، ويمنِّيك الشيطانُ ما هو مكذِّبُه ، ويقرِّب ما الله مباعِدُه ، فرُوَيْدًا يُتمّ الكتابُ أَجَلَه ، وقد ضربتُ مَثَلى ومثلَك : بلغنى أن أسدا لِقَىَ خِنزيراً ، فقال له الخنزير : قاتِلْنى ، فقال الأسد : إنما أنت خنزير ، ولستَ لى بكفء ولا نظير ، ومتى فعلتُ الذى دعوتَنى إليه فقتلتك قيل لى : قتلتَ خنزيراً ، فلم أعتقِدْ[1] بذلك فخراً ولا ذكرا ، وإن نالنى منك شيء كان سُبَّةً علىّ ، فقال : إن أنت لم تفعل رَجَعتُ إلى السباع فأعلمتها أنك نَكِلْتَ[2] عنى ، وَجَبُنتَ عن قتالى ، فقال الأسد : احتمالُ عارِ كذبك أيسَرُ علىّ من لَطْخ شاربى بدمك » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣٠٣ والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢)

---

(١) من اعتقد ضيعة ومالا : أى اقتناها . (٢) أى جبنت .

تم الجزء الثالث بحمد الله وتوفيقه

ويليـــه الجزء الرابع

ويحتوى على رسائل العباسيين من خلافة المعتصم إلى آخر العصر العباسى الأول